

تاريخ الحضارات العام

القرنان السادس عشر والسابع عشر

تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

اندريه ايمار — أستاذ في السربون
جانين اوبوايه — أمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إداور بروي — أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون
و
أرنست لابروس — أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف
موريس كروزيه
مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

المجلد الرابع

التحوّل الفِكري العَظيم الذي طرأ عَلى البشريّة

طلوع الحَركة العلمية الحديثة

سيطرة أوروبا

تاريخ الحضارات العام

القرنان السادس عشر والسابع عشر

تأليف

رولان موسنييه
أستاذ في السوربون

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر   فريد م. داغر

عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان

ISBN 9953 - 28 - 047 - 9

الطبعة 2006

مـــدخل

لو قيض لأحدنا أن يلقي من الكوكب سيريوس الذي يفوق الشمس سطوعاً وتلألاً ، نظرة عابرة على سطح كرتنا الأرضية في اواخر القرن الخامس عشر ، لأخذته الحيرة واضطرب لبه لما رأى من شتات الجماعات المتمدينة ولما رسفت فيه من عزلة وانقطاع .

هنالك حضارات لم تشعر قط بوجود غيرها مما قام من امثالها . فالمجتمعات الاميركية التي قام معظمها الى الساحل المطل على المحيط الهادي ، كانت لعمري مجتمعات لم يعرف عنها العالم القديم شيئاً قط ، هذا العالم الذي تألفت اقسامه من اوروبا وآسيا وافريقيا . ولم تتصل بأي من هذه الجماعات عن اخواتها سوى معلومات متقطعة ، غامضة لا تشفي غليلاً ، وهذه الحضارات المتباينة عاشت لذاتها ، ربطت بينها ، فيما لو تم لها شيء من ذلك علاقات سطحية ، فلا تعرف الواحدة عن الاخرى ، اذا مـــا عرفت ، شيئاً يذكر او كبير أمر . وقد كتب لاوروبا ان توحد بين اعضاء الاسرة البشرية بعد ان تم لها ما تم من منهجية آسرة ومعلومات موسوعية في الصميم .

فقد تكشفت اوروبا في اواخر القرن الخامس عشر عن تفوق تقني بارز في نواح عديدة من مراكز القيادة ، وتسامت عالياً لتطل من عل على اطراف كرتنا الارضية ، حتى على الصين في الشرق الاقصى ، وعلى هذا القسم من آسيا المعرّض للأمطـــار الموسمية . فقد تم للاوروبيين في اواخر القرن الخامس عشر زخم تقني عــــارم ارتسمت تباشيره منذ القرن العاشر وتبلورت كشوفاً مثيرة وتطبيقاً لذرائع ووسائل عرفتها اوروبا من قبل . فقد انتشرت في القرن الخامس عشر المطاحن المائية وطريقة جديدة لكدن الحصان في رقبته ، والثور بعـــد ان استعيض عن قرونه بالنير وشهد الانسان في القرن الثالث عشر والاجيال اللاحقة ضغطاً متزايداً من جراء نماء الناس وتزايدهم ، بعد ان ارتفع عددهم الى اربعة اضعاف مـــا كانوا عليه في السنة الألف ، كذلك تم اختراع رئيسي في فن تسيير السفن وذلك باعتماد الدفة المحورية العالقة بمفصلة ركزت في الدعامة الطولانية الوسطى للسفينة ، وانتشر استعمال الابرة المغنطيسية بعد ان اخذوها من الصين ، وعولوا ، اكثر فاكثر ، منـــذ اواخر القرن الثالث عشر ، على نظام السفتجة اساساً

والاعتماد المالي ، هذا النظام الذي اخذت به ايطاليا أول من اخذت وجرت على اعتماده اساساً في معاملاتها : حواضر البلاد الكبرى وعواصمها الاقتصادية كجنوى وفلورنسا والبندقية مما امن تعميم هذا النهج ونشره في شبه الجزيرة الايبيرية وفرنسا وانكلترا والمانيا الجنوبية والمانيا الرينانية . فكان من بعض نتائجه ان ادى الى تحسين نظام التبادل الدولي في حقـــل التجارة وتكوين نظام رأسمالي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسفتجة وارتكز عليهـــا . وفي اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر اطلت علينـــا في هذه الحقبة نهضة صناعية اخذت تتطور وئيداً في إيطاليا الشمالية والمانيا الرينانية ومقاطعة الفلاندر اعتمدت اساساً في عداد ما اعتمدت اليه وعولت عليه من ذرائـــع تقنية ، المنافخ المائية في الافران الصناعية ، وذراع الدافعة في مقبض المحرك الآلي والتوصل ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، الى بنـاء سفينة تصلح للأسفار والرحلات البحرية الطويلة عبر المحيطات هي الكرافيل ، والتعويل ، اكثر فاكثر ، على الاسطرلاب ، المعروف الاستعمال من قبـــل ، وعلى ربع محيط الدائرة والعمليات الحسابية التي تساعد على تحديد ارتفاع الشمس عند الهاجرة للوصول الى تحديد نقطة العرض ، وغير ذلك من التحسينات الآلية التي ادخلت تباعاً على المحراث والتقنية التي اعتمد عليها اكثر فاكثر في تصنيع الريف والصناعة اليدوية.

وقد تفرد الاوروبيون دون سواهم بالقدرة على عبور المحيطات واجتيازها في اواخر القرن الخامس عشر فانشأوا لهم خارج اوروبا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، مناطق حضـــارية خاصة بهم وحضارة اوقيانية لم تلبث ان أصبحت نقطة تلاقي وتصادم وتفاعـل وانفعال ، بين عوامل ومؤثرات حضارية جاءت من اوروبا واميركا وافريقيا وآسيا. وكان من اتساع هذا اللقاء وضخامة تفاعلاته ان أطاح بالمدنيات الاميركية ، وادخل تغييرات جذرية عـــلى الحضارات الافريقية ، وعاد بالرفاه والغنى على الحضارة الاوروبية وزادها يقظة ووعياً كما ادى ، من جهة اخرى ، الى بعث النشاط في الحضارات الآسيوية ، اقـــله في بعض مظاهرها المادية . وهكذا اصبح في الوسع ان نتكلم ، عن « العوالم » التي اقامها الانسان وعن هذه المجالات الاقتصادية والمراكز الحضارية التي كونت ، الى حد ما ، « عوالم » اعجز مـــن ان تستوعب العالم ، « عالم » البحر المتوسط ، و « عالم » الصين . فمنذ الآن ، ومع انه لا يزال يوجـد في العالم ، مناطق منعزلة كجزر المحيط الهادي والمناطق القطبية ، والاصقاع الواقعـــة في قلب افريقيا ، فقد قام الى جانب العالم الاسباني الذي جعل من المحيط الاطلسي محوراً له فضم شطراً كبيراً من اميركا واشتمل ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، عبر المحيط الهـــادي ، ارخبيل الفيلبين ، ليبلغ مشارف اليابان والصين وماليزيا ، ثم قام العـــالم البرتغالي الذي اتخـذ محوراً له افريقيا والهند ، وتحكم بمداخل بحر الهند ومخارجه ، وسيطر عـــلى جزر الافاويه والطيب . وهكذا اصبح في مقدورنا ان نعتبر العالم الارضي ، واقعاً إنسانياً متميزاً ، وان

تاريخ اوروبا وتاريخ الكرة الارضيـــة كلها مرتبطان إلى حد بعيد الواحد بمصير الآخر .

وستلعب اوروبا في العالم كله الدور الذي تلعبه كل كمية سببية متفاعلة . ففي قلبها وقـــع الحادث الفصل في تاريخ الاجيال الطالعة ، الا وهو نشأة العلم الحديث ، علم اوروبا بالذات ، عند ما تم لغاليليو ، عام ١٦٠٤ ، اكتشاف قاموس الجاذبية ، اول قانون الحركة ، باب العلم الحديث ومحرابه ، كما وضع ، في الوقت ذاته ، اسس الفيزياء الرياضي ومبـــادءه الاساسية . وبذلك اثبت ان افلاطون كان على حق عندما راح يؤكد ، بعكس ارسطو ، ان الواقع المتحيز في الزمان والمكان يخضع للرياضيات ومقاييسها ، وان تحت الظواهر الحسيه يكمن نظام خفي يخضع للفكر الرياضي ، وان كل شيء ينكشف عن معادلات هندسية وعن حركات في غائية الانضباط والدقة ، وان كل شيء هو موضوع قابل للقياس والعد والوزن ، وبذلك تم للانسان السيطرة على الطبيعة والتحكم بها الى ما لا حد له . ان هذا التحول يطرأ على الذهن البشري ، والانتقال الذي مكن له بصورة قطعيـة من فيزياء المذاهبيـــة الى الفيزياء الرياضية والانتقال من الذهنية النوعية الى الذهنية الكمية ، ومن التقريبي ، الى الدقـــة والتام، كل هذا ومـــا اليه يكوّن في تاريخ الانسانية ، حدثاً له من الوقع الداوي والتأثير العميق ما يوازي او يعادل تغييراً في الجنس أو تحولاً جذرياً في الذهن . فنحن امام اعظم تحول فكري عرفته الانسانية عبر تاريخها المديد . فكل شيء تغير واصبح غير ما هو ، فيما بعد . فمن هـــذا التحول خرج مروراً بمؤسسي الميكانيكا وروادها الكبار امثال : ديـكارت ونيوتن وفلاسفة عصر الانوار كأوغست كونت وداروين وكارل ماركس وكوري وانشتاين العالم الحديث، عالمنا هذا المعاصر الذي نعيش ، بعد ان تهيأت اسباب هذه الثورة الجذرية الكبرى التي خبرها القرن السابع عشر منـذ عهد بعيد بعد ان ارتدت مظاهر شتى ومرت بمراحل عديدة . فأ ثار هـــذه الذهنية الكمية والاهتمام بالتمييز جيداً بين ما هو للمادة وبين ما هو للروح ، والرفض بعناد ، ان نضفي على المادة ، ماليس من صفاتها ولا من خصائصها، والرفض باعتباره واقعياً ما يناقض المحسوسات المرقمة التي يمكن تطبيقها على المادة الخاضعة للوزن والقياس والكيل ، كل هذا وما اليه مما نصت عليه مخلفات القرن السادس عشر الفكرية فكان اساساً لهذ الجدل العنيف الذي أثارته هـــذه الاهاجي البروتستانتية التي قذفوا بها العقائد الكاثوليكية التي تعلم الوجود الحسي لجسد السيد المسيح تحت اعراض الخبز والخمر بعد استحالتهما، هذه الاهاجي التي هيأت ومهدت السبيل امام الفلسفة الديكارتية . ومع هذا ، قد تكون الجذور ابعد من ذلك بكثير . هل يجوز ان نرد التحول الفكري الى هـــذا الازدهار الذي عرفته التقنية التي تفترض ، لتعمل ذهناً ايجابيـــاً وعقلانياً خاضعاً لمبدأ السببية الذاتية، هذه التقنية التي قامت على نظام الاعتماد المالي والسفتجة، هذا النظام الذي كان يفترض دوماً العد والحساب وتحويل كل شيء الى معـــادلات حسابية ، باستثناء تلك الذرائع التقنية التي تتعلق بالبناء والصناعة مما لا بد منه لتأمين نجاح اعمالهـا على اساس من الاعمال الحسابية والهندسية ؟ ايه لعمري ، الى حد ما ، أقله كعامل إثارة وإغراء الفضول العقلي . وها هو غاليليو نفسه يدعونا الى ذلك ، في مباحثه التي ظهرت عـام ١٦٣٨ ،

اذ نراه يؤكد لنا بانه 'دفع دفعاً الى طرق هذه الموضوعات ودرسها بعـــد الذي طالمه ووقعت عليه نواظره في ترسانة البندقية ، وما شاهده فيها من الآلات والاجهزة الرافعة التي تحير الالباب والتي حاول ان ينفذ منها الى مكنونات اسرارها حتى والى ابعد من هذا ، الى ماجريات هذه الخصومة الابدية التي قامت بين اتباع الواقعية واتباع الفلسفة الاسميـــة والرجحان الوقتي الذي حققه الفلاسفة الاسميون ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع وليم اوكهام عندما استقر في خلدهم ان المعـاني العامة المجردة ليست سوى اسماء لأشياء خاصة . فلا يوجد في الحقيقـــة سوى الأشياء المفردة . اما المفاهيم العامة فلا وجود لها الا في الفكر بعد ان تتخذ صورها من المحسوسات والمشاعر. وهذا انما يعني ان المفاهيم العامة إنما هي اسماء او مسميات لا اكثر ولا أقل . فمعلوماتنا ، والحالة هـذه ، انما هي معلومات نسبية وان كل ما نستطيع ان نفهمه حق الفهم هو المظاهر الحسية عن طريق التجربة والاختبار. ومن هذا النقاش ، طلعت علينا مدرسة باريس بهذه الآثار الرياضية والفيزيائية الرائعة ، هـــذه الآثار التي نحن مدينون كثيراً لواضعيها امثال جان بوريدان والبرت ده ساكس ونيقولا أوريسم الذي كاد يقع على القانون الذي وضعـه غاليليو ، هذه المدرسة التي كانت آثارها منطلقاً للابحاث التي قام بها هذا العالم وبفضلهم جميعاً استطاع القرن السابع عشر الذي يؤلف نقطة انطلاق جديدة في التاريخ العام وعطفة حاسمة من عطفاته التاريخية ، ان يطلع على البشرية بعصر جديد وحياة جديدة .

وهذه الفردية التي ميزت اوروبا جاءت في آن واحد نتيجة لهذه الاكتشافات ولهذا التحول الذي عرفه الذهن البشري . فقد جاءت شرطاً لها ونتيجة ، واخذت تتطور وتنمو منذ ذلك الحين ، وسجلت قطيعة او تباعداً من قبل رجل او بضعة رجال ، لهذه الاعراف التي سار عليها الناس او لعادات ومراسم اعتمدوها او اعتمدها مجتمع قائم بذاتـــه ، وهذا الاستقلال الذاتي يحققه الفرد ، لم يلبث ان عم اوروبا باجمعها . صحيح ان الانسـان تمتع بحرية هي بكثير ، دون الحرية التي تمت لانسان القرن التاسع عشر . فهو لايزال مشدوداً الى وشائج الاسرة والروابط القبلية والمهنية والمجتمعية. ولكن ما عسى ان تكون هـذه الروابط اذا ما قيست بتلك القيود التي رسف فيها الانسـان ، في الهند ، مثلا ، في هذا النظام الطبقي الذي أرزح المجتمـع ، أو في الصين حيث يرى الانسان نفسه مشدوداً شداً الى روابط الاسرة والآباء او في اميركا حيث كان الفرد يرزح تحت ضاغوط الاعراف القبلية . وما عسى ان يكون امر هذه القيود المعيقة بازاء استحالة إدخال اي تغيير على هذه الاشكال الخانقة والمراسم الضيقة مما رسمه الجـدود او أقاموا له الحدود الذهنية ، اذا ما قارنا هذا كله بحرية القول والفكر التي ينعم بها اهل هذا العصر ؟ فاذا ما توفرت للبعض ظروف الإفلات او الهروب من حياة التجريد او التأمـل ، تحتم عليهم الانصهار مع المطلق والإعراض عن العـــالم الخارجي ومغرياته هذا العالم ذي المظاهر الخداعة الزائلة . وعلى عكس ذلك فالفردية الاوروبية ازدادت رسوخاً تحت تأثير عامـل المسيحية . فالثنائية، هذا المبدأ الاساسي الذي يطبع في الصميم الفكر المسيحي يضع ازاء الله اللامتناهي

السمو والكلي الكمال ، خليقته التي برأ وابدع ، لتبقى الى الابد ، متميزة عنه منفصلة تنعم في غبطة موصولة بمشاهدة كمالات الله . فهي روح امتازت بالفردية يتوجب خلاصها وتفادي ذهابها الى جهنم والدخول بها الى الفردوس ، حيث تنعم ، وجهاً لوجه بمشاهدة الله . فالمسيح بذل دمه وقاسى عذاب الصليب فداء لجميع البشر ولسان حاله يردد : « هذه النقطة من دمي بذلتها وجدت بها لاجلك » . فحياة الانسان على هذه الفانية هي حوار موصول بينه وبين الله ، وهي صراع مستمر بينه وبين أركون الظلام . فالحقبة القائمة تنضح بالدين والتقوى ، وفيها بلغت مراسم الإبتهال الى الله وعبادته ، والتعاون معه ، والخضوع لمشيئته ، والاتصال به ، تمامها الاكمل وكمالها الأتم ، مع العلم ان بعضهم استطاع تحقيق مثل هذا الاتصال بالذات الالهية وانصهروا فيها بعد ان تطهروا من ادران المادة وشوائبها . وهذه الحركة التي انبعثت من العلماء الروحانيين ، اصحاب « التقية الحديثة » في القرن الرابع عشر امثال : رويزبروك وطولر ، واخوة الحياة المشتركة والكهنة القانونين في وندشهايم ، جاءت تماماً ، وفاقاً لمراسم العبادة التي قال بها وعلم فريق من أولياء الله ، أمثال القديس اغناطيوس ده لوايولا والقديسة تريزيا دافيلا والقديس يوحنا ده لاكروا والقديس فرنسيس السالزي وبابيرول *Bérule* والرهبان السلبوسيين والمدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر . ففي مثل هذا المحيط من الزهاد الهجع والمتصوفة ، المشبع بطاقات الفرد الهادف الى نجوى ربه يعمل فريق مختار امثال : كبلر وديكارت . كبلر هذا الذي خيل اليه يوماً انه توصل بنعمة الله الى الكشف عن مقاصد الله في خلقه والاسباب الموجبة لعبادته عز وعلا ، في ما تبدى له من نواميس دوران الفلك ، وديكارت الذي اخذ على نفسه ان يرسي الدعائم الفلسفية التي تقوم عليها الحقائق الدينية ، ويخزي ، الى الابد ، الكفار والملاحدة والمعطلين . وفي مثل هذا الجو نفسه يندفع ، كالفارس المجاهد في حملة صليبية ، المناضل في سبيل ربه مرضاة لوجهه الكريم ، فاسكو ده غاما وفرناند كورتس . فقبل ان يقلع فاسكو بحراً في رحلة طويلة ، نراه يقضي ليله الطويل ضارعاً الى الله ، متوسلاً اليه في كنيسة السيدة ، في بلدة بيت لحم الواقعة على ضفاف نهر التاجه ، ومبتهلاً اليه تسديد خطاه . وكنتيجة للاعتقاد باله قيوم ، متميز كلياً عن هذا العالم الذي ابدعه من العدم ، وعلى ضوء علاقة النفس بربها وقد اناطت به كل املها ، والفارس المسيحي بسيده ، ومحاولة الفرد يهفو الى ربه ويتقرب منه بالصلاة والضراعة او الانخراط في تجريدة صليبية ، كل هذه الامور وما اليها ، نماذج واضحة من هذه الفردية الاوروبية التي راحت تتجلى في مظاهر شتى من طلب العلم والبحث عنه والابداع ، والتطور .

هكذا تولت اوروبا مهمة كتابة تاريخ العالم وقيادته . فحاول الاوروبيون نشر المسيحية وتمدين العالم وايلاءه طابعاً اوروبياً . فجاءت النتائج على غير استواء . فاذا ما ضربنا صفحاً عن القارة السوداء حيث بقيت محاولاتهم ضيقة الحدود ، محدودة الاثر واستعملوها كمعين لهم لا ينضب لمدهم بما يحتاجون اليه من الارقاء لاستثماراتهم الطائلة في اميركا ، فقد حققوا بعض النجاح في هذه المناطق الاميركية حيث قامت جماعات متحضرة تعاطى اقوامها الزراعة في

الادوار النحاسية والبرونزية انتظموا خلالها دولاً وحكومات نأت عن الحضارة الاوروبية لتكون بنأى من سيطرتها وتفوقها ، قريبة منها بالقدر اللازم، مع ذلك ، لتقبس منها ما ترغب في اقتباسه . اما المناطق التي وجد فيها الاوروبيون انفسهم وجهاً لوجه مع قبائل يتعاطى اقوامها جني الاثمار ويحترفون الصيد والقنص والفلاحة البدائية فقد شهدت من مآسي المذابح والاستباحات وصنوف الابتزاز ما فتّ في عضد تلك السيادات المحلية . اما في آسيا وافريقيا حيث وجد الاوروبيون حضارات تعود للعصر الحديدي ، تختلف كلياً عن الحضارة التي تمت لهم كالحضارة الاسلامية وغيرها من حضارات الهند والصين مثلاً ، عرفت نُظُم الملكية واقامت نوعاً من البنيان الاجتماعي ونظرت الى الكون بمنظار يختلف عما تم لأوروبا منه ، او كانت على مستوى حضاري لم تشعر معه بتفوق الاوروبيين الظاهر ، فقد جاء انتشار المسيحية فيها وتغلغل الحضارة الاوروبية بين ارجائها ، سطحياً. فلم تُدخل هذه الحضارات تغييراً جذرياً على اوضاعها القائمة. فآسيا الموسمية التي كان الفرد فيها يشعر على الخصوص ، بوطأة الطبيعة المرزحة ، ويئن من جشع بعض المجتمعات البشرية البغيض ، ويصطدم بمذاهب فكرية ونظريات فلسفية دينية لا يهمها الا المطلق ، وتستنكف بازدراء وأنفة عن درس العالم الخارجي الذي لم يكن في نظرها سوى انسراب لا نهاية له ولا حد لمظاهر غرّارة متغيرة دوماً ، فكان اخذها باسباب التطور والتحول ، دون ما كان عليه في اوروبا بكثير . وقد برهن الآسيويون عن ان القدرة على التطور والاستعداد للأخذ باسبابه ومسبباته لم تكن لتنقصهم قط . فقد ارتفع بعضهم وسما فريق منهم الى افكار ونظريات ، سجل الوصول اليها تحرراً للفرد كما تم لطبقة السيخ في الهند بعد ان تبينوا وادركوا ان محبة الله بالروح والحق المتجلية باعمال البر والتقى ، تحرر من النظام الطبقي والفرائض المرزحة التي وجد الانسان نفسه يرسف فيها . فالصيني وانغ – يانغ – منغ رأى ان كل انسان عالماً كان ام جاهلاً ، ثرياً كان او فقيراً ، ذكياً او متبلد الذهن ، يملك في ذاته ، وتكتنه سريرته ، مبدأ الخير والشر ومبدأ التكمل النفسي ، وفيه القدرة على ابداء رأيه في قيمة الاعمال التي يترتب على المرء القيام بها ، وهكذا يجد نفسه في النهاية متحرراً من التقاليد والاعراف العائلية ، ومن تعاليم قدامى الكتاب ووصاياهم ، ومن ضواغط العادات المستبدة ، كذلك هؤلاء اليابانيون من اتباع بوذية "زن" فهم يتوقعون كل شيء من التفكير الشخصي في العالم وفي المجتمع ، بعد ان ينطلقوا من ترهات هذه الدنيا وامورها ليصلوا بانفسهم الى معرفة المطلق ، مدرسة الاستقلال والفردية . كل هذه المظاهر ، مهما كانت إفرادية ومحدودة تثبت بوضوح وجلاء بالرغم من كل الفوارق التي تبقى مع ذلك ثانوية ، هذه الفوارق التي تقوم على العرف والمناخ وحدثان التاريخ ومجرياته ، وحدة الجنس البشري. غير ان آسيا باعراضها الموقت عن المسيحية ورفضها كشحاً عن المدنية الغربية وعما يكتنانه في واقعها المتحيز من شمول وقيم صالحة ابداً للناس اجمع ، في كل زمان ومكان ، تكون قد تخلت لاوروبا عن مهمة قيادة البشرية كما تكون تخلت لها ايضاً ، عن الطاقة الهائلة الكامنة في هذه التقنيات ، وفتحت امامها على مصراعيها ، ابواب السيطرة والسؤدد على العالم ، والتحكم بالتالي ، بمقدراته ومصائره .

القسم الأول

أوروبا الجديدة

الكتاب الأول

القرن السادس عشر
(١٤٩٢ - ١٥٩٨)

المؤسسات الجديدة

الفصل الأول

المباني الفكرية الجديدة

النهضة الكبرى

مشكلة النهضة وعقدتها

تتناول هذه الحقبة ، وفقاً لتقليد متعارف مكرور ، منذ عهد بعيد ، هذه الفترة الزمنية الواقعة بين العقد ١٤٩٠/١٥٠٠ والعقد ١٥٥٠ /١٥٦٠ التي بلغت فيها النهضة الفكرية الاوجَ من الازدهار ، والذُرْوَةَ من الانتشار . ولا يتمالك المؤرخ اليوم ، عن الشعور بشيء من الوَجل والقلق عندما يدعى للتحدث عن « النهضة » . فمنذ خمسة قرون ، حمّل المؤرخون هذه اللفظة مدلولاً عنى عالماً من الوقائع وبحراً من الافكار والمذاهب ، وقع عليها اختيارهم . ليس لانها فرضت ذاتها عليهم فرضاً ، بل لانه كان لهذه الوقائع وما اليها من حدثان وماجريات ، ولهذه الافكار والمذاهب حد القدرة على تركيز نظريات فلسفية ارتضاها الناس وعلقت بها خواطرهم . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يقوم حول مفهوم النهضة عقدة ، وان ترتفع بصددها مشكلة لم تلبث ان استحالت الى شيء هو اقرب الى الفوضى .

يتبنى المؤرخون اليوم صورة لعصر النهضة والانبعاث رسم خطوطها الكبرى المؤرخ الفرنسي ميشليه ، سنة ١٨٥٥ وبوركهاردت السويسري سنة ١٨٦٩ . فقد جعل هذا وذاك عصر النهضة ، حقبة من حقب التاريخ البشري لها خصائصها المميزة ، انطلقت عند ميشليه الذي كان يضع نصب عينيه تاريخ فرنسا ، من عهد الملك فرنسيس الاول ، بينما رأى بوركهاردت الذي اتخذ من إيطاليا قاعدة لحكمه ان النهضة امتدت سحابتها ، في نظره ، من سنة ١٢٥٠ الى ١٥٥٠ تقريباً . وباستثناء هذا الفارق الزمني لم يختلف المؤرخان المذكوران كثيراً في الرأي عندما راحا يحددان الخصائص المميزة لهذا العصر بالذات . فالعصر يختلف في نظرهما ، اختلافاً كلياً عن عصور الاجيال الوسطى ، اذ كان يحتضن ، ولو بصورة كامنة ، الخصائص التي تفرد

العالم الحديث وتميزه . ففي نظر بوركهارت الذي بدا اكثر منهجية من زميله الفرنسي ، ان هذا العصر جاء حصيلة الوضع الفكري الذي كان عليه الشعب الايطالي بعد ان استفاق ووعى ذاته» فهو اذاً ، عصر النهضة الذي جاء حصيلة تبدل جذري في الذهنية ومناحي التفكير . فقد تميزت النهضة بطابع الطغيان ، سمة الدولة اذ ذاك ، هذه الدولة التي قامت، كما تقتضي الشكليات على القوة ، بجلي الفرد وبجلي استعلائه ، وبجلي فردية الانسان ، هذا الفرد الواحد ، ومن ثم استفحال مذهب الفردية التي تقوم على شهوة المجد والتطلع الى العظمة . اما المثالية الجديدة التي أطلت على العصر فتحقيقها موقوف على تحييز هذه المعطيات من الحقائق الوضعية التي تجمعت خلال الاجيال القديمة او التاريخ القديم والتي بواسطتها فقط يستطاع الوصول الى ما هو قائم حقاً الى العالم الخارجي والى الانسان ، هذه المعطيات المفترى عليها والمزدراة من قبل كتاب الاجيال الوسطى ، هذه الاجيال التي غامت بين النصوص والآيات المقدسة ، وبين ألغاز المصطلحات ومعمياتها . ومن هذا العصر أطلت علينا الرغبة في العلم واحترام الشخصية البشرية والإقبال على درس ما يميز الفرد . وهذه النظرة الجديدة الى العالم اخذت تعمل عملها في تكوين المجتمع .

فالذي يرفع من قيمة الانسان ويجعل له شأناً ، ويقيم له وزناً بعد نبوغه وقوة الابداع فيه ، وما يتحلى به من ثقافة وما حققه له من يُسر وغنى : نشاطه الخلاق ، وليس كرم الاصل الموروث وشرف المحتد وامجاد الحروب . فالطبقة المسيطرة نصفها من النبلاء والنصف الثاني من البورجوازية ، كما ان طبقة الاشراف هي التي تتألف من كبار رجال المال والاعمال ، اما هذا النمط من الحياة الذي يحياه هؤلاء الاشراف الذين يحترفون مهنة الحرب والخدمة العسكرية فهو مضغة في الالسن وموضوع ازدراء الجميع . والطبقة المتحكمة التي تملي على الطبقات الدنيا ، الصورة التي ترسمها عن العالم وتلقنها سر اذواقها في الثقافة والفنون واخلاقيتها في التصرف والسلوك المتحرر . اذ ان الفرد هو ولي امره يسن لنفسه ما يلائم مزاجه ويغذي فيه التشككية الدينية ، اذ كثيراً ما يجعل المرء عملياً من نفسه محور العالم ، ويقف ، بوصفه واحداً من هؤلاء الآلهة الصغار ، موقفاً معادياً لرجال الدين ويصبح ملحداً . هذه الذهنية الايطالية لم تلبث ان سيطرت هي نفسها على اوروبا وانتشرت في جميع ارجائها .

يبدو هذا الوصف صحيحاً واقعياً في القسم الاكبر منه باستثناء ما جاء منه خاصاً بالدين . فالامور النظرية هي وحدها موضوع تحفظ وجدل . ولذا راح مؤرخون محدثون يؤكدون اليوم ان عصر الانبعاث هذا لم يكن ليتعارض في الصميم مع الاجيال الوسطى ، اذ ان الخصائص المميزة التي تطبعه هي ، بالفعل ، من بعض مخلفات الاجيال الوسطى بالذات ، وانه اذا كان لا مندوحة من الاعتراف بقيام عصر « نهضة » فالقول يصح لجهة القرن الثاني عشر ، في هذا الجزء بالذات الواقع الى ما وراء جبال الألب ، ولاسيما في فرنسا محور الدائرة وقطب الحضارة

الاوروبية . ولكن ، ماذا من الفردية ، ومن هذا الاهتمام البـالغ بالروابط التي تنتظم القوة والخيرات المادية وشهوة الفنى والبذخ ؟ كل هذه تغمر اوروبا وتعشش في كل زاوية منهـا ، منذ نهاية الحروب الصليبية وحركة الحرية البلدية حتى ان الراهبـة هيلويز معشوقة ابيلار الاسبق ، البائسة ، التي تعيش كال الفضيلة الايطالية كما تمثلتها هي ، يمكن اعتبارها من شخصيات عصر النهضة ولو عاشت في القرن الثاني عشر . وماذا من التاريخ القـديم اليوناني واللاتيني ؟ ولكن معرفة فرنسا لمكونات هذا التاريخ ولمقوماته لم تكن لتقل قط عن معرفة ايطاليا لها . فلقد كان لهذا التاريخ ، في فرنسا ، من رفعة الشأن والاكبار ما تم لايطاليا منه في القرن السادس عشر . فالمدارس الفرنسية التي قامت الى جانب كاتدرائيات باريس وريمس ، وشارتر واورليان ، كانت ، في القرن الثاني عشر ، منائر عالية للثقافة العامة ، كما ان مـدرسة شارتر كانت المحور الرئيسي للدراسات اللاتينية في اوروبا جمعاء . وممثلو الادب الكلاسيكي من شعراء وخطباء ومؤرخين ، أحيطوا فيها بكل مظاهر الاكبار والتقدير اذ نظر اليهم الناس نظرتهم الى جبابرة الفكر في التاريخ القديم لا بد من دراستهم دراسة تدبر ، لكل من تشرئب نفسه الى الرفعة والتجلي في حياة متجددة مشرقة . فالفرنسيون مطلعون كل الاطـلاع ، على الآثار الفكرية والمخلفات الادبية التي عرفها فيما بعد ، عصر النهضة في ايطاليا . فاعلام الكتّاب من فرجيل الى أوفيد ، الى شيشرون ، الى كونتليانوس ، الى سنيكا فبليني القديم ،وغيرهم كثيرون ، هم موضوع عبادة الجميع يحيطونهم بكل اكرام واجلال . فاللاتينية فيها ولا أصفى ولا انقى ، كما سيصبح امرها في ايطاليا ، خـلال القرن السادس عشر ، والآداب الشعبية والرومانسية في هذه المنطقة انبثقت كلها عن اللاتينية . فالاهتمام بمحاورات افلاطون ومباحث ارسطو ، على اشده ، وقد ترجمت هذه الآثار من اليونانية الى اللاتينية ترجمة دقيقة ، امينة ، بحيث لم يبق لعلماء النهضة في ايطاليا من مهمة سوى تجديد او تصويب بعض التراكيب فيها . وليس بغريب ، البتة ان تطالعك ، حتى في مثل هذا الوقت ، بعض الافكار « العصرية » ، كفكرة الطبيعة الخيرة المعطاء والفلسفة الطبيعية التي تؤكد ذاتية الطبيعة والعقل المنفصل . فالكل متمل من الاقتناع بان الطبيعة هي عمل الله على الارض ومجلى ارادته ، جميلة ، عظيمة ، خيّرة في ذاتها ، افسدتها الخطيئة الاصلية ، ومع ذلك تبقى اداة للنعمة ومساعدة الخالق وخادمته المطواع في كل ما يؤول الى تجديد العالم . فنعمة الله رفيقة بالطبيعة ، بارة بها ، كما ان الطبيعة هي الاخرى رفيقة ، بارّة بالنعمة . ففي الاجيال الوسطى كما نرى ، مذهب فلسفي طبيعي جعل من الطبيعة محور اهتمامه اكثر بكثير مما تصوره بوركهاردت ، وبلغ اليه ظنه .

وبعكس ذلك تماماً هنالك مؤرخون يشددون على كل ما اقتبسته النهضة الايطاليـة من الاجيال الوسطى وعرفت ان تنقله الينا وتصونه سالماً . ففي الرياضيات نرى الايطاليين ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، يعوّلون كثيراً على جامعات باريس واكسفورد وتعاليمها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما نراهم مدينين كثيراً لهذا النابغة الباريسي العظيم

نيقولا أوريسم الذي تم له ان يكشف ، قبل ديكارت نفسه ، عن اصول الهندسة التحليلية ، كما انه توصل الكشف عن نظرية الاستمرار ونظريات : اللانهاية بالقوة واللانهاية بالفعل ، ونظرية المتسلسلة المتناهية الصغر ، ونظرية الأسس الكبرى والتغاير الوظائفي . وعن باريس صدرت دورة الشمس النهارية ونظرية تعدد العوالم ، وكلها نظريات علمية جرى بحثها والنظر فيها منذ القرن الثالث عشر . وها هو ليناردو ده فنشي ذاته ، يتملى ويتشبع من كتابات ومباحث كبار الفيزيائيين الذين علموا في جامعة باريس ، امثال البرت ده ساكس وتيمون اليهودي ، وجان بوريدان ، بعد ان طبعت هذه الآثار وأعيد طبعها مراراً في ايطاليا ، منذ منتصف القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . وعلى هذا قس باقي الامور .

بعد هذا ، ما عسى ان يبقى من صفة التفرد التي يقصرونها على عصر النهضة ويصفونه بها ؟ بالطبع تتبخر وتتطاير هباءً . فعصر النهضة ليس سوى مرحلة من مراحل هذا التيار الجارف المتمثل في الحضارة الاوروبية ، نبعث من « اجيال الوسطى » المؤرخين ، وبلغت أشدها في « عصورهم الحديثة » ، هذا التيار المتدافع باستمرار ، والمتواثب بلا انقطاع . فالمؤرخون امثال بوركهاردت راحوا فريسة الروح الوطنية الايطالية وفلسفتهم العرقية بعد ان ارمدّت عيونهم من تفوق « الغاليين » وسبقهم لهم ، فحزموا امرهم على تجاهل هذا التفوق وتناسي امره ، وضربوا صفحاً عن كل ما اقتبسوه منهم ، كارهين ان يعترفوا بأي فضل او قيمة ، الا ما لم يكن بد من الاعتراف به ، بعد ان عجزوا عن تجاهله واهماله ، ثم راحوا ينسبون لأنفسهم سبق التجلي وحق الصدارة والتقدم . فحركة النهضة عندهم انطلقت من بترارك ، في القرن الرابع عشر ، ومن نقطة الانطلاق هذه إستمد بوركهاردت الاسس الأولى لنظريته ، نظرية النهضة الشعبية الايطالية . فقد إزدرى بترارك الباريسيين . بل كل الفرنسيين ، ونظر اليهم نظره الى برابرة ، اجلاف . فالمتمدن في نظره ، هو من تكلم الايطالية باصفى صيغها وانقى قوالبها ، وهو من تجمل باللاتينية مصدر القيم وينبوع الفضائل كلها . ولكن هذه اللاتينية او بالاحرى الحضارة اللاتينية توارت من العالم وزالت عام ٥٢٤ مع بويثيوس ، وهو التاريخ الذي انتهى فيه العالم اللاتيني وبرز فيه عالم البرابرة. فالفرنسيون ، سلالة الغاليين وحفدتهم لن يستطيعوا ، يوماً امتلاك اللاتينية وتجويدها . فالايطاليون وحدهم هم الذين يجري في عروقهم الدم اللاتيني ، وهم وحدهم يستطيعون بعث اللاتينية من جديد ، مرضعة العلوم والفنون والآداب . فقسمة تاريخ البشرية الى ثلاثة ادوار ، اوسطها تغشاه الظلمات والبربرية ، ثم إنبعاث اساسه الآداب الايطالية ، ثم الاجيال القديمة ، فالتفوق الايطالي في مجالات الفكر هو العنصر الجلي. هذه هي لعمري ، العناصر المقومة الثلاثة لفكرة النهضة . هذا هو التقدم الذي فرض فرضاً على اوروبا وعلى المؤرخين الذين ذهبوا فريسة اسطورة من هذا العيار الضخم .

العالم الجديد

لما كنا نتناول بالبحث عهداً تداخل قسم منه ، على زعم بعض المؤرخين ، في عصر النهضة ، كان لا بد لنا من ان نشير ولو بإيجاز ، الى اهم النظريات

التاريخية حول هذه النقطة مما لا يزال يحتج به دون ان نتعرض بالتفصيل لهذا الجدل . والذي يهمنا هنا هو ان نعرف ما إذا كان جد من جديد في مطلع القرن السادس عشر .

نلاحظ ، بادىء ذي بدء ، ان فكرة النهضة بالذات تراود ، بحق او ببطل، وسواء اكان لها ما يسوغها ام لا ، كل الخواطر والضمائر اذ ذاك . ولعل اول من اطلق هذه اللفظة تعبيراً عن قيام مثل هذا الوضع الحضاري الذي يختلف كلياً عن وضع الاجيال الوسطى ، هو على ما نعتقد الناقـــد الفني جورج فاساري ، في كتابه : « سير مشاهير المهندسين والرسامين والنقاشين الايطاليين منذ سيمابو الى يومنا هذا» ، في طبعته الاولى التي صدرت في مدينة فلورنسا، عام ١٥٥٠ ، والمؤلف من العمر اذ ذاك ، ٣٩ سنة . وقد لخص لنا في مجال حديـــثه عن الفنون خواطر بترارك بهذا الشأن ولا سيما ما جاء منها بالادوار الثلاثة التي مرت تباعاً على الانسانية ، ويصور لنا جلياً ان إعراض الاذواق عن الفنون وضعف اهتمام الناس بها مرتبط الى حد بعيد ، بعوامل شتى ، تتصل في الصميم ، بالقوانين والشرائع المدنية المعمول بها ، والاعراف الاجتماعية المتحكمة بالاذواق ، وما للاخلاق عند الناس من قيم ، والمستوى الحضاري المتحيز على الاجمال ، فراح على هذا الاساس يقسم عصر النهضة الى ثلاثة اقسام وهو تقسيم لا يزال مرعي الجانب تتناقله كتب النصوص ، وهي : من منتصف القرن الثالث عشر الى اواخر القرن الرابع عشر حيث اخـــذ الفنانون ينهجون نهج جيوتو ويسيرون على منواله ويستنكفون بالتالي ، من الاساليب الغوطية والبيزنطية ويحاربونها ، ويتناول الثاني القسم الاكبر من سحابة القرن الخامس عشر حيث اخذ عدد الفنانين يكبر ويتضخم بعد ان اخذوا يتقيدون ، اكثر فاكثر ، بالواقعية ، وان على شيء من الجفاف والفجاجة في الاسلوب الفني . واخيراً هذه الفترة التي وضعت فيها صورة « العذراء على الصخور » ، من سنة ١٤٨٣ الى سنة ١٥٥٠ ، اي الى مطلع العصر الحديث في مقدمة القسم الثالث ، اي عصر الكمال والتمام . وهكذا رسم فاساري صورة موجزة لهـــذه التيارات الفكرية التي طلعت مع بترارك وترعرعت معه وبعده ، والتي عاشها فاساري نفسه وشب بينها الا وهي افكار اليقظة والبعث والتجـــدد والانتقال من الظلمة الى النور ، وهي افكار دخلت الآداب والفنون والعلوم وتغلغلت عميقاً بين رجال السيف والقلم ، فكرة الانبعاث او النهضة .

من ايطاليا إنتقلت هذه الفكرة الى اوروربا على السنة واقلام اعلام الفكر والثقافة امثال العالم الهولاندي ايراسموس والالماني روشلين ، باعث الدراسات العبرية في المعاهد الاوروبيـة . اما الفرنسيون فيكفي ، تنويهاً بالشعور الذي ساورهم ، ان نردد هنـــا ، انشودة غرغنتويا الجبار الحماسية ، عندما يكتب ، كما يقول رابليه (١٥٣٢) الى ابنه بَنْتَغْرُوَيل قائلاً .«مرت حداثتي في عصر غشاه الظلام وفاحت منه رياح البؤس واختلج بالكبائر التي اتاها الغوط الذين لم يتورعوا عن دك معالم اطرف واطيب وامثل ماخلفته الآداب والفنون ، ولكن الله في تحننـــه ورحمته اعاد الكرامة والنور الى الاداب ، في عهدي . والآن بعد ان عاد الاعتبار الى العلوم ،

واللغات حلت محلها اللائق من التقدير كاليونانية التي لا يمكن للمرء ان يعتبر عالمـــاً بدونها ، والعبرية والكلدانية واللاتينية . وتجلى ذلك كله في هذه الطبعات المؤنقة التي رفلت فيها المؤلفات والآثار الفكرية التي رأت النور بوحي إلهي » .

كذلك لا يمكن ان نتجاهل واقعاً تاريخياً له اهميته وهو اعتقاد رجال العصر بأنهم يعيشون بالفعل نهضة جديدة . فان لم يكن ثمة ما يبرر تماماً مثل هذا الاعتقاد ويزكّيه فمجرد شعور المرء انه انسان من نوع آخر وانه سليل مدنية تقع في مرحلة زمنية دعيت بالاجيال الوسطى (وهي تسمية اطلقها اول من اطلقها ابناء هذه النهضة ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر رغم استعمالها في القرن السادس عشر) ، ادى ولا شك ، الى سلسلة من الاعمال وتسبب في ظهور اساليب من التصرف والسلوك والتفكير ، وساعد في ظهور نمط من التفكير وعقلية جديدة تختلف تماماً عما تم مـن مثل هذا للعهد الماضي المقيت . الا ان هذا الشعور له ما يبرره ولو بصورة جزئية . فبين العقد ١٤٨٠ / ١٤٩٠ والعقد ١٥٣٠/١٥٤٠ ، طلعت علينا تغييرات جذرية ، واطلت نظم ومؤسسات لم يقم مثلها من قبل ، كما يتضح ذلك جلياً من الامثلة الثلاثة التي نوردهـــا لك . منها تحقيق المثالية الافلاطونية الحديثة وتحيزها في روما ، سنة ١٦٠٠ ، في صوغ انسان مثالي ، تناهد على رسم قسماته كل من ميكالو انجلو ورفائيل وكستيغليوني وبرامنت ، فبرز في خطوطـــه الجديدة نصف اله ؛ بما تم له من نظر ثاقب يلتقط بلمحة عين أرجاء الفضاء والاشكال في صور وصيغ فرضت نفسها على الحضارة الاوروبية مدة استطالت ثلاثمائة سنة ؛ من ذلك ايضـــاً كشف كون جديد على يد كوبرنيكوس ، عام ١٥٠٦ ، وهي السنة التي انجز فيها وضع كتابه الفصل المعنون : « حول دوران الافلاك السماوية » ، وخلالها طرح في التداول كتيباً بعنوان : « تعليقات » بسط فيه بايجاز الخطوط الكبرى للنظرية الجديدة التي قال بها وعـــلم ، والتي لم يبلـــغ البلاط البابوي خبرها الا في عـــام ١٥٣٢ ؛ واخـيراً وليس آخر ، هـــذه الاكتشافات الجغرافية التي تمت عام ١٤٩٢ فحطمت حدود العالم المتوسطي ونقلتها بعيداً لتجعل منهـــا حدوداً لكوكبنا الارضي ، وهي كشوف تمت على يد مردة مغامرين امثال كولمبوس وفاسكو ده غاما ، وألبوكرك ، وكورتيس ، فرسموا بذلك مسبقاً اول صورة للاقتصاد العالمي ولتساقط المعادن الثمينة والسلع التجارية على اوروبا. فان سمّوا هذه الحركة نهضة او انبعاثاً او شيئاً آخر ، فالامر عندنا سيان ، ويبقى بعد هذا شيء واحد هو انه تم في بضعة عقود من السنين تحييز لعالم جديد وتركيز له .

الانســـان والكون حسب الافلاطونية الحديثة

بعد ان وضع ميكالو انجلو اثره الخالد : « الأم الحزينـــة *Pieta* في روما بعد ان استغرق انجازه من سنة ١٤٧٩ الى ١٥٠١ ، ووضع برامنت تحفته : المعبد الصغير *Tempietto* بعـــد

ان قضى في عمله سنتين من ١٥٠٠ -١٥٠٢، تحقق الحيز الامثل واطل عالم الاشكال والصيغ وظهرت الصورة المثالية فتم بذلك حلم الافلاطونية الحديثة ، الذي رآه مارسل فتشينو هـذا الراهب الفلورنتي ،رئيس كهنة كاتدرائية فلورنسا ، واحد اصدقاء لورنتيوس المعظم الاوفياء - روح اكاديمية كاريجي الفلورنتيـة وراحها - هـذا الراهب الذي عاد يجتر من جديد ويفكر عميقاً، فكرة او سطية عاشها طويلاً وطالماراودته ، تهدف الى التجديد المسيحي وبعث المسيحية لتعود الى نقائها الاول فتهتم ، من قريب بدخيلة النفس وذلك في سبيل إصـلاح الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه . وقد خُيل اليه وهو الفيلسوف انه أنيطت به رسالة الهبة ، الا وهي تحقيق هذا الانبعاث الديني وذلك عن طريق احياء الافكار التي قالت بها الافلاطونية الحديثة بحيث تتم عملية مزج او افراغ الفكرة الدينية : الوثنية والمسيحية في قالب واحد فيتم لقـاء زرادشت وهرمس وتريسمجيست ، وفيثاغوراس مع الديانات الاخرى ذات الاسرار ، مـن أفلوطين الى اوريجـانس ، الى لكتانسيوس ، الى اوصابيوس ، الى اوغسطينيوس ، الى توما الاكويني ، الى دونز سكوط في ائتلاف أشمل بما يمثله افلاطون ، والخروج من ذلك كله بدورة او معلمة تغري الناس اجمع ، بشكل لا يُدفع ، على اعتناق المسيحية .

فقد بدا فتشينيو ، وهو الذي تتلمذ على افلاطون وتخرج في مدرسته متوهمـاً ان الله خالق الكائنـات هو الذي اوحي ، منذ الازل بالافكار فتأتي قوالب مثالية وصيغاً في غايـة الكمال والاتقان والجمال ، بعد ان رتب الله هذه الافكار والصور والاشياء وناسب بينهـا في نظام آسر يأخذ بمجامع القلب والعقل ، فنسّق بينهـا على احسن ما يكون التنسيق والتبويب والتسلسل فتكتسب الخلائق معه قيمة فنية في غاية التسامي . « فالكون اجمع ، في جزئياته وكلياته ، ينطلق في لحـن من التناغي والإيقاع كاللحن المنطلـق من اوتار القيثارة الشاكية ترتقص في لمس ناعم كمر النسيم ، بالرغم مما يطرق السمع احياناً من نشوز او شذوذ . فالخليقـة جاءت على شاكلة الكائن حيث لا نوافـل ، وفاقاً لعمل فني كل ما فيه يتناغى جمـالاً مع توافق الهدف النهائي ... وهكذا فكل جزء من اجزاء عالمنا يسهم في رسم قسمات الكون وجمالاته بحيث لا يستطيع الانسان ان يطرح بعيداً او يزيد عليه اي شيء » .

وهكذا يبدو لنا الله اسمى الفنانين واكملهم طراً ، بل هو الفنان الاوحـد . « فالعالم ، بما له من فائدة وبما فيه من نظام بديع وحسن انتظام ، وبما يبدو عليه من حلية وجمال ، يشهـد عالياً لهذا الفنـان الالهي الذي ابدعـه وبرأه . ففيه الدليـل القاطع على ان الله هو مهندس الكون الاكبر . فعمله صورة عنه . «فالخالق قدر وعرف واستطاع ان يجعل عمله يشبهـه الى اقصى حد . والله نفسه يملأ هذا العالم الذي ابدع لانه دائرة روحية ،قلبها في كل مكان ولا محيط لها البتة » فالكون كله ينطبق بمجد الله ويشهد له عالياً في ما تم له من نظام دائري وبما فيه من موحيات ومُلهِمات . فهو يتغلغل في هذا الكون باعتباره قوته المحركة فيفيض عليه الحركـة

والحياة كالبنيان الهندسي بالنسبة للشكل العام ،وكينبوع الخير اللامتناهي الذي يغمر الكائنات والاشياء وكمركز للجمال : صورة الخير وبلورته ، يشع على الكائنات والاشياء ويملؤها وَسامة وملاحة كالشمس تملأ البلور بانوارها .

وهذا الانسان القلق الذي لا يرى في المخلوقات كلها ما يُشبع نهمه ويشفي غليله ، لا يجد سعادته الاكملَ المثلى الا في ذات الله مجتمع الكمالات والفضائل . وباستطاعة هذا الانسان ان يبلغ الى الله بذرائع ثلاث لا رابع لها . بالعقل اولاً ، هذا العقل الذي يريه ما تمثله الكائنات والاشياء من افكار ، وما في عوالم الافكار من فِكَر الله ومقاصده ، وفي مقدور الله اذا ما شاء ان يجود عليه برؤيته بمشاهدته، بنفحة واحدة من انواره البهية وبمعزل عن كل فكر وعن المخلوقات اجمع . واذ ذاك فقط ، تتحد النفس بذات الله لتنصهر فيه وتصبح الها ، فتستحيل بالتالي : غبطة وسعادة ، فتشعر وهي في حالة انخطاف روحي بلذة هي الغبطة الابدية . ويستطيع الانسان ، من جهة اخرى ، ان يتقرب من الله بالمحبة . ان جمال الكائنات هو مجلى للجمال الالهي . فكل حب او تعلق بالجمال يفيض على المحب جمالا، اذا ما ادركنا جيداً وايقنّا ان ما نحبه في المحبوب هو ، بالفعل ، الجمال المطلق ، الشامل ، اي الله . « فالنفس البشرية تضطرم بالنور الالهي والسناء الالهي ، فتتلألأ صورته تلألؤ المرآة بالكائن الجميل ، فيجتذبه الله اليه بطريقة سرية كما يجتذب الشص السمكة العالقة بحيث يصبح إلهاً ، يستطيع الانسان ، بعد هذه كله ان يزداد شبهاً بالله اولا ، ثم ينسكب في ذات الله اذا ما اراد الله ان يكرمه بهذه النعمة . وذلك عن طريق الخلق . فالانسان ، كالله نفسه ، فنان شامل ... « فقد أوتي هذه الانسان ادراك ما في السماوات من نظام وما في العوالم من حركات ، وما هي عليه هذه العوالم من مراتب وما بينها من أبعاد وتفاعل وتجاذب . فمن يستطيع والحالة هذه ، ان يُنكر ان للانسان من القدرة ما يشبه الخالق ، وان في مكنته ان يبسط السماوات وينشر العوالم اذا ما تمت له مستلزمات البسط والنشر والمادة الفلكية اللازمة ؟ » . فالانسان هو « إله ، هو رب الكائنات المادية ، يجري فيها ، كيفما يشاء ، تبديلا وتحويلا وتغييراً » . ففي الحين الذي يجري فيها تحويلا عن طريق خلق الاثر الفني وابداعه بالصورة التي ارادها ، ملتقياً بذلك مع التصميم الالهي في الصميم ، مشاركاً في تحقيق هذا التصميم وتحييزه ، يدخل ، اذ ذاك ، اكثر فاكثر في فكرة الله ويتحد بالله اكثر فاكثر . فالمعرفة العلمية والفلسفية تتحقق بالخلق الفني . فالمهندس والرسام والحفار والشاعر،يجدون انفسهم عندما ينزل عليهم الوحي والالهام وكأنهم على اتصال سري مع الله . فالله يعبر عن ذاته بواسطتهم وهؤلاء الناس الالهيون هم رسل الله وموفدوه . فالفن ولا سيما الشعر هو الطريق الحق للمعرفة والاكتناه ، وهو اسمى واعلى من اي فن آخر . فما الفنون الا حالات خاصة وصور من الصلاة والتنبؤ والاتحاد الرمزي بالله .

روما والافلاطونية الحديثة

في عهد لورنتيوس العظيم ، اعطى فتشينو اهم آثاره الفكرية ، مع ان الكتب الاخرى التي صدرت له فيما بعد تتفق تماماً مع ترتيبنا

الزمني [1] . فقد تخلت عنه فلورنسا وخانته في نقطة حساسة ، اذ عجز الفنانون الفلورنسيون عن ان يعبروا ، بانجازاتهم الفنية ، عن تعاليم الفيلسوف ونظرياته وان يتمثلوها . ويتبين من رسائله العديدة انه كان على اتصال واسع مع الكثيرين من رواد النهضة في روما والبندقية والمانيا وفرنسا وبلجيكا وبولونيا وهنغاريا . فالحديقة التي اقامها في كاريجي كانت ملتقى الادباء الانسانيين ، يفدون اليها من جميع انحاء اوروبا . فروما عاصمة المسيحية شهدت وحدها تحقيق فكرته ، بعد ان كان توارى هو عن هذا العالم ، وذلك في اشكال وصيغ اصبحت ، لاجيال عديدة ، موضوع الهام للكثيرين في جميع انحاء اوروبا .

فبعد موت لورنتيوس المعظم ، عام ١٤٩٢ ، والثورة التي اندلعت نيرانها في فلورنسا ، بعد ذلك بسنتين ، اي في عام ١٤٩٤ ، وقيام الحكم الثيوقراطي على يد سافوناورلا ، والجمهورية الفلورنسية ، فيما بعد ، وعلى اثر قدوم عدد غفير من رجال الفن نزحوا من فلورنسا الى روما ، اصبحت هذه ، المركز الاول للافكار والنظريات الافلاطونية الحديثة التي تشبع بها الفنانون والادباء وشاعت بين الاشراف والنبلاء ورجال الكنيسة الذين وجدوا في تلاقي مشاربهم وتوافق ميولهم مع مثالية البابوات ، وسيلة لتحقيق الاحلام التي راودت خواطرهم . فمنذ عهد البابا نيقولا الخامس ، على الاقل ، في منتصف القرن الخامس عشر ، والبابوات يحلمون بتشييد الكنائس والمعابد والقصور الفخمة وغير ذلك من الانجازات الفنيه الجميلة ، في روما ، ليجعلوا منها بحق خليقة بنائب السيد المسيح وخليفته على الارض ، لا تنقص شيئاً عما كانت عليه في عهد القياصرة بحيث يستشعر المسيحيون في روما ، والحجاج الذين يفدون اليها من جميع اطراف الارض ، العظمة والضخامة والقوة والغنى المتمثلة بهذه المباني فيحمدوا الله على هذا كله وعلى ما تم لروما من عظمة وفخامة وابهة ، وهكذا تصبح روما انشودة تحدث عالياً بمجد السيد المسيح ، كما انها ستذيع عالياً ، بوصفها عاصمة البابا الملك ، ما للبابوات من شأن عظيم . فقد صرح البابا سكستوس الرابع ، في رقيم له صدر عام ١٤٧٢ قائلاً : « اذا كان ثمة من مدينة في العالم تشع نظافة ، وجمالاً ، فيجب ان تكون بالطبع ، المدينة المعروفة بكونها عاصمة العالم ، ولها شرف احتواء كرسي بطرس الرسول ، مما يجعلها ولا شك ، في الصف الاول بين مدن الارض » . وعندما راح البابا جول الثاني يبرر تشييد كنيسة القديس بطرس خاطب الكرادلة بقوله : « كما ان الطوباوي بطرس هو هامة الرسل والمتقدم بينهم ، وجب ان تبز الكنيسة التي تحمل اسمه ، كنائس روما والعالم اجمع . وبما ان الخراب يتهددها اذ انها تتداعى للسقوط ، كان من المترتب علينا توسيعها باعادة بنائها لنسلمها الى الخلف عروساً تدلّ بجمالها على جميع كنائس الارض » .

---

(١) منها : الرسائل (١٤٩٥) ـ شروح افلاطون وتعليقات عليه (١٤٥٦) ؛ قضى نحبه في ١٤٩٩/١٠/١ قبل ان يفرغ من تفسير لرسالة بولس الرسول الى اهل رومة .

فقد كان تحت تصرف البابوات موارد ماليـه طائلة : كالضرائب التي كان الكرسي الرسولي يفرضها ويجبيها بكل دقة ؛ واحتكارات الملح والشب المستخرج من مناجم ُطلْفا ، هذا الشب الذي لم يكن لاوروبا قط غنى عنه لاستعماله قاصراً في صبغ الانسجة ودباغة الجلود ؛ وما تدره الرسوم المجباة في اوروبا جمعاء « كرسوم روحية » ؛ وبيع وظائف الدولة ومناصبها الرئيسية ونجاح القروض الداخلية . والى جانب الموارد الطائلة الخاصة بالبابوات لتغطية تكاليف الابنية والانشاءات الفنية التي يوصون عليها ، يجب ان نشير هنا ، الى الثروات الاسطورية والموارد الواسعة الموضوعة تحت تصرف الكرادلة اذ كانوا يقيمون لهم بطانات واسعة الى جانب البلاط البابوي ؛ والموارد التي ينعم بها اشراف الرومان ونبلاؤهم ، واصحـــاب المصارف الكبرى الموجودة في روما . وقد كانت الافكار والاقتراحات المقدمة او المقترحة ابعد من ان تأتلف واحلام البابوات ، هذه الاحلام التي لم تتحقق الا في مطلع القرن السادس عشر ، عندمـــا قام فنانون تشبعوا بافكار الافلاطونية الحديثة ونظرياتها يحاولون تحبيزها بانشاء مبان وعمائر جاءت على نسبة المباني الرومانية القديمة عظمة وفخامة ، تحبيزاً منهم لاذواق بهرهـــا بهرج القوة والعظمة ، هذه المباني التي اخذت تنتشر في انحاء المدينـــة ، في نهاية بابوية اسكندر السادس بورجيـــا (١٤٩٢ – ١٥٠٣) ولاسيما حبرية البابا جول الثاني (١٥٠٣ – ١٥١٣) وليون العاشر ، البابا الفلورنتيني الاصل والمديتشي المحتد (١٥١٣ – ١٥٢١) .

فبدلاً من ان نتلهى بوصف امور مجردة وفي عد ما لا حد له من المباني والفنـــانين الذين اشرفوا على تصميمها او انجازها ، رأينا من الانسب ان نقـوم بنظرة تحليلية لبعض هـــذه الانجازات الفنية وامثلها .

المباني الحديثة

ثلاثة من بين هؤلاء الفنانين اللامعين هم : برامنت وميكالو انجلو ورفائيل عملوا في روما لحساب البابا جول الثاني وتوصلوا ، بعد ان كشفوا عن خرائب روما الامبريالية ، الى تحديد شكل ونوع المباني والانشاءات الهندسية التي تعبر أتم تعبير عـن ُمثل الافلاطونية الحديثة التي يمكن ان تفوز برضى البابا المخيف .

كنيسة القديس بطرس في روما

عندما رغب البابا جول الثاني عـــام ١٥٠٥ في ان يستبدل كنيسة القديس بطرس القديمة التي يعـــود بناؤها الى عهد قسطنطين بكنيسة جديدة تتوفر فيها عناصر العظمة والفخامة ، رضي كل الرضى عن التصاميم الهندسية التي وضعها برامنت وعهد اليه بتحقيقها وتنفيذها . جاء برامنت روما متأخراً ، عام ١٤٩٩ ، وله من العمر اذ ذاك ، ٥٥ سنة تتقدمه شهرة واسعة كمهندس معماري ممتـــاز ، إثر الانجازات الهندسية العظيمة التي حققها في فلورنسا . فبعد ان وقع ، في رومـــا ، تحت تأثير الجمال الروماني الافلاطوني الحديث ، وبعد ان تحول تحولاً كلياً عن النهج الميلاني الذي يوجهه

وحذا حذوه وانتهج نهجاً فنياً جديداً . تولى تشييد مبنى المعبد الصغير *Tempietto* . فقد رغب برامنت ان يشيد على اسم القديس بطرس وشرفه المبنى الذي سبق للرسل فتشيد ان رسم تصميمه وفقاً لنظرية الافلاطونية الحديثة ، إعلاء منه لمجد إله المسيحيين . فقد وضع ، اول ما وضع تصميماً لبناء ضخم مساحته ٢٥٢٠٠ متر مربع بدلاً من ١٤٥٠٠ متر مربع اتسعت لها كنيسة القديس بطرس القائمة اذ ذاك . وحرص على ان يوحي كل شيء في المبنى الجديد ، العلاقة القائمة بين الله ومخلوقاته ، مبنى لا يمكن الاستغناء قط عن اي جزء منه الا ويشعر المرء بفراغه ونقصه ، كما لا يمكن اضافة اي شيء اليه الا وتمتعض العين لهذه الزيادة . ولما كان كل شيء يصدر عن الله ويعود الى الله ويدور حول الله ، استقر به الرأي على ان يعتمد شكلاً هندسياً عاماً للمبنى شكل الصليب اليوناني . فيرى الناظر ، من الخارج صليباً ضخماً يذهب عالياً في الجو يرمز الى اتحاد الهيكل مع الالوهية . وترتفع تحت هذا الصليب قبة ضخمة ترتفع فوق ركائز من الاعمدة ترمز الى الكنيسة . وفي الاسفل ، تنبسط اذرعة الصليب الاربعة المتناسقة ، في طرف كل منها قباب صغيرة نسبياً مع انها كبيرة تنتصب فوق اعمدة قائمة امام صحن الكنيسة تجاه الخورُس تماماً .

وكما ان المسيحي يتدرج من الخلائق الى ربه محمولاً على اجنحة الجمال ليصل الى الافكار التي تفضي به الى الالوهية ، هكذا يمر الزائر بهذه السطور من الاعمدة ضمن الكنيسة الرامزة الى المخلوقات ليبلغ في مسيرته الى النور الشفاف الهابط من القباب الصغرى . وهذا النور الخافت من شأنه ان يحمل النفس على الخشوع بعد ان تكون انثنت على ذاتها واعتكفت لتنعم بمشاهدة الافكار . والمسيحي الذي يبلغ قبر هامة الرسل بعد ان يكون اجتاز الاعمدة التي ترتفع عليها القبة الكبرى ، في غمرة النور التي تغشاه وخشعة النفس ، يسير قدماً نحو عالم زاد نقاء ليبلغ النور السماوي الذي يجلب الافكار وبعد ان يصل على مقربة من القبر الذي يفيض نوراً تبرز له القبة الجبارة التي ترتفع فوق رأسه رامزة الى الحضور الالهي والاتحاد بالالوهية .

وُضع هذا التصميم الفخم « تعبيراً عن الوحدة في أقدس معانيها » . كل شيء ارتبط بالفكرة الرئيسية وفاقاً لنظرية الافلاطونية الحديثة ، هذه النظرية التي ستتحكم ، بعد قليل ، بالفن الكلاسيكي . فقد جاء هذا التصميم معبراً عن مشاعر المعاصرين واحاسيسهم فراحوا يتحدثون عنه باعجاب تجاوز كل حد ، كما راح الشعراء الذين يتغنون به ويعتبرونه اعجوبة الدنيا التاسعة . وقد ارسى البابا الحجر الاساسي نهار الاحد الجديد ، وهو الاحد الأول بعد عيد الفصح ، الواقع في ١٨ نيسان ١٥٠٦ ، ولما مات كان العمل انتهى من نصب الاعمدة القائمة اليوم في كنيسة القديس بطرس ، والتي ترتكز عليها القبة والعقود التي تحملها . وقد اضطروا فيما بعد للتخلي عن التصميم الذي وضعه برامنت لتصميم آخر افقد هندسة الكنيسة كثيراً من عناصر الفخامة .

غرفة التوقيعات

كان البابا جول الثاني تخلى عن السكنى في الجناح المعروف بجناح بورجيا ليقيم في جناح آخر من اجنحة الفاتيكان يقع في عدد من الغرف والصالات اشتهر فيا بعد باسم « stanze » ، وراح منذ تشرين الاول ١٥٠٨ عدد من الرسامين يعمل في تحلية هذه الشقة وتزيينها . غير ان رفائيل لم يلبث ان اصبح الاول بين هذا الفريق فاختص بهذا العمل وبزركشة هذه الغرف التي رغب البابا جول الثاني ان يجعل منها بالفعل « مرآة » عقائدية . فقد حرص رفائيل على ان يجعل من غرفة التوقيعات معبداً ينطق عالياً بالافلاطونية الحديثة ، فرسم على الجدران اربعة رسوم ضخمة تمور بالماجريات والوقائع اليومية ، تبدو بينها من خلال غلالة ، الافكار الافلاطونية التي قصد الفنان التعبير عنها الا وهي : العفة والفلسفة والبرناس وخناقة القربان الأقدس . ويأخذ الانسان بالانتقال تدريجياً من هذه الجسمات المادية ليبلغ الافكار فتطالعك ، قبل كل شيء العقود القائمة فوق كل صورة من هذه الصور . ولدى كل غلق من أغلاق هذه العقود يطالعك طفل صغير على ظهره جناحان في كل واحد منها رمز يتألف من وعاء وحمامة وكرة ، اذ ان كل طفل هو عنصر من هذه العناصر الاربعة التي يتكون منها العالم . فالماء فوق مدرسة اثينا ، والنار فوق خناقة القربان الأقدس ، والهواء فوق البرناس ، والارض فوق الفقه . وهكذا عن طريق رد العالم الى عناصره الاربعة المكونة ، نأخذ بالارتفاع نحو الافكار . الا انه بالامكان ان نرتفع ونعلو اكثر فأكثر ، عن طريق المشاهد المرسومة في وسط الدوائر القائمة في زوايا العقود. فكل مشهد من هذه المشاهد يحيلنا الى صورة العقد الذي يليه ، وهي تتويج ابولو ، واقتصاص مرسياس من الشعر ، والخطيئة الاولى للاهوت ، وقضاء سليمان الحكيم للعدل ، وعلم الفلك يربط الفلسفة بالنجوم . وهكذا في كل عقد تطالعنا الحركة الدائرية حركة الكون الازلية ، احد الاسس التي قامت عليها نظريات فتشينو ، واخيراً نبلغ الافكار المجردة في عليين التي يُرمَز اليها في العقد بالشعر فوق البرناس ، والفلسفة فوق مدرسة اثينا ، والعدل فوق الفقه واللاهوت فوق خناقة القربان الاقدس . ويُرمز الى آلهة الشعر وفقاً لافكار فتشينو كما يلي : باكليل الغار واجنحة قوية وحولها منطقة مزركشة بالنجوم وقد التمعت عيناها حماسة وحيوية . وعلى مقربة منهن جميعاً طفلان بجنحان يحملان إطاراً كتبت عليه كلمتان مستعارتان من فرجيل [١] هما : « *Numine aflatur* » اي نفحة الهيه تحركه . فالالوهية يجري اعلانها على لسان الشاعر ، ولذا نرى صورة الشعر في العقد ، تعدل كل العلوم النقلية : العدالة وهي معرفة الحق والنَّصَفَة ، الفلسفة وهي معرفة الطبيعة واللاهوت وهو معرفة العالم الالهي . وهكذا نرى ان كل الاجزاء المقومة لهذه الصورة هي من وحي الافلاطونية الحديثة وفيها الضمانة بايصال المسيحي ، في هذا العالم ، الى الافكار ، والافكار توصل الى الله .

---

١ الانابيد ، الكتاب السادس ٥٠ .

ولكي يتيسر للمتفرس في الصورة الوصول الى الفكرة المعلن عنها ضمناً ، ادخل رفائيل ، بضربة معلم ، فراغاً جديداً لا يلبث ان يصبح ، فيما بعد ، الفضاء المفضل في القرون الثلاثة التالية ، وهو المعروف بفضاء القرون الثلاثة في التاريخ « الحديث » ، أو فضاء المؤرخين الفرنسيين . صحيح ان الفلورنتيين اكتشفوا ، منذ عهد بعيد ، رسم المناظر وعرفوا ان يستفيدوا منه في هذه الالواح التي رسموها خطوطاً متتابعة بحيث تتجه جميعها الى نقطة تقع تماماً في الوسط بحيث تبدو اللوحة ، في مجملها ، كتلة هندسية . الا انهم لم يتوفقوا الى الكشف عن احسن طريقة للانتفاع ، على الوجه الاكمل ، من الشكل المنظوري . فقد فاتهم استخدامه لابراز الموضوع الاساسي في الرسم . وهكذا تاه النظر وضاع الانتباه عندما يستقر على اشخاص ثانويين او على تفاصيل لا طائل تحتها . وعلى عكس ذلك تماماً ، فقد كشف رفائيل عن خير طريقة للانتفاع من رسم المناظر والحجم الهندسي ، بعد ان عرف كيف يوزع ، بفن واصول ، الاشكال التي اختارها على الرسم الذي تلتقي فيه نقطة الانسراب مع الفكرة الاساسية التي يجب ابرازها .

فلننظر ملياً هنا في رسم خناقة القربان الاقدس ، وهو رسم معروف ومشهور لكثرة ما اخذ عنه من نسخ . نجد في الاعلى الكنيسة الظافرة ، وفي الاسفل الكنيسة المجاهدة ، ويفصل بين الاثنتين فراغ كبير يمثل السماء . ففي القسم العلوي يبرز الله الاب ، ثم يأتي بعده السيد المسيح ، وعلى يمينه العذراء مريم ومن اليسار يوحنا المعمداني ، ومن هنا وهناك من كلا الجانبين المختارون او المصطفون بشكل سحابة نصف دائرية ، يتخللها رؤوس ملائكة تفصل بين العالم المنظور والعالم غير المنظور . وعند قدمي السيد المسيح نرى روح القدس بالشكل التقليدي المعروف ، اي بهيئة حمامة تشع منها اشعة من ذهب ، رمز النعمة . وهي اشعة تمتد الى الاسفل ، نحو الافخارستيا . وفي الاسفل ، يبرز من السماء للعيان ، شعاع القربان الاقدس وقد وضع على هيكل بسيط للغاية ، بينما نجد من كلا جانبي الهيكل ، الكنيسة المجاهدة اي : البابوات والكرادلة والاحبار والاساقفة والشعراء ورجال الفن والعلماء . وهكذا نرى انفسنا وجهاً لوجه مع مدينة الله التي تجمع او توحد ما بين الارض والسماء ، في ما يحاكي بناء مثالياً ظاهراً على الارض ، لا يرى في السماء ، وان كان قائماً فيها بالفعل .

في هذه الصورة الجدرانية ، كل شيء يتوقف على الاشعاع النوراني المنبثق من القربان الاقدس القائم على الهيكل والذي يبرز للعيان بواسطة تلاقي الابصار . ففي الاسفل تظهر خطوط التبليط ، ودرجات الهيكل وطبقات الكنيسة المجاهدة بينما تظهر ، في العلو ، السحابة نصف الدائرية والاشعة الذهبية المنطلقة من الروح القدس . والى هذا كله يطالعك ، في هذه الصورة الجدارية ، الجبارة شعاع القربان الاقدس الذي اشير اليه بنقطة تكاد العين لا تلتقطها ، ومع ذلك فالانظار تتجه اليه ، الى هذا القربان الاقدس الذي يضفي على اللوحة كلها ، كل ما فيها

من معنى ومدلول . فالفراغ ، والحالة هذه ، يساعد ليس فقط على تحريك الفهم واثارة القوة اللاحظة ، بل ان رسم الابعاد يمتزج بالمرموز اليه ، وينشأ من ذلك كله رمزية تشير رأساً الى العالم الروحاني ، وهكذا يصبح الفراغ عنصراً من العناصر المساعدة كثيراً على الفهم .

ومن جهة اخرى ، في هذا الفضاء وتحت تأثير الحرص في التركيز على ما هو اساسي ، يجب ان تتوفر الواحدة عن طريق التعرية والاطراح جانباً كل ما لا يؤول الى الفهم او لا يترك بعده أثراً ، اي كل هذه التفاصيل وكل هذه المستملحات والطائف والنكات الغريبة عن الموضوع ، مهما كانت طريقة مغرية ، والتي من شأنها ان تشتت الانتباه ، وهي هذه الامور نفسها التي وجدت فيها نهضة فلورنسا الفنية مسرتها . اما هنا فكل شيء يتجه الى سر القربان الاقدس المتعكس على الفرد الذي تختلف حركاته وسكناته عن حركات وسكنات الآخرين والتي لم تعد تُعبر الا عن ردة الفعل التي يحدثها الاقنوم الثاني من اقانيم الثالوث الاقدس في كل من هذه الشخصيات ، وهو تأثير وحيد مُوحد في الصميم .

أطلّ فراغ جديد كما أطل ايضاً نموذج جديد للانسانية يختلف اختلافاً بيّناً عن هذه الاجسام النحيلة والاعضاء الدقيقة والمرافق البارزة عظامها ، والحركات الطارئة الضيقة ، والمشية الخفيفة الحركة النطناطة ، والاشكال الفنية التي اثارتها النهضة الفلورنتية ، بحيث لا يستطيع المرء ان يتمالك عن التساؤل ما اذا كان جنس بشري زال وتوارى عن الوجود لجنس آخر جديد . وسر ذلك هو ان الافلاطونية الحديثة عادت من جهة الى فكرة المسيحية للانسان هذا الانسان الذي هو خير ما صنع الله وبرأ ، كما حاولت ، من جهة اخرى ، ان تبرز ظهور الانسان الجديد ، هذا النموذج الامثل الذي جاء جميع الافراد على شاكلته ومثاله ، هذا الانسان الذي يمثل ، في ذاته الجمال الامثل والاكمل . هذا الانسان ابن الله ، والذي تجسد الله فيه ، لا يمكن الا ويكون عظيماً قديراً ، جليلاً ، وقوراً . ولهذا نرى السيد المسيح ، في لوحة رفائيل ، وقد تعرّى جسمه الى نصفه وبرزت يداه وجنبه بأوضح ما يكون ، يبدو جسم رجل رياضي جميل ملآن عافية ، تفيض اعضاؤه قوة . وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المختارين وسواعدهم ومناكبهم ، قوية عامرة ، ملآنة . اما وقفتهم ، فتَنِمّ عن الهدوء والسكينة ، بعيدة عن كل اصطناع ، ليس فيها اي توتر او تشنج ، وقد ارتسمت على وجوههم وقسماتهم امارات النبل والرضى .

وهذه الرغبة في التركيز عن طريق التجريد والتعرية ، والاستفادة الى اقصى حد ، من الفراغ لتحقيق غرض واحد وهدف واحد الا وهو التكثيف عن طريق التشديد على بعض الخطوط الاساسية ، سنصادفها في هذا التعارض المنهجي الذي نراه قائماً بين الانجازات الفنية للنهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ولكن ! اين التركيز ، اين الحياة الداخلية بواسطة التجربة؟

لنضرب مثلاً على ذلك ، هذا الحفر البارز في صورة لأنطونيو روسلينو ، ولنعارضه برسم آخر لميكالو انجلو يختلف عنه اختلافاً كلياً ، هو صورة العذراء مع الطفل . نرى ان روسلينو يبرز في إطاره ، عالماً آخر وطبيعة اخرى وشعباً آخر . نرى عند حاشية النقش صفاً من الرؤوس يحيط بها أجنحة مرفرفة وفي الصف الاول العذراء مريم جاثية تضرع الى يسوع الطفل المتمدد امامها . ويأتي وراء العذراء مريم القديس يوسف غارقاً في التفكير ويده تعبث بلحيته ، ووراء القديس يوسف يأتي الاسطبل وفيه الثور والحمار . والى يمين العذراء مريم والطفل ، خط يقسم الصورة قسمين متميزين : رعاة قادمون يحملون الهدايا ، وقليلاً الى فوق بعض الاشجار ، ثم اعلى قليلاً ، السماء وما فيها من غيوم . اما في لوحة انجلو ، فلا نجد تقريباً شيئاً من هذا كله ، بل العذراء مريم جالسة وعلى ركبتيها كتاب ، والطفل يسوع واقف إزاءها لجهة اليسار ، متكىء على ركبتها ومرفقه على الكتاب ، ثم الى الوراء ، خلف كتف العذراء من على اليمين تقع العين على صورة غير واضحة . هذا هو المنظر كله .

في رسم روسلينو كل شيء صغير . فنه تراكم اشياء صغيرة . فالعذراء التي تبرز ، الى الامام لا تشغل اكثر من خمس اللوحة . اما الطفل يسوع ، فصغير . فالعين في حيرة من لواحظها تتجاذبها أرضية الصورة والمنظر . اما عند ميكالو انجلو فالعذراء مريم تحتل ثلاثة ارباع اللوحة حتى ان هندام شعرها يطفطف على الحاشية ،فلا تقع عين الرائي الا على العذراء وبالكاد تقع العين على الطفل . اما الشخص الثالث ، الشبح ، فيجب ان نحملق جيداً لنلحظه . فالنظر يتجه بشكل لا يقاوم ، الى العذراء التي اصبحت ، بلا مراء ، محور الصورة ومركز الثقل فيها .

ففي لوحة روسلينو كل شيء رُسِمَ بالتفصيل وعلى قياس صغير ، فبدا نحيفاً ،دقيقاً ، منمنماً ، فتبدو اصابع اليد واضحة الواحد جنب الآخر وقد صفف الشعر ، خصلة خصلة ، واللباس على اتمه ، لا ينقصه زر ولا شريط . هنا الحياة اليومية بكل تفاصيلها ، الحياة العائلية : فالطفل يسوع يضع سبابته على فمه .

اما عند ميكالو انجلو ، فالأشياء تتم وتوضع جملة . فبدا العذراء بدتا كتلة تكاد لا تتميز عن المادة ، ورداؤها بغاية البساطة تثني والتف ، وشعرها رتب على مألوف العادة : في الوسط فرّق الشعر قسمين على جانبي الوجه ، والطفل يسوع يبدو وكأنه قطعة واحدة ، على انحناء خفيف لطيف ، ملامحه الرئيسية بارزة ، توحي وتلهم .

عند روسلينو ، كل ما في لوحته الحركة : فاجنحة رؤوس الملائكة ترفرف ، والرعيان في سيرهم جادون ، والقديس يوسف يلعب بلحيته وقد بدا على وجهه التفكير وحواجبه مقطبة والثور والحمار يميلان برأسيهما متناولين علفهما ، ومنخارا العذراء يختلجان وقد ارتسم على شفتيها

بسمة الرضى والتسليم بينا ترتفع يداها . اما الطفل يسوع فتكاد الاذن تلتقط تغريـده بينا هو يمتص طرف إصبعه محركاً رجليه الصغيرتين . اما في لوحة ميكالو انجلو فالحياة تبدو وكأنها واقفة . فالاشخاص يكادون لا يتنفسون، والعذراء جالسة بوقار عيناها مسمرتان في البعيد كأنها تحاول قراءة المستقبل المخيف واكتناه سره ، والطفل يسوع يتناول شيئاً وهو يتكىء الى امه . فالمنظر يبدو وكأنه يتحدى الزمن ، وكأن ميكالو انجلو يهتم ليس بما يجري بـل بما هو باق ، مستقر الى الابد . فهو يضفي الخلود على اللمحة الهاربة .

هذا التجريد ، هذا التركيز على بعض نقاط اساسية لفتاً للانتباه وإمعـاناً في التشديد ، نجده في كل مكان. فهو في صورة ميلاد يوحنا المعمدان بريشة غيرلانداخو حيث نرى الوصيفة تدخل وعلى رأسها أضمومة من الزهر . قارن هذه اللوحة بلوحة اخرى بريشة رفائيـل ، في صورة الساقية او حاملة الماء . فغيرلانداخو لا يهمل شيئاً ، مهما كان طفيفاً، عندما يرسم لنا ذراع الوصيفة اما رفائيل ، فماذا تراه يعمل ؟ فهو يشدد كثيراً على العضل الدالي والعضل ذي الرأسين بحيث يتكوز الكتف ويتكوز الساعد ملتفاً فيرسمه بشطحة ريشة ويضفي على هذا الذراع: قوة باع ، وشدة ساعد ، اين منه فن غيرلانداخو .

وهذا الفراغ الجديد ، فراغ المفهومية ، اين هو ؟ لنقارن في هـذا ، المجال ، بين صورة العذراء مع الملائكة والقديسين الستة ، بريشة بوتيشللي ، وصورة العذراء مع القديسين الثانية بريشة أندريا دل سارتو. يفهم بوتيشللي ، حق الفهم ما لرسم المناظر من قيمة وشأن. ومع ذلك فهو يضع جميع شخوصه على خطين . ففي الصف الاول ، نرى على سطر واحد ، ثلاثة قديسين الى اليمين وثلاثـة غيرهم الى اليسار ، بينا تقع العين ، في وسط الصف الثاني على العذراء مريم والطفل على شيء ما يشبه المصطبة يحيط بها ملاكان يعلق احدهما ستائر بينا يقدم الثـاني الزهور . خطان متوازيان لا علاقة بينهما . أما لوحة اندريا دل سارتو ، فعلى عكس ذلك تماماً ، فهي تنفسح على الابعاد وتوغل في التعميق ، فالفراغ ينفرج وينبسط : يطالعك قبل كل شيء درج وفي الأسفل ملاكا ينظران الى العلاء حيث تطالعك شرفة عليها ، من كل جـانب ، ثلاثة قديسين ، اولهما راكع والاخران واقفان ليس على صراط واحد بل الواحد خلف الآخر . والى الوراء، تجد على قاعدة ، العذراء مريم والطفل يسوع على ركبتيها . فكل خطوط اللوحة تتجه من العذراء وابنها .

ففي لوحة بوتيشللي ، يبدو الشخص وكأنـه مسمر ويقوم باشارات وحركات تبقى في نطاق المسطح المتوازي لنظر المشاهد . اما عند اندريا دل سارتو ، فالاشارات والحركات تجري في اعماق الفراغ . وسواء أكان القديسون في موقف المتحدث أو الكاتب ، فحركاتهم تقـع دوماً على خط المشاهد ، بالنسبة للعذراء ؟

وهكذا ، فالفراغ عند بوتيشللي يبقى لا شأن له ، بينا هو ، عند اندريا دل سارتو ، ليس

مجرد مجال يقع فيه المشهد فحسب ، بل ان الجمال ينطق عالياً ويصرخ كيف اننا بواسطة القديسين ، صورة السيد المسيح ومثاله ، نصل الى العذراء مريم طاقة السيد المسيح النقية وبشفاعتها الى السيد المسيح .

وهذا النموذج الجديد للانسان ، هذا البطل ، ماذا من امره ؟ لنتمل النظر ملياً ، قبل كل شيء ، في صورة « معمودية السيد » بريشة فيروكيو *Verrochio* . فالمسيح فيها يبدو على شاكلة شاب نحيل الجسم ، نحيف البنية ، نتأت عظام وجهه ونفرت عضلات جيده كالحبال ، وبرزت تُرقوته محدثة تجويفاً في الجلد . اما ساعداه فأكثر نحولاً مما هو عليه جسمه ، وقد جفت عضلاتهما ، فظهرت تحت أديم الجلد عُقد ، والمرفقان نفرت عظامهما واحدودبت أطرافهما ، وانجرد قفاه وجفت ساقاه ، وقد تغضن وجهه وبرزت اخاديده وهو مع ذلك يشع رقة وخشعة ، عليه مسحة من الاضطراب حتى القلق ، والمسيح وقد انحنى وانثنى قليلاً ، الى الامام ، لتلقي العماد ، يداه مضمومتان الى بعض . اما يوحنا المعمدان ، فيظهر شاحب اللون ليبادر بهيكله العظمي الى سكب الماء على رأس السيد المسيح ، متمماً بذلك ، الرسالة التي أعد لها وعهد الله بها اليه .

فلننظر الآن ، كيف ان الحفار اندريا سنسوفينو عالج الموضوع ذاته ولكن باسلوب فني آخر . فليس في المسيح ولا في يوحنا المعمدان شيء بعد من مظاهر قنوت الزهاد المتعبين ولا شيء من هذه الحركة العصبية التي تدفعهما للعمل بشيء من القلق تنفيذاً لرغبة الله تعالى . فللمسيح في هذه اللوحة جسم رياضي جميل ، مفتول العضلات ، مستدير الاكتاف ملآن ، مرن الحركات ، تكاد خطوط الجسم وتقاطيعه تستبين للرائي على نعومة ورقة . واعضاؤه مشبعة ، ملآنة تأخذ في الضمور عند الاطراف . كل ذلك وفاقاً للجمال المثالي في الرجل . وعلى هذا قس ايضاً طمأنينة النفس . فالوجه بيضاوي الشكل ، قسماته في غاية الاستواء ، ينم عن هدوء كامل ، والمسيح ، في طمأنينة هادئة ، ينتظر دونما تسرع او عصبية ، بانحناء قليل الى الامام ، في وقفة تشف عن ملاحة وقسامة وانسجام . ويوحنا المعمدان نفسه يبدو على نحول وضمور جسم اكثر مما هو عليه السيد المسيح. ومع ذلك فله جسم رياضي ، ملآن مشبع هادىء ، يسكب الماء وئيداً بينما هو في اللوحة الاخرى لوحة فيروكيو كأنه يسترق السانحة الهاربة . هنالك يهوديان تبدو عليهما امارات القلق والاضطراب بعد الذي خبراه من خشونة الجيش الروماني وفظاظته ، يفيضان رجاء بالمسيح المنتظر . اما سنسوفينو ، فيرسم لنا صورة شخصين مثاليين تنزها عن المادة ، اذ ان ما يرمي الى ابرازه هو هذه العملية المتجددة الى الابد ، التي لها قيمة ذاتية دائمة ، اذ ان عماد السيد المسيح له قيمة خالدة خلود الدهر ، لتعم جميع المسيحيين الذين سيتتابعون على هذه الفانية ، حتى انقضاء العالم .

بعد هذا ، هل من موجب لمعارضة لوحة ميلاد يوحنا المعمدان من بريشة غيرلانداخو ،

بلوحة ميلاد العذراء مريم بريشة اندريا دل سارتو . فالنساء في لوحة غيرلانداخو تبدين خفيفات الحركة ، يسرن وكأنهن يرقصن ، يقمن بحركات متاجئة . لباسهن مشدود قصير ، لهن جيد نحيف نحيل ، ونهودهن صغيرة واعضاؤهن نحيلة ، بينما تبدو النساء ، لدى اندريا دل سارتو ، سيدات تمشين الهوينا ، متزنة الخطى ، غير مباليات ، حركاتهن مطمئنة ينثنين بلطف ورقة . اما ارديتهن فكثيرة الشبه بالتوغا الروماني ، وقد تثنت تحت معاطف فضفاضة ، وفساتين تكنس الارض باذيالها المطفطفة ، فتوحي قدودهن القوة والضخامة . اما رقابهن ، فقصيرة ، قوية ، وبرزت نهودهن ، كما انفتلت منهن السواعد القوية وبرزت جحورهن . فليس من الصعب على القارىء بعد هذا ، ان يجد امثلة اخرى يرجع اليها .

رجل البلاط

رجل البلاط هو هذ النموذج الاتم ، الأمثل الذي يرغب ابن العصر في تحقيقه وتحييزه ، على خير ما يبدو من قوة الجسم واستدارة في الاعضاء وامتلاء ، عندما يبلغ المرء ذروة النضج والرجولة ، الى شيء من الكبر والعظمة ، على اعتدال في التعبير عن المشاعر والاحاسيس ، ورباطة الجأش والرواء وضبط النفس ، على شيء من « الوقار المطمئن » ، باقل قدر من الحركات ، على نبل في الحركة والرصانة ، وانسجام في الاوضاع والمواقف ، ونفس نقية ، متطهرة ، سيدة ذاتها . كل هذه المناقبية والاوصاف تطالعك اينما سرت وانما اتجهت ، ولن تلبث ان تصبح الصفات المثلى التي يجب ان تتوفر لابن العصر ، وهي هذه الاوصاف التي يلهج بذكرها ويحنو على جمعها واستكمالها في النفس ، الانسان المثقف ، المتمدن ، ورجل البلاط . ويضع رفائيل امامنا وتحت انظارنا رجلاً من هذا الطراز وعلى هذه الشاكلة في اللوحة الجميلة التي رسمها للكونت بلطازار كستغليوني احد نبلاء دوقية أوربين (*Urbin*) الذي تشبع بالافلاطونية الحديثة ، والذي كثيراً ما اختلف الى البلاط البابوي اثناء تردده على روما ، بين ١٥١٥ ــ ١٥١٨ ، وهي الفترة التي وضع خلالها كتابه المعروف بكتاب «رجل البلاط» هذا الكتاب الذي صدر مطبوعاً بعد ذلك بكثير ، اي عام ١٥٢٣ فقد ربطته برفائيل صداقة متينة ، بعد ان تشبع هذا الاخير هو ايضاً ، بتعاليم الافلاطونية الحديثة التي قال بها صديقه وخدينه ، فوضع له ، عام ١٥١٦ ، لوحة فنية . فهو يرينا ما كان عليه من ظرف وكياسة واناقة ، هذه الصفات التي تحتم على كل افلاطوني حديث ، ان يتحلى بها ، انما اناقة معتدلة على وقار . تشهد لصاحبها بالاتزان والاعتدال وقهر النفس . ثيابه غامقة اللون . رداؤه اطلس الملمس وسرواله مخرجة بالابيض النقي ، وعلى رأسه قبعة خاصة هي شعار النبلاء وكبار الحكام . ويشدد رفائيل على الافلاطوني الحديث المثالي وهو الذي تمت له الثقافة الانسانية بصاحبة كبار الكتاب وملازمتهم ، ويثق الثقة كلها بالطبيعة البشرية ، الطيبة الخيرة في الصميم ، اذ انها من صنع يد الله وتدبيره وعمله ، حر في الاساس لانه صورة الله ، هذا الرجل المثالي الذي اشتهر بدقة الظرف وعُرف بالكياسة ولين العريكة وحسن التصرف مع الغير ، وتوفرت فيه : الطيبة وحب الخير ، وصنع الجميل ومكارم الاخلاق واخيراً التقى .

ولهذا حرص رفائيل الحرص كله فأضفى على لوحة كستغليوني نواظر تطفح بالذكاء والفهم وسرعة الخاطر كأنها بذلك تعكس نوراً علوياً .

كان رفائيل يعبر بريشة الفنان عن الأوصاف التي رسمها وأتى على تبيانها « رجل البلاط » . والكتاب المذكور هو سلسلة من الحوار والاحاديث تجاذب اطرافهـا فريق من الاصحاب على شاكلة افلاطون علماً ، اجتمعوا في بلاط دوقية أوربين ، وتحت رئاسة الدوقة نفسها واشرافها. يصف لنا كستغليوني في كتابه هذا ، المعارف والآداب التي يجب ان يتحلى بها رجـل البلاط ، كالآداب اللاتينية واليونانية ، قبل كل شيء ، اذ يترتب عليه ان يكون حسن الاطلاع ، كثير الالمام بآثار الشعراء والخطباء والمؤرخين ، يحسن الكتابة والتعبير جيـداً عن مكنونات النفس وسرائرها ، شعراً ونثراً ، ملماً باصول الموسيقى ، يجيد الانشاء والترتيل واستعمال آلات الطرب على الوانها ، والرسم وكل صنوف الرياضة ولا سيما الفروسية ؛ وان يقوم بذلك كله على احسن وجه . ويمضي كستغليوني في تعداد ووصف ما يجب ان يتحلى به رجل البلاط من صفـات خلقية : عليه بضبط النفس ورباطـة الجأش وان يتئد في مشيته فيسير متزن الخطى ، تنم قسمات وجهه عن الرضى والطمأنينة ، لا يظهر على محيـاه شيء من امارات الانفعال والتأثر يتفادى كل ما يشتم منه الغلظة والفظاظة والكلام القـذع والالفاظ النابية التي تحمر النساء لاستماعها خجلاً ، وان يتحلى بالظرف ولين الجانب والاستعداد الدائم لخدمـة الغير ، ويحسن استعمال النكتة الفكهة ويروي الحكايات التي تدخل البهجة على النفس دون ان يتعدى حدود الحشمة . وينتقل بنا ، بعد هذا الى تبيان المناقب والصفات الجيـدة التي يجب ان تتم لسيدة البلاط وما يجب ان تكون عليه من وقفة هادئة ، محتشمة ، والاتزان في حركاتها وسكناتها ، والايناس واللطف ، واخيراً استعداد طبيعي للدعة والرقة تبدو معه على مستوى واحد من الفطنة والخفر والحشمة والكياسة والرصانة . طبيعي جداً ان تكون متضلعة من الآداب ، تجيد الموسيقى والرسم ، وتحسن الرقص والمحاضرة وتتحدث بايناس . كل هذا ليس سوى إعداد او المدخل للكتاب. امّا لب الكتاب وسره ، فيأتي في الاخير ، في الخطاب الذي يضعه على لسان الانساني بيترو بمبو *P. Bembo* كاتم سر البابا الخامس الذي اصبح ، فيما بعد ، كردينالاً : فكل ما يفعله رجل البلاط والسيدة المثلى ليس سوى تطهير وتنقية وسلوك وفقاً للافلاطونية الحديثة ، لبلوغ الله والوصول اليه . فلرجل البلاط وسيدته المتكاملة الصفات ان يفعلا كل ما من شأنه ان يقع موقعاً حسناً في اعين الآخرين وان يتحابا اذ ان الحب ليس سوى الرغبـة الشديدة للاستمتاع بالجمال الذي يتألف من نسبة مقدورة من تناغي العلاقات وانسجامها وفقاً لطبيعة الأشياء . وعلى المتحابين ان يعرفا كيف يتجنب الواحد الاغضاء بالآخر وان يتبينا ما في شخص المحبوب من الجمال ، اي من هذا الشعاع الالهي المصفى ، ليهيم بالجمال المجرد الشامل الذي يقود الانسان الى هذا الجمال الملائكي والالهي ، الى محبة الله .

فالانسان اذاً هو كائن الهي ، بطل تنتظره كل الامجاد .

فرجل البلاط هذا ، البطل المجد ، يهوى في الادب وفي الفنون ، العنصر الجمالي كا تفهمه الافلاطونية الحديثة . وقد جاء في الكتاب الذي وضعه بمبو ، عام ١٥١٣ ، بعنوان : « حول الاقتداء » ما يلي : « وكا يوجد في ذات الله ، شكل الهي للعدل والاعتدال وغير ذلك من الفضائل ، يوجد ايضاً شكل الهي للنموذج الكامل ، نموذج من الكمال المطلق» فعلينا ان نحاول الاقتراب ، ما استطعنا ، من هذه الصورة المثلى والاكمل للجمال . ولذا كان علينا ان نقتدي بشيشرون الذي حقق على الوجه الاكمل النموذج المنهجي ، بجلى الله وشعاعه .

قصر فارنيز ومصلى تشيجي

يبدو رجل البلاط ، هذا البطل المتسربل بالمجد في الصورة التي تمثلها القدامى للعالم ، اشبه ما يكون بالملهم للصورة التي رسمتها المسيحية له، وهما في الاساس واحد . فآلهة التاريخ القديم هم « الأبالسة » الذين يضبطون حركة الكواكب في افلاكها ويشرفون بذلك على مقدرات الناس ومصائرهم . ان اخذ الناس بالنجامة وتعويلهم عليها في معرفة طوالعهم ، عبر عنه رفائيل ، لمن كان في آن واحد ، من أخص زبائنه ومن اوفى اوفياء اصدقائه ، الصراف اوغستينو تشيجي ، الذي اخذ على نطاق واسع ،بنظريات الافلاطونية الحديثة وتحمس لها . نرى اول ما نرى ، في قصر تشيجي او قصر فارنيز ، في هذه الصالة البديعة المشهورة بصالة غلاطية ، احدى الحوريات المشهورة في الميثولوجيا اليونانية بمغامراتها العاطفية الصاخبة .فسقف القبة تغشاه رسوم بديعة لمعظم الآلهة تحت اسماء الكواكب السيارة : المريخ ، والزهرة والمشتري ، الخ . فالمواقع التي لهم في القبة الزرقاء ، تتوافق وتتلاءم مع جدول يشير الى مواقع هذه الكواكب السيارة وابراجها بتاريخ اول كانون الأول ١٤٦٠ وهو اليوم الذي رأى فيه اوغستينو تشيجي بالذات النور، وتفتحت فيه عيناه على الحياة فجاءت بنيته ومزاجه وسحابة حياته وفقاً للطوالع التي تعطيها مواقع هذه الكواكب والابراج في الفلك ، من فأل ومصير . وما كان تشيجي يفتح عينيه كل صباح حتى يقرأ في سقف القبة الموقع الذي كان لعطارد في اليوم الذي ولد فيه ، في الدور الأول من برج القوس مما يعني تاجراً مرحاً موفقاً ، بينما كانت الزهرة في مثل هذا اليوم ، في الدور الأول من برج الدلو مما يرمز الى تاجر واقعي يفهم الامور التجارية ويقدرها . ونرى في هذا السقف دوائر (*Tondi*) ترسم فيها حوريات الهواء كما نرى اخرى ترسم حوريات الماء ـ واذ ذلك ، تظهر غلاطية واقفة في مركبها يجرها دلفيلان جميلان تحيط بها آلهة البحر وقد جاشت فيهم الشهوة فراحوا يتخاطفون حوريات ملؤها السحر والفتنة .أما غلاطية النقية ، فهي في حالة من الذهول والانخطاف بالحب الالهي تحملق بعينيها الدعج بسماء الافكار .

عاش تشيجي وفقاً لطالعه ورغب في ان يقع اجله المحتوم تحت تأثير النجوم التي سيرت حياته بينما هي تتحرك وفقاً لمشيئة الله تستمد منه ما لها من حركات وما فيها من انضباط.وهذه الرغبة يبديها له صديقه الحميم،اصبحت محور التصميم الفني الذي وضعه رفائيل لكنيسة تشيجي المعروفة بكنيسة العذراء مريم الشعبية ، التي باشر ببنائها ، عام ١٥١٥ . فعلى القبة نرى رسوم

آلهة الكواكب التي لها مثل هذا التأثير البالغ على مصائر الكائنات والمخلوقات ، فيلطّف الملائكة من تأثيرها ، وفي القمة ، الله الذي يضفي على الكواكب ، في الاسفل ، وهو باسط ذراعيه ، القوة التي تحركها والنظام الذي يضبط سيرها فتنتظم في حركاتها وسكناتها، كما يرتب للخليقة ادوارها واطوارها، ويرعى قبر تشيجي القائم تجاه مدخل الكنيسة تماماً .

الكنيسة السكستينية

كل هذه الجهود والمحاولات ليست سوى توطئة لمسيحية مصفّاة ، منتقاة . من يمعن النظر في التيارات الفنيّة ير كيف ان العقود الاولى من القرن السادس عشر تفادت الموضوعات التي استوحتها الايقونوغرافيا في الدور الاول من عصر الانبعاث الذي يرينا الديانة اكثر اتصالاً بالحياة اليومية، واكثر واقعية تسير مع الأرضيات وتعايش الزمنيات . فقد اعاد القرن السادس عشر الى الدين والموضوعات الدينية ، الحرمات التي يجب ان تكون لها والوقار ، وارتفع بها دفعة واحدة ، الى العلو ، الى الاسمى الذي يضفيه ما فوق الطبيعة . فلنتمعلّ النظر طويلاً في هذه الانجازات التي حققها رفائيل عام ١٥١٦ في الكنيسة السكستينية التابعة للرهبان البندكتيين فيمدينة بايزانس. ونهوضاً منه بالعاطفة الدينية التي جاشت بها نفسه بوصفه من اتباع الافلاطونية الحديثة ، فقد ادى به المطاف الفني الى مريم ام الله ، وعروس الله ، والى يسوع المسيح الفادي . والذي حاول رفائيل ابرازه عندما رسم صورة العذراء السكستينية هو المعنى الذي تزخر به الترتيلة المعروفة : « السلام عليك يا سلطانة » *Salve Regina* « انت يا شفيعتنا حولي الينا انظارك التي تفيض رحمة وحناناً وأطلي علينا بعد هذه الغربة مع يسوع ثمرة احشائك المباركة ». فنلاحظ في الرسم قبل كل شيء ، ستاراً مزدوجاً انثنت اطرافه من كلا الجانبين ، ليكشف لنا ، من هنا وهنالك ، شيئاً من تلك الدار ، دار البقاء . وفي اسفل اللوحة ، من جهة هذا العالم السفلي، جاثياً مكشوف الرأس بجنب تابوت البابا سكتس الرابع ، القديس سكتس شفيع الاسرة البابوية ، اسرة دلا روفير واسرة البابا جول الثاني ، يبرز العذراء مريم ، للمحتضرين والاموات على هذه الأرض . ونرى امامه ، القديسة تقلا ، شفيعة ساعة الموت الاخيرة ، جاثية ، هي الاخرى . وفي العالم الباقي نرى العذراء مريم تسير فوق كرتنا الارضية تظللها سحابة تمد الطفل يسوع نحو المحتضرين والاموات، أسيفة النظر ، قلقة المظهر اذ انها تخشى قضاء الله العادل . ويبدو الطفل يسوع نفسه في وضع جد رصين حتى حدود الجفوة والقسوة كأن به يرى بنظره الثاقب ، كل آلام البشر ماثلة امامه . هؤلاء الناس الذين لاجلهم تجرع العذابات الواناً وفي سبيلهم بذل حياته حتى الموت ، وكأنه يخشى ، هو الآخر ، قضاء الله الذي لا يُرد ، والحكم الذي يصدره بوصفه الديان الأخير .

في هذه الصورة ، لا أثر البتة لمجريات يومية ، او لأي شيء ارضي آخر. كل ما فيها تسامٍ لتبلغ العالم الآخر . وهكذا حققت الافلاطونية الحديثة تصاعدها المتسامي طالما انها وصلت الى السيد المسيح .

فهذه الافكار الرومانية ، والصورة الجديدة التي تبدّت لهذا الكون ، وهذا الفراغ الذي يتحرك فيه الانسان وينشط، كل هذا وما اليه، لم يلبث انعم ايطاليا كلها ومنها اتصل باوروبا فانتشر في معظم ربوعها .

العقلانية البدوانية ـ بمبوناتزي

في هذا الوقت بالذات ، أطلت علينا صورة جديدة للعالم كان لها شأن عظيم في اوروبا تجلت في مدينة بادوا التي قامت فيها جامعة البندقية وفي غيرها من الجامعات الاخرى الواقعة تحت تأثيرها او المرتبطة بها بنهج واحد ، حيث كان يتولى التعليم والتدريس ، هنا وهنالك ، نفس الاساتذة ، في مدينة بولونيا والبندقية وحيث اخذت تسيطر روح عملية يشتم منها الاتجار والتكسب والاثرة ، وروح واقعية قوامها الوطنية تردد مثل هذه الأقوال : « انا اولاً من ابناء البندقية ، ثم انا مسيحي » ، وهي شعارات تتلاءم تماماً مع الذهنية السائدة اذ ذاك .

وكان لا يزال قائماً في مدينة بادوا اتباع لابن رشد مفسر ارسطو وشارحه . فقد قالوا ان النفس البشرية تتألف من عنصرين : العقل السلبي الذي تصله ، عن طريق الحواس ، صورة الاشياء المرئية فينقلها بدوره الى الفهم ، هذا العقل الايجابي الذي يعالج هذه الصور ويجعلها قابلة للادراك . اما العقل السلبي فهو بحاجة للحواس ولذا تراه مشدوداً الى جسم الانسان ويختفي باختفائه . ولذا ليس ثمة خلود شخصي او جثماني بين الناس .

يخضع الكون عندهم لحتمية آسرة ، ويوجد في كل جرم سماوي عقل في مكنته الخروج على نواميس الطبيعة ولذلك تجري احداث غير متوقعة البتة . فالمعجزة ، اذاً، حادث مستمر يجب رده لتفاعل القوى الطبيعية ، ولهذا السبب فمعجزات الكتاب المقدس لم تعد بالدليل القاطع على الوحي الالهي .

قام بين البدوانيين فريق لا ينهج نهج تعاليم ابن رشد نفسه بل يتتبع مذهب احد شارحيه المشهورين ، ظهر في القرن الثالث للميلاد ، هو اسكندر الافرودياسي الذي رأى في النفس حصيلة من حصائل الجسم البشري ، وهو تعليم يستتبع القول ، بفناء الجسم البشري . فما عسى ان يكون بعد هذا ، امر الجحيم والسماء والحشر والنشر والميعاد ، في مثل هذا الاحتمال ؟ وبقي لكل من فلسفة ابن رشد واسكندر الافرودياسي اتباع في اوروبا حتى في القرن السادس عشر . ولعل اهم من هذه النظريات التي ألمعنا اليها ، النظريات الجديدة التي قال بها وعلم بمبوناتزي « آخر الفلاسفة المدرسيين وأول علماء عصر الانوار » كما يلقبونه . فبعد ان تسلح بمبوناتزي بوصفه من علماء النهضة ، بنصوص دقيقة ، موثقة لمؤلفات ارسطو اخرجتها مطابع الناشر المشهور آلد مانوس *Alde Manuce* في البندقية،ضرب بعرض الحائط الشروح والتعليقات التي وضعها توما الاكويني وابن رشد نفسه . ففي كتابه المعنون : « حول خلود النفس » المطبوع عام ١٥١٦ ، وفي كتابه الآخر « حول اسباب ومسببات كل ما يجري في الطبيعة والسحر »

الذي وضعه عام ١٥٢٠ ، راح يدرس هذه المشكلات ، بمعزل عن الوحي والمعجزات ضمن حدود الطبيعة ، مستعيناً بالعقل وحده الذي جعل منه ، في الاساس ، الحكم الوحيد . فهو من العقليين .

والحال ، فالعقل تكتشف عن طاقة يستحيل عليها العمل بمعزل عن الجسم . ولكي يعمل العقل ويتحرك وينشط فهو بحاجة ماسة للحواس ، لا يستطيع تمييز العام (المطلق) الا عن طريق الفرد وهي عملية تتم عن طريق الحواس. اذن ، فالنفس تبتدىء مع الجسم وتنتهي بانتهائه فلا مجال ، والحالة هذه ، للظن بخلود النفس او القول به . ومضى بمبونازي في تهديم فكرة البطولة والفكرة المميزة التي طلعت بها الافلاطونية الحديثة عن الانسان ، المدعو ابن الله . فالانسان ، في نظر بمبونازي ، ليس كائناً متميزاً من كائنات الطبيعة . فهو لا يخرج عن كونه حلقة بسيطة فيها ، احد الحيوانات التي طلعت بها علينا ، حتى انه يبدو احياناً ، دون الحيوانات المتقدمة في تطورها . هنالك اناس اقل خبرة ودراية من القندوس الذي اشتهر بمهارته ومنهم من لا اخلاق مدنية لهم كما نجد عند النحل مثلا ، ومنهم من تجردوا من كل اخلاق ادبية مما توفر بعضه للكلب مثلا ، اذ نراه يأتي ليموت على قبر سيده . هنالك قلة من الناس تمت لها ملكة العقل احدى مميزات الانسان . فالانسان والحالة هذه ، ليس على صورة الله ولا هو ، بعد ، بالبطل الخليق بكل مجد وفخر . ولئن كانوا يردون عليه متهمينه بقتل الاخلاق واستباحة الآداب بعد ان انكر الايمان وابطل عقيدة المثوبة والجزاء في الحياة الاخرى ، كان يجيب ان مكافأة الفضيلة هي الفضيلة ذاتها .

فقد هدم ، في الوقت ذاته ، اسس الايمان والادلة المؤيدة له في الكتاب المقدس الناطقة بالوحي. فالمعجزة ، في نظر بمبونازي ، ليست سوى احدى النتائج المدهشة لبعض المسببات الطبيعية التي نجهل اسرارها تمام الجهل . فالاسباب الطبيعية تكفي وحدها لتفسير هذه الظاهرة ... من المضحك وايم الحق ، ومن الغرابة بمكان ، ان يضرب الانسان عرض الحائط بما يقع تحت الحس وبما يقوم العقل الطبيعي بالدليل عليه فيلجأ الى غير المنظور ويعتمد على غير المحتمل ... ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على العجائب التي اتاها السيد المسيح ، وهذه الخوارق التي تشهد الكنيسة بصحتها والتي سلم بمبونازي بالقول والايمان بها تجاوزاً لاحكام العقل ، وكمجرد فعل ايمان ليس ما يؤيده .

من الطبيعي ان ترذل الكنيسة مثل هذه التعاليم الكفرية الضالة ، المضلة التي راجت حوالي عام ١٥١٢ ، اي عند التئام مجمع لاتران ، اذ ان الكثلكة تعلّم انه لا بد من اسباب قوية تدعو للايمان وان العقل هو من الاسس التي ينهض عليها الايمان وان كان بحاجة ماسة لمساعدة الوحي وتأييده .

ومع ذلك فقد تمتع بمبونازي بنفوذ قوي وكان له تأثير بالغ في النفوس ، اذ أمّ الوف من

الاوروبيين مدينة بادوا ليتلقوا تحصيلهم العالي في جامعتها . . وهذا ما ساعد بالفعل على نشر تعاليم بمبوناتزي والترويج لها في جميع انحاء اوروبا . فمن تلاميذه النبهاء : رابليه ، واتيان دوليه ، وجان بودين ومونتاني وغيرهم من احرار الفكر في القرن السابع عشر ومن اليهم من « فلاسفة » عصر الانوار .

وهكذا نرى ان الافلاطونية الحديثة والفلسفة الطبيعية يتعارضان في الاساس ويقوم الواحد ضد الآخر . ومع ذلك فهما يتمازجان ويجتمعان بالفعل لدى الكثيرين . وعلى كل ان معظم العقليين البدوانيين قالوا بالفراغ والصور والصيغ والمواقف البشرية التي قال بها اصحاب الافلاطونية الحديثة .

العلم ونظرته الجديدة على العالم
فتشينو وكوبرنيكوس

مهما يكن من هذه المفارقات ، فقد التقى فتشينو وبمبوناتزي والبدوانيون واصحاب الافلاطونية الحديثة على صعيد واحد وجمعهم معدود مشترك واحد ، الا وهو الهدف الذي وضعه الانسان نصب عينيه الا وهو السيطرة على العالم والتحكم به ؛ وذلك بما تم له من مهارة وصنعة. وقد راح فتشينو يستشهد بمثل ارخميدس الذي في سبيل تفهمه لاسرار الطبيعة ، وإفهامه تلاميذه كيف يسير الكون ، عمد الى صنع كرات من البرونز تمثل الاجرام السماوية . فعند ما اعاد على هذا الشكل العملي تركيب الكون استطاع ان ينفذ الى اسراره ويدرك مقاييسه وبذلك اصبح وكأنه مبدع السماوات ، وبعبارات اخرى ، شبيهاً بالله . وفي رأي فتشينو ، فالانسان ، بعد ان يجري في الكائنات من تعديلات بما يدخل عليها من تحسينات، وباستكماله لعمل الطبيعة ، بالآلة التي يصطنعها له ، وبالانشاءات والمصانع والمسالك ومعامل الزجاج التي ينشئها ، يحدث في العالم تغييراً تاماً كالتغيير الذي يتناوله هو فيتحول معه ويتكامل. فبمعرفته لاسرار الكون وباحداثه عالماً لنفسه ، يلتقي مع تصميم الله ويصبح ، بالتالي ، شبيهاً به ، هو كله حرية والحرية البشرية هي تغيير متصل وتطور موصول. وهكذا ففكرة التقدم بواسطة العلم، وبواسطة التقنية ، اخذت تتغلغل في صلب الحضارة الاوروبية .

وهذا الشعور بقوة الانسان العظيمة التي لا حد لها ، يبدو على اتمه في هذا التبدل والتطور الذي طرأ على الرمز الذي رمزوا به تباعاً الى الحظ. فقد سبق الانسان ورمز اليه قديماً بعجل او دولاب يدور بسرعة يرفع الناس الى عليين طوراً ، وطوراً يهبط بهم الى أسفل السافلين ، وقد أسقط بيدهم امام هذه القوة العمياء التي لا يدركون من امرها شيئاً بل انها تهزأ بهم احياناً ، وحيناً تسحقهم تحت وطأتها .. اما في زماننا ، فطريقة الرمز ، الى الحظ قد تغيرت تماماً . فالحظ اليوم كمن يشبه راكب سفينة يمسك بالقلوع وينفخ فيها بينما يكون الانسان ممسكاً بالدفة يوجهها ويستعمل في تسييرها ما لديه من قوة وظروف مساعدة وغير ذلك من المسعفات. وليس من باب الصدفة والتوافق قط ان نرى بين الآثار الفكرية التي وصلت الينا ، نعوتاً

واوصافاً مثل : « بطولي » « بطل » ، « الهي »، « نصف الهي » وغير ذلك من نعوت التعظيم والتفخيم ، وما شاكل من الفاظ ، كعظيم وفخم وفوق البشر .

في الصورة التي اثبتها ترتغليا « *Tartaglia* » في صدر كتابـــه الموسوم « *Nuova scienza* » المنشور عام ١٥٣٧ ، تنويه وايحاء بصوران الطريقة التي تخيلها معاصرو ذلك العهـــد للنفاذ الى اسرار الطبيعة والتحكم بها . فهي تمثل ساحة تقع ضمن جدران عالية من الصعب جداً ان لم نقل من المستحيل عبورها وتخطيها . وفي آخر الساحة او الفسحة معبد قبعت فيه الفلسفة ، اذاً ؟ السبيل هو المرور من باب ضيق عبوره او اجتيازه بيد اقليدس ، امير الهندسة وربها . فيفضي المجاز بالباحث الى الساحة ليستقبله فيها عدد من العلماء يتجهون به الى باب الهيكل حيث يقف ارسطو ويسهّل له الولوج ، ليجد ، في الداخل ، افلاطون واقفاً امام الفلسفة ، فيقدمه لها ويتم بذلك التعارف بينهما . هذا رمز كل ما فيه واضح جلي. فالرياضيات هي مفتاح المعرفة اوالمدخل اليها ، والرياضي افلاطون يعارض العالم الاحيائي والاجتماعي ارسطو ، عندمـــا راح يؤكد ان ما هو واقعي يخضع حتماً للعمليات الرياضية ، وان المعرفة الحقة هي بالفعل بناء رياضي خفي . فارسطو وما يمثل من العلوم الطبيعية والاجتماعية المعتمدة على الحواس ، يستطيع القيام بعمليـة جرد للظواهر الطبيعية وتصنيفها ، والقيام بعملية تقييم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم الرياضيات ، هم الذين سيكشفون عن اسرار المركبات وعن الحركات الفعلية التي تخفي عنا الحقيقة .

هذه الصورة الرياضية ، الكمية ، للعالمَ التي اخذت تحل تدريجياً محل الصورة النوعية التي رسمها ارسطو وتهر فيزياءه النوعية ونظامه العالمي الذي يجعل من الارض محور الكائنات ، قد تم إعدادها منذ عهد بعيد . ان تغلب الفلسفة الاسمية على الفلسفة الواقعية جعل عقول النـــاس تسلم بثلاث معطيات اساسية : العلم التجريبي ، واقصاء ارسطو وتنحيته جانباً ، وفكرة الوظيفة الرياضية . كل من فكر قليلاً لا بد من ان يجد نفسه بالفعل امام المشكلة التالية : ان معرفتي للعالم الخارجي ، والتفسير الذي ارتضيته يتوقفان ، الى حد بعيد ، على تفهمي لما هو واقعي ، قائم ، وللاحكام التي أتوصل اليها والاستـدلالات التي اقوم بها . وهذه الاعمـــال الفكرية او العقلية التي اقوم بها ، هل استطيع ان اثق بهـــا واعول عليها ؟ نعم ، كان جواب اتبـــاع الفلسفة الواقعية ، وفي مقدمتهم القديس توما الاكويني . فبامكاننا ، والحق يقال ، ان نتفهم ، بصورة معقولة ، العالم . نعم ، في مقدورنا ان نتوصل بعلم ومعرفة ، الى الحقيقة بان الله موجود هو . هنالك واقع قائم متحيز ، ممكن تفهمه حق الفهم . من رؤية الاشياء الفردية نستطيع ان نتوصل بصورة معقولة ومقبولة ، في كل فئة من هذه الفئات ، الى صورة عامة هي بالفعـــل ، جوهر هذه الاشياء وقوامها . وهذا ما كان افلاطون يسميه الفكر ، النمط ، النموذج المثالي . من ذلك مثلاً ان رؤية ومعرفة الناس تمكننا من ان نكوّن لانفسنا ، فكرة مقبولة عن الجنس البشري ، عن الانسان قائماً بذاته ، عن الانسانية التي تكوّن حقيقة واقعية خارجة عنا هي جوهر الانسان ، وفي نظر افلاطون : فكرة الانسان .

فكيف يعمل العقل هنا ، وما هو سبيله الى ذلك ؟ لنأخذ مثلا ، النـــاس الذين نعرفهم جيداً . فمن كل واحد منهم نرسم او نصوغ صورة ذهنية تخطر او تسبح في الهواء ، وهذا ما يعرف بـ « الانواع الفكرية » وهي صورة اخذت تتخفف كثيراً من مقوماتها المادية المحسوسة . ثم تدخل هذه الصورة الى حواسنا الخارجية لتخفف ، اكثر فأكثر مما لا يزال عالقـــاً بها من مادية بحيث تستطيع ولوج اجهزتنا وقوانا الداخـــلية فتكتسب شيئاً من اللطافة تصبح معها قادرة على دخول جهاز المخيلة ، مع الاحتفـاظ ، حتى في هـذا الدور ، بشيء من ماديتهـا . وعندئذ يستطيع العقل الفاعل ، احدى القوى العاقلة التي تملك بصورة فطرية ، المبادىء الاولى التي تقوي فينا ملكة الحاكمة العقلية والتي نستطيع معها ان نحول هذه المعلومات (تخيلات) الى انواع قابلة للادراك ، خالصة من كل مادية . وبهذا الاتصال تجد النفس الفكرة العامـــة للانسانية ، والممثلة في ذات كل انسان . وهذه الصورة هي صورة كائن تتمثل ، بـذات الوقت في صورة ذهنية عـــامة في النفس وفي صورة فرد ، في كل شخص . ولكل صورة ذهنية عامة مصطلح او كلمة تعبر عنها . وكان افلاطون يقول ان لكل فكرة ، صورة ذهنية عامـــة او فكر وهذه الصورة توجد بكيفية مستقلة ، في ذات الله .

فالانسان هو جوهر في ذاته . فالجوهر هو الذي يعطي المادة صورتها اي قوامها وكيانهـا وهو الذي يوليها ما لها من صفات محسوسة كالشكل والحرارةوالعمر واللون وغير ذلك . وهذه الصفات الخفية التي لا تقع مباشرة تحت الحواس ، هي التي تولي المادة بعض اعراضها المحسوسة كالثقل والخفة ،والقوة المغنطيسية وغير ذلك . فالجوهر مع المادة يكون بشراً يختلف الواحد منهم عن الآخر ، عَرَضاً او خاصة ، انما هم متماثلون ، متشابهون من حيث الجوهر .

ويرى ارسطو في هذه الصفات أعراضاً يمكن ان تقوم بالفعل في ذات الجوهر ، كاللبونة في اعضاء الجسم ، او ان تقوم فيها بالقوة كالشعرة البيضاء في الشيوخ . هنالك حالة ثالثة هـــي الحركة كالشعر الذي وخطه الشيب . فالحركة لا تقتصر على تبـــدل في المكان ، بل هي تحتمل الاستحالة والتغير . غير ان الحركة تحدث تغيـــيراً في الأعراض وليس في الجوهر . فسواء أشاخ الانسان او اقتطع منه عضو من اعضائه فهو يبقى انساناً، فان كان ابيض او اسود او اصفر فهو يبقى دوماً رجلاً ، لان له جوهر الرجل . فهو من نوع الرجل ، سواء اكان من العرق الابيض او الاسود او الاصفر . فهو واحد من هذه الانسانية الواحدة .

والتعليل العلمي للاشياء يقوم ، والحالة هذه ، في المرحلة الاولى ، بالتساؤل عـــن النوع او الجنس الذي تنتمي اليه المخلوقات ، وهي معرفة تتم بعد درس ما لها من صفات محسوسة وما يقوم بينها من روابط وعلائق ، وبطائفة من الاسئلة تعاون على توجيههـــا سقراط وافلاطون واكملها ارسطو في كتابه الموسوم « *Organon* » ، هذه الاسئلة التي تكون الطريقة الشاملة اللازمة للعقل البشري ، التي من شأنهـــا ان تساعد على : التثبت من ان الشيء موجود بالفعل ،

وان لم يكن مما يقع تحت الحواس ومعرفة ما اذا كان ممكن الوجود او ممتنع الوجود ، وما فيه من جوهر وعارض او دائم وزائل ، سبب ونتيجة ، والغاية منـه اي الغرض من وجوده على هذه الارض ، وما هو جوهره ، اي مادته المقومة . وما هو عليه بالفعـل او بالقوة او بالصيرورة وغير ذلك . وعندما تتم لنا معرفة هذه الاشياء نكون توصلنا الى معرفة النموذج الخالد لهذا الكائن ، نكون توصلنا الى معرفة سره او وجوده . خذ مثلاً الحديد او المغنطيس . فعندما يكون الحديد امام المغنطيس ، يتلبس جوهره صفة خفية هي الصفة المغنطيسية التي من خصائصها المميزة ان يجتذب المغنطيس الحديد اليه . فالقوة المغنطيسيـة هي السبب الحقيقي او الاخير للظاهرة التي تجلت لنا. اما في الطور الثاني فباستطاعتنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ، الى تعليل كامل ، جذري ، للكون اجمع ، وذلك بسلسلة من التراكيب الذهنية لهذه المرئيات او المرتسمات الذهنية عن طريق المصطلحات ، والكلمات التي تعبر عنها خير تعبير . وهكذا ينشأ عندنا علم كامل تام ، نصل به الى ذات الكائن وحقيقته الاولى .

وهذا النظام المنطقي يرتكز ، بدءاً ، على فكرة : الزائل المنتهي ، العالم المنتهي في الفضاء حيث الانواع تبقى هي هي بالرغم من التغيرات التي تطرأ على الفرد ، وحيث عـدد الانواع محدود ، هـذه الانواع التي تتألف من اجناس وفوارق محدودة العدد ، وعالم مطبق ، موحد ، محدود .

وجدت الفلسفة الواقعية خصمها اللدود في الفلسفة الاسمية ممثلة خير تمثيـل بشخص وليم اوكهام ، هذا الراهب الفرنسيسكاني ، استاذ اللاهوت في جامعة اكسفورد ثم في جامعـة باريس ، والذي عاش من ١٢٨٠ الى ١٣٤٠ ، فكان الرائد الجليل (*Venerabilis incepkor*) الذي مهد لطلوع العصر الجديد .

أنكر اوكهام ان يكون للصور الذهنية العامة وجود في الكائنات الفردية او الخاصـة . فاذا كان العام قائماً او موجوداً بذاته وجب ان يكوّن من الوجهة العددية وحدة . فان كان وحدة ، ألّف والحالة هذه ، فرداً . فكيف يستطيع الكائن الفرد ان يكون معاً وفي عـدد كبير من الكائنات البشرية في البشر؟ فلو كانت البشرية شيئاً يختلف عن الافراد، اما كانت استوجبت ان يحكم عليها في آن واحد بشخص يهوذا الاسخريوطي وان تخلص في المسيح ؟ ان مثل هذا القول مضاد للعقل والمنطق وهو امر مستحيل . فالفكرة العامة اذاً لا وجود لها البتة .

فالافكار ليست سوى اشارات او علامات تدل على وجود كائنـات في الخارج دون ان تمثلها على الاطلاق . فالنية التي بها اسمع الناس ليست سوى اشارة طبيعية تعني الانسان، لها كل ما للطبيعة من صفة ، كالآهة التي تنم عن المرض او الألم . فالتنهد هو علامة او اشارة تدل على المرض ، انما لا تفيدنا شيئاً قط عن طبيعة هذا المرض ، ولا عن نوعه ، ولا تـدعو للقيام بأي عملية تشخيص او حدس او تطبيب . فلكل فرد من هؤلاء الناس الذين تقع عليهم العـين ، علامة او دالة ذهنية في ادراكنا تقوم مقام الفرد نفسه وتمثله في الحاكمات والتصديقات العقلية

التي نقوم بها . فاذا ما استعرضنا ذهنياً هذه الاشارات وعارضناها بعضاً ببعض ، خرجنا من هذه العملية بفكرة او صورة تعبر عن هذه الاشارات او العلامات مجتمعة ، تمثل رجلاً قائماً بذاته . فالجنس البشري ، هذه الصورة العامة ، صفناها بطريقة التجريد ، من الافراد انفسهم . ولذا فهي ليست شيئاً خارجاً ، بل كائناً عقلياً لا وجود له الا في الذهـــن ، ليس الا . اما الكلمات والمصطلحات فهي الاشارات التي تعبر عن هذة الصور الذهنية . فهي لا قيمة لها البتة بذاتها .

وعلى هذا ، فنحن لا نعرف اية حقيقة او شيء واقعي . فنحن لا نعرف الا ظواهر الاشياء ومدلولاتها . اما الكائن ، فلا سبيل لنا الى معرفته . غير انه اذا كنا نشاهد علامات متتابعة مستمرة تقع دوماً حسب الترتيب ذاته ، امكننا ان نستنتج ، بالتالي ، انه لو وجدنا علامـة واحدة من هذه العلامات ، كان ذلك داعياً لظهور باقي العلامات . فهنالك إذاً امكانيـة علم تجريبي يتيح لنا ان نتصرف ونعمل . فلن نتوصل ابداً الى معرفة حقيقة الاشياء الا ما اراد الله ان يعلنه لنا . فامامنا إمكانيات لا تُعد للعمل والتصرف .

حملت هذه الفلسفة الاسمية التي قال بها اوكهام وعلم ، بعض تلاميـــذه على الوقوف موقف المراقب المستقل وكأنهم يرددون : لا لزوم بعد لننهج نهج ارسطو ، ولا الأخذ بترابط الكلمات وتداعيها قبل مراقبة الظواهر والبحث عن التراكيب المستمرة . كان هذا موقف بعض اساتذة جامعة باريس ، في القرن الرابع عشر امثال البير دە ساكس وتيمون اليهودي وجـان بوريدان في ما يتعلق بناموس الحركة . كل حركة ، تستوجب في نظر ارسطو ، فعل محرك دائم يتميز تماماً ، عن الشيء المتحرك ، كالسهم الذي انطلق من القوس مثلاً ، والذي يستمر سائراً مع انه انفصل عن محركه . فوتر القوس ، في نظر ارسطو ، سبّب اضطراباً في كتلة الهواء المحيطـــة بالسهم ، نقلت بدورها الاضطراب او الحركة الى كتلة اخرى ملاصقة بها ، وهكذا راح السهم يطير سابحاً بفضل حركة الهواء المحيط به . اما عند الفلاسفة الباريسيين ، ولا سيما عند بوريدان الذي كان يعلـّم الفلسفة في باريس بين ١٢٢٧ - ١٢٥٨ ، فالواقع يعاكس تمامـاً،نظرية ارسطو. لنأخذ مثلاً على ذلك سفينة يجرها البحارة في ترعـة او قناة ثم يتركها البحارة فجأة فتسير هي لوحدها بضع خطوات بقوة الدفع . ففي نظر ارسطو هي تسير بفعل الهواء المتحرك المحيط بها ، فتسوقها حركته الى الامام بضع خطوات . فاذا ما غطّينا قعر السفينة بغطاء من جلد او نسيج ونزعنا فجأة هذا الغطاء في ذات الوقت الذي يتوقف البحارة عن جر السفينة ، نكون عزلنا طبقة الهواء التي تتصل مباشرة بالسفينة المتحركة . فالسفينة تمضي ، مع ذلك ، في سيرها الى الامام ، ولو لبضعة امتار . فليس الهواء، والحالة هذه ، هو الذي يسبب لها الحركة . فالتعليل الوحيد ، المقنع هو ان البحارة (المحرّك) أو لوا السفينة (الشيء المتحرك) قوة ما تحركها ، وهذه القوة هي ما نسميه الدفع *Impetus* . وراح بوريدان يضع لنا ، في هذا المضمار ، قواعد ومبادىء لا تزال ، لليوم ،اساساً لبعض اقسام الميكانيكا،منها ان قوة الدفع توازي سرعة المحرك

ومنها ان الدفع معادل للحجم او للثقل النوعي . وقد ذهب في تعليلاته الى ابعد من هذا واعمق اذ قال ان الدفع يولي الأجرام السماوية حركة دائمة ، فرسم لنا بذلك اوليات حركة الفلك على اساس مبدأ القصور الذاتي (*Inertie*) هذه المبادىء بالذات التي كشف عن نواحيها ، فيما بعد غاليليو وكبلر .

واخيراً اوجد علماء الرياضيات من الباريسيين ، ولا سيما اوريسم بينهم واضع علم الهندسة التحليلية ، بعد ان ادخلوا تحسينات ملحوظة على فكرة الدالة الرياضية ، تطوراً كبيراً على العلم التجريبي كأداة للبحث العلمي ، وبها امكن استنطاق الطبيعة وتسجيل الكثير من المعلومات التي جادت بها . وعلى شاكلة الفلورنتيين الذين عجزوا عن الانتفاع بالشكل المنظوري ، استخداماً صحيحاً ، هكذا عجز الباريسيون عن ان يكوّنوا لهم فكرة صحيحة عن الدور الذي يمكن ان تلعبه الرياضيات . فالفيزياء عندهم ، بقيت نوعيـة او كيفية لا رموز او صيغة لها تقريباً ، وانزلوا ، بالتالي ، الدفع منزلة النوع . « من المحتمل جداً ، يقول بوريدان ، ان يكون هذا الدفع صفة من طبيعتها تحريك الجسم الذي تم دفعه » . والظاهر ان من جاء بعده من علماء الرياضيات ، قنع بهذا المقدار ووقف عند هذا الحد ، الى ان فقدت مدرسة باريس نشاطها الخلاق ، خلال حرب المائة سنة وراحت فريسة جدل بيزنطي معطل .

بقي اذاً ، شيء لا بد من تحقيقه الا وهو اعتبار الطبيعة باجملها ، قائمة على تركيب رياضي خفي ، والاهتمام ، قبل كل شيء ، بالكم او الحركة . هذا التبدل في الذهنية والتفكير ، لم يتم على ايدي البدوانيين ، لانهم آثروا البقاء الى جانب ارسطو ، ارسطو التاريخي بعد ان اعتنقوا مقالته وارتضوها سنّة لهم ، ارسطو هذا الذي اكتشفه إنسانيو النهضة ، واخذوا بالتالي يهزؤون من الباريسيين ومن لاتينيتهم المرجاء . فلو عرف الباريسيون ارسطو معرفة صحيحة لاقتنعوا بتعاليمه ، ولما كان البدوانيون من تلاميذ ارسطو الاحيائي ، راحوا ، فوق ذلك ، يعلمون انه من الافضل بكثير ، التعويل على الحواس منه على القياس ، وراحوا ينتقـدون الباريسيين للتحاليل الدقيقة الصحيحة التي قاموا بها . فلا عجب قط الا يجري البدوانيون ، في هذا المجال ، اي تغيير او تبديل في الذهنية المسيطرة . ولعل ما هو انكى من هذا كله وأحز في النفس ، الفكرة التي وقفوا عندها والتي اوجبت عليهم الاعتقـاد بالعجائب والمعجزات ، باعتبار ان في الطبيعة قوى كثيرة نجهل كل شيء عنها . فليس ما يدعو للعجب او للدهش ، والحالة هذه ، ان تذرف التماثيل دمعاً ، او ان تنضح بالعرق او ان تنتقل ، من تلقاء نفسها وبقوتها الذاتية ، من محل الى آخر ، كما يبـدو ان هـذه الفكرة بالذات زادت في انتشار وباء عضال هو الاعتقاد بالنجامة والاقبال على التنجيم باوسع نطـاق ، والاستسلام لمخاطبـة الارواح الموهومة ، وتعاطي السحر واعمال التعزيم ، وغير ذلك .

فبمبونازي ومن وقعوا تحت تأثيره المباشر ، امثال باراسلوس وفانيني وبرونو وكمبانيلا ،

ساهموا على اقدار متفاوتة ، في الترويج لشروح ارسطو وتفسيره تفسيراً ابطانياً *Immanentiste* . فبدلاً من «الله» المتعالي، المتسامي، المتميز كلياً عن هذا العالم الذي برأه من العدم، قالوا باله إبطاني *Immunent* متمازج مع العالم متغلغل بروحه فيه . فالطبيعة التي رأى فيها ارسطو تسلسلاً آسراً للاسباب ومسبباتها ، ومجموعاً ساكناً من الظواهر المعروفة ، تصورها اشبه ما تكون بكائن حي يغمره الله بروحه ويفيض عليه من ذاته . وهكذا تبدت لنا ، هذه الطبيعة ، في كل لحظة ، قوة خفية مجهولة لا يمكن حصرها او كبتها كما لا يمكن التنبؤ بها . هنالك قوة متوزعة تحرك الاشياء . فالطبيعة ملأى بقوى خفية ، واصبحت مجالاً للسحر والسحرة يسرحون فيه ويمرحون .

المعجزات

جماعة ذلك العصر يؤمنون كلهم بالمعجزة ويعيشون ، بالاحرى ، معجزة دائمة ، قائمة باستمرار . أفلا تتنبأ الحيوانات ؟ ، والتماثيل الا تنضح عرقاً منذرة بالأحداث الجسام ؟ والعذراء مريم ام النعم ، ألم تفتح عينيها وتطبقهما ، في مدينة بريشيا ، يوم عيد العنصرة بالذات عام ١٥١٤ ؟ أو لم ير الناس ، في كنيسة القديس مكسيمينس ، في مقاطعة بروفانس ، خاصة الاخوة الواعظين ، حجارة صغيرة تتلطخ بدم السيد ، بعد ان تلقفته مريم المجدلية وهي جاثية عند الصليب ؟ كان الناس يعتقدون ، وطيداً ، ان هذا الدم كان ينفصل عن هذه الحجارة ، نهار الجمعة الحزينة ، وذلك من الساعة ١٢ الى الساعة الواحدة بعد الظهر ، ويأخذ بالغليان والفوران . وفي مدينة نابولي بالذات ، اما كان دم القديس جانفيه يفور ويسيل ثلاث مرات في السنة : اما اذا سال في غير هذه الاوقات ، فلا يتم ذلك ابداً في درجة حرارة تقل عن ١٩ درجة مئوية . وكثيراً ما استعملوا درجة الحرارة التي يسيل فيها الدم لاغراض سياسية .

النجامة

أدى بعث الفلسفة القديمة الى بعث النجامة والتنجيم . فبينما اجزاء العالم في تعاطف شامل يربط فيما بينها ، فمن الله يصدر روح يتصل عن طريق النجوم بالكائنات الحية . فكل جزء من اجزاء الجسم البشري ، وكل حالة من حالات النفس البشرية يرتبط ويتعاطف مع الاوضاع السائدة في الفلك . فالمريخ يؤثر على الكبد ، وزحل على الرئة ، والشمس لها تأثيرها العميق على المعدة . وكل مزاج من الامزجة الاربعة الصفراوي والدموي والبلغمي والسوداوي مرتبط ، هو الآخر ، ارتباطاً وثيقاً ، باحد الاجرام السماوية . وعندما يقع القمر في قران برج الاسد او برج القوس يُستحب القيام بعملية فصد صاحب المزاج الصفراوي . فالنجامة الطبيعية جعلت من الانسان نقطة الدائرة ومركز الثقل في العالم . وهو قول اخذت به الكنيسة ورعته واحترمته .

هنالك ضرب من النجامة يُعرف بقراءة الطالع البشري ، شجبته الكنيسة وحرمته عام

١٥٨٥ . فالكوكب السيار الذي سيطر في السماء يضفي على الانسان الذي يولد تحته ، سمة لا تمحى . فهو يعطي المولود الجديد مزاجه الخاص ويحدد منه المصير المحتوم بشكل لا يتبدل . فليس من عجب والحالة هذه ان يقوموا بكشف الطالع يوم مولد الطفل . وفي هذا السبيل ، قسموا القبة الزرقاء مثلثات ومستطيلات حددت فيها المواقع التي تحتلها النجوم ومواقع البروج كا حددت فيها المواقع التي يجري فيها الكوكب تأثيره عندما يتفق وقوعه في المحل المعين له . وبذلك كانوا يستطلعون من خلال بعض العلامات والاشارات ، الصفات المرتقبة للشخص وما عسى ان يكون مصيره او اتجاهه ، الى التقوى ام الى الكفر ، وتاريخ الرحلات والأسفار المتوقع له ان يقوم بها ، وعدد البنين الذين سيرزق ، وغير ذلك من طوارىء الحياة المنتظرة .

مخاطبة الارواح

كثيرون اخذوا يتعاطون مخاطبة الأرواح ، هذه العادة التي وصلت اليهم من التقاليد اليهودية ، وهي تقاليد تغلغلت ، الى حد بعيد بين اوساط عصر النهضة ومجتمعاتها . فالرموز التي تضفي على الأشياء مدلولها ، وتعين لها المراتب والمواقع ، تتكون من اشارات وقدرات . فالاسماء الواردة في التوراة كتاب الله ، وما تتألف كتابتها من احرف تتلبس قدرة خاصة . وبواسطة هذه الدلائل يظهر الله قدرته وهي دلائل يمكن لنا ضبط بعضها . فالارقام يشار اليها بالاحرف ، ولذا قامت علاقة تعاطف او تداع بين بعض الحروف وبين بعض الارقام . فاذا ما جمعنا الاعداد التي تنجم عن الحروف التي يتألف منها اسم معين ، نصل الى مثل هذا العدد الذي يخرج من جمع حروف اسم آخر ، اذ يوجد تماثل بين هذين الاسمين وبالتالي بين ما لهما من مدلول . وبواسطة الاسماء يمكن ان تؤثر الاشخاص والاشياء التي لها مدلولات خاصة بعضها ببعض .

السحر والمجوسية

كل الناس مؤمنون بالسحر ويستخدمون السَحَرَة والعرّافين ، فنشأت من هذه الأعمال والمراسم التي كانوا يقومون بها الدعاوي امام المحاكم التي راحت تضبط الكثير من اعترافاتهم وتسجل بكل اسهاب ، التفاصيل التي تصف اعرافهم واعمالهم . وكان ينظر في دعاوي السحر والسحرة ، قضاة متخصصون . فالسحَرَة على حسب اعتقاد الناس هم سبب كل الامراض الخفية او المستعصية كالتدرن ، وذبول الصحة ، والعته والخباط الصرعي ، والاضطرابات التشنجية والهستيريا. فيصفون للعشاق والمتحابين شراباً يلهب فيهم الشوق والغلمة ، وينفثون في الجو ريحاً خبيثاً ساحراً ، موبوءاً ينشر بين الناس الحميات والعمه والشلل والجنون ، ويستمطرون المطر في غير اوانه والبَرَد ويثيرون الضباب الناشف المؤذي فيسبب الجفاف والقحط ويفتك بالناس كا يــذرّون رشوشاً مؤذية . ويتلبس السحرة ، في نظرهم اشكالاً متنوعة فيظهرون تارة بشكل بهائم مخيفة ، أو عناكب وذباب وأفاع وثعابين وجراد ، وديكة وهررة وذئاب متلبسة بهيئة بشر . فمع بقاء اجسامهم في مكان معين ، ينفثون رياحاً وطيوفاً تخترق الابواب الموصدة وتنفذ من خلال الجدران ، وتتصدى للنيام في أسرّتهم ،

ويدخلون كما زعموا ، في اجسام ضحاياهم شياطين يجعلون منها مسكناً لهم ، ويجتمعون ليلاً في نواد خاصة بالسحرة حيث يظهر لهم الشيطان بهيئة تيس اسود يأخذ في التحدث اليهم ، ثم يحترق ويستحيل امامهم رماداً فيأخذ منه الحضور ما يساعدهم على الفتك بجيرانهم .

وكان الناس يردون هذه الظواهر كلها الى المذهب الروحاني (*Animisme*) هذا المذهب القديم الذي قال بوجود ارواح في كل الاجسام ، وعليه قامت المجوسية التعاطفية والنجامة ومخاطبة الأرواح . وعملاً بقانون المشاكلة (الشبه يولد الشبه) يتساقط المطر اذ ما رحت تقلد صوت المطر المتساقط بضربك اديم الماء بقرطة فيتساقط المطر ، واذا ما نخست بابرة شخصاً من الشمع يمثل ضحية واطلقت عليه اسم الضحية ، اصيبت نفسها بالنخس في المكان الموافق للمكان الذي تم فيه نخس تمثال الشمع . وبموجب قانون سريان القوة او استمرار الاثر ، يبقى شخصان او شيئان يؤثر احدهما على الآخر ، بعد انفصالهما طالما كانا على اتصال بعضهما ، من قبل . فاذا ما سقيت فتاة عصت الحب وتمردت على شريعته ، شراباً فيه شيء من اثر الحبيب ، لن تلبث هذه الفتاة ان تلتهب عاطفة نحوه وتشتعل غراماً به بعد برودتها الاولى .

وكان المعاصرون ، اذ ذاك ، يعتقدون بتأثير هذه القوة الخفية التي تدعى عندهم *Mana* ، وهي عبارة عن اثر غازي او روحي ينبعث من اجسام السحرة .

اما علماء اللاهوت ، فكانوا يسقطون من حسابهم هذه التعليلات الخرقاء ويعزونها بدورهم بالاحرى ، الى عمل ابليس الذي كان يتلاعب كما يشاء بارادة السحرة الشريرة . وقد عكس بعض هؤلاء السحرة من بعض خفاف العقول ، المراسم الدينية المعمول بها في طقوس العبادة . ساعدهم على هذا ما يقوم من شبه بين بعض طقوس الاسرار الكنسية وعادات السحرة واعرافهم من حركات وسكنات واشكال رمزية اناطوا بها قدرة على إتيان النتائج المتوخاة من هذه المراسم . فابتلاع رشوش الابالسة ، عادة عكست تناول القربان المقدس . والمناولة الشيطانية التي يحاول معها الساحر ان يحمل اعداءه او خصومه على تناول جسد الشيطان ، من شأنها ان تسبب المرض او الموت ، تشبهاً او محاكاة لتناول جسد المسيح ودمه ، فيسكب في المرء حياة النعمة غزيرة ويحفظ النفس نقية جديرة بالحياة الابدية .

كل الناس اعتقدوا بقوة السحرة وتأثيرهم البعيد بعد الذي استقر في اذهانهم من صفاتية هذه الطبيعة الساحرة المسحورة ، وراحوا يفسرون مظاهرها تفسيراً مغلوطاً . فحبات الفول تَسْوَدُّ بعد انقضاض الصاعقة ، والهواء المؤيَّن يكتسب رائحة كريهة كرائحة الكبريت ، مما يبعث على الاعتقاد ، وبالتالي على القول ، بان شحنة الصاعقة كانت مسحورة ، مؤذية او ان صديقي خالداً الذي كان متخفياً في الشجرة عند سقوط الصاعقة ، كان السبب الحقيقي ، مثلاً ، لهذا الحادث المؤسف . والكلب الذي كان محمولاً على عربة تراه اختفى ، بلمحة طرف ، وهو بلون اسود ، فهو ساحر ولا شك ، تلبس شكل كلب ، فقد كانت رجله مجروحة ، وها هي جارتي ، مثلاً تصاب بالقرح ، فقد راحت ولا شك فريسة ساحر .

وكان السحرة، هم على مثل ما وصفنا من عقيدة واعتقاد ، اناساً فسدت ضمائرهم ـ ترمد العين من رؤيتهم للاذى الذي ينضحون به . وكثيراً ما كانوا مرضى لسبب من الاسباب ، تعود عليهم مسؤوليته . ومن الحالات التي تلبسها السحرة حالة من راحوا فريسة الهستيريا . وكثيراً ما راحوا بتأثير من الايحاء والقضاة الذي ينظرون في الدعاوي المقامة عليهم ، والعذابات التي يسيمونهم اياها، يروون، وقد اخذ العياء والضعف منهم كل مأخذ ، الغرائب والعجائب المدهشة عن تصرفاتهم ، وهي تصرفات كثيراً ما كانت بالفعل اقل بكثير مما أتوا وفعلوا . وهنالك حالات كان فيها المتهمون بالسحر بالفعل ابرياء ، فيضطرون ، تفادياً منهم لما يستهدفون له في حالة اعتصامهم بالصمت والامتناع عن الاعتراف ، من عذابات يخضعون لها لحملهم على الاقرار ، لاختراع اشياء لم يقترفوها قط ، او لسرد وقائع يستنبطها الخيال ، تجنباً منهم لهذه الاشراك ينصبها لهم اعداء بيّتوا لهم الشر ، فكانوا يعترفون ، وبذلك يحملون المشتكين عليهم على ملاحقة آخرين بتهمة السحر ، كان عليهم هم ايضاً ان يعترفوا بها والا استهدفوا لعذاب أليم وهكذا كان الاعتقاد بالسحر يغذي في الناس استمرار الاخذ بعادة السحرة . فالسحر ومخاطبة الارواح ، والنجامة والاعتقاد بالمذاهب الروحانية كل هذه وما شاكلها،حالات مرضية تقرب من الجنون ، تبدو على الاجسام الضعيفة البنية او الضعيفة العقل .

الروح الرياضية

لا شك ان القائلين بالافلاطونية الحديثة واتباعهـا هم الذين هيأوا لظهور هذه الذهنية ، الجديدة . قد يكون مثل هذا الوضع نشأ عن تلاقي الافكار التي قال بها افلاطون ، مع تكاثر الابحاث التقنية ، التي تجلى الاخذ بها على أتمه ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، هذه الفترة بالذات التي انكمشت فيها الحركة الاقتصادية ولا سيما اسعار المواد وقامت فيها صعوبات عديدة في وجه المشروعات التجارية ، والصناعية . فليوناردو ده فنشي الذي اخذ بمبادىء الافلاطونية الحديثة ، تدرب في مشغل او مرسم اندره فيروكيو ، هذا المرسم الذي كان كغيره من مراسم الرسامين الفلورنتيين ، في ذلك العصر ، ضرباً من معهد للصنائع والفنون ، تدرس فيه الرياضيات وعلم المناظر ، ونحت الحجارة وتقصيبها وصب البرونز وافراغه ، وفن التخطيط الهندسي ، وتحصين المدن وبناء الطرقات ، وحفر الترع والاقنية ، تلتقي فيها الوان من طوائف الفنانين . عاش ليوناردو ده فنشي ردحاً من الزمن ، في مدينة ميلانو حيث احتشد الى جانب لودوفيك لو مور ، عدد من المهندسين يتعاطون تشييد الحصون وبناء الترع . وقد رسم بيده عدداً كبيراً من هذه الآلات التي اقتضاها القيام بهذه الاعمال . وقد كون هذا الفريق من رجال الفن ، على اختلاف مناصبهم ، صورة عن الكون ، تختلف كلياً عن الصورة التي وضعها له الكلاسيكيون او او البدوانيون . فالواقع المتحيز القائم ، هو حقيقة رياضية . « ليتنكب عن قراءة مبادئي هذه من لم يؤت روحاً رياضية » .

« فليس في العالم من معرفة موثوقة لعلم من العلوم الطبيعية ، ولا لهذه العلوم التي لا تعول

على الرياضيات»، و « ليس من بحث علمي يستحق ان يدعى علماً ان لم يقم على تجربة رياضية » . فالنسبة لا توجد فقط بين الاعداد والمقاييس ، بل ايضاً بين الاصوات والاوزان ، والاوقات والمواقع ، بشكل ما او على قدر ما ... فالعالم كله ، والحالة هذه ، يقوم على الحساب ، ومبدؤه القياس والوزن ويمكن تعليله وشرحه برده الى سلسلة من النسب الرياضية .

حاول ليوناردو ده فنشي تحطيم العالم الارسطاطاليسي فقد رفض رفضاً باتاً التسليم بالقول ان الارض هي محور الكون « ... فالارض ليست نقطة الدائرة في نظامنا الشمسي كما انها ليست في منتصف الكون . انها هي تقع بين هذه الاحجام المحيطة بها والمتحدة معها » . فقد قال بمجانسة الاجرام السماوية مؤكداً ان القمر مشابه للارض وليس فرقداً الغرض منه انارة الأرض . وذهب الى اكثر من ذلك قائلاً : « لو قام في القمر من نظر الى الارض لوجد انالأرض تلعب الدور الذي يلعبه القمر بالنسبة لها ، فهي بدورها تضيئه وتنيره » . وقد يكون قال بان الشمس هي محور الكون ، بعد ان شهد : « ان الشمس ثابتة » .

كذلك هدم ده فنشي نظرية الجوهر والنوع . فاسلوبه في التفكير ، اسلوب العلماء الذين جاؤوا بعده ، امثال غاليليو ، في كل ما يتصل بالزمان والفراغ والكتلة والطاقة . فالثقل ، في رأيه ، ليس جوهراً بل هو نتيجة الحركة . كذلك رأى انه ليس من عناصر ثقيلة او خفيفة بذاتها . فالوزن او الثقل والخفة ليسا جوهراً ، ولا من صفات داخلة في صميم الجوهر ، بل مجرد قوى عارضة ، سببها التجاذب او دفع العناصر بعضها لبعض . فهي نتيجة ترابط وعلاقات . هذا هو بعينه نظر العلم الحديث اليوم .

ففي الوقت الذي كان فيه ليوناردو ده فنشي يدون خواطره العلمية هذه ، كان طالب من اصل بولوني او الماني يدعى نيقولا كوبرنيكوس يسجل اسمه ، عام ١٤٩٧ ، في جامعة بولونيا. لينتقل منها بعد حين ، الى روما (١٥٠٠) ثم الى فرّاره (١٥٠٣) فالى بادوا ، (١٥٠٤ — ١٥٠٦) وقد عُرف عنه تبحره بعلم الهيئة بحيث تعين مساعداً تقنياً لدومنيكو ماريا ده نوفارا استاذ القانون اذ ذاك ، والطب وعلم الفلك . وقد درس كوبرنيكوس تحت ادارته وتوجيهاته افلاطون وتضلع ، على الاخص ، من كتابه : طيماوس *Timée* حيث يتناول بالدرس الطبيعة في مظاهرها المتنوعة . ففي الحوار الذي تدور عليه مادة الكتاب،نرى افلاطون كما رأى الفلاسفة الفيثاغوريون من قبل ، ان العلم هو عبارة عن اعداد ، كما ان الرياضيات في نظرهم ، ليست سوى صيغ هندسية. فالحساب، وهذه المعادلات النسبية التي نعبر عنها اليوم بطريقة جبرية، تمثلها الاغريق ، من قبل ، اشكالاً هندسية . وهكذا فقد رأوا في علم الفلك ، فرعاً من فروع الرياضيات اسوة بالميكانيكا وعلم البصريات . فالاعداد هي مقادير معينة من المدى او الفراغ .ومن هنا أطلت الفكرة الفيثاغورية والافلاطونية التي قالت وعلمت ان العالم باسره يتركب من اعداد ومعادلات وهكذا توصلوا الى النزعة الذرية الهندسية .

نجم من هذا كله امور في غاية الاهمية . ان احسن برهان لاثبات صحة قضية ما ، في نظر

المهندس ، هو ما كان في غاية البساطة اي ما يمكن التعبير عنه باصغر عدد من المقدمات ، وباقل عدد من الكلمات . ان ابسط هذه الادلة هو اجلها على الاطـلاق . والحال ، فالمدى الهندسي هو ، في نظر الفيثاغوريين والافلاطونيين ، المدى الحقيقي وليس المدى المثالي او الذهني . وعلاوة على ذلك ، ان الاجسام تسقط على خط مستقيم كما ان الاشعة الضوئيـــة ، تنتشر هي الاخرى ، بخط مستقيم . ولذا راح الفيثاغوريون والافلاطونيون يعتقدون ان الطبيعة اساسهـا مبدأ البساطة . كذلك نجد عند هؤلاء المفكرين جميعاً الاوليات التالية : « الطبيعة تتبع دوماً اقصر الطرق» ، « الطبيعة لا تأتي شيئاً عبثاً » . « الطبيعة لا حشو فيها ولا نافل ، ولا هي بحاجة الى ما هو ضروري لها » . كل هذه الحقائق اثبتها بحرفيتها الفلاسفة والعلماء الطبيعيون في مـــا علموا وكتبوا ، كما نجدها عند اتباع الفيثاغورية الحديثة والافلاطونية الحديثة . فقد يكون نوفارا على علم بها ، كما ان كوبرنيكوس تشبّع منها ، ولا شك في ذلك .

قــد يكون نوفارا لقن كوبرنيكوس نظرية الكون الفلكي الذي يسوده ويتحكم به تناسق رياضي وانسجام كلي، اذ ان تركيب العالم انما هو تركيب رياضي ، وبين تركيبين رياضيين اصحها هو اجملها . وعن طريق نوفارا ، وصـــل الى كوبرنيكوس تأثير نيقولا ده كوس الذي كان كردينال مدينة بركسن كما تأثر به ايضـاً ليوناردو ده فنشي . ويرى نقولا ده كوس ان نظرية الاعداد هي العنصر الاساسي لفلسفة افلاطون . فالكون كله انسجام متنـــاغ لا نهاية له ، للكائنات فيه نسبها الرياضية . « فالمعرفــة هي ابداً مقاييس ، والعدد هو ، في خلد الخالق ، الصورة الاولى للكائنات » .

قد يكون كوبرنيكوس وضع خطوط نظريته العلمية ، منذ عام ١٥٠٦ ، كما يستدل على ذلك من مقدمة كتابه المعنون *De Revolutionibus* اي حول دوران الفلك ، وهي رسالة وجهها الى البابا بولس الثالث ، وقد تعهدها بالتعديل والتطوير بينما كان يعمل رئيس كهنة فرونبورغ. فرغ كوبرنيكوس من وضع كتابه « حول دوران الفلك » عام ١٥٠٣ ، وخـــلال هذه الفترة كان كوبرنيكوس قد وضع في التداول ، بين ايدي بعض الخاصة من اصدقائـــه ، كراساً صغيراً بعنوان « *Commentariolus* » بسط فيه الخطوط الكبرى لنظريته العلمية. وقد بلغ خبر هذا الكراس ، مسامع البابا ، منذ عام ١٥٣٢ ، بينما كتابه *De Revolutionibus orbium Cæ Les tium* « حول دوران الافلاك السماوية » ، لم يظهر مطبوعاً الا سنة ١٥٤٣ .

ويروي لنا كوبرنيكوس بالحرف الواحد ، قائلاً : « اخذت اشعر بشيء من الانزعاج كيف ان الفلاسفة درسوا ، حتى درجة الاتقان ، كل ما يتصل بادق مخلوقات ارضنـا ، بينما نراهم لا يعرفون شيئاً يذكر عن الحركات التي يقوم بها جهاز هذا الكون الذي ابدعه اقدر المهندسين وامثلهم طراً » . والحال « ان اجمل الامور واجدرها بمعرفتنا » أليست حقاً ، هذه العلوم التي تتعلق بحركات هذا الكون الالهي ، وبحركات النجوم السابحة في القبة الزرقاء وما لهـــا من مقاييس وابعاد وشروق وغروب ، والاسباب الخفية التي تقوم وراء الظواهر السماوية الاخرى

فترسم لنا عنها صورة كاملة . وهل اجمل من هذه السماء التي تحتوي اجمل ما في الكون ؟ وهذا ما تعلنه عالياً اسماء السماء والأرض ، اذ تعني هذه ، النقاء والزينة ، وتلك كال الصورة . فعلم الفلك ، هو ، والحالة هذه طليعة فنون الفكر ، وهو اخلق العلوم طراً بالرجل الحر » . فهو يكاد يكون موضوع كل انواع الرياضيات: كالحساب والهندسة والبصريات وعلم هيئة الارض ومساحتها ، والميكانيكا . وكما انه من خصائص العلوم النافعة ان تؤدي بالعقل البشري الى ما هو احسن وافضل وان تجنبه الشر والرذيلة ، كذلك باستطاعة علم الهيئة ان يحقق اكثر من سواه ، كل هذا ،بالاضافة الى المتعة التي يوفرها للعقل من من الناس لعمري،اذا ما نظر بالفكر الى هذه الامور التي جاءت على خير نظام واحسن ترتيب ، وفقاً لما رسمته العناية الالهية ودبرته ، لا يرى نفسه ، بعد مراقبتها مراقبة مستمرة، محولاً الى الخير ، وبعد الاتصال الطويل بها ، لا يسبّح بحمد الله ، مصدر كل خير وكل سعادة ؟

ومع هذا فبطليموس الاسكندري ، صاحب النظرية الفلسفية المشهور ، لم يستطع التحليق الى هذا العلو ، والارتفاع بفكره الى هذا النظام الالهي . فبالرغم من هذه التعقيدات الغريبة التي تفضي اليها هذه الدوائر الثمانين التي يرسمها الكوكب الدائر على نفسه بينما محور الدائرة يبقى دائراً حول الارض قطب العالم الثابت ، فهنالك حركات ودوران كشف عنها العلم منذ وفاته ، لا تتفق والنظام الذي وضعه . ففي الوقت الذي ثبت فيه ان العالم مستدير كهذه الاجرام السماوية التي تتحرك فيه ، وان هذا الشكل هو اكمل الاشكال طراً ، اذ انه حجم لا يحتاج الى وصلة « وبما ان الارض ، هي ولا شك في ذلك ، على هذا الشكل » كما يظهر من وضع السفينة الآخذة بالابتعاد عن الارض ، فيرى الناظر اليها كيف انها تتوارى شيئاً فشيئاً الى ان تختفي تماماً ، كأنها غابت في اليم » ،بينما « حركة الاجرام السماوية هي حركة دائرية محورية » اذ ان من خاصية الحركة التي ترسمها الكواكب المستديرة هي ان تدور على نفسها ». و « بهذه الحركة بالذات ، وبينما هي تتحرك على نفسها بشكل سوي ، ترسم الشكل الذي لها ، شكل ابسط الاجسام ، حيث لا بداية ولا نهاية » مع ان هنالك على ما يبدو ، حركات تخالف ظاهراً هذه الحقائق، لم يتوصل العلم بعد الى تعليلها وتفسيرها كما يجب. « وبالفعل،فالشمس والقمر يبدو عليهما انهما يدوران تارة ببطء اكبر ، وطوراً بسرعة اكبر . اما الكواكب السيارة الخمسة الاخرى ، فيبدو لنا منها في حركتها وكأنها تعود القهقرى ، وتمر بفترة توقف بين دورتين »،هل هنالك ، لعمري اي زيغ او عدم انتظام من اي شكل في قدرتها على الحركة ، اواي تغيير ما في الكوكب المتحرك على نفسه ؟ « فالعقل يتراجع مرتعداً امام هول هذين الفرضين » لانه « ليس من اللائق قط ان نذهب بالظن الى شيء من هذا في هذه الاجرام السماوية التي جاء تكوينها على احسن ما يكون من نظام وترتيب » .

« ولذا كان لا بد ان نفترض « بان حركاتها المتساوية تبدو لنا وكأنها غير متساوية » لان « الارض ليست محور هذه الدوائر التي ترسمها الكواكب في دورانها ». « وهكذا ،فالكواكب

تبدو لنا احياناً،على مسافة قريبةمن الارض،وطوراً على مسافة بعيدة ، وتظهر لنا حركاتها هذه على هذا الشكل عندما تكون قريبة جداً منا اكثر منها بعيدة . فالحركات المتعادلة التي ترسمها هذه الاجرام السماوية ، تظهر اذا ما نظرنا اليها من ابعاد مختلفة ، وكأنها حركات غير متساوية في اوقاتها » .

ليس ما يؤكد قط ، بعد هذا ، ان الارض هي ثابتة في وسط هذا الكون،وذلك « لأن كل حركة محلية ظاهرة تنجم اما عن حركة الجسم ، موضوع الرؤية ، واما عن الحركة التي يخضع لها الرائي او المشاهد او عن حركة متفاوتة لدى الطرفين » .

و « الحال ، ان هذه الحركة المحورية او الدائرية تبدو لنا رؤيتها وتتمثل على احسن وجه ، اذا ما نُظر اليها من الارض؛ فاذا كان للارض شيء من هذه ، بدت الحركة في الاجرام الواقعة خارج الارض فتسير هي وراءها بالسرعة ذاتها ، انما باتجاه معاكس ؛ وهذه هي في الدرجة الاولى حركة الارض اليومية . وهذه الحركة تبدو وكأنها تجر معها الدنيا بكاملها ، باستثناء الارض والاجرام الواقعة على مقربة منها . والحال فلو سلمنا جدلاً ان الفلك ليس على شيء من هذه الحركة على الاطلاق،وان حركة الارض تتم من الغرب الى الشرق،واذا ما دققنا النظر ملياً في ما ينتج عن ذلك بالنسبة لما يبدو لنا من شروق الشمس ومغيبها،والقمر والكواكب الاخر ، نجد ان الامور هي على مثل هذا الوضع » . وهذا هو بالذات ما ذهب اليه بالفعل ، من قبل ، الفيثاغوريون ، امثال : هيراقليذيس وأكفانتوس ونيكاتوس السيراقوزي .

كذلك،« اذا ما راح احدهم ينفي ان تكون الارض تحتل مركز الدائرة في هذا الكون ... وراح يعتقد،من جهة اخرى،ان حركات الكواكب تبدو وكأنها غير سوية،مع انها منتظمة غاية الانتظام بالنسبة الى محور آخر غير محور الأرض،امكنه ، والحالة هذه ، ان يأتينا بتفسير لما يرى من عدم انتظام وعدم استواء هذه الحركة، لا يكون غير معقول».هذا هو رأي الفيلسوف الفيثاغوري فيلولوس الذي قال بان للارض حركة رحوية لانها تدور على نفسها ، وهي بالتالي كوكب من هذه الكواكب

والحال ، فكل هذه الشواذات التي تبدو لنا في حركات النجوم يمكن تعليلها وتفسيرها بشكل اقرب الى الطبيعة تبدو معها الاشياء اكثر وضوحاً وانتظاماً وانسجاماً، اذا ما سلمنا بان الشمس هي الثابتة في وسط هذا الكون الشاسع الذي يحده ، مع ذلك ، انما على ابعاد لا تقاس ، حجوم نجوم ثابتة تتسع لكل شيء كما تتسع لنفسها،«وان ابتداء من هذه الكرة الارضية هنالك اجرام تدور حول الشمس هي الكواكب السيارة،فترسم الاولى من هذه السيارات ، وهي زحل،دورة حول الشمس تتم في ٣٠ سنة ويليه المشتري الذي يتم دورته في ١٢ سنة ، ثم المريخ في سنتين،وتأتي في المرتبة الرابعة من هذه السلسلة،الدورة السنوية التي تقع ضمنها الارض والشمس. وتأتي في المرتبة الخامسة

الزهرة التي تكمل دورتها في ٩ اشهر . والمرتبة السادسة هي لعطارد الذي يتم دورته في ٨٠ يوماً . وفي وسط كل هذه الكواكب تقوم الشمس . وبالفعل ، في هذا الهيكل البديع ، من يمكن ان يقيم او ان يركز هذا الفرقد في محل آخر اجمل من هذا الموضع الذي يمكن ان يشع بانواره الى كل مكان ويستضيء الجميع بنوره ؟ وهذه الشمس ، وكأنها ترتكز الى العرش الملوكي ، هي التي تتحكم بهذه الاسرة من الكواكب المحيطة بها ... ونجد في هذا النظام البديع ، هذا الانسجام الذي تبيناه في الكون كنتيجة لهذه النسبة القائمة بين الحركة ، وحجم الكوكب ، وهي نسبة لا يمكن ان نجدها على مثل هذا النحو ، في مكان آخر ... فليس اكمل واتم لعمري ، من هذا العمل الالهي الذي خرج من يد المهندس الاكبر ، احذق المهندسين طراً ، وابرعهم » .

بهذه الصورة الجمالية التي رسمها كوبرنيكوس بعد ان قال بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، وجد نفسه مخالفاً للشعور العام ، ومتعارضاً مع حرفية التوراة ومع النظرية الجامعية التي احتضنتها الكنيسة . فبنيانه هذا يرسم صورة علمية جديدة للعالم ، ويستبدل ، اينما استطاع ذلك ، صورة الجوهر بالصورة الهندسية . فالصورة الجوهر هو المبدأ او الاصل الذي يجعل من الماء ماءً ، والماء الصافي سلسبيلاً ، وليس مجرد التقاء ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الاوكسجين . فقد علّم ارسطو ان لكل كائن « صورة جوهر » ، مبدءاً ، حيث توجد روح . فالماء له شكل جوهري يعطيه سمته المفرّدة . كذلك لكل من الكواكب صورته الجوهر ، هذا المبدأ الروحي الذي يجعل من الكائن ، ماهو عليه ، ويعطي كل فرد الحركة التي تحركه . والحال ، نرى كوبرنيكوس يحدثنا ، في كل لحظة ، عن « صورة » ولكن ، حيث كان تلاميذ ارسطو واتباعه يقصدون « الصورة الجوهر » كان هو يقصد دوماً ، بهذا التعبير ، « الصورة الهندسية » . فلم تعد عنده ، طبيعة الكواكب النوعية ، ولا ما لها من مادة وهيولى ، هي التي تجعلها موضوعاً قابلاً للحركة وتوليها هذا الشكل الكروي . فالكواكب هي كرات ، وهذه الصيغة او الشكل هي اكمل الاشكال واتمها ، وهي التي تجعل الكواكب قابلة لتقبُّل الحركة ، اي الحركة الدائرية او المحورية . ففي الصورة التي وضعها كوبرنيكوس لنواميس الكون العامة ، نرى الكواكب تتحرك وتدور على نفسها بكل بساطة ، بفضل مالها من شكل هندسي ، وليس بفضل ما هي عليه طبيعتها . فالاجرام السماوية هي على مثل هذا الوضع : فهي تدور وتتحرك فقط لانها كروية الشكل . كل شي يتحرك من نفسه بسبب ما له من شكل هندسي . فتفهُّم العالم اساسه القياس والعدد .

ولكن اذا كانت الامور كما وصفنا وقدمنا ، فلا حاجة بعد هذا ، « للمحرك الثابت » ، الذي يفرض ارسطو وجوده ، وبالتالي لله الذي يولي « الدفع » الاساسي ، هذا الدفع الذي ظن به فلاسفة جامعة باريس . فلا لزوم ، بعد هذا « لعقول الاجرام السماوية » ، وبذلك تفقد الارض الى الابد ، ما ميزها به عقل الانسان مجاناً ، من خصائص ، ولم يَعُد لها ، بعد هذا ، من كيان ذاتي ، مستقل ، ينتصب في وجه الاجرام السماوية ، كعالم قائم لذاته ، فلها ما للكواكب الاخرى من حركة رحوية ، وتخضع مثلها للقوانين ذاتها ، فهي تؤالف مع الكون كلا متجانساً . فالارض لم

تعد محور الكون ونقطة الثقل فيه ، وهذا الكون لم يعد يتحرك لها ومن اجلها . وهكذا حطّم كوبرنيكوس هذا الكون الارسطاطاليسي الذي كان يوماً ما السر المقلق كما تبدّى من خلال التوراة . فبهذه الصورة الرياضية التي رسمها للكون وطلع بها على العالم ، قلب بها ظهر المجن ، لهذه التراكيب الكوسموغرافية القديمة وضرب بها عرض الحائط ، وبذلك مهد السبيل لظهور كبار علماء الفلك في العصر الحديث ، امثال : كبلر وغاليليو ونيوتن ولا بلاس ، فاطل علينا المفهوم الجديد للرياضيات . فالكون لم يعد سوى مجال هندسي فسيح الارجاء والرياضيات مفتاحه . والشيء الوحيد الذي بقي على الانسان الكشف عنه والظفر به هو ان يتوصل الى ما « للوظيفة » من مفهوم ، فيصل منها الى نواميس الحركة .

السياسة ومفهومها الجديد: مكيافلي

اخضع الفلاسفة المدرسيون السياسة ، لاحكام الدين ، فسعوا جاهدين ، للوصول الى نظام سياسي حر عن طريق عالم مسيحي ، واشتراع خير القونين الزمنية لتأمين رقي الفرد وضمان تقدمه الروحي في مدينة الله هذه ، خاضعة لناموس الانجيل ولمقتضيات اخلاقياته . اما الفلاسفة « الانسانيون » في ايطاليا ، خلال القرن الخامس عشر ، فقد جعلوا السياسة في خدمة اخلاقية تعمل لخير الانسان وتنهض بالمثل التي يتشوق اليها . فقد راحوا يبحثون عن خير الوسائل التي تمكنهم من اقامة مدينة مثالية كما تمثلها فلاسفة ذلك العصر ، قوامها العدل والمساواة ، واحترام القيم الانسانية ؛ فتفتح امام الفرد مجال الارتقاء والتطور . وراح مكيافلي « هذا الفيزيائي الضال الذي طلع به التاريخ » يشيد السياسة على تقييم الروابط التي تشد ، بعضاً الى بعض ، القوى المادية والادبية ، والقدرة على التحكم بهذه القوى وتوجيهها ، وصولاً للسيطرة وبسط النفوذ . وهكذا اصبحت السياسة علماً ايجابياً يقوم على المادية التاريخية غير الاقتصادية .

وهذا التطور يطرأ على التفكير ، نحن مدينون به لرجل أوتي القدرة على «الجمع والتوفيق بين حاضر عامر بالتجربة الحية وبين ما تم له من ثقافة معرفة من خلال مطالعاته وقراءاته المتصلة» . فقد عمل مدة طويلة سكرتيراً لدائرة الشؤون الخارجية في الجمهورية الفلورنتينية التي من اختصاصها الاشراف على الشؤون الادارية للموظفين والحكام المتمرسين بالوظائف العامة ، في هذه المدن الخاضعة للجمهورية منذ عام ١٥٠٨ ، كما تولى ، في هذه السنة بالذات ، سكرتيرية لجنة « حراس الحرية والسلام العشرة » المعنية بتنظيم شؤون الدفاع عن الحرية والاشراف على سفرائها وممثليها . كذلك عمل في الوقت ذاته ، منذ عام ١٥٠٠ ، سكرتيراً « للجنة الميليشيا التي تتألف من تسعة اعضاء » كما كان، منذ عام ١٥٠٢ ، المستشار الخاص للحاكم الاول *Gonfalonnier* الذي كان يتولى سلطات رئاسة الجمهورية . جمع مكيافلي في شخصه هذه الوظائف المهمة حتى سقوط الجمهورية ، عام ١٥١٢ ، ورجوع آل مديتشي الى حكم المدينة من جديد .

فبعد ان جرت تنحيته عن هذه الوظائف الرئيسية التي كان يضطلع بها ، وفرضت عليه

الاقامة الجبرية في قرية صغيرة تدعى سان كسيانو ، انصرف للدرس والتأمل والمطالعة . فقرأ تاريخ تيت ليف وآثار شيشرون التي تبحث في السياسة ، وكتاب السياسة لارسطو ، وكتاب التاريخ لبوليب . وفي عزلته هذه اخذ يهيء لكتابه المشهور : « الامير » الذي انتهى من وضعه عام ١٥١٣ كما انتهى من وضع بحث آخر بعنوان : « خطبة حول المرحلة الاولى من مراحل حياة تيت ليف» . وهدف بوصفه من كبار النافحين في الروح الوطنية في ايطاليا ، الى إنشاء دولة تمثل الشعب الايطالي برمته وتتكلم باسمه وتتولى عنه شؤون الدفاع ومعالجة الشقاء الذي يتسكع فيه .

وأخذ يطيل النظر ملياً في التاريخ كما وصل الينا عبر المؤرخين . « فاذا ما راح الناس يسيرون مع التيار عندما تتعلق الامور بادارة الدول ونظام الحكم فيها ، او عندما ينظر في امر تعبئة الجيوش وقضايا الدفاع ، فذلك لانهم لا يفقهون للتاريخ معنى ولا معرفة لهم باصوله كما يجهلون تماماً اتخاذ العبر منه وتذوق طعم ما يقدم لهم من عظات بالغة (خطبة ـ جزء ١ ، المقدمة) . ويأخذ مكيافلي باستعراض الاسس التي تبنى عليها الدول والدساتير التي تنهض عليها الممالك وتتطور وتبلغ اشدها الى ان يعتريها الهرم والوهن فتحاول التخلص من الضعف الذي ينخر جسمها فيفت من عضدها فتموت وتزول . واعتمد في دراسته هذه على التاريخ المقارن فأخذ يعارض ، بعضاً ببعض ، النظم السياسية التي توالت عبر التاريخ على مر السنين وكر الدهور ، كالجمهورية الرومانية والجمهوريات الاغريقية ، والمدن ـ الدول الايطالية التي قامت في عهده وغيرها من الدول الكبرى التي تقع منه في مرأى العين . وفي هذا السبيل استخدم اسلوب الاستقراء التجريبي ، فعارض النتائج التي يقدمها له التاريخ القديم بالعبر التي يتخذها من العصور الحديثة ، وذلك على ضوء تجربته في الحكم واضطلاعه بامور السياسة . فهو يولي السياسة جل اهتمامه ، هذه السياسة التي تتحكم بكل شيء وتهيمن على كل شيء ، ويطرح جانباً ، كل ما يتعلق بالناحية الاقتصادية والاجتماعية . ولما كان جمهورياً في الصميم ، فقد مر مرور الكرام بتجربة الامبراطورية الرومانية وبامبريالة البندقية الاستعمارية .

ولما كان قد وقع تحت تأثير جامعة بادوا واستلهم الكثير من نظرياتها التقدمية ، فقد رأى المجتمعات البشرية تخضع في الصميم ، لناموس التاريخ يعيد نفسه . فالمجتمعات البشرية تتبع خطاً سوياً في تطورها الصاعد وتكاملها المطرد . فالناس يعيشون في اول امرهم ، متفرقين ، في عزلة بعضهم عن بعض . ثم يأخذون دفاعاً عن انفسهم ضد الاعداء الذين يتربصون لهم الشر ، ودرءاً منهم للمخاطر والاوبئة التي تتهددهم الطبيعة بها ، وهي كثر ، يلمون شعثهم كتلاً متراصة ، ويجمعون شملهم صفاً واحداً . واذ ذاك ، تطل عليهم مشكلة القيادة ، فيختارون من بينهم من يتولى زعامتهم وتوجيههم : اناساً اشداء عُرفوا بالشجاعة والاقدام . وبعد ان يطلع عليهم مجتمع متكون ، يراود الاذهان منهم والخواطر قضايا العدل والظلم ، وما يتصل بهذه الاشياء من اخلاقيات وادبيات ؛ فيصدرون شرائعهم وقوانينهم لتنظيم امورهم الحياتية . وفي سبيل العمل

بهذه القوانين وتطبيقها بعدل،يختارون لهم جماعة اتصف اصحابها بحصافة الرأي والحجى وحسن التدبير . وبدلاً من رجال حرب ، يختارون لهم ملكاً يشرع لهم نظاماً ملكياً ، شورى. وما تكاد تمر بضع عقود حتى يشتط الملك فتأخذه الرغبة باستدامة الحكم في ذريته ، فيخرج على الشورى ويحيل نظام الملك نظاماً وراثياً يعمل بدء ذي بدء ، في سبيل خير المجموع . وبعد لأي من الزمن يتوالى على الحكم فيه بضعة اجيال يأخذ الملك بالتفكير بمصالحه الخاصة ويمضي في استغلال الرعية على ابشع وجه ، ويصبح فيها طاغية جباراً يسيمها الواناً من الضغط البغيض في سبيل ابتزاز اموال الناس . واذ ذاك يشمر زعماء الاسر الكبيرة في البلاد عن ساعد الجد وقد التف الشعب حولهم ، فيعلنون الثورة ويعتنقون معها النظام الديمقراطي ، فيسير هذا النظام في بدء امره ، ونصب عينيه المصلحة العامة ، الا انه لا يلبث حتى يدب اليه الفساد بأسرع مما دب في النظم السياسية الاخرى التي تعاقبت على الدولة ، من قبل ، فيستحيل الى نظام ديماغوجي بغيض يضرب بحقوق الخاصة عرض الحائط . ويسخر الحكام في سبيل اشباع شهوته في الحكم،ويُعْرِضُ عن المصلحة العامة مؤثراً عليها مصلحته الخاصة ومنفعته الشخصية المباشرة لا يبالي بالمستقبل ولا يلوي على مصير . واذ ذاك ، تطل على الحكم شعوب الدم الحار ينبض قوياً في عروقها ، فلا تلبث ان تستأثر بالامر ، بعد ان تكون طهرت الارض بقوة السلاح ، من هذه الاشباح المخيفة التي روعت الشعب واقلقت راحته . ولعل الوسيلة الوحيدة لايقاف الانحدار فالانهيار المحتوم او أقله لتأخير ساعته ، هي في قيام رجل له من العبقرية الادارية والمقدرة ما يستطيع معه وضع حد للانزلاق القتال وذلك بانشائه، في البلاد،نظاماً يشترك فيه دعاة الملكية وممثلو الارستوقراطية ونواب عن الشعب . والسبيل الوحيد لرد المقدور والحؤول دون غزو اجنبي للبلاد يأكل فيها الاخضر واليابس ، هو قيام رجل مبدع، خلاق ، يعيد نظام الملكية الى البلاد ، من جديد . وهكذا دواليك .

في هذه الدورة لنظم الحكم في الدول يستعرض لها مكيافلي، لا بد من الوقوف لدى وضعين متميزين ، مختلفين هما : حكومة شرعية ، وحكومة قائمة فعلاً بقوة السلاح . فالحكومة الشرعية ، هي التي تقوم على تراضٍ او تعاقد ضمني بين الحكام والمحكومين . يترتب على هذا النوع من نظم الحكم ، كما هي الحال في النظام الملكي الفرنسي ، ان يترك للملك ، حق استخدام القوة ، العسكرية والاعتماد على بيت المال في توطيد اسباب الأمن في البلاد. ويجب ان تُسَنَّ كما هي الحال في فرنسا ، مثلاً ، قوانين تجعل الملكية الشخصية والحرية الفردية بحمى القانون . كذلك يجب ان تقوم هيئة تشريعية ، كمجلس ممثلي البلاد في باريس ، يسهر على احترام تطبيق مضمون هذا العقد بروحه . ويترتب على دين الدولة الرسمي ان يَكِلَ الى من يعهد اليهم القيام بالخدمة الروحية من الكهنة وخدام الهيكل ، العمل لدى المواطنين لحملهم على القيام بواجباتهم المدنية خير قيام حتى ولو طُلب اليهم بذل دمائهم في سبيل الوطن . وهذه الحقوق السياسية المعترف بها لبعض الهيئات المنتخبة ، يجب ان تكون من نصيب فريق من الاولياء البورجوازية

ولا سيا التجار بينهم ، بحيث ، يحال دون الاثراء غير المشروع من قبل البعض فيصبحون بما لهم نفوذ ، خطراً على النظام . كذلك يتوجب ان تقوم هيئة تتمتع بصلاحيات خاصة يُعهد اليها النظر في الجرائم التي تهدف للمس من الدستور . فاذا ما استهدفت الدولة خطر الوقوع في قبضة احزاب يهمها حمل احد انصارها الى الحكم ، كان لا بد لها اذ ذاك من قيام دكتاتور يضطلع بمهمة اصلاح الدولة وفقاً لروح دستور البلاد والقوانين المعمول بها ، فيحدد بصورة واضحة ، طبيعة الدولة ، ويهيء لها الظروف المؤاتية للعيش السليم الكريم . اما اذا اشتدت المنازعات وتعاظم شأن الفوضى واضطرب حبل الامن في الداخل ، ترتب على الهيئات المنتخبة ان تعيد الى البلاد نظام الملكية ،القادر وحده ان يفرض احترام الحريات العامة ويصون حرمة القانون.

اما انظمة الحكم التي قامت على اغتصاب السلطة قسراً وعنوة ، فعلى الملك الا يتورع قط من رد الامور الى نصابها ، مهما كلفه الامر من تضحيات عزيزة ، ومهما اقتضاه من ثمن غالٍ ، والا اضطر فيما بعد لمواجهة ما هو ادهى من ذلك . عليه مع هذا ان يحترم حقوق الملكية الفردية وان يحافظ على ما للمرأة من حرمة بين المواطنين . « فالناس يهون عليهم تناسي موت آبائهم واعزائهم ولا يتناسون ضياع املاكهم الموروثة » . من الضروري اصطناع الفضيلة والاعتصام بالمكر . ثم ، بعد هذا كله ، هل من غضاضة قط ان يعتصم المرء ، عند الاقتضاء ، بالكذب والافتراء والخداع والحنث بالقسم المغلظة ، والتجاوز عن الوعد المقطوع ؟ فالغاية وحدها تبرر الواسطة ، ومنفعة الدولة يجب ان تأتي فوق كل شيء وقبل كل شيء . ومن هنا اخذ الفلاسفة النظريون الذين فلسفوا وضع المجتمع ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فكرة مصلحة الدولة العليا . ومع ذلك ، فعلى الامير ان يعمل بما فيه خير المصلحة العامة ، والا كان طاغية وَجب التخلص منه ولو بالقتل والاغتيال. وهنا اخذ مكيافلي يفصل قضية الاغتيال السياسي ويزكيها .

فالعلاقات بين الدول ، سواء أكانت شرعية او حكومات بالقوة وعلى العنف ، سداها المنافسة ولحمتها الحرب . فالحرب وضع طبيعي في المجتمع ، جد نافعة ، اذ تقضي في النهاية ، الى اختيار الافضل بين الدول ، تلك الدولة التي تقوم فيها خير النظم السياسية ، فتعمر طويلاً ، وتُكتب لها الغلبة والسيطرة . فالغرض من المجتمعات البشرية هو تأمين ما يُفضي بها الى تحقيق القوة ، اداة الفتح المثلى ، والوسيلة الكبرى للتوسع ، وهي هذه الاهداف بالذات التي يترتب على السياسي ان يضعها دوماً نصب عينيه . فعلى الدولة ان تتصرف بسرعة في حروبها مع الخارج ، وان تعتمد سياسة الهجوم الرادع ، وان تتنكب عن الحياد . يجب ان تتوفر لها مجموعة من القوانين الرشيدة ، اذ ان السلام ، في الداخل ، هو شرط لا بد منه لاعداد وتأمين جيوش قوية . عليها ان تربي في المواطنين ، بطريقة منهجية ، الفضائل الحربية . فعلى رئيس الدولة ان يكون ، دوماً القائد الاعلى للجيش . على الدولة التي تخوض الحرب ان تتنكر لكل عاطفة انسانية ، وان تضرب بعرض الحائط ، الشعور بالرفق والرحمة ، فتحاول جهدها القضاء

على قوى العدو ، بكل الوسائل الممكنة لديها . ان توازن القوى منصوص عنـــه في العهود والمواثيق المعقودة . وعلى رؤساء الدول الا يتورعوا قط ، والا يترددوا ابداً ، بتجاهل الوعد المقطوع ، وان يلحسوا تواقيعهم اذا ما اقتضتهم مصلحة دولهم ذلك .

وهذه السياسة التي جعل منها مكيافلي علماً باصول ، تعرضت للنقد والتجريح ، ولو عمـل بها وتبنى الاخذ بها كثيرون وعملوا بمقتضياتها . فالاسمـــاء والحوادث لا تفوت احداً لكثرتها ووفرتها .وقد جاءت هذه السياسة الجديدة تكمل الذهنية او العقلية الجديدة ، وهذه التيارات الفكرية التي جـالت في خواطر النـاس ، وهذه الصورة الجديدة التي برزت لهم عـن هـذا الكون ،وتبلورت ، على أتمها في مظاهر العقل البشري على اختلاف مناحيها ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لتنتقل ، في خطوطها الكبرى ، الى اوروبا فتنتشر في جميع ارجائها وتسيطر عليها فترة لا تقل عن ثلاثة قرون . وقد تم وضع هذه النظم في القوالب التي استقرت عليها ، على يد الايطاليين ، قبل غيرهم ، بعد ان عوّلوا على التلبد من تراث التاريخ القديم . فليس من الحماقة ،وليس من الجهالة بشيء ،بعد هذا، ان نسمي هذا كله النهضة او عصر الانبعاث.

الاوضاع الاجتماعية والمجاري الفكرية الجديدة

نرى أنفسنا مسوقين بصورة لا تقاوم ، للخوض بحثاً في الاسباب التي ادت الى ظهور مثل هذه التيارات الفكرية الجديدة . ليس بالمقصود هنا النظر في الحوافز ولا التحري عن الاسباب والدوافع التي أدت الى خلق مثل هذه الاوضاع .ما من ظاهرة تستطيع ان تكون سبباً لظاهرة اخرى الا اذا سبقتها وتمّت قبلهـا ، وكان لها من التغيير والتبديل ما يتفق تماماً وطبيعة التطور الذي احدثته الظاهرة الثانية ، فجاء تأثيرهما واحداً وتم في الخط ذاته . قلما عثرنا خلال دراستنا للمجتمعات البشرية على حـدوث مثل هذا الامر بحيث نستطيع التحدث بمعرفة وتفهم عن اسبابه . فالبحث المزعوم عن الاسباب في التاريخ ليس ، في الغالب ، سوى عملية ابدال الاحكام والتصديقات الفلسفية ، كالحكم المثالي الذي يقول بان كل التبدلات انما تصدر عن العقل الانساني الذي يتبدل ويتلون فجأة مع الوقت ، وكالحكم المادي الذي يقرر ، بعكس الاول ، ان وسائل الانتاج والصراع الطبقي كان عـبر التاريخ المحرك الاول ، والدافع الاكبر. يبقى ان كل هذه الآراء هي احكام عقلية ليس الا .

ولكي نحدد المؤثرات في ايطاليا النهضة ، يجب ان نطبق على الاقتصاد والمجتمعات البشرية والنظم السياسية ،شيئاً شبيهاً بما تم في بعض حقب القرنين الرابع عشر والخامس عشر في الفنون والفلسفة والعلوم ، هذه المقارنة المنهجية ذاتها ، بشأن هذه الانشاءات والموضوعات التي وقعت خلال العقود ١٤٨٠ – ١٤٩٠ – ١٥٣٠ –١٥٤٠ . وقد قادتنا هذه العملية الى التأكيد بان عالماً جديداً ظهر في دنيا الافكار والحساسية . وهل يمكن التأكيد ايضاً بانه أطل كذلك عالم جديد في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ؟ نرى معظم المؤرخين الايطاليين لا يسلمون فعلاً بهذا القول . فالذين ركزوا منهم اهتمامهم على الجانب الاقتصادي يتنكرون ظهور اي طابع أصيـــل او اي

تجدد من هذا القبيل ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، اذ نراهم يعلنون انهم لم يعثروا خلال التقصيات التي قاموا بها ، على اي طابع او اسلوب جديد . فما هو النظام الاقتصادي نفسه يستمر على وتيرة واحدة ، مع بعض فوارق كمية لا يؤبه بها . وعلى هذا يجب ان نقيس ايضاً السياسة . فالمؤرخون الايطاليون يشملون في فترة واحدة كل هذه الامارات (*signorie*) التي طلعت بين ١٣١٣ او ١٣٤٣ الى ١٥١٦ وحتى الى ١٥٥٩ . وبما انهم تبينوا صفات جديدة واضحة بدت على الفن والعلم ، والصورة الجديدة التي رسموها للعالم ، وجب ان نستنتج ان هنالك فراغاً شاغراً بين هذه النشاطات على اختلاف الوانها والنشاطات الاخرى التي المعنا اليها. هذا شيء له اهميته الخاصة ، اذ ان المؤرخين يعملون على اساس شيء مُسَلَّم به وهو ان النشاطات البشرية المختلفة تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل معاً بحيث تؤثر الواحدة بالاخرى . فنحن مع كل هذا امام حدس اولي مسلم به ، تؤيده بعض الوقائع كما تدحضه وتنفيه وقائع اخرى ، من جهة ثانية . قد يكون وقع شيء من الانقطاع وعدم الاستمرار بين المجتمعات البشرية ، الا انه يتعذر ، مع ذلك ، اصدار حكم نهائي حتى في ما يتعلق بايطاليا نفسها ، في مطلع القرن السادس عشر ، اذ ان عملية المقارنة المنهجية هذه بين الاقتصاديات والمجتمع ، والنظم السياسية التي سادت آنذاك ، وبين ما تم منها في الماضي وما طلع منها في العصور التالية ، لم تستكمل عمليتها كل اطرافها .

فكل ما يمكن عمله الآن هو ان نكتفي بتسجيل الوقائع التي يصح اعتبارها ، بصورة معقولة ، ظاهرات رافقت هذا التبدل الحاصل في العقلية واساليب التفكير ، وان نتبين فيما اذا كانت هذه المفارقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشاهدها بين الممالك والامارات الايطالية ، لا تنم عن تباين وفوارق في مناحي التفكير ، تنبىء بوجودها ، هذه الانجازات التي تمت وظهرت في مجالات الفن والادب والعلم .

ففي مطلع القرن السادس عشر ، نرى روما تحل محل فلورنسا وتأخذ منها مركز الصدارة في حركة النهضة ، فتصبح محور البعث الفني والذوقي في البلاد . فالفن الروماني والانسان الروماني اصبحا النماذج التي يحتذى حذوها في ايطاليا باسرها ، كما ان ايطاليا اصبحت بدورها الغرار الذي سارت عليه اوروبا . ومنذ ذلك الحين تصبح روما قبلة الفنانين ، وملتقى الادباء الايطاليين فيفد عليها رفائيل من مدينة اوربين ، وبمبو من البندقية ، وكستغليوني من اوربين ايضاً ، وميكالو انجلو من فلورنسا ، بحيث نكاد لا نرى بينهم فنانين وادباء طلعوا من اوروبا نفسها . فما هو سبب توافدهم على مثل هذا النحو يا ترى ؟ لا شك ان الثورات المتكررة التي تضرست بها فلورنسا أدت الى اضعافها وايهانها . اما السبب الاول ، فهو ولا مراء بذلك ، التطور العظيم الذي شهدته الدولة البابوية في عهد آل بورجيا ، مع البابا جول الثاني . من هذه الدولة الحضرية ومن عاصمتها روما ، التي احاط بها من كل صوب ، امراء مشاغبون وبلديات تسودها الفوضى ، اراد البابوات ، ولاسيا البابا جول الثاني منهم ، ان ينشئوا منها دولة اقليمية

موحدة ، مطلقة الحكم ، عصرية الطابع . وفي هذا السبيل، قضى البابا جول الثاني صدراً كبيراً من حبريته يؤدب ، داعياً اياهم للطاعة والولاء ، البارونات الرومانيين ، كما سعى لاستعادة ما انتزعه من الممتلكات الخاضعة للدولة البابوية ، سكان البندقية وميلانو وغيرهم من الامراء المحليين . وفي هذا السبيل ، بذل البابا جول الثاني نشاطاً جماً لجعل ايطاليا برمتها وحدة متراصة ضد الاجنبي المحتل المغتصب لخيراتها . وليجمع الايطاليين صفاً واحداً ويوجههم متحدين ضد البرابرة . فشل مسعاه بالطبع ولم ينجح الا باخراج الفرنسيين وتوطيد نفوذ الاسبان ، على كره منه . وهذه الجهود الكبيرة والمحاولة الجريئة يبذلها جول الثاني لاعطاء البابوية دوراً وطنياً شاملاً وامبريالياً ، انما كانت صورة ناطقة لنشاط عارم وبذل مُضنٍ ، يبذلها البابا جول رغبة منه في ان يُظهر مظهر السوبرمان ، او بطلاً وطنياً . جاشت نفسه بالعظمة فراح يسعى ما وسعته الحيلة لتحقيق الفكرة التي راودت خياله بجعل البابوية الرومانية تبز روما القديمة ، روما القياصرة ، بما تم لها من عظمة وسؤدد ومهابة يضفيها عليها السيد المسيح ونائبه على الارض . فهذا الجهد ، وهذا البذل، وهذا التعطش للعظمة البشرية، هو من بعض ما جاشت به الافلاطونية الحديثة ، التي ميزت هذه النهضة الانسانية الشاملة .

ضرب جول الثاني بتصرفه هذا تقليداً ذهب بعيداً في التقاليد الايطالية . انتقل الى هَوِيّ الآداب والفنون البابا ليون العاشر الذي عرف ، بالمعاهدة التي عقدها عام ١٥١٦ ، ان يبعث نشاط الملكية البابوية في الكنيسة، كما نزعت نفسه الى إقامة الحكم الالهي او حكومة ظل الله .

وفي هذا السبيل ، استطاع البابا ان يستخدم كل ما في الدولة البابوية من طاقات وقدرات ، هذه الدولة التي تألفت قبل كل شيء من البلاط الذي يضم نحواً من ٧٠٠ شخص ، يؤمنون تحت سلطة البابا الشخصية ، المطلقة ، الخدمات العامة ومسؤوليات الحكم ، بما لها من منظمات وهيئات . فالى جانب اولاد اشقائه واعضاء اسرته ، وكتبة سره والموظفين ، هنالك طغمة من رجال الدين ، والاشراف والفنانين والصناع ، دوماً على استعداد كلي لتنفيذ ما يعهد اليهم من مهمات وخدمات وتعليمات . أوليست روما جنة غناء تفيض نعمى وثراء، يقصدها العديد من الاغراب النوابغ ، طلباً للعيش الرغيد والثراء السريع ، يتحرقون شوقاً لشرف العمل في البلاط البابوي ، او تَصَيُّداً لامتيازات واعفاءات كنسية في اي صقع من اصقاع الارض ؟ والعيش في هذا البلاط عيد دائم . والى هذا ، فلكل كردينال من كرادلة الكنيسة هو الآخر بطانته وحاشيته التي تتألف من عدد كبير من النبلاء والاخصاء والادباء والفنانين . فقد تألفت بطانة الكردينال فارنيز ، حوالي عام ١٥٢٦ – ١٥٢٧ من ٣٠٥ اشخاص ، وحاشية الكردينال سيزاريني من ٢٧٥ شخصاً ، والكردينال اورسيني من ٢٠٠ شخص . كذلك لكل من هؤلاء البارونات والاشراف الذين يرأسون مصالح الدولة ودوائرها حاشياتهم العريضة وان لم تكن على مثل هذه الضخامة من الاتباع والحشم والخدم التي توفرت للكرادلة . ومع هذا ، فحاشية دومنيكو مسّيمي لم تكن لتقل عن ١٧٠ شخصاً ، بقطع النظر عن الضيوف الطارئين .

والبابا الذي يحكم روما بواسطة الكردينال نائبه ، والذي يؤمن لها الحياة بواسطة بلاطه ، يجد في الرومانيين خير عضد لسياسة العظمة والابهة التي ينهجها . « فالشعب الروماني » هذه الفئة الصغيرة من النبلاء المسجلة اسماؤهم في سجل المجلس العام ، بعد استثناء هؤلاء الاشراف الاقطاعيين القدامى منهم ، يعتبر نفسه الوريث الشرعي لروما القديمة ، ولذا حمل كل عضو من اعضاء مجلسها البلدي « لقب قنصل » ، وعلم الدولة نفسه يحمل هـــذه الحروف الرمزية : S. P. Q. R. التي تختصر العبارة *Senatus Populusque Romanus* اي مجلس الشعب الروماني كما ان الشعب اعتبر دوماً روما « المدينة » *URBS* . فكأن بالشعب اجمع يهفو للعـــلى والعظائم . والعالم المسيحي نفسه يغذي هذا الشعور العارم ويزيده تأججاً واضطراماً. فالحجاج والسياح وكل من جاشت نفسه من الفنانين بالطموح ، يتوافدون على روما التي تعيش عـــلى استغلال الوافدين واعتصارهم ، مدينة تحفل بالنبلاء واصحاب الوظائف الكنسية والخـــدم والحشم ، تكاد العين لا تقع على اي ممثل للبورجوازية بينهم .

والآثار القديمة تمثل جانباً هاماً من الدور الذي تلعبه روما . فهي مـــن اغنى بقاع الله بالآثار والعاديات، ومن اوقعها اثراً في النفوس طراً . وقد ازداد الاهتمام البالغ بالتنقيب عن هذه الآثار منذ حبرية البابا اسكندر السادس حيث عثر المنقبون في رابية البلاتين ، على « المهرجين» *Grotesques* . وفي عهد البابا جول الثاني قامت حفريات علمية، منهجية عثر فيها على آثار مثيرة منها تمثال « لاوكون *Laocoon* » و « زهرة » الفاتيكان ، وتمثال كليوبطرا . ومنـــذ ذلك الحين ، اخـــذ الامراء الكرادلة يحرصون جهدهم ، على تكوين مجموعات أثرية لهم بلغت شهرتها ارجاء اوروبا جمعاء . وفي سنة ١٥٥٠ ، بلغ عدد هذه المجاميـــع الفنية ٩٥ مجموعة في رومـــا وحدهـــا ، توافد الفنانون من جميع الاطراف ليمتعوا الانظار برؤيتها والتفرج عليها واستلهام نماذجها .

وفي سبيل تقوية سلطانه كملك لدولة اقليمية بدلاً من دولة ـ مدينة ، راح البـــابا ينمي موارده المالية ، ويزيد من دخله . « فالرسوم الروحية » التي كان يفرضها على العالم المسيحي خفت مداخيلها جداً منـــذ الانفصال الكبير (١٣٧٨ - ١٤٢٩) والواردات الرئيسية التي امكن للبابا التعويل عليها ، لم تعد التبرعات التي تجود بها المسيحية جمعاء ، بل واردات الدولة البابوية . ولذا كانت الضرائب المباشرة وغير المباشرة منها تتضاعف باستمرار . واخذ البابوات يعوّلون ، اكثر فأكثر ، على الرسوم التي كانوا يستوفونها من بيع وظائف الدولة ومـــن نظام التحويل النقدي العام . فبيع المناصب الكنسية والاعتماد عـــلى اصحاب المصـــارف ، ثم انشاء نظام *Monti* او القروض العامة موزعة الى حصص او أسهم مالية صغيرة يتحملها رجال المال واصحاب المصارف ، تلك كانت اهم الموارد التي كانت تغذي صندوق الدولة البـــابوية ، الى جـــانب بعض الاحتكارات الرسمية كاحتكار الملح ، مثلاً والشب المستخرج من مناجم تولفا *Tolfa* الغنية ، الذي كان يستهلك على نطاق واسع كقاصر في صناعات النسيج ، في اوروبا .

الا ان الاعباء الباهظة التي اقتضاها تشييد الابنية الضخمة التي ارتفعت في روما إذ ذاك، ونصرة الادب وحمَلته ، والفن واصحابه ، والدفاع عن المسيحية ضد تهجمات الاتراك وتعدياتهم ، والحد من تمرد اللوثريين وعصيانهم الديني ، كل هذه الامور فرضت على الدولة البابوية اعباءً مالية باهظة ارزحتها .

لعبت البندقية ، بعد روما ، الدور الاكبر ، في رعاية الفنون والعلوم والحركة الفكرية ، في جميع ارجاء ايطاليا. فدولة البندقية هي عبارة عن مدينة ـ دولة ، الدولة المسيطرة قوامها اصلاً ٢٠٠٠ من سراة القوم واشرافهم ، المولودين من زيجات شرعية ، كلهم اعضاء في المجلس الاعلى *Grand Conseil* الذين من بينهم ينتقى معظم الحكام وكبار الموظفين. وهؤلاء الاشراف هم من رجال الاعمال ، تجار ، في الاصل، نظروا الى الصنائع والمهن الحرة نظرة انتقاص ، ملؤها الهزء والسخرية ، فانزلهم الناس في اوروبا ، منزلة النبل والحسب والنسب . فالامراء وعظماء الارض في اوروبا جمعاء ، سعوا دوماً ليكونوا اعضاء شرف بين طبقة النبلاء في البندقيـــة . وبالفعل فقد اقتصرت هذه الدولة على عدد اصغر من الرعايا الذين تألفوا من بضع مئات من كبار الاغنياء وأثرياء القوم ، سيطروا على الوظائف الكبرى واحتكروها في صلبهم ، بعد ان أمنوا لها منافع مادية سنية لمن كان دونهم مرتبةً في مصاف النبل. ففي نظر هؤلاء النبلاء ، عز دولتهم جمهورية البندقية ، ان تكون في الذروة من العظمة والفخامة والسلطان ، بحيث تفرض احترامها على الطبقة البورجوازية وعلى هذا اللمم من سواد الشعب في الداخل ، كما تفرضه على اعداء وخصوم « صاحبة الشوكة » *Sérénissime* في الخارج . من هنا هذه الحفاوة ، وهنا الاهتمام البالغ الذي احاطت به مجالي الحياة الفكرية والعقلية . فجامعة بادوا اصبحت فعلاً ، جامعة الدولة ، بين اساتذتها اشهر وألمع اسماء الارستوقراطية في البندقية . ولكن رجال الاعمال ، هؤلاء التجار ذوو التفكير الواقعي ، الشغوفون بالامور العملية ، المهتمون ، قبل كل شيء آخر ، بالقوة والامور المالية ، المعروفون بفتورهم الديني ، المتحرزون من الكنيسة ورجالها ، الآخذون بالشك والتشكيك ، كانوا اقل اهتماماً بالافلاطونية الحديثة منهم بتعاليم ابن رشد وفلسفة بمبوناتزي . اما الفن، فقد نظروا اليه نظرتهم الى مصلحة عامة، الى مرفق من مرافق الدولة يجب ان يذيع عالياً امجاد « صاحبة الشوكة » ، وقوتها التي لا تقاوم . ومع ان العاملين عندها في حقل الفن جاؤوها من اوروبا ، فقد سيطر عليها ، مع ذلك طابع فني خاص ، هو طراز البندقية ، فن الوطن البندقي ، فن يتشعشع بالانوار والالوان ، في مدينة البطائح والغيـاض والرياض . فالرسامون منهم يقتصرون ، في بدء الامر ، على مدينة البندقية ، فيضعون رسوماً متنوعة للدوغا ، ولمظاهر الحياة العامة في الاسواق ، والمجازات والمعابر ولسفن البندقية وأرصفتها . اما في قصر الدوغا ، المجلى العقائدي لسياسة البندقية ، فكنت ترى الدوغا يحاول التوفيق بين البابا والامبراطور بربروسا ، وهو مشهد ، ان دل على شيء ، فعلى دخول البندقية سياسة اوروبا العليا ، هذه السياسة التي اتسمت دوماً بالحفاظ على التوازن بين البابا والامبراطور .

ففي السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، في هذه الآثار الفنية التي وضعها جيوفاني بليني ، عام ١٥١٦ ، اي في اواخر حياته ، وفي صورة « العاصفة » بريشة جيورجيوني، وفي صورة « زهرة درسدن » تطل علينا نماذج جديدة ، للانسان المدى الجديد ، الصورة الجديدة ، « صورة المسيح » بريشة لوتيتيان في مدينة بريشيا ، وفي صورة « القيامة » التي وضعها عام ١٥٢٢ ، يطلع علينا رياضي اولمبي كأنه جوبتير طائراً . فالرسامون يعملون على الاخص للخارج ، لفريق من الامراء ، يسكنون على مقربة من البندقية ، امراء آل أستيه ، وامراء آل غونزاغا . ولعل من احرج الازمنة التي مرت بها البندقية ، هذه الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ – ١٥٣٠ ، هذه الفترة التي تم فيها للبرتغاليين اكتشاف طريق الافاويه والتوابل ، طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند . ولكن بعد سنة ١٥٣٠ ، نرى الفن يعود الى التجلي والازدهار من جديد في البندقية ، مع جاكوبو سنسوفينو الذي شيد المكتبة المرقصية ، والهيكل الذي اقامه في مدرسة القديس مرقص وقصر كورنر ، ومع الحقبة التي أشع فيها لوتيتيان. فقد عرفت البندقية بالطبع ان تستغل قدوم الفنانين الرومانيين اليها ، وقد توافدوا عليها هرباً من الحصار الذي تعرضت له روما عام ١٥٢٧ ، فجاءها جاكوبو سنسوفينو ، عام ١٥٣٠ ، كما جاءها ، لمدة وجيزة ، ميكالو انجلو ، اثر الهلع الذي نزل بمدينة فلورنسا ، فزود بارشاداته وتعليماته الفنية فريقاً من الفنانين البنادقة . فقد تم للبندقية ان تتغلب على الازمة الاقتصادية التي ألمت بها ، فعرفت كيف تفيد من التوسع الذي طرأ على الاسواق الاوروبية ، فباعت اوروبا من الافاويه ، بقدر ما كانت تبيعها من هذه التوابل قبل ان يكتشف فاسكو ده غاما المسالك التجارية الجديدة الى الهند والشرق الاقصى ، بحراً ، بحيث بلغت صادراتها منها مدينتي روان وأنفرس. كذلك انشأت لها صناعات جديدة . فهي بعد أزمة ١٥٣٠ ، اغنى واوفر قوة ، وامنع جانباً ، وأشد بأساً، واطول باعاً ، منها في اواخر القرن الخامس عشر ، وان كان لحق بنفوذها بعض الغضاضة بعد ان برزت في اوروبا دول لها شأنها . ومما لا شك فيه قط ان البندقية اصبحت بعد السطو الذي تعرضت له روما ، وعلى اثر احتلال ميلانو على يد جيش شارل الخامس، وفرض الاسبان حمايتهم على فلورنسا ، الدولة الحرة الوحيدة في كل انحاء ايطاليا ، توافد اليها كل من نجوا بانفسهم من الطغيان الاسباني الذي عانت منه المدن الايطالية الأمرّين . ويروي لنا شاهد عيان من ذلك العصر : « ان البندقية برزت ، اذ ذاك ، صورة عن الجمهورية الرومانية .. ففي هذا العصر القاتم الذي يكتنفه الظلام ، بقيت البندقية وحدها مشعلاً مشعاً في كل ايطاليا ، والشاعرة الايطالية فكتوريا كولونا تصرح عالياً وتعلن للملأ في في احدى منظوماتها الشعرية : «أن أسد القديس مرقص وحده يحافظ ، في كل ايطاليا على الحرية العريقة ، والامبراطورية العادلة » . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يعتري سكان المدينة عاطفة من الزهو وشعور بالمباهاة والفخر ، وان تجيش في صدورهم هزة شعورية لما تم لمدينتهم من قوة ومنعة وعظمة ، تجلت في هذه الانجازات الفخمة التي تنبض بالعظمة الرومانية .

بعد روما والبندقية ، نرى دوقية فرّاره تلعب ابرز دور ، بين المدن والامارات الايطالية في مجال الآداب والفنون والعلوم . فدولة فراره هي الامارة التي آلت مقاليـــد الحكم فيها الى اسرة أستيه *Este* . فهي عبارة عن مقاطعة صغيرة "اقتُطِعَتْ" من ممتلكات الدولة البابوية ، ووقعت ضمن الممتلكات التابعة لمدينة البندقية ، على اليابسة ، فكانت ملتقى الطرقات التي تجتاز سهل بادوا ، هذا السهل الذي اتخذت منه الجيوش الضاربة ممراً لها . فطلوع الدول وبقاؤهـــا مرتبط بالطبع، الى حد بعيد ، بلعبة سياسية لبقة ، لحمتها سلسلة من المصاهرات، وسداها توازن القوى بين مملكة البابا والبندقيـــة وميلانو ومنتُوَا وحلفائهم في الخارج: كفرنسا واسبانيا والامبراطور . ولكن هذه اللعبة تبقى ابداً دونما اثر وتذهب هباءً منثوراً، اذا لم تعضدهـــا قوة عاضدة ، تمثلت على خير وجه وعلى امثل صورة ، في هذه التقنيات الحربية التي عرف امراء أستيه ان يحققوها ، فجعلوا منها عدة حربية هي خير ما طلع من امثالها في هذه الحقبة . فقد تم للدون الفونسو الاول (١٥٠٥ - ١٥٣٤) اقوى وادق مدفعية في كل ايطاليا ، حاول الجميع ان يستعينوا بها ويفيدوا من فعاليتها . فليس من عجب والحالة هذه ، ان تكون حرفة السلاح في فراره ، خير الحرف وامثل الفنون واجداها . اما الفريق الاجتماعي الذي تحكم بهذه الامارة فقد كان طبقة من النبلاء احترفوا الحرب ، عرف امراء أستيه ان يؤلبوهم حولهم ، كما عرفوا ان يستدنوا منهم ، العشرات من الأُسر والعوائـــل النبيلة المحتد ، ذات التقاليد العسكرية ، يجلو اعضاؤها عن الريف ليعملوا في بلاط هؤلاء الامراء. وبالاضافة الى هذا كله ، وفد الى فرّاره من من جميع اطراف ايطاليا ومن غيرها من الدول الاوروبية ، عـدد كبير من فتيان النبلاء يتخرجون في بلاط آل أستيه على مراسم البلاط وشؤون الحرب ، وقد زاد هذا البلاط ألقاً عندما تعين أحد ابناء هذه الامارة ، هو هيبوليت أستيه ، عام ١٤٩٣ ، كردينالاً وله من العمر ١٢ سنة ، فأخذ يؤلب حواليه مجموعة طيبة من الاحبار بين رؤساء أساقفـــة واساقفة ، فاذا ببلاط الأمير يضم ، عام ١٥١٦ ، اكثر من مائة نبيل يعملون كلهم في خدمته وسبيل مرضاته . وهؤلاء النبلاء المقيمون في البلاط ، هم سمرا ، الامير ، ملازمون له يعملون في خدمته والنهوض بشؤون الامارة فيجري عليهم الارزاق إقطاعات كنسية وامتيازات. فاذا ما عرفوا ان يلقوا حظوةً لديه ، نالوا وظائف عالية في الدوقية ، فيرقى بعضهم الى مرتبة قائد في قلعة او حاكم ولاية ، ولن يلبثوا ان يثروا اثناء تضلعهم بمهام الوظيفة ،فيشترون العقارات ويبتاعون الاراضي ويسهمون في مشروعات تجارية او مالية مع فريق من اصحاب المصارف ورجال المال والاعمال ويشتركون مع اليهود باعمال الربا ، وهم على اتصال مباشر بالطبقة البورجوازية هذه الطبقة التي كثيراً ما رأوا فيها النور وطلعو من بين صفوفها .

وجامعة فرّاره هي الاداة المثلى بيد امراء أستيه والنبلاء . يتولى تعيين الاساتذة فيها لجنـة خاصة تتألف من اثني عشر مستشاراً كلهم من النبلاء ، وتحدد لهم المرتبـــات والاجور . ازدهرت هذه الجامعة وارتفع لكلية الحقوق فيها اسم وشهرة، معظم طلابها من ابناء النبلاء كما

اشتهرت مدرسة الفنون فيها . وعلى عكس البندقية راجت فيها التعاليم والمثل الفيثاغورية والافلاطونية . اما رجال البلاط فكانوا يستجيبون بالاحرى ، لشعارات الافلاطونية الحديثة فيما يتعلق بالانسان . كل شيء ، يتغنى بأمجاد بلاط فرّاره . وفي فراره يزدهر على الاخص، الشعر الفروسي ، كما نرى ذلك جيداً في ملحمة : « رولان العاشق » التي وضعها بويارده ، احد رجال البلاط ، اذ ذاك وحاكم مدينة مودينو ، وهي ملحمة تم وضعها بين ١٤٨٢ – ١٤٩٤ ، ولا سيما في المنظومة الشعرية العصماء التي وضعها ارْيوست بعنوان : « رولان الثائر » *Roland furieux* التي ظهرت في نصفها الاول ، في ٢٢ نيسان ١٥١٦ . اما الشاعر ، فكان احد النبلاء التحق ببطانة هيبوليت أستيه ، منذ عام ١٥٠٣ ، كما عمل في بطانة الدوق الفونسو من سنة ١٥١٨ – ١٥٣٣ يتغنّى أريوست بمثل البطولة ، كما يتغنى بامجاد بطل القصيدة . يبلغ البطل الذروة من البطولة عندما يقوم لوحده ، خالي الوفاض من السلاح تقريباً ، بمذبحة مريعة لفرقة المشاة الحقيرة التي تتألف من هؤلاء الصعاليك ، هو هذا البطل الذي لا بد منه في كل جيش ، هو الذي يكفيه أن يمد اليد لينتزع الظفر ، والذي يخترق ، وحده ، صفوف العدو مفسحاً لرفاقه مجال العبور من الثغرة التي شقها بين صفوفهم . فجاءت هذه القصيدة الغراء ، كاداة من ادوات الدعاية ، تتويجاً لهذه السلسلة من اعمال النزال والمصاولة التي كثيراً ما انتهت بانتصار امراء آل أستيه ونبلائهم .

أثر بلاط فراره تأثيراً بالغاً على فن الرسم بنوع خاص ، من خلال هذه الطلبات والتواصي التي عهد بصنعها ، الى الرسامين في البندقية ، بحيث امكن تحقيق ما طالما حلم به هؤلاء الامراء ورجال بطانتهم ، وما راود خيالهم ، الا وهو تمثيل حياة آلهة الاولمب الخالدين ، وهذه الجمالية الدائمة ، هذا الشباب الباقي ، القدرة الكلية ، اللذة التي لا انقطاع لها ولا انفصام ، هذه الحياة المادية المثلى ، الوثنية . وجل ما تمناه هؤلاء الامراء والنبلاء على المصورين رسمه لهم ، هي صورة الفونسو أستيه في ريعان شبابه الغض ، صورة لوكريس بورجيا ، وصور كل من زوجته ومعشوقته لورا ديانتي . وبعد هذا كله ، هذه المشاهد الوثنية التي تمثل لنا آلهة اليونان القدامى وآلهاتهم وهكذا ُطلب الى الرسام جيوفاني بليني ، في كهولته ، ان يرسم ، عام ١٥١٤ ، لالفونسو أستيه ، صورة حفلة من هذه الحفلات التي كانت تقام على شرف الاله باخوس يوم الاحتفال بذكراه . وكثيراً ما تمنّى على زبائنهم ان يرسموا لهم صورة الزهرة تتحرق شهوة ، تحاكي صورة « زهرة درسدن » الشهيرة او صورة « باخوس » و « اريان » و «ديانا» وصورة «ديانا واكتيون» وغير ذلك . وعلى درجة اقل نجد في دوقية منتوا ، في بلاط آل غونزاغا ، وفي نطاق دوقية اوربين ايضاً ، طلبات على هذا الشكل ، هي ايضاً .

اما فلورنسا ، فقد فقدت ، دونما رجعة ، حق الصدارة ، في هذه الثورة اللاهبة التي نشبت فيها عام ١٤٩٤ ، فاذا بها تصبح صورة باهتة تعكس روما من بعيد . فالآثار الوحيدة التي امتازت بشيء من الاصالة مما ظهر عندها في تلك الحقبة ، هي هذه البحوث السياسية التي

وضعها مكيافلي وغيشاردين . وهذا الوضع الذي صارت اليه وتردّت فيه ، يجب رده بالاحرى الى هذه الاضطرابات التي قامت فيها باستمرار ، والى هذه الازمة الاقتصادية التي اخذت بخناق المدينة في إثر حركة الشغب التي كان المحرض الاكبر عليها سافونارولا ، والنظام الجمهوري الذي عاشت في ظله حتى سنة ١٥١٢ . وقد جاشت الجمهورية من جهة ثانية بروح لم نجد في كل ايطاليا الآخذة بأسباب الافلاطونية الحديثة ، من يستطيع التعبير عنها تعبيراً صحيحاً . وعندما راح حاكم المدينة ورئيس جمهوريتها بيرو سوديريني يعهد الى ميكالو انجلو برسم صورة الملك داوود، كما حلا للجمهوريين في فلورنسا تخيله ، فالراعي الذي برز من بين يديه، رمزاً لفلورنسا المستضعفة والمهيضة الجناح التي لم يفارقها الامل بالاستظهار يوماً على اعدائها بفضل ما رجت من عون إلهي . فقد رأوا شبهاً بالفعل ، بين هذه الصورة والصورة الاخرى بريشه فيروكيو. فالعهد ولى وزال ، وراح ميكالو انجلو يضع رسماً لداوود الملك ، بعكس المقصود ، ظهر معه داوود سوبرمان ، اي جاء وفقاً لذهنية العصر .

ويطل آل مديتشي من جديد مع اعادة الامارة اليهم ، فيشدون من امر هذه الدولة التي تحاول الانتقال من وضع مدينة ـ دولة الى وضع دولة اقليمية ، موحدة ، ذات نظام مطلق . ولم تلبث فلورنسا ان شعرت بتثاقل قبضة الاسبان عليها ، لتقع ، بعد حين ، تحت النفوذ الروماني ، ففارقها كل نشاط فني ، لمدة طويلة ، الى ان اعاد اليها بابوات آل مديتشي ، شيئاً من النشاط ، بفضل ما ارسلوا اليها من مال وفنانين تشبعوا بالمثل الرومانية . ويبدو ان الفلورنتيين فقدوا كل قدرة لهم على الخلق والابداع ، بعد ان فقدوا نعمة الاستقلال التي رتعوا فيها .

والظاهر ان ميلانو كانت تحاول ، هي الاخرى في اواخر القرن الخامس عشر السير في النهج الذي جلّت فيه روما . ففي عام ١٤٩٠ ، شرع ليوناردو ده فنشي ، في نحت الجواد الخاص بفرنسوا سفورزا . وفي سنة ١٤٩٦ ، اخذ برسم صورة « العشاء السري » فجاء عمله هذا تحديداً ومحاولة جريئة كتب لها ان تعرف الازدهار في روما .

من الغريب جداً ان تقع هذه المحاولة في الوقت الذي اصبح فيه لودوفيك لو مور ، بعد ان اقطعه الامبراطور الولاية على هذه الدوقية ، اميراً تابعاً ، من الوجهة الاقطاعية ، للامبراطور ، يعمل بمعزل عن كل تدخل من قبل الشعب في شؤون الادارة ، اميراً مطلق السلطة له حرية التصرف، حاكماً له كل حقوق الولاية من الآن فصاعداً في هذه الفترة التي بلغت فيها سلطته القمة من القدرة والبطش ، اذ كان يحلو له ان يتبجح قائلاً : بان الامبراطور قائده ، وان البابا كاهنه الخاص يؤمن خدمته الروحية ، وملك فرنسا ساعي بريده ، والبندقية حاجبه . في هذا الوقت بالذات ، ظهرت في بلاط لودوفيك لو مور ، اولى المحاولات لهذا الفن الجديد ، فن الرجل السوبرمان ، الفن البطولي .

ومنذ ايلول ١٤٩٩ ، اصبحت ميلانو خاضعة للنفوذ الاجنبي يتوالى على حكمها تباعاً

الفرنسيون والسويسريون والاسبان. ويتلقى ليوناردوده فنشي طلبات فنية من قبل الفرنسيين. ولكن الفن الجديد يطل رويداً ويَتمكّن. ولكن منذ عام ١٥٢٥ ، اخذ النفوذ الاسباني يسيطر. غير ان الاسبان كانوا دوماً في عسر مالي ، فرزحت الدوقية تحت وطأة الرسوم والضرائب التي فرضت عليها ، والحروب التي تضرّست بها والازمة الاقتصادية التي اخذت بتلابيبها ، فأخذ النبلاء يتجهون بانظارهم وجهة الوظائف العامة . فالدراسات الفقهية ، وحدها ، يبدو عليها طابع الخلق والاصالة ، كما يظهر لنا ذلك من الانجازات الفنية التي وضعها ألسيات (١٤٩٢ – ١٥٦٠) .

بعد الحروب الدامية الطويلة التي وقعت بين اسرة أنجو واسرة أراغون (١٣٤٣ – ١٤٤٢) ، استتب الأمر ، في مملكة نابولي ، لنظام حكومي قوامه فريق من البارونات اصحاب الاقطاعات الواسعة في الريف ، واصحاب الاملاك السيادية الذين كادوا يتمتعون باستقلالهم ومعظمهم يتصرف بسلطات ملكية ، ومن كبار المغامرين من رجال الحرب المعادين للملك وفي عصيان موصول ضده . فالحياة الفكرة اسم بلا مسمى ، لا ظل لها قط . والاراغونيون الذين جاء منهم ملك نابولي منذ سنة ١٤٤٢ ، كانوا قد حاولوا ان يحكموا بالاشتراك مع نبلاء مدينة نابولي ، هذه الطبقة الارستوقراطية التي استأثرت بوظائف الدولة فجعلت منها احتكارات تصرفت بها على هواها. وطبقة النبلاء هذه ، كانت تشعر في داخلها انها قريبة جداً من البارونات فاولتهم ثقتها وولاءها. ولهذه الاسباب راح فرديناند داراغون يبذل جهداً كبيراً ليخلق بورجوازية من رجال الاعمال والصناعة ، وراح الفونس داراغون الذي خرج ، عام ١٤٤٢ ، من هذه الحرب ظافراً ، يُدخل على مدينة نابولي الحياة الفكرية ، ويفرضها عليها فرضاً. وهكذا بدت طلائع النهضة الفكرية ، في البلاط ، وأخذت تتطور بسرعة لا سيما بين الطبقة الارستوقراطية والادارية ، فاصبحت عنصراً قوياً في هذا التيار الجديد ، راحت تنفتح للآداب لما رأت فيها من منافع وفوائد جمة . من ابرز رجال النهضة في اواخر القرن الخامس عشر ، في مملكة نابولي : بونتانوس وجينازارو وكاريتايو فكانوا خير من تمثلت فيهم طبقة النبلاء من اصحاب الوظائف الادارية العليا . اما لون الآدب الذي سيطر على البلاط ، اذ ذاك ، فقد كان الشعر ولا سيما الشعر الغرامي . كذلك أطل الفن التشكيلي بعدد وافر من الآثار معظمها من الدرجة الثانية .

ومنذ ١٤٩٤ نرى مملكة نابولي يتجاذبها الفرنسيون والاسبان الذين تمكنوا من الاحتفاظ بها سنة ١٥٠٣ ، واصبحت بين ١٥١٦ – ١٥١٩ ، جزءاً من امبراطورية آل هبسبورج بشخص شارل كانت أو شارل الخامس ، الذي كان يحلم بان يجعل منها اداة طيعة بين يديه ، في ايطاليا. ومنذ ذلك الحين اصبحت مملكة نابولي خاضعة ، مبدئياً ، لامبراطور يحكم حكماً مطلقاً . وغَلَبَت طبقة البارونات على امرها وراحت تتخذ لها ، اكثر فأكثر ، موقفاً سياسياً ، تعد شرفاً لها ان تخلص معه الولاء للامبراطور وان تقوم بخدمة السلاح في جيوشه ، نازعة ، من وراء ذلك ، لتصبح طبقة تجمع بين يديها كبار قادة الجيش وضباطه الاعلين . ونزع البارونات من جهة

ثانية ، للانصهار في طبقة نبلاء مدينة نابولي . فلم يكتفوا بأن قدموا الى المدينة وسكنوا فيها ، بل راحوا يبنون لهم فيها صروحاً وقصوراً شاهقة ، واخذوا يسجلون نفوسهم بين *Sedili* سكان نابولي باعتبارهم من نبلاء المدينة وشرفائها . وعلى عكس ذلك تمامـــاً ، رأت الطبقة الارستوقراطية في المدينة ان شرفها يحتم عليها التخلي عن الوظائف الادارية والعيش ، اسوة بطبقة البارونات في البطانة لا يأتون عملاً ما . أما الامبراطور فأخذ يشدد على طبع مملكة نابولي بطابع بلاد مستعمرة، اذ فكر بان يجعل منها سوقاً لتنفيق المنتوجات الصناعية التي كان ينتجها هذا المضلّع الرباعي الذي تكون من جنوى وميلانو وفلورنسا والبندقية، الذي كان يمد مقاطعات ايطاليا الجنوبية بحاجاتها من المحاصيل الزراعيـــة والحبوب والزيوت ، والخامات ، وغزول الحرير والصوف الخام . ووضع البلاد تحت تصرف ارباب الاعمـال والمال الاغراب من المانـ وجنوبين ، بعد عام ١٥٢٦ ، وهدر هدراً الصناعات القائمة في مملكة نابولي فخيم عليهـــا الفقر بسرادقه . أبسبب اخضاع هذه المملكة للاسبان وللامبراطور ، وزوال ملك كان ينعم ، بالامس الغابر ، باستقلاله الناجز ويعيش كريماً مكرماً في بلاطه وبين بطانته وحاشيته ، وهـذا التفتت والانسياح ينزل بطبقة النبلاء من كبار الموظفين ، اخذت الفنون ، في نابولي بالتأخر والقهقرى، واصيب سكانها بالعقم الفكري ، فيفقدون كل طاقة لهم على الخلق والابداع ، سوى بقية باقية من الشعر الركيك باللاتينية ، والايطالية ، فخيم السكون على نابولي ؟

وهكذا وفي مثل هذه الظروف والاوضاع المؤاتية لطلوع آثار فكرية جديدة ، نجد دولاً مستقلة ، سيدة امرها، تنزع للحكم المطلق وللسيطرة الامبريالية، دولاً – مدينة ، تطمح في ان تصبح دولاً اقليمية ، وامراء ذوي نزعة ظاهرة للحكم المطلق لهم بطانات يتـــألف بعضها من نبلاء بيدهم الادارة يؤلفون طبقة وسطى بين طبقة النبلاء الاقطاعيين وبين الطبقة البورجوازية ، دولا بمقدورها ان تؤمن لذاتها موارد مهمة بالامكان إنماءها وتضعيفها باقامة علاقات لها مـــع الخارج ، واستدراج النقد عن طريق المصارف والاعمال التجارية الضخمـــة وتسهيل معاملات الترانزيت ، والسياحة والمغامرات الحربية وتحريك الكفاءات وتشجيعها ، دولا تقوم الفئات الحاكمة فيها بمختلف النشاطات السياسية ، والاجتماعية ، تنطلق كلها من الاعمال الفكريـــة والروحية .

وبهذه الصورة التقريبية التي نرسمها نستطيع ان نتبين الخطوط الكبرى لهذا النهج الواجب انتهاجه في تحديد الوظائف والخدمات المنوطة بهذه المنظمات الفكرية التي أطلت علينا ، وهو لعمري نهج يُعمل به باستمرار ، نهج يتصل اتصالا صميماً بالعقل البشري ، هو اسلوب المقارنة للكشف عن النظم الجديدة . وفي هذا السبيل نستعين كذلك بالاحصاء والمقايسة ، اذ لا يمكن ان نحصل على معلومات دقيقة ما لم نقم بعمليات احصاء وقياسات؛ ولا يمكن ان نطمع بالعـــلم ونطمع بالحصول عليه الا اذا توصلنا للكشف عن المعادلات الرياضية . فالتقنيات والعلـــوم

الاساسية توفر لنا ، وايم الحق عدداً متزايداً من الاجهزة والاعتدة الحاسبة والكاشفة وبينها ما يصلح تماماً للكشف عن آثار الماضي ومخلفاته الباقية .

هذه الرؤى الجديدة التي تبيناها للكون والفضاء والانسان بدت علـى الوان واشكال . فالصورة الافلاطونية الحديثة الكلاسيكية تركت كثيراً لجهد الانسان الحر في سيره نحو الله . ان ما تعرضت له روما عام ١٥٢٧ من اعمال النهب والاستباحة ، وبسط اسبانيا سيطرتها على ايطاليا مع الامبراطور شارل الخامس ، والدفع الذي انطلق من هذه الدول الرئيسية النازعة للوحدة والحكم المطلق مع ما تخبئه من ارهاق وارهاص للفرد ، كل ذلك وما إليه، ساعد كثيراً على تبيّـن الحدود التي تحد من هذه المثالية وعلى لفت النظر ، اكثر فاكثر ، الى ما يرسف بـه الانسان ، بعد ، من ضعف وعبودية ، هذا الانسان الصعلوك المتصيّد الذي افتداه السيد المسيح باذلا حياته لاجله حتى عذاب الصلب . وميكالو انجلو ، هذا الافلاطوني الحـديث الأتم ، كما تبدّى لنا من خلال هذه الزخارف والنقوش الجدارية التي حلّى بها الكنيسة السكستينية ، والذي سيبقى دوماً هذا الافلاطوني الذي كان ، عرف ان يتجاوز بعيداً مُثـل الافلاطونية الحديثة ويتعداها ، اذ شدد ، اكثر فأكثر ، على السيد المسيح ، وعلى سر فداء المسيح الذي به تبرر الأنسان . ان صورة الدينونة الاخيرة (١٥٣٣ - ١٥٤١) ، ترينا منجرفة مع دوامة الحركة الكوبرنيكية ، دائرة حول يسوع وقد ظهر بمظهر جوبتير الصاعق ، هـذه البشرية الصاخبة اللاهية الجبارة ، المتكونة من صيادين برّح بهم القلق كل مبرّح ، يقفون متوسلين ، مع الرسل والقديسين ، وربما العذراء مريم نفسها . والرسام لوتيتيان ، يدع جانباً المسيح الهادي ، الظافر ، ليضع تحت انظارنا التحفة الرائعة : « هوذا الرجل » التي وضعها عام ١٦٤٢ ، وقد استعان بالحركة العاصفة تلف هذه الجماهير المهتاجة ، الجياشة بالحقد والبغضاء ، تتألب عـلى السيد المسيح ، الاله المتجسد ، الذي يرزح تحت ضغط الامبراطورية العاتيـة وتحت هيجان الجماهير المزمجرة ، يكفر عن خطايا البشر . وفي قبة كاتدرائية القديس بطرس في روما التي اعتيضَ بها عن تلك التي خطط لها برامنت ، نرى ميكالو انجلو يحتفظ بالصيغ والاشكال ذاتها التي ظهرت في الدور الاول من النهضة الا انه يُعطّ في القبة باضافة التضليع ، بعد ان ركب ، في الاسفل ، مصباحاً شفافاً . وهكذا يربطنا ، من فوق الاجيـال ، بالطراز الفني القوطي الذي يرمز الى اندفاع المسيحي المتحمس ، وقد شمر بضعفه متجهاً نحو الله مخلصه . فقبة ميكالو انجلو ، لم تعد تظهر كأنها تاج ، بـل هي تسبح و « تطير » . فهذه الجماهير ، وهذه التجاوزات المغالية ، وهذه الاندفاعية .والمفارقات والمتناقضات ، كل هذا انما يدل على ان الناس ينزعون الى نقطة .من نقطتي التوازن التي سيحوم حولهـا الفكر البشري ، لمدة قرون ، متأرجحاً بين هذه الانظمة الاساسية : الاتباعيـة الكلاسيكية ، وبين الغريب الشاذ .

الفصل الثاني

المجتمعات الدينية الجديدة

محاولات الاصلاح

حفاف الشعور الديني

الناس في هذا العصر يعيشون عرفاً وقانوناً في عالم مسيحي تنقضي ايامهم وفقاً لتقويم وتوقيت ومراسم دينية واعراف معينة . فمحاكم القضاء لا تستأنف جلساتها في الثالث عشر من تشرين الثاني بل في اليوم التالي لعيد السيد القديس مرتينوس، وايام العمل القصيرة، لا تبتدىء ، عند اصحاب الحرف في التاسع من تشرين الاول ، بـــل في اليوم الذي يقع فيه عيد القديس ريمي . ونقابات اصحاب الحرف تعطل ٦٠ يوماً في السنة ، ما عدا ايام الآحاد . ويطرح من ايام العمل يوم السبت وبرامون الاعيـــاد الكبرى لتستعمل في الاستعداد للاحتفالات الدينية التي تقام في اليوم التالي . والجامعات تجري الامتحانات، في صحن الكنيسة على انغام الارغن ، في هذه الفترة بالذات التي تقع بين القداس وفعل الشكر . وكتب التعليم والنصوص المدرسية ، تبتدىء دوماً بالعبـــارة التالية : « لمجد الله الخالق ومسرته » . والوصايا الارثية تحمل الترويسة : « باسم الثالوث الاقدس غـــير المنفصل » . وكوز شراب التفاح أو النبيذ على المائدة يحمل في محل بارز منه الجمـــلة التالية : « فكر بالموت ايها المسكين الغبي » . وفي اخريات القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، يفترش الارض ، وقـــد تكاثر عدد السكان ، العديد من الكنائس والمعابد والمزارات الدينية القائمة منفردة عند بعض عطفات الطرقات . كذلك يطل علينا فيض من الكتب التقوية : ككتاب القـــداس والفرض وكتب عجائب العذراء والقديسين وكتاب الصلوات ، وكلـــات يسوع الخالدة ، وكتب السواعيات ، وافراح السيد المسيح بعدد لا يحصى من النسخ .

غير ان هذه الروح الدينية المتأصلة في النفوس المخلصة الصادقة تبقى مظهراً جامداً من هذه المظاهر التي ارتدتها او تكشفت عنها طقوس العبادة والاحتفالات الدينية . فالنفوس لم تكن

لتميش هذه الطقوس في صميم حياتها الداخلية، ولا أثر لها في اعمال الناس وتصرفاتهم وسكناتهم وحركاتهم ، اذ الكل غافل ، لاه عما له طابع مكرس او مقدس . فيتجاهلون هـذا كله ولا ولا تتنزّى ماجريات الحياة اليومية بشيء من العاطفة الدينية . قد يكون سبب هذا الوضع الحاجة الشديدة الى رجال الدين وخدام الكنائس الغيورين . كم من الكهنة والعاملين في خدمة الدين والنفوس ، زرعوا الشك والتشكك في النفوس لعدم امتثالهم للطاعة المتوجبة عليهم نحو الكنيسة ولرؤسائهم ،ولفظاظة تصرفاتهم المقيتة .فكهنة كاتدرائية نوتردام القانونيون ، في باريس يتبجحون انهم معفون من الخضوع للسلطة القانونية التي يتبعون لها . اي لرئيس اساقفة سانس ، المطران تريستان ده سالازار . وبتاريخ الثاني من شباط ١٤٩٢ ، بعد ان فرغ رئيس الاساقفة من الاحتفال بالقداس بحضور الملك شارل الثامن ، وبينما هو يهم في الانصراف وهـو يبارك الشعب يتقدمه الصليب ، اذ بكاهنين قانونيين ، ينقضّان على حامل الصليب وعلى شماسة المطران يشبعانهم لكماً وضرباً ، زاعمين ان الاسقف خفض من جانبيها وحط من قدرهما وانتقص من كرامتهما اثناء قيامه بالطقوس الدينية ، ثم يأخذان بشعر احد خدام المطران ، وعنـدما هم الاسقف بالتدخل في الامر . لكمه احدهما في بطنه ، بينما نزع الثاني قبعته الاسقفية وطرحها ارضاً . ولم يكن من النادر قط وقوع حوادث من هذا النوع .

وهذا الفتور الديني كان الطابع الذي ميز ، على الاجمال ، رجال الدين ، اذ كان همهم ، في الدرجة الاولى ، السهر على مصالحم المادية. وجماعة الكهنة القانونيين في كنيسة نوتردام ، كانت تنتخب اعضاءها من بين الطبقة العليا في البورجوازية ، وبين طبقة الاشراف . كما كانت تنتقيهم من بين مشاهير رجال اللاهوت والحق القانوني . وكان يهمها ان يشعر الناس بانها مهتمة بادارة املاك الكنيسة ، وانها تحرص على الدفاع عن حقوقها وامتيازاتها . فلا عجب ان يحذو حذوها كهنة الرعايا في باريس . وعلى هذا قس رجال الاكليروس في المدن الواقعة في الاوساط الريفية الذين كان يهمهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين مصالحهم المادية ، واستيفاء الرسوم العـائدة لهم وتحصيل النذور .

اما الكهنة المكلفون بخدمة الرعويات في الارياف ، وهم على الغالب مـن ابناء القرويين الطيبين ، فكانوا يقومون بالخدمة الروحية . فقد كانت مرتباتهم ضئيلة للغـاية تكاد لا تقوم بأوَدهم لو لم يكن يردهم من عوائد الخدمة الروحية شيء زهيد . ولذا وجدوا انفسهم في جدال مستمر واختلاف مزمن مع ملتزم الوقف لعلهم ينالون منـه بعض دريهمات ، بما كانوا يدخلون مع رعاياهم في مجادلات لا تنتهي حول حقوقهم المكتسبة بعُشر من الحصيد او اجرة قداس ، او الرسوم المستحقة لهم من عقود الزواج والقيام بمراسم العماد والجنائز . فلا عجب ، ان تراهم يديرون ، احياناً ، بمساعدة احد اعضاء الاسرة ، دكاناً او نزلا صغيراً ، او يقبلون بوظيفة « خولي » عند احد نبلاء المقاطعة او كبار الاقطاعيين فيها ، يؤمنون له جباية الرسوم المتوجبة على المزارعين والمرابعين وهم ، في ذلك كله ، حريصون على الاخذ بالاعراف والعادات

المرعية ، يحافظون عليها ويستمسكون بها بشدة ، فيتلهون احياناً باللعب والنرد كما اعتادوا معاقرة الخمرة ، وكثيراً ما استعملوا سواعدهم ، وكالوا اللكم والضرب واحياناً استعمال الدبوس والنبوت ، كما كانوا يجيدون ترغيب ربات البيوت بالرقص ايام الاعياد .

من يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق والاضابير الكنسية ، اذ ذاك ، تعتره الدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لاخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة . فالسكر والعربدة يأتي في مقدمة هذه الموبقات. وضرب السكين والخنجر لم يكن نادراً قط . وكم من الاحكام صدرت على كهنة او رجال من الاكليروس لاستخدامهم فتيات او شابات مشكوك بفضائلهن ! أفلم يحكم على مدير مدرسة ثانوية تابعة لبلدية باريس بالسرقة ؟

والرهبان لم يكن وضعهم باحسن حال من وضع الكهنة العلمانيين اذ كثيراً ما نراهم يتركون الحياة والمعيشة المشتركة ،ويتحللون تماماً من عادة تناول الطعام او النوم في قاعات مشتركة ، المترتبة عليهم ، فاصبح لكل منهم حجرة خاصة يستقبل فيها الراهب، دونما حسيب او رقيب. اصدقاءه واقاربه . ونذر الفقر ، والاحوال المشتركة ، كل هذا وما اليه ، اصبح اثراً بعد عين . لكل راهب كيسه الخاص ومدخراته الخاصة وحاجياته المنزلية الخاصة. وحياة العزلة والانفراد. في الدير ، لم يبق من يكترث لها . هنالك رهبان يقطعون اوقات فراغهم يتمخطرون في الازقة والشوارع ، او الساحات العامة ، او يتلهون بالتفرج على اعمال المخرقين ، او البصبصة على بنات الهوى . والراهبات كم اثرن من الشكوك حولهن بما أتين من فظاظات وموبقات ؟

هذا الوصف لا يقتصر على ناحية أو منطقة خاصة فهو يطبق على جميع انحاء اوروبا المسيحية .

الوضع العام ـ الفلسفة والدين

هذا الوضع الذي تسكّع فيه الاكليروس وبعض رجال الدين ، يجب رده ، في كثير من مظاهره ، لأسباب سياسية ، فقد احتفظ ، البابا ، في اماكن وحالات كثيرة ، بحق اختيار المطارنة وتعيين الاساقفة واصحاب الوظائف الكنسية . وكثيراً ما وقع اختياره لملء هذه المراكز والوظائف على ايطاليين او اناس خبراء قد يكونون احياناً ، خليقين بكل تقدير واحترام ، كما كانت هذه الوظائف والمراتب تذهب لمن يتقدم من الادارة الرومانية ، بأحسن الاسعار ، أو لمن يتنازل بعضهم لهم عما ينعمون به من اعفاءات وامتيازات لقاء مبالغ طائلة . وكثيراً ما كان اصحاب هذه الوظائف لا يستقرون في مراكز وظائفهم ، فتبقى هذه المراكز من اسقفيات واديار ، بلا رئيس أو مدبّر ، ولا ادارة ، فتذهب امورها وارداتها فريسة للفوضى ، يستغلها من أوتي الحذق والشطارة . وكان من حق الملوك وبعض الامراء ان يعينوا ، هم أيضاً ، اساقفة ورؤساء اديار ، كما انهم كثيراً ما تدخلوا في عملية انتخاب المرشحين لملء هذه الوظائف ، لمصلحة المرشحين من

رجالهم وازلامهم وخاصتهم ، أو ممن لقوا حظوة عندهم ، وهم في غالب الاحيان من رجال بطانتهم أو من عمال الملك أو الامير ممن عُهد اليهم تدبير الامور المتعلقة بادارتهم أو مصالحهم ، فاذا بهذا الفريق من أصحاب الحظوظ ، من كبار رجال الدين دون أن يأنسوا بأي ميل أو نزعة داخلية ، لهذه الخدمة ، أو ان يُهيأوا لها بشكل من الاشكال . وهكذا أخذنا نرى أساقفة ورؤساء أديار يحسنون امور الدنيا ، ينهجون في عيشهم نهج الامراء فينصرفون لاعمال الصيد والقنص ، ويستسلمون للهو والقصف ولصيد الغواني، أو يكونون من نصراء العلم والفنون فيؤلبون حولهم الادباء والفنانين والشعراء . اما نظرتهم الى ما تحت إيالتهم من مطرانيات واسقفيات وديارات ، فنظرتهم الى اقطاعات وموارد رزق يجب ان تدرّ عليهم الاعطيات والمداخيل الطيبة والثراء الوافر ، لا يهمهم قط ان يمكثوا فيها او أن يقيموا بين ظهرانيها أو ان يقوموا بما تقتضيهم الواجبات الدينية التي يضطلعون بها من وعظ وارشاد ، وتعلم الدين المسيحي ، واعداد كهنة لائقين وخَدَمة للهيكل محترمين ، والحفاظ على الآداب والأخلاق الكنسية .

لهذا الفتور في الدين ، ولهذا النشوز في الاخلاق في من يجب ان يكونوا حفاظاً عليها ومثالاً يحتذى بها ، يمكن ان نجد اسباباً اعمق وابعد تكمن في سيطرة الفلسفة الاسمية وتحكمها اذ ذاك ، بعد او كهام ، في العقول والاذهان . فاذا ما اخذنا باقوال الفلسفة الواقعية ، اصبحت العقائد المسيحية ، لا اقول ، اوضح واظهر ، اذ انها سلسلة من الاسرار المغلقة ، الغامضة ، متصلة الحلقات ، أوحى بها الله تعالى ، وكشف عنها هو نفسه ، بل امست هذه العقائد أكثر قابلية للتفهم والافهام ، اقله من الوجهة المجازية او الرمزية . فقد اصبح لله مفهوماً او مدلولاً يستطيع الفهم البشري محاولة تفهمه ، ولو بصورة مجتزأة ، غير كاملة انما اكيدة ، ثابتة . وبما ان نفس الانسان ، لا مادية هي ، وتستطيع ان تتفهم « الكليات » بثقة ، اصبح في مقدورها ، اذ ذاك ، ان تستخلص مما في هذه الكليات من حقائق اولية عدداً من المفاهيم والمدلولات المسلسلة ، المترابطة ، منها مثلاً : مفهوم اللامتناهي ، ومفهوم العلم الكلي ، ومفهوم الجوهر او الذات الكلي ، وغير ذلك . فاذا ما استعانت افهامنا بالمجاز ، استطاعت ان تصل الى مفهوم لله : الكائن الخالد ، الازلي ، السرمدي ، اللامتناهي ، المالىء الكل ، الكلي القدرة الكلي العلم ، الكامل .

كذلك في مقدورنا الآن ان نعرف معرفة مرضية ، لماذا كل الناس يولدون ملطخين بالخطيئة الاصلية ، خطيئة ابيهم آدم ، لان ما لطخه آدم في ذاته ، هو المفهوم العام للانسان ، هو الجنس البشري ، الانسانية جمعاء ، هذه الانسانية التي احتواها كاملة كما يحتويها كل انسان ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كلّ الناس يحملون في ذواتهم هذه اللطخة او اللوثة ،لانهم يحملون في ذواتهم المفهوم العام للانسان .

وعلى هذه ، قس ايضاً ، الاستحالة . فعلى المسيحي ان يؤمن انه عندما يلفظ الكاهن ، على

الخبز والخمر ،الكلمات ذاتها التي قالها السيد المسيح في عشائه السري الأخير : «هذا هو جسدي، هذا هو دمي » فالمسيح يحل فعلاً وحقيقة في القربان ويوجد فيه تحت الاعراض الحسية . وهنالك ما هو اكثر من ذلك . فتحت هذه الاعراض ، تحت ظواهر الخبز والخمر ، يوجد بالفعل جوهر جسد المسيح ودمه ، مع بقاء الاعراض الحسية على ما هي من مظهر ملموس . والى هذا ، فالمسيح يجلس ، بمجد ، على عرشه السماوي بعد قيامته وصعوده ، عن يمين الله الآب . نحن امام سبحة من الاسرار المطبقة ، وهي ، مع ذلك، اسرار ممكن تفهمها اذا تصورنا ان ما هو موجود في الوقت ذاته في السماء وفي هذه البرشانات التي لا حد لها ، منتشرة بين اطراف العالم اجمع ، ليس جسداً او جسماً خاصاً ، بل جوهر الجسد ، اي المفهوم العام لنوع الجسد ، متحيز وقائم في عدد لا يحصى من الافراد ، يمكن ان يوجد تحت اعراض مشتركة مع جواهر اخرى .

كل هذا ليس بالواضح قط ، ولا بالجلي . فمن غير المعقول والقبول ان ما يخص الله الخالق ، القادر على كل شيء ، يستطيع الانسان ان يفهمه او يدركه ، هذا الانسان المخلوق ، العاجز المستضعف ، يبدو على الاقل ، ان هنالك تعليلاً او تفسيراً ، مع العلم ان الايمان ، اذا لم يكن تحت الفهم ، فهو لا يصدمه .

وعلى عكس ذلك ، فاذا ماتجاهلنا الفلسفة الاسمية ، واذا ما انكرنا وجود فكرة الكلي ، واذا لم يبق لنا سوى رموز مادية تخفي وراءها حقيقة صعبة المنال ، عدمنا كل وسيلة تساعدنا على تقريب الدين من أفهامنا . فكيف نستطيع ان نفهم او ندرك سر استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم السيد المسيح ؟ هذا شيء محال . فالامر يعني في نظر اصحاب الفلسفة الاسمية ، ان جسد المسيح مع ما له من محسوسية وتحيز ، يحل محل الخبز المحسوس المتحيز ، دون ان تتغير منه الاعراض . هذا شيء مضاد للعقل ، منافٍ للمنطق فكيف لنا ان نفهم الخطيئة الأصلية ؟ هذا شيء غير ممكن . فاذا لم يكن سوى افراد نسمهم بهذه العلاقة او الاسم : الانسان ، فاي مسؤولية علينا من خطيئة فرد ، هذا الفرد المسمى آدم ؟ ، أَوليس من الحيف والظلم ان نُؤخذ بجريرته هو ؟ فكيف نفهم الله ؟ . هذا شيء محال . نحن ندرك الاشياء بواسطة هذه الاحكام العقلية التي نجريها على معطيات الحواس . وهذه العمليات الفكرية لا تفضي بنا الا لتجريدات سهلة ، ليست بالفعل سوى علامات مادية تشير الى شيء لا يرى ، خفي ، لا يمكن ادراكه او تفهمه ، فكيف نستطيع ، مع ذلك ، الصعود او الارتفاع من الاشياء المحسوسة الى الله ؟ فكل حقائق الايمان تستحيل احاجي والغازاً لا تدرك ولا لها حل بالنظر للفلسفة الاسمية .

فكان على اتباع هذه الفلسفة وعلى الآخذين بمقالتها ان يفصلوا او يقطعوا بين العقل والدين ، وبين التصريح بوجوب الايمان والاعتقاد بناءً لتعاليم الكنيسة وشهادتها ، القيّمة على الكتب المقدسة والمفسّرة لها،وتَبَنّي الاقوال والاعمال التي تفرض الكتب المقدسة والكنيسة معاً ، تردادها والقول بها دون اي امل قط بان نفهم يوماً ، او نصل الى الله،الله المحتجب عن كل حقيقة اخرى واكثر من اي حقيقة اخرى ، وراء حُجب لا يمكن شقها والنفاذ منها . ولكن

ماذا يبقى من الدين ، بعد هذا ، في نظر الكثيرين من الكهنة والمؤمنـين ؟ سلسلة من الطقوس الآلية والصلوات الشفهية ومزامير ، واصطلاحات وعبارات نرددها آلياً ، ميكانيكياً ، ونحن موقنون . عن طيب نية وحسن قصد ، ان لهذه الرموز قيمة في ذاتها ، دون اي اكتراث او اهتمام بوجود اله لا يُـدرك ، ودون ان نحيي او نعيش هذه الحقائق الايمانية في نفوسنا ، ودون ان تحمل معها شيئاً الى القلب ، ودون ان تحرك منا النفس او ان تصبح حافزاً لنا على العيش والحياة عيشاً وحياة مسيحية حقة . فالديانة اصبحت جافة ، يابسة ، جامدة ، كما اصبحت النفوس شبه ميتة .

روح الاصلاح

كان هنالك جماعة استحال عليها قبول هذا الوضع او تعذر عليهم النقاش معه ، قوم تحسسوا في دواخلهم ، الحاجة الى حياة اسمى تتمثل في الحب الروحاني ، هفت نفوسهم توقاً الى هذه العذوبة السماوية التي تلف النفس لفـاً والى هذا الفيض من الحب الروحي الجياش . وراح هذا الفريق من المتصوفة والانسانيين يحاولون الوصول الى الله بالرغم من هـذه الصعاب التي لاثارتها امامهم الفلسفة الاسمية . وهذا الجهد الجاهد ، وهذا الشوق المبرّح تمثل على احسن ما يكون ، في هذه المحاولات التي تمت للقيام باصلاح ديني ، جـذري ، كان المطلب الاكبر والقصـد الاعظم الذي جاشت به نفوس الجميع ، اذ ذاك . وقد بدت للجميع الأخطار التي تتهدد الكنيسة بشر مستطير . وكان الناس يرددون ما يسمعون من حكاية ظهور علامات وامرات لايمكن ان تخدع احداً لما علقوا عليها من دلالة . أفلَم يشاهد الناس يوماً ، عام ١٤٩٩ ، ثلاث شموس ظهرت معاً وفي وقت واحد ، كما شاهدوا في احدى الليالي ، ثلاثة اقمار معاً ؟ أفلَم تُمْطِر السماء دماً ؟ وفي بلاد الاغريق ، ألم يشاهد الناس ، سيوفـاً نارية تتلألأ في القبة الزرقاء ؟ وفي ٢٩ حزيران ، ألم تسقط الصاعقة ، نار السماء ، على الفاتيكان نفسه ؟ والبابا اسكندر السادس ألم يَقع ويشج رأسه . كل هذه الغرائب علائم تنذر بشر مستطير ، كما يحـلو لجان اوتون ان يعلق عليها شارحاً ، متيقـظاً في كتابه : « تاريخ ولاية الملك لويس الثاني عشر » . « هكذا بدا حال الراعي الصالح وعلى هذا الشكل كان وضعه ؛ افلا يكون ذلك نذيراً بتشتت الغنم او بما سيستهدف له القطيع من مآسي واضطهادات ؟ » ومن جهة ثانية فقـد تطورت قوة الانسان المادية تطوراً مخيفاً . فقد استطاع الملك شارل الثامن ان يدكّ ، بما تم له من مدفعية ، قوية ، القلاع والحصون الايطالية . وهذه القوة الهدامة هل يجوز للانسان استخدامها للشر والخراب ؟ كذلك ، ان الفتور الديني الذي سيطر على الانسان ، واندفـاع الناس وراء البذخ واشباع شهواتهم ، وهذه الهرطقات التي طلعت على الناس فمزقتهم كل ممزق ، كفلسفة ابن رشد ، تملأ القلب خوفاً وهلعاً . والى هذا ، راح الناس يتحدثون عن بلاد اصحابها كفَرة ، تقع ما وراء المحيطات ، يجب حمل بشارة الانجيل اليها .

لوفيفر ديتابل

ففي هذه الظروف بالذات ، وفي مثل هذا الجو العابق بمثل هذه الهواجس والاضغاث ، وفي مثل هذه الذهنيات التي عششت فيها مثل هذه الترهات ،

طلعت علينا ، في غرة القرن السادس عشر ، المُثُل التي جاش بها الفارس المسيحي - جندي المسيح *Miles Christi* ، المستعد دوماً للجهاد الروحي . عِدّته المثل ، الصلاة وهذه الانسانية التي صقلتها ثقافة العصر ، وكل العلوم التي خلفتها لنا العصور الخوالي ، بعد ان نُفِض عنها غبار النسيان وارتكضت في جنباتها الحياة ناشطة زاخرة ، وفوق هذا كله روح الله الحقة . ولكي يتوفر لهذا الفارس المسيحي ما يلزم من عدة وعتاد في ما اخذ به النفس من مجاهدة ، قام الفرنسي لوفيفر ديتابل ، المولود عام ١٥٤٠ ، وأحد اساتذة كلية الكردينال لوموان ، يبحث ويتحرّى عن هذه الفِكر والافكار القديمة التي جاء بها كل من ارسطو وافلاطون والمتصوفون . فقد حاول الافلات او التملص من هذا الطوق ، من هذه البراهين والاقيسة الدقيقة ، التي طلعت بها الفلسفة الاسمية . فقد جاء في المقدمة التي وطّأ بها لكتابة « المدخل الى المنطق » المنشور عام ١٤٩٦ ، بالحرف الواحد : « تيقّن قبل كل شيء ان الحدسيات ، وهذه الاستقراءات والحصريات ، والاستثناءات والمجازات والالغاز ، التي لا حل لها ، كلها امور لا طائل تحتها ، ولا خير منها ولا فائدة لها ، تكاد لا يؤبه لها ، وان الاحكام التي تبنى عليها لا تمت بصلة قط للمنطق الحقيقي او الفلسفة الحقة » . يجب ان نكف عن اقتطاع بعض نتف من ارسطو والاجتزاء ببعض مختارات او مقتطفات من آثاره لنتخذ منها دون النص الكامل ، اساساً لنظام او مذهب فلسفي . علينا ان نطالع هذه الآثار مطالعة كاملة وان نقرأها قراءة تدبر وتفهم ، بنصها وفصها ، وان نستخلص منها المعنى الحرفي ، قبل كل شيء . ان مؤلفات ارسطو وافلاطون هي خير الوسائل التي تفضي بنا عن طريق تفهم الاشياء الواهية والزائلة في هذا العالم الحسي ، الى الامور الالهية . فالله عز وعلا ، اقام من هؤلاء الفلاسفة ، كهنة له وجعل منهم انبياء وجعل منهم مشاعل تهدينا الصراط القويم . لا شك بان الله الذي ينير كل انسان وارد الى هذا العالم ، لم يكن بعد ، أعلن ذاته للبشر ، انما أطلّ عليهم من عليائه لانه النور الساطع الذي لا حد لاشعاعه ولا نهاية ، والذي تضيء انواره الاجيال كلها » . فاذا ما اخذنا نُنعِم النظر في هذا كله وجدنا ان ارسطو ، بما وضع من نظريات كلية وبما فلسف مكنونات الاشياء وجوهر الكائنات ، واكثر منه افلاطون الذي رأى في الكليات وما لها من مفهوم عام صورة او نموذجاً او المثال الاعلى الذي يتحيز ، ليس فقط في الكائنات الفردية ، بل على حدة ، مستقلاً في الله ، فقلل بذلك من الصعوبات التي نلاقيها في شرح العقيدة المسيحية وتفسيرها . بعد هذا كم يخف الغموض الذي يحفّ بعقيدة الخطيئة الاصلية ، اذ ان ما لطّخه آدم في ذاته هو فكرة الانسان نفسه . هذا المثالي النموذجي ، الخالد الذي مر في خلد الله وخاطره ، والذي على شاكلته ومثاله جاء البشر اجمع . الا ان المعرفة الحقة العميقة الغور ، البعيدة الجذر ، تتعدى بكثير ، قدرتنا على تفهم الامور ، كما تجاوز كثيراً طاقة العقل البشري . فالمعرفة تحصل باكتناه الشعراء ، باكتناه الله في هذه الشطحات الصوفية وانخطافهم الروحي . وفي هذا السبيل هبط لوفيفر ديتابل ايطاليا عام ١٤٩١ و ١٤٩٢ حيث تم له الاتصال بمارسل فتشينو وارمولا

بربارو الذي كان أخذ على نفسه ان يكشف عن حقيقة تعاليم ارسطو ، عندما راح يهاجم اتباع فلسفة ابن رشد . وتردد لوفيفر ديتابل ، بين ١٤٩٩ و١٥٠١ ، على الصحّاف المشهور ألد مانوس ، في البندقية وصاحب اكبر دار نشر فيها ، واشهر هذه الدور طراً ، في جميع انحاء اوروبا بمطبوعاتها . وقصد عام ١٥١٠ ، المانيا الرينانية ،جاء مدينة كولوني ، موطن المتصوفة ومعقلهم الاكبر ، ونزل ضيفاً على جمعية اخوة الحياة المشتركة ،فزودوه بكتب وابحاث تبحث في التصوف والمتصوفين . نشر بين ١٤٩٤ – ١٥١٥ شارحاً ومعلقاً ، مؤلفات نقولا دوكوس ، والمؤلفات الرمزية التي وضعها تريسمجيست *Trismégiste* ودنيس الاريوباجي ، والقديسة اليصابات . كذلك نشر عام ١٥٠٩ ، الطبعة التي اعدها لسفر المزامير كما نشر عام ١٥١٢ كتابه : «افراح رويسبروك الروحية » والطبعة التي اعدها لرسائل القديس بولس مع شرحها وهكذا اسهم فعلاً في إيقاظ روح التقوى ، في النفوس .

ابراسموس

وقد جاءت اعمق اثراً وابعد مدىً ، الآثار الفكرية التي وضعها الفيلسوف والكاتب الهولوندي ابراسموس ، هذا الراهب والكاهن الذي ولد عام ١٤٦٦ والذي تخرج من جامعة باريس حيث اقام من سنة ١٤٩٥ – ١٥٠٠ . فقد كان من رواد النهضة الانسانية . ومن اضلع رجال العصر معرفة باللغة اللاتينية ، بحيث كان يخدش اذنه ما يسمعه ويشاهده من هذه اللاتينية المكسرة التي وردت على اقلام الكتاب السكولاستيكيين . جاء انكلترا عام ١٥٠٠ ،واقام في جامعة اكسفورد حيث لقي جون كوليت ، اثر رجوعه من إيطاليا وهو على اشد ما يكون اعجاباً بشيشرون وافلاطون ، والذي التحق ، عام ١٤٩٦ بكلية الجدلية ، فكان اول من طبق ، في دراسة رسائل القديس بولس ، منـاهج النقد الحديث التي طبقها العلماء الايطاليون ، في درس مخلفات قدامى الاغريق الفكرية ، هذا النهج الذي كان لوفيفر ديتابل بالذات شرع بتطبيقه في دراسة ارسطو . وراح كوليت ، يشرح رسائل بولس ويفسرها كما يفسر ويشرح اي رسائل وجهها كاتب ما لاصدقائه ، محاولاً ان يلتقط في بساطتها الاولى الكلام الذي تفوه به القديس بولس ، دون ان يبالي قط بمذاهب الفلاسفة الأسميين وتجريداتهم .فأفاض كوليت من انواره على ابراسموس الذي كان وقع تحت تأثير جان فتربيه ، رئيس دير الاخوة المرشدين في سانت اومير ، بفرنسا . فقد حفظ هذا الاخير عن ظهر قلبه ، رسائل بولس الرسول وخرج منها بصورة جلية واضحة ، متحررة تماماً بالروح والحق ، ضارباً بعرض الحائط ، هذه الاحتفالات وهذه المراسم والطقوس النافلة التي لا طائل تحتها .

نشر ابراسموس ، عام ١٥٠٠ كتابه : « الامثال » وهي حكم وأمثال انتقاها من الكتّاب القدامى ومأثور كلامهم وشوارد الحكمة التي تساعدنا على تفهم المقاصد الالهية . كذلك نشر كتاب شيشرون: « حول الوظائف » . فالمثال البشري الذي رسمه الاقدمون يساعد على توجيه الانسانية نحو أهدافها السامية ، غير ان يسوع وحده هو الذي يحقق فينا المثال الاسمى والاكمل

وراح ايراسموس ينشر عام ١٥٠٣ ، كتابه المشهور المعنون : « رفيق المناضل المسيحي — *Enchiridion militis christiani* وهو كتاب صغير الحجم كتب بلغة لاتينية ناصعة ، جزلة ، اراده صاحبه سلاحاً للروح ، شبيهاً بالخنجر سلاح الجسد .

واخذ ايراسموس يقنع قارئه بأنه مسيحي كاذب لأنه لا يتصرف كالمسيحي الحقيقي . « ترى قريبك تتحالف عليه الآلام والاوصاب فلا تهتم لامره ولا تكترث لوضعه ؛ كل ما يهمك انت ، ان يسلم رأسك ، لا تأخذك فيه شفقة ولا رأفة ، فالامر لديك سيان . هل تستطيع ان تقول لي لماذا لا تشعر نفسك نحوه باي عاطفة ؟ الجواب بسيط للغاية ، يا اخي ،فانت لا تشعر بشيء نحوه لأن نفسك ميتة فيك — نعم ميتة هي — لانها لا تنعم بالحياة الحقيقية التي هي الله ، اذ حيث يكون الله تكون المحبة ، لأن الله محبة هو » .

ولكن تتجدد فيك الحياة المسيحية ، حياة النعمة ، لا تذهب للرهبان ، اذ انهم قوم إستسلموا للخرافات ، فهم قوم ظلاّم ، قساة ، خطفة حقودون ، نمـامون ، نفـّاثون ، همهم الشجار والنكايات لانهم يعتقدون في انفسهم انهم على حق ، يتباهون بما تم لهم من خير ، يستنكفون ان يفهموا او يتفهموا الامور ، يخيل اليهم انهم على صلاح لأنهم لا يقتلون ولا يسرقون ، فهم مراؤون ، ومسيحيون زائفون اذلا يهمهم الا ان يلمعوا ، او ان يبزّوا سواهم في مجادلاتهم الدينية .

اما العون الذي انت بحاجة اليه ، فسيأتيك من المسيح نفسه ، اذ يعلمنا بولس الرسول ان المسيحيين يؤلفون مع السيد المسيح جسداً واحداً ، المسيحيون الاعضاء والمسيح منه الرأس . فالجسد يحييه المسيح ، في كل لحظة بدمه الذي بذله على الصليب وبنعمة الروح القدس . نحن بذاتنا ضعفاء ، ولكن بوصفنا اعضاء في جسد السيد المسيح السري ، نستطيع ان نعمل كل شيء . وبصفتنا اعضاء في جسد المسيح ، هو يحررنا من الخطيئة ويعطينا الحرية الحقيقية ، ويسكب علينا الاطمئنان والرجاء والفرح ، على شرط ان نخصه بحبنا ونقف هذا الحب عليه وحده . كل شيء حسن : المعرفة والصحة والقوة حتى والمال ، اذا ما ساعدنا على الازدياد حباً وتعلقاً بالسيد المسيح . والذي يبعدنا عنه هو الشر والاثم . فاذا كنت تتصرف بالمال تصرف الخازن أو امين الصندوق ، فيمر بين يديه برّاقاً في طريقه نحو الفقراء والمساكين ، فتصرفك حسن هو ، ويمكنك في مثل هذه الحدود ان تعمل على كسبه وتسعى الى تحصيله . اما اذا كنت تختزن المال لذاته ، فالاوفق ان تطرح به الى البحر اذ يبعدك عن السيد المسيح ويسبب هلاكك . كل مناسك العبادة ومراسم الطقوس الدينية ، هي حسنة بحد ذاتها ، اذا كانت تعبر فعلاً عن المحبة ، وإلا فشر هي ووبال . انت تصوم لتكون الى جنب السيد المسيح على الصليب ولتتألم معه بعض الشيء . هذا شيء حسن جداً . اما ان تصوم لان غيرك يصوم ، فعمل يعمله المراؤون ، وعليك وحدك وزره . تتوجه بصلاتك نحو القديس خريستوف او القديس روكس أو القديسة بربارة . فاذا كنت تقصد بعملك هذا تكريم صورة السيد المسيح التي يحملونها في نفوسهم والحصول بشفاعتهم على نعمة التشبه بهم والسير على نهجهم لتصل الى محبة يسوع ، عُدّ عملك هذا براً وصلاحاً ، اما ان كنت تستشفعهم ليحرسوك من كل ضير واذى

او ليردوا عنك المخاطر أو لينصروك على اعدائك او ليردوا عنك الموت ، فانت فريسة خرافات خرقاء جوفاء . فالصلاة الحقيقية هي ان تطلب الاتحاد بالله والاقتداء بالسيد المسيح .

ان الله يحب ان نعبده بالروح والحق ، والقلب الطاهر والاستقامة . أما ما يبغضه الله فهو هذه الحركات والتصرفات التي لا تتم قط عن شعور حقيقي ولا تفيد شيئاً مما هو لله . ما معنى السجود والركوع في الكنيسة ، والقلب يعج بالحقد ويغلي ضغينة . وما نفع انشاد المزامير والتسابيح ، والفكر تائه مشتت . المهم هو تنقية القلب وتطهيره من كل رجس . المطلوب تحقيقه هو ما جاء في خطاب السيد المسيح على الجبل ، اي ان تحول خدك الايسر لمن ضربك على خدك الايمن ، اذ ردة الفعل المثلى في المسيحي هي ان تحمل الشرير على رمي سلاحه وطرحه بعيداً لشدة ما يرى من كرم نفسك وطول اناتك » .

ولكي نساعد السيد المسيح ليبني فينا الحياة الداخلية علينا ان نعتصم بالتأمل ، صلاة القلب الحقيقية . « خمس كلمات تتفجر من اعماق القلب خير من عشرة آلاف كلمة تكرج على طرف اللسان وتذهب في الهواء هباء » ، « الشوق الشديد الذي تجيش به اعماق النفس هو الذي يجعل الله يصيخ باذنه الينا » اتشبط بمثل موسى النبي : فهو لا ينبت ببنت شفة وهو في حضرة الله العلي ؛ اما قلبة فيلهج صارخاً : لماذا دعوتني يارب؟

اما الوسيلة الثانية فهي معرفة شريعة الله ، « غذائنا الروحي » . ثق يا اخي الحبيب ، أنه ليس من تجربة ، مهما اشتدت وطأتها ومهما خطر شأنها الا وتستطيع ان تتغلب عليها بقراءتك الكتاب المقدس قراءة تدبر وتفهم . علينا ان نفتش عن الروح تحت الحرف ، عند هؤلاء المعلمين الرمزيين الكبار ، امثال : بولس الرسول ودنيس الاريوباجي ، والقديس اوغسطينس واوريجينيس ، وان نستعد لفهم هذه الامور بالاستعانة بمؤلفات دنوية كتلك التي وضعها افلاطون . علينا ان نربي فينا قوة التمييز ، وان ننمي في ذواتنا ملكة الحاكمة العقلية ، وان نحكم على الاشياء بانفسنا ، اذ يتحتم علينا الا نحدد مبادىء سلوكنا على المألوف من أعراف الناس وعاداتهم حتى ولو لقيت استحسان البابا وحازت على موافقة الملوك ، بل علينا ان نزن هذه الاعراف ونقيسها وفقاً لتعاليم السيد المسيح . وهل من ضر علينا اذا ما كان قليلاً عديدنا او كنا فئة صغيرة ؟ ويكفي ان تنال قضية ما أو ان تحوز رضى العدد الاكبر حتى تصبح موضوع ظنه وارتياب . كانوا ابداً قلة وسيكونون دوماً فئة صغيرة ، هؤلاء الذين سيحافظون على نقاء القلب والضمير ، ويتحلون بالسذاجة والفقر الروحي والتجرد ، ونكران الذات ، ويستمسكون بالحقيقة التي علمها السيد المسيح . وهكذا نرى كيف ان الامر ينتهي عند ايراسموس الى حرية الفكر ، والى فردية المرء التي اكثر ما تليق بالحركة الانسانية ، وبالاحرى ، حركة « الانسانية الانجيلية » .

فلا تسل ، بعد هذا عن الدوي الذي احدثه كتابه « رفيق المناضل » الذي اتبعه ، عام

١٥١١ ، بكتاب آخر عنوانه : « تقريظ الجنون الذي جاء صورة عن الاول ، انما باسلوب تهكمي ، لاذع . فاشتهر بذلك اسم ايراسموس وامتد صيته في كل من ايطاليا واسبانيا ، والبلاد الواطئة ، وراح يعلم في جامعة كمبريدج ، في انكلترا ، في كلية كريستي ، حيث اخذ يعد طبعة جديدة للعهد الجديد، باليونانية نشرها في مدينة بال ، عام ١٥١٦ ، في دار النشر المعروفة بدار فروبن *Froben* . وقدم لهذه الطبعة بخطبة حث فيها الناس على درس الفلسفة ، المسيحية ، عنوانها « *Paraclésis ad philosophiae christianae studium* » «دعوة الى دراسة الفلسفة المسيحية » . يجب الا يجهل احد بعد « فلسفة المسيح » «المعلم الوحيد المرسل من السماء » هذه الفلسفة التي هي في متناول الجميع، لان في مقدور اي كان ان يَرِدَ وِرْدَهذا المعين الصافي، في بضعة كتب سهلة المأخذ : كانجيل القديس يوحنا وبعض رسائل القديس بولس الرسول ونبوءة اشعيا النبي ، اذ باستطاعة اي كان ان يتفهم جيداً « لأن العقول تقتبس والنفس تستسيغ بيسر ما يتلاءم مع الطبيعة » . والحال ان فلسفة السيد المسيح، هذه الفلسفة التي يسميها هو نفسه الميلاد الثاني ، هي تجدد الطبيعة البشرية التي خلقت طيبة . وسيصادف القارىء ، باسرع ما يمكن ، معلماً ومرشداً هو الروح القدس الذي يحل بكل مسرة ، في النفوس الساذجة . « فالشمس التي تشرق علينا ليست باكثر التصاقاً بالناس ولا ايسر تناولاً من تعاليم السيد المسيح ... واني لاتمنى من الصميم ان تتمكن أوضع السيدات من قراءة الانجيل ، ومن قراءة رسائل القديس بولس . وعسى ان تجود السماء بمن يقوم بترجمة الكتب المقدسة الى جميع لغات الارض بحيث تصبح في متناول الجميع وتيسر مطالعتها ليس فقط لسكان اسكتلندا ،وايرلندا ، بل ايضاً للعجم والعرب . صحيح ان البعض سيمدون لها طرف اللسان هازئين ولكن لا بد من ان يقع البعض تحت اسرها . وعسى ان يقيم الله من بين الزراعين والفلاحين من يردد آيات الكتاب المقدس ويلهج بها ،ويده على المحراث ، وان يطلع من بين الحاكة والنساجين من يتغنّى ببعض نصوص الكتاب المقدس بينما تتعاور يداه الوشيعة ذهاباً وإياباً، وان يجد المسافر في عزلته ما فيه سلواه وتعزيته في سيره الرتيب،بحيث يصبح الكتاب المقدس موضوع احاديثهم وحديث سمرهم » . وهكذا نرى المسيحية تغذي جميع نشاطات الانسان وتسيطر على كل علاقاته الاجتماعيه ، وتملأ كل حياته « فاللاهوتي الحق ، ليس هذا الذي يمضي في استخلاص البراهين والادلة ويسوقها حججا متصلة الحلقات ، آسره في بلاغتها دامغة في مدلولها، بل اللاهوتي الحق هو هذا الذي يعلم ويرشد بكل ما فيه من اقتناع وايمان حي ، وحسن سلوك ، وحياة مثالية ، ويحتقر الماديات ويعرض عنها .. هو الذي امتلأ من روح المسيح،ويعلم تعاليمه وينشر مبادئه .. هو هذا الذي يحرص على غرس هذه التعاليم في قريبه ويحرضه على العمل بها ، ويأخذ بيده الى مرابض الايمان . هذا هو اللاهوتي الحق ، سواء اكانت يده على المحراث أو وراء منسجه » .

كل هذا يتفق كل الاتفاق وتعاليم الكنيسة . فايراسموس هو هنا، في صميم الصراط القويم ، في صميم الارثوذكسية المستقيمة الرأي . فالقول بالطبيعة البشرية ، التي لطختها الخطيئة الاصلية

ودنستها دون ان تفسدها كلياً ، هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية نفسها . ومع ذلك ، فكتابه « *paraclesis* » مليء بالمواد السريعة الانفجار . فاذا ما راح قارىء يمضي ، مثلاً في استخلاص النتائج المترتبة على القول ان الروح القدس هو المعلم ، ومضى في استنتاجه هذا الى الحد الأقصى، انتهى حتماً الى وضع، اضطر معه امام المنطق الآسر ان يسلم بان أقلّ ربّة منزل واية مسكينة، تطالع الكتاب المقدس ، مستضيئة بانوار الروح القدس ، قـد تطلع برأي او تفسير ، يناقض تماماً جميع قرارات المجامع المسكونية السابقة . واذا مضى القارىء على مثل هذا النحو ، وبيده مثل هذا القياس ، انتهى الى التسليم بان اللاهوتي الحق هو هذا الفلاح ، أو هـذا الحائك الذي يمثل في سيرته وسريرته ، قول السيد المسيح : أفلا ينتهي بـه المطاف الى استنتاج آخر ، الى نكران كل صفة كهنوتية في الكاهن ، فيضرب بعرض الحائط ، السلطة في تسلسلها المترابط، وينكر بالتالي الكنيسة ؟

بعد نشر كتابه الاخير الذي اشرنا اليه أعلاه ، اصبح ايراسموس زعيم الانسانيين الانجيليين، في جميع انحاء اوروبا . فنشر ، بالاتفاق مع الراهب الدومنيكي جـان فابر ، في خريف عام ١٥٢٠ ، رسالة طالب فيها بوجوب عقد مجمع مسكوني . ومما يلفت النظر في هـذا الامر ويدعو الى شيء من الغرابة والدهش ، هو اشتراك هذا الراهب الدومنيكي باعداد هذه الرسالة ونشرها بالتعاون مع ايراسموس ، في الوقت الذي سبق للبابا فيه واصدر بتاريـخ ١٥ حزيران السابق براءتـه المشهورة *Exsurge* الذي حرم فيها الراهب المتمرد لوثير وقطعه من عضوية الكنيسة وشراكتها ، حتى ان اللوثريين الالمان استهولوا الامر ، وراحوا يقترحون بوضع انفسهم تحت تصرف ايراسموس ، حتى ان لوثير نفسه عرض عليه ، عام ١٥١٩ ، ترأس الحركة الانتفاضية التي قام بها ، فرفض . وقد خُيّل للجميع . بين ١٥١٦ – ١٥٢١ ، ان الكنيسة ستقوم ، هي نفسها باصلاح نفسها ، وذلك باتفاق على نصوص معينة يتفق عليها الاطراف المعنيون ، يُقره مجمع مسكوني يُعقد لهذا الغرض ، اساسه مسيحية تتمتع بحرية واسعة بعد تحديد القضايا الايمانية الاساسية ، وفقاً للمنهج الذي فصّله ايراسموس في رسالة له الى بول فولز ، رئيس دير هوغشوفن ، مؤرخة ١٤ آب ١٥١٨ ، هذه الرسالة التي جاءت مقدمة الطبعة الثانية لكتابه : « رفيق الفارس المسيحي » التي ضمنها الامور التالية : صرف النظر عـن أي جدل او مناقشة مع اتباع الفلسفة الاسمية ، الاقتداء بالسيد المسيح ، تحديـد بعض قضايا الايمان والآداب بكلمات مقتضبة ، الكمال المسيحي حسبما يستطيع المسيحي تحقيقه في حياته الخاصة ، لان « الكمال المسيحي يتمثل ، قبل كل شيء في ما يختلج في النفس من احاسيس ومشاعر وليس في نهج الحياة » ؛ إذاً الغاء طغمة الرهبان بالتالي ، ونسخ الفرائض التي الزموا الناس الاخذ بها .

لوثير

ما كادت هذه الانتفاضة الدينية على الكنيسة ان طلعت حتى ظهرت اختلافـات ومفارقات اساسية بين المؤازرين لهـا والناهضين بها ، لم يكن من السهل قط حلها

او كبتها ، فأدت بالتالي الى التباعد بين لوثير وايراسموس والانفصال عنه ولا سيا عندما اثيرت قضية التوفيق بين قدرة الله الكلية وبين الحرية التي يتمتع بها الانسان في ارادته . فبينا كان لوثير يسعى بكل قواه ، ولكن دونما جدوى ، ان يكيف نفسه ، وهو بعد راهب تابع للرهبنة الاوغسطينية ، ليسير حسب مشيئة الله وان يتصرف بما فيه مسرته تعالى ، ظهر له ، والالم يحز في نفسه ، ان الانسان اعجز من ان يتمم وصايا الله واعجز من ان ينال، بالتالي ، مثوبة عنده . فقد شعر، في الصميم ،هذه الشهوة التي تلازم طبيعة الانسان وتتمطى بين ضلوعه وتتغلغل في ثنايا كيانه فتحمله حملاً الى الشر ، الى الاثم والرذيلة ، الى الشره ، الى السيطرة على الآخرين ، بحيث يصبح الانسان غارقاً في خضم الخطيئة . فقد عاش لوثير بنفسه، هذه الحالات التي خُيِّل اليه فيها ان الانسان يتملكه فجأة ، شعور عارم لا يقاوم يطيح امامه كالسيل الجارف، بمقاصده ونواياه ، ويغرق ضميره ، ويسير به الى دوامة تجره الى الشر . كثيراً مـا فكر بهذا الاشمئزاز يحسه نحو الاعمال الحسنة ، هذه الاعمال التي ، مهما تجاهـل الانسان الخطيئة وتعامى عنها ، تخالطها ، في احسن الحالات التي يكون فيها الانسان صادق العزم والارادة ، افكار دنيئة ، واهية، رجسة، تتنزى بالأثرة والمنفعة الخاصة ، وحب الظهور والمجد الباطل، بحيث يشعر المرء ان كل ما يأتيه او يصدر عنه او يفعله ، لا يمكن ان يكون صالحاً ، او حسناً او خيراً . فقد خبِرهوهذه الحالات النادرة جداً،التي يشعر الانسان فيها وكأن قوة تهبط عليه فجأة من فوق، من العلو ، فيرى نفسه محمولاً الى الامام ، نحو العمل الخير ، البـار ، فتنبض نفسه ، بصورة غامضة ، لا يرتقي اليها الشك ، بشعور نقي طاهر . ومن هـذه التجربة الشخصية التي عاشها نشأ عنده الاقتناع التام بعجز الارادة البشرية،الجذري، الذي لا حيلة فيه ، وبقوة النعمة الالهية التي لا تقاوم.وعلى هذا اليقين الذي رسخ فيه،نهض تفسيره للكتاب المقدس وشرحه له .

وقد توضحت افكاره وتبلورت خواطره بهذا الشأن منذ ان وضع شروحه على رسائل بولس الى اهل روما ، عام ١٥١٥ – ١٥١٦ ، ووضع مبادئه العامة في وتنبرغ ؛ ونقـده للاهوت السكولستيكيين وتفنيده له ، عام ١٥١٧ . « فالطبيعة البشرية ، بحكم جوهرها ، فاسدة هي وعاطلة بشكل لا حيلة فيه ولا مرد .» فحرية الارادة فسدت من جراء خطيئة آدم . وبواسطة الخطيئة الاصلية ، يرى الانسان نفسه مسوقاً الى الشر بصورة لا معدّى له عنهـا . فلا يمكن للانسان ان يريد او يرغب غير الاثم والشر ، ولا يمكنه ان يصنع الا الاثم. غير ان الله القادر على كل شيء ، والذي يعرف منذ الازل ، بما له من سابق علم ، من هم الخالصون ومن هم الهالكون ، يرسل بعطف الهي منه، نعمته وأيده السماوي ، لمن اختارهم واصطفاهم لابنه يسوع المسيح ، الى هؤلاء المعدّين،منذ الازل،الذين افتداهم السيد المسيح بدمه وبذل لاجلهم آخر نقطة مسمراً على الصليب .فالله يعطي هؤلاء، مجاناً،دونما اي استحقاق منهم،الايمان بيسوع المسيح،هذا الايمان الذي به وحده يتم الخلاص،كما ويزرع فيهم ويسكب عليهم حب يسوع،والخضوع لارادة الله. والنعمة الالهية هي التي تجعل الانسان يرغب في الخير ويسعى اليه، بعد ان كان زهد فيه واعرض عنه وتنكر

له ، فتحمله حملاً وتقسره قسراً على النزوع اليه . فالانسان هو ألعوبة بيد الله . « نحن لسنا اسياد عملنا ، انما نحن عبيد من المهد الى اللحد ، من البداية الى النهاية » . و « نحن لا نتبرر قط ، مهما كان سلوكنا باراً ، واذا كنا نعمل اعمالاً بارة ، فلأننا تزكينا بنعمة الله » [1]. فالنعمة ، والحالة هذه ، لا تشفي الخاطيء، فهي تدعه دَنِساً ، رجساً ، غير طاهر ، غـيـر ان الله ، بنعمة منه مجانية ، ينجيه من هذا الفساد ويخلصه من هذا النتن الذي يملأ كيانه ، وذلك بفضل استحقاقات السيد المسيح التي يجريها على الخاطيء بالايمان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي تفيضه النعمة عليه . ولذا كانت اعمالنا وتصرفاتنا لا شأن لها ولا قيمة البتة لعمل الخلاص . فالايمان وحده ، اولى النعم ، هو الذي يُخلّص . فالاعمال البارة ليست سوى الدليل على النعمة . فاذا كانت النعمة تملأنا اوحى الله لنـــا بهذا ، بواسطة الروح القدس الذي يأتي الينا ويطمئننا بان خطايانا قد غفرت لنا ، مهما كانت اعمالنـــا وتصرفاتنا . وترجو رجاء وطيداً انها تُسِرّ الله ، مع انك تدرك جيداً بانك لا شيء امام الله،باعمالك هذه ، حتى ولو كانت مرضية بارة ، حتى ولو عملتها بروح الطاعة ؛ اذ لست انت الذي تعمل الاعمال الشريرة » . فالله هو الذي يعمل كل شيء بدون ان يسهم الانسان بشيء . وهكذا نرى ان حرية الارادة وهم هي وخيال .

من هو الذي أدخل في روعنا واقنعنا ان باستطاعة ارادتنا ان تعمل شيئاً ، وان في مكنتنا ان نكسب أجراً ومثوبة امـــام الله ؟ هم الفلاسفة القدامى الذين بواسطتهم استطاع اصحاب الفلسفة المدرسيـة ان يفسدوا الكتب المقدسة . فما الذي يعلمـه لاهوتيو الفلسفة الكلامية ؟ انهم يرون في من لا يحسن المنطق من رجال اللاهوت هرطوقياً خطيراً ، هذه العبارة التي ينعتها لوثير بكونها هرطوقية مخيفة. وما الذي يعلمه اللاهوتيون من اصحاب الفلسفة الكلاميـة ؟ هم يرون انه بدون معرفة ارسطو لا يمكن لانسان ما ان يصبح لاهوتياً. أما لوثير ، فيؤكد عكس ذلك تماماً ، فهو يَعلّم ان الانسان لا يصبح لاهوتياً الا اذا ابتعد عن هوميروس وتجاهله تماماً ، « وان نسبة ارسطو للاهوت هي نسبة الظلام الى النور » . « كل ما جاء به ارسطو عن الاخلاق هو عدو النعمة ومضاد لها » فقد وقف لوثير من الفلاسفة الكلاميين موقفاً عكسياً، مناقضاً لهم كل التناقض ، كما انه يبعد كل البعد عن الانسانية الانجيلية .

التصادم بين الانسانية الانجيلية والاصلاح

وقع هذا الاصطدام عندما راح ايراسموس ينشر عـام ١٥٢٤، كتابه : « حول حريـــة الارادة » . فحرية الارادة ، في نظر ايراسموس ، هي ملكة من ملكات الحرية البشرية ، وصفة من صفاتها الملازمة ، بها يستطيع الانسان ان يأتي كل ما يفضي به الى الخلاص او الى الهلاك الابدي . وفي هذا السبيل،ونهوضاً منـه بهذا القول،راح ايراسموس يجمع النصوص الكتابية التي تشير او تُلمح الى حرية الانسان باختيار الخير أو الشر على هواه . فتولى بالتدقيق والتمحيص بعض النصوص التي يبدو عليهـا انها تعني عكس ذلك ،

---

[1] (١) من كتابه : مناقشة لاهوت السكولستيكيين – القضية ٣٩ ، ٤٠ ، و ٤١ .

وأخذ يدلل انها ضرب من المجاز ألحقَ بعض الغموض وأدخـــل شيئاً من اللبْس على المعنى الحقيقي لهذه النصوص التي تعني حقيقة ، حرية الارادة في الانسان . وهكذا ، فالنفس البشرية لها القدرة على ان تحكم وتقضي وتقرر ، كما لها القدرة على الاختيار . صحيح ان الخطيئة الاصلية ألحقت بعض الغموض بهذه كما سببت بعض الضعف في تلك ، انما لم تقض عليهما البتة . ولما كانت الخطيئة قد رُفعت عن الانسان بنعمة الله وتحننه، فقد عادت الى هذه القوى حريتهـــا بسلوك الصراط المستقيم والمضي في غراره، بمؤازرة النعمة الالهية ومساعدتها .

حتى بدون النعمة ، بقيت حرية الارادة فينا ، قائمة ، ولو ان الخطيئة اضعفتها . بدون النعمة الالهية ، كان باستطاعتنا ان نتجه من الخير والصـــلاح ، وان نأتي ، اعمالاً صالحة بارة نستحق بها نعمة الله المبررة . فاذا لم يكن للانسان حريته ، لأنتفت عنه بالتالي كل مسؤولية . فما الفائدة ، والحالة هذه من عدل الله ورحمته ؟ ان الواقع فعلاً هو ان نعمة الله وارادة الانسان تعملان معاً بالتعاون : فالنعمة تطهر حرية الارادة وتنقيها مما علق بها من شوائب ، كما ان حرية الارادة تعمل هي الاخرى من جهتها .

جاشت حفيظة لوثير لهذه التعاليم، وراح يرد على ابراسموس بكتابه « *De Servo arbitrio* ـ حول عبودية الارادة »الذي نشره عام ١٥٢٥،والذي جمع فيه زبدة تعاليمه بهذا الشأن، كما راح يقذف ابراسموس باقذع الكلام ، ويدعوه : « خنزيراً » و « نفاثاً للسموم » كما رأى في كتابه الاخير : « قمامة اوساخ » ومطـرح « الاوحال والقاذورات » . واذ ذاك ، أخذ لوثير يهاجمه بهذا القياس ذي الحدين : اما ان تكون لحرية الارادة القدرة على السير بنـــا الى الخلاص ، فتصبح النعمة ، اذ ذاك ، لا طائل تحتها البتة ، ويصبح من التجديف على الله نكران القدرة الالهيـة ، واما ان لا تكون لحرية الارادة اي قوة او فعالية ، فلا تستطيـع بالتالي ان تأتي اي عمل او ان تنتج شيئاً ، واذ ذاك تصبح كلاماً مكروراً باطلاً وهباء منثوراً . والحال فانت تقرر وتعترف بأن حرية الارادة كثيراً ما تحتاج للنعمة ، في كل تصرفاتها وسكناتها ، وبذلك تعترف ضمنـاً انها لا شيء قط . وراح لوثير ، بوصفه تلميذاً للفيلسوف الاسمي بييل ، يفكر ويعلم ان جـل ما يمكن لنا ان نتوقعه من مصير هو ان نبقى ، الى الابد ، مغمورين ، نكرة ، ليس فينا مـا يستحق الذكر او يلفت النظر . فحيث لا توجد ظواهر تنم عن شيء ما ، فليس هنالك شيء قط . ما عساك ان تقول لو اني استخدمت اقوالك وتأكيداتك بوجود حرية الارادة ، فاثبت لك منها ان لا وجود لهذه الحرية البتة ؟ فأنت تعترف لحرية الارادة ، بقوة هزيلة ، وان هـذه القوة تبقى عاجزة ، لا تأتي شيئاً بدون نعمة الله . والحال ، فاذا ما غابت نعمة الله عن هـذه القوة التي لا أثر لها ولا حول، أو اذا لم تبلغها نعمة الله وتتصل بها، فما يمكنها ان تفعل؟ستقول ، ولا شك ، انها لا تعمل شيئاً صالحاً اذ لا تأثير لها . اذاً هي لا تفعل ما يريده الله او نعمته ان تفعل... وما لا يتم بنعمة الله،وما لا تعمله نعمة الله ، لا خير فيه . ومن هنا يستنتج ان الارادة لا حرية لها البتة بدون نعمة الله ، بل انها تبقى ، ابد الدهر ، اسيرة للشر وعبدة له ، اذ تبقى

عاجزة عن الاتجاه وحدها نحو الخير .. وما عسى ان تكون هذه القوة التي لا تأثير لهـا سوى انها قوة لا وجود لها ؟ ولهذا ، فالقول ان حرية الارادة موجودة ، وان لها قوة ، انما هي قوة لا تأثير لهـا ولا فعالية ، اشبه بالقول ان حرية الارادة موجودة لانها لا توجد بالفعل ، وكأنك بذلك تقول : « النار البرد » . فالارادة البشرية تقع ، والحالة هذه ، بين الله والشيطان،وهي ، كالحصان ، تترك أمرها لمن يقودها ويدفعها الى الامام . فاذا كان الله هو الذي يوجهها ، اتجهت هي الاتجاه الذي يريده لها ، وحسبما يريده لها . واذا كان الشيطان هو الذي يتحكم بها ، ذهبت هذه الارادة حيث يريد لها الشيطان ، وسارت كيفما يريد . والحال ، فالارادة البشرية ، في هذا كله ، ليست حرة قط ، باختيار سيد لها . فهي ستتبع من من الفارسين المتصارعين ، او من من القوتين المتصادمتين ، يتغلب على الثاني » . وهنا نرى ان لوثير اشتط كثيراً وذهب بعيـداً ، اذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع مبدأي الخير والشر اللذين كانا يتنازعان السيطرة على العالم . اي انه لامس هرطقة المانوية باعتناقه مقالتهم فلا عجب ان يتهمه ايراسموس رسميـاً بالهرطقة ، بين ١٥٢٦ – ١٥٢٧ .

هذا الجدل الفلسفي بين لوثير وايراسموس كان الفاصل بينهما والقطيعة بين الاصلاح والانسانية الانجيلية بل كان ابعد من ذلك،اذ اصبح القطيعة بين الاصلاح البروتستانتي وعصر النهضة . ففي « الحوار » الذي نشره سنة ١٥٢٤ ، تصور ايراسموس ، شيشرون كأنه شخص ملهم من الله ، فراح احد الذين شاركوا في هذا الحوار وشهدوه يصرح قائلاً : تغلبت على نفسي بكل صعوبة لأمنعها من ان تنطلق بالصراخ : « يا قديس سقراط ، صلِّ لاجلنا» . اما لوثير فانه حكم بالهلاك الابدي لسقراط كما انه سفّه كل كبار العقول الذين لمعوا في عهد الوثنية ،بعد ان رأى في فضائلهم سفاهات ، وفي اعمالهم الخيّرة الصالحة خطايا ، لانهم عطلوا الله ، في نظره ، من القدرة على ان يؤمّن لوحده خلاصنا . « فقد انحدروا الى ادنى دركات الحقارة وانحطّوا الى اقصى درجات البغضاء ، في بلوغ فضائلهم الذروة من التسامي » ، لأنهم نزعوا ، على ابشع صورة من السرقة والاختلاس ، مجد الله ليتباهوا هم به » .

وهذه الخصومة العنيفه بين المذهبين الدينيين الجديدين ، برزت على أشدها ، هي ايضاً ، بين النظم الكنسية الاخرى . آثر ايراسموس ان يبقى ضمن الكنيسة الكاثوليكية ، بعد تحررها واصلاحها . ففي الحين الذي اشتد فيه الجدل وحمي وطيس النقاش ، برزت للوجود كنائس لوثيرية اخرى. فعمد لوثير ، بين ١٥٢٠ – ١٥٢٨ ، الى تنظيم كنيسة ساكس البروتستانتية ، فجاء تنظيمها نموذجاً نسجت على منواله الكنائس الانجيلية الاخرى التي قامت في مقاطعات : هس وبروسيا وأسوج والدانمارك . فقد رأى لوثير ، معتمداً في ذلك على بولس الرسول ، في رسالته الى الرومانيين (إصحاح ١٣ العدد الاول) وعلى رسالة بطرس الثانية (اصحاح ١٣) ان السلطة هي رسالة الهيـئة « تقوم على خدمة الله » ، وعلى المسيحي ان يخضع لهذه السلطة. فالأمير أو الملك ، بقطع النظر عما له من سلطة مدنية مطلقة ، يراقب ، بما له من حـق الهي

معطى له ، الكنيسة ويتولى ادارتها . فالاملاك والوقوفات الكنسية التي جاءت هبات من جماعة المسيحيين ، تخضع للسلطة التي عهد الله اليها بتدبير امورهـــا ، للامراء والحكام . فالامراء اللوثريون ، هم مدعوون ، والحالة هذه ، لان يخلفوا البابا في ما له من سلطة أدبيـــة ، وبذلك يزيدون ، بواسطة مصادرة الاوقاف الكنسية ، ما تم لهم من ثروة وسلطان. فصاحب السلطة هو الذي يختار الوعاظ وشيوخ الكنيسة ويعين المراقبين الماليين الذين يتولون مراقبة الكنائس ويحرصون على بقاء نقاء مراسم العبادة والطقوس . باستطاعة رعاة الكنائس ان يتزوجوا . الله وحده قدوس هو ، فلا موجب بعد ولا داع ، لعبادة مريم العـــذراء ولتكريم القديسين وتكريم صورهم المرسومة باليد او المنقوشة في الخشب او الحجر . اما الاسرار فلم يبق منها الا السران اللذان رسمها السيد المسيح صراحة ، وهما : سر العماد وسر الافخارستيا . ولكن تعاليم لوثير عن المسيح طلعت علينا بالكثير من الاسرار . فقد راح ، رغبة منه في تعظيم السيد المسيح ، يشدد ليس على وحدة الابن فحسب ، بل ايضاً على طبيعة المسيح الالهية بحيث أوشك ان يلامس الهرطقة القديمة التي قالت بطبيعة واحدة في السيد المسيح. فقد رأى ان الطبيعة الالهية في السيد المسيح أضفت على الطبيعة البشرية فيه شيئاً من خصائصها وملكاتها الجوهرية ، ولا سيما ، خاصية الوجود في كل مكان او خاصية كلية الحضور . فالمسيح الله هو في كل مكان ، والمسيح الله يمكن ان يوجد في كل مكان . فالمسيح يوجد بالفعـل في الخبز والخمر بعـد ان يتم تقديسهما ، اذا ما توفرت لمتناولهما ، الشروط اللازمة . فقد رفض لوثير الاعتراف او الايمان بالاستحالة الجوهرية التي يستحيل فهمها من وجهة نظر الفلسفة الاسمية ، غير انه يؤمن بالحضور الجوهري . فالعبادة على هذا النحو من المفهوم يمكن تبسيطها ، اذ تقتصر ، في ايام الاسبوع العادية ، على التعليم والوعظ وترتيل المزامير . أما يوم الأحـد فيُحتفل فيه بالقـداس . فالمذبـح والشموع والالبسة الكهنوتية ، يمكن ان يحتفظ بها . فالكاهن يقرأ ، بالألمانية ، الرسائل والانجيـل ، وجمهور المؤمنين يتلو بالألمانية أيضاً ، قانون الايمان ، كما ان الكاهن يشرح موضوع انجيل النهار ويفسره ، ويتلو بالألمانية كلام التقديس ، ويوزع القربان تحت اعراض الخبز والخمر . اما الاعتراف فليس بضروري ولا ما يوجب له . وفي ظل كنيسة الدولة الرسمية يَبْطل كل جدَل ديني ، ويُقْطَع من شراكتها المخالفون لها بالرأي ، كما ان للكنيسة الحق بالحد من حرية الفكر ، وتفرض على الجميع . الطاعة السلبية . فبين هذه الصورة والصورة الاخرى التي تمثلها ايراسموس للكنيسة ، طرفا النقيض .

ففي الوقت الذي كان فيه لوثير يقطع كل علاقة له مع الانسانية الانجيلية ، كان البعض من أتباعه يقطعون معه كل علاقة .

لم يلبث القول بحرية الضمير ، وحرية الاعتقاد وبالفردية ان اعطى كل نتائجه المنطقيـــة . فالراهب السويسري زونكلي الذي كان يخـــدم منذ عام ١٥١٨ ، الكنيسة الكبرى في مدينة زوريخ والذي عُرف عنه اولاً ميله الظاهر الى ايراسموس والتعاطف معه ، ثم أخذ يقع ، اكثر

فاكثر ، تحت تأثير لوثير ، لم يلبث ان تعدّاه سنة ١٥٢٢ ، وتجاوز بعيداً تعاليمه ، فرذل حتى فكرة الاسرار التي حافظ لوثير على بعضها. فالعماد والعشاء ، السري ليسا سوى رمز . فالمناولة لم تعد سوى رمز لرابطة روحية مع روح المسيح ، ليس الا . والعبـادة اقتصرت على قراءة التوراة والموعظة الدينية والاشتراك . فالشعب او جمهور المؤمنين هـو الذي يقرر بنفسه تفسير الآية وكيفية فهمها ، كما انه هو الذي يحكم على درجة سلامة موقف كل مؤمن من بين الجماعة ، من هذا التفسير ، اما الكنيسة فليست سوى ديموقراطيـة تذوب في الدولة الديموقراطيـة. وفي سنة ١٥٣٤ ، تبنى المجلس البلدي في زوريخ ، رسميـاً ، هـذه الحركة الاصلاحية التي لم تلبث ان امتدت منها الى مدينة بال ، ثم الى مدينة برن . وقد شعر الكثيرون ان الله بعيـد كل البعد عنهم ، في نطاق المفهوم الذي أعطاه للاسرار الكنسية .

اللامعمدانيون

كذلك راح احد تلاميذ لوثير واتباعه هو مونزر يؤسس ، عام ١٥٢١ ، في بلدة زويكان ، من اعمال ساكس ، حركة ، دينيـة اصلاحية ، جديدة ، ُعرفت بحركة منكري المعمودية او المطالبين باعادة المعمودية . انطلق في حركته هذه من المبدأ الذي قال به لوثير وعلم ان ما يجعل للسر قيمة هو الايمان الذي ينتقل الى المعمَّد عند اقتباله سر العماد . اذاً فمعمودية الاطفال لا تحدث فيهم اي تبرير قط ، ولذا كان من المتوجب إعادة عماد هؤلاء الاشخاص عندما يبلغون سن المراهقة ، اذ يصبح في مقدورهم ، اذ ذاك ، ان يقوموا بعمل الايمان المطلوب . كـذلك علّم مونزر ان كل انسان يتـلقى الالهام من الروح القدس مباشرة اذا ما تمنى ذلك ، هو نفسه ،كما يتلقى منه معرفة اية حقيقة حتى انه يتلقى منه اوامر ونواهي خاصة . بعد هذا ، لا لزوم بالطبع ، للكنيسة ولا لطقوس العبادة ، ولا للقوانـين والشرائع ، ولا لاي سلطة مهما كان شكلها . فالروح القدس يخلق عند كل من نزل عليهم الالهام مساواة كاملة : « فالكل هم ملوك وكهنة » . فلا حاجة بعد لاي نظام اجتماعي ولا لاي منظمة او هيئة من هذا النوع ، اذ كان من الواجب العودة بالحياة الى ما كانت جماعة المؤمنـين الاولى ، في مطلع الكنيسة ، من بساطة ، حيث كان كل شيء مشتركاً بين المؤمنين . وهكـذا نرى ان التعليم الجديد كان من شأنه ان يفضي حتماً الى الشيوعية . وانتشر دعاة هذا المذهب الديني الجديد في جميع ارجاء المانيا الجنوبية ، ومورافيا وبولونيا ، ولم يعتموا ان انشقوا على انفسهم طائفتين ، متباينتين : طائفة المسالمين منهم ، وطائفة المنادين منهم بالعنف والشدة التي انضم اليها مونزر.فقامت بينهما حروب شديدة دامية ،طاحنة عرفت بحروب الفلاحين (١٥٢٤ - ١٥٢٦)

الاصلاح الكاثوليكي ـ البابا

الحلم الذي راود ليلاً ، خيال ايراسموس بطلوع كنيسة جمعـاء ُتجدّد من شبابها وُتصلح من شأنها على يـد مجمع مسكوني ، هذا الحلم الذي حاول الامبراطور شارل الخامس طيلة حكمه ، تحقيقه والخروج به الى حيز الواقع ، تبخر وراح هباءً منثوراً . وشرعت الكنيسة الكاثوليكية تعمل من جهتها على تمتين تنظيمها

وتقوية كل ما من شأنه ان يباعد بين الكثلكة وجماعة الانسانيين الانجيليين ، والاصلاح البروتستانتي . وقد بوشر بالاصلاح الكاثوليكي في الوقت الذي تتتابع فيه مساعي الانجيليين والاصلاحيين للقيام بعمل مزدوج ، مشترك تساهم فيه السلطة الشرعية : البابا والكنيسة من جهة ، ومن جهة ثانية ، النفوس المشبعة بروح الدين الحق ، السلطة الكنسية التي راحت تتقصى الهراطقة ، وتلاحقهم ، وتحدد قضايا الايمان ، والرهبان ورجال الاكليروس والعلمانيين الذين يقومون بمناسك العبادة ، ويحيون في نفوسهم حقيقة ايمانهم .

فالبابا قد تخلص نهائياً من النتائج والمقررات الاخيرة التي افضى اليها مجمع كونستانس وبال. فعقد البابا ليون العاشر اتفاق الكونكورداتو مع الملك فرنسوا الاول ، أقرّه ووافق عليه مجمع لاتران ، عام ١٥١٦ . فقد أهملت هذه المعاهدة في نصها النهائي ، الفصلين الاولين من الاتفاقية الدينية التي عقدها الملك شارل السابع ، عام ١٤٣٩ ، مع الكنيسة والتي تعرف بـ : *La Pragmatique Sanction de Bourge* ، هذه الاتفاقية التي ضمت بين ما تضمنته من نصوص ، قرارات مجمع كونستانس التي نصت على وجوب انقضاء فترة عشر سنوات ، بين عقد مجمع مسكوني وآخر ، كما نصت على ان سلطة المجمع المسكوني هي فوق سلطة البابا . ومن جهة ثانية ، فابرام البابا لهذه المعاهدة الدينية جاء دليلاً على سلطته العليا ، كما انه باصداره البراءة « الراعي الابدي *Pastor æternis* » عام ١٥١٦ ، ألغى ، من تلقاء نفسه ، معاهدة بورج الدينية معللاً عمله هذا : « بانه من الضروري جداً للخلاص إن يخضع جميع المسيحيين لرئيس الاحبار الروماني » ، كما جدد دستور الكنيسة حسبما وضعه البابا بونيفاسيو الثامن في براءته : « *Unam Sanctam* » . فالكنيسة لها رئيس واحد هو السيد المسيح ، ويمثل المسيح على الارض ، خليفة القديس بطرس . فالكنيسة تجمع في يدها السيفين : الروحي والزمني . فالبابا يحتفظ بالسيف الروحي (السلطة) ويعهد بالسيف الزمني الى الملوك الذين لا يجوز لهم استعماله الا وفاقاً لارادة البابا ، الذي يقرر سلوكهم لما فيه خير الكنيسة . وهكذا فالجدل الذي وقع لاستبدال رئاسة مار بطرس برئاسة مجلس استشاري ، فشل تماماً ومات بتراجع ملك فرنسا ، كما ان البابا جعل من الكنيسة نظاماً ملكياً ينزع الى الحكم المطلق .

علماء اللاهوت

اصدر البابا ، عام ١٥٢١ ، حرماً ضد لوثير وحمل الامبراطور ، في مؤتمر وورمس على اصدار امره بالقاء الحجر عليه . ومن جهة ثانية ، فاذا كانت تعاليم ايراسموس نالت بعض الحظوة في البلاط البابوي ، فقد وجد علماء اللاهوت الكاثوليكي ان دفاع ايراسموس عن حرية الارادة وتعاليمه حول هذا الموضوع ، ليس واهياً ولا يفي بالغرض ، فحسب ، بل ايضاً فيه الكثير من الشوائب التي تعتوره والمغالط التي تشوه وجه الحقيقة . فراحوا يجرحونه وينقدونه في سلسلة من الرسائل والردود المفحمة ، منها الرسالة التي وضعها الاسباني سبولفيدا ، عام ١٥٢٦ ، بهذا العنوان *De fato et libero arbitrio adversus Lutherum* « حول القدر وحرية الارادة رداً على لوثير » . فقد أخذ علماء اللاهوت ، على

ايراسموس الغاية الاولى التي وضعها نصب عينيه ، الا وهي معطيات الوحي ، اي الكتاب المقدس ، وهي النقطة التي انطلق منها اللاهوتيون ، بالذات . فقد رغب ايراسموس ، وفي هذا قناعته واقتناعه ، ان يشدد ، من الوجهة التاريخية ، على ما في معطيات الوحي ، من القيم الروحية والادبية في الكتاب المقدس ، مما لفت نظره ووقف عنده ، ليجعل منها محور الحياة الروحية الداخلية . كان من الممكن ان تتم ،لو أخذ برأيه ، تجربة دينية شخصية ليس من ينكر قيمتها ، وهي تجربة لم يكن لتجيز التغاضي او التنكر لطريقة اخرى ، كرستها الاجيال للوصول الى المعرفة ، هي علم اللاهوت ، كانت تبز الاولى سمواً وتفوقها تعالياً الى حد بعيد ، فعلم اللاهوت ، لم يكن ليرضى فعلاً ، بالتوقف عند هذا الحد ، بل اراد ان ينطلق من معطيات الوحي ، من الكتاب المقدس ، ليصل عن طريق العقل والاستعانة به ، الى تفهم اكبر لهذه المعطيات . وللقيام بهذه العملية ، رأى علماء اللاهوت ان لهم كل الحق ان يأخذوا من كل فلسفة او نظام فلسفي ، ما تضمّنه من تعاليم شاملة ، كلية ، يصح تطبيقها في كل زمان ومكان و ويمكن الاخذ بها في كل أين وآن ، وان يتبنّوها وان يحلّلوها ويمحّصوها ، على اضواء الايمان ، في مجهود تعاوني مشترك يتصف بالواقعية والعلم ، يسمو بكثير ويتعالى ، دونما قياس ، فوق كل تجربة ذاتية ، فردية ، داخلية ، ولا يدع مجالاً ، بشكل من الاشكال ، لاتهام الكنيسة المسيحية ، بالانزلاق نحو الفكر الوثني او التعويل عليه بنقل شيء منه . وهذا القول يصح بالطبع ، ضد لوثير نفسه .

ومما أخذه علماء اللاهوت على ايراسموس انزلاقه هو وانحداره الى نصف الهرطقة البيلاجيانية ، فاتهموه انه اقترب كثيراً ، ان لم يكن شارك ، من مقالة بيلاج الذي علّم انه عندما تسقط الخطيئة عن الانسان ، بنعمة الله ، ويصبح حراً بالتالي ، فهو لا يعود بحاجة الى نعمة جديدة ، فيستطيع ان يؤمّن خلاصه بما فيه من قوى كامنة ضمن ارادته الحرة فايراسموس يقوم بتنازلات كثيرة للحرية البشرية وللارادة البشرية . فقد كانت زلة ايراسموس وغلطته الكبرى ان يضع ،على مستوى واحد ، ارادة الانسان وارادة الله ، كأنهما شخصان يجرّان معاً سفينة في وقت واحد . ففي وضع كهذا ، اذا ما شدّ احدهما اكثر من الآخر قليلاً ، جذب السفينة اليه اكثر من الثاني . فاذا ما تصور المرء نشاط الله ونشاط الانسان وفعالية كل منهما على مثل هذا النحو او الشكل ،كان التسليم لواحددون الآخر ،اكثر من اللازم ،فيه انتقاص من عمل الثاني . فيجب الا يغرب عن البال قط ان الله تعالى هو العلة الاولى ، وان ارادة الانسان هي في مرتبة الاسباب الثانوية او المساعدة. فالاسباب الثانوية تؤثر ولها مسبباتها بفضل العلة الاولى او السبب الاول الذي يحركها اويمدها بالحركة . فالله هو الذي يحرك الارادة في الانسان ،ولكن دون ان ينتزع شيئاً من حريته ، اذاً ،ما الذي خلقه الله ؟هو بالذات ارادة حرة ، ارادة شاءها حرة وعندما يوليها بنعمته ،حركة او دفعاً ،فهي تصبح اكثر حرية لانه هويعطي الحركة الدافعة لهذه الحرية . وهكذا شجب علماء ، اللاهوت تعاليم ايراسموس ورذلوا مقالته ، لانه اعطى

الانسان اكثر مما يجب ، بينما جرّده لوثير، من كل شيء .

أخذ علماء اللاهوت على ايراسموس ايضاً عدم تفهمه الحياة الرهبانية، هذه الحياة التي ترمي الى مشاركة الله عن طريق التشبه به . أفليست النذور التي يقطعها الراهب على نفسه ، بالدليل القاطع على اختصاصه بالله وحده والعمل في سبيل مرضاته . فالتقيد باحكام هذه النذور وشروطها اعلان عنها وعن فوائدها امام الناس . فالنذور ومظاهر التقيد بها هي اصدق الوسائل وأمثلها لمن ينقطع كلياً الى الله ، عند من أنس ميلاً لهذه الدعوة واستجاب لها . فقد تجاهل ايراسموس الدعوة الكهنوتية واسقط من حسابه النعمة التي ترسخها في نفس من استجاب لها .

المجامع

سبق لـكلية اللاهوت ، في باريس ، وهي أكبر سلطة دينية في العالم المسيحي بعد سلطة البابا ، ان شجبت ، عام ١٥٢١ ، تعاليم لوثير وحكمت عليها بالزيغ والفساد . والمجمع المعروف بمجمع « سانس » التأم في باريس،عام ١٥٢٨ « بقصد شجب تعاليم اللوثريين الهرطوقية ولاصلاح الكنيسة » . فقد كان هذا المجمع بالفعل ، مجمعاً اقليمياً ترأسه الكردينال انطوان دوبرا ، مستشار فرنسا ورئيس اساقفة سانس ، ورئيس اساقفة غاليا وجرمانيا ، كما تضمنت القرارات التي اتخذها واعلنها فيما بعد ، المجمع التريدنتي ، كحقائق ايمانية تتعلق بالكنيسة جمعاء . فالمجمع قام يناضل في المجال ذاته الذي ناضل فيه ، الانسانيون الانجيليون وجماعة الاصلاح ، اي الكتاب المقدس نفسه . وضد ادعياء المصلحين هؤلاء الذين يزعمون انهم يعتمدون نصوص الكتاب لا غير ويرفضون التقليد الكنسي باعتباره من وضع بشري ، قرر المجمع وجوب الاعتقاد بقضية ما من قضايا الايمان بمجرد ما تؤكد ذلك الكنيسة الكاثوليكية ، حتى ولو لم يرد عنها نص صريح في الكتب المقدسة . وعندما راح يؤكد ان اشياء كثيرة لم تدوّن في الكتاب المقدس ، انما وصلت الينا بالتقليد المتواتر عبر الاجيال ، كان المجمع يعتمد في موقفه هذا على ما جاء في خاتمة القديس يوحنا وفي رسالة القديس بولس الى أهل تسالونيكي . ومع هذا كله ، ألم يَقـُل السيد المسيح ان الروح القدس سيأتي فيما بعد ليتمّ استنارة الرسل ويكمل اعلان الوحي الالهي؟ . والروح القدس يكمل الوحي على مر الاجيال.

وقد اعلن المجمع حرية الارادة . اما عمل النعمة فيتم على مرحلتين . فالارادة البشرية ، اذ تكون تحركت بمراحم الله ، تحاول تنفيذ ارادة الله ، واذ ذاك ، يعطيها الله نعمته الفاعلة ، فاذا ما استجاب الانسان ، كما يجب ، لهذه البادرة وقام بالاعمال الصالحة التي يترتب عليه القيام بها ، استحق بعمله هذا ، ما يؤهله للحياة الابدية . والنعمة هي ضرورية ، وهي لا تلحق اي اذى او اي ضعف بحرية الارادة . فهي ليست ملزمة او قاسرة (لوقا ، اصحاح ١٣،عدد ٣٤ — ومتى اصحاح ٢٧ ، عدد ٣٧) . « فالله » ، كما يصرح المجمع ، « يقف امام الباب ويقرع ، فاذا ما فتحوا له الباب دخل على صاحب الدار وتناول معه الطعام » .

سبق للوثير ولزونكلي واعلنا : ان بالايمان وحده يخلص الانسان ، يؤكد المجمع . ولكن ، حذار من إلحاق اي تعسّف بنصوص الكتاب المقدس. فنحن نخلص بالرجاء والمحبة . فاسمع ما يقوله القديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنتس (اصحاح ١٣ ، عدد ٢) : « اذا كانَ لي كل الايمان الذي ينقل الجبال ولم تكن لي المحبة ، فأنا لست شيئاً » . وقد غُفِر كثيراً لمريم المجدلية لانها احبت كثيراً ، فالاب والابن يأتيان لدى الانسان ويقيمان عنده ، اذا ما احب السيد المسيح (يوحنا ، اصحاح ١٥ ، عدد ٢٣) . من هنا نستنتج ضرورة الاعمال لان الحب والصلاح لا يظهران الا بالاعمال (انجيل يوحنا ، اصحاح ١٤ ، عدد ٢١ – وانجيل متى ، اصحاح ٧ ، عدد ٢١)، هي الاعمال التي تحسب على الانسان والله يجازي كلاً بحسب اعماله . سَنُدان على اعمال الخير التي عملناها ، وعلى الطريقة التي نكون اسرعنا معها لاطعام الجياع وإرواء العطاش ، وبذل الكساء لمن كان عرياناً (متى ، أصحاح ٢٥ ، عدد ٣١ – ٤٦) .

وعلى هذا المنوال ، اتخذ المجمع ، موقفاً مضاداً للوثير ولزونكلي، وفي حالات كثيرة ، ضد ابراسموس نفسه ، في ما علم حول اسرار الكنيسة ، وذبيحة القداس ، والمطهر ، وتكريم القديسين ، وعدم زواج الكهنة ، والصوم الذي تفرضه الكنيسة ، وغير ذلك من القضايا .

الصلاة الباطنية – القديس اغناطيوس ده لويولا

كان لابد من هذه التحديدات وابرازها للعيان وللاذهان . الا انه كان يُخشى ان تبقى حرفاً ميتاً لو اقتُصر عليها فقط . فلكي ينتقل المؤمن الى العمل ، وجب ان تتحرك نفسه بعواطف قوية ، كمحبة الله ، وكره الخطيئة. يجب ان نحب يسوع المسيح . « والمقياس الوحيد لمحبة الله هو ان نحبه فوق كل قياس» ، ولكي نحرك فينا هذا الحب اللامتناهي بعد الذي قاساه وعانى من جفاف الفلسفة الاسمية ، راح اخوة الحياة المشتركة ، منذ القرن الرابع عشر ، في البلاد الواطية ورهبان دير وندشايم ، يحاولون صرف حياتهم ، في اقتداء السيد المسيح ، في عشرة موصولة مع الله ، وذلك باعتمادهم النهج ذاته الذي سار عليه المتصوفة ، امثال رويزبروك وطولر ، وادخال تحسينات على وسائل التأمل والصلاة الداخلية .

سنة ١٤٩٤ ، نشر جان مُمبرت كتابه الموسوم :

« *Rosetum de exercitiorum spiritualum et sacrarum meditatione* – روضة التمارين والتأملات الروحية » الذي، اعيد طبعه مراراً . وهو عبارة عن مجموعة من التمارين المعمول بها لدى اخوة الحياة المشتركة وكهنة دير وندشايم القانونيين لترويض النفس على التأمل والتجريد لكل يوم من ايام الاسبوع . وراح غارسيا ده سيسنروس يستوحي الكثير مما جاء في هذه المجموعة عندما وضع كتابه : « تمارين الحياة الروحية » الذي نشره مطبوعاًعام ١٥٠٠ ، متخذاً منه اداة لاصلاح رهبان مونتسرّات. وعلى هذا الكتاب عول اغناطيوس ده لويولا عندما وضع كتابه : « الرياضة الروحية » ، الذي ابتدأ بكتابته عندما اقام في بلدة منريز من اعمال اسبانيا،

عام ١٥٢٢. وهكذا نرى ترابطاً متسلسلاً بين رمزي الاجيال الوسطى حتى القديس اغناطيوس ده لويولا ، وهو ترابط يشابه ، الى حد بعيد ، هذا التفاعل الذي قام بين الفنانين الفلورنتيين ، في عصر النهضة في القرن الخامس عشر وبين فنـــاني القرن السادس ، مشابهاً في الكثير من خطوطه ، للترابط الذي قام بين علماء الطبيعة الباريسيين في القرن الرابع عشر ، والعلمـــاء الايطاليين في مطلع القرن السادس عشر . فالانجازات التي تحققت في السنوات الثلاثين الاولى من هذا القرن أوفت على التمام ، بحيث اصبح في مقدورنا التأكيد بان شيئاً جديداً ، وان نظاماً جديداً ، قد أطل علينا . فكل المحاولات التي ظهرت قبل اغناطيوس ده لويولا تحاكي ، من بعيد ، كتابه « الرياضة الروحية » . ويرى مؤرخو الرهبنة اليسوعية ان هذا الكتاب انمـــا هو من عمل الروح القدس اذ ان اغناطيوس باشر بوضعه ، وهو في بلدة منريز ، قبل اي عمـل ادبي آخر صدر له . فجاءت هذه الرياضة وما فيها من تمارين روحية ، إشراقة للنبوغ الخلاق .

فبعد وصول ده لويولا الى باريس بقليل ، عام ١٥٢٨ ليتابع فيهـــا دراسته ، تولى تدريس الفنون ، عام ١٥٣٤ ثم ادخل على تمارينه الروحية ، اللمسات الاخيرة ، واخذ يوجه بنجـاح عظيم اساتذة العلوم ودكاترة جامعة باريس . ان الرياضة الروحية تؤلف ، بحد ذاتها ، كتابـــاً صغيراً جافاً ، بشكل قانون عسكري ، يحبب الى التائب المنقطع عن العـالم ، ترويض نفسه ترويضاً روحياً ويحمله على اعتماده مرشداً له طوال الشهر الذي ينقطع فيه للارتياض الروحي . فالتأملات موزعة فيه على أربعة اسابيع . تدور تمارين الاسبوع الاول على التأملات الاساسية : الله هو الذي خلقنا ، وخلقنا لنخدمه ونعبده – وخلق العالم لخدمتنا . ولذا وجب علينا ان نكرس حياتنا لله وان نستعين بالعالم لما يؤول لمجد الله الاعلى . ثم على المتروض ان يتأمـل في الخطيئة ، وفي جهنم ليثير في نفسه الندامة والاسف واستنكار الماضي من حياته ، والسخط على هذا العالم ، عالم الخطيئة . هذا هو الطريق « المطهّـر » او المنقّي . اما في الاسبوع الثاني ، فعلى التائب المنسحق القلب ان يسلك الطريق « الاشراقي » . عليه ان يتأمل بحياة السيد المسيح في تأنسه ، وتقديمه الى الهيكل ، وغير ذلك من وقائع حياة السيد المسيح . اما في اليوم الرابع ، فعليه ان يقوم بالتأمل الاساسي الثاني ، هذا التأمل الخاص باللوائين . في هذا التأمـــل يُطلب اليه ان يختار فيه بين زعيمين أو رئيسين : المسيح والشيطان . اما الاسبوع الثالث ، فهو اسبوع الطريق الاتحادي ، اي اتحاد النفس بالله ، طريق آلام السيد المسيح . واخيراً الاسبوع الرابع ، المخصص للتأمل ، في قيامة المسيح من القبر ، وفي محبة الله .

ففي كل يوم . على التائب ان يقوم بخمسة تأملات ، مدة الواحدة ساعة على الاقل ، مبتدئاً تأمله الاول عند منتصف الليل. ففي الاسبوع الاول ، يجري تأمل واحد ، حول الخطيئة الاولى والثانية والثالثة ، هذه الخطايا الموجهة ضد الله رأساً ، أي الوصايا الثلاث الاولى من وصـايا الله العشر ، ثم تأمل آخر حول الخطايا السبع الاخرى ، هذه الخطايا الخاصة الموجهة ضد الذات ، والتأمل الثالث هو تكرار للاول والثاني. اما التأمل الرابع فهو بمثابة اعادة الثالث. اما الخامس

هو التأمل الخاص بجهنم فيجب ان يتم قبل مغيب الشمس .

يختلف اسلوب التأمل عند اغناطيوس ده لويولا ، عنه مما لدى غيره من الاساليب الاخرى ويتميز بخمس مميزات . تقوم الاولى منها في تركيز الانتباه وحصره في نقطة واحدة معينة ، بعد ان ايقن ده لويولا انه يترتب على التائب ان يحصر انتباهه في موضوع واحد الى ان تتم له النتيجة المتوخاة . ولذا كان على التائب ان يقوم برياضته الروحية لمدة شهر كامل ينقطع معه عن كل مشاغله ويعرض عن كل مصالحه بحيث يحصر انتباهه بهذه القضية : « قضية علاقاتي مع الله » . ثم يترتب عليه ان يهتم بنقطة واحدة في كل تأمل ، ولا يترك موضوع تأمله هذا الا بعد ان يكون انتج واثمر ما يرجى منه ، اي عندما ما يكون ايقظ فيه العاطفة المطلوبة والشعور المرتجى بحيث تصبح هذه العاطفة لا تُقاوم ولا تُغلب . فلكي يصل الى الله عليه اولاً بالتوبة ، وان يشعر في صميم نفسه بالاسف والحزن العميقين ، ويشعر بتأنيب ضميره لما بدر منه في حياته السالفة من المعاصي . ولذا كان عليه ان يتأمل لمدة اسبوع ، والنوافذ مغلقة ، في عزلة تامة ، تكتنفه الظلمة ، بحيث يدور تأمله على الخطيئة وجهنم . ونلحظ هنا اختلافاً بيناً بينه وبين سيسنروس الذي يوصي بان يكون لكل يوم موضوع خاص يختلف عن الآخر ، بحيث يكون التأمل لمدة شهر ، في الصباح ، الموت والدينونة الاخيرة ، وغير ذلك ، وفي المساء ، صنيع الله نحونا ، بحيث تغمرنا ، في الصباح ، مشاعر الحزن والاسى ، بينما نشعر في المساء بالبهجة والفرح يملأ قلوبنا ، فتتقاسم نفوسنا في النهار عواطف تختلف تماماً .

اما الميزة الثانية ، لتأملات اغناطيوس ده لويولا فتقوم في البحث عن النور الفكري او الذهني ، اي ان نعي وعياً تاماً كل قضية من قضايا الدين والايمان بحيث نجري على كل قضية من هذه القضايا ، تباعاً : الذاكرة والفهم والارادة . فاذا ما اخذنا نتأمل خطيئة الملائكة ، مثلاً ، علينا ان نستعرض في خواطرنا ، كيف ان الله تعالى خلقهم على صورته ومثاله ، في حالتي البرارة والسعادة ، وجعلهم خداماً له يكونون على مقربة منه ، وكيف فضّلوا ، على خدمة الله وطاعته ، التمرد والعصيان على اوامره ، ثم كيف زج بهم من عليين في اسافل الجحيم . فاذا ما فكرنا ملياً بهذه الامور ادركنا على نور العقل ، بصورة جلية واضحة ، محور هذه المخلوقات التي خصها الله بهذه الامتيازات الخارقة ، والمصير الذي آل امرهم اليه ، وهو مصير لا حول فيه ولا حيلة ، اذ انه حكم عليهم بالهلاك الابدي ، لمجرد اقترافهم خطيئة واحدة ؛ واخيراً الاخطار المحيقة بنا من كل جانب وتهددنا باستمرار ، وتحنن الله علينا ورحمته لنا ، اذ بالرغم مما اقترفنا في حقه من الوف الذنوب والخطايا ، نراه يهيء لنا دوماً الوسائل التي تساعدنا على الخلاص . واذ ذاك فقط ، وبعد ان تكون النفس شعرت بهول الخطيئة وبشاعتها ، وثارت فينا عاطفة الشكر لله ومحبته نعزم ، بقصد ثابت ، الانصياع لاوامره والامتثال لمشيئته تعالى . ولكي نصل الى ما نرجو من وضوع وجلاء ، يترتب علينا ان ننهي كل تأمل بربع ساعة ، نفحص فيها ضميرنا حول الطريقة التي اتبعناها في تأملنا هذا ، والخطايا او الزلات التي قد نكون

اقترفناها خلال التأمل . وهذا الجهد يبذله الضمير ، كان من شأنه ان يفوز برضى الانجيليين من اتباع ايراسموس .

والميزة الثالثة التي تميز كتاب « الرياضة الروحية » هي ان مؤلفه القديس اغناطيوس ده لويولا ، يستنجد بكل ما في الانسان من شعور كريم واحساس نبيل . هو يرغب في تحريك اعماق النفس البشرية ليصل الى نزعات الكائن الصميمة . كل الحواس يجب ان تعمل للوصول بنا الى هذه النتيجة : فكل تأمل يبتدىء بقدمة او استهلال يستعرض التائب خلالها ، في ذهنه : المكان ، والاشخاص في أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ويجب ان نخصص تأملا واحداً كل يوم على الاقل ، لتوجيه الحواس : النظر والسمع ، واللمس والحس وفقاً لموضوع التأمل ، الى يسوع والعذراء مريم ، والرسل . وعندما يتأمل التائب في جهنم ، عليه ان يرى النفوس تتضور ألماً وتتلظى لهيباً في النار المتأججة ، وان يشم رائحة الكبريت المتصاعدة ورائحة اللحم الذي يحترق ، ويشعر في نفسه بألم الحريق ، ويلمس قضم دودة الضمير بحيث يستحيل الخوف هلعاً يفضّل المتروض معه كل شيء على النار .

والميزة الرابعة لهذه التأملات هي الاهتمام بارادة الانسان ولا سيما ما يعود منهـا إلى حرية الارادة . فالتمهيد الثاني في التأمل يرمي الى تساؤل المتروض : « ما الذي أريد الحصول عليه من الله ، وبعبارة اخرى ، ما هو الشيء الذي يريده هو *Id quo voto* . كل تأمل يجب ان يفضي الى مقاصد معينة يتحتم تنفيذها في اليوم ذاته . وتنتهي الرياضة باختيار نهج معين أو مسلك معين للحياة . فما من قصد من هذه المقاصد المنبثقة عن هـذه العواطف والمشاعر التي اثيرت خلال الرياضة يجوز ان يذهب جزافاً ، بل يجب ان يتحول كل شيء الى قرارات واضحة تنتظم حياة المتروض اليومية والتي يترتب عليه العمل بموجبها .

والصفة الخامسة لهذه التأملات هي التشديد على الاخذ بكل العـادات ومراسم الطقوس والاعراف التي تقوم بها الكنيسة من : تكريم القديسين ، والحياة الروحية ، والتبرك بزيارة الأماكن المقدسة والحج اليها ، وذخائر القديسين ، والنذور ، وغير ذلك .

فكيف يحافظ المؤمنون على الاخذ بالرياضات الروحية بعد انقضاء الثلاثين يوماً ؟ قبل كل شيء بالصلاة المستمرة طيلة النهار . فالمؤمن يرى الله الاب ويسوع المسيح متمثلين في كل المخلوقات وفي هذه الكائنات المحيطة به ، والأشياء الواقعة على مقربة منه ، بحيث ان كل ما تقع عليه العين يذكره بالله ، أو انه يشاهد الله فيه .

ثم بالصلاة الصباحية ، اليومية ، المنظمة . فقد كان القديس اغناطيوس يصرف ساعتين كل يوم في الصلاة ، بلا انقطاع . كما كان تلاميذه يصرفون ساعة في الصلاة على الاقل .

ثم عن طريق فحص الضمير فحصاً عاماً وفحصاً خاصاً ؛ ثلاثة فحوصات خاصة للضمير ، كل

يوم ، حول الخطيئة الرئيسية التي يرغب المؤمن في استئصال شأفتها من نفسه ، احدهما صباحاً فيجدد المؤمن مقاصده ونياته الحسنة ويستعرض الظروف التي قد يتعرض فيها السقوط في الخطيئة ،بحيث يتمكن من تفاديها ،وآخر عند الظهر محاسباً نفسه عما فعلت في الصباح ،والآخر في المساء يستعرض معه حوادث بعد الظهر ، مع الحرص على ان يدون في مفكرته الخطايا التي اقترفها . وعندما ينصرف للنوم مساء ، يقوم بفحص عام للضمير يستعرض فيه اعمال النهار وتصرفاته بالنسبة لوصايا الله والخطايا الاخرى .

واخيراً يمكن للانسان ان يصلي طوال النهار . وهنا يقترح اغناطيوس ان يتلو المرء الصلاة الربانية « ابانا الذي » بتمهل فينظر ملياً عند كل كلمة من كلماتها ليتشبع جيداً من معناها ومدلولها، او انه يصلي كما يصلي المسلم: كلمة بعد كل تنفس بحيث يعي تماماً مدلول الصلاة،فينفض من كلمات « ابانا » كل ما لها من معنى .وهكذا يصرف اسابيع في التأمل بمعاني الصلاة الربانية ، او « السلام المريمي » او قانون القداس ، والمزامير واستخلاص ما فيها من عذوبة المعنى .

وهذه الطريقة المثلى في استجلاء الامور، وتحديد المعاني واشاعة الافكار النافعة ،والخواطر المفيدة في الضمير وتحريك العواطف الكريمة في القلب ، وتوجيه كل نشاط فينا للعمل المثمر ، جاءت باطيب واشهى النتائج ، اذ انها ساعدت كثيراً على اعادة عدد كبير من المسيحيين الى حضن الكثلكة .

وهكذا تبخر هباء هذا الامل المعسول الذي راود ، حوالي عام ١٥٣٠ ،خيال الانسانية الانجيلية . والذي بدا تحققه وشيك الوقوع لاصحاب هذا الرأي ، بين ١٥١٦ – ١٥٢١ .كان لا بد من الاختيار بين الانسانية الانجلية والاصلاح البروتستانتي والكثلكة المتجددة . فقد عاد عدد كبير من الانسانيين الانجيليين الى الكثلكة او انحازوا الى الدعوة التي نهض بها زونكلي مفضلين هذا على الدعوه التي قام بها لوثير . وانتهى كل شيء مع لوفيفر ديتابل ومع ابراسموس ، حوالي عام ١٥٣٦ ، بعد ما اقترب الاول كثيراً من تعاليم زونكلي بينما بقي ابراسموس اميناً لنظرياته وارائه ، وقد تخلى عنه مريدوه والمعجبون به واصبح لا شأن له . وهكذا فحوالي العقد الرابع من القرن السادس عشر اي من سنة ١٩٣٠ – ١٥٤٠ ،كانت طلعت علينا اهم النظم والمذاهب الدينية الجديدة التي كان من شأنها ان تتقاسم العالم الحديث في الغرب . هنا في امور الدين ،وهنالك في عالم العلم وفي عالم الفنون،هذه المجالات التي برز فيها العقل البشري ولحت لنا صوراً جديدة للانسان والكون – فقد طلعت علينا السنوات الثلاثون الاولى من القرن السادس عشر بعالم جديد .

كلفين

على مثل هذه الصورة التي رسمنا كانت الاوضاع قد برزت واتضحت وتبلورت. غير ان التيار الاصلاحي ، هذه الحركة التي اصبح في مقدورنا الان ، منذ عام ١٥٢٩ بان نسميها الحركة البروتستانتية لم تتوقف عن التطور والتحول . ففي سنة ١٥٣٣،

اصدر الملك هنري الثامن ، ملك انكلترا : « قانون السلطة العليا » فوضع بـذلك الاسس التي قامت عليها كنيسة قومية وطنية ، في انكلترا ، هي الكنيسة الانكليكانية . فالملك هـو الرئيس الأعلى الاوحد لهذه الكنيسة مع كل ما يستتبع ذلك من سلطة روحية . وقد بـدا لهؤلاء القوم الذين رأوا انهم يستطيعون الاستمرار في الكثلكة ان لوثير وزونكـلي لم يعودا بكافيين : كذلك بدا لبعضهم ، ان لوثير انتقص ، بشكل من الاشكال ، من سلطـة الله المطلقة ، عندما راح يُعلّم بانه يبدو وكأن علم الله الكلي حتم عليه إعداد مختاريه منذ الازل، وهكذا أُحدث فيه سبحانه وتعالى ، حريته وسيادته . كذلك سلّم لوثير ان الطبيعة الالهية ، في السيد المسيح ، أُضفت على الطبيعة البشرية فيه بما له من كلية الحضور والوجود ، محافظة منه على حضوره في القربان . فاذا ما تم شيء من هذا التفاعل او التواصل بين هاتين الطبيعتين ، أفليس بإمكان الطبيعة البشرية ان تؤثر ، بشكل ما، على الطبيعة الالهية ، فتنتقص بالتالي منها؟ وهكذا لامس لوثير الهرطقة المونوفيزية ، هذه الهرطقة التي قالت بوجود طبيعة واحدة في السيد المسيح ، وهو قول لا يمكن لاحد ان يطيقه او يقبل به .

أما زونكلي ، فقد عرف ان يتفادى المشكلة بنكرانه الحضور الحقيقي في القربان المقدس ، فالسر عنده ، هو مجرد رمز لا غير أو احياء ذكرى « هو صورة مجازية جوفاء ، خواء» .ولكن الا يقضي هذا القول والتسليم به الى ديانة باردة جافة ؟ اذ ان مجرد تناول خبز التقدمة وشرب خمر الكأس فيه تعبير عن ايمان المرء وعقيدته ، ولكن دون ان يتم بينه وبين الله اي اتصال أو تماس . وَالله يبقى نائياً ، بعيداً ، ضائعاً في سمائه . هذا ، لعمري ، كلام مؤلم ، موجع ، يحز في النفس ، ويصعب سماعه على القلب والاذن . وبالاضافة الى ذلك ، راح زونكلي يُنزل الخطيئة الاصلية منزلة مرض موروث وبذلك هوّن كثيراً من تَبِعة الخاطيء ومسؤولياته ، هـذه المسؤوليات التي ارادها الغُيُر المتشددون ، كاملة غير منقوصة إظهاراً منه لفعل النعمة. واخيراً راح زونكلي يعزو ما قد يكون لدى الوثنيين من الفضائل ، الى موهبة خاصـة من الله . ففضائلهم ، في نظره ، فضائل حقيقية ، وهو قول يُشتم منه مقالة الانسانيين الانجيليين .

ومن جهة اخرى ، شعر بعض البروتستانت ، بشيء من القلق من جراء المحاولات الايرينية *Irénisme* التي بذلت بكثرة بين ١٥٣٣ — ١٥٣٥ ،للتقريب بينالكاثوليك واللوثريينبالرغم من كل الفوارق التي تباعد بينهم ، بشأن القداس ، هذه المحاولات التي بدت للمشددين المغالين منهم ، لا تحتمل ولا تطاق . وكان البروتستانت يتبرمون جـداً ويستشيطون غيظاً ضد من ينزلهم منزلة اللامعمدانيين الذين نظروا اليهم نظرهم الى فوضويين اجتماعيين . ولكي يقطعوا الطريق على كل التباس ويحددوا اقصى ما يمكن ان تصل اليه تنازلاتهم بهذا الشأن، وضعوا بشكل نهائي ، وثيقتين بروتستانتيتين هما : « الاهاجي *Les Placards* » التي ظهرت عام ١٥٣٤، و « المؤسسة المسيحية » التي هي من وضع كلفين نفسه ١٥٣٦ .

اما « الاهاجي » التي أعدها فريق من الفرنسيين البروتستانت لجأوا الى مدينة نيوشاتل ،

في سويسرا ، فهي تلتزى بتعاليم زونكلي ونظرياته . فقد رموا دوماً ، الى مـا يثير الشكوك ويزيد من القطيعة ، وذلك بمهاجمتهم قطب العبادة لدى الكاثوليك : القداس الالهي . « بـذل يسوع المسيح جسده وروحه وحياته ودمه لاجل تقديسنا في ذبيحة كاملة ، نهائية ، لا يمكن ان تعاد او تتمثل بذبيحة حية اخرى»... فالزعم بتجديد ذبيحة السيد المسيح كل يوم ، كما يدعي الكاثوليك ، هو التجديف بعينه على السيد المسيح، وهو زعم لا يختلف بشيء عن القول بوجوب اضافة شيء ما على ذبيحته. والزعم الكاثوليكي بالقول ان يسوع المسيح موجود فعلا ،حقيقة، ذاتياً وشخصياً ، بجسده ودمه ، تحت اعراض الخبز والخمر ، هو كفر فاضح وخديعـة علنية ، ومخالفة نكراء للكتاب المقدس ، لأن السيد المسيح بعد قيامته من بين الاموات ، صعـد الى السماء وجلس عن يمين الله الآب . و « يستنتج من هذا القول انه اذا كان المسيح موجوداً بجسده في السماء ، فلا يمكن له ان يكون ، في الوقت ذاتـه ، على الارض ؛ واذا كان موجوداً على الارض ، فلا يكون موجوداً في السماء ، اذ انه من الثابت ان جسداً حقيقياً لا يحتل الا حيزاً واحداً ، ولمرة واحدة » . وعلى هذا قس كلامهم حول الاستحالة الجوهرية ، وحول رجـال الاكليروس ، وغير ذلك من القضايا . وهذه « الاهاجي » تمثل نصاً اساسياً فظاً ، املته روح القطيعة البغيض ، مما اثار بالفعل شكوكاً هائلة . ولعل اروع وانكى من هذا كله ، هو هذه الروح العقلانية التي جاشت فيها. والثابت ان كل البروتستانت ، في هذه الحقبة كانوا يتنكرون لهذه العقلانية ،لأن العقل ، بعد ان افسدته الخطيئة الاصلية ، اصبح عاجزاً عن الوصول الى اية حقيقة . ومما يلفت النظر بالاكثر ويحدث مثل هذا الدهش، هو ان نلاحظ كيف ان الذين قاموا بوضع هذا النصوص ، رفضوا القول بالحضور الحقيقي ، لمناقضته ، في رأيهم ، مبدأ الذاتية ، كما يناقض الظواهر الحسية الملموسة القابلة للقياس ، اذ يخلط خلط عشواء ، بين ما هو للروح وبين ما هو للمادة . نص كل ما فيه يتنزى بالروح الديكارتية ، روح هذا العصر .

اما كلفين الذي كان في صغره ، سادنـاً لاحدى الكنائس وله من العمر اذ ذاك ١٢ سنة ، والذي سيم كاهناً وهو ابن ١٨ سنة ، فقد اثار من جديد ، ومن الاساس ، مطالب الاصـلاح البروتستانتي، مزيداً عليها ما رغب في اضافته من نظريات جديدة ، بعـد ان عرف كيف يتجافى على الاخص ، المساوىء التي وقع فيها كل من لوثير وزونكلي . كان همه الاول والاخير الحفاظ على سلطان الله وسيادته . وراح بوصفه من اتبـاع الفلسفة الاسمية ، يؤكد ان الله تتعذر معرفته ، كما انه يستحيل على العقل البشري تفهمه وادراكه،حتى ولو بالمجاز . فالصورة التي نقيمها له وننحتها عنه في ضمائرنا ، حماقة هي، لا اكثر ولا اقل، فالكتاب المقدس وحده ، يوحي لنا ، على قدر ما نستطيع ان نفهم ونستوعب ، بما يتوجب علينا معرفته ، ومـا فيه الكفاية ليثير فينا الخوف والمحبة . وبواسطة الكتاب المقدس وحـده ، نتعرف الى الله ، عن طريق يسوع المسيح وبيسوع المسيح ، مرآة الله ، ولكن أنى لنا ان نعرف الله نفسه معرفة حقيقية . ولكي نفهم الكتاب المقدس حق الفهم يجب الاستعانة بالروح القدس . وعندما نشعر

بذواتنا بشهادة الروح القدس الحي فينا ، يرسل هذا الروح الحياة في الكتاب المقدس ويجعله مفهوماً ، سهل التناول ، ويشهد فينا عالياً بصحتها ، دون ان يحذف من الكتاب المقدس أو يزيد عليه حرفاً واحداً . وهكذا نرى كلفين ينكر التقليد الكنسي . من الأساس .

لا بد من ألـُوهيـّة الابن اساساً للايمان به . ولذا كان لا بدّ من التسليم بالقول ان الخليقة هي من عمل الثالوث الأقدس كله ، اي هي على السواء من فعل الابن ، كلمة الله الذي يطبق عليه كل ما جاء عن الله في العهد القديم . فالثالوث الأقدس يخلق العالم في كل ثانية ويتدخل بخلقه ، في كل لحظة . هذه هي العناية الربانية التي هي علة او سبب اختيار الله لمن اصطفاهم ، منـذ الازل . « فالله هو الذي يدبر المؤمنين ، يعيش فيهم ويملك عليهم بواسطة الروح القدس » . فكل ما يأتيه المؤمنون يأتيه الله هو نفسه فيهم . فالله هو الذي يتصرف في الانسان ، وهو الذي يفكر في الانسان ، وهو الذي يتكلم بلسان الانسان، هذا الانسان الذي لا يفعل شيئاً،بحصر المعنى ، من نفسه . ففي قضائه الحر الذي اتخذته ارادة حرة موجودة منـذ الأزل ، يتصرف الله في مختاريه ، كيفما يشاء ليؤمّن لهم الخلاص الابدي . فبقضاء حر أصدره منذ الأزل ، أعدّ الله مَصير كل انسان . وهكذا فسلطانه كامل ، مطلق هو .

فآدم الذي يمثل البشرية جمعاء في شخصه ، قد لطخ بخطيئته كل البشر . فالخطيئة الأصلية ، عطلت الى الأبد ، كل ما في الانسان من مواهب فائقة الطبيعة بالايمان ، ومحبة الله والقريب ، والتـَوْق إلى القداسة . والمواهب الطبيعية نفسها اصيبت هي الاخرى ، في الصميم ، بحيث لا يستطيع الانسان الا ان يُريد الشر . فاذا ما اراد الشر ورغب فيه ، فهو يتحمل كل مسؤولية ارادته ، ولذا استوجب القصاص المترتب على معصيته . ومع ذلك ، فتحنناً من الله وعطفاً منه عليه ، أعطاه الله الناموس ، هذا المربي ، المرشد الذي يقود الانسان الى الله . وعطفاً من الله وبمجرد نعمته الالهية ، تذلل الله وتجسّد وصار انساناً وأخذ جسد آدم . وبوصفه انساناً تاماً ، كفـّر عن خطيئة آدم كما كفـّر عن خطايا جميع البشر . وبوصفه الاله الحقيقي ، فقد قدّم مرضاة وكفـّارة خليقة بالله العلي ، كل هذا والله يبقى نقياً ، منزهاً عن كل عيب ، في عظمته الالهية . والطبيعتان تلبثان متميزتين الواحدة عن الاخرى ، ليس في الطبيعة البشرية ما يلطخ او ما يحط من كرامة الله . والحال فاذا لم تستطع الطبيعة البشرية ان تتلبس صفة الوجود الكلي التي للطبيعة الالهية ، فجسد السيد المسيح لا يمكن ، والحالة هذه ، ان يوجد في الافخارستيا ، وبالتالي ليس من حضور ذاتي في القربان المقدس .

باستحقاقات السيد المسيح، تأمّن الخلاص لبني البشر واصبح هذا الخلاص في متناول كل واحد منا بواسطة « المناولة الروحية » رمز الاتحاد مع المسيح بالايمان ، بواسطة الروح القدس ، الذي ارسله المسيح وأعطاه مجاناً ، للمختارين . « بالايمان جرى تطعيمنا بجسد المسيح ».وهكذا تم لنا الايمان الحقيقي ، والرجاء والثقة ، بارادة الله الخيّرة ، تجاه كل واحد منا . فالمسيح يأتي ويسكن في قلب من اختارهم الله ، وفيه يعمل الروح القدس . والمسيح يتجدد في قلب كل من

٧ ـ القرآن ١٦ و ١٧

اختارهم ، كما انه يُجدِّد في قلب كل مختاريه ، صورة الله التي افسدتها الخطيئة الاصلية وشوهتها؛ فيحل فينا الانسان الجديد ويأخذ في محاربة الانسان القديم القائم في قلب كل واحد منا، انسان آدم الذي افسدته الخطيئة ، ويخرجه خارجاً ، وتحل محله ، هــذه الحرب التي ستطول فينا وتستمر في داخلنا ما امتد فينا أمد الحياة . هذا التجدد الذي لن يتم باكمله الا في السماء بعد الموت . اما علامة او دليل الاصطفاء هذه ، فهي الحرب الداخلية ، هذه القوة التي تحملنـا على احترام وصايا الله ، والامتثال لها بالرغم من جميع الاوصاب والآلام التي سنتغلب عليهـا في نهاية الامر ، بالرغم من تكرار عثراتنا وسقطاتنا في الخطيئة . هذه هي العلامة التي تشير الى عمل الروح القدس في كل واحد من مختاريه .

فالاعمال التي يفعلها المختار تأتي مطابقة لناموس الله ، ولكن هذا الناموس لا يولي المختار اي استحقاق قط ، لان هذه الاعمال لسنا نحن الذين نعملها ونأتيها ، انما الله هـو الذي يعملها فينا .

وفي الوقت ذاته يغفر الله للمختار خطاياه ويُسربله بسربال بر المسيح الذي يؤلف معـه شخصاً واحداً . فالمختار ليس باراً ولكن الله يراه باراً ، لان المسيح دخل الى قلبـه بواسطة الايمان به .

وقد اعطى الله ، في تحننه للبشر ، الكنيسة . فالكنيسة الحقيقية لا تقع تحت البصر . فهي شراكة كل الذين يعمل المسيح في وسطهم والذي يُجري فيهم روح القدس نعمته ، هي شراكة المعدّين منذ الازل ، و لاننا لا نستطيع النفاذ الى دخائل الناس للتعرف الى حقيقة ضمائرهم،ولن نعرف ابداً ، ونحن على هذه الارض،من هم الذين يعمل فيهم الروح القدس عمله الخلاصي .

اما الكنيسة المنظورة فتتمثل في اجتماع المسيحيين في مكان معين ، هؤلاء الذين يؤلفـون رغبة واحدة تحت ادارة القس او الواعظ . وتضم الكنيسة المنظورة ، في الحين ذاته ، المختارين والمعدّين منذ الازل ، مجتمعين ، بعضاً الى بعض في التقاء الحنطة والزؤان . فالكنيسة تقوم ، في كل مكان ، بكرازة كلام الله ، وتصبح اليه في كل مكان تُعْطى فيه الاسرار وتوزّعُ فيه وفقاً لما رسمه يسوع المسيح .

والكنيسة يفرض وجودها وقيامها نظاماًمعيناً ،فتحول بذلك دون عمل الهراطقة والمنفصلين عنها وتأثيرهم على المؤمنين ، وتمنع انتشار الاخلاق الرديئة . فهي تقـوم باربع وظائف أو خدمات رئيسية ، منها اعمال المحبة . اما الوعظ وخدمة الاسرار ، فيناط امرها بالقسيس ؛ اما التعليم ، فامره متروك لمعلمي الايمان ، والمحافظة على النظام يقوم به الشيوخ ، والقيام باعمال المحبة يؤمنه الشمامسة . كل هؤلاء يجري تقديمهم بواسطة القسس والقضاة الذين يقومون بالوظائف الموكولة اليهم ، ويتم انتخابهم من قبل جماعة المؤمنين . والحقيقة ، فتعيين الجميع انما يجري من قِبَل الروح القدس وفقاً للمواهب التي أعطيت لهم .

على الكنيسة ان تتقيّد ، حرفياً ، بالكتاب المقدس الذي هو وحده معصوم عـن الغلط . يجب الفصل تماماً بين الكنيسة والدولة ، يكفي الكنيسة عملاً ، تفسير كلام الله وشرحه للقضاة، وعلى هؤلاء ان يحرصوا على تطبيقه وفقاً للشرائع والقوانين المدنية . اما القاضي فواجبه يقوم بالدفاع عن الكنيسة وتأمين حرية الكرازة بالانجيل .

فالله هو المعطي الكنيسة الاسرار . أما السر فهو « علامة أو طابع خاص يَسِم الله بـه نفوسنا، اشارةً منه للنعم والمواهب التي جادت بها علينا مراحمه ». وخلافاً لتعاليم زونكلي ، حافظ كلفين على الاسرار بعد ان رأى فيها ليس مجرد ذكرى او تذكار ، بل شهادة حق على نعمة الله . وعلى عكس الكاثوليك ، هو يرفض التسليم بالقول ان السر يعمل مـن ذاته ، اي بدون تدخل مباشر من قِبَل الله ، كما ان السر يضيف شيئاً جديداً على عمل الله . فالله له كل سلطان وسيادة . فهو يستخدم الاسرار كأية اداة اخرى ؛ دون ان يوليها شيئاً من قدرته .

اما الافخارستيا أو العشاء السري ، فكلفين يرفض التسليم هنا أيضاً ، بالحضور الحقيقي في القربان المقدس ، كما يرفض التسليم بالطبع ، باستحالة الجوهر ... وخلافاً لزونكلي ، فهـو يقر ويعترف ان جسد المسيح ودمه يوزعـان تحت اعراض الخبز والخمر ، وكل الاشياء تجري عندما نتناول الخبز والخمر كأن المسيح حاضر فعلاً انما بشكل سري ، لا يُرى ، وكأن المسيح يضم جسده ودمه الى جسدنا ودمنا ، ويسكب علينا روحه ونعمـه السماوية . وهكذا نرى كلفين يقرّب المؤمن من الله يسوع الذي يفيض محبة للانسان القريب منه ، يسمع ويُشمّر به ، ويذاق ويوزع على المؤمنين ، مع بقائه متميزاً عنه ، متميزاً تماماً متسامياً فوقه بكثير ، حسبما توجبه طبيعته الالهية . ومما يشهد على هذا النجاح بصيبه كلفين هو ان القرار الذي اصـدره برلمان باريس ، بتاريخ ١ تموز ١٥٤٢ ، بصدد الكتب والمنشورات التي تعمل عـلى بث ونشر المذاهب والتعاليم الدينية الجديدة ، ان الكتاب الوحيد بين هذه المطبوعات الذي جيء عـلى ذكر اسمه وعنوانه هو كتاب : « المؤسسة المسيحية » الذي وضعه جان كلفين .

وفي سنة ١٥٣٩ ،اعيد طبع كتاب « المؤسسة المسيحية »باللاتينية .اما اول طبعة فرنسية له، فقد ظهرت عام ١٥٤١ ومنذ هذا التاريخ توالت طبعات الكتاب ، مزيدة،ومنقحة، طبعة بعد طبعة ،بالفرنسية ، وباللاتينية . وقد جعل كلفين من مدينة جنيف ، منذ عام ١٥٤١ ، « روما الـكلفينية » وانتشرت كتب كلفين بين القرى ، متنقلة مـن قرية الى اخرى بواسطة الباعة المتجولين . وقدعُرِفَ المرسلون الذين ارسلهم للتبشير بدعوته ، بالنشاط الجم ، اذ استطاعوا ان يتسللوا الى كل مكان،حاملين معهم علماً وثقافة ونشاطاً،واستعداداً ليجودوا بدمائهم شهداء ايمانهم . وكانت رسائله تحمل التشجيع والنصح لكل الكنائس الجديدة التي تنشأ في البـلاد . وهكذا دخلت الكلفينية اسكتلاندا وبوهيميا وهنغاريا وبولونيا والبلاد الواطية وفرنسا .

ديوان التفتيش والرهبنة اليسوعية

في هذا الوقت بالذات توفر للبابا كتيبة دينيـــة جديدة ، هي الرهبنة اليسوعية . نشأت هذه الرهبنة في ١٥ آب ١٥٣٤ ، على مقربة من باريس في هضبة مونمارتر ، في كنيسة القديس دنيس ، شفيع ملوك فرنسا ، على يد اغناطيوس ده لويولا ورفاقه الستة . وفي خلال صوم ١٥٣٩ ، وضع مؤسس هذه الرهبنة نظامها النهائي : رئيس منتخب مدى الحياة ، يتمتع بسلطات لا حد لها ، يقطع اعضاؤها من الرهبان نذراً خاصاً هو الطاعة التامة لاوامر البابا،وينتظم هذه الرهبنة نظام عسكري مسلسل السلطة ، وتنعم بروح انضباطية مجربة . فاليسوعي يطيع الاوامر الصادرة اليه ولو في الامتثال لها هلاكه وموته ، كما يمتاز اعضاؤها بثقافة شاملة ، مُعمّقة . وفي ٢٧ ايلول ١٥٤٠ اقر البابا بولس الثالث بالبراءة البابوية التي اصدرها بعنوان« *Regimini militantis* » - الفرقة المحاربة -نظام هذه الرهبنة وقانونها الاساسي . وفي سنة ١٥٤١ ، تم انتخاب اغناطيوس ده لويولا رئيساً عاماً للرهبنة اليسوعية ، واقسم يمين الولاء بين يدي البابا . ومنذ ذلك الحين، باشر اليسوعيون حربهم المتصلة وجهادهم المرير ضد جماعة الاصلاح ، في كل من ايطاليا واسبانيا، وفرنسا والمانيا . وكان البابا ، في الوقت ذاته ، بعث من جديد ، الى الوجود ، ديوان التفتيش ، باسم جديد ، هو « الديوان المقدس » وذلك بموجب البراءة التي أصدرها بتاريخ ٢١ تموز ١٥٤٢ ، بعنوان *Licet ab initio* ، ارتبطت ادارته رأساً بالأب الاقدس . وبعد ان أعدّ عدّته على هذا الشكل وأوتر قوسه على هذا النحو،امر البابا ، بتاريخ ٢٢ أيار ١٥٤٢ ، بالتئام المجمع المسكوني الذي اجتمع في مدينة تريدانتي ، وانتهت اعماله عام ١٥٦٣ ، بذات الروح التي تجلت ، عام ١٥٢٨، في مجمع سانس .

هراطقـــة وملحدون

خاض الكاثوليك والبروتستانت ضد بعضهم البعض حروباً شديدة رأوا انفسهم معها مضطرين ليخوضوا بحماس لا يقل شدةً ، حروباً ضدجملة من الهرطقات والحركات المضادة للمسيحية او للدين بصورة عامة ، استشاطت في هذه الفترة بالذات ،الواقعة بين ١٥٣٦ و ١٥٤٥ . وقد جاء ظهور هذه الحركات الدينية بمثابـــة ردة فعل طبيعية ضـــد رسوخ موقف الكاثوليك والبروتستانت . ونحب ان نرى في قيام هذه الحركات ، بالاحرى ، نتيجة طبيعية ، لحرية الضمـــير والفكر ولهذه العقلانية الكامنة ، في حركة الجماعات التي سارت مع تيار الاصلاح والتي ساعد على نشرهـــا والترويج لها ، هذه المجادلات الدينية ، التي شجرت اذ ذاك وتصادمت فيا بينها . فبعد ان رأى هؤلاء الناس كيف عبثوا بالتقاليد وهزئوا من قضايا الايمان المتوارَثَة جيلاً بعد جيـــل ،وَسخِرُوا من الطقوس الدينية ومراسم العبادة ، راحوا يقيسون كل شيء ويحكمون على كل شيء بمقاييسهم الخاصـــة ومداركهم ، متوهمين ان لهم مـــن الفهم والعقل ما يمكنهم من الحكم على كل شيء . وقد رأينا تطل علينا في رأد الضحى حركة هــؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في الناس ، اذ دعاهم « الدّعار » او خالعي العـذار . فمنذ سنة ١٥٤٢ ، دخلت اللفات اللاتينية ،

واليونانية والفرنسية ، مصطلحات جديـــدة امثال : « ملحد » *Athée* و « ناكر المسيح » *Achriste* ، كما ان خريجي جامعة بادوا القدامى (ومعظمهم حكام ومن رجال الدين) الـّفوا فيما بينهم جمعية ، اشبه ما تكون بجمعية البنائين الاحرار (الماسون) لا قانون اساسي لها، تعمل على نشر الـرُّشْدية (فلسفة ابن رشد) التي جرى توطين تدريسها ، في جامعة باريس ، بين الحاضرين الملكيين الذين تألـّف منهم، فيما بعدالمعهد المسمى ،كوليج ده فرانس ، امثال الايطالي فيكومير كانو،الذي نشر بحثه الاول عام ١٥٤٣ . وقد أطل من جديد فجور ذهني إنبَجَس من تعاليم فرنسوا سكـُوت أريجين أحد مفكري القرن التاسع للميلاد ،او من الالماني أ- كارْت في القرن الثالث عشر . كان البعض من هذا الفريق حلوليين ، على المكشوف ، فعلموا ان الله الكائن الاوحد ، لا شخصيةله ، ولا وجودية له في ذاته بلهو مختلط بالعالم ممتزج به ، وانروح الانسان ليست سوى فيض خالد من الله لا تنفصم عنه . فالحياة الدينية عنـــدهم ليست سوى عملية تأمل وتجريد ، القصد منها التعرف الى ذات النفس الفردية ، مـع الكل الاعظم . اذ ذاك تلغى الشخصانية البشرية تماماً ، اذ يذوب الانسان وتنصهر ذاته في الله . اما الباقون من هؤلاء الدعّار ، فقد سلموا بوجود الثالوث الاقدس ، انما كانوا يقولون بوجود مسيحين : مسيح حسب الجسد ، ممثل الانسان على الارض وانموذجه الاكمل ، هذا المسيح التاريخـــي الذي عاش مع الرسل وعاشرهم ، والمسيح الحقيقي ، مخلـّص الانسان الذي لم يكن غير الروح القدس نفسه اما الروح القدس فكان يحل في شخص المتأمل ، بروح الايمان ويؤلهه . وقد اعترف الحلوليون ومن لف لفهم ، للانسان ، بالذات الالهية ، وجعلوه بمعزل عن كل اثم ، وبمنأى عن كل خطيئة. فهو لا يزل ولا يغلط . فكل ما يشعر به في ذاته من غرائز وشهوات ورغائب ، هو مظهر من مظاهر الله . ولذا كانت كل نوازع الانسان خـيرة ، جيدة حتى ما ادّى منهـــا الى الفسق والرذيلة . وبما ان للانسان وحدة الذات مع الله ، فهو حر تماماً من كل نـــير او عبودية . والروحيون كانوا يوصون بالاتحاد الحر وبالشيوعية المطلقة . وقد انتشرت تعاليمهم منـــذ عام ١٥٣٠ ، ولا سيما بين الطبقات الاجتماعية الدنيا ، في مقاطعـــة الفلاندر ومدينة لياج والمانيا السفلى . وفي سنة ١٥٣٤ ، قام احد الطبيميين بن مقاطعة هينو ، يدعى كوانتين ، بادخالها الى فرنسا حيث تكاثر عدد اتباعه ، في مقاطعة نورمنديا . وفي سنة ١٥٤٧ ، راح احدهم ممن خلعوا الثوب الرهباني يكرز بهـذه التعاليم في مدينة روان . اما كوانتين فقد حُكم عليه بالموت في مدينة تورنيه ، عام ١٥٤٦ ، لانه حرض بعض المحصنات على خلع العذار والاستسلام للرذيلة .

كان عدد من الانسانيين قد تأثروا بالكـُتاب القدامى . فالكاتب اليوناني لوقيـــانوس لم يفتر يوماً عن الهزء بالدين والتهكم على رجاله . ويرى الابيقوري لوكريس في كتابه : « حول طبيعة الاشياء والعرافة *De natura rerum et de divinatione* » ان النفس البشرية تتـــألف اصلاً،من ذرّات تتفتت فيوقت ماوتتناثر،لتختفي من الوجود لانها مائتة كالجسد.اما شيشرون فيضع على لسان شخوصه ، في « محاوراته » ، وفي كتابه : « طبيعة الآلهة والعرافة » اقوالاً

وخواطر زعموا فيها ان الله ، اذا صح وجوده ، تتعذر معرفته كما يستحيل ادراكه ، وان الخلق فكرة خواء ، باطلة ، لا ترتكز على شيء ، اذ لو كان الله موجوداً وخالداً ، فلماذا نراه فجأة يشعر بالحاجة الى الخلق والابداع . ويرى آخرون ان الآلهة ليسوا سوى رجال عظام ، أُلهم الناس لمآتيهم وصنائعهم :فالدين هو من صنع السياسيين جاؤوا به ذريعة تمكنهم من التحكم بالناس كما يرغبون » . ويذهب آخرون الى نكران العجائب والمعجزات ، وهذه الاعمال التي تثير الدهش والاستغراب مما ينسبون فعله الى القدرة الالهية التي يجهلونها : « كل ما يحدث هو مسبب عن علة طبيعية ، والذي يبدو عليه انه وراء النواميس العادية ، لا يمكن له ان يتم او ان يقع بعيداً عن الطبيعة » (العرافة ، كتاب ٢ : ٢٢) وفي كتاب « التاريخ الطبيعي » الذي وضعه بليني والذي يؤلف وحده شبه موسوعة في العلوم الطبيعية ، في عصر مؤلفه ، نرى صاحبه يخلط خلط عشواء والعالم المادي . فالله هو « العالم الواسع ، الشاسع ، الخالد ، الذي لا بداية له ولا نهاية » . فهو ينكر العناية الربانية : من غير اللائق قط ان نتصور الله مَعْنِياً بنا ، مهتماً بشؤوننا البشرية الحقيرة . ليس في الانسان نفس خالدة : « كل الناس سيان هم . فهم سواء في يومهم الأخير وقبل يومهم الاول . بعد الموت : لا شعور ولا احساس ، لا في الجسد ولا في الروح ، تماماً كما كان وضعهم قبل ان يولدوا » (كتاب ٧ : ٥٦) .

كل من الادباء المثقفين اطّلع على الردود البليغة التي وضعها اوريجينس والقديس كيرلس ، وهي ردود طبعت مراراً وتكراراً ، وقعوا منها على اقوال وتعاليم بعض مشاهير الكتاب القدامى من خصوم الكنيسة واعدائها ، امثال سلس [1] ويوليانوس الجاحد ، فاسمع ما يقوله سلس بهذا الصدد : اي شيء عمله يسوع المسيح هذا ؟ - فقد ضلل بعض المساكين البائسين وشفى بعض المرضى . ولكن «أسكولاب والسحرة المصريون عملوا اكثر من ذلك - تجسدُه ؟ - هذه فكرة شعراء الاغريق . أ فلَم يُرسِل جوبتير ، عطارد الى الاثينيين ، والى اللقذمونيين (السبرطيين) ؟ - قيامته ؟ أفلم يبلغكم ان عشرين يونانياً اقاموا الموتى قبله ، على اساس من الصحة يقل او ينقص ، لا يتوفر له ؟ - موته ، ولكن أبكتيتس ، ولكن اناكسارخوس ، قاسا اكثر منه واحسن منه ، العذابات المبرحة . فقد رُضّ اناكسارخوس رضاً في جرن ، ومع ذلك سمعوه يردد لجلاديه :«حطّموا ، كسّروا غِمْد اناكسارخوس، فستبقون عاجزين عن ان تمسوه بأذى» او ان تنالوا منه شيئاً » . هذه عظمة خليقة بالآلهة ، بينما نرى هذا المسكين يسوع ينتحب قائلاً : « ايلي ! ايلي ، لِمَ تركتني » ، ثم راح يحشرج صارخاً : « انا عطشان » ، ثم يتنهد من الاعماق متمتماً : « كل شيء قد تم » . وهكذا انتهى نهاية اقل الناس قدراً وشأناً . والذي كان من العسير جداً على سلس ان يدركه وان يفقه سره هذا الفرق بين رجل يجود بحياته مؤدياً واجبه بكل بساطة ، وبين مهرج مخرق . الا انه كان على استعداد كلي ليأخذ

(١) فيلسوف افلاطوني المذهب عاش في روما في عهد الاسرة الانطونية ، في القرن الاول الميلاد . عرف بخصومته المسيحية ومهاجمته لها .

بهذه الترهات التي طالما رددها اعداء المسيح من اليهود ، بان يسوع هو ابن طبيعي لجندي جلف هو بنثيروس ، الذي قضى حياته في شظف الجندية ، وانه ابن بغي طردها زوجها ، ذهب الى مصر حيث أتيح له ان يطلع على فن صنع الخرقات ثم استعان بما تم له من هذا الفنون ومن هذه الصنعة، ليصنع ، فيما بعد العجائب ، وليتزعم فيا بعد وهو في الجليل واليهودية ، عصابة لصوص من فجاج الآفاق ، عددهم ١٢ ، خانه احدهم وسلمه تسليم اليد الى اعدائه .

حملت هذه التيارات الدينية في عبابها الصاخب ، هرطقات وتعاليم مغايرة كما حملت في ثناياها نفياً للمسيحية ونكراناً لها . فالصحاف والناشر الانساني الذائع الصيت اتيان دوليه ، قاده المجرى الفكري ، اذ ذاك ، الى مذهب الطبيعيين، الاعلى انه احتفظ بعقيدة خلود النفس . غير ان معاصريه نظروا اليه نظرهم الى ملحد معطل كافر ، ولذا صدر الامر باحراقــه حياً في ميدان موبرت – في باريس . وبونافنتورا ده بريبه ردد في كتابه «صنوج العالم » الذي صدر له عام ١٥٣٧ أو ١٥٣٨ ، بطريقة فكهة ، هذه الاهاجي والطعون التي وجهها سلس ضد ألوهيّة السيد المسيح وضد الوحي الالهي للانجيـــل . والاسباني ميشال سرفيه هاجم عقيدة الثالوث الأقدس سنة ١٥٣١ ، وذلك في كتابه الموسوم : « مغالط الثالوث » ولا سيا في كتابــه الآخر الضخم : « العودة بالمسيحية الى جذورها الاولى » الذي وضعه عام ١٥٤١ ونشره مطبوعاً عام ١٥٥٣ . فقد رأى في الاقانيم الثلاثة : الاب والابن والروح والقدس : ثلاثـــة مظاهر مختلفة للنشاط الالهي . وليس ثلاثة اقانيم متميز الواحد منها عن الآخر . فيسوع ، صاحب الانجيل ، ليس سوى انسان ، هو ابن الله حقاً ، مولود من الاب بالروح القدس ، وممسوح من الله . ولكن يسوع هذا ليس بالكلمة الابدي ، الخالد ، الاقنوم الثـــاني ، من الثالوث الاقدس. وإلا وجب التسليم، انصح القول، ان يكون الاب ولد له ولدان، وهو ظن أو قول منــاقض للكتاب الذي يذكر : ابن الله الوحيد ، ثم ان السيد المسيح نفسه يقول عن نفسه انه ابن الانسان ، وليس الله بالذات. وهكذا نفث سرفيه نفوثه في محنطات الهرطقات القديمة المضادة للثـالوث الأقدس ، فبعثها حية ، ولو الى حين ، كالاريوسية . وقد لاقى اتباعاً له بـين الكاثوليك ، واكثر منهم بين البروتستانت . ولذا لاحقه كلفين امام القضاء الكاثوليكي الفرنسي ، ففر سرفيه وقدم لاجئـاً الى جنيف حيث جرى توقيفه بامر من كلفين ، وجرت محاكمته وحكم عليه بالموت حرقـــاً ، عام ١٥٥٣ .

وفي الاتجاه الذي سار فيه سرفيه ، سارا ايضاً فقيه سييني ، هو لاليوس سوســين ، المولود عام ١٥٢٥. فقد علّم هو ايضاً ان الله واحد هو، وان الكلمة والروح القدس ليسا سوى مظهرين من مظاهر نشاطات الله ، وان السيد المسيح هو انسان لا غير ، ابن الله ، انما لا طبيعية الهية له، وان المسيح افتدانا بكرازته وتعاليمه بوصفه حاملاً لكلام الله ، وان لا اسرار في الكنيسة قط، وان العشاء السري ليس سوى تذكار يذكرنا بموت السيد المسيح ، وان لا فائدة من النعمة وليس لها اي جدوى، وان الانسان يتمتع تمامــاً بحريته واستقلاله، يملك في ذاته الدوافع التي تحفزه

للامتثال لارادة الله . وقام لاليوس سوسين ينشر تعاليمه هو نفسه منذ عام ١٥٤٧ ، في زوريخ وجنيف ، وحملها الى بولونيا ، بعد عام ١٥٥٦ ، ثم صارت رسالته الى ابن اخيه ، كما صارت اليه مخطوطات الكتب التي كان وضعها ، ومذكراته ومفكراته ، كما انتقل اليه نشاط عمه الداعية . وتكاثر عدد السوسينيين في بولونيا ومنها أشعّوا في اتجاهات عدة .

فالهرطقات وما هو انكى منها وأشق : نكران خلود النفس وربما نكران الله نفسه ، كل هذه التعاليم المتطرفة وما اليها تغلغلت عميقاً بين الاوساط الشعبية . وحدث يوماً ان قامت سيدة من نيوشاتل ، من طبقة الشعب ، تنكر بين ١٥٣٨ – ١٥٤٢ ، قيامة السيد المسيح، وبالتالي ، قيامة الموتى ، مدعية : « ان نفس الانسان تموت بموت الجسد ، وانه لا يعود من فرق قط بين روح حيوان ونفس انسان » . وقد بلغ من شدة قلق القوم واضطرابهم لهذه التعاليم ان قام القسس بحملة شعواء يدافعون، بألسنتهم واقلامهم ، عن عقيدة خلود النفس وقيامة الموتى. وقد ظن لوسيان فيفر ان في القرن السادس عشر، عصر الايمان الحي، لا يمكن ان يظهر فيه ملحدون حقيقيون . واخذ يسرد النصوص التي لا تعني فيها كلمة « ملحد » – *Athée* ما يفهم منه : « لا اله » بل « لا دين » ، او « من لا يعرف للاله الحقيقي » . فبعد ان عوّل في هذا الموضوع على كشف ضم بيان المصطلحات والتعابير التي شاعت على ألسنة رجال القرن السادس عشر ، راح يلاحظ ان هؤلاء الناس لم تتوفر لهم ، اذ ذاك ، مصطلحات واوضاع علمية تتيح لهم الاخذ بالحتمية العلمية ، وبالمادية، وهي كلمات دخلت المعجمية في القرن الثامن عشر ، من خلال كتاب امثال فولتير وكنت. أما هنري بوّسون، فقد رجح ظهور ملحدين في القرن السادس عشر، وبروزهم هو ظاهرة اجتماعية تجلت في كل العصور . واتخذا برهاناً على ذلك ، رهبان الاجيال الوسطى الذين، بالرغم مما عُرف من تقواهم وخشوعهم، انكروا فجأة ، الايمان بوجود الله ، فوجدوا بذلك ، انفسهم في فراغ مُطبَق وصمت مطلق ، وجهاً لوجه مع عالم ميت عديم القدرة على الايمان بالله . فالكفر أو الجحود بالايمان عِلة أو داء نحمله في اجسادنا كما نحمل تماماً ، التدرن الرئوي . « فهو في حالة كمون في معظم الناس » . وقد توصل الناس فعلاً ، في القرن السادس عشر الى اشكال أو صِيَغ متعددة من الفكر المادي ، والحتمية ، والعقلانية ، والرُشدية (فلسفة ابن رشد) ، ونظرية بمبونازي لم تكوّن ، بالفعل ، فلسفة مادية وحتمية ، لأن الصيغتين الاخيرتين كانتا تفتقران كلياً ، وفي الصميم ، الى إقامة الحد بين الروح والمادة ، كما افتقرتا ، في الاساس ، الى صورة ذهنية لعالم ، يتألف اصلاً ، من مادة جامدة متحركة . فاذ كان التمييز قائماً ، بصورة غافية ، في تعاليم الزْوِنْكلية والكلفينية المتعلقة بالحضور الذاتي ، فالفكرة لم تتضح وتبرز بجلاء ، الا مع ظهور ديكارت . ومنذ ديكارت توفر للعالم المعاصر صورة تامة ، مترابطة ، للحتمية وللمادية ولكن ، كل فلسفة مادية غير مترابطة، أليست لعمري ، بعد هذا ، يا ترى ، فلسفة مادية ؟ فاي شيء كانت فكرة سيدة نيوشاتل لعمري ؟ من المحتمل جداً ان تكون فكرة نكرانها خلود النفس ، ارتبطت في ذهنها ، بفكرة نكران الله ،

مع ان الفرق واضح بين الفكرتين ، ولكن ، أنى لنا ان نعرف تماماً ، ماذا عنت ، وماذا ارادت . وهكذا سيبقى الجدل والبحث حول الموضوع قائماً ، لما فيه فرحة المؤرخين ومَسَرَّتهم مع انه من المحتمل جداً ان يكون ظهر ، في القرن السادس عشر ، ملحدون حقيقيون . ومهما يكن من الامر ، فالظواهر الرئيسية الاخرى التي طلعت علينا في القرون المعاصرة ، للعقلانية وللامسيحية ، والهرطقة ، بنوع عام ، كان سبق لها وتبلورت من قبل، وبرزت واضحة العيان .

الاوضاع الاجتماعية التي احاطت بالنظم الدينية الجديدة

قام مؤرخون عديدون يتساءلون ، بحق ، عما اذا كانت هذه التيارات الفكرية والمجاري الدينية التي استعرضنا لها هنا ، لم تجد دافعاً لها ، وحافزاً عليها ، في هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحكمت بالتطور الحضاري، في ذلك العصر . وقد طلعت علينا بهذا الصددَ ثلاث نظريات متباينة النزعة . فقد خُيّل لبعضهم ان الحركة البروتستانتية لم تكن ، في الصميم ، سوى ثورة قام بها الامراء وطبقة النبلاء ضد سلطة البابا والامبراطور والملوك . وهذه النظرية اخذ بها في عهدنا المؤرخ الفرنسي ميشليه . وقد خطر لبعض هؤلاء الذين فلسفوا التاريخ، ان يروا فيها محاولة قام بها ابناء الطبقة الدنيا ومعلمو النقابات المهنية ، ونظار الوُرَش ، والفلاحون وكل من عانى من اضطهاد الامراء وضغط رجال المال والاعمال . وهي نظرية راجت في عهود هوسر وقد ظن لوسيان فيفر يوماً ان حركة الاصلاح الديني جاءت تعبيراً عن الحاجات التي جاشت بها البورجوازية الرأسمالية . ففي التاريخ وقائع تؤيد كلاً من هذه الحدسيات. كل الناس يذكرون اليوم، موقف الامراء اللوثريين ، في المانيا ، حكام مقاطعات : هس وساكس ، والرئيس الاعلى لفرقة التيوتونيين : البرت ده براند بورج ، وغيرهم كثيرين ، ومصادراتهم الاوقاف وعبثهم بالاملاك الكنسية ، وخصومتهم مع شارل الخامس ، كما يتذكرون قصة الملك هنري الثامن في انكلترا ، والدور الذي لعبه ، في فرنسا امراء من الاسرة الملكية ، وبعض كبار الامراء، في الاقبال على الحركات الجديدة وتبني الآراء والتعاليم الجديدة ، ونصرتهم لها والدفاع عنها ، والاستقبال الحار الذي لقيه لدى شقيقة الملك بالذات مارغريت ، دنغوليم التي اصبحت، فيما بعد ، ملكة نافار في نيراك ، مفكرون امثال لوفيفر ديتابل ، عام ١٥٢٩ ، والانجيلي الجديد العهد جيرار روسيل الذي رسمته اسقفاً لمدينة أولرُون، والدور الذي لعبه فرنسوا ده كوليني في مقاطعة بريتانيا ، وفي ايطاليا بالذات ، الدور الذي مثلته رينه ده فرانس التي اصبحت فيما بعد ، دوقة ، فراره ، التي ساندت مساندة ظاهرة حركة الاصلاح ؛ كما يذكر الكل تواطؤ بعض المطارنة ، من ذوي الحسب والنسب ، وغضهم الطرف عن التعاليم الجديدة ، وتسامحهم عنها . أما المؤيدون للنظرية الثانية ، فهم يشددون على ثورة الفلاحين الالمان في مقاطعة الغابة السوداء ، وفي النمسا ، عام ١٥٢٤ — ١٥٢٥ ، كما يشددون على ظهور جمهورية اللامعمدانيين الشيوعية التي أعلنت في مونستر، كما يلحظون ، بانتباه كلي ، هذا العدد الضخم من اهل الحرف والندافين، والنساجين، والقصارين

والاسكافين والزجاجين والجلدين وغيرهم كثيرين ممن ترددت اسماؤهم وجيء على ذكرهم في هذه الدعاوى القائمة على الهراطقة الذين صدرت بحقهم احكام قضائية، في فرنسا ، ولا سيا في مدينة بو،بين ١٥٤٥ - ١٥٤٦ ، وفي باريس ، سنة ١٥٥٧ . والنظرية الثالثة يؤيدها ما نرى وما نلمس من الاقبال على حركة الاصلاح ، هذا العدد العديد من التجار ورجال الاعمال في كل من : انفرس وبروج وروان ، وليون وفي غيرها من المراكز التجارية الكبرى في اوروبا ، لما لاقوه من التشجيع الادبي في اللوثيرية والكلفينية ، في مشروعاتهم الاستثارية .

كل هذه الحوادث وقائع حية ، عاشها الناس ، اذ ذاك وتصلح كل واحدة منها ، بالرغم مما بينها من مفارقات، حجة لكل من هذه النظريات ، ودليلاً لها . فلننظر الى ما هو ابعد من ذلك واعمق لنرى ماذا من حقيقة الامر .

لعله من المفيد ، ان نقيم ، بادىء ذي بدء ، الحد بين ظهور او نشأة الاصلاح البروتستانتي وبين الترويج لمبادئه ، والدعاية لها والعمل على نشرها . انطلقت الحركة كقضية دينية من هذه القضايا الكنسية . فقد ودّ رينودو الا يكون انطلق الاصلاح البروتستانتي من حادث اختلاف بين الرهبان . وماذا يضير الامر ؟ أفلا نرى الرهبان ورجال الدين عند منطلق هذه الحركة وانفجارها ؟ ألم يكن ايراسموس ولوثير رهباناً وكهنة ، كما كان لوفيفر ديتابل وكلفين هما ايضاً من رجال الدين ؟ فما هي لعمري الدوافع الدفينة لهذه الحركة التي قاموا بها ؟ بالطبع حوافز دينية بحتة . علينا ان نقبل وان نسلم بان هنالك أناساً يرون ان علاقتنا بالله هي قضية رئيسية ، مصيرية او بالاحرى هي القضية الكبرى في هذه الحياة .

وفي الترويج لمبادىء هذا الاصلاح والعمل على نشرها بين الملأ ، من أخذ المبادرة وقام بالجهد الاكبر ؟ الرهبان اولاً ورعاة الكنائس ، فيما بعد ، ورؤساء المعاهد والمنظمات التربوية (وكلهم رهبان ، اذ ذاك)،ومعلمو المدارس . كل هؤلاء لعبوا الدور الاكبر في نشر هذه النظريات الدينية الجديدة.ثم،من هم الذين حملوهم على اعتناق مقالتهم ؟ — رجالاً ونساء من كل لون وجنس وطبقة من طبقات المجتمع الانساني : اشراف ، ومحامون ، وقضاة ، وموظفون في خدمة الملك، ومن رجال المال والاعمال في التجارة والصرافة ، ومعلمو الحرَف واصحاب المهن الحرة،وسكان الريف ، من مختلف المستويات . هنالك من يعترض ان السواد الاكبر من أتباع الاصلاح البروتستانتي كانوا من السوقة . صحيح هذا ، والاصح منه ان السوقة ألفوا السواد الاعظم من المجتمع . والمهم اثباته هنا هو ان نعرف بشيء من الدقة ، ما اذا كان عددهم يؤلف ، نسبياً ، العدد الاوفى من هذه الطبقات التي تألف منها المجتمع ، اذ ذاك . الا اننا نرى ، مع الاسف الشديد ان دراسة تركيب المجتمع في ذلك العصر ليست بعد من التقدم بحيث يمكن اعتمادها حجة ودليلاً . وقد لا تأتي نتائجها — لو صح الركون اليها — قاطعة ، جازمة ، باتة . علينا ان نحسب حساب المجتمعات القومية الجانب ، والافراد الذين يتمتعون بنفوذ قوي ، الذين يفرضون على الغير مثلهم ووجهة نظرهم في الحياة . ففي الوضع الاجتماعي القائم ، اذ ذاك ، يستحيل علينا

ان نرد كل محاولة اصلاح ، أو حركة اصلاحية ، الى طبقة اجتماعية معينة ، أو الى فئة اجتماعية خاصة ، مهما كان لها من حول وطول . ولما كان الدين يغمر الفرد بأكمله، في معايشه ، فليس من يعتقد ان المشاعر الدينية التي حملها القوم ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لم تتأثر بما جاشت به نفوس الناس من عواطف ولواعج ، وخواطر ، ومصالح شخصية ، ومادية . ولكل وضع من هذه الاوضاع والحالات دوافع ونوازع خاصة ، ومسببات تشدها بعضا الى بعض . فالاصلاح هو قبل كل شيء – كان قصة دين وحكاية ديانة .

الاصلاح والرأسماليون

عنّ لبعضهم ان يرى في الاصلاح سبباً من الاسباب التي هيأت لطلوع الرأسمالية . ان الكنيسة شجبت بالفعل وتشجب باستمرار ، الربا على اشكاله والوانه . فمجمع اللاتران الذي انعقد عام ١٥١٥ ، وكلية اللاهوت في باريس ، جددا ، نزولاً عند اقتراح ابداه عام ١٥٣٢ ، تجار اسبانيون في انفرس ، الحرم الذي صدر من قبل بحق الربا . ففي نظر اللاهوتيين المدرسيين : « سعادة الانسان الاتم لا تتم الا بمشاهدة الذات الالهية» فمقتنيات هذه الارض ليست سوى ذرائع أو ادوات يجب ان تساعدنا على العيش بحيث نحيا حياة روحية تؤهلنا بدورها للحياة الابدية . فالسعي وراء هذه الخيرات الارضية والعمل على توفيرها ، يجب ان يتم باعتدال كلي . فالملكية شرّ لا بد منه ، والشيوعية قد تكون افضل الحلول . والسعي الدؤوب ، المتكالب على ادّخار المال وجمع الثروة خطيئةهو . فالعمل في هذا السبيل يجب ان يستهدف ، قبل كل شيء ، تلبية حاجاتنا الضرورية . فالانتاج ضروري ، وهو محمود الغاية . والتجارة أمر لازم ، وان كانت لا تخلو من خطر . فالنقد قد يمسي مفسدة للاخلاق والآداب ، ومحط من شأن الانسان . فمن اشترى للتصنيع والبيع عمل جيداً . ومن يشتري ليبيع ما اشتراه في سبيل تأمين بعض الربح يسيء التصرف . يجب ان يتم البيع بثمن عَدل يساعد على تأمين حاجات المنتج . الدَّين يجب ان يكون بلا بدَل ، بدون فائدة . على مثل هذه المبادىء قامت النظرية التي تتلاءم مع نظام زراعي يتفق مع صناعة ضعيفة في مجتمع يتألف من فلاحين ومزارعين ومعلمي حِرَف . والمعروف ان النظام الرأسمالي نشأ قبل الاصلاح بزمن طويل ، فهو نظام عُمل به منذ القرن الثالث عشر ، في ايطاليا والبلاد الواطية، وفي مدن فلورنسا والبندقية،وبروج ولياج وَغنْت.فاصحاب البيوتات المالية الكبرى، فيذلك العصر من ايطاليين والمان ، كانوا يقومون بمضاربات مالية قبل ان ينشر لوثير تعاليمه . والمعروف ان كبار اصحاب هذه البيوتات المالية امثال : فوجر وولزر وهوشستتر ، كانوا من ألدّ خصوم لوثير والاصلاح الديني الذي قام به . فالكنيسة الكاثوليكية نفسها كانت تبرر تشغيل رؤوس الاموال عندما يكون الدائن نفسه مساهماً في ادارة المشروعات، هذا إن لم يكن يتحمل هو وحده نتائج كل خطر ينجم عن هذه المشروعات ، كما انها كانت تجيز قيام شركات مساهمة للمضاربات المالية . كذلك أجازت تسليف مبلغ من المال لقاء ربح دائم بفائدة صغيرة . والفلاسفة انفسهم من اتباع مدرسة توما الاكويني استجابوا ، بشيء من التعاطف،لمقتضيات النظام الرأسمالي .

فالمال هو من هذه الوسائل المشروعة في خدمة الله .

اما لوثير ، فقد ناصب رأس المال العداء العنيف لانه من عمل ابليس . فاسمعه يقول :

« اكبر مصيبة نزلت بالامة الالمانية ، هي ، لا شك بذلك ، المضاربات المالية التي هي من اختراع الشيطان والبابا لتأييدها هذه الاعمال التي جرت على العالم ويلات لا يمكن حصرها ولا تصورها . فالاتجار مع الخارج في سبيل استيراد الحاصيل من كالكيوت ومن الهند واماكن نائية اخرى ، تسبب أذى للبلاد بتسرب نقدها الى الخارج. ومثل هذه التجارة لم يكن من الجائز السماح بها . عندي الكثير عن هذه الشركات التجارية حيث لا تقع العين الا على الجشع وعلى امور مخالفة لابسط قواعد العدالة » .

وهاهو كلفين يتبنى مثالية بولس الرسول في الفقر، هذا الشرط الاساسي لكل حياة مسيحية حقة : « يكفينا ان تتوفر لنا وسائل العيش واللبس . . »

فاذا كان لوثير وكلفين لم يكونا وراء ظهور نظام الرأسمالية ، فقد ساعدا ، من حيث لا يدريان ، على الترويج له والتمكين لاصوله .

شجب لوثير الرأسمالية ، ونظام المضاربات المالية . وقد نصح بالدَّين المجاني ، بل أوصى به، والبيع بسعر منخفض يؤمن مع ذلك اسباب العيش للبائع . الا انه امتنع عن سن اي قانون أو تشريع ، رغبة منه في اطلاق الحرية الكاملة أمام الناس ، في هذا المجال .

فعلى التاجر ان يرجع ، في ذلك ، الى ما جاء في الانجيل والى صوت ضميره ، على اننا نرى اكثر الناس يتصرفون بحرية تامة ليكسروا من حدة توصيات اللاهوتيين المدرسيين . فاللوثيرية ، ادت ، بالرغم من لوثير ، الى انتشار الرأسمالية ، تدعيماً منها للحكم المطلق ونظام الاستبداد .

اما كلفين الذي كان اصغر سناً من لوثير ، فقد نشر تعاليمه في اوساط تتعامل كثيراً بالنقد بعد ان جعل مقره الدائم في مدينة جنيف التي اصبحت، اثر انهيار مدينة ليون الاقتصادي في اعقاب الحروب الاهلية الدينية ، مركزاً مالياً كبيراً ، وذلك بوصفه زعيماً لحركة مدنية ساعد على نشرها عمال مهاجرون وتجار . فهو اكثر تحرراً من لوثير في ما يتعلق بالربا . ومن جهة اخرى ، لم يتقاعس قط بوصفه رجلاً فقيهاً مشرعاً ، عن فرض نظام شديد بعد ان اقتنع في الصميم ، بضرورة ضبط الامور لاستتباب الامر .

فهو يرى : « ان الله هيأ الاشياء لتأتي وفاقاً لما حددته ارادته الالهية » . فالرأس المال ، اذاً والاعتماد المالي ، والمصرف ، وحركة الاعمال التجارية ، والنقد كل ذلك وما اليه ، هو من ترتيبات الله ، ويجب بالتالي مراعاتها والعمل بموجبها ، واحترامها احترامنا لحق العامل باجره ، ودفع ايجار عقار مستثمر »، ودفع فائدة عن مبلغ جرى تسليفه يكون متناسباً مع المبلغ المدفوع عن قطعة ارض تستغل بالحصة . فالله أعدَّ كل واحد منا لدعوة خاصة يؤول الاضطلاع بها الى تمجيده تعالى . فالتاجر الذي يسعى لتأمين ربح له يقتضيه نجاح مشروعه ومتجره على قدر ما يأتيه من جهد وقناعة واقتصاد ونظام ، يتفق تماماً مع مقاصد الله ،

ويساعد على تقديس العالم بالجهد المبذول ، فيتصف عمله هذا بالقداسة . « فالعامل هو اكثر ما يكون شبهاً بالله » . « فالرجل الذي يرفض ان يعمل يجب ألا يأكل » . قد يكون فقر المرء ناتجاً عن الكسل وهذا يعتبر اهانة موجهة ضد الله تعالى. أما الصدقات فيجب ان تعطى بتحفظ كلي ، بعد روية ونظر .

نرى مما تقدم ، ان كلفين وقف الى جانب الاعراف والتقاليد البورجوازية يؤيدها ويشد من ازرها ، وهذا ما يفسر النجاح الذي صادفته دعوته لدى هــذه الطبقة التي كان ابناؤها ينصرفون عادة لاعمال التجارة والصناعة ، في أنفرس ولندن وامستردام، وهم واثقون انهم انما يعملون وفقاً للترتيب الالهي ويسيرون على النهج الذي رسمه الله لهم، ولذا قست قلوب ابناء هذه الطبقة قسوة الحديد لا تعرف الشفقة الى قلوبهم سبيلا .

الاصلاح والدولة

سايرت حركة الاصلاح النزعات القومية وماشتها، فالعقيدة الدينية من شأنها ان توحد الشعوب وان تلهب مُثُلها القومية المشتركة ، وتَرُصّ صفوفها لتقف كالبنيان المرصوص ضد الاجنبي ، فتنتصب في وجه مليك لا يشاطرها ايمانها . فهل من عجب ان تصبح اللوثيرية ، في السويد مثلاً ، رمزاً للقومية السويدية تحمل السويديين على امتشاق الحسام واعلان الثورة في وجه المستعمر الدانماركي (١٥٢٣ – ١٥٢٩) . اما في الامبراطورية ، فالانضمام الى اللوثيرية بدا مظهراً من مظاهر صراع الامارات الصغيرة للحد من اطماع الامبراطور ومنعه من التحول الى نظام ملكي مستبد، مطلق التصرف ، وبذلك يصونون الحريات التي كانوا يتمتعون بها ويحققون الاستقلال التام الذي طالما راود خواطرهم . امـا الكلفينية ، فقد ساعدت من جهتها على تكوين دولة جديدة هي الولايات المتحدة التي اصبحت الخمير الذي خمّر عجين الامة الاسكتلاندية .

الاصلاح والتسامح

بالنظر لتعذر اجبار رجال الاصلاح والمعتنقين لحركته على الارتداد أو استئصال شأفتهم من الارض بقوة السلاح ، فقد رأى من بيدهم الامر ان يعتصموا بالتسامح وحل الامور بالتي هي احسن، عن طريق عقد اتفاقات او معاهدات دينية ، تكاثر عددها في هذه الحقبة بالذات . ومن ابرز هذه المعاهدات وأيسرهـا ذكراً ، معاهدة او اعتراف اوغسبورج، التي أبرمت عام ١٥٥٥ . وفرمان نانت، الذي اصدره الملك هنري الرابع في فرنسا ، عام ١٥٩٨ . ففي معاهدة اوغسبورج ، اضطر الامبراطور شارل الخامس للاعتراف رسمياً باللوثيرية، كما اعترف للامراء الذين اعتنقوا الاصلاح وثاروا عليه ان يختاروا الايمان او الديانة التي يرغبون في اتباعها ، مع الحق باجبار رعاياهم على اعتناق دين الامير عملا بالقول المأثور : الناس على دين ملوكهم *Cujus regioejus réligio* . كذلك سلم الامبراطور بالاعتراف بشرعية مصادرات الاوقاف والاملاك الكنسية التي سبقت عام ١٥٥٢ ، شريطة ان يُلزم كل من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضمام ، من الامراء ، الى اللوثيرية ، بارجاع الاملاك التي

يكون صادرها ، الى الكنيسة . وعلى هذا الاساس استتب السلام . فالاتفاقات المعقودة في اوغسبورج عنت اللوثيريين وحدهم دون الكلفينين ، كما ان هذه الاتفاقات سرى مفعولها على الامراء وليس على الافراد . اما هنري الرابع ، فقد ذهب الى ابعد من ذلك بكثير ، كما نص عليه منطوق فرمان نانت ، اذ عرف ان يتخذ من التدابير والوسائل ما سهل التعايش السلمي ، في قلب الدولة الواحدة ، لرعايا اختلفوا عقيدة وتباينوا ايماناً ، وربما كانوا على مستويات حضارية متفاوتة ايضاً . فالديانة الكاثوليكية كانت الديانة الرسمية . اما الكلفينيون ، فقد نعموا ، هم ايضاً بحريتهم الدينية وبحرية العبادة ،مقتصرة على المقاطعة التي يوجد فيها بروتستانت وعلى عدد من المدن والقرى . وتمتع اتباع الاصلاح بحريات عريضة ، فكان لهم محاكم مختلطة ومدن ملاجىء محصنة يقيمون فيها حاميات لهم .وتمكن المسؤولون في فرنسا من الحد من انتشار البروتستانتية بالحد من حرية العبادة . وخلافاً لصلح اوغسبورج ، اعترف فرمان نانت رسمياً ، ولاول مرة في التاريخ ، بوجود ديانتين وبتساوي الحقوق تقريباً بين اتباعها رعايا الدولة الواحدة تحت حكم ملك واحد ادارة واحدة .

الفصل الثالث

النظم الاقتصادية الجديدة

قد تكون دنيا الاقتصاد المجال الاكبر الذي تصارعت فيه النظم الجديدة التي طلمت علينا في عصر النهضة . فالرأسمالية التجارية التي قامت على اساس الاعتماد المالي والسفتجة ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر ، في فلورنسا والبندقية وجنوى ، وان الاساليب او النظم التجارية على اختلاف انواعها : كالمضاربات المالية وتحويل المدفوعات وكتب الاعتماد ، وهو المحور الذي استقطب حوله بالاكثر المعاملات التجارية والتبادل الدولي،ليس ما يدل انها تطورت كثيراً خلال القرن السادس عشر . علينا ان نلاحظ هنا، قبل كل شيء ، ان أي تقدم يطرأ في المجال التقني، يحمل بين طياته نتائج لا تقدر ، وان لم تردد الوثائق التاريخية التي وصلتنا من ذلك العصر ، أي صدىً بارز لها . مثال ذلك ، فرنسا ، مثلاً ، حيث نجد ان الايراد أو الدخل لم يكن ليعتبر فيها من وسائل الاعتماد المالي . فالريع الناشىء عن مبلغ من المال ، يصلح بيعه من دائن لقاء مبلغ يقرضه او يسلفه ، على ان يستوفي دينه تباعاً من ايجار عقار معين ، بموجب عقد يعتبر المعاملة بيعاً نهائياً بحيث لا يعود من المتوجب على المدين ان يدفع . ففي الريع الدائم لا يستطيع الدائن ، ان يسترجع عيناً المال الذي دفعه نقداً وعداً . وقد حاول بعض الخاصة ان يُنزلوا ، بصفة عفوية وبالرغم من معارضة القضاء ، الايراد الدائم او الريع ، منزلة الدين بفائدة . فمنذ أواخر القرن الخامس عشر حاول المتعاقدون ، في باريس ، ان يدخلوا على العقود شرطاً إضافياً يُخْضِع بموجبه كل املاك المدين ومقتنياته . كما ادخلوا بين ١٥٢٠ – ١٥٤٠ ، شرطاً اضافياً آخر يحدد بصورة واضحة حق الدائن باستيفاء جميع حقوقه ، من جميع املاك المدين ، ان لم يسدد هذا الاخير ما تبقى عليه من حساب ، غير مكتف بريع العقار المرتهن لديه والذي كان يستوفي ريعه . وهكذا فالريع اصبح الزاماً شخصياً مع رهن ، وهي معاملة تقرب جداً من التسليف بفائدة ويمكن ان تكوّن اداة طيعة في التحويل المالي . اما معرفة ما اذا كان هذا النظام قد أدى عمله بالفعل ، فأمر آخر . فهل بعد هذا ، نحن مقتنعون

باننا كشفنا النقاب عن كل التغييرات التي عرفتها المعاملات المصرفية والتجارية ؟

ومهما يكن من الامر ، فاتساع مجال الحركة التجارية وانفشاع مداهـــا ، وازدياد الكميات الضخمة التي يجري تسويقها ، كل ذلك يعتبر بحق تغييراً أساسياً في النظام الاقتصادي. فبامتداد الحركة التجارية الى العالم الاسباني ، في العالم الجديد والى المحيط الهندي البرتغالي ، ادخل عـــلى الحركة الاقتصادية تغييرات جذرية. فالفترة الاخيرة من القرن الخامس عشر ، تتفق مـع ما يسميه فرنسوا سمياند بطور « B » اي نهاية الحقبة التي قلّت فيها المعادن الثمينة وندرت للغـــاية وهبطت فيها الاسعار هبوطاً عظيماً ، وانكمشت فيها المبادلات التجارية كما ضؤلت فيها حركة الانتاج . فالصعوبات التي اصطدمت بها الحركة الاقتصادية العالمية شجعت الناس على البحث للخروج من الازمة وراح جيل جديد من التقنيين ورجال الاعمال المغامرين يحاول ابتداع شيء جديد. فالدقة التي حققوها في بناء سفينة الكرافيل هذا النوع من السفن الذي عوّل عليه المستكشفون الجغرافيون والتي يمكن بحركة بسيطة في قلوعها ان تصبح بمستوى الدرجة ٦٥ من خط السير لتسير مع تيار الريح الذي يهب من جهة اليمين ، ثم الاتجاه في طريق بحري برسم زاوية معينة ، مع الابرة المغنطيسية ، وتحديد الموقع الجغرافي للسفينة ، بالاعتماد على زيج الزوايا ، للرجوع الى الخط والاتجاه السوي ، اذ ما حادت عنه السفينة ، ومقدرة البحارة على الاتجاه بالسفينة في الصدد المطلوب ، كل هذه التحسينات الفنية ادت الى تطور عظيم في وسائل النقل البحري . فالثورة التي تمت في المجال الجغرافي ، وتسهيل ايصال التوابل والافاويه الى الاسواق الانكليزية والفرنسية والفلمنكية والالمانية ، وتحويل سبائك الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية باتجاه البندقية ومنها الى انفرس ولشبونة ، ووصول المواد الصباغية ، من الهند وخليج كمباي ومقاطعة بيغو ، او من البرازيل ، كالبقم والقرمز والنيلة ، والانقلاب المفاجيء في صناعة النسيج من جراء ورود القطن مـــن السوس ومن جزر الرأس الاخضر ، والبرازيل والهند ، وتطور صناعة السكر في كل من جزر ماديرا والازور والجزر الخالدات ، على أثر اختراع مطاحن السكر ، وبروز صناعـــة صيد الاسماك على شواطيء جزيرة الارض الجديدة ، واشتداد الطلب ، بالمقابل ، عـــلى مقاطعات البلطيق واوروبا الغربية ، لاستيراد ما تنتج من منسوجات صوفية واجواخ وغير ذلك مـــن مصنوعات الحديد والنحاس ، والزئبق ، والمدافع ، وانسجة القلوع ، والبـــارود ، وتصدير هذه المواد نحو لشبونة وأشبيلية ، كل هذه المجاري التجارية ، وهذه الاسواق الجديدة ، ساعدت على طلوع عالم رأسمالي ، وتسببت في ارتفاع مستمر في الاسعار ، وفي ازدياد الانتـــاج والمبادلات التجارية . هذا الوضع كله حلّ في مرتبه « A » من نظام سيمياند .

فالحركة التجارية التي نشطت وازدهرت بين أشبيلية ومرافيء اميركا الاسبانيـــة ، فكانت المحور الرئيسي لهذه الحركة الاقتصادية التي جاءت بها اوروبا ، اذ ذاك ، ملأ نشاطها الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ و١٦٠٨/١٦١٠ . وقـد ارتفعت حركة النقل البحري ذهاباً واياباً ،

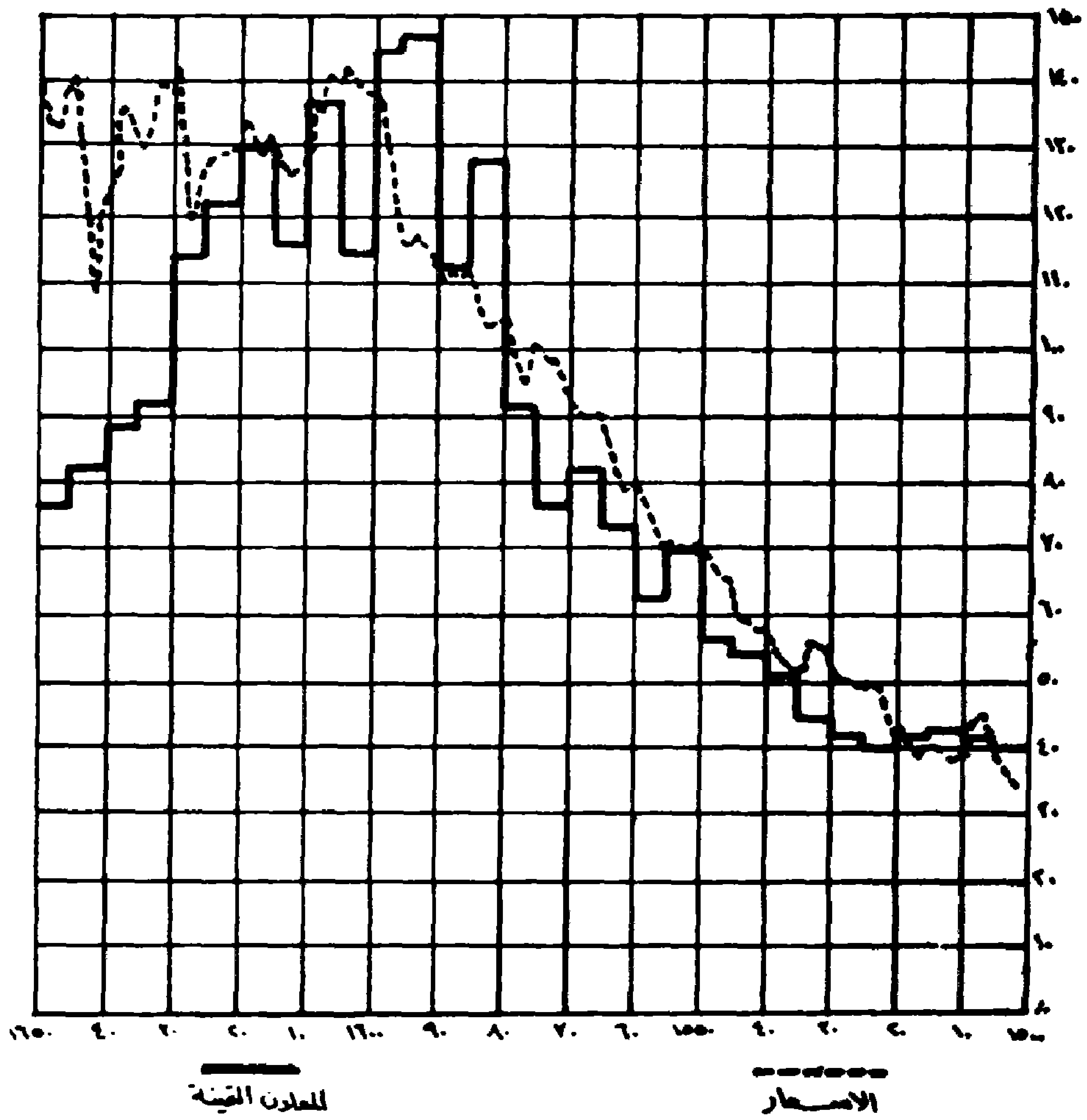
بين الطرفين ، من ١٥٦٨٠ برميلاً ، سعة البرميل الواحد ٢،٨ متر مكعب ، في فترة السنوات الخمس ١٥٠٦ - ١٥١٠ ، الى ٢٣٧٥٣٠ برميـــلا في فترة السنوات الخمس ١٦٠٦ - ١٦١٠. وهكذا نرى ان معدل الزيادة في حركة النقل ارتفعت من ١ - ٢٠ .وقد مرت حركــة النقل خلال هذه الحقبة الممتدة بين الحدود المذكورة بتقلبات عديدة تناوحت بين صعود وهبوط ، وتقدم وتأخر ، تتفق ، الى حد بعيد ، مع هذه الدورات الزمنيـــة التي عرفتها الحركـــة الاقتصادية ، ومر بها الرأسمال الدولي ، في القرنين التـــاسع عشر والعشرين ،والتي راح يحدد مميزات كل منها والخصائص التي تلبستها ، كبار علماء الاقتصاد وخبرائـــه .وهذه الدورات الزمنية يختلف مداها بحسب آراء ، هؤلاء الخــبراء : فهي تدوم من ٥٠ - ٦٠ سنـــة في نظر كوندراتييف ، او من ٧ - ١١ سنة في نظر جوكلر ، او من ٣ - ٤ سنوات فينظر ِكتشِن . أليَست دورة كونـــدراتييف ، توازي تـلك الدورة التي ابتدأت في اواخرالقرن الخامس عشر فتميزت بهذا النشاط العارم تزخر به حركة الاعمال التجارية والنقـل اثر الاكتشافات الجغرافية وطرق المواصلات المحيطية الجديدة ، وانتهت بهذه الازمة التي اشتدتبين ١٥٥٠ - ١٥٥٩ بعد ان ظهرت بوادرها عام ١٥٤٧ / ١٥٤٨ ، والتي عاد اليها رسيس مـن النشاط ، حوالي عام ١٥٦٢-١٥٦٣ ؟ فاذا ما حسبنا معدل سعـةالبرميـــل ٢،٨ متر مكعب ، واذا ما أخذنا اساساً لتقديراتنا ، فترة خمس سنوات ، في هذهالازمة المالية الكبرى ، بلـغ وزن البضاعة التي تم نقلها من اشبيلية الى اميركا ، في نصف العقدمن السنين ١٥٤١ - ١٥٤٦ ، ما قيمته ٦٥٦٢٥ برميلاً . ارتفع هذا المعدل في الفترة ١٥٤٥ -١٥٥٠ ، الى ٩٥،٤٠٠ ثم هبط الى ٦٧،٧٢٥ برميلاً خلال الفترة ١٥٥٦ - ١٥٦٠ .

وقد حدث في الفترة الواقعة بين ١٥٤٧ - ١٥٦٠ هزة مالية شديدة تأثرت من جرائهـــا اشهر البيوتات التجارية التي عرفت في النصف الاول من هـــذا القرن ، لدى الفلورنتيين ولدى اسرة فوجر « *Fugger* ». فقد ارغمت الحروب التي وقعت اذ ذاك ، الملوك على استلاف مبالغ طائلة وجدوا انفسهم عاجزين ، فيما بعد ، عن ايفائها ، كما استعملت مبالغ ضخمة في مشروعات غير مجدية ، كان مع ذلك ، لا بد من القيام بها ، هي هذه المبالغ الخاصــة بالحروب وتكاليف حياة البذخ في بلاطات الملوك . ونشأ من جراء ذلك أزمة مالية حادة هزّت اوروبا بين ١٥٥٧ - ١٥٥٩ ، ووقعت اسرة هبسبورج نفسها في عجز مالي يتراوح بين ١٣ - ٢٠ مليون دوقا مما اضطرها لاعلان افلاسها ،وفي سنة ١٥٥٧ توقفوا عن الدفع وحظّروا اخراج الذهب من البلاد، ولا سيما مبلغ ٥٧٠،٠٠٠ تعود لمحـلات فوجر في انفرس ، وحولوا ما لديهم مـن *juros* بسعر يتراوح بين ٥٠ - ٤٠ من قيمته الاسمية ، الى سندات على الدولة بفائدة ٥٪ لم تلبث ان فقدت قيمتها الاسمية ، في البورصة . ولما كانت لمحلات فوجر استحقاقات على اسبانيـــا بقيمة مليون دوقا ، اي ما يوازي ضعف رأسمالهم التجاري ، فقد اشتروا ، عام ١٥٦٣ ، اسهماً لم تلبث ان هبطت ٥٠ - ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية .وملك فرنسا نفسه بعد انكساره في موقعـة سان -

كنتين في ١٠ آب ١٥٥٧ ، لم يستطع ان يدفع سوى قسم ضئيل من أصل الفوائد المستحقة عليه للمبالغ التي سبق واقترضها ، وعندما توفي عام ١٥٤٧ ، خلّف وراءه ديناً يتراوح بين ٣٦–٤٤ مليون ليرة في الوقت الذي خسرت عملة الدوقا التي اصدرها ٥٠ – ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية . وهكذا نرى ان كل البيوتات المالية التي كانت تتولى الاعمال المصرفية ، والتمويل ، وجدت نفسها مهتزة . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتكاثر الافلاسات في انفرس والمانيا الجنوبية . وانهارت مؤسسة فوجر نفسها بعد ان فاقت الديون المستحقة عليها ، موجوداتها ، وذلك اثر فقدانها حرية الاتجار بالمضاربات التجارية ، الامر الذي اضطر معه بعض اعضاء الاسرة ، للانسحاب من الشركة .

وقد ظن بعضهم ان هذه الازمة التي استحكمت حلقاتها في منتصف القرن السادس عشر ، مهّدت السبيل لازمة مالية اخرى ألمّت بالرأسمال وضعضعته طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فمنذ سنة ١٥٦٢/١٥٦٣ التي عقدت فيها معاهدة كاتو ـ كمبرسيس فاعادت السلام الى اوروبا ، راحت الحركة التجارية تسجل نشاطاً جديداً ، فارتفع معدل الرحلات التجارية بين اشبيلية واميركا ، وارتفعت نسبة المشحونات التي صدّرت ، في الفترة ١٥٦٦ – ١٥٧٠ الى ١٠٤،٤٢٥ برميلاً . ومدينة لاروشيل التي لم يسجل مرفؤها سوى ١٨ سفينة عام ١٥٦٣ ، و ٥ سفن عام ١٥٥٨ غادرت ميناءها ، اذ بها تسجل ٦١ سفينة عام ١٥٦٣ ، و ٩١ سفينة سنة ١٥٦٤ . ومدينة فِنْتِريه من اعمال فرنسا ، صدّرت وحدها ، بالرغم من الحروب الدينية التي خلخلت حركة الاعمال والاشغال ، ٧٣٢،٦٦٢ ذراعاً من المنسوجات كمعدل سنوي للتصدير ، كما سجلت حركة التصدير فيها ١،١٥٢،٨٩٠ ذراعاً كمعدل وسط للسنوات ١٥٧٠ – ١٥٧٥ ، و ٤٠٠ ، ٣٤٥ ، ١ ذراعاً ،عام ١٥٧٥ – ١٥٨٠ . فاذا ما تدهورت بيوتات تجارية ومصرفية كبيرة كمحلات فوجر وغيرها ، فقد حلت محلها بيوتات مالية ضخمة ، في جنوى ، ، نتيجة للحرب التي وقعت بين الملك فيليب الثاني وبين البلاد الواطية وانكلترا ،والاضطرابات التي وقعت في فرنسا وانقطاع المواصلات المحيطية ، وطرق المواصلات الفرنسية ، كما يعود ذلك للموقع الممتاز الذي تحتله جنوى اذ انها واسطة العقد وعقدة المواصلات الكبرى التي تمر بها المعادن الثمينة في طريقها من اسبانيا الى البلاد الواطية عبر ممرات جبال الألب ومجازاتها . فاذا ما سببت حركة ارتفاع الاسعار تأخر بيوتات مالية خاصة ، فقد نشأت مصارف وطنية تباعاً في كل من باليرمو وجنوى (١٥٨٦)وفي البندقية(١٥٨٧)وميلانو وروما (١٥٩٣)وتولت هذه المصارف القيام بعمليات تسليف على المكشوف دون ايداع سندات تغطية موازية لها ، وتستعمل عملات ورق فتضمن للمودِع دفع دراهمه بالعملةذاتها التي دفعها كما تكفل المبالغ المودعة فيها ضد اي هبوط يطرأ على النقد . وهكذا نرى ان المبالغ الضخمة التي استخدمت في القرن السادس عشر جاءت دليلاً يشهد عالياً على ما كان لرأس المال ، اذ ذاك ، من تأثير بيّن .

هنالك عنصر هام نهض بهذه الحركة التجارية يتمثل على أتمه في هذه المعادن الثمينة .



شكل ١ - الواردات الاسبانية من المعادن الثمينة وحركة الاسعار في اسبانيا بين ١٥٠٠ - ١٦٥٠

(عن هاملتون)

المعادن الثمينة وارتفاع الاسعار

اشتدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر حاجة اوروبا الى المعادن الثمينة . فالنقد المتداول ، لم يكن بالقدر الوافي بحيث يشجع الاقدام على المقايضات التجارية ،كما ان ندرة النقد ، من جهة اخرى ، وقفت حائلاً دون الانتاج وتطوره . والرغبة في توفير مقادير اكبر من المعادن الثمينة كانت من هذه الحوافز الشديدة التي ادت الى تحقيق الكشوف الجغرافية في المحيطات الكبرى . وقد امكن توفير بعض هذه المعادن الكريمة عن طريق استثمار مناجم الفضة في اوروبا بعد ان تمّ تجهيز المعدّنين بالمعدات الفنية والعتاد اللازم فادخل على الاستثمار تحسينات ملموسة . وقد كانت هذه الناحية موضوع اهتمام اصحاب المصارف بنوع خاص لما كان لهذا المعدن من قوة شرائية عالية جعلت من عملية استثمار مناجم الفضة عملية رابحة . فقد سدّت الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية بين ١٤٧٠–١٥٤٠ حاجة اوروبا منه. ودخل هذا المعدن الكريم الى البلدان المجاورة للبحر الابيض المتوسط يحل فيها تدريجياً محل الذهب المستورد من السودان لصعوبة الحصول عليه ، وبلغ استثمار مناجم الفضة في المانيا الذروة ، بين ١٥٢٦ – ١٥٣٥ .

ومنذ ان احتلت اسبانيا جزر الانتيل ، اخذ الذهب الاميركي يجري كالنهر ، نحو اسبانيا ويليه معدن الفضة . وازدادت الكميات المستوردة من هذه المعادن الثمينة بعد ان تم فتح المكسيك ، على يد فرناندو كورتيس (١٥١٩ – ١٥٢٢) والبيرو على يد الفاتح بيزار (١٥٣٢ – ١٥٣٥) ، واخيراً بعد ان اكتشفت ، عام ١٥٤٥ ، مناجم الفضة الغنيـة في بوتوزي ، في جبال البيرو،على أثر استعمالهم ، بين ١٥٥٢ – ١٥٥٤ ، الزئبق في استخراج الفضة من مناجمه . واذ ذاك ، اخذ هذه المعدن الثمين يجري كالنهر ، نحو اسبانيا [١] .

فهذه القناطير المقنطرة من المعادن الثمينة ، ما لبثت ان خرجت من اسبانيا بسرعة ، ثمناً لما استوردته من الحبوب والخمور والمعادن والبارود والمدافع ، من فرنسا وايطاليا والبلاد الواطية والمانيا وانكلترا،والمضاربات التي قام بها رجال المال واصحاب المصارف من الالمان والايطاليين فيها ، والعديد من الصناع المهرة الذين توافدوا عليها للعمل فيها ، من فرنسيين والمان وايطاليين، فنشروا هذه المعادن الثمينة ووزعوها في جميع انحاء اوروبا .

فهذه المعادن الثمينة ، سواء منها ما استخرج من مناجم اوروبا الوسطى او ما جاء من اميركا ، تسببت في ارتفاع باهظ للاسعار . ومع ذلك فلم تكن بالسبب الوحيد . فبلاطات

(١) الانتاج العالمي من الفضة والذهب بالكيلو

الفترة	ذهب	فضة
١٤٩٣ – ١٥٢٠	٥٨٠٠	٤٧٠٠٠٠
١٥٢١ – ١٥٤٤	٧٦٦٠	٩٠٠٠٠٠
١٥٤٥ – ١١٥٦	٨٥١٠	٣١١٠٦٠٠

واردات المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا بالبيزوس من عيار ٤٥٠ مارافادس

منذ ١٥٠٣ –	٣٣٧٦٠٠٤٠
» ١٥٢١ – ١٥٤٤ –	١١٠٦٦٠٠٧٣٥
» ١٥٤٥ – ١٥٦٠ –	٢٣٠٣٦٨٠٢٤٠

عن هاملتون

الملوك ، ونفقات الجيوش ، وارتفاع مستوى العيش ، وازدياد عدد السكان ، كل هذه المرافق زادت من الطلب . فاحتكارات التجار ، والحروب التي انفجرت تباعاً في كل من ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطية والمانيا ، والحرب ضد الاتراك ، خففت احياناً من العرض . فالتعويل المتزايد على نظام الاعتماد المالي ، مع انه ضاعف من وسائل الدفع ويسر لها ، لم يبق ، مع ذلك بدون تأثير على حركة ارتفاع الاسعار . الا ان ازدياد كمية المعادن الثمينة في الاسواق بقي السبب الاقوى لهذا الارتفاع. واخذت حركة ارتفاع الاسعار تمتد الى جميع انحاء اوروبا منذ اواخر القرن الخامس عشر. وانطلقت حركة الارتفاع من مقاطعة الاندلس حيث كانت تصل الى اشبيلية الشحنات المتتابعة من اميركا، ومن الاندلس امتدت الى باقي بلدان اوروبا على نسبة ما تتصل باسبانيا .

لم يدرك المعاصرون سر حركة ارتفاع الاسعار هذه ، فراح اعضاء الكورتيس، في اسبانيا ، ينعون عام ١٥٢٥ هدر الثروة بمثلابكية المعجول التي ذبحت، والرسوم الباهظة التي فرضت عام ١٥٣٧ ، على حق استعمال المراعي وعلى تصدير البضائع الى اميركا ، كما نعوا ، عام ١٥٥١ ، المضاربات التي يقوم بها الاجانب في الاراضي الاسبانية . وتخفيفاً من حدة الارتفاع ، اخذت الحكومات والبلديات تفرض الرسوم ، وتحظر التلاعب بالاسعار ، وتصادر البضائع : زجراً للتجار وتأديباً لهم انما بدون نتيجة محسوسة . والظاهر ان الفرنسي جان بودين أدرك وحده الاسباب الكامنة وراء ارتفاع الاسعار، وراح يشرح الاسباب الدافعة الى ذلك ، كل هذا لم يأت بنتيجة حتى اواخر القرن . فقد فاته ان يذكر سبباً آخر لهذا الارتفاع تبينه جيداً بعض موظفي غرفة التجارة ، في باريس ، اذ ذاك ، ولا سيما السيد مالستروا من بينهم . وكان ارتفاع الاسعار يشتد اكثر فاكثر ، بالنسبة لقيمة النقد الفعلية ، التي كان الجمهور يضفيها على العملات المعدة للتحويل . وقد سبب هذا الامر المضاربات على العملات وفقاً لاوزانها وعياراتها في مختلف البلدان وبنسبة الفرق الرسمي بين الذهب والفضة . فقد حمل تجار اجانب معهم الى البلدان التي دخلوها ، عملات اجنبية قيمتها ، وزناً وعياراً ، دون قيمة النقد القوي في البلاد . وكانوا يتقدمون لشراء هذه العملات القوية ويدفعون فيها اسعاراً تزيد على سعرها الرسمي بالتحويل ، ثم يعمدون الى تحويل هذه العملات الى سبائك من الذهب ، اذ كان سعرها اعلى بكثير مما دفعوا ثمناً للعملة الذهبية بالنقد الاجنبي الذي حملوه معهم. وهكذا كانوا يسعّرون العملات العين اعلى من العملات الورق المعدة للتداول والتي كان سعرها الاسمي في نزول مستمر بينما اسعار الحاجيات في ارتفاع دائم . وهنالك طرق ووسائل اخرى يتبعونها لتخفيض اسعار النقد المعد للتحويل ، انما النتيجة النهائية كانت دوماً واحدة هي ارتفاع مستمر بالاسعار نتيجة محتومة لازدياد كميات المعادن الثمينة في الاسواق .

وهذا الارتفاع سبب ارتباكاً للمعاصرين بسبب المشاكل والصعوبات التي أثارها في الدول ، وبسبب هذه الاضطرابات الاجتماعية التي حركها فيها . فقد رأوا فيه شراً لم يكونوا مطمئنين اليه . ومن جهة ثانية ، كان لا بد من ارتفاع وازدياد كمية النقد المتداول لتأمين التبادل التجاري ،

بالتالي لتشجيع الانتاج وتقويته . الا ان الاسعار ارتفعت ، بين ١٥٠١ - ١٦٠١ ، اربعة ضعاف . وقد كتب للقرن العشرين ان يرى ويشهد ما هو أدهى وأشد من هذا بكثير . وقد رتفعت الاسعار ، في اسبانيا ، بين ١٥٠١ - ١٥٢٥ ، خمسين بالمائة ، وبلغ معدل هذا الارتفاع ، بين ١٥٢٥ - ١٥٥٠ حوالي ، ٣٧٪ ، وهي زيادة لم تحصل لعمري ، بسرعة كبيرة جداً حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار ، اقل امكانية عرضت في ذلك العصر لمضاعفة الانتاج . واخيراً وليس آخراً ليس ما يشير قط الى ان هذا الارتفاع بدا مترجرجاً أو متأرجحاً ، وقد كان على الاجمال ، حافزاً اكبر على زيادة الانتاج منه سبباً للاضطراب الاقتصادي ، وذلك طمعاً او استهواء لربح متزايد .

أدى النشاط المتزايد في الاعمال التجارية وحركة المبادلات الى بعث النشاط الاقتصادي في جميع انحاء اوروبا ، كما يظهر من الارقام التي نضعها هنا تحت الانظار . فشحونات الخمور من مرفأ نانت فقط باتجاه مقاطعة بريتانيا وشمالي المملكة الفرنسية ، وانكلترا وايكوسيا ، والولايات المتحدة ، والبلاد الواطية ، ومناطق البلطيق ، واسبانيا والبرتغال احياناً ، بلغ معدلها ١٣٤٧ برميلاً بين ١٤٤٧ - ١٤٤٨ ، وارتفع هذا المعدل الى ١٠،٧٧٨ برميلاً ، بين ١٥٥٦ - ١٥٥٧ ، اي ابان الازمة المالية التي استحكمت حلقاتها اذ ذاك . وقد حافظت حركة التصدير على هذا المعدل لمدة ثلاثة قرون ، مع العلم ان حركة الشحن بلغت الذروة في القرن الثامن عشر اذ ان الكمية التي صدرت عنها اذ ذاك ، بلغت ٤٤٠ ، ١٣٥ برميلاً . وقد استعار هوسر كلمة « البعث الاقتصادي » للتعبير عن النشاط الاقتصادي الذي ميز السنوات الاربعين الاولى من القرن السادس عشر . بعد هذا حان لنا ان نتكلم عن العالم الجديد .

ان اشتداد الطلب ، في كل من اسبانيا والبرتغال على الانتاج الصناعي وعلى المواد الغذائية ، من كل اوروبا ، تلبية منها للطلبات الملحة الواردة من اصقاع ما وراء المحيط ، ساعد كثيراً على تطوير وسائل الانتاج واساليبه ، والتركيز التجاري الصناعي عمت حركته مناطق واسعة . وهنالك بوادر تنم بوضوح على ظهور رأسمالية صناعية حتى في صناعات النسيج ، حيث كانوا يعتمدون بالاكثر على الصنّاع اليدويين ، فيجدون لهم فيها مورد رزق اكثر مما كان يتوفر لهم لو عملوا في المناجم والمطابع ودور النشر . فاذا كنا نجد دوماً في مراكز صناعة النسيج : حلاجين وندّافين ، وحاكة وقصّارين ، ومعلمي كار ، واصحاب ورش لهم عتادهم الفني واعتدتهم يعملون لحسابهم الخاص ، وعدداً اكبر منه بكثير يعملون لحساب كبار التجار ويؤمنون لهم كل وسائل العمل وأدواته الضرورية ، وما يلزمهم من عدة وعتاد ، والباعة المتجولين الذين يعملون على تنفيق الانتاج ، نرى ، من جهة ثانية ، ترتفع في طول البلاد وعرضها ، اكثر فاكثر ، معامل ومصانع لنسج الاصواف والاجواخ . ينشؤونها في منازلهم وبيوت سكناهم بعد ان يجهّزوا بكل ما تحتاج اليه صناعة النسيج من أدوات ، ويستخدم فيها ٨ او ١٠ ، او ١٨ حتى و ١٩ نولاً لكل نول فريقه الخاص من العمال ، حتى انهم كانوا يستأجرون ، تأميناً للعمل ليل نهار ، عمالاً ، اضافيين . وبعض اصحاب هؤلاء المصانع ، حولوا منازلهم الى معامل « تموج بالناس وتعج بالحركة » كما جاء في احدى الوثائق البلدية ، اذ كنا نرى الندّافين والحلاجين يمشطون الصوف في

غرف المنزل وحجراته ، ويركب النساجون مغازلهم وانوالهم في مستودعـــات المونة ، وترى الحاكة والغازلات في كل الغرف ، يعملون على مقربة من غرفة نوم ربة المنزل ، الى جانب العمال يقضون لياليهم في المنزل . حركة موصولة من عمال يغدون ويروحون ، صبحاً وأصيـــلاً ، من قصّارين ودباغين وصباغين،أنهوا أو في سبيل الانتهاء من اعمال أو اشغال ُعهد بها اليهم في بيوتهم أو يعيدون ما انتهوا من انجازه ليستلموا غيره من الاعمال .

والمدن تتضخم وتكبر وتتسع اكثر فاكثر ، وتلحف في طلب المواد الغذائية والخامات التي تحتاج اليها من الريف ، مما سبب انقلاباً في نشاط الفلاحين والمزارعين وسكان الريف ، حتى في هذه المناطق المعزولة حيث تخف الحركة وتتعثر المواصلات ان لم تمتنع . وحري بالملاحظة هنا ما نشاهده مثلاً ، في بعض انحاء ولاية بواتو من تربة كتيم تكثر فيها الغياض والمستنقعات . فقد كانت الارض القابلة للزراعة ، في اواخر القرن الخامس عشر ، موزعة الى قطع صغيرة ، يعزقها الفلاحون بايديهم ، أو يكثريها مرابعون ، نالوا حق استثمار الارض والانتفاع بثمارها ، بينما تبقى ملكية الارض لصاحبها الذي يبقى له عليها حق فرض الرسوم واستيفاء بعض المداخيل والغلال وتأمين بعض الخدمات الاخرى ، وهو وضع ، لم يكن بالطبع ، ليؤمن لسيد الارض ، مردوداً يذكر . ولذا راح اسياد الارض يحاولون شراء هذه القطع الصغيرة الملاصقة أو المجاورة لاراضيهم فيجعلون منها وحدات ضخمة تصلح للاستثمار على نطاق اوسع، تؤلف في مجموعها مزارع تتراوح مساحة الواحدة منها بين ٤٥ – ٥٠ هكتاراً ، لم َتعُد تعزق أو تحرق تربتها باليد ، كما كانت من قبل ، بل بالمحراث وافدنة من البقر . وقد جهزت كل مزرعة من هذه المزارع باربعـة أو خمسة فدادين كما جهزت باربعة الى ستة محاريث، وكان بوسع صاحب المزرعة ان يعنى بتربيـــة الابقار الحلوب والغنم ، وبذلك تتوفر للمزرعة، اكثر فاكثر ، امكانات اكبر للاستثمار، وتسميد الارض ، وانتاج اوفر ، ولم يعد بحاجة الى اكثر من ٨ – ١٠ اشخاص لتأمين الاعمال ، يؤلفون عادة ، اسرة المزارع ، بينما كان يعمل في هذه القطع قبل توحيدهـــا من ٧ – ١٠ اسر يتراوح عدد افرادها بين ٣٠ – ٣٥ شخصاً . وهكذا استطاعت الارض ان تعطي غـــلة اوفر ، بلغ معدلها احياناً ٩ قناطير من الحبوب في الهكتار الواحد ، وصار في امكان المزارع ان يبيع في السنة ، زوجاً من البقر المسمنة وزوجاً من الثيران الصغيرة وزوجاً من العجول ودزينة مـــن رؤوس الغنم . كذلك صار باستطاعته ان يورد الى القرى والمدن المجاورة محصول مزرعته من الصوف الضروري في حياكة الاصواف والاجواخ التي تصدّر للخارج . وهكذا رأينا ان حياة المزرعة ونشاطها يتوقفان ، الى حد بعيد ، على الطلبات التي تنهال عليها من القرى والمدن التي تحرص الحرص كله على تلبية العروض المغرية التي تردها من الخارج وتلبي بالتالي، مطلب التجارة الدولية . وهكذا نرى ان تطور طرق استثمار الارض ، وتغيير مظهر الريف ، بتوفير المراعي الخضراء للماشية ، واقامة مـــا تحتاج اليه السائمة من ِصيَر وسياجات وزرائب ومغروسات وحدائق وغير ذلك مما يضفي على الارض حلة سندسية، كل هذا اقتضى بالطبع رأسمالاً كبيراً

لتأمين نفقاته والنهوض به . وقد تمت هذه التغييرات على يـــد اسياد الارض ، والاشراف والبورجوازيين والتجار بفضل حركة تسليف زراعي ناشطة ، استندت الى رأس مـال كبير اقتضاه القيام باعمال واشغال متنوعة : من توسيع المزارع وتجهيزها ، وصيانة المباني الموضوعة تحت تصرف الشركاء والمرابعين العاملين في استثمار الارض ، والمخازن ، ونقب الارض وعزقهـا واحيائها وتقديم البزار ، واحيـــاناً توفير نصف ثمن حيوانات الجر. وهكذا تمكن المزارع من تأمين غلة اوفر ، من هذه الاستثمارات التي اخذ يقوم بها بفنية وتقنية اكبر . فبين العقد الاخير من القرن الخامس عشر (١٤٩٠ – ١٥٠٠) وبين العقد الرابع من القرن السادس عشر (١٥٣٠ – ١٥٤٠) أطلت علينا في خطوطها الكبرى ، هذه المساحات الشاسعة الواقعة وراء المحيط ، في العالم الجديد ، التي اصبحت مجالاً واسعاً لحركة تجارية عارمة،واسواقاً تجارية جديدةلتصريف منتوجات جديدة ، وبقيت هذه الاوضاع التي اطلت علينا ، هي هي تقريبـــاً ، في خطوطها الرئيسية ، حتى منتصف القرن الثامن عشر . كذلك اطل علينا ، في المجال الاقتصـادي ، في اقل من ٥٠ سنة ، ولا سيا في الثلث الاول من القرن الـسادس عشر ، عالم جديد احتـــل محله البارز في النشاط البشري .

فلننظر الآن ما عسى ان تكون عليه الخصائص المميزة لهذا الوضع العام .

ازدهار حركة الاعمال التجارية الضخمة

سجل النظام الرأسمالي تطوراً عظيماً اثر بروز التجارة البعيدة المدى. ان انشاء البلاطات الملكية وما كان لها من أثر بالغ في اشاعة البـذخ والترف في مختلف طبقات المجتمع، وقيام هذه الجيوش الضخمة من المرتزقة ، ونمو المدن الكبرى السريع ، وازدياد السكان ، وتوفر الغنى والثروة في جميع انحاء اوروبا ، وكلها عوامل انفعلت وتفاعلت بعضها ببعض بحيث اصبحت معاً ، اسباباً ومسببات ، كل هذا وما اليه ، زاد كثيراً ليس من معدل استهلاك المواد النادرة الغالية الثمن فحسب ، بل ايضاً المواد العادية اللازمـــة للاستهلاك اليومي . وقد دخل في التداول التجاري الدولي عدد كبير من المحاصيل والمنتوجات كما اصبحت هذه الغلال والمحاصيل مجالاً جديداً لتشغيل واستثمار مبالغ طائلةمن الاموالالدولية، منها مثلاً : الحرير والمصنوعات الفنية الايطالية الصنع ، واصواف البـــلدان الواطية ، وفرنسا وانكلترا،والمصنوعات المعدنية واعمال التعدين في المانيا ، وصنوف الخمور والكحول في فرنسا، والحبوب والكتان والقنّب،وخشب البناء ، والماشية في البلدان المحيطـــة بالبحر البلطيقي ، وروسيا وهنغاريا . واصبحت هذه المواد المجال الاكبر والحقل الاوسع الذي تجلت فيه التجارة بالجملة منذ ان انفتحت أمامها طرق المواصلات المحيطية الكبرى التي تفضي بسالكيهـا الى آسيا واميركا .

ورأت اوروبا نفسها بحاجة الى عدد كبير من المحاصيل الآسيوية منها ، في الدرجـة الاولى ، التوابل والافاويه التي دخلت انواع كثيرة منها ، في صناعة الاقرباذين وتركيب العلاجـات ،

أو كانت تستهلك، بمقادير طائلة في المطبخ ، وفي وقت وظروف كانت فيهـــا النباتات العلفية والمراعي الاصطناعية ، تضطر الاهلين ، في اواخر فصل الخريف ، الى ذبـــح جانب كبير من الماشية يحفظون لحومها ، لفصل الشتاء البارد ، بين سافين من الملح ، كما كان يقتضي حفظهـــا واستهلاكها مقادير طائلة من التوابل ، في وقت لم تكن توفرت له بعد ، مثل هذه القائمة الطويلة من الخمور والمشروبات المشهّية التي يحفل بها عصرنا اليوم ، فتطلعت فيه الاذواق الى مُقبّلات ومشهيات جديدة . فالفلفل الاسود الذي تغلّه سواحـــل الملابار في الهند وجزيرة سرنديب (فيُستخدَم تابلاً او لبْخةً أو لصوقاً أو لعوقاً)، وزنجبيل الهند او الجزيرة العربية ، وجوز الطيب من جزر موليـــك (الصنع المرق المقبّل وتطبيب اوجاع وامراض المعدة) ، والقرفة من الصين او من جزيرة سرنديب(علاج مقوّ ،او مقبل أو قابض)، وكبش القرنفل(لتعطير الاطعمة وتطرية المشروبات الروحية) كل هذه المواد ، اشتد الطلب عليها بعد ان سعى اليها القوم باحثين عنها . ونزلت منزلة التوابل ، هذه الملطّفات والمسهلات التي طالما جيء على ذكرها ووصفها في طريقة معالجة جالينوس الطبية : أُهليلج الهند ، وراوند الصين او الهند ، وسقمونيا او المحمودة من سوريا ، وطارد الديدان المستورد من بلاد اليهودية او من بلاد فارس ، واصناف كثيرة مـــن الاعاشيب والحشائش ذات مفاعيل وخصائص مختلفة ،كالكافور من صومطرة والصين (يستعمل منشطاً او ضد التشنج) وجوز العفص من الصين ، (قابض) ، وشلش غالنغا المستورد مـــن الصين (ضد حفر الاسنان) والافيون من وادي النطرون ، وصمغ الكثيراء لسد الحبوب ، وتوتياء الهند والصين (للاثمد والكحل ، والقطرة) ، وسكر سوريا أو مصر او الهنـــد ، والى قائمة التوابل ، يجب ان نضيف الاصباغ الضرورية لصباغ الانسجة والملبوسات.: كالأحمر القـاني والقرمز من أرمينيا ، والفوّة من جزيرة العرب ، والخشب من البرازيل او من الهنـــد ، والازرق والنيل من بغداد او من البنغال، والاصفر كالصعفران من الشرق الادنى أو من الهند ، والحنّاء من الجزيرة العربية ، والعطور والطيوب ، كالمسك من التيبت او من الصين ، والعنبر الاسمر من عُمّان ، والناردين من الهند ، والنباتات النسيجية ذات الالياف، كالقطن من مصر ، والحرير من العجم والعراق وسوريا ، والاقمشة والمصنوعات الزجاجيـــة ، والاسلحة السورية ، والياقوت الاحمر من الخليج الفارسي ،والماس من الهند، (النوع المعروف اذ ذاك من انواع الماس) والياقوت والجذْع من سرنديب ، وغير ذلك .

كانت هذا الاصناف والمواد تصل الى اوروبا عن طريق بلدان البحر الابيض المتوسط . الا ان الفتوحات العثمانية لم تعد تترك للتجار الغربيين القادمين من البندقية ، او من جنوى او مـــن مقاطعتي البروفانس واللانغدوق ان يتسوقوا هذه المواد الا من مرفـأي بيروت والاسكندرية حيث كانت تصل الافاويه قادمة من الخليج الفارسي والبحر الاحمر . اما المواد والاصناف التي كانت تصل من الموانىء الواقعة الى الشمال من البحر الابيض المتوسط ، قادمة من آسيا ، فكانت تنقل براً لتبلغ مدينة ليون والبلاد الواطية ، او تمر عبر جبال الالب لينتهي بهـــا المطاف الى

المدن الالمانية ، الجنوبية ، مثل : اوغسبورج ونورمبرغ اللتان ازدهرتا بفضل هذه التجارة ، ومنها تصل الى البلاد الواطية ومدينة بروج حتى مدن الهانس ولا سيما ستاتين ولوبيك، وكانت سفن البندقية تحمل جانباً من هذه المواد الى المدن الشمالية ولا سيما الى مدينة بروج . ومن هذه المراكز التجارية واسواقها كانت توزع فتبلغ جميع انحاء اوروبا . وبالمقابل ، كان التجار الالمان وتجار بلدان البحر الابيض المتوسط ينقلون معهم كميات كبيرة من النقود والعملات والمعادن والمصنوعات ، كالاجواخ الخفيفة المصنوعة في انكلترا ، والاصواف والسجاد واقمشة بلاد الفلاندر ، والنحاس والفضة من اوروبا الوسطى .

احدثت الاكتشافات الجغرافية الكبرى انقلاباً عظيماً . فقد استطاع البحّار البرتغالي فاسكوده غاما ، بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح في جنوبي افريقيا،عام ١٤٩٨،ان يصل الى مدينة كلكوت في الهند . واستطاع البرتغاليون ان يسيطروا تماماً على تجارة التوابل في المحيط الهندي وان يضربوا حول التعامل بها ونقلها الى اوروبا شبه احتكار ، لا ينازعهم فيه منازع . وفي سنة ١٥٠٤ ، اضطرت سفن البندقية ان تعود خاوية الوفاض من مرافىء بيروت والاسكندرية . وقد اصبحت لشبونة ، السوق الاكبر والأهم لتجارة الافاويه . وفي سنة ١٤٩٢ تم لخريستوف كولمبوس بلوغ جزر البحر الكرايبي والنزول في هذه الجزيرة التي سماها « اسبانيولا » ، وراح الاسبانيون ، من بعده ، يستكملون عمليات الاستكشاف والفتح ،فعثروا على قناطير من الذهب والفضة ، واضطروا الى تموين مستعمراتهم الجديدة بما يحتاج اليه الاهلون فيها من وسائل الغذاء والكساء . ومنذ ذلك الحين اصبحت اشبيلية المرفأ الاساسي لتمتين الصلات وشد اواصر الاتصالات بين اسبانيا والعالم الجديد . وهكذا انفتح امام التجارة العالمية مجال جديد وحلبة جديدة ، هما مجال وحلبة المحيط ، الذي حل محل البحر الابيض المتوسط ، بعد ان بقي الوفاً من السنين ، المحور الاساسي للتجارة العالمية في التاريخ القديم .

الا انه لم يكن للبرتغاليين من وسائل النقل ما يسمح لهم بنشر التوابل في اوروبا ، ولا كانت لهم القدرة او الطاقة لتجهيز عمارات السفن اللازمة للنهوض بهذا النشاط ، ولا لتأمين حاجة البلدان الاسيوية من البضائع التي كانوا يرغبون فيها ولا التعويض على السودان لقاء مسحوق الذهب ، كانوا ينقلونه الى بلدان آسيا .

اما الاسبان ، فقد توفرت لهم ، بعكس البرتغاليين ، صناعات ناهضة من الاجواخ والحرائر والاسلحة ، ولكن لم تكن من الوفرة وسعة الانتاج بحيث تفي بحاجة البلدان الجديدة التي يشرفون عليها . ولذا توافد عدد من التجار قدموا من البلاد الواطية والمانيا وفرنسا لشراء محاصيل آسيا واميركا من اسواق اشبيلية ولشبونة التي زخرت بها، وذلك لقاء مايحملونه معهم من انسجة القلوع ومصنوعات النحاس ، والقنابل والمدافع والخرضاوات ، والقمح والسمك والخمور والنحاس ، وغير ذلك من المواد الضرورية . وقد تحولت مدينتا اوغسبورج ونورمبرغ عن البندقية ووجهتا نشاطهما التجاري شطر المحيط الاطلسي مما زادهما ثراء وازدهاراً . الا ان

المركز الرئيسي للتجارة الاوروبية تمثل في مدينة أنفرس على مصب نهر الاسكو، وهي النقطة التي انتهت اليها مجاري نهري الرين والموز، مستشرفة بحار الشمال الضيقة، والتي اغدق عليها الامبراطور مكسيمليان، عام ١٤٨٨، لاسباب سياسية لا محل لذكرها هنا، الامتيازات والاعفاءات الملكية، التي تمتعت بها مدينة بروج، من قبل. ولم يلبث ان نقل البرتغاليون والاسبانيون والالمان والايطاليون والانكليز وكالاتهم التجارية الى انفرس التي اصبحت، بالفعل، بندر اوروبا الاكبر، كما اصبحت مع منافستها مدينة ليون في الجنوب، اكبر مركز مالي في اوروبا جمعاء.

وهكذا رأت القواعد الايطالية للتجارة ومحاورها الكبرى نفسها من يبزها نشاطاً ويتجاوزها حركة، دون ان يلمّ بها بالفعل اي وهن او ان تسجل اي هبوط. فقد عرفت حركة الانتاج والمبادلات التجارية في المدن الايطالية الكبرى ان تحافظ على مستواها من حيث الكم والنوع أو من حيث الحجم والقيمة، وذلك بعد ان ضربت نوعاً من الاحتكار على التوابل الموجودة في اسواق لشبونة لتبقى اسعارها مرتفعة. واستطاعت البندقية ان تبعث النشاط من جديد في حركة الاعمال والتجارة، اذ تمكنت من استيراد الافاويه عن الطرق القديمة المألوفة، وبأرباح منشّطة، بالرغم من الوسطاء العديدين الذين عولت عليهم واعتمدتهم في عمليات الشراء والتنفيق والترويج، مما ادّى الى رفع الرسوم والتكاليف، فالفلفل الذي استوردته رأساً لم يكن له من الجودة ما للجنس الممتاز الذي توفر في اسواق البرتغاليين، ومع ذلك فقد راجت تجارته في الاسواق. ومن جهة ثانية، عَرَف البنادقة والفلورنتيون والجنويون والميلانيون ان يفيدوا كثيراً مما تم لهم من قبل، من خبرة وتجربة عريضتين من تقاليدهم المرعية. ومن سبقهم التقني والفني، فاتجهوا بالاكثر، الى الاعمال المصرفية وصناعة ادوات الترفيه، والبذخ، ولا سيما صناعة الحرائر منها التي لم يكن بد منها لمن ينخرط في حياة البلاط او يعيش بصحبة الملوك وبرفقة الامراء، كما تاقت نفوسهم وشرهت الى صنائع المرمر واللوحات الفنية والرسوم الجميلة باقلام كبار رجال الفن والنقوش الجدارية التي تحلي قصورهم وصروحهم. فعرفت ايطاليا، بذلك ان تحافظ على ازدهارها وان قام في الغرب من بزّها وتقدمها في مجالي رأس المال والتجارة الدولية.

وهذه الحركة التجارية التي استشرت على نطاق واسع بعد ان قامت اركانها على نظام رأسمالي ضخم، عرفت ان تتغلغل عن طريق عدد كبير من التجار المغامرين، فسرت سريان النار في الهشيم حتى بلغت هذه المجتمعات الريفية التي تعمل في الزراعة، وراح الفلاح الثري يرتدي، ايام الآحاد والاعياد، الثياب الفنية التي يرتديها ابناء المدينة، فنشطت الحركة الانتاجية وحركة الاشغال والاعمال. الا ان الاقتصاد بقي على طابعه الخاص المدني الاقليمي. واخذت مدن كبيرة باسباب النمو والتطور والتوسع على حساب مدن اقل شأناً منها، تقع في جوارها. هنالك العديد من المدن كالبندقية، وفلورنسا، وانفرس وباريس، وليون

ولندن ، ونورمبرج واوغسبورج ، ولوبيك ، زاد عدد سكانها فتراوح بين ٤٠ ــ ٥٠ الفاً حتى بلغ في بعضها مائة الف . وقد كانت هذه المدن محوراً لصناعات عديدة كما كانت مراكز هامة للاستهلاك المحلي والمواصلات والتوزيع ، اقتضاها الكثير من الحركة كما احتاجت لمقادير هائلة من المواد الغذائية والخامات عرفت ان تؤمنها في المنطقة او الاقليم نفسه . وهنالك بعض الاصناف اللازمة لمن يحيون حياة الترف والبذخ ، وغيرها من المواد الضرورية ، كالشب مثلا الذي لا بد منه لصباغ الاجواخ ولدباغة الجلود ، ولابراز الالوان الزاهية ، وغير ذلك من هذه المواد التي تشتد اليها الحاجة بصورة استثنائية ، كما لو حدثت مجاعة مثلا او وقع جفاف في الامطار اهلك الزرع والضرع ، وكلها مواد وخامات كان يعوّل في استيرادها ، على الاسواق الدوليـــة او الاسواق الاقليمية . وأخذت هذه الدول الكبرى التي برزت حتى الآن واستكملت فيهـــا عناصر السيادة والاستقلال كفرنسا واسبانيا وانكلترا ، تنزع في الصميم ، الى تكوين ممالك ، لها أطرُها الاقتصادية الثابتة . ولكننا امام نزعة لا غير . أما الوحدة الاقتصادية المستكملة العدة المتينة الاركان ، فهي المدينة الكبرى : حواضر البلاد الرئيسية وقواعدها المحورية . فالمملكة ليست بعد سوى عدد من الولايات والمدن المتواضعة ، تحلم بان يتمّ لها يوماً استقلال اقتصادي محكم الحلقات ، متراصّ المرافق .

الرأسمالية والملكية المطلقـــة

لا بد من التنويه عالياً هنا بأهمية العرى الوثيقة التي شدّت ما بين كبار رجال المال ، اذ ذاك ، والملكيات المطلقة ذات الحكم المستبد . ان تأمين أوَد الجيوش المرتزقة ومقتضيات العيش الكريم الرفيه في البلاطات الملكية والأميرية ولكبار القادة والموظفين ، حمل الملوك على فرض ضرائب ورسوم جديدة لتأمين ما يلزمهم من الموظفين الاكفاء . ومن جهة ثانية فالمشاريع والانشاءات الدولية ، كثيراً ما اقتضى تحقيقها المفاجيء ، مبالغ طائلة لم يكن بمقدور الضرائب تغطيتها أو مواجهتها الا ببطء كلي . ولذا زاح الملوك يعتمدون ، لتوفير ما هم بحاجة ماسة لتوفيره من نقد ، على كبار رجال المال الذين يقومون بالاعمال المصرفية وعمليات التسليف على نطاق واسع ، فيلزّمونهم جباية الضرائب ، ويعقدون معهم قروضاً ويدفعون لهم بالمقابل فوائد باهظة ، متنازلين لهم عـــن حق استثمار الاملاك الملكية الخاصة ، ولا سيما المناجم ، ويحمونهم من القوانين الكنسية ومـــن انتفاضات الرأي العام الذي كان يأبى التسليم او القبول بمبدأ الدّين بفائدة ، مهما كانت طفيفة ، او الانخراط في المضاربات المالية .

ولعل الدور الكبير في هذا المجال هو الدور الذي لعبه كبار رجال المال من الايطاليين ، في فلورنسا وجنوى ، ومن الالمان في مدينتي اوغسبورج ونورمبرغ . ومـــن هؤلاء المتمولين الكبار ، اعضاء اسرة فوجر ، في اوغسبورج ، الذين صار اسمهم مرادفاً للربا الفاحش ، ولذا نحت الناس كلمة « *Fuggerei* » يعبّرون فيها عن المرابين ، وكان يضرب بهم المثل في جميع انحاء اوروبا . فبعد ان أثرُوا من الاتجار بالحرير والتوابل والاصواف عن طريق البندقيـــة ،

ربطوا مصيرهم بمجد اسرة هبسبورج الامبراطورية وبمصيرها . وبفضل السلفات المالية التي قدموها للامبراطور مكسيمليان ، للنهوض بحروب ايطاليا ، بين ١٥٠٨ – ١٥١٧، ومصاهرة الاسرة المالكة في هنغاريا ، عام ١٥١٥ ، وبفضل نفوذهم العريض ، أمّنوا انتخاب شارل الخامس امبراطوراً ، عام ١٥١٩ ، ضد خصمه فرنسوا الاول ، وتحملوا نفقات الحرب التي خاضها ضد فرنسا ، وحرب سمالكالد ضد البروتستانت ، سنة ١٥٤٦ ، ومحاصرة مدينة متز ، عام ١٥٥٢ ، كذلك عضدت اسرة فوجر ، الكرسي الرسولي مالياً ، فسلفته مبالغ طائلة ، فعهد بالمقابل ، الى اعضائها ، بجباية الرسوم البابوية ، في كل من هنغاريا،وبولونيا ، والمانيا والبلاد الواطية . كذلك عهد اليهم ببيع « الغفرانات » في ألمانيا .

مقابل خدماتهم المالية المتنوعة هذه ، عهد اليهم الامبراطور مكسيمليان باستثمار مناجم الفضة والنحاس التابعة له ، كما انهم استثمروا ، باسمه ، ملاحات التيرول . كذلك ، امّن لهم شارل الخامس مرافق مهمة في املاك التاج في نابولي والبلاد الواطية وعهد اليهم ، بجباية ريع املاك التاج ، في اسبانيا ، وعهد اليهم باستثمار معادن الزئبق في مدينة « المادن » ، ومناجم الفضة في وادي القنال . وخوّلهم حق انشاء اتحادات تجارية من متمولين : المان وايطاليين ، وان يحتكروا باسمهم تجارة البهارات والنحاس والفضة في انفرس ، وان يبيعوا من الملوك والامراء ، باثمان مرتفعة جداً ، ما كانوا بحاجة اليه من المعادن الضرورية لسك عملاتهم ولتجهيزاتهم الحربية .

وقد سلمهم الامبراطوران المذكوران « فرمانات ملكية » ، ترفع عنهم كل مسؤولية عندما يعقدون،بصورة غير شرعية او غير قانونية،العقود التي تخوّلهم حق اقامة الاحتكارات. وكان في مقدورهم ان يبطلوا مفعول الملاحقات القضائية التي يستهدفون لها ، ويقترحون هم انفسهم اصدار القوانين التي يرغبون فيها كالقانون الذي صدر عام ١٥٢٥ (في مدريد وتوليدو) مثلاً ، هذا القانون الذي يترك بالفعل ، لهؤلاء المتمولين الكبار ، كل حرية في المضاربات التي يقومون بها .

فهل من عجب ، بعد هذا،ان يتمتع ، آل فوجر بنفوذ سياسي عظيم ؟ فهم يطلعون اطلاعاً وثيقاً على الوضع السياسي في اوروبا عامة ، بفضل ما كان لهم من عيون وارصاد مبثوثة ، ورسل ومفوضون ومعتمدون واصدقاء ومحاسيب ، بين طبقة النبلاء ، يغرقونهم بالهدايا والأعطيات من كل نوع ولون : من خواتم ذهب ، وحلى ومجوهرات،وعقود ، والاقمشة المزركشة الفاخرة كالديباج . فهم وراء كل المغامرات التي قام بها آل هبسبورج .

اما ملوك فرنسا ، فكنا نرى الى جانبهم ، جملةً من كبار رجال المال الايطاليين يقيمون في ليون ، ولهم وكالات وفروع في باريس ويمثلون معتمدون لدى البلاط الملكي في فرنسا ، امثال : ساولي ، وغواداني ، وألبيزي وسلفياتي ، وسواهم من كبار المتمولين الالمان في

نورمبرغ ، امثال هانز كليبرجر الذي طالما عمل وسيطاً بين الرأس المال الالماني في نورمبرغ ، وبين الملك فرنسوا الاول ، فلعبوا جميعاً الدور ذاته الذي لعبه آل فوجـــر ، لدى الاباطرة الالمان .

وهذا النشاط يجيش في صدر ارباب المال ممن ذكرنا، وكان من شأنه ان يدرّ عليهم بالطبع ، ارباحاً طائلة ، تقصر عن تأمين مثلها او بعضها ، الاعمال والنشاطات التجارية البحتة . ابتدأ آل فوجر ، عام ١٥٢٧ ، برأس مال قدره ٩٩١ ، ١٩٦ فلورين ، فاستطاعوا في مدة ١٧ سنة ان يجعلوا رأس مالهم ٤١١ ، ٨٢٤ فلورين ، اي انه زاد بنسبة ٥٤٫٥ ٪ في السنة الواحدة ، بينما لم يستطع منافسوهم من آل فيلزر الذي انصرفوا ، هم ، بالاحرى للتجارة وامتنعوا عـــن القيام بعمليات التسليف ، ان يؤمنوا ربحاً غير ٩٫٥ ٪ في السنة .

وهكذا نرى ان الملكية المطلقة ورأس المال هما عون للواحد مع الآخر . فالملكية المطلقة ، بما لها من ممتلكات طائلة خاصة ، وبما تفرضه من رسوم على الزراعة وبما تقيمه من احتكارات تجارية واسعة ، أصبحت وكأنها ورشة رأسمالية ، الفنيون فيها والمساهمون والمتعهدون هم رجال المال أنفسهم .

الدفع الديموغرافي او السكاني

هنالك عنصر هام أو عامل كبير كان له ، ولا شك ، تأثير ظاهر على النظام الرأسمالي واستفحل شأنه ، هو ازدياد عـدد السكان في اوروبا ، وهو نمو كان من بعض نتائجه العميقة توفير اليد العامـــلة اللازمة للنهوض بالمشروعات الجديدة والعمل في ما يؤمن أود عدد اكبر من المستهلكين . وهذا النمو في عدد السكان كان من نتائجه ايضاً تضخيم الاسواق وتنشيط الاعمال التجارية ، كما نشهد ذلك واضحاً في البلدان المحيقة بالبحر الابيض المتوسط في اواخر القرن ، اذ أدى توالي سوء المواسم الزراعية ونمو السكان في المدن ، الى توافد قوافل من تجـــار الانكليز والهولنديين ، حاملين معهم قمح البلطيق ، والاستعداد لتقوية الروابط التجارية مع الاصقاع الشمالية .

اما النتيجة المعكسية التي تنط للعين فهي عجز المواد الغذائية عن الوفاء بحاجـة السكان فينشأ عن هذا التقصير مجاعات دورية تروح ضحيتها مناطق برمتها بمن فيها من سكان وبما فيهـا من زرع وضرع . فالمجاعة التي نشبت عام ١٥٢١ ، زرعت الرعب والهول بـين سكان المدن والارياف ، في قشتيلية والبرتغال . فالجفاف ثم القحط المخيف الذي وقع عـــام ١٥٢٥ ، سمّر الهلع في قلوب الناس في كل أرجاء الاندلس ، والمجاعة التي نزلت بايطاليـا ، عام ١٥٨٣ ، حصد فيها منجل الموت الناس حصداً .

وهذه المجاعات الفاشمة ، كثيراً ما حملت في طياتها الاوبئة على انواعهـا ، وجرّت وراءها وافدة الطاعون الذي يجرف الناس جرفاً بالعشرات والمئات ، فيذهب بربع سكان المدينة أو

بثلثهم احياناً . فقد فقدت مدينة راغوز ، في سنة واحدة ٢٠،٠٠٠ نسمة ، وفقدت البندقية ما بين ١٥٧٥ – ١٥٧٧ ، اكثر من خمسين الفاً .

وهذه الشوارع والممرات التي افترشها موات الناس في المدن ، وهـذه الجثث الملقاة على جوانب الطرقات باعداد لا تحصى وبكميات هائلة، كان دفنها وموارانها الثرى يكوّن مشكلة حادّة، وهذه العربات تتكدس فوقها رمم الموتى يفحّ منها النتن والفساد ، زرعت في القلوب الهلع والفزع ، فاضطربت الخواطر وقلقت القلوب . ألم يبلغ مسامع الجميع ان ثمانية اعشار سكان مدينة روما ونابولي حصدهم منجل الموت حصداً ، عام ١٥٢٥ وان مدينة مرسيليا لم تَعدُ تَعدُ، عام ١٥٨١، سوى خمسة آلاف نسمة لاغير ؟ وهل بعد هذا وجـه للاستغراب ، اذا ما راح الجار يقتل جاره ، انتزاعاً منه لرغيف يلتهمه ، يسد هو به رمق الحياة ؟

في كل مكان وزمان ، كان فجّاج الآفاق يجوبون البلاد يسرحون ويمرحون حاتمـين، منهم من ينقطع للعبث والعيث والصخب ، بينهم : المستعطي والنشال ، وساري الليل ، والمتصيد والمغامر ، وقاطع الطريق ، والهائم على وجهه لا يلوي الا على مهابط الرذيلة ، فيزرعون الهول في قلب المدينة التي كانت تقوم عبثاً، من حين الى آخر ، بعملية تنظيف وتطهير، تجتثّ، منهـا بالطرد والنفي ، والاجلاء والابعاد والسجن ، هـذه الهوام البشرية التي لن تعتم فتعود الى ما شبت عليه ورسخت عليه من غل الطباع وفاسده . اما الاماكن المعزولة في الجبـال ، أو في مناطق الحدود ، فكانت مسرحاً لعصابات من شذاذ الآفاق واهل الخطف والسطو ، فتنهب ما طاب لها من اطيب الغلال ونتاج الارض ، وتقطع الطريق على السابلة ، وتقتل المسافرين الذين قدر لهم حظهم العاثر ، ان يقعوا بين ايديهم ، أو انهم ينتهكون حرمة المعـابد والكنائس فيدنسوها بموبقاتهم ، او يهاجمون القصور والصروح ، ويغزون القرى الآمنة والدساكر الهادئة والمدن المغرية ، يشجعهم احياناً في ايطاليا واسبانيا ، نصراء لهم من علية القوم وبعض السراة .

ولعله من حسن الطالع واليُمن معاً ان نشهد تجديداً مستمراً بين السكان وحركة تبادل لا تنقطع بين قوم قابعين مستقرين واقوام قادمين .

شركات ودور البورصة

لم يكن رأس المال اذ ذاك ، يتخصص بمشاريع معينة ، محددة . فهـذا المتمول يتعاطى هو نفسه التجارة او اي شكل او لون من اشكال الحركة التجارية والصناعية واعمال الصرافة . فالتاجر الحق هو من قام بشيء من النشاط في هذا كله .

نجد قبل كل شيء شركات عائلية ، اي قائمة ضمن افراد الاسرة الواحدة ، اذ ينهض احـد افرادها المعروف بنشاطه ، كالاب او العم مثلا ، ويؤلف رأس مال يشترك جميع افراد الاسرة بتقديمه . ويتولى ادارة الشركة ويفتح لها فروعـاً ووكالات في اماكن عدة ، في اوروبا يعهد بنشاطاتها للابناء او لافراد الاسرة كممثلين وعملاء ، على مثل هـذا النهج سارت الشركات

الالمانية ، من آل فوجر وآل ولزر ، والشركات الايطالية ، من آل أفيتاتي وغويتشياردني ، والشركات الاسبانية من آل بيريس وآل لوبيز . ولما كان يعقوب فوجر لم يعقب فقد أشرك معه أولاد اخوته : ايرونميوس واولريخ وريمون وانطون ، وعملت الشركة بالعنوان التجاري : « يعقوب فوجر وابناء اخوته » (١٤٧٣ - ١٥٢٥) . وعندما جاءت منيته أوصى بأن يخلفه في ادارة الشركة ، اصغر ابناء اخيه انطون . وقد اشرك انطون تباعاً معه ابناء اخوته واشقائه :هوس ويعقوب،وجورج ،وخريستوف وريمون. الى ان وافاه الأجل المحتوم عام ١٥٦٠ .

وتكاثرت الشركات من نوع شركة توصية *Commandite* وهي شركة تجارية برئاسة تاجر يستودعها بعض الافراد قسماً من رأسمالهم شريطة ان يتقاسموا الارباح فيما بينهم كل بحسب سهمه.

وهنالك شركات مساهمة : *Compagnie* تحمل اسم تاجر معين ، مضاف اليه : « وشركاه » . وهي عبارة عن جمعية او شركة من التجار ، ترمي الى الحصول على احتكار صنف معين كالشركة التي تألفت من البيوتات التجارية الكبرى ، في اوغسبورج عام ١٤٩٨ ، بحيث تحتكر الاتجار بالنحاس (في البندقية) او كالشركة التي تشكلت من ايطاليين والمان ، في لشبونة لاحتكار تجارة التوابل ، او شركة من هذه الشركات التي تتجر بمادة دقيقة،خطرة، منها مثلا الشركة الانكليزية ،المعروفة بـ « التجار المغامرون » او « الشركة الشرقية » (١٥٧٩) او « الشركة التركية » (١٥٨١) » او « التجار المسكوب » . وهذا النوع الاخير من الشركات عرف انتشاراً كبيراً بعد عام ١٥٦٠ .

ونجد في آخر المطاف ، احتكارات ملكية برتغالية واسبانية . من هذه الاحتكارات مثلا ، ان ملك البرتغال احتكر لنفسه تجارة الافاويه والتوابل . فكان وكيله او ممثله في أنفرس يفاوض باسمه ، نقابة رجال المال التي تألفت من ممثلين عن شركات ولزر وأفيتاتي وغوالتسيروتي الذين يشترون ، في مسواق واحد ، او صفقة واحدة ، كل ما لديه من شحنات التوابل ومخزونها لقاء ٥٠٠ او ٦٠٠ قنطار من معدن النحاس والزئبق والزنجفر ، وكلها مواد لازمة لسفن البرتغال التي تتجر مع الهند فكان ملك البرتغال يدفع قيمة الفواتير المسحوبة عليه ، كميات من التوابل ، كما كان يقترح مثلا ، ان يدفع بهذه العملة ما يوازي ثمنه بالمئة شقيقته . وبالاضافة الى هذا ، فقد كانت لشبونة المركز الام ، او السوق الاوحد لكل البضائع والاصناف المستوردة من الهند،حيث كنت ترى مثلا : وكالة الهند *Casa India* ووكالة الغينيه *Casa da Guinée* يشرف عليها ويتولى تصريف ما فيها من بضائع مراقبون ملكيون ، بعد ان يستوفوا ما يترتب على البضاعة من رسوم ومكوس وضرائب ملكية ، وبعد ان يحددوا ، منها الاسعار . كذلك كان لملك اسبانيا ، هو الآخر في مدينة اشبيلية ، مركز خاص او دائرة خاصة باعماله التجارية ، هي « مصلحة العقود التجارية » . وهذه المصلحة تستوفي ما يعود للعرش الاسباني ، من رسوم وعوائد على المصارف الثمينة ، المستوردة من اميركا ، كالذهب والفضة والحجارة الكريمة ، كما ان الامبراطور شارل الخامس فرض رسماً

جديداً سماه : رسم البضائع المستوردة من الهند ، كانت الرسوم الجباة عليها تستخـــدم في تسليح الاساطيل ومراقبة حركة التصدير والاستيراد .

وفي سبيل تشجيع المقايضات والحركة التجـــارية على جميع نشاطاتها قامت دوماً معارض واسواق لهذه الغاية بالذات. فقد اقيمت اسواق خاصة للبضائع والاسهم عرفت باسم « مِصفَق » او « بورصة » ، لم تلبث هذه الاسواق ان لعبت دوراً هاماً في المضاربات المالية والتجارية .

ولعل اهم هذه المصافق او الاسواق المالـيـة هي مصفق أنفرس الذي انشيء عام ١٤٠٠ ، واعيد تجديد هذه السوق سنة ١٥٣١ . فقد كان عبارة عن مبنى فخم مستطيل قائم الزوايا ، تقوم من الداخل أروقة مرتفعة على اعمدة عالية ، تطل على فناء او ساحة فسيحة الارجـاء حيث كانت تجري المساوضات والمداولات التمهيدية لعقد الصفقات التجارية ابتداء مـن الساعة ١١ صباحاً . وكان محظوراً القيام بالالعاب او السماح لتجار المباذل والمفروشات العتيقـــة ، الدخول الى المصفق ، كما حظر الدخول اليه ايضاً على باعة الكتب المتجولين ، ومنعت الجماهير من الاحتشاد او التجمهر في الاسواق والاحيـــاء المجاورة . وبالرغم من هذه الاحتياطات كلها ، كثيراً ما شجرت المشاحنات وقامت الخناقات بين الانكليز والاسبان ، يتضاربون ويقتتـلون بعضهم مع بعض . وكثيراً ما كان المتخاصمون يهاجمون بعضهم بعضاً بالسيوف الطويلة ويتبادلون الطعن بالخناجر ، او يتربصون لبعضهم البعض في المنعطفات ، وكم حدث من المعارك استمان بها كلا الفريقين ، بما عندهم من خدم وحشم وأتباع . وكان الدم الذي يغلي في العروق كثيراً ما تحدر في هؤلاء التجار من دم اشراف او قدامى الجنود او المبارزين .

بين السندات والاعتمادات المالية

من المتبع ومألوف العـادة عند القوم ، ان تعقـــد الصفقات التجـــارية امام كاتب العدل ، بعد ان يمهّد لها سماسرة وعملاء. من المعروف ايضاً ان الكنيسة كانت تحظر الدّين بفائدة. فمن وجد نفسه بحاجة الى مبلغ ما ، عمد الى شراء المبلغ الذي هو بحاجة اليه بعد تقديم ضمانة او كفالة تتألف من ريع دائم ، على شاكلة ما كان يجري مثلا عند شراء عقار بضمان دخل دائم ، وهو ترتيب تعارف عليه الناس ونهجوا على منواله . وهذا النوع من الدين بفائدة كان تدبيراً عملياً عنـدما يكون الامر متعلقاً بمبالغ صغيرة يستعملها المزارع او الصناعي مثلا ، لشراء ما هو بحاجة اليه من بزار وتقاوى وعتاد وخامات ومواد غذائية له ولمزرعته او مصنعه. ولكن الصعوبة كل الصعوبة عندما كان الدائن يريد استيفاء رأس مال وضعه تحت تصرف الغير الى امد طويل، لقاء شروط وضوابط معينة الامر الذي جعل المعاملات في غاية التعقيد ، ولذا لجأ التاجر الى المعاملات التي تؤخـذ بصدد شركة توصية ، فيما لو كان احد الدائنين سلّفه مبلغاً من المال لتشغيله في عمليـة تجارية معينة على مسؤوليته ، اي انه يتحمل ما في العملية من مخـــاطر واحتمالات . الا ان الذين لم يكونوا يرضون الاستهداف، لاي خطر محتمل ، راحوا يدورون حول القانون ويداورون

بانتهاج طريقة عرفت عندهم بـ *trinus contractus* ، وهي طريقة لقيت رواجاً عظيماً في المانيا الجنوبية ، والتي شجعتها الكنيسة بالبراءة الرسولية : « *Detestabilis* » التي اصدرها البابا سنة ١٥٨٦ . والطريقة المذكورة تقوم بان يقرض دائن تاجراً مبلغاً من المال على شرط ان يقاسمه جزءاً من الارباح قد يبلغ احياناً ١٥ ./. من المبلغ الذي سلّفه اياه ؛ ثم يعقد مع التاجر المذكور عقد ضمان ينص على ان يتخلى له الدائن عن ثلث المبلغ العائد له من الارباح المرتقبة اذا ما رضي التاجر ان يعيد المبلغ الذي اقترضه كاملاً ، حتى في حال خسارة رأس مال الشركة ، ثم يعقد معه اتفاقاً ثالثاً يبيع بموجبه من التاجر ربحه المرجّح لقاء فائدة ٥ ٪ من المال المقروض او المسلّف ، وهي فائدة مضمونة ملزمة مهما كان مصير العملة التجارية . فشركة التوصية استحالت ، في مثل هذا الوضع ، ديناً بفائدة بسيطة ، بمعدل ٥ ٪ تصبح بالطريقة التي أقرّت بها ، بمأمن من تدخل القانون . ثم كان هنالك عدد كبير من الدائنين يسلّفون بفائدة ، بحرّية تامة ، دونما وَجَل او خجل ، بالرغم مما يستهدفون له من ملاحقات قانونية امام المحاكم ، اذا ما رأى المدين ان يرفع ظلامته امام القضاء . مثال ذلك ، ان المتمول الالماني امبروسيوس هوشستتر من مدينة اوغسبورج ، رغب يوماً في احتكار الخشب والجوز والحبوب والنحاس والزئبق ، فعمد حوالي سنة ١٥٢٦ الى الدين بفائدة ٥ ٪ يستلف بهذا المعدل من الامراء والنبلاء والكونتية واصحاب الطبقة البورجوازية والخدّام والخادمات . وبينا هو في وهمه غارق يعتقد انه يتصرف لوحده بصنف الزئبق ، اذ بمناجم الزئبق التي ظهرت في مدينة المادن الاسبانية ، التي دخلت تحت احتكار آل فوجر ، تسبب له الافلاس ، وهي هزة دوّت بعيداً في كل ارجاء اوروبا. وهذا الافلاس الداوي كان يجب ان يلقى فيه كل مضارب درساً له وعظة ، ولكن انى من يرعوي ويتّعظ .

وراحت الدول تعتمد في معاملاتها التجارية نظام الاعتماد المالي أو السند ، اعتماداً كلياً ، مما عاد على هذه الطريقة بالازدهار فانتظمت اسسه واستقرت على وجه دقيق نظم . فقد اصدر الامبراطور شارل الخامس ، سندات أو اسهماً على الخزينة بقيمة اسمية تتراوح بين ٧ — ١٠ بالمائة . وفي سنة ١٥٢٢ ، باع الملك فرنسوا الاول مدينة باريس ريعاً له قدره ٢٠،٠٠٠ ليرة ذهب ، يعود عليه من رأس مال ، تبلغ قيمته ٢٠٠،٠٠٠ ليرة . وراحت بلدية مدينة باريس تستدين هذا المبلغ من احد البورجوازيين ، ثم راحت توزع على سكان المحلة التي يوجد فيها هذا الريع ، سندات بالقيمة المذكورة . وهكذا ظهرت السندات الدائمة المترتبة على المجلس البلدي في باريس . وقد راح البورجوازيون يبيعون ما لديهم من اواني موائد الطعام الفضية لوفاء قيمة هذه السندات . وكانت مدينة ليون المركز الرئيسي ، مع مدينة انفرس ، للاتجار بالفضة . وفي سنة ١٥٤٢ — ١٥٤٣ ، راح الكردينال ده تورنون ، حاكم المدينة اذ ذاك ، يستعمل الطرق والاساليب ذاتها التي ركن اليها هوشستتر ، وألف ، بالاتفاق مع صيارفة ايطاليين ، اتحاداً من كبار المتموليين تولى ادارته هانز كليبرجر ، وراح يستدين بفائدة ١٠ ٪ واحياناً ١٦٪ من فرنسا

والمانيا وايطاليا ، ومن الارامل واولياء اليتامى،حتى ان ملك اسبانيا كان يتعذر عليه وجود من يقرضه أو يسلفه ما هو بحاجة اليه. وفي سنة ١٥٥٥ ، اعاد ده تورنون الكرة باسم « حزب ليون الكبير » هذه المرة ، وراح الخدم يقدمون له المبالغ الصغيرة التي وفروها ، حتى ان النساء بعن حليهن ومجوهراتهن وسرت العدوى وشاعت بين الناس ، وراح السويسريون والالمان والباشوات والتجار الاتراك يدينون بفائدة .

المضاربات

تلبست الحركة التجارية في المراكز التجارية الكبرى ، امثال انفرس وليون وجنوى ، الواناً واشكالاً من المضاربات اقتربت كثيراً من المراهنات والعاب الحظ . فقد كانت البضائع مجالاً تعقد حولها اتفاقات وعقود محددة الآجال . مثال ذلك ان يشتري تاجر ما ، كمية من التوابل يستلمها بعد ثلاثة اشهر من تاريخ العقد بسعر البضاعة يوم الاستلام . فاذا ما كان سعر البضاعة يوم الاستلام اعلى من سعرها يوم البيع، يكون حقق ربحاً. اما اذا ما قصر السعر يوم الاستلام عن سعر البضاعة يوم الشراء يكون البائع هو الرابح. وهكذا تبدو المعاملة اشبه ما تكون رهاناً ، على شيء من التأمين او الضمان . ويسلم البائعُ او المشتري، عقداً موقعاً منه ، يتعهد له فيه بتسليمه كمية معينة من صنف معين من التوابل بمواصفاته ، في مدة يجري تحديدها بين الطرفين المتعاقدين . وللمشتري ، مثلاً ، ملء الحق ببيع هذا الصك أو السند ، من شخص آخر ، وهذا من شخص ثالث ، وهكذا دواليك، الى ان يحين الاستحقاق وهكذا وجد التجار انفسهم امام معاملات وتعهدات اساسها الصك أو سند التعهد ، فتبنوه في الصفقات التي عقدوها ، اذ يجنبهم متاعب ومضايقات كانوا بغنى عنها كالاهتمام بالبضاعة مثلاً ، ويخفف عنهم أعباء الانشغال بها .

ومنذ ذلك الحين جرى التعامل بهذا الصك 'سنة' بين الناس لقيمته المالية وسهولة تداوله . هب ان تاجراً من تجار ليون يترتب عليه دفع مبلغ يستحق عليه لعميل له في انفرس ، ولم يكن له على احد من تجار انفرس او رجال المال فيها ، اي تحويل أو سند . فقد كان من السهل عنده ان يشتري تحويلاً مالياً لتاجر من تجار ليون على تاجر من تجار انفرس بدلاً من ان يرسل لعميله في هذه المدينة المال عيناً . وعلى هذا قس ايضاً تاجراً من تجار انفرس يرغب في تحويل دراهم لعميل له في مدينة ليون ، فيشتري محلياً من تاجر انفرس تحويلاً يرسله لدائنه في ليون وفاء" لدينه بدلاً من ان يرسل له المبلغ عيناً . وقد انتشرت عادة استعمال هذه السندات او الصكوك الورقية بعد ان اصبحت نوعاً من العملات لها قيمتها المعينة ، وهي قيمة تتأرجح صعوداً أو هبوطاً وفقاً لناموس العرض والطلب في سوق المضاربات او المصفق (البورصة) . وكثيراً ما كانت هذه السندات موضوع صفقات مالية لاجل معين أو نوعاً من الرهان على قيمتها الفعلية ، في المستقبل ، وهي سندات كثيراً ما تكاثرت قيمتها بالحوادث السياسية والقضايا الدولية . فاذا ما دخلت الجيوش الفرنسية ، مثلاً ، ايطاليا الشمالية ،انخفض بالتالي في البورصة ، سعر السندات

الصادرة عن البيوتات المالية في المنطقة . اما اذا لم تقم الجيوش الفرنسية ، كما حدث معها قبل معركة بافي ، بأعمال السلب والنهب، كانت قيمة السندات وسعرها يرتفع. وقد راحت الشوائع والاخبار المصطنعة او الملفقة تفعل فعلها للتأثير على قيمة سندات معينة لاجبارها على الهبوط والنزول ، فيقبل الناس على بيعها أو شرائها ، حسبما تكون الاوضاع ، حتى اذا ما بان بطلان الخبر وانكشف التلفيق ارتفعت اسعارها ، فيربح الناس .

وبناء لقانون الطلب والعرض ، كانت هذه السندات ، حتى العملة النقدية نفسها ، تختلف قيمتها باختلاف الأمكنة وتبدل الظروف . هب مثلاً ان الذهب قلّ وجوده في انفرس ، بينما توفرت منه في ليون كميات كبيرة، فيرى المضاربون، في مثل هذا الظرف بالذات فرصة أمامهم للقيام بالمضاربات ، اذ يسارعون لشراء الذهب المتوفر في اسواق ليون ليبيعوه في اسواق انفرس بارباح طيبة . ومضاربات من هذا النوع يمكن ان تتناول سندات الـ *Juros* التي اصدرها الامبراطور شارل الخامس، في اسبانيا ، كما تتناول اي نوع آخر من السندات المالية . وكم من مرة عمدوا احياناً الى خلق ازمة نقدية في مكان ما ، وذلك عن طريق جمع او لمّ كل السندات والاستحقاقات والتقدم فجأة بطلب استيفاء المستحق منها .وقد اختصت مدينة انفرس بهذا النوع من التلاعب بالاسهم والمضاربات ، في الفترة الواقعة بين ١٥٤٢ – ١٥٥١ . وهذه المضاربات تفرد بالقيام بها عميل البلاط المالي غسبار دوتشي ،من هؤلاء المتمولين الدوليين الذي لم يكن يتورع من تسليف الملك فرنسوا الاول حاجته من المال، وهو يَعرف انه الخصم الازرق والعدو اللدود لسيده ورئيسه المباشر شارل الخامس .

والاقبال على المراهنات ساعد كثيراً على التأمين ضد أخطار البحر والملاحة ، هذه الاخطار التي تهدد مشحونات البضائع ، او التي تقوم في تعرض القرصان في عرض البحر ، للسفن ، او تكمن في احتمال مصادرة السفينة ، من قبل الملوك والامراء ، والسرقة والغرق وغير ذلك من المخاطر التي تستهدف لها الاسفار البحرية، اذ ذاك . وقد راح بعضهم يؤمن على سفنهم، عدة مرات او عند شركات مختلفة ، ثم يفتعلون الحوادث بحيث يقبضون مبالغ طائلة تعويضاً لسفنهم عما ألمّ بها من معاطب واضرار وعوار .

وراحوا يؤمنون على الحياة ضد الحوادث والاخطار ، فكنت ترى شيوخاً يؤمنون عليهم بدون علمهم ، ثم يجري اختطافهم من حيث لا يدرون ويسومونهم الواناً من العذابات حتى اذا ما فقدوا الحياة قبض المؤمنون عليهم قيمة التأمين . كذلك راح الناس يراهنون على وقوع الحرب ومصير المعارك القائمة كما يراهنون على جنس الولد المنتظر ، وينظمون اعمال يانصيب ، والكل اقبل على اللعب واعمال الرهان .

وكان التجار يستعملون مسك الدفاتر واعمال المحاسبة المركّبة ، وهي طريقة قديمة استنبطها لوقا فلشيولي ونقلت طريقته هذه الى الفلمنكية، ثم الى الفرنسية عام ١٥٤٣، فإلى الانكليزية، عام

١٥٤٧ ، والى الالمانية عام ١٥٥٠ ، عهادها الجردة ودفتر اليومية ، والجورنال والدفتر الكبير .

المواصلات

ادى التطور المظم الذي أدخل على تداول النقد بفضل مؤازرة الملوك ، الى ازدهار التجارة الدولية . فقد توطدت اسباب الأمن واستتب النظام في البلاد ، بنوع الاجمال ، ومع ذلك فقد اوجب بعد النظر وحسن الفطن الا يسافر التجار عزلاً من السلاح ، ومن الأسلم لهم ولما يحملون من نقود ان يسافروا بصحبة فريق من الناس . وقد نظم التجار ، تسهيلاً لايصال الاخبار والرسائل ، نوعاً من البريد الخاص الذي كان يقطع المسافة بين بروكسل وباريس ، عام ١٥١٦ في ٣٦ ساعة صيفاً و ٤٠ ساعة شتاء ، كما استغرقت الرحلة بين بروكسل وليون ، ثلاثة ايام ونصف او اربعة ايام ، ومن بروكسل الى روما ، عشرة ايام ونصف أو اثني عشر يوماً . وكان في مقدورهم ان يستعينوا ، في فرنسا ، بالبريد الملكي وفي ممتلكات الامبراطور ببريد اسرة تاسي الملكية الذي اصبح بريداً حكومياً ، منذ سنة ١٥٠٥ . وهذا البريد كان يقطع المسافة ، بين ايطاليا وبروكسل ، مروراً بالتيرول وإينفل بخمسة ايام ونصف ، بمعدل سير ١٣٥ كيلومتراً في اليوم . أما المسافة بين بروكسل ومدريد ، مروراً بفرنسا ، فيقتضي لها ١٥ يوماً .

كانت البضائع والمشحونات ، تنقل ، براً بعربات تقطع من ٣٠ – ٤٠ كلم . في اليوم ، تسير بالاحرى مع مجاري الانهر . وقد قامت البلديات ، في هذا المجال ، ببعض الاشغال لتحسين المسالك والمعابر الصعبة المرتقى بالتعاون مع الشركات التجارية او بمساعدة الملوك والقضاء الملكي . واعيد بناء الجسور والطرقات ، كما ادخلت تحسينات على بعض المسالك النهرية ، وبذلك تفادت التجارة دفع رسوم معينة ، والقيام باجراءات وترتيبات فرضها من قبل اسياد المقاطعات دون اي مبرر لها سوى ابتزاز المال ، فالغيت .

اما في البحر ، فقد كانت سفن مدينة البندقية حتى عام ١٥٢٥ ، تصل الى انفرس ، الا ان الجذفين كانوا يتقاضون اجوراً عالية ، كما ان الشحن كان عرضة لمخاطر عديدة على سفن من نوع الـ *galère* ظهرها مع سطح الماء تقريباً . اما في المحيطات ، ولا سيا في البحر الابيض المتوسط ، فقد استعيض اكثر فاكثر ، عن السفن العاملة بالمجاذيف ، بسفن تعمل على القلوع والشراع ، كسفينة الكرافيل التي لها عدة صوار كما ان حافتها تعلو جداً فوق سطح البحر ، وسعتها كبيرة تتسع لـ ٢٠٠ – ٥٠٠ برميل ، وهي سفن سريعة السير انما سريعة العطب ، كان عليها ان تقضي فصل الشتاء في الموانىء التي ترسو فيها . ومن انواع السفن المستعملة اذ ذاك سفينة *hulques* وهي سفينة مفلطحة ، فطساء ، ثقيلة ، بطيئة ، الا إنها اقوى من الاولى ، لها عدة قلوع ، صالحة لركوب البحر في كل الفصول ، تحمل من ٤٥ – ١٠ اطنان ويأتي بعد هذا النوع ، نوع آخر من السفن يدعى *galions* ، وهي سفن ضخمة ، ملومة ، تحمل في مؤخرها برجاً كبيراً ، قليلة السرعة ، تستطيع ان تحمل عدداً اكبر من الركاب ووسقاً كبيراً ، كثيراً ما استعملها

الاسبان في شحنهم المعادن الثمينة من ممتلكاتهم في امـيركا عبر الاطلسي . وبقيت المواصلات بطيئة ، تحف بها المخاطر لقلة الخرائط الجغرافية الدقيقة الرسم ، ولافتقار الملاحـة البحرية للمعلومات التقنية الدقيقة وللربابنـة ذوي الخبرات الواسعة . وكانت سرعة سير السفينة في انفرس بمعدل ميل واحد في الساعة ، وكان المسافر يقطع المسافة من انفرس الى لشبونـة ، في احسن الحالات ، بخمسة عشر يوماً . اما في البحر الابيض المتوسط ، فالاستثناءات ، وعـدم الاطراد ، كان القاعدة ، في الغالب ، اذ ان المسافة بين البندقية والقسطنطينيـة كانت تستغرق من ٢٩ يوماً الى ٧٢ يوماً ومن البندقية الى يافا ، من ٤٠ – ٥٠ يوماً ، ومن تونس الى ليفورنو ، من ٦ – ٢٠ يوماً . فالبحر المتوسط كان له من الاتساع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، ما لدنيا الاقتصـاد منه اليوم . والعالم كان اوسع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، منـه في القرن العشرين . وهذا ما يفسر لنا تفوق الاقتصاد المدني او بالاحرى المديني .

النظام الرأسمالي والصناعة

كثيراً ما يجد التاجر الذي يهبط بلداً نائيـاً ، زبائن عديدين هم على استعداد كلي لابتياع ما يحمله من محاصيـل ومنتوجات ، يتوقون لرفع مستوى حياتهم ، كما كانوا على اتم استعداد ايضاً لشراء محاصيل من اصنـاف ادنى على ان تكون حسنة المظهر وارخص سعراً . والحال ، فقد كانت قوانين نقابات الحرف وجمعياتهـا في المدن القديمة امثـال : بروج وغنت وبروكسل وروان ، تحظر على معلمي المهن تجهيز مصنوعاتهم بمقادير كافية ومن النوع المحدد . ولذا امّ التجار القرى والمدن الصغيرة في الارياف يشترون منها الخامات التي يرغبون في الحصول عليها والادوات الصناعية اللازمة لهم والنماذج او العينـات التي تروقهم ، كما كانوا يقبلون على شراء المحاصيل وانتاج الصناعة ويعملون على تنفيقهـا . وهكذا ادخلوا على المهنة عدة ادوات صناعية واصناف جديدة رفضت النقابات قبولهـا والتسليم بها ، كالمكابس لضغط الاجواخ بدلاً من ضغطها بالقدم ، وهي طريقة كانت تخفض الكلفة وتضاعف الانتاج ، وان جاء الصنف اقل جودة اذ كانت عملية ضغط ثوب جوخ واحـد تقتضي من ٤ – ٥ ايام بينما يضغط المكبس في المدة ذاتها من ٩ – ١٠ قطع ، والمغزل الذي يدور بحركة الرجل بينما تبقى اليدان حرتين تعمل في الغزل ، والآلة الناسخة التي اخترعها ، عام ١٥٨٩ ، الراهب وليم لي والتي لم تلبث ان عم استعمالها في جميع انحاء انكلترا ، فزادت سرعة النسيج من ١٠ – ١٥ ضعفاً من ناسخة باليد ، ويمكن لولد عمره ١٢ سنة ، ان يديرها بسهولة . واذا لم يعد الصناعي مالكاً لأدوات الانتاج واجهزته ، فقد تحول تدريجياً من معلم حرفة الى عامل . وهكذا رأينا مراكز صغيرة للصناعة تقوم وتنتشر في انحاء عدة من البلاد الا انها كانت تتركز تجارياً واداريا بيد بعض المولين الذين يتعهدون الاشغال . وكان الوضع على مثل هذا الشكل في مقاطعـة الفلاندر . مثلاً حيث راح بعض رجال المال الذين يرغبون في الصمود في وجه الاجواخ الانكليزية الخفيفة ، المعدة للاستهلاك اليومي وباسعار معتدلة ، ينشئون لهم معامل نسيج ، من هذا النوع ، في مدن إيبر وبيّول ، في ضواحي بروكسل وليل ، وفي بلدة هُندشوت وأرمَنْديار ، وعلى الأثر

توافد على هذه المعامل الجديدة المحتاجون للعمل والعاطلون الذين لا عمـل معين لهم ، ولم تلبث هذه القرى ان اصبحت مدناً ، وراجت بها المنسوجات الخفيفة التي تخرجهـا فباركها وتتغلب على الاجواخ الانكليزية الصنع . وقد عرفت مناطق اخرى مثل هذا التطور السريـع ، منهـا مثلاً : منطقة روان واللانغدوق ، وبورج وبيري ، ومدن وادي نهر اللوار ، ولانكشير وغيرها . وهكذا اضطرت النقابات المهنية القديمة ان تؤمن تموين المدن والارض الواقعة في نطاقهـا . ورغبة منها في الاحتفاظ بزبائنها ، رأت نفسها مضطرة لتعديل قوانينها الدقيقة بحيث تستطيع الصمود في وجه المنافسة التي تقوم بين معلمي الحرف ، وهي رتبة لا يستحقهـا الا من توفرت لانجازاته الفنية بعض المواصفات والشروط الدقيقة : كانجاز اشغال عالية الكلفة تعد روائـع صناعية بما تقتضيه من فن ومهارة ، وبين عـدد قليل من المهنيين الناشئين ، وتخصص أضيق ، واساليب فنية ، اساسها نماذج محددة اوصافها بكل دقة ، وقام العمال حيث لا تقوم مثل هذه النقابات المهنية ، يسعون لانشائها فيلتمسون من الملك الترخيص لهم بذلك ، تسييجاً لهم حول مصلحتهم من المنافسة الشديدة التي يتعرضون لها من قبل عمال طارئين او دخـلاء او من قبـل زملاء قدامى لهم راحوا يعملون احراراً لحسابهم الخاص . ولعل ما هو اهم من هـذه التدابير بكثير ، فساعد على بقاء هذه النقابات ، هو هذا النمو السريـع الذي طرأ عـلى المدن فأدى الى تطورها تطوراً عظيماً ، وهي ظاهرة جاءت نتيجـة للنظام الرأسمالي الذي وفر للعمال زبائن اخذ عددهم يزداد شأناً يوماً بعد يوم .

قام التجار بتجميع او تركيز صناعي في الانشاءات والمشاريـع الصناعية الكبرى اذ ان ازدياد الطلبات ، واحياناً طبيعة هذه الطلبات بالذات قضت من نفسها الاخذ باسباب التصنيـع : كالطباعة وتوضيب المعادن وصناعة التعدين ، وصناعة المدافع ، وغير ذلك . وقـد تمت رغبتهم هذه بالتعاون التام لانسجامها مع رغبة الملوك والامراء الذين تنازلوا لهم عن احتكاراتهم . وقد اصطدموا احياناً بمنافسة الرؤساء العلمانيين او رجال الاكليروس الذين شغلوا اموالهم في بعض المشاريـع الانشائية . وهذا امر اصبح عادة مرعية في جميع انحاء المانيا والبلاد الواطية ، منـذ عام ١٥٤٠ ، وثورة الاديان وفي انكلترا ، حيث بلغت الحركة حدود ثورة صناعية . فبدلاً مـن الاكتفاء بالنزول الى عمق بضعة امتار في المناجم ، اقتضى الاتجاه الجديد النزول الى ٢٥ واحياناً الى ٥٠ متراً ، مما اضطروا معه الى فتح خنادق ودهاليز وسراديب تحت الارض . وهي اعمال استغرقت وتستغرق صيانتها نفقات طائلة تتجاوز احيانـاً عشرات الالوف من الليرات ، كما تستنفد دخل بارونية فرنسية لمدة بضع سنوات . وقد تعرضت هذه الانشاءات احيانـاً الى فيضانات اغرقت المنجم أو سببت انفجاراً للغاز ، كما اقتضى مضاعفة العتاد والاجهزة ومعظمها من الخشب ، وتدعيمها بوصلات حديد او تركيب محاور او مصاريـع أو صفائح من المعدن عندما تحتك هذه القطع بعضها ببعض ، وهي اجهزة تحرك باليد أو بحيوانات جر او بغير ذلك من القوى الطبيعة ، وتركيب اجهزة لنضح المـاء المتسرب الى الداخل ، وسلاسل لا تنتهي من

النواعيس ، وبراغ من نوع براغي ارخميدس ، ومضخات جاذبة ذات كبّاس . وأخذوا ، منذ عام ١٥٤٦ ، ينشلون في المناجم العميقة سلسلة عمودية من المضخات الجاذبـــة ، والاحواض المتراكبة الواحد منها فوق الآخر ، وهي مضخات تحركها عجلات ضخمة يسير عليها رجال أو يتساقط عليها شلال الماء من حوض ، واجهزة التهوية كهذه المفاتيح الضخمة ، وهــذه البراميل المجهزة بفتّريات ملتوية في الوسط يخترقها الهواء ، وتنتهي بماسورة او انبوب لتفريغ الهواء ، ومراوح كبيرة يدخل منها الهواء بشدة في انبوب التهوية ركبت في طرفه شفرات ضخمة يحركها جناح مطحنة هواء ، فركبوا ، لجهلهم ناموس القوة المبعدة عن المركز ، الانبوب عنــد طرف الطبقة بدلاً من ان يكون قريباً من المركز ، وبكرات ضخمة لرفع الاثقال الكبيرة تأتيهـــا الحركة من محرك يدور على عجلة ، على وجهي الارض ، بواسطة اسطوانة شاقولية الوضــع ، طويلة ومسننة من الخشب ، وكسارات ضخمة مجهزة بمطرقة تتحرك بقوة الماء لتكسير فلزات المعادن ، ومصاهر ضخمة للحديد تعمل على فحم الحطب ، تم اختراعها في المانيـــا ، ثم دخل استعمالها مقاطعة سوسكس ، في انكلترا ، في اواخر القرن ، ومنها شع استعمالها في كل مكان حوالي ١٥٥٠ . وقبل اختراع هذه المصاهر ، كانوا يحصلون على الحديد المشغول مــن الفلزات عينها بواسطة كور حدادة صغير . وكان زهاء ١٢ ملتزماً أو متعهداً يخرجون نحواً من ٢٥ طناً في السنة . ومنذ سنة ١٥٤٠ ، انشئت مصاهر للحديد علو الواحد منهـا ٣٠ قدماً ، بعرض ٢٠ قدماً مربعاً من تحت، مع منافخ من الجلد ، علو الواحد منها ٢٠ قدماً يحركها دولاب يعمل بالماء يأتيه من سد قريب بواسطة انابيب من الخشب، ينتج في السنة كلها من ١٠٠ – ٥٠٠ طن مـــن الصب. وكانوا يستعملون في تطريق الحديد والنحاس والقصدير مطارق ضخمة تتحرك على عجلات ركزوها في بنايات كبيرة يعمل فيها عشرات من العمال . ولتوفير ما يلزم من الملح، لجأوا ، في انكلترا، الى تبخير ماء البحر ، وهكذا استغنوا عن فريق من العمال كانوا يستخدمون من ٦ – ١٢ دستاً صغيراً ، بينا ركب بعض المتمولين ، في ابنية كبيرة وعلى وجاقـــات ضخمة ، خلاقين سعة الواحدة ٢٠ قدماً مربعاً وعمقها نحواً من ٦ أقدام.. ونرى في سنة ١٥٨٠ ، احــد رجال المال يستعمل نحواً من ٣٠٠ عامل ، وينفق في هـــذا السبيل اكثر من ٦٠٠٠ ليرة انكليزية ذهب ، في تجهيز ورشة له . فاشتد من جراء ذلك الطلب على معلمي الحرف والصنـــاع المهرة يفدون من الفلاندر لصنع الاجواخ ، كما كانوا يستقدمون، من المانيا، معدّنين للعمل في استخراج فلزات الحديد وشغل الحديد .

النظام الرأسمالي والحياة في الريف

تغلغل النظام الرأسمالي في حياة الريف عـــلى اثر ظهور الاسواق الدوليـــة ، وطلوع عصر الصناعة في اوروبا ، وتزايد عدد السكان في المدن ، واخذهم اكثر فأكثر ، بأسباب الحضارة ، فوُجد في هذا كله مرافق للاستهلاك والانفاق . ففي اواسط انكلترا، راح اصحاب الاقطاع يستخلصون اراضيهم من مستأجريها ومكاريها ويدمجون بها الاراضي الصالحة للفلاحة من المشاعات البلدية ، وتحويلها

الى مراعٍ خضراء تنتجعها قطعان الغنم طمعاً بصوفها الذي يذهب لمصانع النسيج الانكليزية ، كما ان قسماً منه كان يُصدر للخارج . وفي هذه المدة بالذات أخذت تظهر طلائع حركة اقامة السياجات حول الاراضي والمزارع، هذه الحركة التي استحالت انقلاباً وارتدت شكل ثورة عارمة في القرن الثامن عشر . وانتقل استثمار الارض من مرابعين الى أيدي مزارعين تحت تصرفهم ما يلزم من المال الكافي لاستغلالها بروح بورجوازية يفيدون من نتاجها وغلالهـــا في مقايضاتهم التجارية .

اما في فرنسا ، فقد كان جانب كبير من الاراضي الزراعية بيد مرابعين ومزارعين توارثوا استثمارها ابا عن جد ، كان من الصعب جداً على مالك الارض الاصيل انتزاع هذا الحق منهم ، وكانت حصته من الغلال التي حددت قيمتها ، لمرة واحدة ، بمبلغ من المال يضؤل على مر السنين لارتفاع الاسعار المستمر ، ولكن منذ ان وضعت حرب المائة سنة اوزارها بعـــد ان افقرت الارض ، واجدبتها وحرمتها من اليد العاملة ، راح بعض المتمولين من البورجوازيين ، في المدن المجاورة ، يتعهدون الاراضي الزراعية بعد توسيعها فيؤجرون ، من ضمنهم ، لفلاح او مزارع او ومرابع ، شقة منها ، يدفع ما يترتب عليها من عوائد ورسوم ، نقداً وعداً ، وفقاً لعقود ايجار قابلة للتعديل في انتهاء الاجل المضروب ، او يتناول قسماً من غلة الارض ، ومـــا تبقى يكون حصة المزارع ، يتصرف به وفقاً للاسعار الدارجة ، اذ ذاك . اما البورجوازيون ، فكان بعضهم يؤجر اراضيه الحرة لسيد الارض او يعمدون الى شراء الاراضي ، اذا ما توفرت لهم اسباب الثراء ، ممن لهم عليها حق السيادة ، ثم يؤجرون القسم الاوفى من هـــذه الاراضي لمرابعين يستغلّونها وفقاً لشروط محددة . وسار على نهج البورجوازيين عدد كبير من اصحاب الاملاك ، فكان الواحد منهم يعمل على استثمار اراضيه ويراقب بنفسه اعمال مزرعتـــه باذلا أقصى جهده لتحسين ريعها . وقد برز في هذه الحقبة هذا النموذج من الفلاحين الذين عرفوا قيمة التعاون مع الغير ، فيتولى ، هو بنفسه ، بيع بقرة ، ويشرف على بناء ما تحتاجه ارضه مـــن اسوار وسياجات ، ويراقب عملية قطع الحشيش وقطـــاف العنب ، وهو ، في الغالب ، من ذراري أحد البورجوازيين . وكثيراً ما كان أسياد الارض يشترون من الفلاح ، بعد ان يكون هذا الاخير ، ارهقه الدين ، اثر بوار المواسم او لتغيبه عنها للخدمة العسكرية ، أو لعجزه عن ايفاء ما تبقى عليه من متأخر دَينه ، أو مطالبته فجأةً بالمتأخر المتراكم من عدة سنين ، بعد ان يكون تناسى امرها . وكثيراً ما يكون عرف هؤلاء البورجوازيون الذين حرصوا على شراء الاملاك السيادية ، او هؤلاء الملاكون الذين تطبعوا بطباع البورجوازيين ، ان يراقبوا ، بعين يقظة ، وضع الاسواق التجارية ، وان يحتفظوا ، في منازلهم، ببعض المحاصيل المدخرة ، بانتظار الفرصة المناسبة ، ليبيعوا ما احتفظوا به من غلال ، باسعار مرتفعة . وقد اعتنوا ، على الاخص بالاصناف الصالحة للاعمال او المضاربات التجارية ، كالقمح والخمر ، وفي مقاطعـــة بروفانس كشجرة الزيتون والفوّة ، وفي مقاطعة اللانغدوق بنبات العَظلم المستعمل في الصباغة ، وشجرة

الزيتون وشجرة التوت وهكذا نرى ان حياة الريف تغيرت كثيراً وتطورت مظاهر الحيـــاة فيها : فاتسعت القرى ونمت ، واكتظّت بالسكان والعمال والصناع ، وباليد العاملة من دباغين وبيطريين ، وزجاجين ، وصانعي القرميد والبلاط ، والحبالين ، والعاملين في صب الحـديد ، وغيرهم . وبأخذ السيد ببناء مكبس هوائي لضغط الجوخ وكبسه ، ومدقة آلية تتحرك بواسطة دولاب لجرش فلزات المعادن ، دون ان يشعر المرء دائماً ما اذا كان المعمل يعمل لخير المنطقة او انه يعمل لتاجر يقوم بنشاط صناعي .

وقد وقع مثل هذا التطور في بلدان اخرى : في الفلاندر والمانيا الغربية والجنوبيـــة ، وفي ايطاليا .

اما في البلدان الواقعة الى ما وراء نهر الايلب كألمانيا الشرقية وبولونيا ، فقـد حمل اشتداد الطلب على القمح ، من قبل التجار التابعين لاتحاد الهانز ، والبلاد الواطية لشحنه الى بلدان البحر الابيض المتوسط ، اصحاب الاراضي ومالكيها ، على استخلاصها بالقوة من ايدي المرابعين او المستثمرين لها ، فيكوّنون منها مزارع استثار ، ويجبرون الفلاحين على تأمين الخدمات اللازمة مجاناً ، دون مقابل ، وهكذا يصبح هو نفسه منتجاً للقمح ومتجراً بـــه . ان الاتساع المتزايد لهذه المزارع واعطائها كمية صغيرة نسبياً من الحبوب اللازمة للتجارة ، ساعد كثيراً على دمج نظام الاسترقاق في النظام الرأسمالي ، في هذه المناطق الواقعة على أطراف الحضارة الاوروبية .

فالتقنيات الزراعية فيها لم تتغير ، ولم تتبدل كثيراً . وعلينا ان ننتظر نهاية القرن ، لنشهد في البلاد الواطية ، دفعاً جديداً نحو الزراعة ، على نطاق واسع .

النتائج الاجتماعية للنظام الرأسمالي

ان ازدهار النظام الرأسمالي وارتفاع الاسعار، ساعدا كثيراً على التقريب بين الطبقة البورجوازية والطبقـة المتملكة للارض ، وابراز الفوارق بين هاتين الطبقتين وبين الطبقات الشعبية وتفتيتها الى طبقات فرعية ثانوية .

اضطر عدد من الاسياد ، عُرفوا باهمالهم وعدم درايتهم ، او افقرتهم حياة البـــذخ التي عاشوها ، وارتفاع الاسعار المتتابـع ، ان يبيعوا اراضيهم وممتلكاتهم ، فـآل امرها الى فريق يعمل في التجارة ، فشيدوا لهم فيها نزولا ومساكن جميلة ، واقاموا لهم صلات مع الانسانيين ، فنهجوا نهج السراة . وبفضل النمط الجديد لحياتهم هذه ، ولتمرسهم بالوظائف العـــامة التي عرفوا ان يستأثروا بها ، تحولت أسَرهم تدريجياً ، الى طبقة النبلاء وأصبحت بدورها ارومةً لطبقة جديدة من الاشراف، لمع ابناؤها من رجال الدين والدنيا ، عملوا في الجيش او موظفين كباراً في خدمة البلاط . الا ان أهل الحسب والنسب لم ينزلوهم منهم منزلة العِرْق الاصيل .

ويليهم منزلة ومرتبة ، هذا الجانب من البورجوازيين يتمثل برؤساء الحرف والمهن الذين كانوا يَعدّون ، من قبل ، زهرة هذه الطبقة ، فاذا بهم ، انحدروا اليوم ، الى المرتبة الثانية ان

لم تقل الى ما هو ادنى . اما رؤساء نقـــابات الحرف ، ذات الشأن كالجواخين . والجزارين والعطارين ، والبزازين والبقالين ، فقد عرفوا ان يحافظوا على ما حققوا مـــن مستوىً محترم ، بفضل ازدهار حياة المدن ، وعمرانها وازدياد عدد السكان فيها . واستطاع فريق منهم ان يوجهوا أبناءهم شطر المهن الحرة أو الوظائف العليا . الا ان دخيلة هذه الطبقة او بالاحرى . هذه الفئة ، مازال يعتلج بالحقد ويتنزى بالبغضاء ضد طبقة التجار.

ويلي هذه الفئة درجة ، معلمو الحرف الدنيا : كالاسكافي وتاجر الاسمال والثياب العتيقـة وغيرهم ممن يشغلون بعض الصنائع العادية او يديرون دكان بقالة .

وجاء في الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي ، طبقة البروليتاريا وهي طبقة اعتاد افرادهـــا ان يعيشوا من عمل يدوي ، مأجورين يوماً فيوماً ، او عمالاً احراراً يعملون عندما يحلو لهم العمل او يعملون في ورش يشرف عليها احد رجال المال ، او ينتمون الى حرف منتظمـــة نقابات ، مشدودين ابداً الى اوضاعهم ، الا ما نَدَر ، في بعض الحـــالات ، اذ ان رؤساء الحرف كانوا يحتفظون بوظائفهم لاولادهم او لاصهرتهم ، وكانت اجورهم الاسمية لاترتفع او لاتزداد الا ببطء ، وذلك بالنظر لما يلاقونه من مقاومة لدى ممثلي الطبقة البرجوازية ، الاقوياء الجانب لاعتمادهم على مؤازرة الامراء ونصرتهم . اما اجورهم الفعلية فكانت تهبط باستمرار ، وفي هذا ما فيـه من بوادر الصراع الطبقي. وابناء المهنة الواحدة يؤلفون جمعيات خاصة بهم تؤلف فيما بينها اتحادات عامة ، لها رئيسها الاعلى، وصندوق مشترك ، يتسلحون بالسيوف والخناجر ويقومون باضرابات وحركات تمرد ، كما حدث مثلاً في مدينة أرفُورت ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينـــة ، أولم وكولوني ، عام ١٥١٣ ، وفي مدينتي ليون وباريس ، عام ١٥٢٩ ، و ١٥٣٩ .

اما في الريف ، فاذا ما ألـّف المزارعون فيه طبقة على شيء من اليسر المادي وعقليـــة بورجوازية ارفع من عقلية المرابعين ، فهنالك ، مع ذلك ، فئة من الفلاحين والـــكادحين في الارض لامال عند اصحابها يُحسّنون بـه من احوالهم واوضاعهم ، رضخوا يائسين للعيش على ما يحفّ بهم من وضع زري، عجزوا او جهلوا ان يبيعوا ، في الفرصة السانحة، محصولهم ، وهم يرون اوضاعهم تسوء وتتدهور امام ارتفاع الاسعار المستمر . فقـام بين الفلاحين ثورة لم تكن دوماً من عمل الصعاليك بينهم، اذ كثيراً ما نفخ في نارها فلاحون ومزارعون ميسـورون، هالهم استمرار ارتفاع ثمن المواد والبضائع المستوردة ، كما هالهم ، من جهة ثانية . توسع الملكيـــة الرأسمالية واستبطار الحقوق الاقطاعية .

وهكذا شهدنا المزيد من الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض وتباعد بينها ، مما ادّى الى صراع طبقي عنيف كان له نتائج دينية وسياسية خطيرة .

البورجوازي الرأسمالي

جاءت الثورة الرأسمالية نتيجة منطقية لمسلك جيل او فريق من الناس ضلع بسهم كبير بالنهضة الانسانية يتمثل ، خير تمثيل، بهذا البورجوازي

الرأسمالي الذي عرف ان يعبر عما طُبِعَ عليه من فردية مميزة ، وما جاش في نفسه من رغبة السيطرة وتوق الى السلطان ، وما نزعت اليه نفسه من تفتّح وإشراقة ، سواء في العمل او في الخلق والابداع ، والتطلع الى حياة منفتحة ، رغيدة ، باذخة ، والضلوع بهذه المشاريع وانشاءات الاقتصادية من نوع معين .

حاول البورجوازي المتمول ان يطفىء ما في قرارة نفسه وسويداء قلبه من شهوة صاخبة للربح والكسب جعلته يتهافت بل يتكالب على جمع المال ، مستعيناً على ذلك بما رُكِّز فيه من إدراك واقعي ، عقلاني ، لاصول المغامرات المالية والمجازفات الاقتصادية .

فقد أوتي ، قبل كل شيء ، حب المغامرة ، وتـذوّق الجرأة في المخاطرة واشرأبت نفسه الى الفتح والخلق . فهو رجل اداري يعرف من اين تؤتى الامور ، وكيف ينظم ويوجه فريقاً من الناس ادرك بما فيه من زكانة ، ما هم عليه من خُلُقٍ واستعداد معين لتدبير امر معين ، فيعهد الى كل واحد منهم بالعمل الذي هيء له ، فينسق ويناسب بين اعمالهم وتصرفاتهم بحيث يحصل على اكبر قدر من الفعالية والطاقة . فهو مفاوض لبق ، ساحر الحركات والنظرات والايماءة ، يعرف اصول البحث ويجيد المناقشة ويأتي الامور من ابوابها ليفضي منها الى مخارجها الطبيعية ، أعطِيَ موهبة عظيمة على الايحاء والاقناع وحمل الآخرين على اتخاذ القرار النهائي الذي يريده فيأتي وكأنه على السجية . كل هذه الصفات تحلى بها البورجوازي الثري تركت في نفسه شيئاً من الانطباع واليقين ان شيئاً من الاشراف انتهى اليه ، وان نُسيّات من هؤلاء العسكريين او رجال الحرب الذين تمرسوا باعمال الحرب وما اليها من صنوف السلب وألوان النهب ، ممن تركوا اعمال القرصنة ، استقر في نفسه ، واستشرى في عروقه في وقت كانت روح الفروسية بعد هي المثال الافضل للمجتمع الامثل. وهل نعجب ، بعد ، كيف ان بعض الانكليز والايطاليين ممن نبضت في نفوسهم روح الفروسية قاموا ، في صميم القرن السادس عشر يمارسون بالفعل اعمال القرصنة ، فيكل اليهم كثيرون من اثرياء القوم ، بجانب من اموالهم المدخرة لاستثمارها في هذه المغامرات التي يحلو لهم القيام بها ؟ أَفلم تتضاعف اولى الاسفار الطويلة عبر المحيطات وأولى الشركات التجارية ، الكبرى التي قامت ، بمغامرات مسلحة من الكر والفر كان لهم الحظ فيها نصيرا ؟

وقد يبدو على هذا البورجوازي الرأسمالي، بما امتاز به من روح التنظيم وروح والاقتصاد انه قُدَّ على شاكلة معلمي الحرف والمهن القدامى . وهذا بالفعل ما لفت الانظار الى هذه الروح التي نبضت فيه ، وهي روح منافسة ، في الصميم ، لهذا الشريف . فبينا نراه يرغب صادقاً ان يصير هو الى مثله ، نراه يوضح ، نفسه كما يستدل من المدوّنات وسجلات التجارة ، اذ ذاك ما يباعد بينه وبين هذا الشريف الذي لا يهمه من الحياة الا الظهور بمظهر الحر الباذخ: « وان اقتصدت غنيت ، فمن انفق قليلاً لن يلبث ان يصبح غنياً ، فالاقتصاد هو اولى الفضائل واولى المقدسات » . وهي ملكة يجب ان تعم وتنتشر لتملأ القدرات والاوقات والأزمنة ، على ان يستعملها الانسان بشكل منطقي ، معقول بما فيه نفعه وربحه . علينا ان نهرب من البطالة وان نحسن توزيع

اوقاتنا على الوجه الاكمل ، كما يترتب علينا ان نتفادى الاعباء ، ونبتعد ، مـــا امكن ، عن الملاهي ، والصيد والقنص والقصف والولائم ومضيعة الوقت بالاستقبالات الفارغة وان نحاسب انفسنا في المساء حساباً عسيراً على وجوه استعمال ساعات النهار. علينا ان ننظم حياتنا تنظيماً منطقياً لتأمين المنافع التي تؤمنها لنا التجارة . ولهذا البورجوازي ناموسه او قانونـــه الاخلاقي الا وهو المحافظة ، قبل كل شيء ، على العهود المقطوعة والاتفاقات التي ابرمها بملء حريته ، كما عليه ان يحافظ على المظاهر الخارجية ، وان يراعي ما يعود عليه بطيب الاحدوثة وان يعيش عيشاً نظيماً ، بعيداً عن الخمر والميسر والتسري ، كما عليه بحضور القداس بانتظام والاستماع الى الوعظ والارشاد ، وان يحتفظ بوقاره ومشيته المتزنة .

البورجوازي الرأسمالي عقلانية نموذجية ، منهجية . كل شيء عنده يجري او يجب ان يجري بدقة الحساب . وكل ما يأتيه هو تعبير بالارقام لهذا النشاط البشري الذي يجيش فيه ، هـذه الارقام التي تضبط كل حساباته من مدخول ومصروف . فالقلم دوماً بيده ليضع على الورقـة ويدون تفاصيل مفاوضاته ومعاملاته ، وكل ما يتوصل الى عقده من ارتباكات واتفاقـات ، وما يأتيه من شاردة وواردة . فالرأسمالية اسوة بالفيثاغورية الحديثة،تحمل الكثير من طبيعة الذهنية الكمية .

وهذا البورجوازي الرأسمالي وقع تحت تأثير الانسانيين فهو ينتقي من الحكم ، ويختـــار من الكلم المأثور مما جاء في كتب الاقدمين من أقوال الفلاسفة الكلبيين وفينوفون وكاتون وكولوميل ، ما يبدي قسمات الصورة المثالية التي هام بها. فقد ربط نفسه بعجلة الانسانيين امثال : بوتنجر، أحد رجال الفكر في مدينة اوغسبورج ، الذين يدافعون بقلمهم ولسانهم ، عن شرعية وجدوى المشروعات التي تضطلع بها الرأسمالية ، وعن شرعية الدين بفائدة .

فكبار المفكرين ، في هذا العصر ، لا يختلف تفكيرهم بشيء عن تفكير روكفلر وكارنجي وكروب وتيسّن،في زماننا هذا . فقد هاموا بالتطور وراحوا يترسمونه ويحاولون تحييزه ، الى اقصى حد ، في هذه القصور والصروح ومعارض الوحوش التي انشاؤها ، وهـذه المجاميع الفنية التي لا تثمن من الانسجة والاقمشة والديباج ، والسجاجيـــد والطنافس والمجوهرات ، والحلي والآثار القديمة ، التي وفق الى جمعها، وهذه التواصي الفنية التي اوصى عليها لدى مشاهير الرسامين وكبار الفنانين ، في رعايته للادباء ونصرته للانسانيين صانعي الرأي العام . كل هذه الوسائل والذرائع ادوات بين يديه حققت له الكثيرين من الاصدقاء والزبائـــن. الا ان معظم رجال المال وذوي الثراء نظروا دوماً الى الفن نظرهم الى وسيلة تساعد على العيش الكريم الرغيد والرفه في الحياة ، فكانوا يلطفون من حدة نشاطهم بالاستمتاع بالراحة والاستجمام . وكان عدد كبير منهم انضوى تحت لواء الانسانية وانخرط بين اتباع الابيقورية جزلوا للفاكهـــة والمباسطة ، والعبث . ولذا كانوا ينسحبون باكراً من العمل لينصرفوا لاملاكهم ومقتنياتهم يرعونها ناعمين بما تم لهم من ثروة عريضة وغنىً بعيد .

الفصل الرابع

الدولة ونظمها الاقتصادية

بين دول كبيرة وصغيرة

اوروبا حضارة هي وليست وحدة سياسية . فالصورة التي راودت خيال الناس ، في الاجيال الوسطى ، والحلم الذي جال في خاطرهم بان يروا جمهورية مسيحية يتولى زمنياتها الامبراطور والروحانيات فيها البابا ، في تعاون بينهما ، نزيه ، متبادل ، بقيت ترقص في الاذهان، وان أعوزتها القوة وخلت من قوام وكيان . فالبابا يتجاهل سلطته الكثير من الناس وبعضهم يهاجمها، حتى في الدول الكاثوليكية بالذات، وينكر عليها حق الاهتمام بما للدين وضوابطه . أما الامبراطور فسلطته مقصورة على الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، لا وجود لها ولا لها اي وزن الا في هذه الامارات التي يشرف عليها بوصفه الرئيس الاعلى أو العاهل . وهذه الفردية ، التي طبعت عصر النهضة تتجلى، في المجال السياسي ، بهذه الدول أو الدويلات التي انتظمت سلك اوروبا ، فجاء ظهورها تعبيراً عن هذه القوميات المختلفة التي جاشت بها القارة على شيء من التوازن . وفكرة المساواة في الحقوق التي اختلجت بها هذه الدول والافراد الاحرار ، فيما يتعلق بالاخلاق والمثل الواحدة المتشابهة ، حلت محل مبدأ السلطة المسلسلة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لها قاسماً مشتركاً ، بالرغم مما باعد بين هذه الدول من انقسامات حادة ومنافسات وخصومات .

والنزعة التي جاشت في الضمائر بانشاء دول كبرى، تبنت حركة ترمي الى اعـادة تشكيل اوروبا وفقاً لهذه الصورة التي تبلورت في الاجيال الوسطى والتي أوشكت ان تتحقق وتتحيز بالفعل على اساس من التوازن النسبي . واستطاعت بعض الدول كفرنسا مثلاً ان تفرض سلطة الملك وحده ، على هذه الامارات المرتبطة بالتاج بالولاء له ، والتي حاولت ان تنشيء من ذاتها قوميات مستقلة، كدوقية بورغونيا ودوقية بريتانيا، فاعلنت اولاهما اندماجها بالتاج عام ١٤٩٣، والثانية عام ١٥٣٢ . وهنالك بجوار فرنسا ، دول كاسبانيا مثلاً أنجزت وحدتها القومية بضم ممالكها بعضاً الى بعض ، كمملكة اراغون وقشتيليه ، اثر زواج فردينان وايزابيل عام ١٤٦٩، ومن بعدهما في عهد شارل الكبير الذي سيُعْرف ، في المستقبل ، باسم شارل الخامس ، عـام

١٥١٦ ، وفي الجزر البريطانية حيث انضمت امارة ويلز الى انكلترا فخضعتا معاً ، منذ عام ١٥٣٦ ، لحكم واحد وادارة واحدة . اما في الامبراطورية المقدسة فقد حوّل الامراء فيها اماراتهم الى دول فعلية . بينما بقيت ايطاليا منقسمة على ذاتها ، الى دويلات قوية الدعائم . متحررة من كل تبعية أو من كل رابطة ولاء الواحدة نحو الاخرى ، على اساس من توازن القوى فيما بينها ، قبل ان تجرفها من الوجود الضرورة القاضية بانشاء دولة كبرى فيها ، اسوة بغيرها من البلدان المجاورة .

الجغرافية السياسية وزوال المدينة ـ الدولة

هذه الدول الكبرى وهي في الغالب اصغر مساحة منها اليوم [١] تبدو ، بالفعل ، اكبر ايضاً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ، بطء المواصلات وضعف كثافة السكان . وتبدو شاسعة جداً ، اذ تتألف من مدن ومنطقتها المجاورة، او من مدن منعزلة تنعم بضاحية ، خصبة ، مكتظة بالسكان، تفصل بينها مسافات شبه صحراوية، وغابات واراضي براح . وضمن الولايات وهذه الدول نرى حدوداً وتخوماً منتصبة مميزة ، امثال فرانش كونتيه وسويسرا ، وغابات الصنوبر الكبيرة المؤبدة وهؤلاء المعمّرون في مقاطعة فرانش كونتية ، قدموا من الشمال ، متدثرين بجلود الحيوانات يحرثون الارض بايديهم ليخلقوا منها اراضي مزروعة بالقمح، المتموج مع النسيم . ويأخذ سكان مقاطعة فو بقطع الاحراش لتوسيع المناطق الزراعية باتجاه جيرانهم ، يقيمون فيها المزارع والدساكر ، الى ان يقع التصادم بين الفريقين . وهو صدام عنيف استعمل فيه الطرفان الغزو والنهب والسلب ونصب الشباك والاحابيل ، امعاناً في الوقيعة ، كما استعانوا بالخناجر يمعنون طعناً عجزت عن ان تضع حداً له ، هذه الاتفاقات المعقودة ، ولا تحديد التخوم وتعيين المدى الحيوي بين الفريقين .

وهذه الجغرافية السياسية التي جاءت صورة حتمية لهذا التاريخ البشري ، بدت على دويلاتها مع ذلك ، نزعة تتفاوت قدراً ونسبة ، نحو الاندماج والانصهار ، وان بدت غامضة ، غائمة . فالولايات التي انصهرت حديثاً مع املاك التاج في فرنسا ، اعترفت بمبدأ الولاء والتبعية الملك ، وفقاً لعهود نصت من جهة ثانية ، على احترام اعرافها وعاداتها وتقاليدها المرعية ، وعلى حقها بان يتولى الادارة فيها موظفون محليون من سكانها وتربتها . وفي اسبانيا ، احتفظت مملكة اراغون بمؤسساتها ونُظُمها وبما لها من شخصية مفردة . وهذه الدول الكبرى ، تستطيع ، وحدها ، بما تم لها من اتساع الرقعة وانبساط المدى ، ان تتحمل اي صدمة حربية تتعرض لها دون ان تحسب حساباً لاي احتمال تصدع او تفكك ، بعد ان امّنت ما هي بحاجة اليه من عدة وعتاد ، ومن موارد تفي بأوَد الحرب ونفقاتها المرهقة . وهكذا شهد القرن السادس عشر ، زوال هذه الدول او الكيانات الدولية المتوسطة التي نستطيع ان نسميها

---

(١) كانت مساحة فرنسا عام ١٤٩٢ نحوا من ٤٨٠٠٠٠ كلم٢ . بينما هي اليوم (١٩٥٠) ٥٦٠٠٠٠ كلم٢

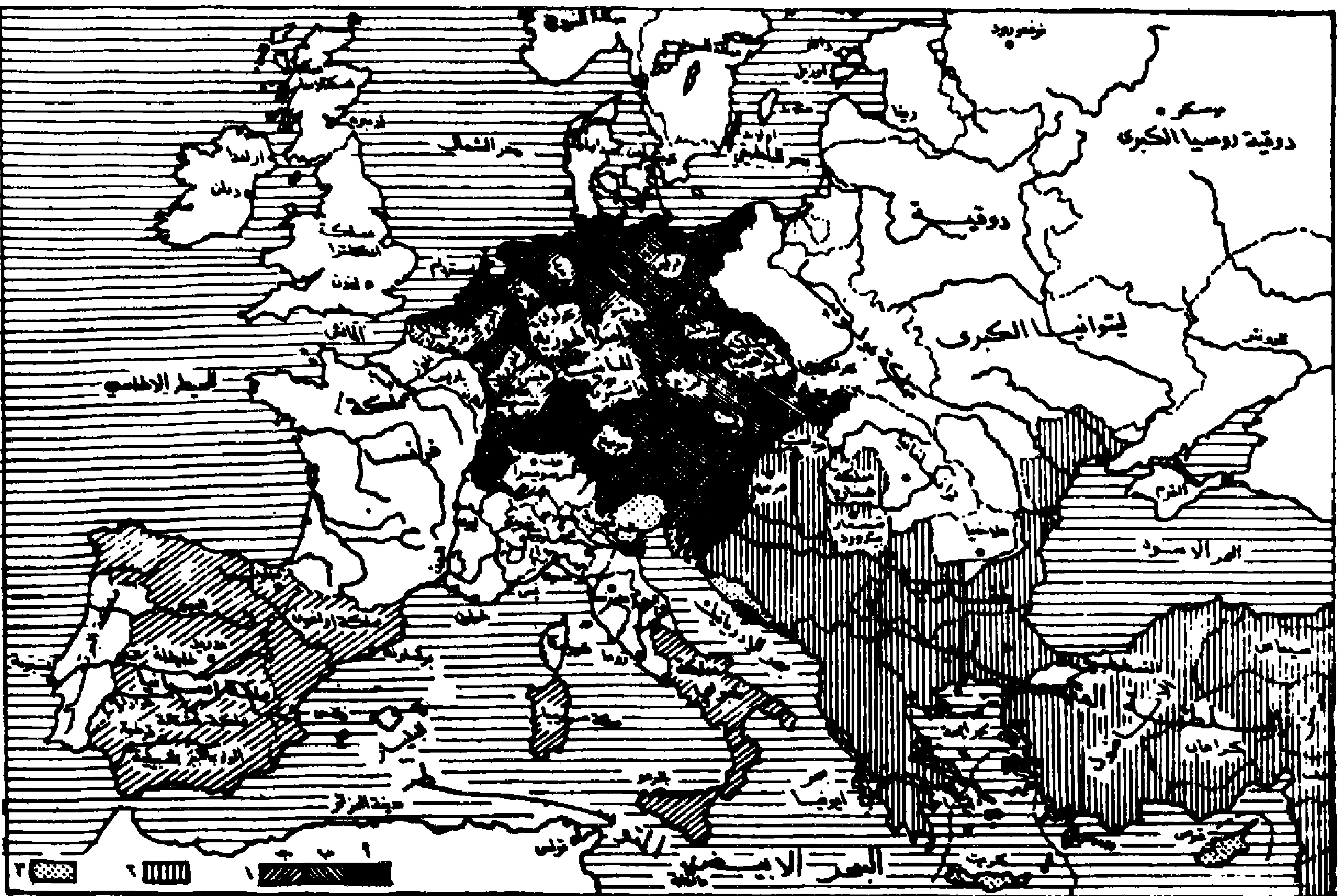
بالنسبة للدول الاخرى ، دولاً اقليمية او محلية ،منها مثلاً : الفرانش كونتية ، او هذه الدول التي كانت نواتهـــا الاولى او قام محورها الاساسي ، على مدن تجارية ، كالبندقية ، مثلا التي تصح تسميتها بالدول – المدن،وهي هذه الدول التي تكون فيها المدينة ، هي الحاكمة والمضطلعة بالادارة عن طريق ابنائها . وهذه الدويلات صار امرها الى كيانات لا شأن لها ، او انها راحت فريسة فتح اجنبي فاندمجت مع دولة كبيرة ، كما حدث للقسطنطينية عام ١٤٥٣ وكما حـــدث لنوفغورود الكبرى عام ١٤٧٨ ، ولغرناطة، عام ١٤٩٢ . ومن الطبيعي جداً الا ترضى بمثـــل هذا المصير المشؤوم وان تتنكر له في هذه الثورات والانتفاضات التي قـامت بها . ولم ينجُ من هذا المصير سوى البندقية التي لاتزال تلعب بعد ، دوراً بارزاً في الحروب الايطاليـة ، ولا سيما في الحرب ضد الاتراك العثمانيين ، مع انها سجلت هبوطاً نسبياً في الميزان الدولي ، اذ ذاك .

١ – تطور الملكية المطلقة : اوضاعها

معظم هذه الدول تتجه في تطورها وفي تطلعها الى التكامل ،نحو الملكية المطلقة او الحكم الاستبدادي . ويكون النظام الملكي مطلقاً او مستبداً ، عندما يجسّم الملك ، في شخصه ، المـُثـُل الوطنية ويتمتع ، قانوناً وفعلا ، بكل مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها : كحق التشريع وسن القوانين ، وحق اقامة العدل واشاعته بين الناس ، وفرض الضرائب وجبايتها ، وتجييش الجيوش وتكتيب الكتائب الحربية ، وتعيين الموظفين ، وانزال القصاص الصارم بمن يتطاولون على المصلحة العامة ، ولا سيا من يتعرض منهم للسلطة الملكية وذلك بفضل ما يتمتع بـــه من ولاية وصلاحية ، صادرتين عن سلطانه كقاض اعلى . وقد جاءت فكرة الملكية المطلقـة تُرفد دون ان تمسها او تنتقص منها بشيء ، مفهوم المواثيق والاعراف التي تحدد الروابط التي شدت اصحاب الاقطاعات ورعاياهم الى الملك .

حب الوطـــن

وهذه الدول الكبرى تجيش بحب الوطن الذي يبعث فيها الحيوية والنشاط ويحملها على تحقيق وحدتها . وهذا الحب مصدره التعلق بالاقليم او المنطقة ، والولاء للملك صاحب السلطة الاولى في البلاد . ويشحذ الروح الوطنية في النفس الجهـــاد ضد الاجنبي الغازي ، المستبيح ، فيعمـــل على ايقاظ النفوس ، وعلى الاهتمام بالمصالح العامة المشتركة ، وذلك بفضل ما للموظفين الملكيين من تأثير وتوحيد في هذا المجـال ، والروابط الاقتصادية المشتركة التي تشد الاهلـــين بعضاً الى بعض ، ولا سيا بفضل تأثير الانسانيين على رجال البلاط والحاشية الملكية ،وعلى كبار ممثلي الطبقة البورجوازية الذين يشار اليهم بالبنان او يسير الناس في خطاهم. فالحرية تبعث في الانسان هذا الشعور الذي يصدر عن اعماق النفس، كما انها وجه من تجاوب الانسان مع محيطه ،وكلها عوامل وحوافز اضافية تزيد هذا الشعور جلاء ووضوحاً ، ودقة ، وتوليه بالتالي مزيداً من القوة والدفع يشعر معه غليوم بوديه *G.Budé* في



شكل ٢ ــ اوروبا في عهد شارل الخامس والسلطان سليمان القانوني

١ ــ البلدان الخاضعة لسلطان آل هبسبورج :

أ ــ الامبراطورية المقدسة　ب ـ ممتلكات فردينان ، شقيق شارل الخامس　ج ـ ممتلكات شارل الخامس في المتوسط

٢ ــ ممتلكات سليمان القانوني　٣ ــ ممتلكات البندقية .

قرارة نفسه بان روحاً مشاركةً واحدة ، كأنما تجيش في صدر فرنسا وتضفي عليها شخصية واحدة . ولهذا السبب بعينه راح يقدّم كتابه : *De Asse* الى « شيطان فرنسا » اي الى النبوغ الفرنسي . والانسانيون الفرنسيون يعلنون عالياً ، وعلى الملأ الاكبر ، أولوية فرنسا . وهاهو غاغن *Gaguin* يدافع عن الوطن ، هذا الام الحنون ، فيعدد لنا الفضائل والمناقب التي يتحلى بها هذا الوطن : شجاعة الفرسان ، حب العمل والاستمساك بروح الاقتصاد وهناء العيش الرغيد ، وهذه الانسانية في الاخلاق السامية . ويحلو لـ *Valeran de Valerannes* ان يرى ، في فرنسا ، الدولة الرائدة ، الزعيمة . ألم يفتح الغاليون اليونان ومقاطعة إيونيا ، ومقدونيا ؟ أو لم يستولوا على روما ، ويحملوا الحضارة الى ما وراء الالب ؟ أوَ لم يفتح حفدتهم جرمانيا ، وينقذوا الكرسي الرسولي ، ويستخلصوا الشرق من قبضة المسلمين ? وفي هذه الفتوحات العريضة التي قامت بها فرنسا ناشرة معها الافكار الجديدة ، ألم تبق أمينة لما اتسم به نبوغها الخلاق من تجرد ومثالية ؟ (١٥٠٨) ويتغنى دانغلتير بالانتصار الباهر يحققه شارل ده مارتل على العرب والمسلمين ، هذا النصر المبين الذي جاء خير هدية من فرنسا لاوروبا جمعاء ، اذا أمن لها الحرية ، هذه الحرية التي لا تقدر بثمن . ويتشبع الفرنسيون من هذه المآتي والانجازات التي جاء التاريخ يحلوها على مثل هذا النحو من سطوع الصورة وسنائها ، في هذه المشاعر العميقة التي تمور في اعماق النفس ، حيث تستحيل حباً للوطن ، على مثال الاقدمين ، هذه المثالية التي وضعها الفارس المسيحي نصب عينيه . وعندما راح الملك فرانسوا الاول يحمل الى قائده العام غاليو ده جنوياك . نبأ مقتل ابنه واستشهاده في معركة سريزول ، صرخ غاليو هاتفاً بكل بساطة : « شكراً لك يا الهي ، هذا الولد الذي جدْتَ به علي في تحنانك الالهي ، قد راق في عينيك ان تأخذه اليك » ، ثم التفت الى الملك وقال : « اني لسعيد ، مولاي ان يكن لي ولد على هذا الشكل يجود بنفسه ويبذل دماءه فداءً للملك والوطن » . وهل من عجب ، بعدُ ، اذا ما عرفنا ان غاليو أولع بالثقافة القديمة ، وانه كان عيَّن لابنه ، مهذباً انسانياً من بين ادباء النهضة ؟ ولم يكن سكان قشتيلية والانكليز والفلمنك ليُقلّوا عن الفرنسيين تعلقاً باوطانهم وهياماً بحبها . ففي ايطاليا المنقسمة على نفسها دويلاتٍ وجمهورياتٍ تتناحر فيما بينها ، كانت دويلاتها ممثلة بالبندقية وفلورنسا ونابولي ، وبفريق الانسانيين فيها بمن فيهم مكيافلي يتمنون ، بالسنتهم واقلامهم ، ان يروا ايطاليا ، تنعم بوحدتها واستقلالها الناجز التام . وهذه الامم والشعوب التي جاشت في قلب الامبراطورية المقدسة ، وكل فريق الانسانيين فيها ، امثال ويمفلنغ من سكان ستراسبورج ، كانت صدورهم تلهج بالوحدة الالمانية . وهذه الروح الوطنية لم تكن لتقل بشيء عن الروح القومية .

عبادة البطل

وهذ التطور خضعت له الملكية المطلقة او الحكم الاستبدادي لم يكن الفضل فيه اساساً ، لهذه الرغبة الطبيعية التي جاشت في صدور الملوك بحيث

يزدادون سلطاناً وسؤدداً . فالحق الروماني هو الذي طلع علينا ، في القرن الثالث عشر ، بفكرة الملك المستبد الذي يجمع في شخصه كل السلطات ، هذا الملك الذي كانت مشيئته هي القانون . ان اقبال القرن السادس عشر على احياء التاريخ القديم ، اضفى على الحق الروماني قوة جديدة بالنظرة الجديدة التي نظر بها الى الملك « البطل » ، هذا النصف الاله المسيطر الخيّر . فليس الأمر مجرد صورة ذهنية او فكرية تستبد بالفرد او تعبث به وتحفز به الى العمل والتصرف. فالحق الروماني مدين بالنجاح الذي لقيه ، لهذه الاصطلاحات والتعابير السهلة التي عبرت عن خلجات الناس ونزعاتهم الدينية واحاسيسهم الدفينة في هذا العصر الذي وُضع فيه . فالبطل هو النموذج الذي ترغب الشعوب باحتذائه ، والنسج على منواله . فنظرية الحكم المطلق او المستبد تعبر تماماً عن هذه النزعات الفيّاضة التي تجيش بها هذه المجتمعات فكانت تعبيراً صادقاً عن رغبات المجتمع البشري .

صراع الامم

فالحاجة الى سلطان قوي ، هي من هذه المتطلبات التي يقتضيها صراع الامم. فمن بروز الدول الكبرى التي لها من القوة والبطش ما يجعل ملوكها يسيطرون على المنازعات الداخلية ويحزمون امرهم لبسط سيطرتهم في الخارج ، ومن هذه النجاحات التي سجلتها الدول المذكورة في سبيل تحقيق وحدتها الاقتصادية ، انطلقت هذه الحروب العظيمة ، الطويلة الأمد التي خاضتها في سبيل توطيد تفوقها الاقتصادي والسياسي . فالحروب تستدعي حتما تقوية السلطة وتعزيزها ، وتتطلب حكومة قوية تأخذ بمنتهى السرعة قرارات يسهر على تنفيذها الجميع ، انى واينما كانوا .

النزعات الاقليمية

قيام سلطة قوية في الدولة هو من مقتضيات الامم ومتطلبات كيانها . فالامم هي عبارة عن مجتمعات جغرافية قائمة جنباً الى جنب ، كهذه الولايات والمقاطعات والبلديات والهيئات والمؤسسات البلدية والقروية ، والمنظمات المعترف بها الممثلة بهذه الطبقات الثلاث الاكليروس ، والنبلاء والشعب ، وهيأة موظفي الدولة ، والجامعات والنقابات المهنية . وقد قام بين هذه الممالك وبين هذه المجتمعات ، على اختلاف مسمياتها ، عقود وعهود ، اعترفت رسمياً لكل منها بما لها من ممتلكات ورئاسات وممثلين بحيث تتألف من هذا المجموع ، وحدة تتمتع بقوة وسلطان . وقد انصبت هذه الهيئات والمنظمات في وجه بعضها البعض ، لتضارب المصالح وتباين المشارب والاهداف . ولذا كان لا بد من ان يكون جانب الملك قوياً ليقضي في اختلافاتها ، على السواء ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، بحيث يؤمن الانسجام التام بين اعمالها وتصرفاتها ، لما فيه الخير العام . وكثيراً ما رأى من مصلحة التاج ان يفيد من هذه الانقسامات بما فيه خير البلاد والامة جمعاء .

المنافسات السيادية

على هذا ، قس ايضاً المنافسات التي شجرت بين ممثلي البيوتات الكبيرة من آل ابولي ، وألب ، في اسبانيا ، وآل شالون ، وآل فرجيز ، وآل هورن . وآل اغمونت ، في البلاد الواطية ، وفي الفرانش كونتيه ، وآل شالون ، وآل بوربون ،

وآل مونمورنسي وآل ده غيز ، وآل كونديه ، في فرنسا ، وغيرهم كثيرين . وفي هـــذه المنافسات ما فيها من مخاطر لانها تجيش باعراف الاجيال الوسطى وعاداتها . وقد شدها بعضاً الى بعض : وشائج الدم ، واواصر التبعية ، وروابط المصاهرات والتزاوج ومن التف لِفّهم من الخدم والحَشَم ، والازلام والاتباع ، والفدائيين والمتعيشين ، من يبذل دمه ويستعد لارتكاب العظائم لاجلهم . وقد بلغ من حدة المنافسة بين هذه العوائل ومتانة الروابط التي جمعت بينها انه لو اتفق لاحدهم واقترن بنسيبة سيد من هؤلاء الاسياد السُنُد ، مهما كانت القرابة بعيــدة بينهما ، فيكون الصهر الجديد قد أمن لنفسه حماية هذا السيد الكبير وتمتع بعطفه وحمايته ، بينما يقطع الصهر الجديد على نفسه عهداً بالذود عنه والتجند لخدمته ، ولو ضد الملك بالذات . وكثيراً ما كان الملك يجد في بطانة هؤلاء الامراء وفي معيتهم ، اتباعاً له وانصاراً ومريدين هم على اتم استعداد لشد ازره اذا ما حدّثت احدهم النفس الامارة بالسوء ، بالعصيان والتمرد ، كما كان واثقاً من جهة اخرى ، من ولاء خصوم هؤلاء الامراء له .

الصراع الطبقي

ساعد على تمتين الحكم الاستبدادي والترسيخ له في القلوب والنفوس ، هـــذا الصراع الطبقي الذي تجلى على اشده بين الطبقات ، ولا سيما بين البورجوازية منها والنبلاء . فالملك الذي كان يشعر عميقاً بحاجته للطبقة البورجوازية التي كانت بالفعـــل ، عماد الدولة بما فيها من اموال طائلة ، وبما تقدمه للادارة الملكية من موظفين وعمال ، وبموقفهـــا المعارض ضد الاقطاعيين ، كان من السهل عليه جداً تأمين ولائها ومساندتها لقضايا التاج . فالسلطة الملكية ساعدت كثيراً على تيسير الاثراء وانماء الثروة لدى التجار البورجوازيين بما اسْتَلَفَتْه منهم من قروض وبما رهنته لديهم من ممتلكات لقاء سلفات ، وبمـــا عهدت اليهم من تكليف جباية الرسوم والعوائد الملكية ، وبما اولتهم من حقوق فرص الاحتكارات ، وبحمايتهـــا لهم من مفعول القوانين الكنسية ضد الربا ، وبوقوفهم الى جانبها ضد العراقيل والمصاعب التي كثيراً ما اثارها الامراء في وجه الملك ، وضد موقفهم المتنكر للنقابات العماليـــة . كذلك ، اتخذت السلطة الملكية رؤساء الحرف وسيجّت حولهم باعترافها بهـــا وباقرارها للانظمة والقوانين الاساسية التي سنتها لنفسها ، وبما آمّنته لها من حماية قانونية تعدتهم بالتالي الى زبائنهم ، كما صانت ارباحهم من جشع المتمولين وكبار الاغنياء . وقد عطفت السلطة الملكية على البورجوازيين العاملين في القطاع التجاري او في المهن والحرف وحمتهم ضـــد تعديات البروليتاريا الجديدة . وبذلك هيّأت لهم الظروف التي تساعدهم على الاثراء ، وان يحققوا ما حلموا به من ان يكونوا ، يوماً ، من اصحاب اليسار . فالملك وحده يستطيع ان يحقق لهم هذه الاحلام التي راودتهم وهذا الرقي الاجتماعي ، وذلك بايلائهم الوظائف العامة التي في توليها شرف لهم ، وبايلائهم إقطاعات لا تُعطى الا للنبلاء . وهكذا ارتفع كثيرون من بين البورجوازيين الى طبقة النبلاء . الا ان هؤلاء البورجوازيين المتأثّلين عرفوا ان يحافظوا ، مع ذلك ، على الكثير من أعرافهم وعاداتهم ، وعلى ما عُرِفوا به من روح الفطنة والاعتدال والتروّي . فالسيد برنو ، كونت ده غرانفيل ، اسقف اراس ، ومستشار

الامبراطورية، يرسل بتعليماته ونصائحه ، حتى في احلك الظروف وأقسى الحالات التي مرت بها سياستها ، لما فيه خير الامبراطور ومنفعته الخاصة . ونراه يعلق على ما يرده ، في البريد ، من تقارير يبعث بها اليه مفتشوه ، بشأن موسم القمـــح وحالة الاسواق ، ويقرر بنفسه الظروف الملائمة للبيع باحسن الاسعار وأطيبها ، ويخطط للامور باحسن ما يفعل العاملون على خدمته ، ويرسل بتحارير ورسائل من اربع صفحات يحشوها بالنصح والارشادات يحث فيها عملاءه على ان يتخلوا لاحد ، عن أي رهن ، مهما كان طفيفاً ، ويوجههم بان يرفعوا اليه التقارير المفصّلة عن قرائه ، ويشكر الله على انها خالية من كل ما يعبث بها ويعبث فيهـــا ، ويشدد عليهم بألا يفرّطوا باي كمية من الزبدة بدون اذن خاص منـــه . وهكذا نرى كيف ان الارستقراطية تطبّعت بطبائع البورجوازية . ومع ذلك ، فاذا مـــا أخذ بعض النبلاء من أصحاب الحسب والنسب والمحتد الرفيع بهذه الطباع ، واذا ما تسربت بعض هـذه الاعراف الى أسر نبيلة عن طريق زوجاتهم ونسائهم من الطبقة البرجوازية ، فما زلنا نجد ، مع ذلك ، نوعين او صنفين من النبلاء : نبلاء النسب القدامى ، المزهوين بشموخ وترفع ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ارتقوا الى هذه المرتبة ، بعد جهد وجهود مريرة ، وبعد ان احترف عدد كبير من اعضاء الاسرة ، مهنة السلاح والحرب ، فعدّوا « جديرين » بهذا الشرف الاثيل .

ولم يكن في وسع طبقة النبلاء ان تتحامى من استعلاء الطبقة البورجوازية ، الا اذا لقيت حظوةً في عين الملك . ولما كانت ترى ، في نهاية الامر ان ليس من مهنة ارفع واسمى واشرف من مهنة السلاح ، فقد اهملت العناية بممتلكاتها ، وبحقوقها الاقطاعية . ومن جهة أخرى ، فان هبوط قيمة النقد الشرائية ، احدث هبوطاً ذريعاً في قيمة عائداتها النقدية . فبإمكانها ان تعيش عيشاً كريماً على ممتلكاتها مكتفية بوارداتها ومداخيلها العينية وبالخدمات التي يؤمنها لها مـــا عندها من خدَم وحشم . إلا انّ مغريات العيش في البلاط الملكي والدلّ بالقابها واوسمتها في الابهاء والمجتمعات ، والاستقبالات في المدن ، والاشتراك في التجريدات الحربية البعيـدة ، كل هذا يجتذبها ويستغويها . ولذا نراها تمعن في انهاك نفسها وتتهالك ، اكثر فأكثر ، على هـذا كله . فحياة البذخ هي من مستلزمات حياة النبل والشرف . فالجود والكرم والسخاء هدف بعض اخلاقية النبيل، لا يمكن اغفالها او التخلي عنها ، بينما الرقي البورجوازي يقتضي له، اكثر فأكثر ، وفقاً للشعور النيتشي ، ان يعكسوا الى فضائـــل ، عورات الاشراف ومساوئهم ، تمييزاً لهم عن البورجوازيين . فقصور النبلاء تمور بجيش من الخدم والحشم ، والاعياد والحفلات الرائعة التي تقام بمناسبة الاعراس تفتح المجال واسعاً للمراقص واعمـــال الفروسية ، والمسارح ، ومراسم الجنائز تقتضي المئات من القداديس ، ومن الشموع المضاءة ، ومـــن ارتال الفقراء والارامل مرتدين ثياب الحداد ، حاملين الشموع ، ومبالغ طائلة توَزَّع صدَقات وحسنات ، كل هذا يستهلك مدخول اسرة بورجوازية محترمة لمدة سنة . ففي حفلة رقص ومخاصرة يقيمها البلاط ، مثلاً ، يرتدي النبيل الذي يحضرها – ولا بد له من حضورها – بزة ، يتمثل فـــوق

كواهله، ثمن قطيع كامل. وهكذا يرى هذا النبيل نفسه مضطراً ليضع ذاته بخدمة الملك ، وان يلتمس منه ، وفقاً لمرتبته في سلم النبل والشرف ، وظيفة حاكم في ولاية أو مقاطعة أو ناحية ، أو وظيفة قائد موقع في قلعة حصينة ، أو رتبة زعيم في الجيش ، او عريفاً بسيطاً في فرقة صغيرة أو في الحرس الملكي ، او ريعاً ثابتاً أو بائنة لابنه المتزوج ، او رئاسة دير ، او درجة اسقف أو حبر لابنائه الآخرين . وهو لا يستطيع ان يقف بوجه البورجوازي ويحافظ على مركزه في المجتمع ، الا بوضع نفسه تحت جناح الملك . فقد خف والحق يقال ، كثيراً شأن هذه الاقطاعات التي قامت الى الغرب من نهر الايلب وجبال الألب الدينارية ، كما نجد أكثر فأكثر ، من جهة ثانية ، النبلاء ، وعدداً اقل من الاسياد ، يستخدمون ما لهم من سلطة وسلطان في اقطاعاتهم ، مع ولائهم للرئيس الاعلى ، كما نرى ، اكثر فأكثر ، هيئات ومنظمات اجتماعية ، يضفي عليها رئيس الدولة ، بصفة وراثية ، ولقاء خدمات يؤديها له أصحابها ، في الحرب أو في الادارة ، مرتبة أعلى ، وألقاباً مسلسلة مثل : دوق ، وماركيز ، وكونت ، وبارون ، وغير ذلك من الالقاب العريضة كما يوليها : أوسمة وشارات شرفيّة ، ويغدق عليها من مقومات العيش الكريم ، وغير ذلك من النعم ، وهو مرتبط بالدولة وحدها وما هو متوقف على ادارة ملكها العليا .

ولعل هذا الصراع الطبقي هو اهم عامل يساعد على تطوير الملكيات المستبدة .

حدود السلطة المطلقة

ومع ذلك فقد كانت القوة الفعلية لهذه الملكية المستبدة اقل تأثيراً على سير الحياة اليومية لرعاياها مما تمّ منها للحكومات الديموقراطية التي طلعت في القرن التاسع عشر . فالشريعة الالهية المسيحية ، والقوانين الاساسية التي قام عليها النظام الملكي والتي حددت الاوضاع السياسية لكيان الملكية ووجودها ، وقانون الحق العام الذي نص على حق التملك ، ووضع حدوداً لحريات الفرد والجماعات وبيّن ما لها من حقوق وواجبات والتزامات ، وأعراف وعادات ، كل هذه العوامل وما اليها ، جاءت تحد من سلطة الملك وسلطانه . كذلك يحد من طاقة هذه السلطة ، هذا العدد الضئيل من الموظفين وصعوبة المواصلات وندرة وسائلها . فاذا إقتَصَرْنا على الموظفين المدنيين وحدهم في فرنسا ، وفيها اذ ذاك أكبر هيئة للموظفين في ايّة دولة من دول اوروبا ، جمعاء ، نرى ان عددهم لم يكن ليتجاوز ، حوالي عام ١٥٠٠ ، بضعة عشر الف موظف في دولة تضم زهاء ١٥ مليون نسمة ، وبلغت مساحتها نحواً من ٤٨٠،٠٠٠ كلم٢ ، اي بمعدل ١ لكل ٢٥٠ نسمة ، وبنسبة او بمعدل موظف واحد لكل ٤٠ كلم٢ (ففي سنة ١٩٣٤ وفي مجتمع اكثر تعقيداً وتداخلاً في تركيبه وتنظيمه ، كانت النسبة بمعدل موظف واحد لكل ٧٠ شخصاً ، و ٥٦ موظفاً لكل ٤٠ كلم٢) اما نفوذ الادارة المركزية وتأثيرها ، فكان ، بالطبع ، اقل بروزاً واستمراراً وفعاليةً منه اليوم . فالامراء ، والهيئات المنتظمة والمؤسسات كانت تقوم كلها ، تحت اشراف الملك ورعايته ، بمهام كثيرة هي اليوم من اختصاص الدولة وصلاحياتها الاساسية .

أتاح مبدأ السلطة المطلقة بالفعل ، لهذه الهيئات والمنظمات التي تشكلت من فرقاء متباينين، أصلاً وفصلاً وأوضاعاً ، ان تعمل معاً في هذه المَعطَفة من التاريخ ، يتوقف عليها مسألة موتها او حياتها . فقد اتاح هذا المبدأ ، عملا بداعي الترابط والاعراف ، ان يحقق، بعد ان عرف كيف يتفادى التطرف والمغالاة التي تَجنح اليها نظام ثيوذوسيوس ويوستنيانوس ، هذا التوازن الذي نراه ، بالرغم مما أحاق به من عوامل قومية ومؤثرات مختلفة ساعدت على التشتت والانقسام ، وان يحافظ في وسط هذا المصطرع ، على بقاء هذه الملكيات ، ويؤمن عوامل رقيها وتطورها الصاعد نحو دولة نموذجية ، اكثر مركزية وأكثر وحدة ، لا بد منها لتأمين الازدهار والنجاح .

٢ ـ الملكية الفرنسية اكثر هذه النماذج تطوراً

حققت فرنسا اكثر من أي ملكية اخرى في اوروبا ، شروط الملكية المطلقة ، ولذا كان شارل الثامن عشر (١٤٨٣ ـ ١٤٩٨) ولويس الثاني عشر (١٤٩٨ ـ ١٥١٥) وفرنسوا الاول (١٥١٥ ـ ١٥٤٧) وهنري الثاني (١٥٤٧ ـ ١٥٥٩) من هؤلاء الملوك الذين قبضوا بيد من حديد ، على السلطة في البلاد . فالسلطة المطلقة التي تمتع بها ملك فرنسا ، اعتُرِف له بها قانونا. فهي هبة من حق إلهي . ولذا كان الملك مسؤولاً امام الله وحده ، ويتمتع بالتالي،وحده بكل السلطات العليا والصلاحيات ، كحق اعلان الحرب ، وعقد المعاهدات التي تعيد السلام الى البلاد، ويفرض ارادته على رعاياه . فهو وحده يملك سلطة التشريع واصدار القوانين لانه هو وحده القانون الحي ؛ وهو وَحده الذي يقضي ، لانه وحده القاضي الاعلى ، والحكم الذي يصدره لا يقبل اية مراجعة او نظر من اي مرجع آخر . عليه ، مع ذلك ، ان يحترم المواثيق ويراعي الاعراف والعادات المرعية الاجراء ، وقوانين البلاد الاساسية التي ينص اولها على ان يتوارث الملك احد افراد اسرة هوغ كابت ، ماجدٌ عن ماجدٍ ممثل بالابن البكر في الاسرة ، دون ان يكون للملك اي حق بان يوصي بخلاف ذلك او ان يقرر ما يتعارض مع العرف والتقليد المتبع ، كما يترتب عليه ان يحترم القسَم الذي ادّاه يوم تكريسه ، هذا القسَم الذي يلقي عليه مسؤولية الدفاع عن الكنيسة ضد الهرطقة .

وسائل العمل المتوفرة للملك

فمنذ الفشل الذي آل اليه عام ١٤٨٤ ، اجتماع البرلمان (ممثلي الطبقات)، ليس من حريات عامة او خاصة هناك في وسعها الوقوف بوجه الملك او الحد من سلطته . فهو السيد المطلق في البلاد ، المتصرف بالضرائب على هواه ، حتى في هذه الولايات التي تحدد فيها المجالس العامة (البرلمان) هذه الضرائب كولاية بورغونيا ، ونورمنديا وبروفانس . فتحديدها لها ليس بحق تتمتع به ، بل مجرد هبة او انعام او تسامح من صاحب الجلالة ، يمكن له الغاؤه عندما يريد . وهذا الانعام ، لا تتعدى حدوده ، حرية المناقشة لقيمة الضريبة ومبلغها النهائي .

فالملك هو رأس القضاء الاعلى . فالمجالس التمثيلية ، البرلمان ، التي كان فيها ممثلو الطبقات الثلاث يحقّون بمثل الملك عملاً بالاعراف المتبعة ، حل محلها المجلس القضائي الذي يترأسه قاض اعلى او ناظر العدلية او من ينوب عنهما ، مع عدد من المستشارين الملكيين . وقد جرى إلغاء هذه البرلمانات او المجالس العامة ، بعد فرنسوا الاول . وللملك جيش دائم ، محترف ، لجب ، يرتفع عدده الى ٨٠٠٠٠ كما حصل سنة ١٥١٣ ، تدفع مرتبات افراده وضباطه من خزينة الملك . كما تدفع لهؤلاء الضباط والقادة المشرفين على امن البلاد . وتوزع وحدات الجيش على ٣٠٠ مركز او قلعة حصينة : بين مدينة او حصن . وللملك موظفوه ، يزداد عددهم ويرتفع ، سنة بعد سنة ، وفقاً لحاجة الادارة . فكل خدمة عامة هي وظيفة ، وكل وظيفة هي هبة من لدن الملك . فكل المأمورين العاملين في الخدمة العامة يعملون بوصفهم ممثلين للملك. اما عددهم فيتراوح بين ١٠-١٢ الف موظف يؤلفون اكبر هيئة ادارية تمت للملك في اوروبا ، يسهرون على تنفيذ رغبات الملك وارادته السنية . ويقوم حول الملك مجلس صغير من المستشارين ضم بين اعضائه بعض الخاصة المجربين ، يبذلون له النصح المطلق ويساعدونه بآرائهم ، على اتخاذ القرارات السياسية ، كما يوجد مجلس أوسع يضم فيمن يضمهم ، مستشار التاج ، وصاحب الالتماسات للنظر في ما خص امور القضاء والادارة . وهنالك مجلس اعلى للعدل ينظر ، باسم الملك ، في مراجعة القضايا ، والقضايا « المحفوظة » للملك . ويقوم في باريس ، وفي هذه الولايات التي جرى دمجها حديثاً مع املاك التاج يقوم برلمان او مجلس ممثلين يتألف من قضاة يعملون في اعداد القوانين ووضعها وتهيئة القرارات التي يجب اتخاذها ، كما انه يقضي في الناس ويتولى النظر في الامور الادارية . وعلى رأس الولايات حكام عامون يتمتعون بصلاحيات وسلطات واسعة . وكان الملك يتحسّب كثيراً لتصرف هؤلاء الحكام الذين كثيراً ما وقفوا الى جانب مجلس التمثيل ، وهذا ما حمله في سنة ١٥٤٥ على اصدار رسوم بالغاء وظيفة حاكم الولاية ، الا في هذه الولايات الواقعة على الحدود . ويلي المجلس التمثيلي او البرلمان شأناً ، القاضي او ناظر العدل *Senéchal* او من اليهم في المجلس ، لهم صلاحيات القضاة والنظر في امور الناس . اما امور المملكة المالية ، فكانت من اختصاص مجلس مستشاري الملك ويتولى امر مراقبتها مجلس المحاسبة الذي ادخل عليه الملك فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٣ ، تعديلات جديدة حسنت كثيراً من فعاليته ، وذلك بانشائه صندوق التوفير ، وهو صندوق يمثل الادارة المركزية ويشرف على واردات الدولة ومصروفاتها . ويشرف المفتشون الماليون على صناديق بيت المال في الولايات . وفي سنة ١٥٤٣ ، انشىء في البلاد ١٦ مركزاً عاماً للمحاسبة المالية في طول البلاد وعرضها . وهكذا كان يتسع نطاق العمل وتتشعب الادارة الملكية في كل مرفق من مرافق البلاد الرئيسية .

الحكم المطلق والكنيسة

استطاعت الملكية ، بفضل ما تمّ لها من وسائل العمل والتصرف ، ان تسيطر بالفعل على الكنيسة . فالاساقفة ورؤساء الاديار ملزمون بالولاء للملك والطاعة له وبالدفاع عنه . فالملك هو الرئيس الزمني

الكنيسة ، وهو الذي يقرر ما تصدره الكنيسة من قوانين وتتخذ من اجراءات .وللملك وحده الحق بدعوة الجامع المسكونية للانعقاد، وعليه تقع مهمة المحافظة على الوقف واملاك الكنيسة . وهذه المعاهدة الكنسية التي عقدها ملك فرنسا عام ١٥١٦ ، تعترف له بحق انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار على ان تتم سيامتهم ، من قبل البابا ، وفقاً للمراسم المتبعة ، فجاء هذا الحق ذريعة بين يديه ، لاجتذاب ولاء الاسر النبيلة ، طمعاً منها بالاحتفاظ للصغار من ابنائها، بالمناصب الكنسية الغنية الموارد . وباستطاعة الملك ان يرغم الكنيسة ورجال الدين على المساهمة ، كلا ضمن طاقته ، بالضرائب التي يفرضها . وبموجب الحق الملكي الذي كان يدعيه لنفسه ، كان الملك يتقاضى ريع الاسقفيات والاديار الشاغرة ، لعدم وجود رئيس شرعي لها . وكان مجلس الملك يشرف على ادارة الكنيسة كما ان مجالس الممثلين الملكيين كانوا يخضعون رجال الاكليروس لاختصاص المحاكم الملكية ، كما كان من حقهم ان يجرّدوا الكنيسة من حق النظر في معظم القضايا التي يتقدم بها الشاكون ، مع العلم ان برلمان باريس كان يتولى ضبط الامن ويتعهد النظام في الكنيسة

الحكم المطلق ونظام الاقطاع

الملك هو السيد السَّنَد لجميع اصحاب الاقطاعات . ففي المملكة ليس سوى اتباع للملك . فكل الامارات هي إقطاعات ترتبط بالملك ، كما ان كل سيّد او آمر ، مرجعه الاول والاخير هو الملك . فلا يستطيع الامير ان يقيم مجالس العدل او ان يشيد له قصراً في الامارة او الولاية او ان يبدّل او يغير من اسمه بدون ان يعرّض نفسه للملاحقات القانونية او للمصادرة. فالاقطاعيون ليسوا سوى رعايا الملك الذي يفرض ارادته على الامارة . كذلك يفرض الرسوم ويعين الضرائب المترتبة على اتباع الامير او السيد ، ويخولهم حق استيفاء رسوم خاصة بهم . لكل رعايا الدولة الحق بان يميزوا الاحكام الصادرة عليهم من محاكم الامارة الى قضاء الملك . وهناك عدد كبير من القضايا يُحتفظ النظر فيها ، لمحاكم الملك وحدها . ولدى اي شبهة ، يحق للقاضي الملكي ان يطلب الاطلاع على سير اي دعوى او قضية تجري امام محاكم الامارة ، لاشتباهه في امر ما ، او سوء ظن ، او لارتياب بعدم اختصاص المحكمة للنظر في القضية . وقد عرف الملك ان يضع حداً للحروب الاقطاعية ، وآخر حرب من هذا النوع هي الحرب التي خاضها امراء آل فوا *Foix* (١٤٨٤ – ١٥١٢) . ويرفع الإمراء اختلافاتهم ومشاجراتهم للتحكيم امام قضاة الملك . وهكذا انتهت ، دونما رجعة ، السيادة الاقطاعية . وفي سنة ١٥٢٥ ، ضم فرنسوا الاول ، الى املاكه، دوقية بوربون واملاكها السيادية بعد ان تمّ التشهير بصاحبها ونُودي به خائناً، متمرداً على الملك . وفي سنة ١٥٣٢ ، تم عقد اتفاق ، ضُمت بموجبه مقاطعة بريتانيا الى التاج ، هي الاخرى . وهكذا لم يبق في الجنوب يتمتع بشيء من السيادة الا امارة آل ألبريه .

الحكم المطلق والمجتمعات المحلية

فالملك هو السيد في الولايات والامارات المؤتلفة، وهي هذه المجتمعات القديمة التي تتألف من البلديات والمدن القنصلية ،

له الحق ان يعيد النظر في هذه الاتفاقات التي ربطت الولاية بالتاج ، وذلك بما فيه خير المصلحة العامة كما له الحق ان يحوّل مجلس القضاء فيها الى برلمان ، ورئيس الادارة فيها الى حاكم عام ، وان يعهد بالوظائف الكبرى الى موظفين من خارج الولاية ، وان يعهد برئاسة المجلس والهيئات القائمة فيها الى موظفين يعينهم مباشرة . كذلك يضع تحت مراقبته عمليات الانتخابات البلدية ، ويراقب اعمال المجلس والهيئات المنتخبة ، ويوزع ما لها من صلاحيات قضائية ومالية حسبما يراه مناسباً . كذلك يضع انظمة ومراتب مسلسلة للنقابات ويشكل للصناع ولممثلي الطبقات السفلى في المدن ، هيئات مسلسلة السلطة ، تحت ادارة موظفين ملكيين يأخذون على عهدتهم تنظيم المهن الحرة .

الحكم المطلق والحياة الاقتصادية

يحاول الملك ، من جهة، ان يوجه حياة البلاد الاقتصادية ناهجاً في المجال الاقتصادي سياسة قوميّة او مصلَحية تعود بالخير العميم على الجميع ، وذلك بتحقيق الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد وتوفير المعدن الثمين « عصب الشعب وقوته » كما يحلو للمستشار دوبرات (١٥١٧)ان يعلنه، وذلك عن طريق قوانين تحد من الإسراف في الانفاق ، كما تقيّد حركة اخراج العملة الى الخارج ، بدلاً من فرض رسوم على الاستيراد لا تتوفر للملك الوسائل القمينة بجبايتها على الوجه الاكمل .

وهكذا تنعم كل طبقات الشعب بعوارف الملك يوزعها بسخاء على رعاياه كل بحسب استحقاقه ، ولا سيما تلك التي تضفي على حامليها الاحترام ، تؤمن لهم النفع : كالتعويضات والأعطيات، والانعامات والاعفاءات او الاوسمة الفخرية وألقاب الشرف والنبل، او غير ذلك. والبلاط ، هذه الهيئة الجديدة او الجهاز الجديد الذي خلقه الحكم المطلق على صورته ومثله ، اصبح الآن مسلكاً او منهجاً مسلسلاً يحمل الكثير من عوامل الاغراء والجذب .

وهكذا فطبقات الشعب الثلاث ، تعمل جميعها على توطيد نظام الحكم المستبد ، بالرغم مما يميز الواحدة عن الاخرى من الامتيازات ،وما تنعم به من إعفاءات واستثناءات وغير ذلك من الروابط التي تشدها الى الملك باوثق اواصر الولاء، اذ في منافساتها الواحدة للاخرى ما يكبح من جماحها .

حدود الملكية المطلقة في فرنسا

وهذه السلطة الواسعة التي يتمتع بها الملك لها بالفعل ، ما يحد منها ويقيدها . فاذا كانت مشيئة الملك ورغبته هي التي تفوز في نهاية الامر وتنتصر ، فقلة عدد الموظفين نسبياً ، وبطء المواصلات لا يسمحان لها بالتدخل دوماً وفي كل مكان ، بالشكل المرتجى .فالسلطات المحلية لا تزال تتمتع بعد ،بشيء من المبادرة ، في حياة الولاية ونشاطها . ومن جهة اخرى ، فهذا الاضطراب او القلق الفكري الذي ران على الوضع القائم ، اذ ذاك ، جعل المؤسسات العامة تبدو وكأنها بالفعل ، اوضاع وحالات متباينة كثيراً بعضها عن بعض،تلفها حركة متصلة من التبدل والتحول والتغير .

فالوظائف ليست بالحقيقة سوى اوضاع او حالات يعمل فيها فرد او عدة افراد لا تخصص لهم ولا مهارات عندهم ، يتمتعون بحقوق وصلاحيات ويقومون بنشاطات تختلف نوعاً وتتوزع بدداً بين العديد من السيادات والبلديات والمصالح والمؤسسات الكنسية ، من الصعب ، ان لم نقل من المستحيل ، تحديد نطاق اختصاصاتها .

بيع الوظائف العامة والاتجار بها

ساعد مسلك الموظفين انفسهم وتصرفاتهم ، اذ ذاك ، على التخفيف او التحلل من ربقة سلطة الملك . فقد جرى العرف ، منذ عهد بعيد ، ان يقدم طلاب الوظائف ، مكافآت مالية لمن من موظفي المعية ومستشاري الملك وغيرهم من ذوي الربط والحل ، يساعدهم على الحصول على وظيفة ، وقد راح الملوك انفسهم يستشعرون هذا العرف ، فيبيعون ، لقاء دين لا يستوفى ابداً ، بعض الوظائف التابعة للادارة المالية ، او للقضاء . وقد استطاع الملك فرنسوا الاول ، منذ عام ١٥٢٥ ، ان يؤمن له ريعاً او دخلاً خاصاً من بيع وظائف لمكارثة غير ملحوظة . « فكان بعمله هذا كمن يفتح دكاناً لتصريف مثل هذه البضائع» . كذلك اخذ بعض الملوك يسمح لبعض الموظفين ان يبيعوا ، لقاء مبلغ معين ، الوظائف التي لهم ، لشخص آخر او يحتفظون بها ، ضمن شروط ورسوم معينة ، لاولادهم وبنيهم . وقد اتسعت هذه الاعراف وانتظم العمل بها على مر السنين. بحيث أصبحت تقليداً مكرساً وامراً معترفاً به . فقد كان من بعض نتائج هذه العادة ان رحبت من نطاق ملاك الوظائف العامة ، وان تخلق ، ضمن الادارة ، هيئة خاصة من الموظفين ، يهمّت مسؤولياتهم وغامت صلاحياتهم ، فاستماتوا مع ذلك في الدفاع عنها والتسييج حولها ، لما كانت تمثله لاصحابها ولذويهم ، من مورد رزق لا ينضب معينه . وقد اصبح هؤلاء الموظفون اصحاب حق في الوظائف التي يضطلعون بمهامها ، لا يستطيع الملك انتزاعها منهم الا في حالات خاصة ، او اذا دفع لاصحابها تعويضاً لانفاً عنها او بعد مراجعات قضائية طويلة . وهكذا اصبح الموظفون « طبقة رابعة » في الدولة ، تتراخى عراها اكثر فاكثر ، مع الملك . ولهذا رأى العاهل نفسه مضطراً ، لا سيا بعد عام ١٥٥٠ ، للجوء الى تعيين مفوضين او ممثلين له ، يعزلهم عندما يريد ، يعهد اليهم السهر على تنفيذ قراراته ووضعها موضع العمل بها .

الحروب الدينية

انّ وفاة هنري الثاني المبكرة على اثر اصابته بطعنة قاتلة في الالعاب الرياضية ترك مصير فرنسا بيد ملوك قاصرين هم : فرنسوا الثاني وشارل التاسع اللذين ملكا تحت وصاية امهما كاترين ده مديتشي . وراح بعض زعماء الارستوقراطية من آل ده غيز وآل ده بوربون ،يتنافسون على الاستئثار بالنفوذ ، يعتمد الفريق الاول على الكاثوليك كما يعتمد الفريق الثاني على البروتستانت . انطلقت شرارة الحرب الدينية من مذبحة البروتستانت على يد الكاثوليك ، يوم عيد القديس برثلماوس (٢٤ آب ١٥٧٢) فحملت في ثناياها خطراً كبيراً على الملكية في فرنسا . وراح جميع الغالين والمتطرفين ، من اي لون

كانوا ، يهاجمون الملك . وفي عهد الملك هنري الثالث حاولت العصبة الكاثوليكية ان تعيد ، عام ١٥٧٦ ، الى اصحاب الامارات والاقطاعات الكبيرة ، السلطة التي كانو يتمتعون بها من قبل ، كما حاولوا الرجوع الى التقسيات الادارية المعمول بها قبلاً . وقد سرى بين اعضاء هذه العصبة ، عام ١٥٨٥ ، نزعات ديموقراطية ، اذ بدا لبعض المفكرين من البروتستانت ان يحدّوا من سلطة الملك بواسطة مجالس وهيئات انتخابية اعضاؤها من ممثلي الشعب أخذاً بالتقاليد والاعراف المرعية. (هوتمان في كتابه : « فرنسا الفاليّة ») وعملا منهم بمنطوق العقد الاجتماعي *Vindiciae contra Tyrannos* كما ان مجالس ممثلي الطبقات (برلمان) دعيت مراراً للاجتماع . وقد كان لاستحكام الفوضى في البلاد ، والسياسة الاسبانية النزعة التي انتهجها اعضاء العصبة الكاثوليكية ، المضادة تماماً لمصالح القومية الفرنسية العليا ، ان جاءت بنتائج تخدم مصلحة هنري الرابع الذي اعتلى العرش ، اثر مقتل هنري الثالث على يد راهب متعصب يدعى رافيّاك (١٥٨٩) وبعد ان جحد البروتستانتية (٢٥ شباط ١٥٩٤) واعاد السلام والهدوء الى البلاد ، بوضع حد نهائي لهذه الحروب الدينية والاجنبية التي زرعت البلاد خراباً ودماراً ، وذلك باصداره « فرمان نانت » (١٥٩٥) وعقده معاهدة فيرفين (١٥٩٨) .

وهذه الحروب الطويلة ، الدامية ، أدّت بالطبع الى تعزيز الحكم المطلق في البلاد . وعلى عكس ما تم في انكلترا ، فقد حُدّ من تطور البلاد في مرافقها التجارية والصناعية كما حُدّ من تطور الحركة البورجوازية فيها . فقد هاجر من البلاد ، عدد كبير من اصحاب الصنائع والحرف والفنون ، الى انكلترا ، حاملين معهم اسرار صناعات كثيرة . كذلك حُدّ من تطور البلاد الاقتصادي بعد ان عمّها الخراب وجف فيها الزرع والضرع . واستطاعت الحكومة ، مع ذلك ، ان تمضي قدُماً في توجيه الحياة الصناعية في البلاد ، عن طريق الموظفين الذين استمروا في تطبيق القوانين ، في المناطق التي انكش فيها ظل الملك ، محاولين بذلك ، مضاعفة نفوذهم فالمراسيم التي صدرت عام ١٥٨١ ، و ١٥٧٩ ، بصدد النقابات العمالية والانظمة الخاصة التي وضعت في هذه الحقبة بالذات ، حدّت كثيراً من عدد العمال المتدربين ، كما حددت بالتالي مدة التدريب وأعاقت ، الى درجة كبيرة ، الانشاءات والمشروعات الكبرى في البلاد . والضرائب التي فرضها الملك من جهة ، والثوار من جهة ثانية ، في المناطق والاقاليم التي سيطروا عليها ، حالت دون تكوين رؤوس اموال ضخمة في البلاد . والتطور الذي سجلته الطبقة البورجوازية العليا جاء ادنى بكثير من امثاله في كل من انكلترا والولايات المتحدة ، بينما لم تقطع طبقة الاشراف ، في هذا المجال ، الشوط الذي قطعته البورجوازية ، في هذه الحقبة . فلم تستبدل اوضاع الحكم المطلق فيها باوضاع الملكية المعتدلة او الجمهورية البورجوازية .

الملكيات الاوروبية على شاكلة الملكية الفرنسية

هنالك في اوروبا ، دول عديدة ، جاء الحكم فيها والظروف المحيقة به ، شبيهاً من جميع الوجوه ، ان لم نقل مماثلا

لما توافر من ظروف الحكم واوضاعه في فرنسا . من هـــذه الدول ، مثلاً ، اسبانيا التي نُظر اليها كدولة اخذت ، اذ ذاك ، بالتقهقر الاقتصادي . كان الحكم فيها استبدادياً في عهـــد ملوكها : شارل الخامس (١٥١٦ – ١٥٥٥) وعهـد ابنه فيليب الثاني (١٥٥٥ ـ ١٥٩٨) ، وبعض الدول الايطالية ، كنابولي التي وقعت ضمن الممتلكات الاسبانيـــة ، ودولة سافوى ، بيامونت ، وبعض الدويلات الالمانية القائمـــة في قلب الامبراطورية المقدسة ، التي استحالت ملكيات مستبدة ، مطلقة ، ومستقلة بالفعل ، بفضـــل ما تم لها من تنظيم عسكري وجيوش جديدة ، وبفضل تأثير الحق الروماني الذي أخذ به وعُمل بمنطوقه من جديد ، وذلك بالرغم من الجهود والمحاولات التي بذلها شارل الخامس لتوحيد الامبراطورية وجعلها اكثر مركزية .

٣ ـ الملكيات المعتدلة والجمهوريات البورجوازية

هنالك ، مع ذلك ، دول يختلف نظام الحكم فيها ويتباين تبايناً كبيراً . فقد برز في البلدان التي اشتدّ فيها ساعد الرأسمالية والبورجوازية اكثر مما اشتد في فرنسا ، ملكيـة معتدلة او جمهورية بورجوازية جاءت على نسبة تطور البورجوازية فيهـا . اما في البلدان الاخرى التي لم يتم للبورجوازية فيها مثل هذا الشأن ولم تبلغ مثل هذا الشأو في تطورها ، فقد قامت نظُم ملكية على اساس إقطاعي ذات طابع ارستوقراطي. فاختصاراً للوقت، نضرب في ما يلي بعض الامثلة على ذلك .

انكلترا

حققت انكلترا ، بالفعل ، خلال القرن السادس عشر ، نظام الحكم المطلق ، وهو نظام بعث في البلاد تطوراً اجتماعيـــاً سريعاً ، اذ ما كادت تأذن شمس القرن للمغيب ، حتى كان هذا النظام قد فات ومضى قبل ان يسجل قيامه رسمياً .

مبادىء الدستور الانكليزي

ففي الحقبة الاولى من عهد هنري الثامن (١٤٨٥ – ١٥٠٩) نجد بالفعل عدداً من المبادىء فرضها النبلاء على الملكية والزموها الاخذ بها والعمل بموجبها ، خلال فترة طويلة سابقة من التطور يحلو للفقهاء تتبعها بدقة . وقد خلقت هذه المبادىء صورة ذهنية ، جماعية تبلورت واستقرت نهائياً وتم الاخذ بها في الظروف القائمة اذ ذاك . فقد علم الفقهاء بأن القانون الاساسي او الدستور هو اول ما يرثه الملك ، لانه لم يصبح ملكاً الا بفضل هذا القانون ، وباسمه ، ولولا وجود هذا القانون لما صار اليـــه الملك صاغراً . فالقانون هو اذاً ، فوق الملك. وهنالك قوانين اخرى تعيش في اذهان الناس وخواطرهم وان لم تكتب او يجر تطبيقها باستمرار . فليس باستطاعة الملك ان يفرض على البـلاد ، وان يحمّل العباد ، من رعاياه ضرائب جديدة ، كما انه ليس باستطاعته ان يسن قانوناً جديداً او ان يضع تشريعاً جديداً دون موافقة البرلمان وهـــو مجلس يتألف من ممثلين عن الاكليروس والنبلاء فيؤلفون معـاً مجلس اللوردات، ومن ممثلين لاصحـاب الاراضـــي الاحرار ، والبورجوازيـين الذين يؤلفون مجـلس العموم . لايمكـن سجن اي كان بـدون مذكرة

توقيف تبين نوع المخالفة التي استوجبت توقيفه ، وبدون ان تجري محاكمته بالسرعة المطلوبة . فجريرة المظنون عليه او براءته يقررها حكم صادر عن هيئة محكمين تضم ١٢ عضواً . يمكن ملاحقة الموظفين قضائياً امام المحاكم لمخالفات أتوها اثناء الوظيفة ، كذلك يمكن ملاحقة وزراء الملك من قبل مجلس العموم .

لدى الملك عدد ضئيل نسبياً من الموظفين ، فالجانب الاكبر من القضاء والادارة ، كان يؤمنه ، باسم الملك ، عدد من الاعيان يعهد اليهم بهذه المهمات . اما انكلترا فقد قسمت ادارياً ، الى مقاطعات (كونتات) يمثل الملك فيها لورد نائب يُعيّن من بين نبلاء المقاطعة ويتولى قيادة الميليشيا ، يساعده مأمور أمن (شريف) وقضاة صلح ، يجري انتقاؤهم من بين طبقة الاشراف الوسطى (*Squires*) او من بين النبلاء اصحاب العقارات ، او من بين ملاكين اغنياء (*Gentry*) يتولون امور القضاء واصدار احكام العدل . فليس للملك عليهم السلطة التي له على الموظفين المحترفين ، الغرباء عن مقاطعاتهم الاصلية . اما في هذا القسم الجبلي الواقع الى الشمال من البلاد ، فالمقاطعات تشكلت الادارة فيها على الوجه التالي : فالحكام يمارسون فعلا سلطتهم كاملة . وهذا التقسيم لم يعمل به في بلاد الغال حتى عام ١٥٣٦ . كل هذا التنظيم كان من شأنه ان يؤمن للطبقة الارستوقراطية ولبعض المدن الانكليزية التقدم المطرد وحق الصدارة .

الحكم المطلق القائم بالفعل

ومع هذا وذاك ، فالملك هنري السابع تصرف تصرف ملك مطلق ، مستبد ، وعلى خطاه سار خلفه هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) واكثر ، ادوارد السادس (١٥٤٧ - ١٥٥٣) وماري تيودور . وفي آخر المطاف بلغ الحكم الاستبدادي الذروة مع الملكة اليصابات (١٥٥٩ - ١٦٠٣) . عندما اعتلى هنري السابع العرش ، وجد المملكة فريسة حرب أهلية ضروس ، تاقت من ملء جوارحها ، الى الهدوء والسلام وقيام سلطة تثبت وجودها في البلاد . فقد ذهبت حرب الوردتين بزهرة النبلاء وخيرة الاشراف في البلاد . فالواصلون حديثاً منهم لهذه المرتبة ، دانوا للملك وحده ، بهذا الفضل والشرف يوليه اياهم . اما البرلمان ، فقد كان طوع بنان الملك . والشعور القوي الذي بعثته في النفوس حرب المائة سنة ، والحقد الذي جاشت به صدور الانكليز ضد فرنسا ، والخوف الذي سمرته في قلوبهم ، كل ذلك جاء ظهيراً للملك معززاً للسلطة الملكية المستبدة . كذلك عرف العرش البريطاني ان يفيد كثيراً ، من الافكار التقدمية الجديدة والمرئيات الذهنية التي طلعت بها النهضة الاوروبية الثقافية ، والفنية والتي تغلغلت في جميع انحاء اوروبا باكراً وانتشرت فيها ايما انتشار . ولم يلبث الانكليز ان غرقوا الى ما فوق انوفهم في القضايا الدينية وما اثارته في البلاد من جدل ومناقشات ومشاحنات ، فزهدوا معها بالامور السياسية وتركوا امر الحكم للملك يتدبر شؤونه كما يريده . وقد حملتهم الروح القومية التي استمرت في نفوسهم اذ ذاك ، على الوقوف موقفاً ، معادياً للبابا ، كما حملت على الوقوف مثل هذا الموقف الصلب

الخشن من البابا ، كلاً من الملك هنري الثامن ، وادوارد السادس ، واليصابات ، فزادهم شعبية في البلاد كما حمل الشعب على التعلق بهم . ثم جاء الازدهار الاقتصـادي الذي لعبت الملكية في تحقيقه ، دوراً حاسماً ، فساعد من جانبه على تقوية الطبقة البورجوازية التي شعرت بحاجة ماسة لسلطة الملك ورعايته .

الازدهار الرأسمالي في المجتمع البريطاني يشدد حقوي الحكم المطلق

تألف قوام الشعب البريطاني ، حتى أواخر القرن الخامس عشر ، في الدرجة الاولى ، من مزارعين ورعاة . وقد كان الانكليز قد أخذوا بتحويل الصوف الذي تنتجه بلادهم الى منسوجات واقمشة خفيفة ، ارخص سعراً بكثير من الاجواخ التي كانت تنتجها مقاطعة الفلاندر ، فراحوا ينافسونها في أسواق القارة حتى وفي بلدان الشرق الادنى . وقد عرف الملك هنري السابع ان يحمي الصناعة في البلاد بفرضه رسوماً على الصوف الخام المصدّر للخارج مما زاد في اسعار هذا الصوف وبالتالي ، في أسعار الاجواخ التي يحيكها سكان الفلاندر من الصوف الانكليزي . ونفخ هنري الثامن بدوره الحماس وأدخل النشاط عـلى الاقتصاد الانكليزي، عندما راح يطرح في التداول ، بين ١٥٣٦ – ١٥٣٩ ، ممتلكات الاديار والاوقاف . وحدث في البلاد ، بفضل هذا الدفع الجديد للرأس المال ، ثورة اقتصادية حقيقية تمطّت في جميع جنبات انكلترا اذ انه ما كاد يطل النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى اصبحت انكلترا مركز كبيراً للتجارة البحرية وللصناعة الضخمة المتمركزة كان لا بد من حمايتهـا . وراحت طبقة بورجوازية ثرية تقبل على شراء الاراضي كما أخذت طبقة النبلاء القديمة تتهافت على الوظائف المحلية ، فظهرت بين الفينة والاخرى بوادر صراع طبقي في البلاد ، الا انه صراع اقل عنفاً مما نرى من امثاله في الممالك التي قامت الى الجنوب الشرقي من انكلترا حيث كان صغـار النبلاء يعملون في الزراعة المرتكزة على رأس المال ، أو في الاعمال التجارية الكبرى ، وهـو صراع عرف شيئاً من الشدة والحدة في بعض المناطق الانكليزية بحيث ان بعض كبار ممثلي الاقطاعية امثال كونت نورثمبرلاند وكونت وستمورلاند قاموا ، عام ١٥٦٩ ، بثورة مسلحة ضد الملكة اليصابات ، رمت من جهة ، للحد من حركة الوصوليين الجدد ، ومن جهة اخرى ، للدفاع عن الكثلكة في شخص ممثلتها ماري ستيوارت . انتصرت الملكة في نهاية الامر وجاء فوزها هذا ، انتصاراً للطبقة الاجتماعية الرأسمالية الجديدة .

على عكس ذلك تماماً ، اضطرت الملكية ان تكبح من جماح البروليتاريا الجديدة التي ثارت عام ١٥٤٩ ، وهي طبقة تألفت من مزارعين يستثمرون الاراضي التي استأجروها او اكتروها من مالكيها ، فراح هؤلاء ينتزعونها منهم بالقوة والعنف ويحولونها الى مراعٍ خضراء ترتادهـا قطعان الغنم طمعاً باصوافها . وهكذا نرى كيف ان احتياجات رجال المال وصراع الطبقات بعضها مع بعض ساعد كثيراً على تقوية جانب الملكية وبالتالي عـلى ترسيخ الحكم المطلق في البلاد .

تمكن هنري الثامن وخلفاؤه من تأمين موارد لهم بفرض قروض الزامية على السكان وحملهم على التبرع لخزينة الدولة ، او بفرض رسوم جمركية جديدة وذلك باصدارهم قرارات جديدة اصبحت ملزمة بمجرد اعلانها ، وهي طريقة حازت قبول البرلمان فاقرها واعترف بقانونيتها الدستورية ، بين ١٥٣٩ – ١٥٤٩ ، وفرضت براسيم اتخذت في مجلس الملك . وارغم الفرع القضائي التابع لهذا المجلس ، والمعروف بالمجلس المرصع بالنجوم ، الذي اعيد تنظيمه عام ١٤١٧ ثم المستشار وولسي بعده ، عام ١٥١٧ ، كل من تجرأ على الانتقاص من الامتيازات الملكية ، كمديري الأمن وقضاة الصلح واي انجليزي آخر على الخضوع للملك وعلى الامتثال لارادته السنية . وقد ساعد مجلس الملك الخاص ، بعد ان تم تركيزه نهائياً عام ١٥٤٠ ، على تركيز الوحدة الوطنية ، باشرافه على المجالس والهيئات الخاصة الاخرى وتوجيهها . والبرلمانات التي قلما دعيت للاجتماع ، كانت دوماً طوع البنان ، بعد ان اخذ الملك يُعيِّن، هو نفسه،اسماء المرشحين لانتخابات مجلس العموم ، اما مجلس الاعيان او اللوردات ، فقد حل محل رؤساء الاديار الذين كانوا اعضاء فيه ، الاساقفة الذين يجري تعيينهم من قبل الملك .

بلغ الحكم الاستبدادي ذروته في انكلترا ، في عهد الملكة اليصابات التي احسنت الى اقصى حد، هذه الاساليب بالذات التي أتينا على وصفها . فقد راحت محكمة العدل العليا (١٥٨٣) تحكم وتصدر احكامها دون اللجوء الى محكمين ، على كل من يحاول الانتقاص من سلطة الملكة السامية او من حق ولايتها (قانون ١٥٥٩) . ونظار الدولة اصبحوا بالفعل وزراء . منهم مثلاً وليم سِسل الذي عين عام ١٥٧١ ، لورد بورلاي ،وقام اذ ذاك بدور فعال . وراحت الحكومة الملكية تنهج سياسة تجارية فتتدخل باستمرار بحياة البلاد الاقتصادية ، تشجيعاً منها للنشاطات الفردية . ولما كانت الدولة تعيش تحت كابوس الغزو الاسباني المداهم ، فقد اخذت الحكومة تنمي ، الى اقصى حد ، مواردها العامة ووسائل دفاعها ، كالبحرية والصناعات الحربية التي يقتضيها النهوض بآلة الحرب . فالجوائز التشجيعية التي خصصت لبناة السفن الجديدة ، والقوانين التي ألزمت الناس التمويل ، في معيشتهم ، على استهلاك السمك ، وقانون الملاحة الذي صدر عام ١٥٥٩ ،والرسوم الجمركية الجديدة التي اصابت البضائع المستوردة على سفن اجنبية ، وانشاء شركات تجارية ذات طابع احتكاري ، والمنافسة الشديدة ضد اتحاد الهانزا ، كل هذه التدابير والاجراءات ، كان من شأنها ان تؤمن للبلاد حاجتها من السفن والبحارة والتجارة . فقد أدى المرسوم الذي صدر عام ١٥٦٣ بصدد العمل والعمال ، الى تأمين الاستقرار في اليد العاملة ، وساعد كثيراً على توسيع التدريب المهني والمسلكي للبحارة ووضع الحدود التي تميز بين معلمي الحرف والرأسماليين . ان انشاء الاحتكارات والشركات التجارية الجديدة ، والعمل على توطين جاليات اجنبية دخلت البلاد هرباً من الضغط الديني الذي تعرضت في القارة ، بعد ان اغدقت عليها الاعفاءات والانعامات المشجعة ، كل ذلك ساعد كثيراً على انشاء صناعات جديده ، بينها ، في الدرجة الاولى ، تلك التي تؤمن للبلاد حاجاتها الملحة من

المدافع والبارود ، والحديد والقصدير ، والرصاص والكبريت ، وملح البارود ، ثم في الدرجة الثانية ، صناعة الحياكة والنسيج كالاقمشة الصوفية الخفيفة ، والقطن المستورد الى منشستر ومن انفرس ، وغير ذلك من الخامات . ومنذ عام ١٥٧١ ، جرى تطبيق النظام الذي وُضع عام ١٥٤٥ ، هذا النظام الذي اجاز الدَّين بفائدة . والاصلاح النقدي الذي تم في البلاد واعطى انكلترا اقوى نقد في اوروبا على الاطلاق ، واثبته ، واخيراً وليس آخراً ، السماح بتصدير القمح بشروط وابقاء اسعاره في الداخل معتدلة ، كل هذا ادى الى ازدهار الزراعة في البلاد .

معارضة الحكم المطلق

وهذا النمو الاقتصادي الذي جاء نتيجة للحكم المطلق أفضى الى قيام معارضة للحد من طغيان هذا الحكم . فمنذ حوالي عام ١٥٧٥ ، ازداد عدد كبار التجار زيادة كبيرة كما ازداد عدد الصناعيين واصحاب الصناعة الضخمة المتمركزة . فقد اخذ هذا الفريق من الناس يعون ما تم لهم من قوة وطاقة كما شعروا بالحاجة للمزيد من حرية التصرف في اعمالهم التجارية. ولذا راحوا يقابلون بعداء كل تدبير يراد به الحد من حرية التصرف . ويبدو انهم اخذوا يشعرون بشيء من الحفيظة نحو السلطة الاستبدادية التي تصدر عنها هذه القوانين. وفي الوقت ذاته تكاثر عدد فرقة « المطهرون » *Puritains* من البروتستانت كما ازداد عداؤهم نحو الكنيسة الانكليكانية التي فرضتها الملكة فرضاً ، فراحوا يطالبون اما بنظام كنيسة مشيخية تقوم على تنظيم فوري لجماعة المؤمنين اساسه انتخاب القسس والوعّاظ ، واما الاستقلال التام والاستغناء بالكلية عن كل ما اسمه كنيسة .

مع ذلك ، لم يسبق قط للمبادىء والاعراف التي قامت عليها الحريات الانكليزية ان سقطت وغابت عن الانظار وتنوسي امرها لمرور الزمن . فكثيراً ما ابدى هنري الثامن نفسه احترامه لها . وعندما كان البرلمان يرضخ للامر ويسلم بقبول قضية يُطلب اليه اقرارها والتصديق عليها ، كان يحرص مع الامتثال ، على التنويه بحقوقه المبدئية ، واي محاولة تبديل او تغيير في الشعور العام والرأي السائد في المجتمع كان يكفي لجعل الحكم الاستبدادي بغيضاً ، وبالتالي لا يمكن الاطمئنان له . فقد ساعد خطر الغزو الاسباني على كبت عواطف المعارضين. غير ان الموقف تغير والوضع تبدل ، عام ١٦٠٣ ، عندما راح البرلمان يجبر الملكة اليصابات على التعهد بالرجوع عن الاحتكارات التي فرضتها . وهكذا شجر الخلاف وانطلق الصراع بين الحكم الاستبدادي والحريات البورجوازية.

البلاد الواطية : النهضة البورجوازية والحكم المطلق الفعلي

البلاد الواطية مجموعة من الولايات ، يحتفظ حكامها ، على درجات متفاوتة ، بولائهم لأمير واحد ، من بينهم دوق برابانت وكونت ده فلاندر وغيرهما . فقد حاول الامبراطور مكسمليان وابنه فيليب الجميل ان يكوّنا من هذه المقاطعات والولايات وحدة متماسكة تخضع لحكمها الاستبدادي ، فاصطدما بما قام فيها من نزعات محلية او اقليمية ، وبما جاش في صدور

حكامها ومدنها من رغبة شديدة وتَوق ظاهر للاستقلال الناجز . وبفضل حماية أولي الامر فيها للتجار من عداء النقابات المهنية ومعلمي الحرف ، انتصر فيها النظام الرأسمالي واستعلى. فتفوقت أنفرس على مدينة بروج وتمكنت من إنشاء شبه وحدة اقتصادية من البلاد الواطية بعد ان عرفت كيف تجعل من سكان هذه المقاطعات ، في الوقت نفسه متعهديها وزبائن لها . فقامت فيها بورجوازية رأسمالية شغفت بحرية التجارة ونبضت بروح الفردية الاقتصادية . وبالتالي اعتنقت مبدأ المركزية الملكية ضد هذه النزعات والمطالب المحلية ، فتغلبت بذلك ، على بورجوازية النقابات في المدن. وقامت في وجه هؤلاء البورجوازيين ذوي التأثير البعيد الذين يحيون حياة الرفاه والبذخ ، طبقة النبلاء التي ، رغبة منها في التميز عنهم ، وحرصاً منها على الاحتفاظ بتساميها الاجتماعي ، راحت تحتفظ لنفسها بالوظائف العامة وبهذه الشارات المميزة والاوسمة الشرفية التي يغدقها الامير . ومن جهة اخرى ، فالازدهار الذي عرفته النهضة الانسانية والفنية في هذه البلاد بعد الازدهار الاقتصادي الذي تجلى فيها وعم جميع المرافق ، شجع كثيراً الروح الفردية والرغبة في التحكم بهذه الفئات المحلية والنزعات المتضاربة التي تجيش فيها ، وهي مطالب ونزعات لا يمكن تحقيقها الا على يد امير قوي الجانب ، شديد الشكيمة . ان اقتباسهم لمبادىء الحق الروماني وتقديسهم لها جعل نفوساً كثيرة تتشبع بمبادىء الحكم المطلق . فراح شارل ده غنت ، اذ ذاك ، الذي عرف فيما بعد باسم شارل الخامس والذي كان حاكماً عاماً على البلاد عام ١٥١٦ ، يحاول التمكين للعناصر والعوامل التي من شأنها ان تساعد على ترسيخ اسباب الحكم المطلق في البلاد . فقد عين في كل ولاية ممثلين مباشرين للملك ، منهم حاكم عام لا صلاحيات محددة له ، ومجلس للقضاء او مجلس عدل ، وفي بعض الاحيان ، مجلس محاسبة ، كما عين في المدن والبلديات ، قضاة كثيراً ما حاولوا إدخال اصلاحات على المجالس البلدية وملأ الوظائف البلدية بموظفين اخذهم من بين كبار البورجوازيين ، لهم من تربيتهم ومن مصالحهم الشخصية ما يجعلهم متجانسين مع حاكم الولاية . واخذ الامير شارل ، اذ ذاك ، يحاول ربط الولاية بالحكومة المركزية. لتولي الحكم في البلاد ، وصية على العرش ، يساعدها في الادارة مجلس لم يلبث ان تشعب وانقسم كما حدث في فرنسا ، الى ثلاث شعب كل شعبة تخصصت بناحية : مجلس شورى الدولة للنظر في الامور السياسية ، اعضاؤه من النبلاء ، المجلس الخاص او مجلس المعية ، والمجلس المالي ، اعضاؤه من رجال الفقه والقانون يؤتى بهم من الطبقة البورجوازية او من بين صغار النبلاء ، يتولون اعمال القضاء والادارة (١٥٣١) ثم الزم الامير شارل الولايات بارسال ممثلين عنها للمجالس العامة . واخيراً شكل عام ١٥٤٧ ، جيشاً دائماً ، ملاكه من النبلاء ، يتعهد مرتباتهم ويعترفون له بالولاء . ويتدخل موظفوه في كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، فينظمون اعمال المضاربات المالية والبورصة ، والمستودعات الملكية والاسعاف العام ، ويسجلون الاعراف والعادات والتقاليد المرعية ، ويجرون العدل وفقاً لاحكام القانون الروماني . وهكذا جعلت هذه التشريعات المشتركة ، من هذه الولايات السبع عشرة ، وحدة متماسكة لم تلبث ان جاشت فيها الروح القومية .

ولكن هنالك حكماً استبدادياً قائم بالفعل، ولكن لا وجود قانوني له . فلم يتمكن شارل من فرض رسوم وضرائب مستقرة كما يشاء ويرغب ، يستعمل ريعها بعد جبايتها ، كما يحلو له . غير أن المجالس التمثيلية تحرص دوماً على اثبات حقها باقرارها ، مع العلم ان فرض الضرائب هو مفتاح النظام السياسي . ولم يمض طويل وقت حتى جعلت البورجوازية ، بعد الازدهار الذي عرفته، للحكم الاستبدادي لا يحتمل . ففترة الحكم المطلق التي وقعت بين عهد الاقطاع وعهد البورجوازية ، جاءت هنا ، قصيرة للغاية . فنظام الحكم المطلق لم يستطع ان يمتن جذوره قانوناً .

الامة ضد الملك

حزم الملك فيليب الثاني(١٥٥٥–١٥٩٨) ابن شارل الخامس وخليفته على عرش اسبانيا ، امره على ان يجعل من البلاد الواطية مملكة اساس الادارة فيها ، الحكم المطلق شرعاً ، تتيح له بما تتمتع به من موقع جغرافي ممتاز وما لها من موارد طبيعية غنية ان يسيطر منها على اوروبا جمعاء. فباءت محاولته هذه بالفشل . فقد آذت الحكومة الاسبانية هذه البلاد ، والحقت بها الضرر ، عندما راحت تحاول تنظيم مرافقها الاقتصادية لما فيه مصلحتها الخاصة ، ويخدم امنها في الدرجة الاولى . وفي هذا السبيل اصدرت فيما اصدرت من قرارات امراً بمضاعفة البحّارة في السفن ، مما ادّى الى ارتفاع كلفة البضائع . وقد زادت هذه التدابير فداحة ، إثر الافلاس الذي اصاب الحكومة الاسبانية عام ١٥٥٧ ، فتضرّس منه الجميع على السواء . فمن الطبيعي جداً ان تسمم ازمة اقتصادية على هذا النطاق ، الخواطر ضد الحكومة ، وتحمل الجميع على ان يتبينوا بالمحسوس مساوىء الحكم وان يحصوا على الادارة اسباب الشكوى التي يتذمرون منها .

فقد أثار فيليب الثاني ذاته المعارضة ، وأهاجها عندما عبث بالتوازن القائم بين طبقة النبلاء والطبقة البورجوازية لحساب الاخيرة . فقد عين ، قبل مغادرته البلاد الى اسبانيا ، الى جانب الوصية على العرش مارغريت ده بارمّ ، لجنة تتألف من ثلاثة بورجوازيين بينهم غرانفيل من مقاطعة فرانش كونتيه .فما كان من هذه اللجنة شبه الرسمية إلا ، ان قامت تحتكر كل الاشغال والمشروعات المهمة بعد ان ألغت مجلس شورى الدولة ، مما انتقص كثيراً من شأن النبلاء ، وحط من قدرهم بعد الذي قاسوه من عقابيل الازمة الاقتصادية ، ونتائجها الوخيمة عندما راحوا يستغلون املاكهم على الطريقة التي انتهجها الرأسماليون ويقومون بمضاربات مالية في البورصة ويتطبعون بطباع البورجوازية ، بالرغم من الاحتقار الذي يحملونه في صدورهم لهذه البورجوازية ، وقد رفضوا ان يجلسوا في مجلس شورى الدولة ، مع غرانفيل الذي كان عضواً فيه معهم . فانطلقت الثورة وعلى رأسهم كبار النبلاء .

فلم يعتنق البورجوازيون قضية الملك فيليب بل تخلوا عنه بالاجماع . فالملك لم يعد يمثل ، في نظرهم ، المثل الوطنية ولا المطالب القومية . وبالرغم من انه اسباني ، فقد بدا ، في اعينهم ،

غريباً عنهم وعن بلادهم ، يستخدم الرسوم التي يجبيها من اهل البلاد لاغراض لا تمت لاهلها ولمصالح البلاد بسبب . فالحاميات الإسانية ، وهذه الحكومة الارهابية التي حكمت البـــلاد بالسوط ، بين ١٥٦٧ ـ ١٥٧٣ ، برئاسة دوق ألبا ، زادت الاهلـــين نفوراً من شموخ الاسبان بانوفهم وبعجرفتهم وقسوتهم وفظاظتهم ، ومن مظاهر هذه التقوى المصطنعة وفساد اخلاقهم . ثم ان السياسة الدينية التي سار عليها الملك وجعلته يخضع كل شيء لمصلحـــة الدين ، اقلقت خواطر الكاثوليك في هذه البلاد ، بالرغم مما كانوا عليه وما عرفوا به من فتور ديني ، وتسامح واغضاء وتجاوز ، في بلاد تعيش في سعة ويجيش اهلها بمُثُل النهضة ، كان من مصلحتهم الاولى ان يحسنوا وفادة الوافدين عليهم ، مهما كان لونهم او دينهم . ومن جهـــة اخرى ، فقد حلم الكلفينيون الذين اشتد ساعدهم في البلاد منذ عام ١٥٤٣ ان يؤسسوا فيها دولة بروتستانتيـــة ، وبرهنوا ، بالمحسوس ، على انهم ثوريون ، وانهم اعداء ألدّاء للملك الكاثوليكي . وقد راح دوق ألبا يسدد للبلاد ضربته الاخيرة عندما حاول تطبيق الحكم المطلق الاكمل بفرضـه ضرائب ثابتة على كل المعاملات التجارية (١٥٧١) كما اوقع الشلل في حركة الاعمال وأربكها . فاشتد البؤس في البلاد ، وقامت فيها حرب اهلية سارت فيها الثورة سيرها الطبيعي ، للانتقـــال بالبلاد من حكم مطلق ، مستبد ، مرهق ، الى نظام بورجوازي . فبعد ثورة النبـلاء ، قامت ثورة البورجوازيين ، ثم تلتها الثورة الديموقراطية التي اعقبتها ردّة فعل بورجوازية .

الدولة البورجوازيـة الدستورية والاتحادية المتحررة

خلقت الثورة ، في البلاد الواطيـة ، في اول الامر ، دولة بورجوازية ، دستورية ، اتحادية ، متحررة . فمنذ ١٥٧٢ ، شكّل الكلفينيون فيها دولة كلفينية ، تعزلها من الشمال دلتا هولندا وزيلانـدا ، وانتخبت رئيساً لها الامير غليوم دورانج . واضفى الكلفينيون الفرنسيون الذين التجـــأوا الى جوار الامير عليها صبغة خاصة كما انهم مهروها بطابع سيـــاسي خاص ، اذ راحوا يعلّمون ان السلطة يعطيها الله الشعب الذي يعهد بدوره بهذه السلطة الى ملك ، يحتفظ بالملك ان هو احسن السياسة وامتثل لاحكام الشريعة الوضعية والطبيعية على السواء، والا جرّده الشعب من هذه الكرامة التي أعطيت له ، ونزع عنه ما أوتيه من سلطة وسلطان ، ان لم يكن بطريقة مباشرة فبواسطة حكامه وقضاته وقد اتقنوا ، في البلاد الواطية ، تحريك مجالس التمثيل ، ودفعوها للعمل ، ان هذه البلاد لم تعد مجرد ولايات متراصفة الواحدة منها مع الاخرى ، بل دولة واحدة موحدة . وهكذا حلّت نظرية الحقوق الطبيعية العقلانية ، محل التقاليـد والاعراف والحقوق التاريخية المكتسبة والانعامات والاعفاءات التي أقسم الملك على نفسه باحترامهـا ، والتي كانت تعبيراً او تبريراً لهذه النتائج التي أفضى اليها التطور الذي بعثته في البلاد كل من الرأسماليـــة والملكية المستبدة . فبورجوازية المستنـــيرين التي تعالت من الموظفين والمحامين لقيت قبولاً في الاذهـــان . وفي ١٩ تشرين الاول ١٥٧٦ ، تشكل في البلاد ، مجلس الممثلين واتخذ له صفة الملك ، واعلن بقرار اتخذه ، يعرف بقرار التهدئة ، صدر في مدينة غنت ، ظهور دولة جديدة

تقوم على هذه المبادىء والاسس .

الدكتاتورية الشعبية الكلفينية

الا ان المحاولات والاتصالات التي تمت للوصول الى تفاهم ، بين الكاثوليك والملك فيليب ، اقلقت بال الامير غليوم دورانج وخواطر الكلفينيين معاً ، فراحوا يستغلون البؤس الذي تسكع فيه العمال ورجال الصناعات اليدوية في بلد دهكتها الحروب وجرّت عليها الخراب والدمار . فراحوا ينشرون على الناس نشرات تثير حفائظ الشعب وتذكي حقده ضد كل سلطة ، ولا سيا ضد سلطة الكنيسة بعد ان رمتها بكل فريّة ، وما اخذت عليها من مؤاخذات في ما تم لها من ثراء وغنى ، وضد سياسة الملك الكاثوليكي التي شجبتها . وبما ان الله هو الذي يستودع الشعب السلطة ، فقد عرف هذا الاخير ان يستغل ما في هذا المبدأ من نتائج . وفي آب ١٥٧٧ ، تألفت لجنة الثمانية عشر عضواً ، في بروكسل وقررت انشاء حكومة ديموقراطية استبدادية ، فرضت دكتاتورية الشعب على المجلس التمثيلي . وهكذا تلبّس الشعب حلة دكتاتور في شخص امير دورانج الذي أطلّ على الناس وهم رُكّع ، سُجّد ، يشهقون فرحاً وغبطة كأن « الله نفسه يجتاز شوارع المدينة » . واخذ هذا النظام الديموقراطي يسري بين الناس ويمتد من مدينة الى اخرى ، في الوسط من البلاد الواطية وجنوبيها .

وكان من فظاظة التعديات على الملكية ان أثارت الرعب والهلع في قلوب البورجوازيين والنبلاء ، على السواء ، فتمنوا ، ان يقوم في البلاد ، سلطة قوية ، بعد الذي رأوا ما رأوه من سلب الكنائس وانتهاب الاديار والتعديات السافرة على الكهنة والرهبان مما أثار الحفائظ وايقظ المشاعر الدينية في النفوس ، وفُتح الباب واسعاً امام اليسوعيين للقيام بحملة وعظ وارشاد وتوعية وايقاظ ، واحتل الاهتمام بالكثلكة ومصيرها المحل الاول من اهتمام الناس ، بعد ان عم الخراب البلاد من جراء الحرب ومن نهب مدينة أنفرس بالذات (١٥٧٦) والحصار البحري الذي فرضه الثوار في الشمال ، على مصب نهر الاسكو ، ومنافسة كل من هولندا وزيلاندا، ومعظم سكانها من التجار الكلفينيين الذين فرّوا من الجنوب، واخذ النشاط التجاري في هاتين المقاطعتين ، يحل تدريجياً محل انفرس .

القطيعة بين الشمال والجنوب

انشقت البلاد الواطية على نفسها دولتين . وفجأة اخذ النبلاء والبورجوازيون ، في المقاطعات الجنوبية يتخلصون من الديموقراطيين ، فألفوا ، عام ١٥٧٩ « اتحاد أرّاس » بينما ألف الكلفينيون ، في الشمال : « اتحاد اوتريخت » . واستطاع الحاكم العام فارنيز ان يوفق بين اتحاد اراس وملك اسبانيا الذي تخلّى ، ولو بصورة موقتة ، عن سياسته الاستبدادية ، وهكذا تمكن من ان يسترجع ، تدريجياً الولايات العشر الواقعة في الجنوب والتي يتألف القسم الوسط منها من سهول رسوبية ، فكانت مجازاً او ممراً ممتازاً للجيوش المتحاربة في مناوراتها وما تقوم به من حركات الكر والفر . اما

في الشمال ، فقد ألفت الولايات الواقعة عند الدلتا كياناً مستقلاً بعد ان اطمأنت الى ما يؤمن مصيرها من جهة الجنوب ، في هذه الترع والخلجان والقنوات النهرية التي تعزلها عن الجنوب وما اليها من غياض وبطائح ومستنقعات تؤلف شبكة صعبة الاجتياز ، وامكانية اغراق البلاد عند اول خطر مداهم يطل في الافق ، وسيطرتها على البحر . فالاختلاف في الدين ، والدمار الذي انزلته بالبلاد الجيوش المتحاربة ، والمنافسة الاقتصادية ، كل ذلك ، زاد في شقة الخلاف بين القوميتين وباعد بينهما .

حاول فيليب الثاني، عام ١٥٩٨ ، ان يعيد الوحدة الى البلاد ويؤلف بين الشطرين المنقسمين. وفي هذا السبيل ، منح البلاد الواطية ولو ظاهرياً ، استقلالاً ادارياً ، تحت ادارة الارشيدوق البرت وايزابيل اللذين استقبلها الجنوب واحسن وفادتها واعترف بسلطتها . اما الشمال ، فاتجه الوجهة التي يقتضيها مصير الدولة البورجوازية الانجيلية ، الاتحادية، المتحررة التي قامت فيه . ولم يعتم الجنوب ان استحال قطراً يخضع للاستبداد .

٤ – ملكيات القرون الوسطى

خلافاً لهذه البلدان التي استعرضناها ، بقيت المالك التي لم تبرز منها طبقة بورجوازية قوية الجانب ، في وضع ادنى بكثير من الوضع الذي تم للملكيات المستبدة .

بولونيا

اعلنت بولونيا نفسها جمهورية ارستوقراطية برئاسة ملك ، في عهد آخر ملوك دولة يايلّون ، جان البير الاول (١٤٩٢ – ١٥٠١) واسكندر الاول (١٥٠١ – ١٥٠٦) وسجسموند الاول (١٥٠٦ – ١٥٤٨) وسجسموند الثاني اوغسطس (١٥٤٨ – ١٥٧٢) ثم في عهد هنري ده فالوا الذي سيصبح ، فيما بعد ، ملكاً على فرنسا ، باسم هنري الثالث (ايار ١٥٧٣ – حزيران ١٥٧٤) ، ثم اسطفان باتوري (١٥٧٦ – ١٥٨٦) وسجسموند الثالث فاسا .

وهن الحكومة وعجزها

بولونيا دولة تباينت فيها العناصر والعروق والاجناس التي تشكلت منها ، وهي عناصر يمكن ردّها الى أربعة رئيسية : المملكة وهي منها النواة المستقطبة ، وليتوانيا ، وبروسيا الملكية وبروسيا الدوقية ، وهي عناصر تألفت منها وحدة هشّة تحت سلطة ملك "مشترَك . كان هذا الملك يُنتخب انتخابا ، كثيراً ما ادت عملية انتخابه الى حروب ومناوشات ، كما حدث ، مثلاً ، عام ١٥٨٧ ، على اثر وفاة الملك اسطفان باتوري . فالمجالس التمثيلية (الدييت) التي لم تكن غير طبقة النبلاء ممثلة فيها ، كانت الهيئة القانونية التي تقر القوانين الجديدة ، وتحدد الضرائب ، التي لا بد منها لتغطية نفقات الجيش ، ومثل هذه القرارات يجب ان تؤخذ بالاجماع . فليس تحت تصرف الملك جيش ولا بيت مال ولا عنده اية هيأة ادارية . فهو يعيش من ريع املاكه السيادية ويدفع من وارداتها نفقات الدولة . فخير ما يقال فيه انه الاول بين الاسياد . فهذ

النظام الملكي الموسوم بطابع الاجيال الوسطى ، لم يكتب له ان يرتقي ويتطور الى نظـــام ملكي مطلق ، مستبد .

تسلط الارستوقراطية

وسر ذلك ان البورجوازية لم تظهر في بولونيا ، باستثناء بعض الالمان الذين كانوا يقيمون في عدد من مدنها الرئيسية . والنشاط التجاري الحري بالملاحظة في هذه البلاد الواقعة على اطراف اوروبا الرأسمالية ، قام على تصدير القمح . فطلب الحبوب من الغرب ، لم يكن في مقدور احد ان يلبيه ، سوى كبار الارستوقراطيين لما لهم من الاطيان والاملاك الواسعة . فبدلاً من رؤوس الاموال التي افتقروا اليها ، راحوا يسخّرون اليد العاملة ، وليزيدوا من غلالهم ومحاصيلهم الزراعية ، اخـذوا يعولون ، اكثر فأكثر ، عـلى الفلاحين العاملين عندهم . وامعاناً منهم في تسخير هؤلاء الفلاحين ، ورغبة منهم في انماء المحاصيل راحوا يحدون من سلطة الملك ومن صلاحياته كما ضحّوا بالطبقات الاجتماعيـــة الاخرى . فانتخاب الملك الذي كان يفرض على المرشحين التزامات وقيودا ، وعجز الملوك عـــلى مجابهة كبار الارستوقراطية لهؤلاء النبلاء الفقراء الذين لم يكن لهم ما للبورجوازية ، في الغرب ، مـن شكيمة وطول باع ، كل ذلك ساعد على توطيد المشاريـع والخطط التي يضعها كبار الاشراف في البلاد .

فمنذ ان اعتلى جان الاول البير العرش ، صدرت قوانين عام ١٤٩٣ – ١٤٩٦ ، تحد جداً من حرية المزارعين والفلاحين على التنقل،وأعطي للسيد الحق بالاحتفاظ بهم في املاكه واراضيه واجبارهم على العمل فيها . فهو يمثلهم في القضاء وهو مرجعهم الاول في اقضيتهم ، ولذا كان يحول بينهم وبين القضاء الملكي الذي لم يكن يطالهم بشيء . فهو سيد هؤلاء النـاس ورئيسهم المطلق . وفي سنة ١٥٢٠ – ١٥٢١ ، قرر مجلس الدييت ، ربط الفلاحين بالارض واجبارهم على الشغل فيها وحرثها ، كما خول الاسياد حق استملاك الهيئات الريفية . والبلديات فقدت ما كانت تتمتع به من استقلال اداري وقضائي ، فأُخضِعَت لقضاء الاشراف والنبـــلاء الذي اصبحوا أسياداً لهم مطلق السلطة على اراضيهم ومن عليها .

وفي سنة ١٤٩٣ ، و ١٤٩٦ ، تقرر اعفاء النبلاء من الرسوم الجمركية ومن الفوائد الخاصة ببيت المال . وتحظر على البورجوازيين دخول الوظائف العسكرية ، كما سدت في وجوههـــم ابواب المراكز الدينية العليا التي اصبحت وقفاً على النبلاء وحدهم . وفي عهد الملك سجسموند اوغسطس ، ولكي يتمكن النبلاء من الحصول ، بارخص الاسعار ، على ادوات البذخ المصنوعة في الخارج ، اعلنوا ، بعد عام ١٥٦٤ ، مبدأ حرية التبادل التجاري المطلق . ولم تقوَ الصناعة الوطنيةعلى الوقوف بثبات في وجه المنافسة التي تتعرض لها من الخارج،فذبلت وماتت.وأرغم التجار على التقيد بالسعر الاعلى ، وحُظّر عليهم الانتقال للخارج للاستبضاع والامتيار ، اذ فضّل النبلاء الحصول على ما يرغبون فيه ، من متعهدين أجانب يفدون على البلاد لشراء الحنطة

وغير ذلك من محاصيل الارض . ان احتلال الاتراك العثمانيين للقسطنطينية ، عـــام ١٤٥٣ ، والتتار للمقاطعات المطلة على البحر الاسود ، قطع على البولونيين الطرق التجـــارية المؤدية الى الجنوب ، وسدت في وجوههم ، من هذه الناحية أبواب الرزق . وهكذا قامت العراقيـل في وجه التجارة البولونية من كل صوب . فلا عجب ، بعد هذا الا تستطيع البورجوازية ان تنمو وتترعرع بعد ان ضيق عليها النبلاء الانفاس على مثل هذا النحو .

وفي السنوات ١٤٩٣ و ١٤٩٦، نال النبلاء حق تشكيل مجالس اقليمية (*diétines*) لتحديد الضرائب التي يجب جبايتها في حال قيام الحرب . فاصدرت هذه المجالس تعليماتهـــا المشددة لممثليها في مجلس الدييت للوقوف الموقف الذي تمليه عليهم مصلحة المقاطعة . فتبقى هي حرة في رفض او قبول القرارات التي تصدر عنها . وهكذا رجحت المصلحة المحلية والمنفعة الآنية على المصلحة العامة . والانعام الذي اصدرَه ميالنيك (١٥٠١) زاد كثيراً مـــن سلطة مجلس الشيوخ او مجلس الملك الذي تألف من اساقفة ومن كبار الموظفين الاشراف . وقـــد كان على الملك ان يترسم ارشاداتهم وان يتقيد بتوجيهاتهم وان يقضي في العدل كما يشاؤون والا رأوا انفسهم في حل من قسم الولاء الذي أقسموا . فمجلس الشيوخ يحتفظ بالتاج وبالشارات الملكية ويصدر الى الحكام التعليمات . والقانون الاساسي الذي صدر عام ١٥٠٥ ، بعنوان : « ليس من جديد *Nihil novi* حظَّر على الملك اتخاذ أي قرار او تدبير جديد دون موافقة مجلس الشيوخ وممثلي الملحقات. ففي عهد الملك سجسموندالاول نص الدستور *Laesae Majestatis* « التعدي على ذات الجلالة »على وجوب احترام حرمة اعضاء مجلس الشيوخ ونواب الامة في الدييت . فمجلس الشيوخ يمارس سلطات الملك . فالملك هو بالفعل معتزل الحكم ، وفي سنة ١٥٧٣ ، صـــدر القانون *Pacta Conventa* الذي حظر على الملك هنري ده فالوا ، اعلان الحرب أو عقد السلام بدون موافقة مجلس الشيوخ او اصدار أمر بحشد الجيش وفرض التعبئة بدون موافقة مجلس الدييت ، وأن يستعين ، في الادارة والحكم ، بمجلس من ١٦ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ ، وان يدعو مجلس الدييت للاجتماع كل سنتين . فاذا ما خالف هذه الشروط كان رعاياه في حلٍّ من كل طاعة وولاء . وفي سنة ١٥٩٢ ، اخضعت لجنـــة تحقيق خاصة ، شخص الملك بالذات والقرارات التي يصدرها، لتحقيق دقيق .

اضعاف الامة

وفي الوقت ذاته ضعف الشعور بالخطر الخـــارجي فرفض مجلس الدييت ، مراراً ، سنة ١٥١٢ ، و ١٥١٤ ، و ١٥٢٧ ، فرض ضرائب في سبيل انشاء جيش دائم ، مكتفياً من ذلك بحشد عام للنبلاء . وترك الملك الحرية التامة لالبرت براندبورغ الرئيس الاعلى للفرسان التيوتون ان يَتَعَلْمَنَ ويتخلى عن الحياة الرهبـــانية ، ويعتنق البروتستانتية ويعلن نفسه أميراً وراثياً لبروسيا خاضعاً للتبعية البولونية (١٥٢٩). وهكذا أطلت بروسيا على الحياة واحتلت موضعها تحت الشمس . وفي ١٥٢٦ ، وضعت النمسا يدهـا على هنغاريا وعلى بوهيميا كما راحت دوقية موسكو توسع من نطاقها وتتحصن ، فلم يعد للملك

بولونيا ، في هذه المنطقة محل من الاعراب ، وفقد كل شأن بين المسيحيين . وبالرغم من إرسال بروسيا الملكية من يمثلها في مجلس الدييت البولوني ، وبالرغم من ان ليتوانيا حذت حذوها مع احتفاظها بوظفيها وماليتها وجيشها المستقل ، ومع ان بروسيا الدوقية كانت تجدد من ولائها وتستمر على تبعيتها لها ، فقد امست بولونيا دولة ضعيفة الجانب ، لا حصون لها ولا قلاع ، ولا جيش لها تقريباً يتولى الدفاع عنها ، فقد اختنقت وماتت من فرط الحرية .

موسكوفيا

ولعل من يقوم ويحتج على هذا القول ، بموقف روسيا . هذه الدولة النصف الآسيوية التي لها من العرق المسيطر فيها ، ومن الديانة الارثوذكسية التي عليها سواد الشعب الاعظم ، والعداء الازرق الذي تجيش به ضد الكفرة ما جعلها احدى دول اوروبا . فقد اصارها التطور الذي مرت به في القرن السادس عشر ، مملكة مستبدة الحكم ، مطلقة السلطان ، مع ان البورجوازية فيها كانت مستضعفة الجانب ، عاجزة تماماً عن الوقوف بوجه طبقة النبلاء دون ان تبالي للامر قيد شعرة .

فاذا ما قام هنا من شذّ عن القاعدة التي اتخذناها قاسماً مشتركاً للظروف التي أحاقت بظهور المملكة المستبدة والحكم المطلق افلا يكون ذلك دليلاً على بطلان القضية وعدم صحتها فتسقط من نفسها ؟ .

روسيا بلد ريفي منعزل

في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢–١٥٠٥) برزت روسيا دولة معزولة ، لا تطل مباشرة على اي بحر من بحار اوروبا ، باستثناء البحار الشمالية المتجمدة ، حشرت رقعتها حشراً بين اعدائها التتار من جهة ، وبين جيران اوروبيين من الغرب ، عرفوا هم ايضاً بعدائهم لها ، من جهة ثانية . فبولونيا وليتوانيا ومدن اتحاد الهانزا (ريفيل وريغا) كلها تقف سداً لتعرقل حركة دخول البضائع والفنيين الاوروبيين اليها ، فحالوا عمداً ، دون اقتباس الروس ، الذين أنزلوا منزلة اعداء تقليديين لكل الدول الحرة ، لوسائل التسلح المعروفة في الغرب او تسهيل نقل افانينهم الحربية اليها .

روسيا بلاد زراعية في الصميم ، ينصرف فيها الفلاحون ، وعددهم فيها نادر قليل ، ومعظمهم يقيمون جماعات في قرى ودساكر من ١٠ – ٤٠ منزلاً ويسلسلون لزراعة الحبوب على نطاق ضيق يتفق ووسائلهم البدائية . فقد ساروا في فلاحتهم وزراعتهم على نظام التحويل الثلاثي بحيث تستريح الارض سنتين قبل ان تزرع في الثالثة ، او انهم اعتمدون نظام الغابات المحروقة فيتاح لهم استثمار الارض التي انكشفت تربتها بعد احتراق شجرها . فالمحاصيل الزراعية والغلال فيها ضعيفة . اما المدن وعددها لم يكن ليتجاوز الستين ، سنة ١٤٩٧ ، فهي عبارة عن مجتمعات مسوّرة ، واسواق تجارية ريفية الطابع ، في وسطها مراع خضراء ومروج . اما التجارة فضيقة ، تقوم اساساً على الترانزيت ، اي المقايضة بمحاصيل نادرة وغالية الثمن بكميات

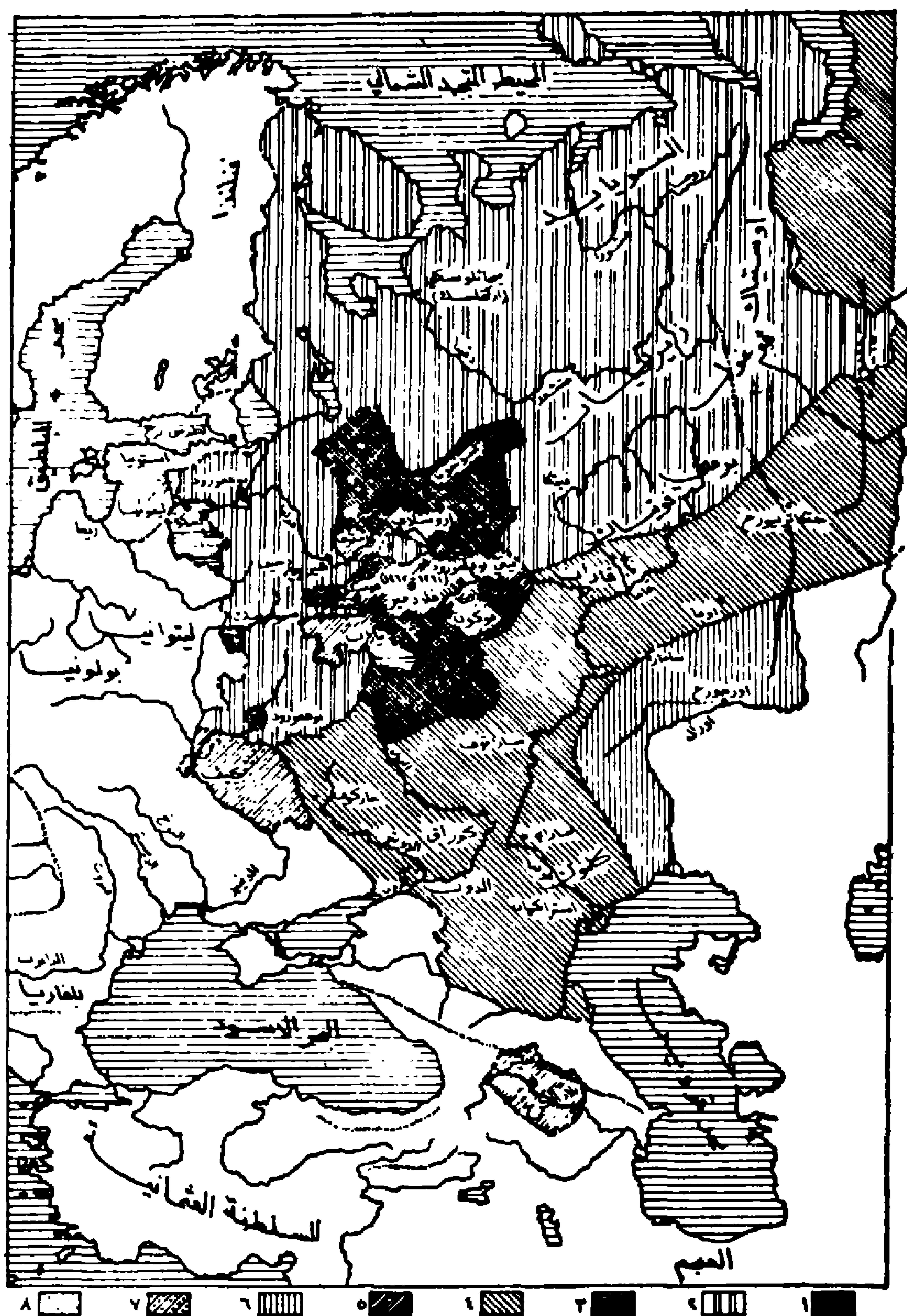
محدودة ، كالاحجار الثمينة ، واسلاك الذهب والابريز وعقاقير طبية وتوابل يؤتى بها من الشرق ، وفراء ، وعسل وشمع في طريقها الى الغرب ، واجواخ ثمينة وقصدير من انفرس ، ودانتيلا والاسلحة على انواعها ، في طريقها نحو الشرق . والمراكز القلبية فيها هي مدن مستقلة امثال نوفغورود الكبرى ، احدى المدن الداخلة في اتحاد الهانزا التجاري ، ومدينة بسكوف . اما التجارة ، فنشاطها محصور ضمن دكاكين صغيرة ، ومعظم الصناعيين يعملون فرادى والبورجوازيون فيها قلة هم ، فقراء ، لا حول لهم ولا طول ولا قوة .

هذه المدن والقرى تقوم ، على الغالب ، في وسط املاك كبار الملاكين ، علمانيين كانوا أم اكليريكيين من رجال الكنيسة ، تتناثر حباتها كالسلك النظيم ، على مجاري الانهر او على معالم الطرق . فتعلق الانسان بها واستقراره فيها ، واه ، بعد ان كان لصاحب الارض السلطة المطلقة على ارضه وعلى من اوى ما قام فيها او عليها . ومعظم هذه الاملاك تنعم باعفاءات واسعة ، وهي بمأمن من تدخل موظفي الامارة ، لا ضرائب ترهقها ولا خدمات تؤديها للأمير . وهكذا حل كبار الملاكين محل موظفي الامير وهم قلة صغيرة . ففي حالة عدم توفر الناس والموارد اللازمة للدولة ، كان كبار الملاكين يمارسون قسماً من صلاحيات الامير لقاء إسقاط ما يستحق له عليهم من فوائد ورسوم .

وكل امارة تتألف من املاك الامير ، ومن اسياد الارض واراض ذات «تربة سوداء» اختصها الامير لنفسه ، ومهّد لها وسائل الاتصال بها والنقل ، اقامت فيها جماعات حرة تسام بامور الدفاع بما تقدمه للأمير من عوائد وخدمات . ويقوم بتمثيل الامير ، خارج املاكه ، في المدن ، ممثلون يعرفون بـ *Namestniki* ، وفي المقاطعات الريفية عرفوا بـ *Volosteli* . وكلا الفريقين يجري انتقاؤهم من بين اتباع الملك ، وهم رجال حرب ، اعترفوا بولائهم له بالجثو امامه . كان معظمهم اشراف من اصحاب الاراضي او سراة ضعاف الجانب ، او من طبقات دنيا مالوا لمهنة الحرب . وهؤلاء الاتباع لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما قام منها على امثالهم ، في الغرب . وهم يتطوعون بحرية اكبر على خدمة السيد الذي اختارهم لخدمته والعمل في ارضه .

النجاح الذي اصابه امير موسكو

الامير الاول في روسيا هو بالطبع ، كبير الامراء في موسكو هذه المدينة الواقعة في منأى من الطرقات التي يتبعها الغزاة ، تحميها وتخفيها عن العيون غابات ظليلة تعزلها عن الانظار ، وتقع عند مفترق الطرق . وهي ملتقى المزارعين ورفاق السلاح يؤمونها منذ عهد بعيد . فهي عاصمة البلاد الدينية منذ سنة ١٣٢٧ ، ويتمتع كبير امراء موسكو ، منذ عام ١٣٥٣ وفقاً للبراءة المعطاة له من خان القبيلة الذهبية *Horde d'or* الذي كان سيد روسيا الاسمي ، بلقب صاحب السلطة القضائية . فهو يرفل بالغنى وله نفوذ عريض .



شكل ٣ ـ تطور الامبراطورية الروسية

١ ـ الاراضي الروسية عند اعتلاء ايفان الثالث العرش
٢ ـ فتوحات ايفان الثالث
٣ ـ فتوحات باسيل الثالث
٤ ـ فتوحات ايفان الرابع المرعب
٥ ـ فتوحات بيدور وبوريس غودونوف
٦ ـ فتوحات ميخائيل رومانوف
٧ ـ فتوحات ألكسي ميخائيلوفتش
٨ ـ فتوحات بطرس الاكبر

ويتطور ايفان الثالث من امير متجول ، الى رئيس دولة . وبما انه اقوى الامراء وأشدهم بأساً على الاطلاق ، نرى الفلاحين العاملين في خدمة الامراء في الريف يفدون عليه بالجملة ليدخلوا في خدمته ويعملوا تحت رعايته ، الامر الذي يجر الضعف على هؤلاء الامراء فيضطرون للتخلي عما يتمتعون به من استقلال . ولم يبق في البلاد ، بالطبع سوى عدد قليل من الامارات التي تنعم بشيء من الاستقلال الذاتي . فلم تلبث ان حققت البلاد وحدتها. وبسلسلة من الحروب شنها امير موسكو ، عام ١٤٩٢، و ١٥٠٠ – ١٥٠٣ ضد امير ليتوانيا،اضطر هذا الاخير للتنازل له عن هذه المقاطعات الشاسعة الواقعة ما وراء نهري الدنيبر والدونا ، كما اعترف له بلقب : « حاكم روسيا جمعاء » . واذ أنس إيفان الانحلال يدب في جسم دولة القبيلة الذهبية ، رفض ان يدفع للتتار اية جزية بعد الآن ، محتفظاً بها لنفسه ؛ ثم ينادي بنفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً عن كل ملك اجنبي . فهو يجسد في نظر الروس اجمع المقاومة المسيحية والوطنية ضد المحتل الاجنبي الذي يعبث بالبلاد ويعيث فيها فساداً ، هذا الاجنبي عميل ابليس وزبانيته وسيفه المصلت على روسيا.

الايديولوجيا الامبريالية البيزنطية ورسالة روسيا

هيأت النجاحات الداوية التي حققها ، والايمان المستقيم الرأي الذي كان عليه ايفان، زواجه من الاميرةصوفيا باليولوغ ابنة شقيق آخر امبراطور في بيزنطية . وقد رأى المعاصرون في عقد هذا الزواج رمزاً سياسياً وحمّلوه معنىً خاصاً . فالكنيسة تصوغ الافكار التي تفرض ذاتها على عقول الناس وقلوبهم (الخطاب الفصحي الجديد للمتروبوليت سوزيم ، رسالة الراهب فيلوثي لباسيل الثالث ، نظرية جوزيف الدينية حول اخضاع السلطة الروحية للسلطة الزمنية ، ودير فولوك) . فروسيا التي اعتنقت وحدها الايمان المستقيم هي بلاد مقدسة (روسيا المقدسة) والشعب الروسي « اسرائيل الجديد » هو الشعب الذي اختاره الله ليتولى رئاسة جميع الشعوب المسيحية ، وليؤمن الفوز النهائي لمملكة المسيح . فالدولة المسكوبية ستبقى الى منتهى الدهور ، وستسيطر على جميع شعوب العالم وموسكو هي « روما الثالثة » هي العاصمة الوحيدة والاخيرة للعالم المسيحي .وقد ورث ملك روسيا الصفة الالهية التي كانت للاباطرة البيزنطيين ، وبصفته مسيح الله فهو لا يؤدّي حساباً عن اعماله الا لله . فالوقوف في وجهه او ضد ارادته ، خطيئة . فالكل ملزمون له بالطاعة العمياء والولاء الاعلى ، حتى الكنيسة ورئيسها ، فليس للفرد اية حرية تصرف بذاته . وقد عم الاقتناع سواد الناس واستقر في يقينهم لدرجة الايمان ان على الملك ان يؤمّن الخلاص لكل فرد بالزامه الجميع على احترام الطقوس الكنسية ومناسك العبادة ، والتسليم بان كل كلمة من الكتاب المقدس هي موحى بها من الله . وشجب كل فكرة متحررة ، تفضي الى الهرطقة .

ومنذ ذلك الحين ، تبنّى ايفان الثالث الشارات الجديدة ، التي ترمز الى سلطته المطلقة المسلمة اليه من الله ، وهي النسر ذو الرأسين ، والصولجان والكرة والعرش . كذلك تخلى تماماً عن النهج الذي كان انتهجه حتى الآن بوصفه من اصحاب الاملاك الواسعة ، ليعتصم برسم البلاط

البيزنطي ، في عزلة من شعبه ، بوصفه كائناً فوق البشر ليس باستطاعـــة الناس الاقتراب منه الا مطأطئي الرأس .

الدولة العسكرية الروسية المطلقة

وايفان الثالث هو القائد الاعلى ، المطلق ، يرأس حمـــلة صليبية ضد التتاروضد الغربيين الهراطقة. عليه ان يصد بهذا العدد الضئيل من السكان ، هجمات التتار التي تنهش بصورة لا تنقطع ، حدود الدوقية التي لا نهاية لها . وقد انشأ بمساعدة مدربين استقدمهم من الغرب ، اولى مفرزاته الحربية من جيش المرتزقة سلّحها بالبنادق والمدافع ودربها على الاساليب الحربية المتبعة في الغرب . كذلك كان عليه ان يواجه هذه المشكلات الحادة التي أثارتها في وجهه صعوبات مالية . فلم يكن يستغرب قط ان يطلع ايفان الثالث بفكرة دولة موسكوبية منظمة على شاكلة معسكر حربي خضـــع لنظام حديدي ، ليس للحرية الفردية فيه ظل او شبه ظل .

وهذا السيد المطلق يفتقر جذرياً ، الى وسائل التنفيذ . فطبقة النبلاء التي تعمل في خدمته ليست سهلة الانقياد . وهؤلاء الامراء الذين قدموا خضوعهم له أرغِمُوا على ذلك بقوة السلاح ، فحملوا معهم ما كان تحت تصرفهم ، من قبل ، من كتائب وطوابير ، يستخدمونها عند ما تدعو الحاجة ، يقومون بالمهمات التي يُعهَد بها اليهم ، ويجلسون الى جانب نبلاء الروس في الهيئات والمجالس الرسمية ، بعد ان احتفظوا باستقلالهم الداخلي في اماراتهم المتوارثة . وتطلع عـــلى روسيا ، الفينة بعد الفينة ، محالفات ارستوقراطية ، فللنبلاء الحق ، دوماً، باختيار الامير الذي يرغبون بالانضواء تحت لوائه. وهذا الامير قد يكون مثلا رئيس امراء ليتوانيا،اوملك بولونيا.

وقد راح ايفان الثالث يحارب هؤلاء الارستوقراطيين بسلاح الطبقات . فاستخدم ، في هذا السبيل ارستوقراطية متوسطة الحال، لها ماض وضيع،تألفت في معظمها من كتبةوسكرتيرية،كما استعان بطبقة عسكرية دنيا قوامها جماعة من المسلحين ، عملوا في البلاطات الاميرية قبل ان تجري تصفيتها ، ومن صغار الملاكين الذين تحرروا،بعد ان استخلصت منهـــم أراضيهم ، ومن لمم من الفلاحين وجوابي الآفاق . فقد تطوعوا في خدمته كرجال خدمة لمدى الحياة، فاقطعهم مكافأة لهم واجتذاباً لولائهم ، قطعـــة ارض *Pomestia* ومنها جاءت كلمة *Pomietchiks* التي اطلقت على هؤلاء الملاكين الصعاليك ، وقد انشأ من خيار هذه الكتائب ، طبقة نبـــلاء خدمة ، هم مدينون له بكل شيء ، لم تلبث ان فُتِحَت امامهم عضوية المجلس ، فكانوا له عوناً على تطويع وترويض طبقة النبلاء القديمة وإجبارهم على الخضوع والامتثال له . وهكذا حال دون مروق اي تابع من توابعه حدثته نفسه الامارة بالسوء اللجوء الى امير آخر ، وبذلك اصبحوا من رعاياه وأجبروا على الخدمة العسكرية دفاعاً عن البلاد .

وراح ايفان الثالث ، من ناحية ثانية ، يضع وجهاً لوجه الفلاحين وطبقة النبلاء ، ومنـــع تسرب المعدن الثمين وتهريبه الى الخارج لئلا يقع بين يدي أعدائه التتار ، مما أدّى الى تقويـــة

العملة النقدية في البلاد ونهوض الاقتصاد . وهذه العوائد التي كانت تدفع له عيناً ما لبثت ان ان حل محلها عوائد تُدفع عداً ونقداً . والضرائب الاميرية اشتدت وطأتها مع تكاثر الحروب ، فاضطر الفلاح الى بيع غلته بسرعة مما عاد بالربح على التجار ، ليتمكن من تسديد دينه بعد ان كان يستلف من سيده ، بفائدة عالية لاقل حادث طارىء يتعرض له . ولما كان ، كثيراً ما ، عاجزاً عن تسديد دينه ، فقد رأى نفسه مضطراً للعمل في خدمة سيده ،على حساب حريته . وقد رأى نفسه مشدوداً شداً الى الارض لقاء الدين الذي لسيده في عنقه . وهكذا اصبح المزارع المديون ، شبه المشدود الى ملك سيده ، يذهب مع الارض سلعة مربوطة بها اذا ما باع سيد الارض ارضه . ولذا حاول عدد كبير من المزارعين الهرب والنجاة بأنفسهم الى حيث تشتد الحاجة لليد العاملة ، وكثيراً ما كانت تسنح له مناسبة الهرب . وهكذا أسقط بيد اسياد الارض وبهؤلاء المرابعين، اذ لم يعد في مقدورهم ان يفوا بتعهداتهم تجاه الملك . ولذا وقف الملك الى جانبهم ضد الفلاحين المارقين فشرع بحظر على هؤلاء الفلاحين ، مغادرة املاك السيد ، وان يعهد الى بعض هؤلاء الفلاحين ، ممن كانوا أحراراً من قبل ، بقطع من الارض ، تربتها سوداء،شعروا معها انهم اصبحوا مشدودين الى الارض ومضطرين بالتالي ، للخضوع الى اسيادهم.

وهكذا أمّن الصراع الطبقي لايفان الثالث طبقة من النبلاء سهلة الخضوع والانقياد .

وازدراءً منه لنظام الخلافة المتوارثة – وهو امر لم يكن احد من ملوك فرنسا الذين عرفوا باستبدادهم يجرؤ على اتيانه – فقد جرّد من حق الخلافة بالارث ، الذكور الابكار الذين يلدون من اول زواج . ثم عيّن له شريكاً في الحكم والسلطان باسيل ، ابنه من صوفيا ، الوريثة الشرعية للامبراطورية البيزنطية .

ايفان الرابع الخيف قائد الصليبية

سار باسيل الثالث (١٥٠٣ – ١٥٣٣)، على خطى ابيه وسلفه ونهض على الوجه الاكمل بالسياسة التي كان اختطها ايفان الثالث . اما الانجازات العظيمة، فقد تمت على يد حفيده إيفان الرابع-المخيف او المرعب (١٥٣٣ – ١٥٨٤) . ففي سنة ١٥٤٧ ، جرى تتويجه وله من العمر ، اذ ذاك ، ١٦ سنة . وأخذ لاول مرة ، في تاريخ روسيا ، لقب قيصر ، وبذلك اعلن نفسه خليفة القياصرة ووارثهم بعد ان تبنى كلياً المبادىء الاساسية التي قالت بها اليوسفية [١] .

أصلى التتار سلسلة من الحروب كانت بمثابة صليبية روسية ، ووجهها وجهة من كان يرغب صادقاً في تأمين السيطرة الكلية ، على طرق المواصلات التجارية . ففتح ، عام ١٥٥٢ ، خانة قازان ، ثم احتلت جيوشه مدينة استراكخان ، وبذلك اصبح مجرى نهر الفولغا تحت اشرافه وسيطرته . وهكذا اصبحت استراكخان ، بين اوروبا وآسيا ، نقطة التلاقي للتجار القادمين

---

(١) نسبة الى الامبراطور جوزيف،او يوسف احدأباطرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية،الذي حاول اخضاع الكنيسة وسلطتها الدينية ، للسلطة الزمنية ، في كل شيء . الناشر

من القوقاز والتركستان والعجم . وبانتصاره على خانة "سيبيريا ، عام ١٥٨٢ ، نشر السيطرة الروسية حتى مشارف نهر اليانِسِّي وجبال الالتاي ، فأطلّ على « كاليفورنيا الفراء». ثم اتجه ايفان الرابع شطر البحر البلطيقي ، موجهاً ضرباته ضد هراطقة الغرب الذين كانوا يحاولون عزل روسيا . ففتح ، بين ١٥٥٨ – ١٥٦٠ ، مقاطعة ليفونيا ، مما حمل السويد والدانمارك وليتوانيا وبولونيا على التدخل فاستطالت الحرب ، بين كرٍ وفر ، حتى عام ١٥٨٢ ، فاضطر في نهاية الامر صرف النظر عن هذه المقاطعة .

ان ثلاثين سنة من الحروب الدامية والجهاد المستميت قلبت المجتمع المسكوبي وما اليه من نظم ومؤسسات ظهراً لبطن ورأساً على عقب . ارتفعت خلالها ، نفقات الدولة ارتفاعاً عظيماً واضطر ايفان الى تقوية فرقة الرماة *Strélitz* وتسليحهم بالبنادق ، كما قوّى كثيراً من فرقة المدفعية ، وفرقة الهندسة وجيش المرتزقة ، ووسع فرقة الخيالة في الجيش ، كما انشأ على طول الحدود الآخذة دوماً بالامتداد والمط والاتساع ، سلسلة من المدن الجديدة المحصنة ، والقلاع والحصون ولذا كان لا بد من اخذ الناس بنظام حديدي آسر ، وفرض الضرائب وجبايتها بشدة تأميناً لموارد طائلة تقتضيها صناعة الحرب .

تطور الاقتصاد النقدي

اما التجارة فقد عرفت نشاطاً متزايداً فسهّل اسبابها ووسّع من حريتها التحالف مع خان القرم الذي سهل الاتصال مع اوروبا الغربية عن طريق البحر الاسود ، فتوافد على البلاد ، مواكب التجار ومعلمو المهن والحرف والصنائع ، من المانيا وايطاليا وهنغاريا ، فدخلوها عن طريق القرم . ومنذ الرحلة التي قام بها الرحالة الانكليزي تشانسلر عام ١٥٥٣ الذي استكشف معها البحر الابيض الواقع الى الشمال من البلاد ، راح الانكليز يتغلغلون في مجاهل روسيا وآسيا ، سالكين الطرق الملتوية التي تنطلق من الرأس الشمالي والبحر الابيض والمحيط المتجمد الشمالي . ونالت الشركة الانكليزية المسكوبية ، منذ عام ١٥٦٧ ، الترخيص لها بالاتجار في جميع انحاء روسيا وغشيان اسواق قازان واستراكخان ، والعبور منها الى بلاد فارس والى جزيرة ياغري الواقعة عند مصب نهر الدفينا في الشمال ، وانشاء مستودعات ومعامل لها في معظم المدن الروسية . وجاء بعد الانكليز الهولنديون وتجار انفرس وبروكسل ، كما قدم اليها ، بعد موت ايفان الرابع ، الفرنسيون عام ١٥٨٦ ، وفي الفترة الواقعة بين ١٥٥٨ – ١٥٨١ ، وقع مرفأ نارفا تحت تصرفهم ، فقد أمّه ٧٠ سفينة انكليزية سنة ١٥٦٧ الا ان السويديين تمكنوا ، من استرجاع هذا المرفأ ، عام ١٥٨١ ، واذ ذاك ، قام ايفان بتأسيس مرفأ أرْكَنْجلسك سنة ١٥٨٤ .

واستطاع التجار الانكليز والهولنديون من التغلغل داخل الولايات الروسية النائية ، والتعامل رأساً مع التجار المحليين ، يتبادلون معهم ويتقايضون السلع ، فبعثوا النشاط في الحركة التجارية في الداخل ، فزاد النقد في التداول . والى جانب الاتجار بادوات البذخ والزينة راجت تجارة المحاصيل

والغلال الزراعية ، كالقمح والكتان والقنب ، اللحم والجلود والقار والزفت والسمك . وقد عرفت مدن كثيرة كموسكو وقازان وبسكوف تجاراً كباراً،بلغ عدد مخازن الواحد منهم عشرة مخازن واكثر ، ومع ذلك بقيت نسبة البورجوازية في البلاد ضئيلة لاسباب عديدة ، منها منافسة المؤسسات الكنسية والتجار الاجانب ، وكلا الفريقين ينعم باعفاءات وامتيازات عديدة ، لا سيا الضرائب والرسوم الجركية والاحتكارات القيصرية للمشروبات الروحية ، او التبغ والكافيار ، وعدد الاسواق التجارية المحدود بحيث يتاح لمأموري الجمارك والمكوس القليلي العدد ، ان يراقبوا الاعمال والصفقات المالية والتجارية ، واخيراً الضرائب الثقيلة التي رزح تحتها الشعب .

ازمة المجتمع الروسي

عرف القيصر ان يفيد الى اكثر حد من ازدياد النقد المتداول بحيث أمّن دفع مرتبات افراد فرقة المرتزقة العاملة في خدمته . واستطاع ان يعهد الى الاغنياء من التجار بمهام ومشروعات قبلوا القيام بها على مسؤولياتهم الخاصة ، لقاء بعض انعامات جاد بها عليهم كالسماح لهم بفرض بعض الرسوم على التجار ، واستثمار بعض الاحتكارات الحكومية . كذلك ، عرف ان يستغل الى اقصى حد ، الأزمة الاقتصادية التي نزلت بالبلاد من جراء الحروب الدامية المرهقة التي اقتضتها الفتوحات الواسعة التي قام بها . فالاراضي كانت تستصرخ من يهبّ للعمل فيها . وقد اقطعت الحكومة الكنيسة وبعض الاسر الروسية ، من اصحاب الاعمال ، كآل ستروغانوف ، اراضي واسعة ، تقع في حوض نهر الفولغا الوسط والاسفل ، وفي نهر الكاما ، يسهل منها الاتصال بمقاطعة الاورال ، هذه المقاطعة التي كانت مضرب الامثال بغنى مواردها الطبيعية . واشتد الطلب على الفلاحين ، وارتفعت ، فوق الارض ، كالفطر ، مدن جديدة واديار كثيرة ، منها اوفا وسمارا (١٥٨٦) وسارانوف (١٥٠٩) ، واسس بعض جوابي الآفاق ، الى الجنوب من أوكا ، في قلب السهل الفسيح ، شركات حرة من القوزاق ، والرجال المحترفين القنص والصيد ، ومن شذاذ الآفاق . وجاء في اثرهم مزارعون استقروا في تلك السهول وراحوا يتعهدونها بالحرث والزرع ، ومن ورائهم مدن جديدة تشد ازرهم ، امثال يانسك (١٥١٠) واوريل (١٥٦٤) وفورنيخ ولفني ، (١٥٨٦) وغيرها كثير .

واشتدت الحاجة الى اليد العاملة . بعد ان اقفرت السهول الواقعة في وسط البلاد ، واخذ الفلاحون المرهقون بالديون او الرازحون تحت وطأة الضرائب والرسوم ، يهربون ، بحيث ان ٧٦ — ٩٠ ٪ من الاراضي الواقعة في منطقة موسكو ، امست بوراً ، كما ان القرى مهجرها أهلها، فتعذر على المزارعين النهوض بالاعمال الزراعية المترتبة عليهم ، كما اصبح من المستحيل على اسياد البلاد ان يؤدوا ما عليهم من عوائد ورسوم للخزينة . وهكذا فقدت الدولة كل اشراف على دافعي الضرائب ونضب بيت المال . واخذ كبار الملاكين والمزارعون يتزاحمون على

الفلاحين والمرابعين في حركة من التجاذب والتراشق لا نهاية لها ما لم تتدخل السلطة المركزية لتضع حلاً للامر

الانتقال من الادارة السيادية الى الادارة الحكومية

لم يرَ ايفان الرابع ، اذ ذاك ، بدأ من ردف الادارة السيادية القديمة بادارة حكومية . فقــد قام تحت القيصر ومجلسه الخاص، ممثل او وكيل عام له يدعى *Bazrjad* اصبح الوسيط بين القيصر والادارات الحكومية الاخرى : كبيت المال الخــاص بالدولة ، وبيت المال الخاص بالقيصر ، ودائرة الاختــام (*Prikas*) ودائرة الالتماسات ، ودائرة البوليس ومصلحــة المدفعية ، والجند المرتزقة ، و « قصر قازان » الذي انشىء عام ١٥٥٨ ، وهو اشبه ما يكون اذ ذاك بوزارة المستعمرات ، للنظر في امر الاراضي والمقاطعات التي ضُمّت بعد الفتح ،ومصلحة العلاقات الخارجية (١٥٤٩) ومصلحة التمثيل الديبلوماسي او مصلحة السفراء (١٥٦٤) .

وقد نظم المرسوم القيصري الذي صدر عام ١٥٢٦ المصلحة الخاصة بال *Pomicetchicks* او اصحاب الاملاك الذين لم يكن عددهم ليتجاوز ٢٠،٠٠٠ ، ففرض عليهم ان يجهزوا خيّالا (فارساً) بكل ما يلزمه من عدة وعتاد ، عن كل ٥٠ هكتاراً من الاراضي التي يملكها . وقد كان الواحد منهم يملك من ١٤٠ – ٢٣٠ هكتاراً . وقد كان بينهم من ملك ٣٠٠ او ١٠٠٠ ، او ١٣٠٠ هكتار . وقد جرى تثبيتهم في ملكيتهم لهذه الاملاك مدى الحياة واعــترف لهم القانون بحق توريثها ، الا انه حظّر عليهم ان يخرجوا من خدمة القيصر او من دائرة ولائه ليعملوا ، توابع ، لأمير آخر او ليعملوا في خدمته . وكانت غلال الارض ضعيفــة جداً . فقد أرهق تسليح الفرسان ، هؤلاء الملاكين ، فراحوا بدورهم يرهقون الفلاحين العاملين في اراضيهم ويبتزونهم بابشع الطرق ، مما حملهم على الهرب .

اصبحت الخدمة العسكرية ملزمة لكل اصحاب الاملاك ، لهم الحق ان يدفعوا بديلاً عــن الخدمة في الجيش مبلغاً محدداً . وقد استغني عن الجندين الذين كان يترتب على الاتباع تقديمهم كما تم توحيد الجيش وانظمته . وفي سبيل تأمين أود هذا الجيش، كان القيصر يفرض ،على هواه، رسوماً خاصة تصيب مثلاً ملح البارود ورسوم حملة البنادق ، وغير ذلك ، ومنــذ عام ١٥٥٤ لم تصدر في روسيا أية براءة اعفاء او استثناء حتى ان الاعفاءات القديمة ، جرى تخفيضها كثيراً كما الغي عام ١٥٨٠ ، اعفاء الاكليروس ورجال الدين من الرسوم .

الدولة البوليسيــة

ليس بمستغرب قط ان تلاقي هذه الاصلاحات معارضة لدى طبقة النبلاء القديمة . ففي سنة ١٥٦٥ ، انشأ القيصر ايفــان الرابع فرقـــة *Opritchnina* وهي فرقة الحرس القيصري ، معظم رجالها من الفدائيين ، عهد اليهم بالسهر على أمن القيصر ، وتصفية كل من تحدثه نفسه بالخيانة والغدر ، دخلها بعض افراد طبقة النبلاء القدامى ممن حط بهم الدهر . وقد أقطع كل واحد من اعضاء هذه الفرقة فدانة من الارض في

قلب روسيا . شهدت البلاد ، اذ ذاك ، حركة واسعة في انتقال ملكية الارض . فالامراء الاقطاعيون اضطروا للتخلي عن ممتلكاتهم السيادية المتوارثة لقاء التعويض عليهم بعقارات تقع على اطراف البلاد او على حدود هذه المقاطعات *Zemtchina* التي تم فتحها منذ عهد قريب . وهكذا انفصمت هذه العرى التي كانت تشدهم الى سكان البلاد حيث كانت تقع ممتلكاتهم ، فوجدوا انفسهم بين اقوام لا يعرفون عنهم شيئاً كبيراً ، كثيراً ما تعرضوا للعصيان من قبل هذه الجماعات ، كما تعرضوا كثيراً للهجوم من وراء الحدود ، لا يرد عنهم غائلة الموت الا مبادرة القيصر لنجدتهم . وقد عهد القيصر الى اعضاء فرقة حرسه بمراقبة هؤلاء الامراء المبعدين بعد ان حامت حولهم الظنون وارتاب القيصر بهم متهماً اياهم بالتخلي عن الولاء نحوه . وقد جرت تصفية عدد كبير من زعماء هذه الاسر حتى ان اسراً كثيرة ابيدت برمتها . ففي سنة ١٥٧٠ ، جرى نهب مدينة نوفغورود الكبرى . وقد فاضت مياه النهر من كثرة ما ، ألقوا فيه من جثث الموتى .

ومساعدة منهم لهؤلاء *Opritchniks, Pomietchiks* ، راح القيصر يهتم بتوفير ما هم بحاجة اليه من الفلاحين والمرابعين الذين استحالوا ، فيما بعد ، عبيداً مشدودين الى الارض . فقد نصّ القانون الصادر عام ١٥٥٠ ، على ان المديون العاجز عن ايفاء دينه يجري تسليمه للدائن الذي يفرض عليه العمل في ارضه حتى وفاء الدين المترتب عليه . وفي سنة ١٥٧٤ ، فرض القيصر على كل فلاح ، يعمل في التربة السوداء ، ان يزرع لحساب الدولة ، اربعة هكتارات في السنة، وذلك على سبيل التخفيف من حدة الطلب على اليد العاملة بعد فرار المزارعين وهربهم. وفي سنة ١٥٨٠ حظّر القيصر على المزارع جحود سيده وألزم الفلاح على الا يتغيب عن ارضه الا باذن خاص من سيده . اما الفلاحون الهاربون فكانوا يستهدفون لعقوبات زاجرة .

بين الملكية المسكوبية ، والملكيات الغربية

وهكذا قامت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، ملكية مطلقة مستبدة في روسيا . فالقيصر يتمتع ، قانوناً وبالفعل ، بكل صلاحيات السيادة وخصائصها المميزة : سلطة تشريعية ، وسلطة تنفيذية ، وسلطة قضائية ، وله كل سلطان لفرض الضرائب وتعبئة جيش قائم باستمرار ، وموظفون يتولى هو نفسه تعيينهم . ويختلف النظام الملكي المسكوبي المطلق عن مثيله في الغرب باتساع الحقوق الملكية المسكوبية وباتساع صلاحياتها . فليس ما يدل قط على انه قام في البلاد قانون اساسي حد من سلطة الامير المطلقة ، في ما يتعلق مثلاً بحقوق خلافة العرش، او وجود اي حق للفرد ، او للمؤسسات والهيئات القائمة ضمن الدولة كحق التملك . وعلى عكس هذا،هنالك ما يشير الى او يدل على وجود حدود لهذا السلطان ، من مثل الظروف والاحوال المسيطرة ، وهذه الاعفاءات القائمة،وعدم وجود بورجوازية رأسمالية باستطاعتها ان تجابه الطبقات الاخرى او ان تصد من طغيانها ، فالملكية المسكوبية المطلقة، شكلت نوعاً في جنس الملكية المطلقة ، فهي اقرب لعمري من نوع الملكيات الآسيوية المطلقة التي جاءت وليدة مجتمعات خاصة

تميزت بضعف الروح الرأسمالية فيها . ولهذه الملكية ذات المميزات الاساسية التي اتصفت بها الملكية المطلقة في اوروبا الغربية في القرن السادس عشر : مثالية قومية جاءت نتيجة بعث ايديولوجيا قديمة جرى تكييفها وفقاً للحاجات الجديدة ، وايمان شعب بكامله يعتقد يقيناً انه مدعو لرسالة خاصة ، وطموح فردي جاشت به امة مسيطرة ، غلاّبة تقمصه مَلِكٌ هو صورة الله على الارض ، بطل قومي مظفر ، عهد اليه القيام بحرب مستمرة ضد الاجنبي دارت على حدود اعتبرت دوماً في خطر ، واقتصاد نقدي آخذ بالتطور . الى هذه المثالية القومية صراع طبقي يختلف في بعض وجوهه ، عما قام من امثاله في الغرب. فنحن هنا لسنا امام صراع بين بورجوازية وطبقة نبلاء ، بل صراع قام بين طبقتين متجانستين ، بين طبقتين من النبلاء متشابهتين تقريباً ، صراع بين ما هو رئاسة سيادية ممثلة في طبقة نبلاء من هذا النوع او ذاك ، وبين فلاح او مزارع امضى سلاحاً ، هنا في روسيا ، منه في الغرب ، لما يتوفر له من امداء ومسافات تنبسط امامه ، وامكانية الهرب والتملص ، والمساومة او المفاضلة بين سيدين او اميرين يتجاذبانه . والصراع الطبقي اعطى دوماً بوصفه صراعاً، النتائج ذاتها والمعطيات ذاتها: الدولة فيه هي الحَكَم وهي السيد . ولذا راحت هذه الدولة ، هنا في روسيا كما في الغرب ، تشحذ من حدة هذا الصراع الطبقي وتنفخ في أواره . فالظروف الاساسية واحدة هي ، فقيام الملكية المطلقة له ما يبرره وما يزكّيه .

الفصل الخامس

النظم الجديدة التي طبعت السياسة الخارجية

ليس من جديد في هذه النظم الا ما طلع منها خارج ايطاليا . فالجديد فيها هو نقل طبيعة هذه العلاقات التي ربطت الدول الايطالية كما كرّسها صلح لودي، المعقود عام ١٤٥٤ ، الى جميع دول اوروبا، إثر الحملة التي قام بها شارل الثامن على ايطاليا بقصد فتحها وضمها . فقد وَعَت الدول الايطالية ان هـذه العلاقات التي شدّتها بعضاً الى بعض لم تكن تتوقف على هذه الروابط العديدة التي جمعت فيما بينها ، ولا جاءت نتيجة لتجاورها او تلاصقها فحسب ، بل ايضاً نتيجة لهذا الشعور المشترك والتحسس العميق بأن القوى والعوامل التي تتأثر بهـا جميعاً اولتها الحق المتبادل في التدخل والاهتمام جدياً بهذه الاحداث التي تقع بعيداً عنها، ولو لم تكن لتعنيها في الظاهر كثيراً، وذلك لما تحدثه هذه الشؤون والاحداث من تأثير على توازن القوى، اذ ان اي خلل او اختلال يلحق بهذا التوازن، كان لا يخلو من خطر على دولة أو على مجموعة من هذه الدول . وهكذا نرى ان الايطاليين ، ارتقى بهم التفكير بحيث راحوا يعملون على قيام شبكة من الدول كل واحدة منها معنية بالمحافظة على هذا التوازن . ولتحقيق هـذه الفلسفة والعمل بمبادئها ، كان لا بد من قيام علاقات مستمرة بين هذه الدول ترتكز على قوانين وانظمة تشكل ما يعرّف اليوم بالقانون او الحق الدولي . ولكي لا تتجرأ دولة ما ان تحاول الاخلال بهذا التوازن لمصلحتها الخاصة ، اعترفت بمبدأ حق التدخل وجعلت منه مبـدأ سياسياً سارت عليه . فلكل دولة الحق بالتدخل لدى دولة اخرى مبررة تدخلها بحجج مختلفة ومتذرعة بعلل شتى ، منها الديني ، مثلاً ، كأن تدعي حماية ابناء دينها الرسمي ، ومنها السياسي كصيـانة الحرية والمحافظة عليها . وهذا التوازن لم يكن سوى وسيلة للحؤول دون اي دولة تحدثها نفسها بزيادة قوتها وبسط سيطرتها وسلطانها على حساب دولة اخرى . فهو لا يقوم على تفاهم ضمني يرمي لتحقيق عمل مشترك . فهو مجرد فكرة سلبية ، او مكبح يجمح من الشهوة ، ويحد منها . ففي ٣١ اذار ١٤٩٥ ، بدا اول مظهر لهذه السياسة الجديدة ، سياسة التوازن بين دول اوروبا،

وذلك في حلف البندقية ، الذي تألف للوقوف بوجه فرنسا معارضة لتدخلها في ايطاليا . وقد تشكل هذا الحلف من البندقية ، وملك أسبانيا ودوق ميلانو ، والبابا . واللغة الديبلوماسية الاوروبية استعملت في هذا السبيل عبارات واصطلاحات مستمدة من الحياة السياسية في ايطاليا، منها : « توازن الدول » و « القوى المتقابلة » وغير ذلك من الالفاظ والاصطلاحات . اما التعابير والمجازات التي عمل بها من قبل ، أمثال : « الكتلة المسيحية » و « الجمهورية المسيحية » فقد بطل استعمالها . واخذت المصطلحات : التوازن الاوروبي ، والديبلوماسية المعمول بها ، والقانون الدولي ، وحق التدخل ، تطبع السياسة الاوروبية ، حتى حلول معاهدة فيينا (١٨١٥) وما بعد .

١ ـ الظروف العامة

الديبلوماسية الثابتة

كان لا بدّ ، والحالة هذه ، من وسائل عمل تفي بالغرض . فقد تبنت دول اوروبا ، على شاكلة الدول الايطالية في القرن الخامس عشر ، نهجاً جديداً هو الديبلوماسية الثابتة . فقد كانت اقتصرت هذه الدول حتى اواخر القرن الخامس عشر ، على سفارات او وفادات احتفالية احيطت بكل مظاهر الأبهة ، برئاسة امراء او كرادلة او وزراء أحيطوا بكل مظاهر التجلّة كُلفوا معالجة قضية ما حتى اذا تمت تسويتها ، رجعوا من حيث أتوا . وقد استمر العمل بهذا الاسلوب خلال القرن السادس عشر ، في كل ما يتعلق بامور المواليد والزواج والمآتم الرسمية وحفلات تنصيب الملوك العرش ، او لاقرار المعاهدات والمواثيق المعقودة ، وهي مهمات محدودة ، كما ترى ، قلما أروت ظمأ الطرف الثاني للتزود من المعلومات التي يرغب في الاطلاع عليها او التي منّى النفس بالوصول اليها .

فمنذ ١٤٩٥ ، وهو تاريخ الحلف الكبير الذي قام للحد من اطماع شارل الثامن وتفشيل حملته على إيطاليا ، اقتضت الضرورة القيام باتصالات مستمرة ، ثابتة بين الحلفاء او بين من هم على الحياد او بين من قد يصبحون خصوم الغد ، كان لا بد لانجاحها ، من وجود ممثلين يبقون بصورة مستمرة في عاصمة الدولة . وقد حذا الجميع حذو البندقية ، في هذا المجال . وفي هذا السبيل حرصت أسر كثيرة ، على الاحتفاظ ، اباً عن جد ، بهذه المناصب التمثيلية ، بعد ان تمرس اعضاؤها بهذا العمل وتدربوا على اساليبه طويلاً . فقد راح ممثلون او وكلاء سفراء ، من رجال القانون او من صغار النبلاء ، او من رجال الاكليروس ، يساعدهم احياناً موظفون إضافيون من كبار الاشراف كان وجودهم مجرد مظاهر خارجية على الغالب ، يفاوضون محلياً ويهيئون شروط الاتفاقات التي يرغبون في الوصول اليها ، او نصوص المواثيق التي همهم عقدها ، كما كان همهم الاكبر ان يزوّدوا حكوماتهم بكل ما تحتاج اليه من معلومات وما ترغب في الاطلاع عليه من اوضاع معينة وظروف قائمة . ولذا حذقوا التفرس في الناس والنظر الى الاشياء بتبصر ، كما اتقنوا

الاصغـــاء والتحري عن كل شيء ، وتفننوا في تزويد رؤوسائهم بكل مـا وقعت عليه ايديهم من كل فن وخبر او ما وقفوا عليه من روايات واقاويل مع اي ريح وصلتهم ، او من اي مصدر استقوا او من اي ورْدٍ وَرَدوا. فالسفير الدائم ليس بالفعل سوى جاسوس يتمتع ببعض الامتيازات ، تحت تصرفه شبكة ممتازة من وسائل الاعلام والرصد والتسجيل . وبصفته ممثلاً ديبلوماسياً لبلاده ، فهو يتّصل ، ولا َحرجَ عليه ، بكل من يمكن ان يستفيد منه بدأ ، مهما كان لبوسه : خائناً او مارقاً او متصيداً فيوزع بلباقة وفطنة ، الأعطيات والمرتبات والجعالات ويتصل دونما تورع ، بمستشاري الدولة ، وبالخطباء الكنسيين والمرشدين والوّعـــاظ ، وبوجوه المجتمع والشخصيات البارزة والمنظمات والهيئات القائمة في الدولة . فقد مثل الملك فرنسوا الاول في البندقية ، السفير بليسييه الذي امتد نفوذه حتى الشرق الادنى . وقد برهن بعض الاسبان، في عهد ملكهم فيليب الثاني ، عن مقدرة خارقة في هذا المضمار ، ولا يزال التاريخ يحفـظ لنا ، اليوم ، اسماء لها شهرتها في عالم التجسس، امثال دوق ألبا، في فرنسا، بعد معاهدة كاتو – كمبرسيس. ومثل هذه المهمة نهض بها الى الأوج ، توماس برّنو ده شانتوناي، شقيق الكردينال ده غرانفيل الذي عمل سفيراً لبلاده، من آب ١٥٥٩ الى شباط ١٥٦٤، والسفير الاسباني الفارو ده لاكوادرا مطران أكيلا الذي احسن حبك شبكة من التجسس في انكلترا ، في هذه الفترة بالذات .غير ان مهنة السفير كانت مهنة شاقة لم تكن لتدر كثيراً على صاحبها ، كما ان الحصانة الهشة التي يتمتع بها السفير ، اذ ذاك ، لم تكن لتجعله دوماً بمنأى من المفاجآت غير السارة ، ناهيك عن ان بطء المواصلات وصعوبتها كان يحمل مغامراته لا تخلو قط من خطر عليه .

وقد استعمل الملوك من فرنسوا الاول ، الى شارل الخامس ، الى الملك فيليب الثاني ، باستثناء السفراء ، عدداً من العملاء السريين والمغامرين من فرسان واطباء ، ممن أنِسوا فيهم المقدرة على الاضطلاع ، بتفوق ، بمفاوضات سرّية ، كما انهم استعملوا بعض الوسطاء الضعاف الذين لم يكونوا يتورعون من اللجوء الى علاقات ملتوية او مشبوهة ، مايكاد ينفضح امرها حتى يبادر الملك الى شجبها والتبرؤ منها .

تنهج الديبلوماسية ُطرقاً واساليب واقعية .ومهماً يكن، فالنتيجة وحدها هي التي ُيعتَدّ بها. فالاعتبارات والمبادىء الخلقية ، تأتي بعيدة بمراحل ، في عملية الوزن والتقييم ، بعـــد حساب القوى . أليست الديبلوماسية حرباً من نوع آخر غير التراشق بالقنـابل والمدافع ، سلاحهـــا المعروف : الكذب ، والمخاتلة ، والغش والخداع . فعلى السفير ان يكون على إلمام كبير واطلاع واسع بأحداث التاريخ وما فيها من عظات ودروس ، هذا التاريخ، معلم الكذب والغش والخداع والحَنْث بالمواثيق ، كما يقول كوّمين . عليه ان يتظاهر بانه رجل بِرّ وصلاح، صريح مخلص ، حر الفكر ، بحيث يكسب ثقة محدثيه حتى يتمكن بالتالي من بلفهم عندما تحين الفرصة السانحة (مكيافلي) ، عليه ان يوحي جيداً بأنه يرغب صادقاً أمراً ما ، بينما هو يقصد بالفعـل شيئاً آخر بعكسه. تماماً . هـــذه الطـرق والاساليب ، لم تلبث ان اصبحت اموراً مقررة ، متعارفة ، ولم تعتّم ان تصبح مهنة او نهجاً بعلم واصول وقواعد . ولكي ُيطمئن حليفة

لمقابلة او مفاوضة لم يكن مقرراً ان تشترك بها بلاده ،يأخذ السفير بالتأكيد بان حكومته لا ناقة لها ولاجمل في الامر ، وان المقابلة او أمر التفاوض دعت اليه ، الجهة المعارضة حباً بالسلام ، وفي سبيل ترسيخ اسبابه لا غير .ولكي يثير الغيرة والحماسة في نفس محدثه يروح يُزيّن له بان النية او الافكار تتجه الى صرف النظر عنه ، وتفضيل فريق آخر عليه ، وان مليكه لعلى استعداد كلي لتوقيع مشروع اتفاق معروض عليه ، ولكي يُحدِث في نفس محدثه التأثير الذي يرغب فيه ويحمله على التسليم بوجهة نظره ،يتظاهر السفير برغبته بقطع المفاوضات ويُخرِج مرافقيه من البلاد كمن يَوَدّ الانسحاب والتراجع ، وغير ذلك من وجوه التناور .

ففي المفاوضات الرسمية ،يتولى الكلام باسم الوفد المفاوض شخص واحد ،وباللغة اللاتينية ، وعندما يفرغ من عرض القضية ويبسط وجهة نظره ،ينسحب الفريق المتفاوض الثاني للمذاكرة وتبادل الرأي ، قبل ان يعهدوا الى واحد منهم بالرد على المقترحات المعروضة .

يتبادل السفراء مراسلاتهم مع اجهزة خاصة في الدولة كالملك او مجلس الملك الخاص ، وتباعاً مع امناء السر . وكان على سفراء البندقية ان يرفعوا ، الى رؤسائهم ، تقريراً عن وفادتهم ، لدى رجوعهم الى البلاد ،عن المهمة التي انتُدبوا لها . ويتلى التقرير علانية على اعضاء مجلس الشيوخ ، بحضور التوغا ، ثم يُحفظ في قسم السفراء ، المحفوظات السرية . وتؤلف مجموعة تقارير السفراء في حكومة البندقية ، معيناً لا ينضب ، من المعلومات التاريخية .

العبارة التجارية : بين الثلاثية والمركب الشراعي

في القرن السادس عشر انتقلت نقطة الثقل في المواصلات البحرية ، من البحر الابيض المتوسط،الى المحيط اوالاقيانوس.فبعد ان اقتصر نشاط الحضارة،في اوروبا،من قبل،على البحر الابيض المتوسط والبحار الشمالية (البلطيق والبحر الشمالي وخليج المانش) ، اذ بهذاالنشاط يصطبغ ، اكثر فاكثر ، بعد النصف الثاني من القرن السادس عشر بطابع أسيوي بارز .وقامت على الاثر منافسة قوية بين السفينة الثلاثية الصفوف من المجاذيف التي كانت ،اداة النشاط البحري في المتوسط وبين السفينة الشراعية ،او المركب ، وهو الاسم العام المشترك الذي يمكن اطلاقه على الكرافيل وغيرها من انواع السفن الشراعيـة التي اتخذت عدة للاسفار البحرية في المحيطات .ولم يلبث ان كبر شأن السفينة في كل ما يتصل بالحرب والمعارك البحرية ، وما ان مالت شمس القرن للمغيب حتى كانت أفضليتها تبز الثلاثية بكثير .

الثلاثيـة ، المركب ، الريح والبحر

كانت الثلاثية ، تفضل السفينة الشراعية عندما يكون الطقس هادئاً ، والهواء ساكناً مع نسيم خفيف . اما اذا ما هاج البحر واضطرب اديمه فالافضلية ، تعود للسفينة الشراعية او المركب . فالثلاثية ، ظهرها واطٍ يكاد يلامس سطح الماء ، فهي ، في الصميم ، قارب مكشوف الظهر ، يعلوها درابزون يطفطف من كلا الجانبين ، يفصل بين صف وصف آخر من الجذفين ، ممر ضيق ،

ويعلو ظهرها أرضيّة من الواح الخشب ، تستدير اطرافه لمر ضيق يسلكه الجند . وكنا نرى سفناً شراعية كبيرة كالتي تستعملها البندقية لتأمين علاقاتها التجارية مع مقاطعة الفلاندر (طولها ٤١ متراً ، بعرض ٣،٤٦ متراً في الاسفل و٦،٠٦ متراً على الظهر ، و ٢،٧ م ، في القلب من الداخل) ، اما صفاتها ومميزاتها فهي هي لم تتغير. فاذا ما اهتاج البحر وازبد تعرضت السفينة الثلاثية للغرق . اما المركب ، فيؤلف هيكله بناية عائمة . فالظهر يعلو علو رجلين او ثلاثة رجال ، عن سطح الماء . ويقوم فوقه ، من الامام ومن الوراء على السواء ، برجان او قلعتان ، فترى المياه تتساقط من على جانبيه بينا يبقى الظهر ناشفاً جافاً . فمقدم السفينة المدبب ، يشق أديم الماء شقاً عندما يكون البحرهادئاً ، احسن بكثير من المقدم الافطس في المركب، وتسير بسرعة اكبر منه اماعندما يكون البحر هائجاً او تتأرجح السفينة، بين المقدمة والمؤخرة ، يغوص مقدم السفينة في اليم ، بحيث يمر الموج فوق ظهرها عندما يشق العباب . اما المقدم الافطس في المركب ، فلا يغوص عميقاً بخلاف مقدم الثلاثية ، ويعلو فوق الموج ، وتزيد سرعته على سرعة الثلاثية. وتزود الثلاثية بمجاذيف طول الواحد منها ١٢ متراً، يعالج الجذاف الواحد خمسة مُجذِّفين ، كلهم من الارقاء او من المحكوم عليهم بحبس اللومان ، عند انطلاقة الصفير ، يلهب السوط اجسامهم عند اقل تمهل او تأخر في الحركة ، فيولون السفينة دفعاً الى الامام ، عندما يكون البحر ساكناً ، اما عندما يأخذ الريح بالهبوب ، تعود الى المركب أفضليته . وللثلاثية صار واحد او صاريان ، وعدد من الاشرعة تبلغ مساحتها مجتمعة ٥٠٠ متر مربع . اما المركب فعدد الصواري فيه يتراوح بين ٢و٤ صوار، وتزيد مساحة اشرعته اربعة او خمسة اضعاف، مساحة اشرعة الثلاثية . كذلك تجهز المراكب باشرعة مربعة عليا ، تساعدها على السير الى الوراء عندما ينفخ الهواء بعكس السير . فالمركب يجهز باربعة او خمسة انواع من الاشرعة ، من مقاييس مختلفة ، بينا لا يحمل الصاري سوى شراع واحد مجهز بدِقل ضخم ، بينا عارضة الصاري مستديرة وتتحرك بصعوبة كلية، اما المركب فاشرعته اكثر توزعاً بحيث تزيد او تخفض من مساحة الشراع المعرضة للهواء . ولكل من الصواري الرئيسية اشرعتها ، مع أدقال مربعة .

الثلاثية والمركب والمناخ والرحلات البحرية

والسفينة الثلاثية معدّة للعمل في الاقاليم الهادئة نسبياً ، وللقيام برحلات قصيرة . فعندما ترسو سفينة يمكن نصب خيمة وايقاد المشاعل . فالمجذّفون ومساجين اللوماق المحكوم عليهم بالعمل في التجذيف ، يلتحفون القبة الزرقاء ، فهم يلبسون قميصاً وسروالاً من النسيج الاسمر الخشن ، حفاة ، لا شيء في ارجلهم ، صيفاً شتاءً، والبستهم دائماً مبللة ، فالغسيل عملية تغطيس البدلة من فوق حافة السفينة . فهم مشدودون دوماً الى مقاعدهم ليلاً . ولم تتخذ السفينة اي تدبير ولو بدائي للتخلص من الاوساخ ، وقد حشا الضباط انوفهم تبغاً قوي الرئحة . فلا تسل ، والحالة هذه ، عن تكاثر الهوام كالقمل والبراغيث . فاذا ما امتدت الاسفار وطال

امدها ، تفشّت الامراض بين الجماعة وهددتهم بالفناء . اما ربان السفينة فيرتدي ثياباً حسنة ويقتات جيداً ويستطيع ان يستسلم للراحة في اماكن خاصة معزولة ، جافة ومدفـــأة . اما المركب فباستطاعته ان يعمل في كل الاحوال المناخية . فهو يضطر للسير مع الشاطىء ، تأميناً لبعض الراحة ووسائل التدفئة والتغذية ، وتأمين أود العيش من المرافىء القريبة اذ يتعذر على السفينة الشراعية ان تتمون من هذا كله لأمد طويل . ولذا نرى الدول البحرية تنشىء لها ، على طول شواطىء البحر المتوسط ، سلسلة متماسكة الاطراف من المرافىء الحربية . فالمركب الذي في مكنته ان يتزود بكميات اكبر من المواد الغذائية ، يرى امامه مجالاً اوسع للعمل وارحب .

السفينة الثلاثية والمركب في زمن الحرب

وظيفة السفينة الثلاثية هي جلب الجنود للهجوم وتسهيل وسائل الاشتباك لهم بالايدي . فهي لا مهماز لها ولا يمكن ان تجهز بشيء من هذا . فهي متماسكة الاطراف ، مـــن الوسط وان كانت تفتقر المتانة والصلابة في طولها ، فمقدمها الطويل ، الغرض منه التلطيف من حدة الصدمة والدفع عند الرسو ، والمدفعية التي تحملها فوق متنها ، صغيرة هي . ففي المقدمة مدفع كبير ، تركز في المحور ، واربع قطع خفيفة لتسديد الضربة على مدى قريب ، ممهدة الطريق لفرقة الهجوم. فالمعركة بين الثلاثيات هي معركة بين المشاة او الرجالة ،يتحول الاشتباك فيها الى صراع فردي بين افراد الجند من كل الفريقين فيعمدون الى الخنجر او امتشاق الحسام ، فيهب امراء البحر انفسهم يطلب الواحد مناجزة الآخر للمبارزة ، فالاساطيل المتلاحمة تقوم بسبـــاق الزوارق بحيث ينفسح امامها مجال العمل والمزيد من النور والشمس ، ثم يطبق الجانبان بعضهما على بعض، ويتخذ كل العوامل الحاسمة ، كالاندفاع الحماسي والشجاعة والمهارة الشخصية . والضبـــاط العاملون في هذه السفن هم من ذراري الاسر الارستوقراطية الكبرى ينظرون بشموخ وترفع الى غيرهم من الضباط العاملين تحت امرتهم . فاذا ما استهدف المركب لعملية اصطدام كان مصيره الهلاك ، وقد يكون له من القوة احيانا ما يستطيع ان يتحمل الصدمـــة ويحطّم بدوره ، بمقدمه اية ثلاثيـــة تكون لخفتها ورشاقتها اكثر استعداداً للعطب السريع ، بينما يتمـــيز المركب بالصلابة . وقد جرت عادة تقوية جوانبه بشبكة متعارضة من عوارض الخشب بعد تدعيمها عمودياً . فالامواج ترتطم بهذا الحاجز الخارجي وتتكسر عليه فتتطاير رذاذاً في الهواء لا يلبث ان يتساقط كالمطر باستمرار فوق ظهر السفينة . وللمركب من المتانـــة ما يتيح له استعمال الخطّـــاف او المهماز في المعركة فهو يشكل بطارية مدفعية عائمة مكلفة بتحطيم السفينـة الشراعية عن بعـــد . ويقوم على الخط الدائري ، على مستوى سطح الماء ، عدة بطاريات ، كما يقوم من النوع الخفيف منها عدد فوق الظهر . وقد رُكـّبت فوق حصون المركب مـــدافع سددت فوهاتها نحو السفن العدوة ، ويتراوح تسليح مركب من الحجم الوسط ، بين ٣٨ – ٤٠ قطعة مدفع .

تطور الثلاثية والمركب

يبدو ان الثلاثيات وما اليها من هذه الانواع لم يطرأ عليهـــا اي تحسين يذكر ، في القرن السادس عشر ، بعد ان بلغ هذا التطور حده من قبل . اما المركب فقد خضع هو باستمرار للتطور والتحسن ، فالنصف الاول مـن القرن السادس‌عشر كان بمثابة حقبة تجارب واختبار وتحسن الاساليب التقنية . فقـد امر فرنسوا الاول ببناء سفينة الفرنسواز الكبرى ، في مدينة الهافر ، وهي سفينة استغرق بناؤها من ١٥٢١ –١٥٣٣ ، جهزت بخمسـة صوار ، واتسعت لـ ١٥٠٠ راكب، انشئت فيهـا كنيسة وملعب للتنس ، وكور للحدادة، وفرن ومطحنة هوائية . الا ان هذه المدينة العائمة لم تنزل قط الى البحر . ونقل جان لاسكاريس الى شارل الخامس ،سر بناء سفينة تجارية تعمل على عجلات لها قواديس ، جرى تصميمها في ايطاليا . وجرت محاولة بناء هذه السفينـة ، في مرفأ برشلونة بنجاح تام . وقد جهل الناس كيف كانت تتحرك ، ربما بواسطة جهاز يدعى *Eolypile* من اختراع العالم اليوناني الاسكندري هيرون . وفي سنة ١٥٧٥ ، صمم الهولنديون سفينة جبارة تسير بعجلات تتحرك بدفع الجاذيف ، وقد اتسعت فيها مساحة الاشرعة وتوزعت . فالصواري القائمة في الاطراف تزداد ضخامة وتفرش بالقلوع ويسهل بالتالي تدويرها من جهة الى اخرى . فالطوابق العليا في البرج القائم عند مؤخرة السفينة لم تعد تصل الى طرف الصاري ، وتتناقص طولها كلما خف علوها بما يزيد في قوة الاستمرار ، اما المؤخرة ، فقد اصبحت مربعة بعد ان كانت مقعرة . وفي اواخر هذا القرن ظهرت السفن مـن نوع *Vaisseau* . وقد تبين البحـارة ببطء كلي الامكانات الطائلة الكامنة في المركب . وقد بقيت فكرة مهاجمة السفينـــة تتحكم بالافكار والخواطر . وعندما حاول الملك فرنسوا الاول القيام بحملة نزول في انكلترا وغزوها بحراً ، عام ١٥٤٥ ، اردف اسطوله بخمس وعشرين سفينة شراعية كانت تعمل في مياه البحر المتوسط . اما الفشل المريع الذي اصيب به اسطول الارمادا الذي لا يقهر بعد ان اعـــده فيليب الثاني لغزو انكلترا عام ١٥٨٨ ، فقد فتح عيون الناس على ما في هذا الاسلوب من نواقص وسيئات . فاضطرت سفن فيليب الشراعية ان تبقى على مقربة من شواطىء اسبانيا الشمالية بالنظر لهيجان البحر . اما المراكب الاخرى التي تألف منها اسطول الغزو ، فقد عرف الانكليز ان ينقلبوا عليها بسهولة كلية بعد ان عرفوا كيف يتفادوا خطر الجابهـة ، وبعد ان راحت تقذف الجنـد الاسبان من بعيد ، بقنابل المدافع وفتكت بهم وشردتهم كل مشرّد . والانتصار البحري العظيم الذي حققه اسطول الدول المسيحية ، على الاسطول العثماني في معركة ليبانت ، عام ١٥٧١ ، استحال في النهاية الى اشتباك او عراك بالايدي ، بعد ان امنت فرقـة الرماة البحرية ، الافضليـة للمسيحيين وفي سنة ١٥٧٢ ، عرف المسيحيون ان يعبئوا سفنهم ضد اسطول اولغ علي ، وذلك بوضع مراكبهم في الطليعـة . وهكذا بدت خطوطهم الامامية لا تقهر على ايدي الثلاثيات . وفي سنة ١٥٩٠ ، التقى اسطول صقلية المؤلف من ثلاثيـات شراعية ، باربعة مراكب انكليزية وحاول ايقافها ، فما كان من البحارة الانكليزية الا ان افنت

على قلتها ، اسطول صقلية . وهكذا زال الى الابد عصر الثلاثيات من السفن واطلت علينا سفينة خط النار الاول .

الجيش : جيش شارل الثامن

ولعل خير مثال لتعبئة الجيش ، في مطلع الحروب الايطالية ، هي التعبئة التي تمت للجيش الفرنسي في عهد شارل الثامن ، عام ١٤٩٤ . تألف جيشه ، اذ ذاك ، من كتائب تشكلت وحداتها من افراد مجهزين باسلحة الرماية ، القصد منها التهيئة للهجوم بزحزحة صفوف العدو ، والتأثير على معنوياتها وإضعافها . وقد جهز كل فرد من افراد الجيش باسلحة يدوية ، وأحسن تدريبه بحيث يتمكن من خرق خطوط العدو من اول هجوم او يقوى على كسر حدة هجوم العدو بواسطة فرقة القنفذ ، وهي فرقة خاصة من المغاوير ، والفرق المسلحة تسليحاً خفيفاً للقيام بعمليات الاستطلاع والاستكشاف او للقيام بحروب المناوشات ومطاردة العدو ، لاستغلال النصر الى اقصى حد ، وفرق من الضابطيـة والياوران لابسي زَرَد الحديد مزودة افرادها برماح كبيرة ، الى جانبهم حملة الخناجر ورماة النبال ، وفرقة المشاة ، اكثر من نصف وحداتها يحملون رماحاً طويلة بينما جرى تسليح الآخرين بالحراب ، وعُشر فرقة المشاة يحملون البنادق الكبيرة وقد ركزت على مرماة ، وهي عبارة عن مدفع صغير يُحمّل باليد ، ورماة النبال على خيولهم أو مشاةً . اما المدفعية فكانت تتألف من ١٤٠ مدفعاً من البرونز تجري تعبئتها من الفم .

جيش المرتزقة

فرقة تألفت من جنود احترفوا الحرب واتخذوها مهنة لهم ومسلكاً ، فخضعوا لتدريب عسكري شديد ، ولتمارين وحركات ومناورات تقتنهم تحت ادارة واشراف اخصائيين فاصبحوا وكأنهم آلات ميكانيكية تتحرك بالايماء والاشارة ، ضمن أطُر وملاكات من الضباط ، جرى اختيارهم من بين الاشراف يتحدر بعضهم احياناً من امجد واعرق الاسر الارستوقراطية ، يدفع الملك مرتباتهم ، فيخلصون له الولاء والطاعة . ويؤلف جيش المرتزقة فرقة منتقاة ، مختارة ، لها دفع لا يقاوم ، وتكوّن عنصر القوة الاساسية في الجيش . فالقسم الاكبر من فرقة المشاة يتألف من السويسريين جيء بهم من سفوح جبال سويسرا او من المقاطعات الالمانية ، او من صغار البورجوازيين او الفلاحين الميسورين ، يتسلحون على حسابهم الخاص تحت إشراف حَمَلَة البنادق ، كُتّبوا كتائب تحت ادارة واشراف ضباط عملوا متعهدين حربيين ، نالوا من الامبراطور ، او من الملك ، او الامير ، براءة تشهد بكفاءتهم في فن الحشد والتعبئة . وقد ألّف مجموعهم فرقة قوية ، تقوى على الصمود ، انما لا تنبض باية فكرة او اقدام . وتتألف فرقة المشاة الخفيفة من فرنسيين جيء بهم من شمالي فرنسا ومن بين سكان غسكونيا الذين عُرفوا بنشاطهم وشجاعتهم ، ومرونة اجسامهم وبما يجيش فيهم من روح الاقدام ، انما كانوا اقل صلابة من السويسريين ، وحملة البنادق .

كان من الطبيعي جداً ان تكلف تعبئة الجيوش غالياً . وهي نفقات لم يكن يتحملها الا

الدول القوية والملوك الذين باستطاعتهم ان يتصرفوا بموارد الممالك والمقاطعات الواسعة الغنية التابعة لهم .

فن الحرب

قد تمتد الحرب طويلا لان المعركة لا تبتدىء الا برضى الفريقين المتحاربين . والجيش لا يمكن ان يخوض معركة حربية قبل ان تجري تعبئته فتحتشد كتائبه في ساحة الحرب حسب نوع اسلحتها لتحتل مواقعها في الميمنة والميسرة ، والقلب والمؤخرة والطليعة . ولم تكن الوسائل قد توفرت بعد للتحول بالسرعة اللازمة من طابور في طريقه الى الحرب لطابور مهيأ لخوض المعركة . ولذا كان لا بد من التوقف بعيداً عن نطاق العدو ، وتعبئة الجيش وتعيين مواقع الكراديس قبل الشروع بالتقدم الى الامام ،ببطء واحتراز كلي ، محافظة على النظام من جهة ، وتحسباً لكل طارىء مفاجىء بحيث تصبح فرق الجيش ادنى من قاب قوسين من العدو فيبدأ بالهجوم . وفي هذه المدة يكون امام العدو الوقت الكافي ليأخذ عدته للامر : فيستأنف سيره او يتخذ مواقفه المقررة . ولا سبيل لاجبار العدو على التوقف وقبول المعركة لان الاسلحة النارية هي بطيئة الغاية ولا فعالية كافية لها . ولذا كان لا بد من اللجوء الى ستراتيجية الوسائل الثانوية او الاضافية ، كالاستيلاء على مدن العدو الكبرى الواحدة بعد الاخرى ، وعلى مراكز تموينه ، واستباحة الريف وغزوه وسلب القرى والمزارع لارغام العدو على القاء سلاحه لقلة الميرة لديه . فاذا ما رضي العدو خوض المعركة ليتفادى نهب مدنه ، كان عليه ان يعول ، في الدرجة الاولى ، على فرقة الخيالة وهي الفرقة التي كانت تقرر مصير المعركة بهجوم جانبي مفاجىء .

تأثير الحروب الايطالية على تطوير الاسلحة

ادت الحروب الايطالية الى تطورات عظيمة ،اذ كان باستطاعة المدفعية الفرنسية ان تُطلِق ، في ساعة واحدة ، من طلقات المدافع ، اكثر مما تستطيعه المدفعية الايطالية ، في يوم بكامله . ولذا لم تستطع اية مدينة محصنة في ايطاليا ان تصمد اكثر من ٣٦ ساعة ، وكانت المدفعية تدك المعاقل دكاً فتتهاوى جدرانها وتتساقط الى الارض . ولذا كان لا بد من « تسوير » المدن وتشييد اكوام من التراب عندالاسوار وفي مؤخرتها بحيث اذا تساقطت قنابل المدافع واخترقتها لا تحدث في السور اي خلخلة في الجدران ولا تصدع . ولذا اصبح الدفاع عن المدينة اسهل من قبل . فكان لا بد ان يقوم المحاصرون باعمال واتخاذ وسائل اخرى تسهل لهم الاقتراب من الحصون . عن طريق اقامة خنادق ودهاليز وممرات سرية والاستعانة بأكياس الرمل .

والمدفعية هذا السلاح الذي احتفظوا بفعاليته حتى الآن لحصار المدن والقلاع ، راحوا يستعملونه ، اكثر فأكثر ، في ساحات الحرب ، بالاشتراك مع انواع اخرى من السلاح . فقد ارغمت المدفعية الفرنسية ، في معركتي أغناديل (١٥٠٩) ورافينا (١٥١٠) العدو على ان يتخلى عن تحصيناته والخنادق التي كان يعتصم داخلها ، الى اراضٍ مكشوفة كانت تصلح لقيام

المشاة الفرنسيين بهجومهم على الوجه الاكمل . ففي معركة مارينيان (١٥١٥) راحت المدفعية الفرنسية بعد ان امنت الاسلحة الاخرى حمايتها ، تحصد صفوف العدو ووحداته حصداً، بحيث كانت « اجسام الجنود السويسريين تتطاير في الجو مع البارود » . وهكذ كسبت المعركـــة . فمركة مارينيان هي اولى المعارك الكبرى في التاريخ الحديث ، تم تحقيقها بفضل هذا التناسق المظم الذي تم بين الاسلحة الكبرى الثلاث : المدفعية والخيالة والمشاة .

وقد راح المتحاربون يقلدون نظم التعبئة الاصلح جدوى وفعالية : فيكتّبون كتـــائب المشاة ويعبئون المدفعية على الطريقة الفرنسية ، والمشاة على الطريقة الالمانية في القرن الخـــامس عشر ، والخيّالة الخفيفة على الطريقة الالبانية ، وكلها اساليب ومناهج تعبئة اصبحت وسائل شائعة ومعروفة لدى الجميع . والبندقية التي استعملها الالمان سلاحاً رهيباً بعد ان ادخلوا عليها ما ادخلوا من تحسينات فنية ، جاءت ثمرة مهارتهم في شغل الحديد ، عم استعمالها وانتشر على نطاق واسع ، بعد ان اصبحت اسهل استعمالاً واهون اخذاً وتناولا مـــن القوس والنشاب ، وبرهنت عن فعالية حاسمة في تهيئة الهجوم والقيـــام به . ولم يلبث القوس والنشاب ان خف استعمالها تدريجياً حتى انتسخ العمل بها بالكلية .

الاصلاح الحربي الذي قام بهغونزالفو القرطبي

أتاح مزج هذه الاساليب الحربية وافراغها لغونزالفـــو القرطبي ، من فلاسفة الستراتيجية الحديثة ورجال الحرب في ايطاليا ، ان يدخل على الجيش الاسباني تحسينات جديدة على مناهج التهيئة واساليب الحرب افضت بها الى طلوع فرقة الـ *Tercio* ، هذه الفرقة الاجنبية التي انشئت في الجيش الاسباني عام ١٩٢٠ . واول اصلاح ادخله غونزالفـــو ، تم سنة ١٥٠٣ وادى الى انشاء الفرقة ذات الجناحين ، كل واحد منهما يتألف من ٦٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من الشرطة ، و ٨٠٠ من فرسان الخيالة الخفيفة و ٢٢ مدفعاً . وهكذا نجد تحت تصرف القائد او اللواء كل العناصر اللازمة لتوجيه المعركة نحو النصر الاخير ، فقد شدد كثيراً ، عـــلى الدور المنوط بفرقة المشاة ، هذه الفرقة التي تستطيـــع ان تنـــاور وان تقوم بالحركات العسكرية في في كل المجالات بالدقة المرجوة . وقد ضاعف فيها من عدد حمَلة البنادق بحيث اصبحت نسبتهم خمس سلاح المشاة . وقد جهز كل جنديين من اصل خمسة من المشاة بسيف قصير ومزراق بحيث يستطيعون التغلغل بين افواج السويسريين وجندهم ويأخذون بطعنهم في بطونهم . وقـــد عبأهم ثلاثة صفوف متراصة ، متتالية ، مع الاحتفاظ بقسم احتياطي للقيام بمناورات وحركات اذا ما دعت الحاجة الى ذلك ، بعد تعبئة الافواج سريّات تأتي الواحدة منها بمستوى السرية التي تسبقها من جهة اليمين لتشكل الطليعة ، وقد يسهل نظام التعبئة هذا ، على الطابور السائر في طريقه ، ان يتحول ، في الحال ، الى طابور محارب ، ويُدرّب هؤلاء الجنود عـــلى النظام والتقيد بالانتظام ، ويشبّوا على احترام الذات والشعور بالكرامة والعزة الوطنيـــة والتحمس

بالشعور الديني الحي . وبذلك جعل من المشاة الاسبان سلاحاً مخيفاً ، مما جعل الالمان ، بعد ان خبروا بأس هذه الفرقة وجربوها ، يصرحون قائلين : « انهم لم يحاربوا بشراً بل ابالسة » .

اما الاسبان ، فالكابوس الجاثم على صدورهم ، كان الجندي الفرنسي ، وليس من النادر قط ان تقع عين الباحث في الوثائق التاريخية التي تعود للاعمال الحربية التي قام بها الاسبان في اميركا وكتبها على الغالب ، كتّاب من قدامى رجال الحرب في اوروبا ، على عبارات كهذه : « فقد رفعنا في وجه العدو حاجزاً بلغ من متانته ما لا قِبَل للفرنسيين ان يأتوا معه شيئاً » .

من البندقية الى الطبنجة

هذا الصراع الدامي ، الطويل المدى ، الذي قام بين ملوك فرنسا وملوك النمسا ، اتاح ادخال تحسينات جديدة على صناعة الحرب وادواتها . ادخل الاسبان ، حوالي عام ١٥٢٠ ، تحسيناً على البندقية ، فقد ثُقِبَت حِقة الاشعال الى جهة اليمين من مدفع البندقية بحيث يصل الثقب بعلبة البارود ، بعد ان وضعوا لها غطاءً يمنع تسرب الماء والهواء والمطر والاهتزاز اليها ، بحيث يستطيع الجندي ان يسير والبندقية معبأة ومحشوّة ، فيتم اطلاق العيار الناري بواسطة الكبس على انبوب يتصل بالزناد فيسقط الفتيل ويتصل بالبارود . فباستطاعة الجندي ان يشد على البندقية بكلتا يديه مما يزيد كثيراً في دقة التسديد . وهكذا امكن التخفيف من ثقل البندقية ، وراح الجندي يطلق النار والبندقية مسندة الى مِشْجَب . وارتفعت نسبة حَمَلة هذا السلاح في فرقة المشاة بعد ان راحوا يدعونها تارة *Arquebuse* وطوراً *Mousquet* بحيث بلغ عددهم الثلث واحياناً النصف في فرقة المشاة . وقد بلغ من فعالية هذا السلاح ما حدا بالامبراطور شارل الخامس الى التصريح قائلاً : « ان مصير الحرب والمعارك التي خطت غمارها ، انما توقف ، الى حد بعيد ، على فتيلة بنادق الاسبان » .

وحوالي ١٥٢٥ ، اخترع الماني البندقية ذات الدولاب ، ربط به حجر صوان يتحرك بواسطة نابض (زنبرك) يستعمل كزناد ، يقدح شرراً عندما يتحرك فيشعل البارود . فالاستغناء عن الفتيل جعل فرسان الخيالة يعولون ، اكثر فأكثر على هذا السلاح . ولكي يسهلوا لهم استعماله صنعوا بنادق خفيفة يمكن استعمالها بيد واحدة ، هي الطبنجة . وفي اواسط القرن السادس عشر ، اخذ فرسان الخيالة الالمان يطلقون اثناء هجومهم العيارات النارية من طبنجاتهم مما اضطر معه قسم الخيالة ، في الجيوش الاخرى على احتذاء حذوهم واعتماد هذا السلاح الجديد ، حتى الشرطة منهم ، مع ان تأثيرهم كان قد تضاءل جداً .

كان الجندي السويسري يكلف غالياً بينما جندي المشاة الالماني في حالة سكر دائم . ولم تلبث فرقة المشاة ان اصبحت سلاحاً وطنياً وراح الفرنسيون يجندون طوابير من المشاة اكثر افرادها من الفرنسيين وفي عام ١٥٣٥ ، راح فرنسوا الاول يؤسس كتائب القليمية يؤخذ افرادها من ابناء الولاية او المقاطعة .

المدفعية

ادخلت تحسينات اساسية على سلاح المدفعية ، أهمها تبسيط الحركات والاكتفاء ببعض انواع رجحت فعاليتها بعد ان تكاثرت انواع المدافع التي كانت قيد الاستعمال ، مما وقف حائلاً دون تجهيز الفرقة بحاجتها من العتاد والعدد ، وبذلك وضعوا حداً لهذه الفوضى . فمنذ عام ١٥٤٤ ، اقتصرت المدفعية ، في جيش شارل الخامس ، على بعض المدافع من عيار مجرب . وحذا حذوه ، سلاح المدفعية عند الفرنسيين بعد ان توقفت نتائج المعارك على هذا النوع من السلاح ، ففي الحصار مثلاً ، عوّلوا بالاكثر ، على مدافع الهاون التي لم تعتم ان اصبحت غير صالحة للاستعمال ، بعد اطلاق ٥-٦ طلقات ، لسبب ما يحدثه المدفع من ردة الى الوراء . ولذا اخذوا يستعملون رفّاصات تُلطّف من حدة الارتجاج . وتمكن الالمان من اختراع الصاروخ ، القنابل المعدّة للانفجار واشعال الحرائق . ودخل في تركيب المتفجرة عناصر مختلفة كالزرنيخ والزفت والقار . كذلك اعتمدوا قنابل يدوية (رمّانات) تبقى مشتعلة في الماء ، كما استعملوا اسهماً ملتهبة تطلق من البنادق ومنفّطات صنعت من المشاقة والكبريت ، لامطار المحاربين باللهب النارية . كذلك اخترعوا نوعاً من الرشاشات وهي كناية عن عدد من البنادق صُفت جنباً الى جنب ، عُمِل بها حتى عام ١٥٧٠ .

التحصينات الحربية

كثيراً ما ذهبت الرطوبة بطلاء الاسوار ، فافقدتها ما عليها من الاتربة المختلفة ولذا اخذوا يستبدلونها باسوار قليلة السماكة بحيث تخترقها القنابل بسهولة دون ان تحدث فيها تصدعاً يذكر او خلخلة وتدخل في التراب حيث تفقد قوتها . وعند الزوايا التي تتألف من حائط منحرف يصل بين جدارين ، اخذوا ، حوالي عام ١٥٦٠ ، يبنون ، بدلاً من الابراج ، شُرُفات حصنوها بالتراب والاغصان ينصبون على جوانبها ، من هنا وهنالك ، المدافع . ولكي يحولوا دون نسف الجدران بالالغام الناسفة ، حرصوا على اقامة خندق أجروا فيه قناة من الماء ، بعد ان دعموا جانبيه من جهة الارض ، بحائط قوي ، وبعد ان اقاموا ، في القمة ، ممراً خفياً يسهّل المرور لمن يريد الخروج .

الانحطاط والتقهقر يطبع نهاية القرن

احدثت الحروب الدينية تأخراً ظاهراً في فرنسا . فقد اشتدت فيها اعمال الكمين وعولوا على اعمال التبييت والترصد اكثر من تعويلهم على العمليات الحربية الكبرى . كذلك اعتمدوا ، اكثر فاكثر ، على المتفجرات والمفرقعات لنسف ابواب المدن (كاهور ، عام ١٥٨٠) وراحوا في البلاد الواطية يعتمدون اكثر فاكثر في دفاعهم عن البلاد ، على ما يقوم فيها من شبكات الفياض والغدران والمستنقعات والبطائح لتقوية اعمال الدفاع . ومنذ موقعة ، غيرترويدمبرج (١٥٩٣) تبنّى موريس ده ناسّو ، اساليب التعبئة التي جاء بها غونزالفو ، عندما استعمل الجند كروّاد او طلائع في الجيش . ولما كان جيشه جيش حصار وليس جيش هجوم ، فقد

درج على ان يقيم حول مخيمـــه اسواراً من الاوتاد يحيط به خندق ماء ، وقد تفنن كثيراً في توفير اسباب الاقتراب من المدن المحاصرة ، بواسطة قفف محشوة ترابـــاً ، في ارض يكفي ان يحفر الجندي قليلا في تربتها ليمتر على الماء . كذلك تفنن في حركات الكر والفر ، بحيث ان جيشه هـــذا اصبح مدرسة انتشرت مبادؤها في جميع انحاء اوروبا .

ومع ذلك نشهد تناقص عدد الجيوش ، بعد عام ١٥٧٠ ، كما ان هـــذه الجيوش اصبحت اقل تجهيزاً وعتاداً حربياً . فالازمة التي نزلت بالرأسمالية ، وارتفاع الاسعار ، والعراقيل التي حدّت من الانتاج بسبب كثرة الحروب الاهلية ، وانقسام اوروبا ، اكثر فاكـثر ، الى دول واحزاب واحلاف، كل ذلك اضعف كثيراً من طاقات الجميع · فقد انتهى القرن وغربت شمسه في شبه تأخرّ عام .

الحرب الاقتصادية والمالية

والحرب ليست كلها اقتتال وتراشق بالنار والقنابل ، فهي حرب مال واقتصاد . ان طرح رؤوس الاموال المجمـــدة في التداول وتحويل الاعتمادات المخصصة لمقاطعات اخرى ، للنهوض بالحرب وتأجج ضرامها ، كل هذا وما اليه أتاح للملوك تجهيز جيوش جرّارة بعد ان توفرت للدولة واردات طائـلة من جباية الرسوم والضرائب المفروضة . ولذا كان من الاهمية بمكان ان يحاول الخصم تعسير تموين العدو ، وقطع اسباب الميرة عنه لاحراجه مالياً واقتصادياً بتضييق الخناق عليه . فالابتكارات التي وضعهـا الكردينال ده تورنون ، حاكم مدينة ليون ، كتشكيل اتحاد المصارف الذي رمى منه الى تجميد الاموال المعدة للاستثمار ، واجتذاب رؤوس الاموال الى فرنسا من اي جهة كان ، واختزانهـا بقصد حبسها عن العدو والحؤول دونه للاستفادة منها ، ولا سيما التدابـــير والاجراءات التي اتخذت، في هذا السبيل، عام ١٥٤٢/١٥٤٣/ و١٥٥٣/١٥٥٤، وتألف اتحاد ليون الكبير ، الذي جرى تشكيله عام ١٥٥٥ ، كل هذه التدابير كان القصد منها ضرب حصار مالي ضد اسبانيـا وتوفير الاعتمادات المالية اللازمة لفرنسوا الاول وهنري الثاني ، فاعطت النتائج المرجوة .

والحرب كذلك لها وجهها الاقتصادي . ولذا فكثيراً ما راح الملوك يثـــيرون بين رعاياهم الروح القومية الاقتصادية ، هذه السياسة الوطنية التي عبروا عنها بكلمة *Mercantilisme* وهو تعبير يبدو لنا اليوم ضيّق المدلول ، غائم المفهوم .اما الغرض من هذه السياسة فهـــو ان تؤمن الدولة نوعاً من الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد ، اي ان تكفي نفسها بنفسها على اكبر قدر ممكن ، ولا سيما من المواد الاولية والخامات الضرورية للنهوض بالحرب وتأمين ما يلزم لها من عـدة وعتاد وعَدَد وعُدَد ، وغير ذلك من المعادن وملح البارود والكبريت، وتوفير كل هذه المواد محلياً . كذلك رمت هذه السياسة ، من ناحية اخرى ، الى اجتذاب النقـد النادر او الثمين من الذهب والفضة واختزانه في البلاد والاحتفاظ به لليوم العصيب ، مما لا بد منه لحيـاة البلاد الاقتصادية ولدفع مرتبات الجند وتأمين نفقات الجيوش الطائلة ، وما تحتاج اليه من ذخـــيرة

وميرة ، ولا سيا لدعم سياستها العليا . فالدول قلما تعتمد ، في هذا المجال ، على الحماية الجمركية مع العلم ان الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة من الخارج ، او على المواد الاولية التي تصدرها البلاد ، جرى تطبيقها والعمل بها ، في بعض الاحيان . فلم يكن ليتوفر لدى الدول ما يلزم من الموظفين الاكفاء ولا من العمال الاكفياء ما يلزم لاقامة مراكز تفتيش وجباية على طول الحدود ، لاستيفاء المتوجب من العوائد والرسوم ، كما ان الدولة لم تكن تمثّ لها بعد الخبرة الكاملة لفرض نظام من الحماية الجمركية ، او الاخذ بنظام اقتصادي موجه . وراحوا يحظّرون استيراد مصنوعات اجنبية ، ويمنعون خروج بعض المواد من البلاد ، كما راحوا يصدرون ما يلزم من القوانين ويتخذون ما يجب من التدابير التي تمنع تهريب النقد للخارج ، او تحد من ارتفاع اسعار الحاجيات ، ويعمدون الى اقامة الاحتكارات . وكان رعاياهم ، ولا سيا التجار منهم في المدن يفضلون بالاكثر ، ان تعتمد حكوماتهم سياسة التجارة الحرة . وكان لا بد مع ذلك من ظهور ازمات مالية حادة : ازمة هبوط او ازمة ارتفاع ، وظهور اخطار في الخارج تجعل الناس يرضخون او يطالبون بهذه الروح القومية في حياة البلاد الاقتصادية ، اسوة بما حدث في عهد الملكة اليصابات ، قبل عام ١٥٨٨ ، اذ كان يجثم على صدر البلاد كابوس الارمادا التي لا تقهر ، وكما حدث في فرنسا بالذات ، عندما اجتمع ممثلو الامة ، عام ١٥٧٦ . فالقومية الاقتصادية ، هي ، قبل كل شيء ، سلاح بيد الحكومات ، في ما تعاني من اصطراع سياسي مع الخارج .

٢ ـ امبراطوريات وقيصريات

سبق للسيد المسيح ان تمنى على الله : « ان يكونوا واحداً كما نحن واحد » وهو طلب تمنى معه ان تؤلف جميع الامم والشعوب حكومة واحدة تحت سلطة واحدة وقانون واحد. وبقيت هذه الأمنية حية تنبض في قلوب الناس حتى القرن السادس عشر ، يتبلور صداها على الاخص في شخص رئيسين نزع كل من جهته ، الى اقامة سلطان اعلى وسلطة اسمى ، هما البابا والامبراطور .

البابا

ادّعى البابا لنفسه سلطة شاملة مسكونية ، كما ادعى الحق بحل رعايا الملوك اجمع من قسم الولاء والطاعة الذي يقيدهم ، وحق اسقاط الملوك ، وتكريس الامبراطور ومسحه ، وتوجيه الملوك وارشادهم . غير ان نفوذه لم يكن بالفعل مما يُعتد به او يؤبه له . فما هو يدعو عبثاً ، لحملة صليبية جديدة فتذهب صرخته في وادٍ ، وعبثاً يقضي في الاختلافات بين الملوك حَكَماً ، اذا ما رأى هؤلاء مصلحة لهم في العبث باحكامه والغض من اقضيته . وعندما راحت اسبانيا والبرتغال تتقاسمان ، عام ١٤٩٤ ، في بلدة تورديسيلاس ، الاراضي الجديدة التي صارت اليهم في العالم الجديد ، لم يتورعا قط من ان يجريا تعديلا في أحكام البراءة البابوية *Inter Caeteras* ضاربتين بعرض الحائط ، ادعاء البابا ، ملء

السلطان ، بعد ان اعلنتا على الملأ ان ليس في مقدوره قط ، ان يرفع ، من تلقاء نفسه وبمجرد مشيئته، المسؤوليات المترتبة عليها. وفي سنة ١٥٤٠ ، اعتـرف الملك فرنسوا الاول واقر ان للبابوات سلطة روحية ، ولكن لا حق لهم البتة بان يتصرفوا بالارض فيوزعوها على هواهم . ثم ان علمنة السياسة وحركة الاصلاح الديني أقصرا كثيراً من نفوذ البابا الزمني ، وخفضا مما تبقى له من سلطة وسلطان حتى على الدولة البابوية بوصفه زعيماً سياسياً .

الامبراطور

من مزاعمه المتوارثة انـــه الوريث الشرعي للاباطرة الرومانيين ، تلقّــى سلطته من الله نفسه ، وانه بالتـالي ، الرئيس الاعلى والقاضي ، والوسيط ، والحَكَم النهائي والاخير ، في الامور الزمنية ، وان له السيادة والتقدم على أصحاب العروش والتيجان ، وان الملوك والامراء كلهم تبّع له ، مقيدون تجاهه بالروابط التي تفرضهـــا النظم الاقطاعية وله وحده الحق بان يلقب صاحب الجلالة ، وله وحده الحق بان يسن القوانين ، وان يقيم جميع الملوك نواباً امبراطوريين ، وانه أُعطيَ وحده الحق بتدبير شؤون المسيحية جمعاء ، ولا سيما السلطان لتأديب الكفرة والمارقين ، والهراطقة والجاحدين . فهو القائـــد الاعلى لكل صليبية .

اوروبا والقيصريات

القول بسلطة عليا في العالم ، نظرية تجاوبت اصداؤها في النفوس وارتكضت بها المشاعر الحية التي تنبض في كل الشعوب ، ولم يكن أحد ليجرؤ للتعرض لها على المكشوف . وقد أخذت هذه الافكار والمشاعر تتطور بالفعل دون ان يلحظ المسؤولون شيئاً من هذا ، او ان ينتبهوا الى ما هو جار . ففكرة الامبراطورية او السلطة الشاملة اخذت بالرغم من احترامها للقوميات المختلفة ، باعتبارها اداة اتحـــاد بين الشعوب الاشقاء ، تتغير وتتحول خفية لتحل محلها فكرة القيصرية ، او تسلط امة فاتحة غلاّبة ، تمتص دونما انقطاع او توقف ، الممالك والشعوب مرغمة الآخرين ممن ليسوا من توابعها ، على احترام ارادتها .

القيصرية الالمانية

هنالك بالفعل ، قيصرية ألمانيـــة . فالامبراطورية لم تكن ، من حيث اشتقاق اللفظ ، من حق اي شعب من شعوب الارض . فهي فوق الشعوب والمنطق يقضي بانتقالها من ملك الى ملك ومن شعب الى شعب . اما الالمان ، فقد اعتبروا انها من حقهم وحدهم دون سواهم . أفليس مُلكهم الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة؟ وهي امبراطورية تشمل كل الاراضي الجرمانية . فهي تُدْعى حتى في اواخر القرن الخامس عشر : الامبراطورية المقدسة تقتصر على القومية الالمانية . وعندما تقدم الملك فرنسوا الاول وشارل الخامس بترشحان نفسيهما ، عام ١٥١٨ ، لانتخاب الامبراطور ، قام وِمْفَلِنغ يعيد نشر بحث قديم ينص على وجوب انتقال منصب الامبراطورية الى الالمان ، وبالاّ تؤول لا الى فرنسي او بورغوني ، بل الى الماني ، من العرق الالماني . فالامبراطورية ، هي ، في نظر الالمان ، سمة التفوق

والتسامي واداة سيطرة الشعب الالماني على باقي الشعوب فهي أداتهم المثلى لاقامة قيصريتهم . الا ان تطور الممالك والامارات الالمانية ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ونزعات رؤسائها وملوكها للاستقلال بالانفصال عن الامبراطورية ، والاصلاح الديني الذي غذّى هذه النزعات وابرزها ، كل ذلك جزّأ ألمانيا ، وحال دون بروز هذه القيصرية .

القيصرية الفرنسية

هنالك ايضاً – وماذا يمنع ؟ – قيصرية فرنسية ، فقد سبق للفرنسيين واعلنوها عالياً ، مراراً وتكراراً ، انه ليس ما يربطهم بالامبراطورية قط . « فالملك هو الامبراطور في مملكته » . وها هو شارل الثامن يهبط ايطاليا ، ويتوغل بعيداً نحو الشرق ، متزئساً صليبية ، ويتزوّد بما يؤيد خلافته لامبراطور القسطنطينية . فها هو يدخل نابولي حاملاً على هامته تاجاً من الذهب ، ممسكاً بيده الصولجان الامبراطوري والكرة الارضية ، والشعب يهتف له بملء جوارحه . « ليعش الامبراطور صاحب الجلالة » . فاذا بالهلع يدب في قلوب الألمان ، وراحوا يفسرون مخاوفهم انه انما يسعى وراء لقب امبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وهذه القيصرية الفرنسية التي تبلورت في رغبة الفرنسيين السيطرة على ايطاليا بترشيح الملك فرنسوا الاول نفسه لانتخابات الامبراطور عام ١٥١٩ ، حل محلها ، بعد فوز شارل الخامس بها ، سياسة دفاعية تجاه آل هبسبورج .

القيصرية البورغونية

قيصرية آل هبسبورج تجلببت لبوسين مختلفين : شارل الخامس ، هو وريث العائلة الملكية في النمسا وهو الوريث لامراء بورغونيا واملاكهم الطائلة ، كما هو صاحب تاج أراغون وقشتالة ، الذي اصبح ، عام ١٥١٩ ، امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . هو اولاً ، وقبل اي شيء آخر ، شارل المظيم ، شارل الكبير ، البورغوني الاصل والمحتد ، يحمل في نفسه نزعة بورغونية قوية الى القيصرية تسيطر عليه وتتملكه . فمطلبه الاغر وهدفه الاول هو استرجاع تركة شارل الجسور ، من ملوك فرنسا ولا سيا استخلاص دوقية بورغونيا وعاصمتها ديجون ، ودير رهبان شارتر في شانمول ، حيث يرقد بالرب ، اباؤه واجداده ، ثم انشاء دولة بورغونية ، مهيبة الجانب ، تهيمن على الغرب وتقود منه الخطى . هذا هو حلمه الاكبر ، وفي سبيل هذا الحلم المعسول ، يحلو له ان يسخر الممالك والدوقيات والكونتات والامبراطورية نفسها . فقد صارت خطته هذه الى فشل ذريع اذ ان معاهدة كمبريه التي عقدها مع فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٩ ، كرست نهائياً ، اقتسام تركة شارل الجسور .

القيصرية القشتالية

وهذه القيصرية التي جاش بها آل هبسبورج ، نراها تتقمص من جديد في شخص شارل الخامس لتبرز قيصرية اسبانية ، قشتالية . اخذ شارل الخامس يتطبع ، شيئاً بطباع آل قشتالة . أليست قشتالة هي خير من تفهّم احلامه وتبناها،

وخير من امتثل له وخير من أمدّه بالاصفر الرنان والجيوش الجرارة ؟ فهو يتزعم اسبانيا ويقودها للسيطرة على ايطاليا . فصقلية تمد اسبانيا بالقمح الذي لا يتوفر لها بالقدر الكافي . وتأميناً للاعتمادات التي تؤمنها له المصارف الالمانية ، رهن املاك التاج في نابولي . ودوقية ميلانو هي المرحلة الاولى والقلعة التي تفضي اليها مجازات جبال الالب .

والانتصارات التي يحققها في ايطاليا تضع تحت تصرفه خزائن رجال المال في جنوى وفلورنسا ، الى ان يتم له ، بعد لأي قصير ، طرد الفرنسيين من ايطاليا .

وها هو يقود اسبانيا للسيطرة على الامبراطورية . فالجيش الاسباني يؤمن له النصر في موهلبرغ (١٥٤٧) وينتصر على البروتستانت الالمان وعلى حلف سمالكلاند . والحاميات الاسبانية تتحكم بكل ألمانيا . فشارل الخامس يرغب من كل قواه ويتوق في الصميم ، الى تتويج ابنه فيليب ملكاً رومانياً ، بالرغم من جنسيته الاسبانية ، ويجعل منه الامبراطور العتيد . فظنون الالمان وهواجسهم لها ما يبررها: فهم امام محاولة لبسط سيطرة اسبانيا عليهم . « فاذا كان لا حق لاي وَلَنْش ان يتحكم بنا ، فكم بالاحرى ، لاي اسباني » . فراح السواد الاعظم من الالمان يعطفون على شقيقه فردينان وعلى ابنه مكسيمليان . فمنذ عام ١٥٢٢ ، تخلى شارل الخامس لاخيه، عن ممتلكات آل هبسبورج في النمسا وفي المانيا . كما اختاره ليكون نائبه العام في هذه الاخيرة . فمنذ عام ١٥٣١ ، اصبح فردينان ملك الرومان . والمقاومة التي اظهرها هو وابنه ، لاخيه شارل الخامس ، حملت هذا الاخير على التراجع ، وفي سنة ١٥٥١ ، اضطر الى ان يسحب من جميع انحاء المانيا ، الحاميات والكتائب الاسبانية المرابطة فيها ، بعد الذي شاهده من اهتياج الالمان وبغضهم لها . ولذا لم يكن بدّ من التسليم بانسحاب الاسبان ومن اقتسام تركة آل هبسبورج . وفي سنة ١٥٥٨ ، تنازل شارل الخامس عن لقب امبراطور المانيا الذي كان يحمله منذ عام ١٥١٩ ، وعلى الاثر ، تم انتخاب فردينان امبراطوراً وصارت اليه جميع املاك آل هبسبورج المتوارثة ، كما صارت اليه الممالك المؤدية الى مجازات الالب والمداخل الموصلة الى قلب اوروبا . الا ان الانقسامات التي قامت في ايطاليا ، والخطر التركي الجاثم بالقرب منها ، جعلت هذه القيصرية لا توحي باي خطر .

احتفظ فيليب الثاني بالممتلكات الاسبانية فاقتصرت القيصرية التي جاش بها على غربي اوروبا . فكما ان والده سخر فكرة بسط سيطرته في خدمة القيصرية المتتابعة ، سخّر فيليب الثاني ، عن حسن نية منه ، الفكرة الدينية التي مثلها ، في خدمة القيصرية الاسبانية : فقد بَرَزَ المدافع الاول عن الكثلكة ضد الهرطقة . حاول ان يخضع لسيطرته ، البلاد الواطية ليجعل منها قاعدته الكبرى لتوجيه ضرباته اينما شاء . فقد حاول ان يسيطر على انكلترا وان يبسط سلطانه على البحار الضيقة بزواجه من اليصابات ثم محاولته غزو انكلترا ، عام ١٥٨٨ ، بواسطة اسطول الارمادا الذي لا يقهر . وبعد ان مني بالفشل ، وجّه جهوده نحو فرنسا ولا سيا ضد هنري ده نافار الهرطوقي المطالب بالعرش، وهيأ جميع الاسباب ليرشح نفسه لعرش فرنسا ،

ثم رشح له ابنته ايزابيل. فشلت خططه تلك، فاضطر معها الى عقد معاهدة فرفين (١٥٩٨) التي جاء عقدها تكريساً لهذا الفشل . فقد اصطدمت القيصرية الاسبانية، اينما ظهرت، بالروح القومية، والشعور الوطني . فالقيصرة التي جاءت أصلاً، ربيبة الروح القوميـة، وجـدت في القوميات المهدّدة، حداً لآمالها، وصداً لامانيها .

القيصريات البحرية

هل يجوز بعد هذا، التحدث عن قيصرية انكليزية ؟ فالسياسة الانكليزية استهدفت دوماً التوازن الدولي . وقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا دوماً بمدينتي بولوني وكاليه، وبذلك يؤمنون السيطرة على المسالك والمرور من بحر المانش الى البحر الشمالي، وعلى ملتقى المحيط الاطلسي بالبحار الشماليـة، ومنـافذ البحر الابيض المتوسط الى البلدان المحيطة بالبحر البلطيقي . وقد بقيت السيطرة، على هذه المواقع، في نهايـة الامر، بيد الفرنسيين .

مثلت الاجيال الوسطى الحقبة التي كانت فيها حرية البحار مطلوقة للجميع . ولكن مـا كادت بعض الدول تطل على العصر الحديث حتى نزعت نفسها للسيطرة على بحر او عدة بحار، فالبندقية هدفت، منذ القرن الثالث عشر، للسيطرة على البحر الادرياتيكي، كما هدفت جنوى من جهتها، منذ القرن الرابع عشر، للسيطرة عـلى البحر الليغوري، والدانمارك عـلى البلطيق، والنرويج على المحيط الاطلسي حتى مشارف إسلندا وغرينلاند . والدولة الاستعمارية كثيراً ما رغبت في اقامـة نوع مـن الاحتكارات والى فرض الرسوم وجبايتها، لقـاء حرية الصيادين والتجار ولتأمين سلامة السفن التي ترفع علمها .

قيصرية البحر المتوسط

كثيراً ماجاءت القيصرية البرية نتيجـة للسيطرة على البحار . فالقيصرية الاسبانية لا يمكن تصورها الا بعد تأمين سلامـة وامن الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط حيث قامت اهم الممتلكات الاسبانية . فالحرب البحرية رمت دومـاً للسيطرة على بعض القواعد المهمة الواقعة على سيف البحر . فالعواصف الشديـدة والارياح المزمجرة، وصغر السفن وسرعة عطبها، اجبرت الملاحة على السير بالقرب من السواحل البحرية، واوجبت عليها إقامة شبكة، من المرافيء تؤمن لها حاجتها من المؤن والذخائر، فقد كان من السهل احتلال بعض هذه الموانيء، وقطع المواصلات البحرية، بعد ان ألف الاتراك كل سنـة تقريباً ارسال عمارة من سفنهم، للقيام باعمال القرصنة في البحر وسلب المناطق المحيطة بـه . وكم من مرة هب الفرنسيون لمساندتهم ومعاضدتهم، وذلك بوضع القواعد التي كان الاتراك بحاجة اليها (طولون سنة ١٥٤٤) . ولحسن حظ الاسبان، انه لم يخطر يوماً للاتراك في البال — وجل همهم من القرصنة النهب والسلب والاستباحة — ان يذهبوا بعيداً في قرصنتهم، او ان تحدثهم النفس، باغلاق البوابة القائمة بين نابولي ومسينا . فبعد وفاة هنري الثاني، اختفت من ميـاه البحر المتوسط، السفن الفرنسية التي كانت تقوم فيه باعمال القرصنة، وتعزّف الاتراك عـن

مغامراتهم الحربية في هذه المناطق، بعد ان ُسدت في وجههم القواعد الفرنسية ،اذ ان حروبهم مع الفرس والامبراطور اضطرتهم للتوقف عن هذه الاعمال العدوانية ، كما كان لهم من مشاغلهم الداخلية كأمور الخلافة ، والقضايا الاقتصادية ما أثار في وجههم العراقيل والمصاعب . فقد تم للحلف المسيحي المقدس النصر على الاتراك العثمانيين ، في معركة ليبانت ، (١٥٧١) . وهكذا تم طرد الاتراك من حوض البحر المتوسط الغربي . ثم ان الاتراك والاسبان اتجهوا ، بانظارهم نحو المحيطات واصبح البحر المتوسط ، بمنأى من الطرقات البحرية الكبرى ، واصبح بالتالي في المرتبة الثانية من النشاط والحركة التجارية ، بعد ان كان ، من قبل ، قطب الحركة ومحورهـا الرئيسي . وهكذا اخذ مجال السيطرة يتجه الى المحيطات .

القيصريات المحيطية

وهكذا لم تلبث القيصرية القارّية مرتبطة ، الى حد بعيد ، بالسيطرة الاوروبية على المحيطات . فلم يكتف البرتغاليون والاسبانيون بتأسيس امبراطوريات واسعة لهم ، بل راحو يعتقدون يقيناً ان الله اختصهم دون سواهم بتملك الاراضي المكتشفة او التي ستكتشف في المستقبل . وظهرت براءات بابوية عديدة تؤيد وتقر المواثيق التي توصل الطرفان الى عقدها ، بهذا الصدد ، وتحدد مناطق نفوذ كل دولة منهما محاولتين ان تقصي عنها او ان تحرم منها ، الدول الاخرى . واهم المواثيق التي عقدت بين الاسبان والبرتغاليين ، في هذا المجال هي معاهدة تورد سيلاس (١٤٩٤) التي أقامت الحدود الفاصلة بين ممتلكات الطرفين عبر المحيط الاطلسي ، عند خط يمتد ١٧٠ فرسخاً الى الغرب من جزر الرأس الاخضر، كما حددت معاهدة سَرغسطة (١٥٢٩) الخط الفاصل بين املاك الطرفين في المحيط الهادي ، على بعد ١٧٢ درجة الى الشرق من جزر المولوسك .

فالاسبان والبرتغاليون تشبعوا من فكرة قدسية هذه النصوص التي كرست احتكاراتهم لهذه الكشوف الارضية وللمكيتهم لهذه البلدان التي ظهرت لهم . فالمناهضون لها او المتجرئون على مخالفتها يستهدفون للحرم . فقد نظروا الى كل حملة او تجريدة تجارية ، او الى اية محاولة استعمارية يقوم بها الغير ، نظرهم الى عمل قرصنة موجه ضدهم ، ولذا استهدف كل من تحدثه نفسه باتيان شيء من هذا ، القتل والعذاب والتشهير ، مصير كل خائن مارق .

والحال ، فقد اصبحت هذه الامبراطوريات الاستعمارية ، عاملاً هاماً في السياسة الاوروبية بما امنته لدول اوروبا ولامرائها من المعادن الثمينة ، وصلتها ، في بدء الامر ، بمقادير ضئيلة محدودة ، لم تلبث ان ارتدت اهمية كبرى ، لدى شارل الخامس، بعد ان تم له فتح المكسيك على يد ممثله كورتيس (١٥٢٠–١٥٢٢)، وفتح البيرو ، على يد بيزارو (١٥٣١–١٥٣٦) ، واخيراً بعد ان تم اكتشاف مناجم الفضة الغنية ، الواقعة في مدينة بوتوزي ، عام ١٥٤٥ . فالامبراطورية البرتغالية مثلت ، مدة طويلة ، دوراً كبيراً ، في المجال الاقتصادي ، اذا ما قيس بالدور السياسي الضئيل الذي لعبته في المجال السياسي ، بالنظر لصغر حجم البلد الأم .

الا ان فيليب الثاني ، تمكن ، عام ١٥٨٠ ، من فتح البرتغال ، والاستيلاء على البلاد ، وحمل البرتغاليين . عام ١٥٨٢ ، على الاعتراف بسلطانه وسلطته ، فاضاف بهذا الفتح ، الى ممتلكاته الواسعة ، ما كان من امثالها للبرتغاليين من مستعمرات شاسعة الارجاء ، وصرف كل همه اذ ذاك ، لرعاية هذه الامبراطوية العالمية الشاملة . وهذه الحروب التي خاضها في السنوات الاخيرة من عهده ضد انكلترا وهولندا وفرنسا ، لم تكن لترمي ، في نظره ، الا لتأمين سيطرته على المواصلات في المحيط الاطلسي . فالحرب ضد الاتراك جملته ينصرف عن البحر المتوسط ويهمل امره فيه ليولي كل همه الى المحيط الهندي ، تأميناً منه السيطرة على مناجم الذهب في صوفالا .

من ينظر الى خارطة العالم ، اذ ذاك ، يخيل اليه انه اذا كان شارل الخامس وابنـــه فيليب الثاني ، قد غلبا على امرهما في اوروبا ، فقد حققا ، في اماكن اخرى ، نجاحات عظيمة ، وان اهم ممتلكاتهما هي المحيط الاطلسي وامبراطوريتهما ترامت من حدود هذه الامبراطورية ، في اوروبا ، الى اميركا ، في الغرب . كل هذا وهم في وهم . فواردات اميركا لم تكن لتمثل سنـــة ١٥٥٤ ، سوى ١١٪ من مالية الدولة ، ثم ارتفعت الى ٢٥٪ عام ١٥٨٥ ، فقوة شارل الخـــامس وفيليب الثـاني تبقى في اسبانيا وفي ايطاليا . فامبراطوريتهما هي قارية ، قبل كل شيء ، مع فروع لها بالطبع ، عبر الاوقيانوسات .

التوازن الدولي

هذه القيصريات التي استعرضنا لاهمها في بحثنا هذا ، حلت على التصـدي لها ، والوقوف بوجهــا والصمود امامها ، هذه الدول الاخرى التي تمثل نزعات ومصالح القوميات التي تألفت منها . فقـــد حاولت مجتمعة ، منع اقواها واشدها ، اذ ذاك ، من تحقيق اهدافها ، وراحت تتحالف لاقامة توزان بين الدول ، اي اقامـة ميزان او قسطاس لهذه القوى . وهذه النظريـة لم تلبث ان اصبحت القاعدة التي سار عليها مبـدأ التوازن بين الدول الاوروبية ، والفكرة التي سلمت بها الاجيال الوسطى بوجود تدرج مسلسل بين الممالك حلت محلها نظرية : دول حرة متساوية . وفكرة التوازن الدولي هذه عرفتهـا ايطاليا من قبل ، وطبقتها منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وما حلف البندقية ، (مارس ١٤٩٥) الذي ألب ضد شارل الثامن : البابا والبندقية ، وميلانو وآل هبسبورج وآراغـون وقشتالة ، الا ايذاناً بانتقال مبدأ التوازن الدولي ، من ايطاليا الى اوروبا والعمل بموجبـه كقاعدة اساسية للسياسة الاوروبية . وقد اصبحت انكلترا روح هذه السياسة وباعثها ، مع انها اشتطت مراراً في تطبيقها وجارت ، بدافع الحقد التقليدي الذي تحمله ضد فرنسـا . ومبـدأ التوازن هذا ، ادّى الى عقد عدة احلاف ، منها مثلاً : الحلف المقدس الذي عُقد عام ١٥١١ ، وحلف كونياك المعقود عام ١٥٢٦ ، وغيرهما ، بعد ان ضربنا صفحاً عن عدد كبير من المواثيق المتذبذبـــة .

اما المحيطات فلم يتحقق بشأنها اي توازن ، انما طلعت علينا نظرية حرية البحار ، ونظرية الاحتلال الفعلي او الواقعي . ففي سنة ١٥٣٣ ، نال فرنسوا الاول ، من البابا اقليمس السابع ،

تفسيراً لهذه البراءات البابوية التي صدرت عام ١٤٩٣ والتي استثنت نصوصها القارات المعروفة قبل عام ١٤٩٣ ،وليس الاراضي الجديدة التي يمكن اكتشافها فيما بعد، على يد الدول الاخرى. وذهب فرنسوا الاول الى ابعد من ذلك ، عام ١٥٤٠ ، فاسمعه يقول : « ان الشمس تشرق له كما تشرق لغيره ، ويتوق كثيراً لو يستطيع الاطلاع على الوصية التي تركها ابونا آدم وقسّم الارض بموجبها بين ذريته » .

وصرح بأن احتلال الارض وحده يولي حق التملك ، وبان اكتحال العين بمرأى الارض التي تلوح للناظر من بعيد ، او مجرد عبورها ، لا يعطي قط حجة بتملكها ولا يقيم سند تملك ، وبانه يعتبر مملوكة : « الاماكن المأهولة والتي جرى تحصينها » . فنحن هنا امام الاسس التي قام عليها الاستعمار الحديث .

السياسة الايجابية

تنهض السياسة ، قبل كل شيء على وزن القوى القائمة وتقييم العناصر التي تتألف منها بالنسبة بعضها لبعض . فالقانون او العامل الاخير هو المصلحة المتفهمة حق الفهم، والقاعدة الوحيدة هي الفعالية او النجاح. وكثيراً ما اقسموا بالله واستشهدوا بالاخلاق الادبية ، وهي امور لم يعد احد ليهتم بها او ليكترث لها . فبابوات تلك الحقبة ، هم انفسهم أعطوا المثل على احتقار الكلام المقطوع . فاذا كان لهم حق الربط والحل ، فقد كان بوسعهم ، طبعاً ، ان يحلّوا انفسهم : فلم يشعروا يوماً ، باي التزام يقيدهم ، لانهم ذيّلوا او وقعوا وثيقة او صكاً حرروه . فقد نسفوا من الاساس الاخلاقية الشريفة التي كانت توصي باحترام الكلام المقطوع ، واواصر الشرف ، وهذه المُثُل النبيلة التي كانت الباعث او الدافع لمكارم الاخلاق . وعلى هذا دشّن البابوات عهداً جديداً وسياسة جديدة ، في العلائق الدولية .

مسيحيون وخوارج

غامت فكرة الصليبية في الاذهان مع انه لا يزال هنالك من يثير هذا الموضوع ويلهج به .فقامت ، في هذا السبيل، عدة الحادات ضد الاتراك (١٥٠٨ و ١٥١٨) كانت مظاهر ومناورات اكثر منها وقائع جدية . فالبابا جول الثاني نفسه اعطى المثل على طمسها . فقد اقتطع قدراً من المبالغ المجموعة لاغراض الصليبية لاستكمال بناء كاتدرائية القديس بطرس . والبابا اينوشنتيوس الثامن تقاضى من السلطان بايزيد جعالة دسمة لقاء احتجازه ، في روما ، شقيق السلطان ، المدعو دجم سلطان الذي كان منافساً لاخيه على عرش السلطنة . كذلك ، استقبل البابا استقبالا مهيباً سفير السلطان بايزيد بحضور مجلس الكرادلة وممثلي الدول المسيحية في روما . وفرنسوا الاول ، عقد حلفاً مع الاتراك لانهم يستطيعون ان يهاجموا الامبراطور من الوراء ، في اوروبا الوسطى فيقطعون ، على شارل الخامس ، خطوط مواصلاته في البحر المتوسط ، وهي اعمال تتفق تماماً وسياسته الوطنية . ومنذ عام ١٥٣٤ ،عقد على المكشوف معاهدة مع المسلمين ، كما وقع ، عام ١٥٣٦ ، اول معاهدة تكرس سيطرة فرنسا التجارية في بلدان الشرق الادنى . وشارل الخامس نفسه توصل في نهاية الامر ، الى عقد اتفاق مع

المسلمين في تلمسان وفي تونس ، كما ان اخاه فردينان دخل في مفاوضات مع الاتراك ، ودفع لهم الجزية .

رأي عام ودعاوة

شجب الرأي العام المفاوضات التي اجراها الملوك المسيحيون مع المسلمين. وكان واضحاً ان هؤلاء الملوك لا يستطيعون الاضطلاع باعباء الحكم الا اذا عرفوا ان يؤمنوا عطف الرأي العام ، خوفاً من قيام معارضة في وجههم . ولذا قاموا ينظمون الدعاوة . ففي عام ١٥٣٦ ، فرض شارل الخامس على البابا ان يلقي في مجلس الكرادلة ، خطبة طويلة ، يشهر فيها بالملك فرنسوا الاول ، ويفضح جرائمه ويجعله المسؤول الاول عن الحرب « هذا التركي » مضطهد اللوثريين . وقد تمت ترجمة هذه الخطبة الى كل اللغات وجرى توزيع نسخ منها في كل البلدان ، بواسطة مطابع أنفرس . وقد راح حزب الامبراطور يلقب فرنسوا الاول بـ « تركي » . أما فرنسوا الاول فقد عهد الى الاخوة *Du Belay* ان ينظموا له اشبه ما يكون بمكتب صحفي يكون فيه من الكتّاب والسكرتيرية من يحسنون الفرنسية واللاتينية والالمانية ، مع مراسلين له في جميع انحاء اوروبا ، من أبرزهم جان سليدان ، في ستراسبورغ ، فاغرقوا البلاد بطائفة من المنشورات والاهاجي ضد شارل الخامس الظالم الظلوم .

كان فرنسوا الاول هو اول من حرّك او أطلق النظرية التي تقول بوجوب موافقة الرعايا بحرية، على اي قرار يتعلق بمصيرهم . فكل حوادث دمج ولايات البروفانس وبورغونيا وبريتانيا، الى املاك العرش التي وقعت منذ اواخر القرن الخامس عشر ، انما تمت بناءً على اتفاق نصّ صراحة على حق تصرف الشعوب بنفسها بحرية. الا ان تنازل فرنسوا الاول عن مقاطعة بورغونيا لشارل الخامس ، بموجب معاهدة مدريد ، عام ١٥٢٦ ، بعد انهزامه في معركة بافيا ، لم يتحقق ولم يحصل، لان عقد هذه المعاهدة جاء مخالفاً لهذا الحق . ففي عام ١٥٢٦ ، اعلن سكان دوقية بورغونيا بانهم يرغبون « في البقاء على ولائهم لعرش فرنسا وليس للامبراطور »، متمسكين بالمبدأ القائل بانه لا يجوز نقل شعب ، من سلطة الى سلطة اخرى ، بدون رضا هذا الشعب وموافقته .

وكما ان اللغة راحت تفرض نفسها في كل انحاء المملكة ، فقد ألِفت الرقعة التي سيطرت عليها لغة ما ، وطناً او جنسية . ففي سنة ١٥٥١ ،قدم الامراء الالمان للملك هنري الثاني الوكالة على مدن الامبراطورية التي تتكلم اللغة الفرنسية . وهذا التصرف حمل الملك هنري الرابع على ان يصرح فيما بعد : « أرغب في الصميم ان تذهب المقاطعات التي تتكلم الالمانية الى المانيا ، كما افهم جيداً ان تكون لي كل المقاطعات التي تتكلم الفرنسية » .

الاصلاح والامم

غلّب الاصلاح احياناً ، الشعور الديني على الشعور الوطني او القومي ، كما يشهد على ذلك بوضوح،تاريخ اوروبا بين ١٥٦٠ – ١٥٩٠ .فقد راح اتباع الدين الواحد يظاهرون بعضهم بعضاً ، أينما كان البلد الذي ينتمون اليه ويحملون السلاح الى جانب ابناء ملتهم ولو كان موجهاً ضد مواطنيهم . غير ان الاصلاح راح يشجع ، على الاجال

ظهور القوميات . فاسبانيا وحدها بين الدول الكبرى في الغرب ، قضت على الهرطقة الجديدة بسرعة ، وراح الاسبان يعتقدون ، في قرارة انفسهم ، انهم شعب السيد المسيح الخاص وجند الله. فالقيصرية الاسبانية ، في عهد شارل الخامس وفيليب الثاني اعتبرت نفسها صليبية اسبانية ، فالشعور الديني هنا وطد كثيراً الشعور القومي وقوّاه .

اما في انكلترا ، فحرب المائة سنة غذّت في البلاد شعوراً وطنياً صحيحاً ، انما كان شعوراً فاتراً لان البلاد لم تكتوِ بنار هذه الحرب ولم تتضرس بويلاتها ، وبقيت الاراضي والممتلكات سالمة لم تتعرض لاعمال السلب والنهب والاستبزاز ، كما ان الاهلين بقوا بعيدين عن ويلاتها . فقد جاء الاصلاح الديني فيها يلهب الشعور القومي في النفوس ويؤججها حقداً وموجدةً على البابا والدول الكاثوليكية . ولم تلبث انكلترا ان اصبحت حامية الاصلاح والمناضلة دونه ضد فيليب الثاني بعد ان تفجرت فيها الروح القومية .

اما في المانيا ، فقد تحمست البلاد بشعور عام ضد العرش وايطاليا ، فقد شطرها الاصلاح شطرين اضعفا من شأنها كدولة ذات بأس ونفوذ . وبعثت حركة الاصلاح فيها الى الوجود ، قوميات جديدة ، تركـّزت وتراصّت دينياً حول اميرها او مليكها . وعلى هذا قس، الاصلاح في البلاد الواطية ، اذ فرض على هذه البقية الباقية من القومية البورغونية فخلـّف فيها قوميتين متباينتين .

ففي اواخر القرن نرى الشعور القومي يتغلب ويسيطر في كل مكان ، ففي عام ١٥٩٨ ، يشكو بوسفين من ان الرهبان اليسوعيين الفرنسيين لم يقبلوا برئاسة رئيس ايطالي عام عليهم ، وراح الرهبان اليسوعيون يستبدلون الكتب الاجنبية الموجودة في التداول بينهم بكتب من وضعهم هم . وهكذا فالحركة الانسانية نفسها تأممت ، والفردية القومية فازت بالنهاية وتغلبت على الروح الشعوبية والدينية .

٣ – قيادة الحرب والسير بها

بين الحرب الطويلة والحرب القصيرة

كانت الحرب تُشهَر رسمياً يُعلنها نذير الجيش او رائده ، اشتهر منهم غويين في فرنسا ، وكلارانس في انكلترا ، وبورغونيا ، لدى شارل الخامس ، فيقوم احد الفريقين المتحاربين بمهاجمة الآخر . وقد يحدث احياناً ان ينهض منافس لأحد الفريقين فيحاول التوفيق بين اعداء خصمه ويضرم فيهم الحماسة ويضع تحت تصرفهم ما يلزم من المال . وكثيراً ما عمد فرنسوا الاول ، حتى في اوقات السلم ، الى تغذية الحقد والضغينة في خصوم الامبراطور شارل ، كما فعل بعد معاهدة كمبريه ، ويؤلب عليه الامراء الالمان الذين يؤلفون حلف سمالكلاند ، والهنغاريين والعثمانيين ، وغيرهم .

التخوم الآسيوية

تجري الحرب في القارة الاوروبية ، يفصلها عن الآسيويين من اتراك وتتار ، منطقة حصينة تجعلها في منأى عنهم . فقد قامت على جنبات البحر المتوسط سلسلة من الحصون والقلاع ، كهذه الحاميات تقيمها البندقية على سواحل إستيريا ودلماتيا والبانيا حتى الجزر الايونية ، وفي جزيرة كريت وقبرص ، وهو خط امعن الاتراك في مهاجمته وإيهانه فضعف وتفلت . وهنالك خط آخر من الحصون قام على جبهة نابولي وصقلية يؤلف مضيق مسينا منه الباب ، والرتاج . وقام خط آخر من الحصون الاسبانية على طول سواحل افريقيا الشمالية . وقام في البر الاوروبي خط من الحصون الالمانية امتد عبر مقطعات كرواتيا والساف الاوسط ونهر الدراف الاوسط ومنطقة فيينا ، والسور الروسي على نهر الاوكا محاذياً الغابات الظليلة . ومنطقة المدن الحصينة التي اخذت شبكتها بالاتساع والامتداد نحو الجنوب والشرق ، وكلها قلاع وحصون ركزت فيها المدافع لدرء خطر الفرسان ينقضّون عليها من آسيا . وكانت المسافات والابعاد نفسها سلاحاً يلعب لمصلحة المسيحيين . الا ان الصعوبة ، كانت تقوم في تموين هذه الحاميات وتوفير ما يلزم لها من هذا العدد العديد من حيوانات الجر التي لم يكن بد منها . كل هذه العوائق والصعوبات ، سببت الشلل في هذه الهجمات التي اعتاد الاتراك شنها واوهنتها اذ كانت حدتها تتكسر على هذه الحصون وكثيراً ماانتهت الى غير نتيجة .

العمليات الحربية ليس من جبهة لها معينة

لم تكن الحرب من جبهة معينة بالمعنى الحصري : فالجيوش لم تكن عديدة ، اذ لم يكن المقصود تغطية الحدود التي لم تكن لتقف عند نقطة معينة . وقد وُضعت على مر الاجيال ، شيئاً فشيئاً ، خطوط من الحدود ، في مناطق معينة، قصّر واضعو الخرائط وراسموها عن تحديدها ، كالحدود التي قامت على نهر السوم ، اثر الاعمال الحربية .

ستراتيجية التوابع

قلما كانت الحملات العسكرية حاسمة ، اذ لم يكن القصد منها ابادة جيش العدو كما حدث في معركة مرينيان ، مثلاً عام ١٥١٥ ، وفي معركة بافيا عام ١٥٢٥ ، ومعركة سان كنتان ، عام ١٥٥٧ . ومن النادر جداً ان يحمل ضياع معركة، العدو على طلب الصلح . ولذا كان من المستحيل محاولة استثمار النصر واستغلال الظرف . فالمسافات الشاسعة وصعوبة تموين الجيوش عن طريق فرق التجهيزات الحربية ، وتأمين أود الجيوش المحاربة في ارض العدو المستباحة ، كل ذلك كثيراً ما اضطر الجيش معه الى الانكفاء او التوقف . ولهذا قلما خطط قادة الحرب لهجوم صاعق يبلغ معه الجيش قلب البلاد والمراكز الحساسة فيها . فالحرب هي ، بالاحرى ، حرب حصار ، وضعت ستراتيجيتها على اساس إنهاك المراكز التوابع بطريقة منهجية ، وذلك باحتلال الحصون ، ومراكز الدفاع ومستودعات التموين ومخازن الميرة الواحد تلو الآخر ، والانتظار ريثما يضطر العدو لطلب الصلح ، بعد ان تقل لديه الميرة والتجهيزات وتشتد لديه الحاجة للنقد . فالحرب هي حصيلة آخر ليرة في خزينة الدولة .

الثغور ولذا تحتم على المحاربين السعي والعمل لاحتلال ثغور العـدو ، وهي بمثابة الابواب والنوافذ التي تفضي الى قلب البلاد ، والمسالك الطبيعية التي تؤدي اليها : كمقاطعة السافوى – بيامونت مع سوز ، بنيارول وتورين، ومقاطعـة ميلانو ، والسوم الاعلى (سان – كنتان – برون) مزيير،والثغور المؤدية الى نهري الموزيل والموز (مدن : متز وتول وفردون).

الطرقات قطع « المواصلات الحربية الكبرى » اي هذه الطرق التي تسلكها الجيوش ، وقطع موارد النقد على العدو وغير ذلك من الوسائل ، هي من بعض نقاط الخطة الحربية التي عرضت احيانا للمعنيين بامور الستراتيجية ، وان لم تتضح لهم يوماً بجلاء . وقد جرت محاولات جريئة ، خلال القرن ، ضد سلسلة المواصلات الطويـلة التي ربطت امبراطورية آل هبسبورج ، في العالم الجديد ، بالبلاد الواطية ، عبر المحيط الاطلسي . فالقرصان الفرنسيون الذين اتخذوا من رأس سان فنسان في جزر الازور والجزر الخـالدات (جزر كناري) كانوا ينقضون فجأة على قوافل السفن البرتغالية والاسبانية ويستولون عليها . وفي سنة ١٥٢٢ ، تمكن جان فلوري ،من سكان مدينة هونفلور ، من الاستيلاء على ثلاث سفن من سفن الكرافيل التي كانت تنقل الكنوز التي جمعها كورتيس في مكسيكو . وفي اواسط القرن ، اضطر شارل الخـامس ان ينظم عبور السفن في المحيط الاطلسي ، بواسطة قوافل محروسة فاصبحت هذه الطريقة القاعدة التي عمل بها باستمرار . ثم ظهر القراصنة الانكليز ، امثال درايك وهوكنز وفروبيشر وراحوا يتعرضون للسفن الاسبانية في خليج برزخ بناما الذي كان صلة الوصل بين الممتلكات الاسبانية في العـالم الجديد على سواحل كل من المحيطين الاطلسي والهادي ، الا ان السفن الاسبانية استطاعت ، مع ذلك التملص بحمولتها وتفادي الوقوع بين ايدي القراصنة الانكليز ،فبقيت المواصلات بين هـذه المستعمرات مؤمنة ، على الاجمال . وقد قطع الانكليز والهولنديون خط المواصلات بين بلباو وأنفرس ، منذ عام ١٥٦٨ ، وبقيت الطريق الرئيسية الطريق التي تمر بالبحر المتوسط من اسبانيا الى ايطاليا لتأخذ الطرقات التي تمتد من ايطاليا الى مقاطعات الرين ومنها الى البلاد الواطية ، مارة بمجازات الألب ومقاطعة الكونتية ، واللورين ، او عبر الالزاس والبلاتينا . وفي سبيل تأمين سلامة هذه الطريق ، راح شارل الخامس يحاصر عام ١٥٢٤ ، مرسيليا ، كما انه هاجم ، عام ١٥٣٦ ، مقاطعتي البروفانس واللانغدوق . ولكي يتمكن من قطع هذه الطريق ، عنـد عقدتها الاساسية راح لوتريك ، عام ١٥٢٧ ، وغيز عام ١٥٥٧ ، يهاجمان نابولي . فبعد عام ١٥٥٩ ، وهبوط شأن فرنسا، استطاع الاسبان ، ان يستعملوا خط برشلونة – جنوى مباشرة.

الاتصال بين ساحات العمليات الحربية كثيراً ما وقفت الموارد الاقتصادية حائلاً دون نهوض شارل الخامس بالحروب التي شنّها على عدة جبهات . فبعد الانتصار الساحق الذي ناله في بافيا ، عجز عن متابعة هجومـه حتى حدود فرنسا ، حاسبـاً حساب الخطر التركي والاضطرابات القائمة في المانيا ، والعداوة التي انطوى عليها الايطاليون ضده ، وحاجتـه

الملحة المال ، كل ذلك فت في عضده .فبعد انتصاره في معركة سريزول (١٥٤٤) احدى قرى مقاطعة البيامونت، اضطر فرنسوا الاول ، الى سحب بعض فرقه من هذه المقاطعة درأً للخطر الذي يهدد مقاطعة الشمبانيا . والجهد الضخم الذي بذله فيليب الثاني لتأمين النصر على الاتراك في معركة ليبانت (١٥٧١) اضطره هو الآخر للاسترخاء في موقفه من البلاد الواطية . ان تعدد ساحات القتال والاعمال الحربية ، وبطء المواصلات ، والصعوبة التي كانت تعترض جلب الامدادات ، وتأمين الاعتمادات اللازمة للنهوض بالحرب ، في الوقت المناسب ، وتأمين التنسيق والتعاون فيما بين هذه العناصر ، كل هذا يفسّر لنا الفشل النسبي الذي لحق بمشاريع شارل الخامس وفيليب الثاني .

اعمال المبارزة

لا تزال تقاليد الفروسية ، مرعية الجانب محترمة . فها هو شارل الخامس يلصق بفرنسوا الاول تهمة عدم الوثوق به ويدعوه للمبارزة ، فيرد عليه ملك فرنسا بان الامبراطور يكذب . وهو يقبل التحدي . كثيراً ما نرى زعماء لهم شهرتهم الواسعة يتبارزون علانية برأى من الجيوش ، ايام الهدنة بين الطرفين ، حتى اننا نرى دوق ده غيز يجيز عام ١٥٥٢ ، والحصار قائم حول مدينة متز ، لبعضهم القيام باعمال مبارزة .

الاسرى

كان المتحاربون يحرصون جهدهم ، على اخذ اكبر عدد من أسرى الحرب ، طمعاً منهم بفدية الافتكاك ، مما ادى الى قيام صفقات ومساومات رابحة . ففي سان — كنتان ، اشترى ضابط اسباني من احد الجنود ، نائب قائد الجيش الاعلى في فرنسا . وكانوا يأخذون بحد السيف كل من وجدوه في قلعة حصار فضّل المقاومة على الاستسلام للعدو . تكون الحرب جد « موّفقة » اذا ما تم الاتفاق بين المتحاربين ، على احترام اسرى الحرب ، وتعيين المبالغ المترتبة عليهم ، وفقاً لمراتبهم . وقد ادخل الاسبان عادة الافراج عن الاسرى ، اذا ما تعهد هؤلاء او أقسموا الا يعودوا لحمل السلاح من جديد ضد محرريهم .

الخراب واعمال التخريب

كثيراً ما حوّل القواد البلاد قفراً يباباً ليحولوا دون تقدم الجيوش العدوة وتغلغلها في البلاد (مقاطعة بروفانس ، عام ١٥٣٦، مقاطعة ايسن عام ١٥٥٦) . وكم احلوا للجند ان يقوموا ، تشفياً وانتقاماً ، باعمال السلب والنهب والتمثيل والتعذيب والحريق ؟ فقد كان الالمان اساتذة في هذا المجال . ففي كل فوج او كتيبة من كتائبهم وأفواجهم ، تولى ضابط تنظيم هذه الاعمال وتنفيذها وفقاً لخطة يضعها ويشرف على الأخذ بها بكل دقة ، فلا يستثني من القرى والدساكر الا ما دفع منها فدية تفادياً لاعمال التعسف والابتزاز والاعتصار ،اذاماتلكأالاهلون عن دفع ما يترتب عليهم او ترددوا في ذلك.ومن هنا نشأت عادة الوصول الى شيء من التفاهم بين سكان القرى ورجال الحرب.فاذا ما ساهم المدنيون بدفع مساعدات مالية او عينية، اصبحت قراهم بمنأى من النهب والسلب وغير ذلك من أعمال العنف.

الحياد

كان من عادة الدول المحايدة ان تسمح للمحاربين المرور باراضيها ، نتيجة لهذا التفتت الجغرافي الذي اصاب اوروبا اذ ذاك . وكان الجانب المتحارب يتعهد خطياً باحترام حياد البلد وعدم مس الاهلين باي اذى ، وذلك عملاً بالقاعدة المرعية *Transitus Innoxius* . أما المقاطعات السويسرية ، فكانت ترفض حق المرور للمحاربين . فمنذ سنة ١٥٢٢ اعلنت مقاطعة فرانش كونتيه محايدة لا يجوز اجتياحها ، وفقاً لنصوص المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والبلاد الواطية .

التدخل الاجنبي

من العادات المألوفة ان تتدخل عناصر وقوى أجنبية في الحروب الاهلية الداخلية : فتدخل الفرنسيون في ألمانيا ، والانكليز والبروتستانت الالمان في فرنسا ، والاسبان الى جانب أعضاء العصبة (*Ligue*) الفرنسية . وتعترف الملكة اليصابات ، عام ١٥٨٠ ، بهذا المبدأ اذ تقول : من الواجب كذلك المبادرة للوقوف الى جانب ابناء المذهب الواحد الواقعين تحت الاضطهاد .

الدعوة للسلام

اطلقت الحروب وما تجر وراءها من الويلات والمِحَن والاحن ، الالسنة والاقلام للمطالبة ان لم يكن بوقفها والغائها ، فاقله بالتخفيف من شرورها فقد جاء في كتاب ايراسموس : « شكوى السلام » (١٥١٧) دعوة الى إقامة سلام عام فالحرب تحط من قيمة الانسان العاقل وتنتقص من شأن المسيحي . كل واحد يدعي ان مطلبه هو حق . ولذا كان لا بد من اجراء تحكيم في الامر . فمهما يكن رأي الحكم ، فالقاعدة الذهبية هي ان سلاماً لا يتسم بالعدل خير من حرب عادلة » .

الحق الدولي

أجاز معظم الفلاسفة والمفكرين قيام حرب عادلة ، وكلهم أمل بان يتم إلغاء الحروب وذلك عن طريق إيقاظ الضمير الدولي ، وعن طريق الحق الدولي . ولعل اشهر هؤلاء جميعاً هو الاستاذ الكاثوليكي فيتوريو ، احد اساتذة جامعة سلمنكا الذي تمثل حلمه في هذا السلام الباسط رواقه على العالم ، هدف الانسانية الاعلى ، كما رأى في الحرب ، الشر الاكبر . ومع ذلك ، فهو يسلم بالحرب اذا كانت ترمي لتجنيب الانسانية شراً اكبر ، او كانت في سبيل الدفاع عن النفس ، أو رمت الى ارجاع الحق إلى نصابه اذا ما رفض المعتدي التعويض عن الاضرار التي سببها ، أو لانقاذ الشعوب المسيحية ، الواقعة تحت اضطهاد المسلمين . فالحرب ليست بعادلة إذا ما أريد منها نشر الديانة المسيحية بالقوة لان الله لم يكلف أحداً من الناس ليثأر باسمه من المظالم التي تقع ، اذ ان الحروب التي يندلع لهيبها تسبب من البلايا والشرور أكثر من تلك التي ترمي الى اجتثاث هذه البلايا . فالدول الاوروبية متساوية ، وكل واحدة منها هي كفء للاخرى ، ومتكافلة الواحدة منها مع الاخرى ، وعليها ان تتعاون لازالة الحيف النازل بها والضرر الذي يصيب الجميع على السواء . « فالبشرية جمعاء تذهب فريسة المظالم أياً كان الفاعل ،

فعلى الدول ان تؤمن حرية التجول والانتقال ، ولا تمانع في إقامة الاجانب بين ظهرانيها ، شرط الا يلحقوا اي أذى أو ضرر بأهل البلاد الاصليين . عليهم ان يؤلفوا جميعاً ، مجتمعاً بشرياً واحداً وبشرية واحدة .

وهكذا نرى كيف ان هذا الجيل حاول ان يلطف من اشتداد الروح الفردية بين الناس ، وذلك باشاعة المساواة في الحقوق والتضامن وبث الاخوة الانسانية بينهم .

الكتاب الثاني

القرن السابع عشر

(١٥٩٨ - ١٧١٥)

القرن السابع عشر هو مهد ازمة نزلت بالانسان في كافة نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والعلمية والفنية ، وفي كل كيانه، أي في أعمق أعماق قوته الحيوية وحسه وارادته . وكانت أزمة مستمرة ، اذا صح التعبير ، تتميز بثورات عنيفة احياناً . فان نزعات متناقضة ، قد تجانبت طويلاً وتشابكت معاً وانصهرت حيناً وتصارعت حيناً آخر ، دون ان يكون في معتركها تحول او تاريخ حاسم يسهل تحديدهما ، . وهي لم تتجانب في اوروبا في عهد واحد فحسب ، بل في الدولة الواحدة والطبقة الاجتماعية الواحدة والانسان الواحد ايضاً ، الذين خيم عليهم التناقض والانشقاق . فالدولة والطبقة الاجتماعية والانسان يناضلون لاستعادة النظام والوحدة الى بيئتهم والى ذاتهم. انها لمعركة ضارية مستمرة ، في سبيل توازن زائل ابداً، تقدم فيها اوروبا على تحول حاسم ، وعلى تعديل النوع كما يقول بعضهم ، وعلى هذه الطريق التي يستهوينا تخيلها والتي قد تنتهي الى السمو وتخطو خطوة كبرى الى الامام في الدم والدموع والآلام النفسية المبرحة ، وفي الامل والثقة والبهجة .

الفصل الأول

أزمة القرن

١ ـ الازمة الاقتصادية

ان ما خلّفته النهضة الاقتصادية، والتطور الجديد في الاسعار، قد ابرزا بقوة المساوىء الدائمة التي ينطوي عليها نظام تناسل وزراعة لم يتبدل قط في خطوطه الكبرى، منذ القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن الثامن عشر. باستثناء نقاط معدودة (هولندا والاقاليم المتحدة، انكلترا الوسطى، ألزاس، الخ.).

السكان ومواد التغذية

فالاقتصاد ما زال زراعياً، وعدد السكان يميل أبداً الى تجاوز امكانات التغذية، والمجاعة تنتشر محلياً مع ما تتصف به من شمول مفاجىء يستوقف الانتباه بين حين وآخر. ولا غرو فالسكان لم يحددوا الولادات. وليس نادراً ان تضم عيلة واحدة ٢٠ او ٢٢ ولداً، وكان من الممكن جداً ان يتضاعف عدد السكان في اقل من خمس وعشرين سنة لولا الارتفاع الرهيب في نسبة الوفيات. ومرد ذلك الى ان التقنية الزراعية لم تسمح بعد بانتاج يسد الحاجة.

التقنية الزراعية

لما كانت الضرورة تقضي بتغذية عدد كبير نسبياً من البشر، كانت الزراعة[١] الاساسية زراعة «البلاد» أي الحبوب، الحنطة والجاودار والشعير والقرطمان والذرة البيضاء والحنطة السوداء والذرة الصفراء، اذ ان الحبوب هي الانتاج الزراعي الذي يوفر اكبر كمية من الوحدات الحرارية في وحدة مساحية معينة. والفلاحون يزرعون في الدرجة الاولى الحبوب التي ندعوها اليوم بالثانوية، الجاودار، القرطمان، الخ .. لان محصولها في وحدة مساحية معينة يفوق محصول الحنطة الى حد بعيد، لا سيا في الاراضي المجدبة،

---

(١) ففي انكلترا المتقدمة صناعياً على سواها، قدر ان اربعة ملايين ونصفاً من اصل خمسة ملايين، اعتمدوا الزراعة سبيلا للعيش، حوالي سنة ١٦٨٨.

وتقوم التغذية بنوع خاص على الحساء والخبز . وفي سنوات الاقبال يستهلك الناس مزيجاً من الحنطة وحبوب اخرى . خبز الحنطة مادة بذخية ؛ اما خبز الجاودار فوقف على ذوي اليسار من المستهلكين . ولكن الحبوب تستنزف قوى اخصاب التربة بسرعة. لذلك فقد عمد الفلاحون الى اراحة الارض ، سنة بعد سنة في الجنوب ، وسنة بعد سنتين في الشمال ، على ان استراحة الارض قد تستمر سنوات أحياناً . وكان المحصول متوسطاً ، أربعة أو خمسة للواحد أحياناً ، واثنين او ثلاثة غالباً . ولا عجب في ذلك فالاسمدة غير متوفرة والزبلة نادرة . وكانت الماشية قليلة العدد ، لان الاراضي يحرث جلها ولان المروج والمراعي ضيقة رقعتها . ولم يفكروا بالاستفادة من الارض المراحة بزراعتها بحشائش تغذية المواشي ، الا في هولندا ، وما كانوا ليستطيعوا الى ذلك سبيلا ، على كل حال ، لان عرف المراعي العمومية الذي اجاز لكل فرد ان يرعى ماشيته في الاراضي البائرة ، كان يحول دون ذلك. وكان فراش الماشية من الموص على غير كثافة : فقد استخدم الموص للاغذية ، واللبن والحصير والكراسي، وحتى كوقود للافران. اضف الى هذا ان العمل لم يكن متوفراً . وكانت الحيوانات هزيلة لا تقوى على العمل الطويل . واستخدم الفلاحون محاريث غير مجهزة بالمجلات تخدش الارض خدشاً بدلا من ان تفلحها ، او محاريث غير معدة للارض التي يطلب منهم زراعتها . فبحث الزارع عن التعويض عن نقص الاسمدة وعن التقنية بالاكثار من البذار . فخسر بذلك الحب وخسر الموسم لان مصير الجذوع النابتة كان الضعف والذبول بفعل تراصها . ولم يعمد الى تنظيف الحبوب وغسلها بالكلس للحؤول دون نخرها . وعند الحصاد اعوزته اليد العاملة . اما الحصاد فالمنجل اداته الاولى واستخدامه عمل طويل وشاق . وكان حتى التقاط السنابل وراء الحصادين يستهوي العديد من الناس لأن نتيجته لم تكن دون العمل نفسه مما زاد في ندرة وجود العمال . وخارج فصل الحصاد لم يكن العمل متوفراً للجميع . فلم يكن السكان من ثم مشدودين بعلاقة متينة الى الارض ، فتشرد العديد منهم هائمين على وجههم .

توزيع السكان

يتضح بالتالي ان سوء التغذية قد آلى ، عند سواد السكان ، الى ضعف الصحة والموت في سن مبكرة . فقد تراوح معدل الاعمار بين ٢٠ و ٢٥ سنة . وكان نصف الاطفال يموتون قبل ان يبلغوا السنة من عمرهم . اما الباقون فغالباً ما كانوا يموتون بين الثلاثين والاربعين سنة . ولم يتجاوز الملوك انفسهم والاسياد العظام وكبار البورجوازيين ، على الرغم من تغذيتهم الجيدة ، حدود الـ ٦٥ سنة . بيد ان هذا الجيل لم يكن بالجيل الفتي لان شيخوخته سريعة الخطى . فالرجل يصبح كهلا في الاربعين . وفي المناطق الفقيرة قد تكون الفلاحات ، في سن الثلاثين ، متغضنة ومتمكنة كالعجائز . ويحافظ عدد السكان على مستوى غير مرتفع ، لانه ما ان يرتفع حتى تتدنى كمية الغذاء للشخص الواحد وتزداد نسبة الوفيات . لم يتجاوز سكان انكلترا الملايين الخمسة ، وبلغ سكان فرنسا ٢٠ مليوناً كحد اقصى اي بكثافة ٤٠ في الكيلومتر المربع . يضاف الى ذلك ان هذه الاعداد

عرضة لتبديلات كبيرة جداً .

نسبة الوفيات

اذا كان الحصاد سيئاً، ارتفع ثمن الحبوب ، وتحول مستهلكو الحنطة الى الجاودار ومستهلكو الجاودار الى الحبوب الاخرى . لذلك فان اسعار الحبوب الدنيا ترتفع اكثر من الحبوب النبيلة والطبقات الشعبية هي التي تتأثر اكثر من غيرها . قد لا ترتفع نسبة الوفيات في السنة الاولى لان تأمين أود المعيشة يدفع الفلاح الفقير الى بيع بقرته والصناعي الى بيع ادواته واولئك الذين خزنوا بعض المواد الى استهلاكها وبيع بعضها . اما اذا عقب الحصاد السيء الاول حصاد سيء آخر فتنتشر المجاعة مع ما يرافقها من اوبئة ، و الطواعين » الجدري ، والتيفوس ، والكولرا ، والطاعون بمعناه الحصري ، وكلها امراض تبدو وكأنها امراض الاقاليم الحارة بصورة خاصة مع انها امراض واقع حضاري قبل اي شيء آخر . يتدنى عدد الولادات ، ويرتفع عدد الوفيات وقد يبلغ ٣٠٪ من السكان في سنة واحدة ، ويصيب الموت الارياف اكثر من المدن : اذ ان البلديات تستطيع تخزين المواد وشراءها في المناطق النائية والبورجوازيين يملكون الاراضي وبالتالي المؤن الشخصية. ثم ان الموت يصيب الفلاحين والصناعيين اكثر من النبلاء والضباط واعضاء المهن الحرة والتجار . وقد يشمل المحول احياناً دولاً كاملة او مناطق شاسعة من اوروبا . تلك هي المجاعات الكبرى التي اثرت في مخيلة المؤرخين : في فرنسا مجاعات السنوات ١٦٢٩ - ١٦٣٠ ، و ١٦٤٨ - ١٦٥١ ، و ١٦٦٠ - ١٦٦١ ، و ١٦٩٣ - ١٦٩٤ . بيد ان سنة واحدة لا تمر دون ان تحدث مجاعة في بعض المناطق . ومن العسير جداً التغلب عليها بمعالجة او مداواة ، وربما كان من العبث والخطر توزيع مداخيل الاغنياء على الفقراء . فهذه المداخيل كانت كمية مهملة اذا ما قيست بحاجات مجموع السكان . وكان ذلك بمثابة اضعاف جميع الاهالي للتساوي في البؤس ، في حال ان موت الاغنياء والميسورين قد يؤدي الى تقويض الاطارات الاجتماعية ، وبالتالي الى المزيد من الويلات والفوضى والى تدنٍّ جديد في مستوى حياة المجموع، وتقهقر في الحضارة . اجل لقد لجأ الناس الى الشراء من المناطق الغنية ولا سيما من « البلدان الجديدة » ، بولونيا وليتوانيا . ولكن صعوبة النقل البري وارتفاع اكلافه لم يسمحا قط باستحضار المواد المبتاعة الا الى الاماكن القائمة على مقربة من طريق مائية وكانت هذه المواد تصل متأخرة وبكميات محدودة وباسعار باهظة . الا انها قد حالت دون وفيات كثيرة بفضل عظمة مقاومة الانسان. زد على ذلك ان تنمية الصناعات اليدوية والصناعات الريفية المنزلية الصغرى كانت تفي زيادة في كمية النقود التي تدخل البلاد وفي قدرة الطبقات الدنيا على الشراء . ولكن السكان ، في السنوات الخيرة ، كانوا يزدادون بازدياد المواليد وتدني الوفيات ، فيصبحون اشد تأثيراً بالسنوات الماحلة . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم يؤد تقدم الصناعات ، وهو نتيجة النمو الرأسمالي للنهضة الاقتصادية ، الى طبع وضع هذه المجتمعات بمزيد من التقلب وعدم الاستقرار . وهكذا فان عدد السكان كان يتأرجح بسرعة نسبية بين حدود ثابتة . ولا يبدو ان سكان فرنسا الذين لم يتجاوزوا قط العشرين مليون نسمة قد هبطوا

يوماً الى ما دون ١٢ – ١٤ مليوناً .

الجاعة والازمة الاقتصادية

النتيجة الطبيعية للمحول هي الازمة الاقتصادية : فهي تشوّش الحياة الزراعية وتقتل العملة وتقضي على اعمـــال فصل الصيف وتؤدي الى اهمال الاراضي وتكوين طبقة كادحة بائسة لا قدرة لها على الشراء . وبفعل ارتفاع الاسعار الزراعية يقلّـــل النبلاء والبورجوازيون من نفقاتهم . وتنتشر البطالة في المـــدن وتشل حركة البيع لدى اصحـــاب الانوال والحوانيت ولدى التجار احياناً . يزول الكسب ويستحيـــل توظيف الاموال ، ويزيد المحول الدوري من التقلب الاقتصادي العام ويجمد حركة الاقتصاد .

حركة الاسعار

ان التقلب الدائم هذا ، الذي يرد الى النظام السائد ، قـــد ازداد خطورة في القرن السابع عشر بازمات ظرفية مردّها الى حركات الاسعار . فقـد عقب الارتفاع السريع والمستمر في القرن السادس عشر فترة من الارتفاع البطيء ثم من الانخفـــاض ولا سيا من التقلب البارز في الاسعار .

النقص المتزايد في المدن الثمـــين

في الواقع تأخر انتاج المعادن الثمينة في العالم كله . ويعتقـــد « سوتبير » بان هذا الانتاج اخذ بالانخفاض منذ السنة ١٦٢٠ . ولكن ما يلفت الانتباه بصورة خاصة هو ان المعدن الملقى في التداول،اذا ما قيس بالمعدن الذي سبق انتاجه ، يمثل نسبة مطردة الانخفاض . فبينما يتضاعف مخزون المعدن الثمين عشر مرات في الارجح خلال القرن السادس عشر ، لم يتضاعف سوى مرتين في القرن السابع عشر ، فبرزت بمزيد من السرعة الحاجات الى النقد للمبادلات التجارية .ويرى « هاملتون » ان استيراد المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا ، وهو المصدر الرئيسي لتموين اوروبا عن طريق الاتجـــار مع اسبانيا،قد بلغ الذروة ما بين السنة ١٥٩١ والسنة ١٦٠٠ (فضة : ٢٧٠٧٦٢٦ كيلو) ثم اخذ بالهبوط . وزادت سرعة هذا الهبوط بعد السنة ١٦٣٠ (١٦٣١ – ١٦٤٠ ، فضة : ١٣٩٦٧٥٩ كيلو) . امـــا بعد السنة ١٦٥٠ ، فقد انهار الاستيراد انهياراً (١٦٥١ – ١٦٦٠ ، فضـــة : ٤٣٣٢٥٦ كيلو) . واذا كانت الفضة المستوردة الى اسبانيا منذ السنة ١٥٥١ حتى السنة ١٥٦٠ تمثل ٢٠٪ مما استورد منها منذ السنة ١٥٢١ حتى الفترة المذكورة ، فان الفضة المستوردة منـــذ السنة ١٦٢١ حتى السنة ١٦٣٠ لا تمثل في الظروف نفسها سوى ١٨٫٧٪ ، والفضة المستوردة ما بين ١٦٥١ و١٦٦٠،٢٫٨٪ فقط.يضاف الى ذلك ان قسما من هذا المعدن كان يجمع ويكتنز ، وقسما آخر يجمد في اعمال الصياغة وقسما آخيراً يصدر الى آسيا تسديداً للمشتريات الاوروبية .

الارتفاع البطيء ثم الانخفاض في الاســـعار

ان ما نشاهده اذن في اوروبا هو ، على العموم ، ارتفـــاع بطيء جداً حتى حوالي ١٦٢٥–١٦٦٠ . اما المستوى الادنى الذي تبلغه

الاسعار فيمكن تحديد فترته ما بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ .يلي ذلك ارتفاع لا يذكر بين السنتين ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ثم انخفاض بسيط جديد بين السنتين ١٧٠٠ و ١٧١٥ .ولكن الانخفاض اعظم شأناً مما يبدو في عدد من البلدان اذا نحن لم ننظر الى الاسعار الاسمية المعبر عنها بالنقد المتداول فقط ، بل نحسبها على اساس وزن المعدن الثمين المقابل .وفي الواقع فاننا نرى تضخماً نقدياً في بلدان كثيرة ، المانيا واسبانيا منذ الثلث الاول من القرن ، وفي فرنسا في القسم الاخير منه . فالمبلغ نفسه من نقد التعامل غدا يقابل،في القطع النقدية ، معدناً ثميناً اقل وزناً . وكثيراً ما يحدث ، والحالة هذه ، ان يكون الارتفاع الاسمي انخفاضاً في الواقع ·

وهكذا فان الارتفاع الاسمي حدث في مونيخ في السنة ١٦٢٢ ، وهو الذروة التي بلغتها الاسعار ، هو في الواقع هبوط سقطت خلاله الاسعار بالمعدن الثمين الى ما كانت عليه بين السنتين ١٥٥٠ و ١٥٦٠ · فحوالي ١٦٦٠–١٦٧٠ كانت الاسعار في الواقع ، في هذه المدينة ، ادنى منها حوالى السنة ١٥١٠ .وخضعت بعض البلدان، كانكلترا وألزاس ،الى حركة عامة على بعض الاختلاف ، ففي انكلترا لا يزال الارتفاع سريع الخطى حتى حوالي ١٦٤٠ –١٦٥٠ . وتلي ذلك على العموم فترة من الاستقرار النسبي . بيد ان الارتفاع الذي صدق في النصف الاول من القرن قد توقفت حدته توقفاً يلفت الانتباه . فهناك ١٦٥ نقطة زيادة بين السنتين ١٥٥٠ و ١٦٠٠ ، بينما ليس هناك سوى نقطة فقط بين السنتين ١٦٠٠ و ١٦٥٠ . واذا نظرنا الى حركة تجارة اشبيلية مع اميركا الاسبانية ، وهي ما يقاس به جزئياً مدى نشاط اوروبا الاقتصادي بالثمن والاسواق ، اتضح لنا ان حجمها ينكمش بانخفاض الاسعار . ففي نصف العقد ١٦٠٦ – ١٦١٠ بلغت الواردات ٢٧٣٥٦٠ برميلا بينما هي لم تبلغ سوى ١٢١٣٠٥ براميل فقط في نصف العقد ١٦٤٦ – ١٦٥٠ . وتوقفت حركة التجارة عن التقدم حوالي ١٦٠٨–١٦١١ ثم اخذت تخف بوضوح خلال السنوات ١٦١٩ –١٦٢٢ وتدهورت اخيراً في السنة ١٦٣١ . وفي منتصف القرن ، بلغ النقص ٥٠ ./· . ويبدو بعد السنة ١٦٤٠ ان الانخفاض في القيم كان اسرع منه في الاحجام . وسلكت الاسعار الطريقة نفسها . فهنالك تبدل متواز قد لا يسمح لنا بالكلام عن سببية حقيقية ، ولكن ذلك محتمل اذ ان عنصراً اساسياً من تجارة اميركا الاسبانية نحو اوروبا كان المعادن الثمينة ، التي تقلصت كمياتها .

بطء الانطلاقة الرأسمالية

لقد نتج عن ذلك ، في معظم انحاء اوروبا ، بُطء في الانطلاقة الاقتصادية التلقائية وفي انطلاقة الرأسمالية · فان ارتفاع الاسعار يؤدي الى نقص في حجم الكسب . وتفقد آفاق المستقبل بعض جمالها في نظر الرأسمالي الذي يبيت اقل اقداماً . ويتدنى عدد المشاريع الجديدة وتتضاءل حركة تقدم المشاريع الراهنة ، ويتقلص حجم الانتاج . اما حين تتدنى الاسعار فيقل الكسب وقد يزول بالكلية . فيسيطر التردد على متعهد المشروع الذي يحاول تحديد نفقاته ويسرّح العمال . وينقص الانتاج وتنتشر البطالة . وينضخم عدد المتشردين . وتضطر المشاريع الصغرى او المشاريع التي لا تزال في طور

التأسيس الى اقفال ابوابها . ولا تصمد سوى المشاريع المجهزة تجهيزاً حسنـاً . ولكن الصعوبات عظيمة . ويجب البحث عـــن التحسينات التقنية التي تؤدي الى تخفيض سعر الكلفة . فيمكننا القول ، أذا اشئنا بتعبير « سيميأند » ، ان المرحلة A في القرن السادس عشر قد عقبتها مرحلة A على بعض البطء ، ثم مرحلة B .

تقلب الاسعار واسبابه

ولكن القرن السابع عشر نفسه قد عرف ايضاً تقلبـــاً مخيفاً في الاسعار وفي تأرجح الارتفاع والانخفاض يفوق الى حد بعيد ما حـــدث في القرن السادس عشر . وفي العدد الاكبر من البلدان برزت هذه التأرجحات الموسمية والدورية (عشر الى عشرين سنة) الضخمة منذ اوائل القرن . فهنالك في كل مكان تقريباً ، حوالي ١٥٩٥–١٦٠٠ ، انفلات وانخفاض عظيم حتى حوالي ١٦١٠–١٦١٥ ، ثم تـدوم التأرجحات القصوى بعد ذلك طيلـــة القرن . ولا يسعنا القول ان الارتفاع الذي طرأ في القرن السادس عشر يتمادى طيلة الثلث الاول من القرن السابع عشر الا في انكلترا وبعض الاقاليم الاوروبية الضيقة . فنحن في المنـاطق الاخرى امام ارتفاع من نوع آخر . لا بل ان انكلترا نفسهـــا ، بعد ١٦٤٠–١٦٥٠ ، عرفت شأن غيرها نظام التأرجح في اقصى ابعاده .

ليس باستطاعتنا بعد ان نعلل هذه الظاهرة تعليلاً وافياً . فجل ما نستطيعـه توفير بعض عناصر التفسير فقط . ليست الحروب اسباب هذه التقلبـات اذ ان مرور الجيوش وحده كاف لان يؤثر في الاسعار اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان المقايضات دون مقايضـات اليوم شأناً الى حد بعيد وان الاسعار تختلف كل الاختـــلاف في وقت واحد بين منطقة واخرى ، ولا يطرأ ارتفاع عظيم على الاسعار الا اذا اصطدمت الجيوش في الاقليم نفسه . ولكن يجب ان نأخـذ بعين الاعتبـــار الظروف الجوية السيئة طيلة سنوات عدة ، ونتائج الحصائد الماحلة التي تدفع بالاسعار الى الارتفاع حتى عودة الطقس الجيد والجنيات الوفيرة . ويجب كذلك ان نأخـذ بعين الاعتبار ازدياد عدد السكان الذي يضاعف الافواه الواجب تغذيتها ولا سيا وان المنطقة تجمع العديد من العمال والصناعيين ، ويسبب ارتفاعاً في الاسعار الى ان تصبح حصة الشخص الواحد غير كافية والى ان « تحد » الوفيات من الطلب وتؤدي بذلك الى انخفاض الاسعـار . وقد ثبت بالدليل ، فيا خص المانيا الجنوبية ، ومدن مونيخ واو كسبورغ ونورمبرغ بنوع خاص ان الاسعار كانت ترتفع فيها بازدياد عدد السكان ، وان انطلاق الزيادة كان يسبق ارتفـــاع الاسعار . وهكذا فان جهود الدول في سبيل تنمية صناعتهـا كانت سبباً في زيادة السكان وعاملاً من عوامل تقلب الاسعار احياناً . ويجب اخيراً ان نأخذ بعين الاعتبار الاعمـــال في الحقل النقدي . فلم تعد الدول الكبرى تجد الموارد الضرورية لنقود المعادن الثمينة التي تستوجبها سياستها ، فلجأت بصورة طبيعية الى التضخم . واصدرت الحكومات الاوامر باعادة النقـــود الى دور ادارة المالية . واعادت شكلها بالقيمة الاسمية نفسها دون كمية المعدن الثمين عينها ، او اعطتها قيمة اسمية عليا دون ان تنقص فيها نسبة المعدن الثمين . واصدر بعضها كميـــات

كبرى من المسكوكات النحاسية واعطتها قيمة اسمية تحكمية ومرتفعة جداً بالنسبة لقيمة النحاس المستعمل (اسبانيا) . وهكذا سددت الحكومات بسهولة ما توجب عليها للدائنين وتجار الاموال والموظفين والجنود والمتارين ، ولكنها غدت بدورها ضحايا هذا التدبير عند جباية الضرائب . وجر التضخم الى ارتفاع الاسعار . وزاد من هذا الارتفاع ان النقد السيء يطرد النقد الجيد . فالقطع النقدية الاجنبية ، من ذهب وفضة ، تتوارى عند ظهور القطع النقدية النحاسية . كما ان الافراد لا يضعون في التداول سوى النقد السيء وحده . وهم يفرضون سعراً مرتفعاً اذا حوسبوا بالنقد السيء فارغمت الحكومة بسبب حدة ارتفاع الاسعار ، على تخفيف التضخم . فخفضت قيمة النقود الاسمية وانهارت الاسعار . وهكذا فان تضخم السنة ١٦٢٦ في اسبانيا عقبه تخفيف السنة ١٦٢٨ ، وتضخم السنة ١٦٤١ تخفيف السنة ١٦٤٢ .

أثره المشؤوم في الاقتصاد

يستدل من ذلك ان القرن السابع عشر ليس مرحلة B حقيقية . في هذه المرحلة تتدنى الاسعار بانتظام مع تأرجحات متضائلة . وهذا يعني انها مرحلة شاقة دون ان تتسم بطابع الكارثة . فباستطاعة المشاريع ان تبذل الجهود لتحقيق انتاج افضل ، وتقدم تقني يغدو مصدر رفاهية عند عودة البحبوحة النقدية . وباستطاعة الاجور ان تصمد في وجه تخفيف التضخم ، كما باستطاعة بعض الطبقات الناشطة ان تنجو من البؤس والمفاجآت . وهذا ما حدث ، على ما يبدو ، في اقليم فالنس الايبيرية . ولكن القرن السابع عشر ، في معظم انحاء اوروبا ، يبدو واقفاً على شفير الكارثة . فان ارتفاع الاسعار بسرعة قصوى قد حد من الاستهلاك وتسبب في ازمات الصفقات الخاسرة وادى الى البؤس والالم ، وقد لا يتمكن اغنى المتعهدين من الاستفادة دائماً من هذا الوضع بالاستعاضة عن تدني المبيعات بمضاعفة المكاسب وبتجميع رؤوس الاموال لمتابعة توظيفها في المشاريع . فمرحلة ارتفاع الاسعار قصيرة الاجل ، يعقبها الهبوط ، فنزول الكسب ، ويسرح المتعهد عماله، ويتأخر عن تسديد الدائنين اموالهم . اضف الى ذلك ان تأرجحات الاسعار لا تترك مجالا لاي تقدير . فيسيطر اليأس على المتعهدين ويقرون بعجزهم . ويستحيل تحسين المشاريع ، لا بل ان الكثير منها ينتهي الى الزوال .

فالقرن السابع عشر هو من ثم ، بين مرحلة ارتفاع الاسعار في القرن السادس عشر والمرحلة المماثلة في القرن الثامن عشر (بعد ١٧٣٠) ، مرحلة ازمة مستمرة مختلفة الحدة .

٢ ـ الازمة الاجتماعية

ان المنازعات الاجتماعية ، التي تنميها النهضة الاقتصادية ، لا تتبدل طبيعة ، بل تشتد حدة. فهنالك فئات بورجوازية تسير قدماً في تقوية شأنها بالنسبة للطبقات الاخرى ، بسرعة اخف منها في القرن السابق ، ولكن بصورة ثابتة اكيدة .

المثال الفرنسي
تحويل رؤوس الاموال الى العمليات المالية الرسمية
وارتقاء رجال المال والضباط

غير انه يبدو ، في فرنسا والدول المماثلة لها ، وبسبب عدم الاستقرار الاقتصادي ، ان ذلك قد تم خصوصاً باستغلال حاجات الدولة المتعاظمة التي يتوجب عليها تأمين موارد دخول جديدة والحصول على سلفات لمواجهة نفقات الحرب بسرعة . ويبدو ان العمليات التجارية والصناعية ، وهي اقل فائدة وضمانة ، قد لعبت دوراً قليل الاهمية نسبياً . فهم رجال المال وموظفو الدوائر المالية من جهة ، وموظفو القضاء والشرطة من جهة ثانية ، من برزت اهميتهم الاجتماعية بصورة خاصة .

ان موظفي المالية ، ولا سيا خزنة فرنسا العظماء ، هم كبار دائني الملك . فهم يؤمنون له المال بفائدة باهظة بانتظار جباية الضرائب . ولا يتورعون عن التعلل بتأخير جمع الضرائب حتى يقرضوا الملك ماله الخاص . ويشركون في عملياتهم بعض اعيان الاقليم فيستجمعون بذلك رؤوس الاموال المجمدة ، اما رجال الاموال الذين يعقدون اتفاقات مع الملك فيلتزمون جمع الضرائب غير المباشرة وادارة الاحتكارات واستثمار أملاك الملك وبيع الوظائف العامة والمناصب . ويسهم في عملياتهم ، من طرف خفي ، بعض النبلاء والقضاة والتجار . وقد انصرف رجال المال انصرافاً مطرداً عن التجارة والصناعة . وحين اعوزت هنري الرابع رؤوس الاموال للمصانع الملكية اضطر الى ارغام « زامت » و « دي مواسه » و « بوله » الى تقديم مبالغ غير ذات اهمية نسبياً .

بيعت الوظائف العامة على تفاوت في النسبة ، في كل مكان تقريباً . الا ان بيع المناصب في فرنسا قد بات نظاماً وبلغ الذروة . فالملك يحدث ويبيع مناصب عديدة،وهو انما يصدر بذلك صكا بدخل تدفعه الدولة : فالضابط مثلا يستوفي فائدة رأسماله رواتب وتوابل وحقوقاً ومواد مسعرة . ويفرض الملك دورياً على الضباط ، لقاء دفعة من المال ، زيادات على الرواتب ليست في الواقع سوى قروض اجبارية . فلما كانت المبالغ الواجب دفعها باهظة جداً ، يضطر الضباط الى البحث عن الدائنين فيمسي مجموع الضباط وكأنهم آلة ضخمة مهمتها تعبئة رؤوس الاموال المجمدة لخدمة الخزانة الملكية . ولكن الملك، مقابل ذلك يتيح للضباط في النهاية جعل مناصبهم وراثية . وقد اضيف الى حق الاستقالة وتعيين الخلف نظام هو اشبه ما يكون بالتأمين على الحياة ، يضمن الوظيفة للعائلة اذا كان للضابط ولد في سن الخدمة ، او رأس المال الذي يمثله المنصب اذا لم يكن للضابط اولاد . فجلي من ثم ان طبقة الضباط باجمعها قد توطدت وتمكنت .

ارتقاء التجار الصناعيين

ولكن طبقة التجار – الصناعيين استمرت في الارتقاء . ففي باريس غدا ارباب الهيئات – الست (صانعي الاجواخ ، والعطارين – الصيادلة ، والعقادين ، وصانعي القلنسوات ، والفرائين ، والصاغة) من كبار التجار . كما ان « سنكتو »

و « نقولا له كامو » الذي جمع ثروة تقدر بتسعة ملايين واستولى دفعة واحدة على ٢٠٠٠٠٠ دينار من الفضة في سوق فرنكفورت الدورية ، وصانع الاجواخ « كلود بارفكت » ، وتاجر الانسجة ، الخفيفة ادوار كولبير عم الوزير العتيد ، وكثيرين غيرهم في كافة المدن الكبرى ، اسسوا مصانع لانتاج المدافع والاسلحة وملح البارود والفروش والحرائر والاجواخ والادوات المعدنية . واقتنوا الاراضي ودفعوا بعائلاتهم الى وظائف الدولة والمدينة والكنيسة . فعين اخو « شارل بارفكت » خازن فرنسا ثم رئيساً بديوان النقود وتولى افراد عائلته وظائف هامة في ادارة مدينة باريس . وهكذا انضمت عائلات الصناعيين والتجار الى عائلة الضباط في ممارسة الوظائف العامة واشتركت كلها مع عائلات النبلاء في امتلاك الاقطاعات .

النبلاء ضد البورجوازيين

ان ما نشده جميع هؤلاء البورجوازيين هو النبالة وشرف النسب . فهم يعيشون ، في الدرجة الاولى ، « عيشة الاشراف » دون اي نشاط مأجور ويمارسون الجندية : الجد تاجر والاب ضابط والابن جندي . كثيرون من قضاة المحاكم العليا اشراف ، الرؤساء فرسان والمستشارون حاملو سلاح . ويتوفق بورجوازيون كثيرون الى الحصول على براءات شرف . ولكن نبلاء الجندية القدامى يمقتون هؤلاء الحانوتيين البلهاء الذين لم يحسنوا التخلص من دناءة نسبهم . وقد اوصدت ابواب المناصب في وجه نبلاء ـ الجندية لانها غدت وقفاً على ذوي الثروات . لا بل ان الملك اخذ يعين المزيد من البورجوازيين حتى في الوظائف التي لا تباع بيعاً . فبورجوازيون هم باغلبيتهم منذ هنري الرابع أعضاء المجلس الملكي السياسي الذين كانوا اشراف جندية في الدرجة الاولى في عهد هنري الثالث . وبورجوازيون هم امناء سر الدولة اولاً والوزراء تدريجياً امثال « كولبير » و «لوفوا» . ولكن البورجوازيين ، اسياداً اشراف اصبحوا أو بارونات ، لا يزالون يحتفظون بذهنية وعادات واخلاق لا يقرها اشراف الجندية . ولا يعترف لهم هؤلاء النبلاء بـ « الصفة » ولا ينظرون اليهم الا نظرتهم الى « بورجوازية حقيرة » ويتظاهرون حيالهم بمزيد من الرفعة والازدراء . وقد حدث في اجتماع مجلس وكلاء المملكة الفرنسية في السنة ١٦١٤ ، حين قال النائب المدني « هنري دي مسم » « ان الطبقات الثلاث هي اخوات ثلاث امهن واحدة هي فرنسا » ، ان نهض بعض الاشراف واعلنوا « انهم لا يرضون بان يدعوهم ابناء السكافين والخرازين بالاخوة وان الفرق الذي يميزنا عنهم هو نفسه الفرق الذي يميز السيد عن الاجير » .

الاسياد ضد الفلاحين

تعاظمت المضادة بين كافة الاسياد ، الاشراف والضباط والتجار ورجال المال ، وكلهم يمتلكون الاقطاعات ، من جهة ، وبين الفلاحين من جهة اخرى ، على الرغم من وحدة مصالحهم وارتباطاتهم الاقطاعية . فالاسياد يعيشون من عمل الفلاحين بالدخول عينا ونقدا وبالاتاوات المختلفة التي يجمعونها من ضرائب يدفع جلّها الفلاحون . ولكن الدخل الزراعي سريع التأثر بحركة الاسعار . وقد تغدو الفرائض والحقوق الاميرية واجبات عسيرة جداً اذا ما اتسعت هوة اللامساواة بين الافراد . ويجب التمييز

بين حالة الضرائب والكراءات والدخول والفرائض الاقطاعية المسددة نقداً وبين حالة الدخول والفرائض الاقطاعية المسدّدة عينا بالنسبة الى الحصائـــد ، وبين حالة الاسياد ، والمزارعين ، والشركاء وصغار الملاكين .

ان السيد والمزارع الكبير يحققان المكاسب عندما ترتفع الاسعار بسبب ندرة المواد الغذائية لانهما يحتفظان على الاجمال بفائض الحصائد او بمخزونات يتمكنوا من بيعها باسعار عليا . ولكن الشريك والملاك الصغير يريان ان حصادهما يكفيهما للبذار والخبز فيستحيل عليهما والحالة هـذه ان يدفعا الضرائب والفرائض . والضريبة توزع على الرؤوس ، لا بنسبة الانتاج . ولا تتبـــع الدخل الذي قد تتعداه . والفريضة او الضريبة الكنسية تقرران بالنسبة للانتاج قبل اسقاط النفقات ؛ ولكن النفقات المهنية (بذار ، الخ .) لا تتغير قط وقد لا يبقى من الانتاج، بعـــد اسقاطها ، ما يغطي الفريضة .

اما اذا كان مرد ارتفاع الاسعار الى اسباب اخرى ، فالجميع يحققون المكاسب ، ولكن السيد والمزارع الكبير اللذين يستطيعان ارتقاب الوقت المناسب للبيع يفيدون، بصورة طبيعية، من هذا الارتفاع ، اكثر من الملاك الصغير والشريك . ويربح السيد بالنتيجة فوق ربح المزارع الكبير لان بمكنته ، كلما جدّد عقد الضمان ان يرفع قيمة الضمان بحيث يصادر كسب المزارع .

واذا انخفضت الاسعار ، فالمزارع المرتبط بعقد ضمان ينكب بضمان وافق عليـــه حاسبا حساب الاسعار العالية . اما الملاك الصغير والشريك فيدفعان دونما صعوبة الدخول والفرائض العينية اذا نجم الانخفاض عن حصاد وفير ، وبصعوبة كلية اذا اضطرهم الانخفاض الى بيع المزيد من حصادهم للحصول على النقد ؛ ولكن الضريبة والدخول والفرائض النقدية قد تتجاوز الدخل مجدداً ، لاسيما وان الملاك الصغير والشريك يرغمان ، امام الحاح الحاجة ، على البيع بعد الحصاد مباشرة ، حين تكون الاسعار في ادنى انخفاضها . ويصاب العمال الزراعيون اسوأ اصابة . فبالنظر الى ركود التقنية الزراعية يعذر تخفيض سعر الكلفة الا بتحديد اليـــد العاملة . اجل ان الاجور لا تتدنى ، ولكن هنالك مزيداً من العاطلين والمتشردين والهائمين على وجههم .

وهكذا فان التفاوت والمضادة بين الطبقات يتعاظمان باطراد . يضاف الى ذلك ان الدخول والفرائض والضرائب قد تتعدى وسائل المستثمر الصغير في حالتين ظرفيتين غير نادرتين في ظل هذا النظام الاقتصادي : ثورات الفلاحين والحروب بين الفلاحين .

الكبار ضد ارباب المهن والعمال

يقف الاشراف ورجال المال والضباط موقفا متزايد العـداء من صغار ارباب المهن ، اسياد المهن « الصغيرة » ، ومن عمال المدن ، بمقدار خضوع هؤلاء للضرائب لان باريس معفاة من ضريبة الاقتطاع ، ومدنا اخرى معفـــاة ايضاً او مشتركة . وقد اعتمدت هيئات الضباط الملكيين والمجالس التمثيليـــة والمحاكم ووزراء الدول ، من جهة ثانية ، سياسة عاطفة حيال اوليغارشية كبار التجار الصناعيين ومضرة

بصوالح صغار ارباب المهن، الخبازين والقصابين والقشاشين ، وصوالح العمال والصناعيين المستقلين الذين باتوا اشد انفعالا وحقدا . واحتفظت الدولة للتجار الصناعيين بالوظائف البلدية وبالسلطة في المدن. وناصرت الدولة كافة ارباب المهن على العمال في مجهودهم الرامي الى ازالة التنافس وتخفيض الاجور وبلوغ الحد الاقصى من الانتاج . وامست التعاونيات في النهاية آلة في ايدي ارباب المهن التضييق الخناق على العمال . واوقف ارباب المهن الانخراط في جمعيتهم . فاقفلوا ابوابها في وجه غير ابنائهم واصهارهم بفرض شروط تحدد السن والاقامة وانقاص عدد المتمرنين واطالة مرحلة التمرين للرفاق وتعقيد التحفة الفنية وغلائها والتحيز والاختلاسات وافساد ضمائر لجان الامتحان ورسوم الانضمام الباهظة وضخامة نفقات ولائم الدخول . واتفق ارباب المهن على اعطاء ادنى الاجور الممكنة ، حتى يدفعوا عليها رسوماً خفيفة للتعاونيات والسلطة العامة . وارغموا العمال على ان يشتغلوا ما بين اثنتي عشرة ساعة وستة عشر ساعة في اليوم . وطلبوا من الدولة تخفيض عدد ايام العطلة وتحريم التسرر العمالي ومنع العمال من الاختلاف الى الحانات ، حتى يتاح لهؤلاء الاكتفاء بالاجور المتدنية . وحظرت التكتلات والاضرابات على العمال . فاسس هؤلاء نقابات سرية : ابناء سليمان (الذئاب) ، ورفاق الواجب (المفترسون) ، وابناء السيد جاك (الذئاب المتنكرون) ، وابناء السيد سوبيز (السكارى) . وكان لهم رؤساؤهم ، وجمعياتهم المنتظمة ، وصناديق مال تغذيها اكتتابات اجبارية ، والاسلحة ، والحراب ، والبنادق القصيرة . ولم ينظر الرأي العام اليهم بعين راضية لانهم اتهموا بالتسبب في ارتفاع الاسعار بفعل متطلباتهم . ولكنهم ازدادوا قوة بازدياد عددهم . ففي السنة ١٦٣٧ ، بلغ عددهم في باريس ٤٥٠٠٠ عامل ومتمرن . والفوا في ليون ثلثي سكانها المائة الف وتراوح عدد العاطلين منهم بين عشرة آلاف واثني عشر الفاً ، فحين تتوقف جماهير المتسولين والمتشردين من الارياف الجائعة نحو المدن وتنضم الى جماهير العاطلين المتضورين جوعاً وذوي الاجور المتدنية ، حينذاك تبدأ الفتن والثورات .

تفاقم الخصومات الاجتماعية بالخصومات الدينية

وتتفاقم الخصومات الاجتماعية بالخصومات الدينية . فعلى الرغم من البراءة المعروفة ببراءة « نانت » ، وعلى الرغم من التقارب بين الكثيرين من البروتستانت والكاثوليك الذي انتهى الى قبول الزواج المختلط فيما بينهم استمرت الخصومة على حدتها اقله في الاقليات المتشددة . الاكليروس يوجه الى البروتستانت التهديد تلو التهديد . ويقدم بعض الكاثوليك على تعكير احتفالات ترتيل المزامير واحراق مساكن البروتستانت المنفردين . وتثير « جمعية قربان المذبح » القضاة على المنشقين .

مقابل ذلك يتصرف بعض البروتستانت المتهوسين تصرفا غير لائق عند مرور القربان المقدس ويسيئون معاملة المرسلين في القرى. ويمتنع البروتستانت في « ميلو » عن تسليم الصكوك الكاثوليك وفي « نيم » ، لا يجد الصناعيون الكاثوليك لا مسكناً ولا عملاً . وقد اقدم بعض الاسياد البروتستانت ، بفضل ما يتمتعون به من سلطة ، على ارغام ابناء قراهم على تغيير معتقدهم بالقوة احياناً. وفي مقاطعة « سانتونج» عطف ملاكو المراكب البروتستانت بالتفضيل

على البحارة من ابناء دينهم . وعاش كاثوليك الجنوب تحت كابوس الخوف الدائم من الاقصاء .
فغدا الصراع الديني شيئاً فشيئاً صراعاً طبقياً . وكان البروتستانت في « تور » و « روان »
وعدد كبير من المدن الصناعية تجاراً - صناعيين اثرياء يرتبط بهم الوف العمال الكاثوليك في
نطاق تأمين معيشتهم .

الثورة الصناعية الاولى في انكلترا

سارت انكلترا قدماً في حقل التنمية الرأسمالية المرتكزة الى التجارة البحرية الكبرى . فزادت تجارتها الخارجية عشرة اضعاف ما بين السنة ١٦١٠ والسنة ١٦٤٠ ، فبدّل الاقتصاد التجاري الاقتصاد الزراعي تبديلا اعمق منه في فرنسا الى حد بعيد . واستمرت الثورة الصناعية الاولى التي انطلقت في القرن السادس عشر . وقد باتت الصناعة الكبرى ، قبل الحرب الاهلية ، شيئاً مألوفاً في مناجم استخراج المعادن . ويغلب على الظن ان الصناعة الكبرى ، حوالي ، السنة ١٦٤٠ كانت اوسع انتشاراً في انكلترا منها في اي مكان آخر من اليابسة . فبرزت مؤسسات تتطلب رؤوس اموال ضخمة . وفي عهد جاك الاول استخدمت مصانع الشب على مقربة من « هوني » في مقاطعة « يوركشاير » ، هياكل خشبية كبرى ومصاهر قرميدية وصهاريج وافران معدنية يشتغل في كل منها ستون عاملا ويستهلك كل سنة فحماً حجرياً وخشباً وشبا بمبلغ ١٠٠٠ جنيه استرليني . وضم مصنع الورق في « دارتفورد » (كنت) ستماية عامل ، ومصنع المدافع في « برندلي » (كنت) مايتي عامل ، الخ . وقد بات ضرورياً ، لزيادة انتاج مناجم الفحم والنحاس والحديد والرصاص القصدير السير قدماً في الحفر والحؤول دون غزو المياه وانفجارات الغاز . ولكن رواقاً عميقاً يكلف الوف الجنيهات ، ومضخة تسيّرها الاحصنة تكلف الفي جنيه سنوياً . كما بات لزاماً استخدام مئات المعدنيين لان مناجم الفحم اصبحت تنتج بين عشرة وخمسة وعشرين الف طن حوالي السنة ١٦٤٠ ، بعد ان كان الانتاج السنوي في منجم الفحم لا يتعدى بضع مئات من الاطنان الا نادراً في السنة ١٥٥٠ . وكانت المصاهر الكبرى والمطارق المائية الضخمة لصناعة الحديد شيئاً مألوفاً قبل الحروب الاهلية . ثم تكاملت بعض الصناعات : فعادت معامل الحديد مثلا لارباب المصاهر الكبرى . وتعاظم شأن رؤوس الاموال المتجمعة . ففي عهد جاك الاول ، بلغ رأس مال احد مصانع الجعة اللندنية عشرة آلاف جنيه بينما لم يتطلب سير مصنع الجعة الكبير ، قبل السنة ١٥٤٠ ، اكثر من ٢٥ جنيهاً . وسيطرت الرأسمالية الصناعية على الصناعة المنزلية التي ما زالت قاعدة عامة . ووفرت صناعة المعادن الكبرى المتعاظمة المادة الخام للصناعيين اليدويين الذين ينتجون المراسي والادوات وقطع التبديل للآلات والفؤوس والمهاميز والمواس والمسامير والاقفال ورؤوس المحاريث ومغالي الماء والآنية المعدنية والمقالي . وبرز تعاظم الصناعة التجاري في النسيج اذ استخدم بعض « الاسياد » ٥٠٠ وحتى ١٠٠٠ عامل في منازلهم . وفي مقاطعة « لنكاشاير » ، وفر التجار - الصناعيون القطن لالوف الغزالين والحاكة المتشتتين هنا وهناك . وفي صناعة القطنيات ، كما

في صناعة الاجواخ ، نهضت بعض المعامل بالاعمال التكميلية : الصياغة والتلبيد والصقل . ولكن هذه الانطلاقة لم تخل من الازمات . فالبطالة غير نادرة في صناعة الاجواخ خلال القرن السابع عشر . وقد حدث في تجارة الاقمشة ، قبل السنة ١٦٢٠ ، هبوط استمر سنوات عدة . وطورت الرأسمالية التجارية الزراعة تطويراً بطيئاً . وفي سبيل توفير الصوف للصناعة واللحوم للمدن ، تابع الملاكون ، ولو على نطاق اضيق ، تحويل اراضيهم الى مراع بتسييجها ومنع الدخول اليها ؛ واتسعت رقعة المروج الصنعية ؛ واستحسن الكرنب الساقي ، الذي انحصرت زراعته من قبل في البساتين ، لتغذية المواشي في بعض الدورات الزراعية .

الرأسماليون والسيطرة على المجتمع الانكليزي

لقد حدث انقلاب في توزيع الثروات والعلائق بين الطبقات . الا ان الصراع بين الطبقات اختلف عنه في فرنسا ، بسبب نمو الرأسمالية السريع ولان طبقة الاشراف لم تنظر الى مزاولة التجارة والصناعة والزراعة التجارية نظرتها الى عمل مشين. فقد استهوت هذه النشاطات عدداً كبيراً من الارستوقراطيين: ولا غرو فان شطراً من طبقة الاشراف الانكليز لا يختلفون بعاداتهم وذهنيتهم عن البورجوازيين ، ولكن سواد الاشراف لا يزالون يعيشون عيشة الاسياد في اراضيهم بين شركائهم المزارعين ، وقد حسد اشراف الطراز القديم هذا اولئك الذين جمعوا الثروات بفضل النشاطات الجديدة وتقدموا عليهم ؛ ومقتوا الرجال الجدد ، من تجار وتجار - صناعيين ، الذين يتوفقون الى اقتناء املاك واسعة ، ويتوصلون ، بفضل عقاراتهم ، الى شغل مناصب قضاة الصلح ، ويسهمون في ادارة البلاد ويتعاظم شأنهم في انتخابات المجالس التمثيلية ، ويطالبون ، لغير الابكار من ابنائهم ، بوظائف الكنيسة والجيش والدولة وينافسون الاشراف القدامى في كافة المجالات . وقد اتهم اشراف « الطراز القديم » الرأسماليين بالمراباة وطالبوا بان تتدخل الحكومة لتضع حداً لتصرفاتهم .

وكان الرأسماليون المستقلون على خلاف مع رجال بطانة الملك . فقد استفاد بعض هؤلاء من نفوذهم لحمل الملك على ان يعهد اليهم ببعض الاحتكارات . ولدينا مثل اللورد « شفيلد » ، رئيس مجلس الشمال ، الذي حصل من جاك الاول على احتكار صناعة الشب لمصلحة نقابة من الاعيان المتعهدين الذين كان يمثلهم في البلاط. ولدينا ايضاً مثل الاميرال السر « روبرت مانسل » الذي استعاد بالشراء ، في السنة ١٦١٥ ، احتكار الزجاج الممنوح لتسعة متعهدين ، الخ . فطالب الرأسماليون ، يساندهم صغار ارباب المهن وتجار المدن والمناطق الصناعية ، بالغاء كافة هذه الاحتكارات وباطلاق حرية العمل .

ودفع نمو صناعة الاجواخ وتصدير الحنطة بالرأسماليين الى اقتناء املاك واسعة امنوا بعد ذلك ديمومتها بتخصيص ابكارهم بها عند زواجهم . وقد دب الخلاف بين هؤلاء الملاكين ومزارعيهم وفي سبيل استعادة ما ينفقون حوّلوا المزارعات الدائمة الى مزارعات مؤقتة ورفعوا نسبة

الفرائض والاجور متجاهلين كل حق وقانون . واستمروا بتسييج اراضيهم مستندين الى القانون الصادر في السنة ١٥٩٧ ، الذي اجاز تحويل الارض الى مرعى لاراحتها ، وسرحوا الفلاحين المناكيد واكتفوا مكانهم ببعض الرعاة . وتضاعفت قيمة الضمانات بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٥٠ ولكن عدد المستفيدين منها قد تدنى . اما الذين حرموا حقوقهم فقد انضموا الى صفوف المتشردين الذين يختار من بينهم عمال الصناعة الكبرى . وقد تقدم المزارعون بالعريضة تلو العريضة الى المجلس الخاص مطالبين هؤلاء الملاكين الرأسماليين بحقوق مهضومة .

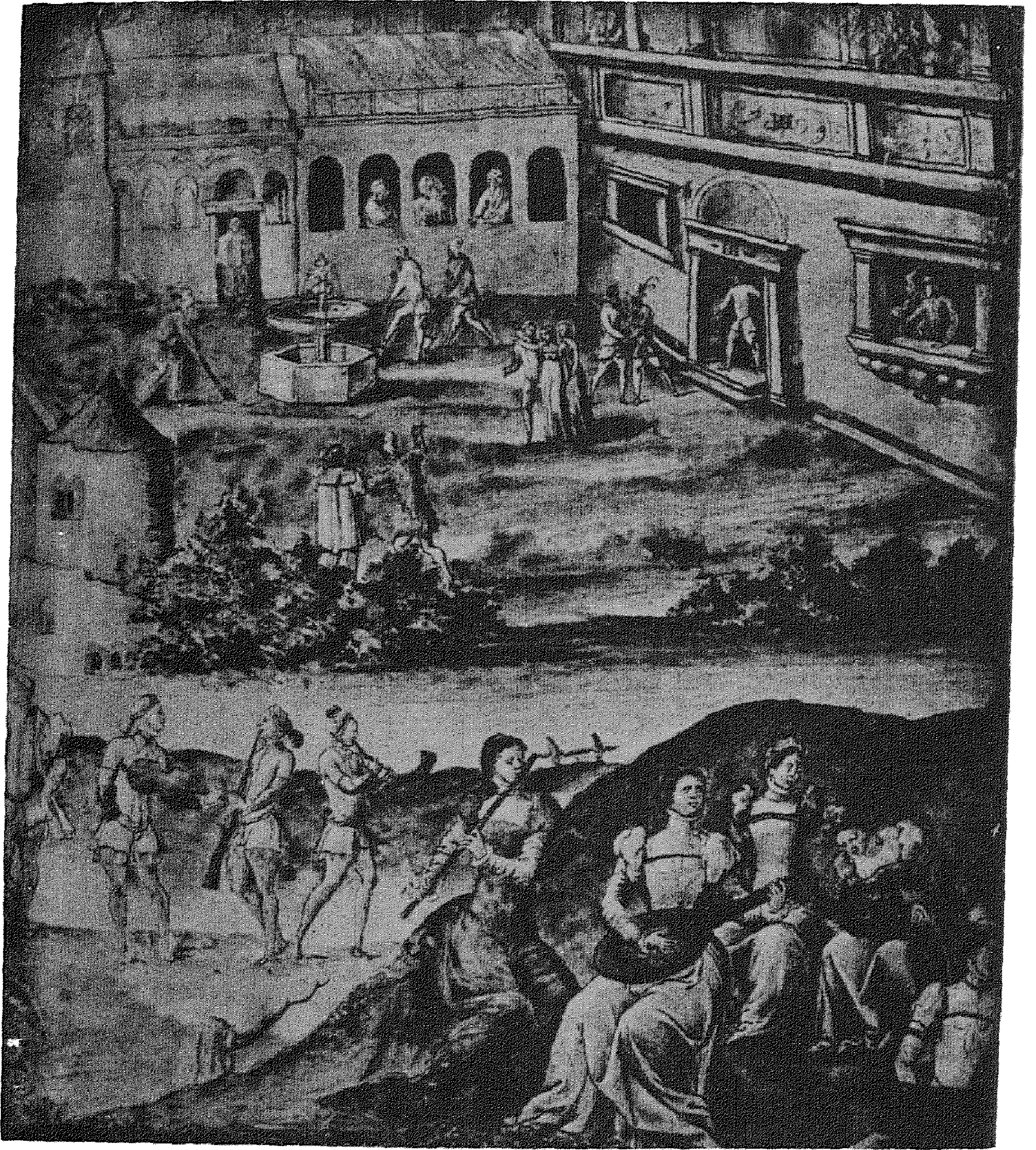
ودب الخلاف بين العمال وارباب الصناعات على قضايا الاجور والبطالة واستخدام العمال غير المؤهلين . وكان نظام الصناعيين اليدويين الصادر في السنة ١٥٦٣ قد قضى بان لا يستخدم اي عامل ما لم يخضع للتمرين القانوني ، ولكن نمو الصناعة السريع قد حمل ارباب المصانع على استخدام يد عاملة اقل كلفة من بين الفقراء والعاطلين الذين لم يتمرنوا في يوم من الايام . وفي سبيل التوصل الى تسريح هؤلاء غير النظاميين ، تحالف الرفاق والمتمرنون ولجأوا الى اعلان الاضرابات كما حدث في « نورويش » (١٦١٠) .

اصطدام المفاهيم الاجتماعية

ادى كل ذلك الى ايجاد التنازع بين فئتين. فمن جهة ، الرأسماليون والمستفيدون من نشاطهم : الارستوقراطيون والاشراف الريفيون وصغار ارباب مهن الحياكة والمزارعون المستقلون في المقاطعات الصناعية « نورفولك » و « سوفولك » و « اسكس » ولندن ، ومدن صناعة الاجواخ في « لنكاشاير » « برادفورد » و « ليدس » و « لفاكس » ، ومدينتي « برمنغهام » و « ونيستر » في « مدلاندس » ، ومدن « غلوستر » و « توفتول » و « اكستر » في الغرب . ومن جهة ثانية اسياد الطراز القديم ومزارعهم وطبقات الشعب الفقيرة .

قالت هذه الفئة الثانية بمفهوم المجتمع القديم : الجسم الاجتماعي مركب من اعضاء متكافلة يتوجب عليها تبادل الخدمة والمساعدة ؛ وليس ما يملكه كل فرد الا لخدمة القريب . وقالت كذلك بتنظيم القرية القديم : حقول مستطيلة غير مسيّجة ، زراعة مشتركة ، دورة زراعية كل ثلاث سنوات ، اراحة اراض ، مراع عامة ، اي كل تلك الحياة الجماعية التي تحد من سلطة الغني وتأخذ بنصرة الفقير . وقالت اخيراً بمبدأ الفلسفة المدرسية : الاعمال على انواعها خدمة عامة ؛ فلا يجوز من ثم مزاولة تجارة قد تؤدي الى افقار الغير ؛ بل يجب البيع بالسعر القانوني ، والامتناع عن البيع بأعلى الاسعار ، والتنبيه الى انخفاض الاسعار المحتمل ، والاقلاع عن تخزين المواد بانتظار ارتفاع الاسعار ، وعدم استيفاء الفائدة الا اذا شارك الدائن المخاطر التي قد يتعرض لها المدين ، وعدم استيفائها كذلك من الفقير والدائن المنكود الحظ ، وتخفيف الشروط المفروضة على المزارع ، وابقاء الاراضي دون سياج ، ورفض كل كسب على حساب القريب .

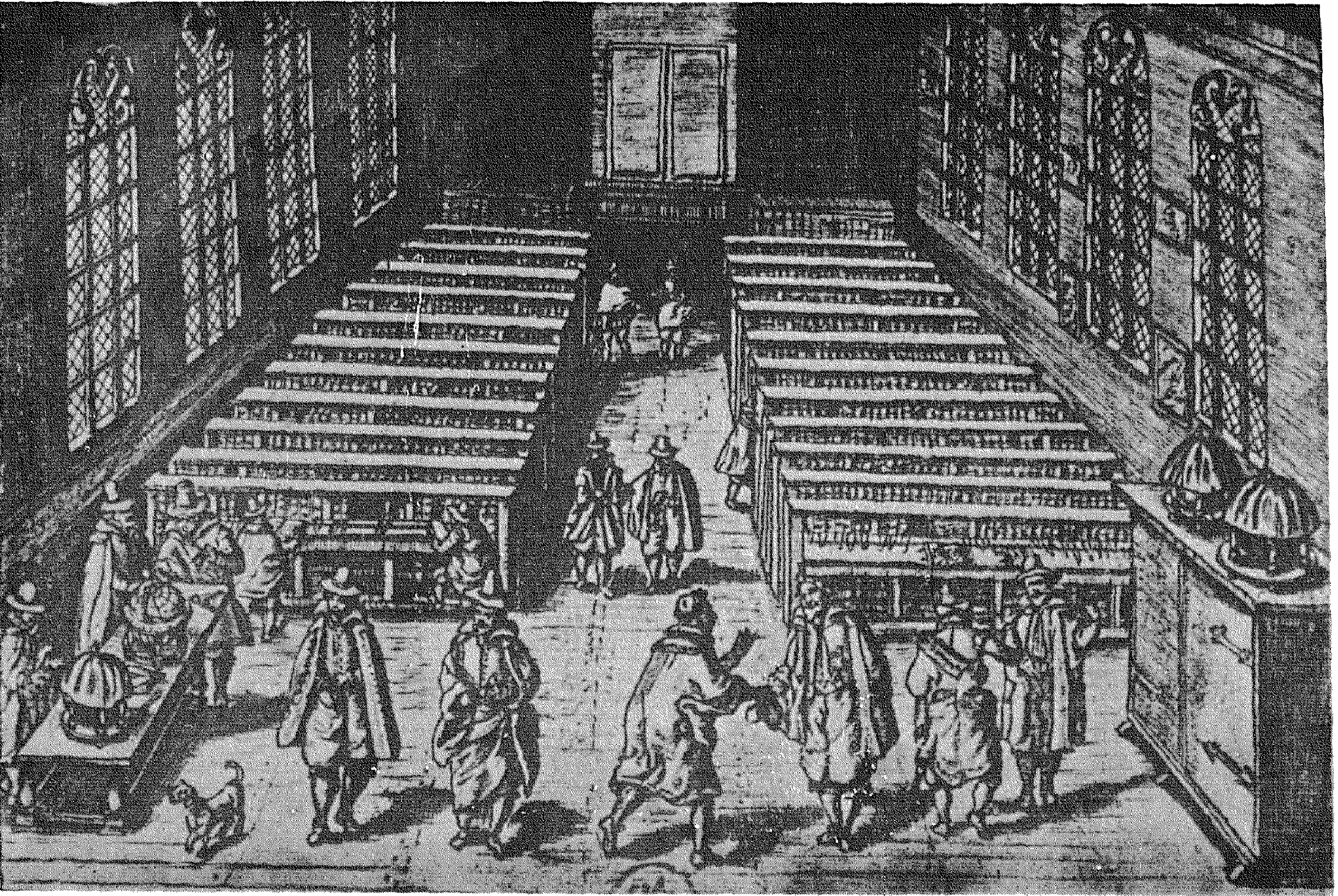
أما المستفيدون من الرأسمالية ولا سيا الملاكون الجدد المنحدرون منها ، فقد تبنوا ، على



١- الحفلة الموسيقية



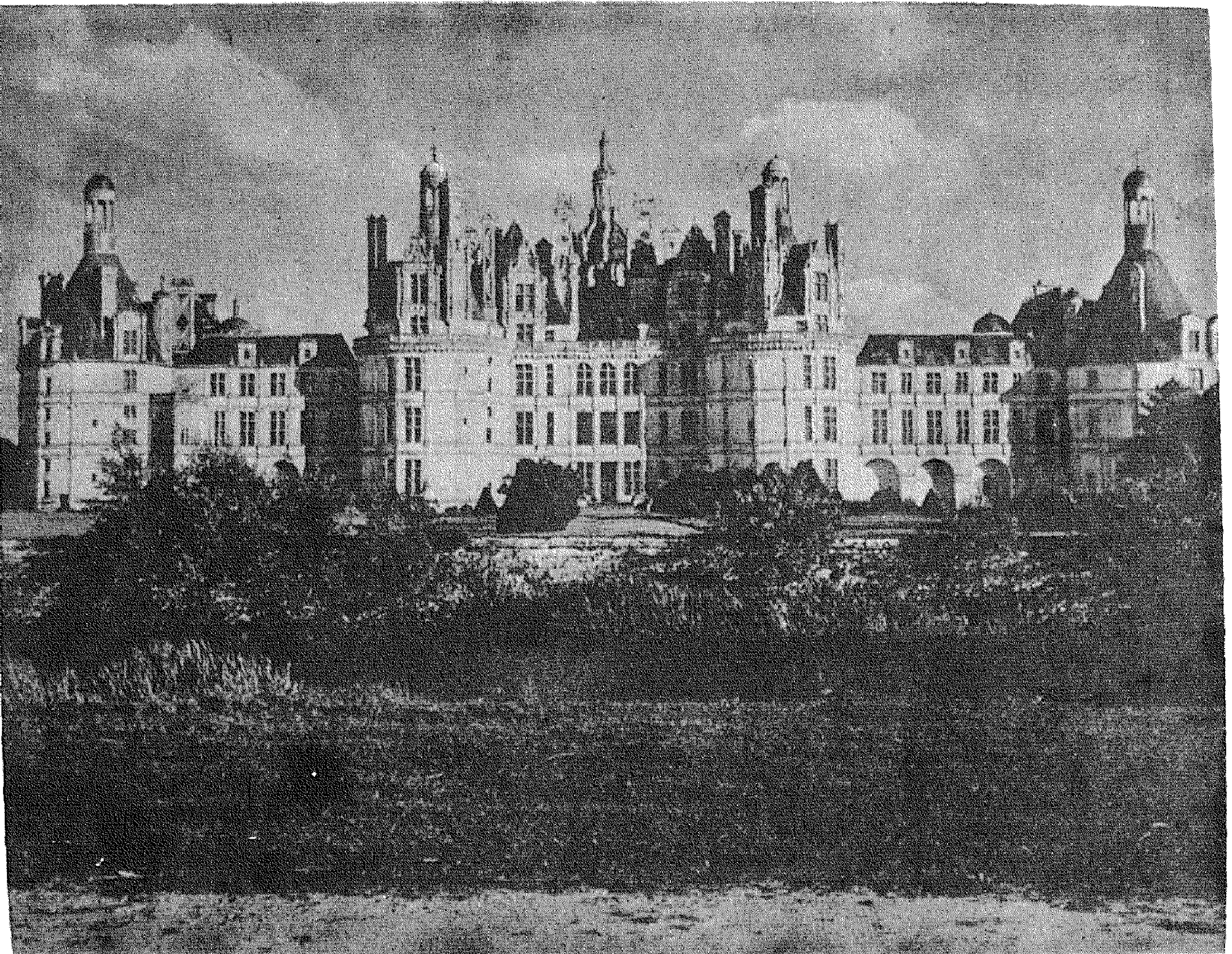
٢ - عيد أحياه هنري الثاني وكاترين دي مدسيس إكراماً لسفراء بولونيا



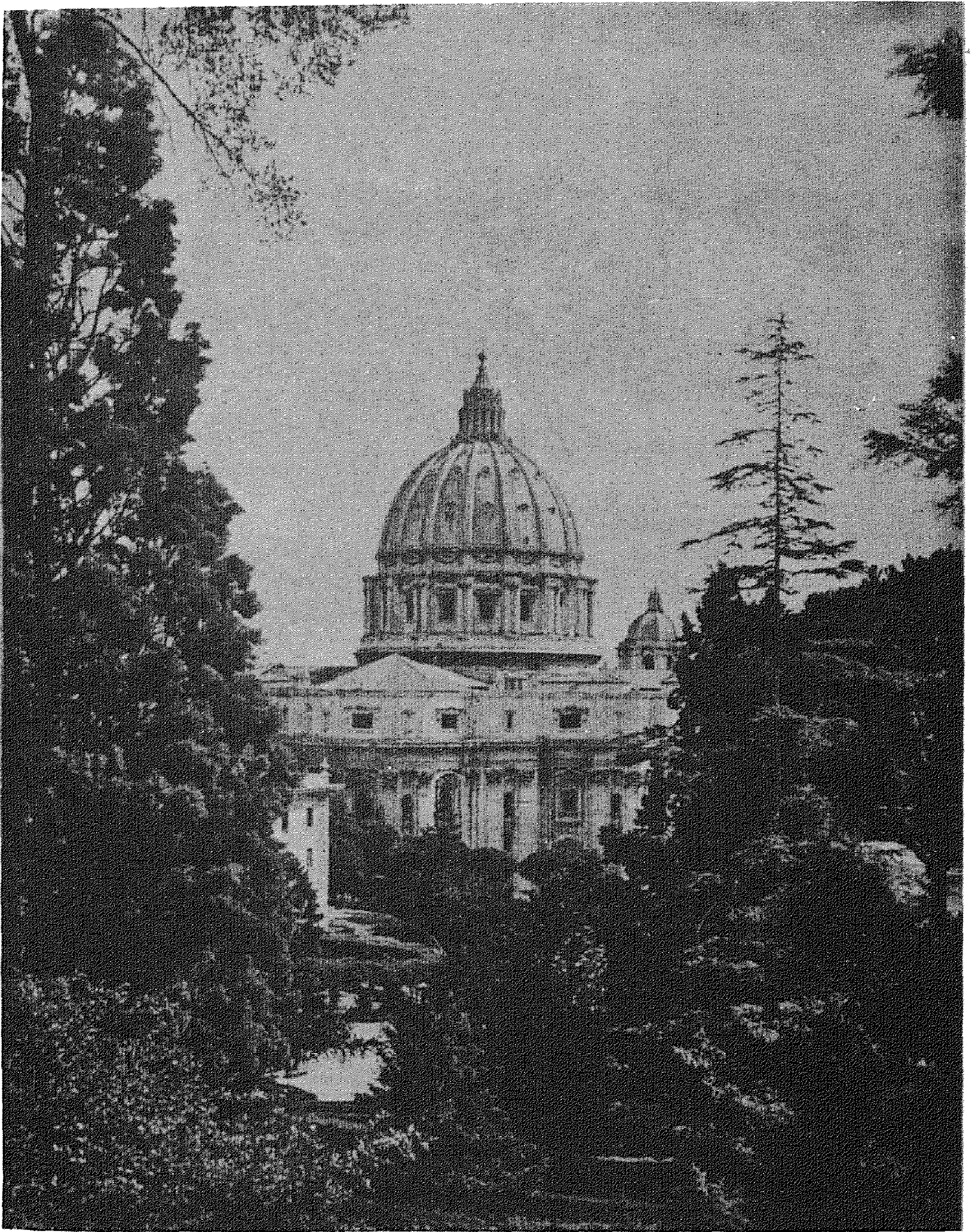
٢- مكتبة في القرن السادس عشر



٤ - المباراة التي أصيب فيها الملك هنري الثاني بجرح مميت في آخر يوم من حزيران من السنة ١٥٥٩



٥. منظر عام لقصر شامبور



٦- قبة كنيسة القديس بطرس في روما، كما تشاهد من حدائق الفاتيكان

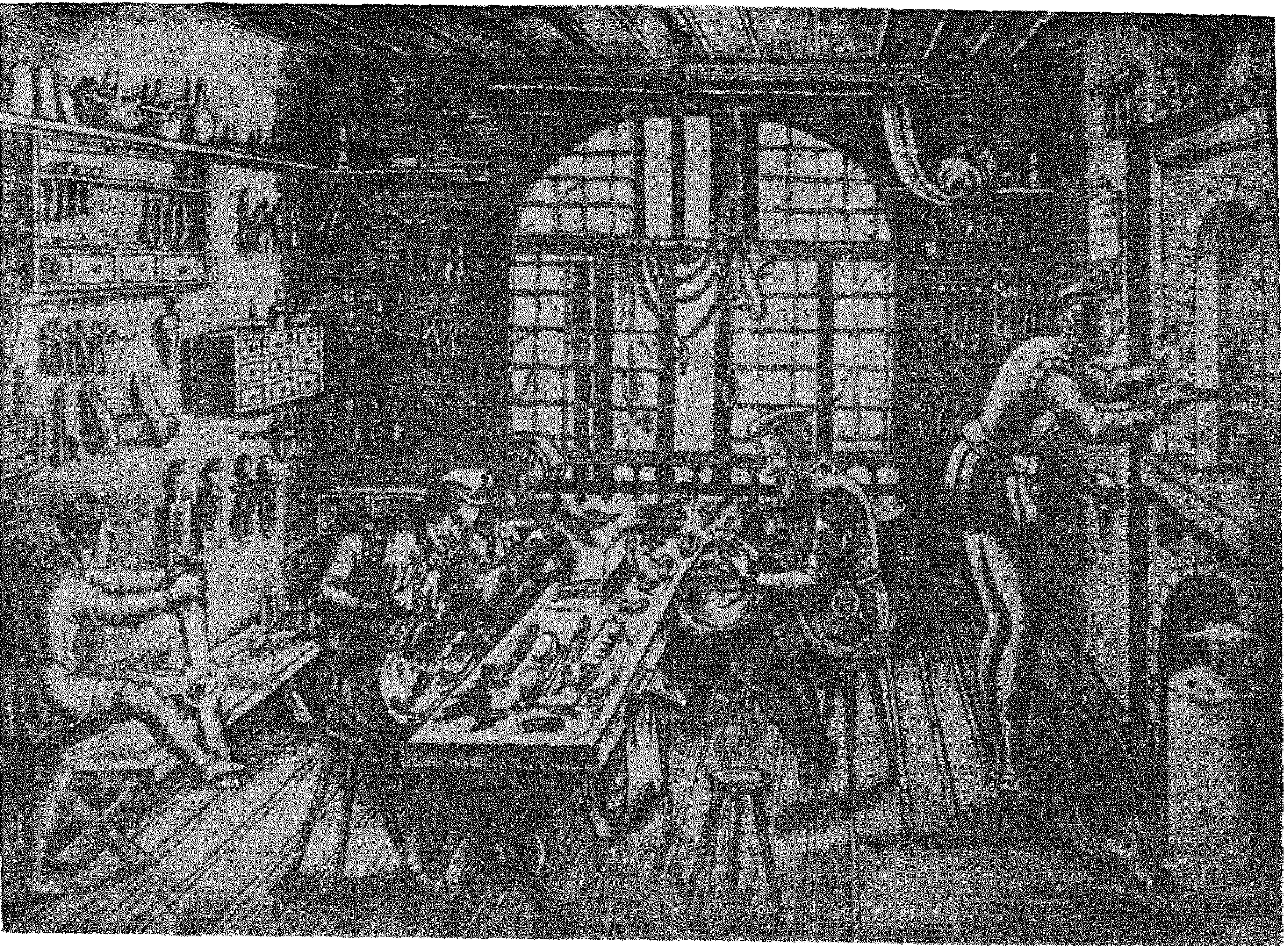




٨ ـ متزحلقون في تجاويف باب كنيسة القدّيس جرجس في انفرس (١٥٥٣)



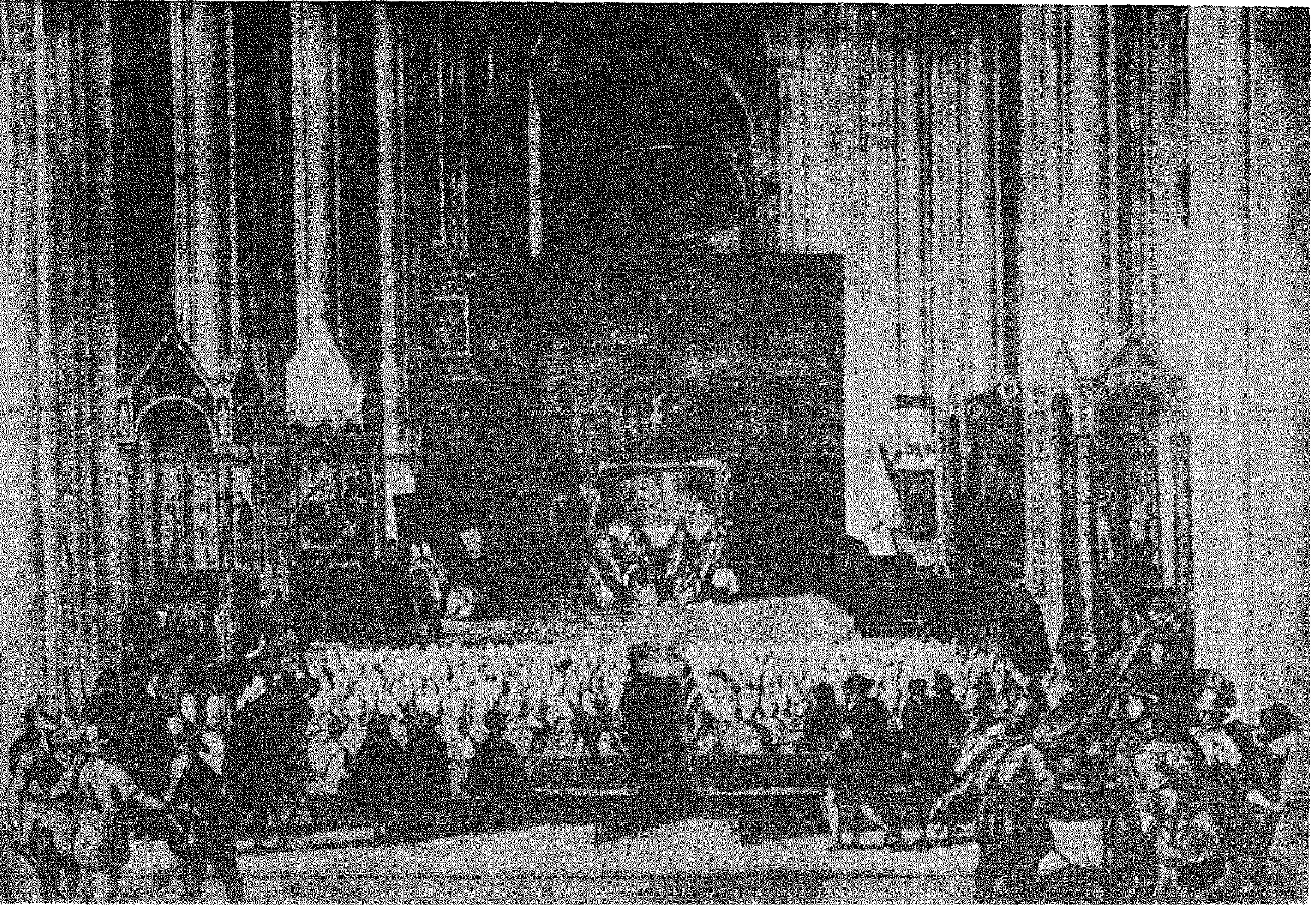
٩ - منجم في أواسط القرن السادس عشر



۱۰ـ مشغل صائغ



١١ - مجمع اوغزبورغ



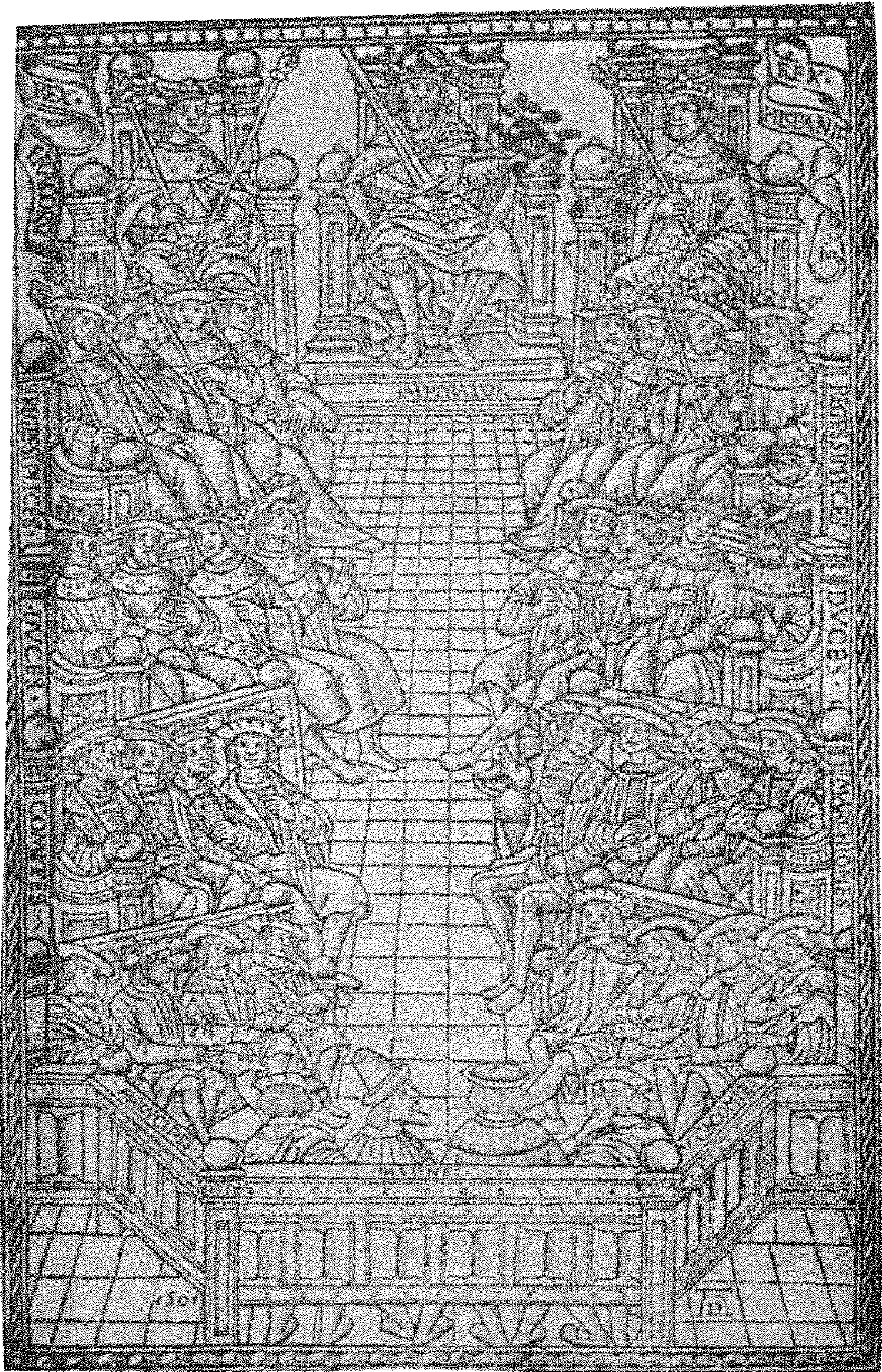
١٢- المجمع التريدنتيني



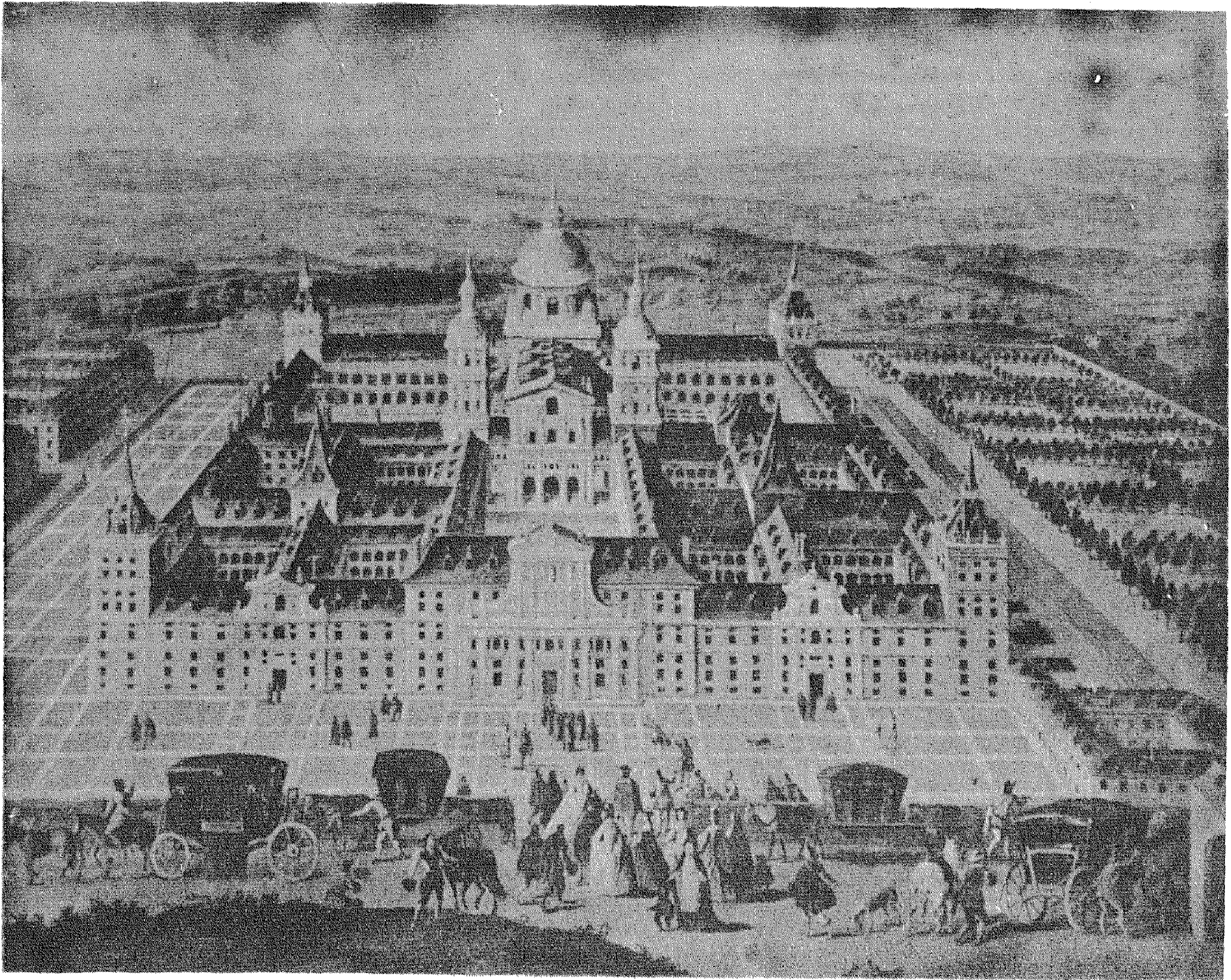
٣- التفتيش في إسبانيا، في فالادوليد



١٤- اضطهاد الكاثوليك الانكليز في ولاية اليزيبث (حوالي ١٥٨٠)



١٥ - جمعية ملوك أوروبيين برئاسة الأمبراطور وملك فرنسا وملك أسبانيا



١٦- قصر الأسكوريال

نقيض ذلك ، مفهوم الملكية البورجوازي : كل فرد سيد مطلق على ما يملك ، وله ملء الحق في استثماره لخدمة فوائده المادية ، دون أي موجب يضطره الى تقديم مصلحة القريب على كسبه الشخصي ، فالملكية حق راهن غير مشروط ودائم كانت هنالك واجبات ام لم تكن وقام بها المالك ام لم يقم . وجلي ان هذا المفهوم الفردي للملكية يزيل كافة الواجبات الاجتماعية : فيجب من ثم ان تتحرر المصلحة الاقتصادية من كل قيد ، اذ ان غاية كل نشاط ، بالنتيجة ، هو ارضاء الشهوات . وان هذا المذهب ، كما نرى ، يقود الى مادية لاواعية .

وقد وجد المفهوم البورجوازي عضداً له في مذهب القائلين باتباع قوانين صارمة في الدين . أجل لقد تمسك بعض الكلفينيين المتشددين بآراء « كلفين » الشبيهة كل الشبه بآراء الفلاسفة المدرسيين . ولكن الدين المسيحي غدا ، عند عدد كبير من القائلين باتباع القوانين الصارمة ، مجرد فردية مصلحية . فجوهر عقيدة هؤلاء هو وحي الله لروح الفرد . والدين ليس سوى معاملة شخصية بين الانسان وخالقه دونما وساطة بشرية . كل انسان حر على مسؤوليته الخاصة . غير ان نظام الكون العقلي ، من جهة ثانية ، هو عمل الله ، والمخطط الالهي يفرض ان يعمل الفرد لارضاء الله . الايمان وحده يخلص، ولكن الايمان يتحيز بالاعمال . كل فرد مرغم على القيام بأعمال رسالته . وهو مدعو للنهوض بعمل خاص في سبيل مجد الله والخير المشترك . وعلى اولئك الذين تكون رسالتهم مزاولة الاعمال ان يعتبروها صلاة لله . ويترتب عليهم معالجتها خير معالجة وينظروا اليها نظرتهم الى نظام زهدي والى نضال روحي طويل الأمد . والكسب هو دليل النجاح والبرهان على ان الواجب قد قيم به بموجب وحي الضمير . والواجب من ثم هو الكسب . والنجاح في الاعمال هو دليل النعمة الروحية . والله قد بارك كل من يستجيب استجابة حسنة لرسالته . والفقر والبؤس هما عقوبة الخطايا . والمرعى العمومي والقانون على الفقراء يشجعان البطالة والخطيئة . يجب الا يساعد الفقير ، بل ان تصلح سجيته حتى يتخلص من الخطيئة ، وبالتالي من البؤس . وهكذا فان الفردية المتطرفة قد آلت الى الانانية والقساوة .

صراع الطبقات في الاقاليم المتحدة

افضت تجارة العمولة ، الى اثراء طبقة بورجوازية كبرى من التجار . فنجم ، عن ذلك تضاد واختلاف بين الطبقات في اطار الاقليم الواحد وتضاد واختلاف بين اقليم واقليم . وكانت هولندا وزيلندا المستفيدين الاكبرين من استثمار التجارة البحرية الكبرى ومن انهيار الموانيء البلجيكية . فاصبح لدى هولندا ، منذ السنة ١٦١٤ ، بحارة يفوقون عدداً بحارة انكلترا واسكتلندا واسبانيا وفرنسا معاً . كما اصبح لديها شركات بحرية قوية ، كشركة الهند الشرقية مثلاً (١٦٠٢) . وقد توفر لها المال الذي أتاح لها اجتياز الازمات بفضل مصرف امستردام (١٦٠٩) . وقد اتاحت لها الهدنة مع اسبانيا (١٦٠٩) دخول العالم الاستعماري واستثماره استثماراً منظماً . فازدهرت فيها الصناعات ، من بناء سفن ، وصناعة حرير ومخمل وكتان وجوخ ، وقيشاني . وارتفع عدد سكانها . وبات لزاماً

توسيع زراعة البقول في السباخ واعتماد الدورة الزراعية كل ثلاث سنوات دون اراحة الارض فتوطد نفوذ البورجوازية في المدن : « امستردام »،«روتردام»، «هارلم»،«دلبورغ»، «الكرن» . وتمكنت اوليغارشية بورجولزية من الاستئثار بالسلطة كلها . وكان هؤلاء البورجوازيون كلفينيين معتدلين ، متساهلين بالضرورة لاجتذاب التجار الاجانب ، وقد ساروا على آراء الراعي ارمينيوس الذي لم يكن متشدداً في موضوع القضاء السابق بالنسبة لمصير الانسان . ولم يبق في هولندا وزيلندا اشراف قط : سبعة في هولندا وواحد في زيلندا . أما الفلاحون ، وهم بنسبة واحد لاثنين من أهل المدن ، فلم يتمتعوا باي حق سياسي . وتكونت في المدن طبقة كادحة من البحارة والعمال والمتمرنين ، المحرومين كل حق ، استغلت اما استغلال ، وسارت على مبادىء الراعي « غومار » المتصلب وقاومت بعنف الاوليغارشية البورجوازية . وقددفعت هولندا ٥٥٪ من ضرائب الاتحاد ولكن نيرها كان ثقيلاً على الاشراف الفقراء في « غلدر » و « اوفر – ايسل » وزبائنهم شبه الاقطاعيين من الفلاحين ، وعلى ديموقراطيي اقليم «فريز» . وهكذا فان الصراع الطبقي قد تفاقم أمره في كل مكان .

٣ – ازمة الدولة

كانت الثورة كامنة في كل مكان لا بل انها اعلنت اكثر من مرة . لذلك فان الحرب الاهلية كانت شبه مستمرة ، خامدة احياناً ومستمرة اخرى .

المثل الفرنسي
ثورات الفلاحين والعمال

في فرنسا خاض الملك صراعاً دائماً لاجل الاستقلال ضد محاولات آل هبسبورغ المتكررة لبسط هيمنتهم فاوقعه ذلك في العجز المالي . فالامكانات التي وفرها له الانتاج محدودة جداً ، والضريبة غير كافية ابداً ، والعجز مزمن وزيادة الضريبة ثقيلة الوطأة وبعيدة الاثر . لذلك ما عتمت الحقوق الاميرية ان غدت سبباً أو مبرراً او حجة لاندلاع الثورات .

ألفت ثورات الفلاحين سلسلة متصلة الحلقات . فلا تمر سنة الا وتندلع ثورة في احدى الولايات . ولكنها تزداد خطورة ويتسع ميدانها في بعض الاحيان . وبين السنة ١٦٣٦ والسنة ١٦٣٩ ، حين افضت الحرب المعلنة التي نهض بها ريشليو الى اثقال وطأة الحقوق الاميرية ، انفجرت هنا وهناك وهنالك حروب فلاحية حقيقية . وروي عن الفلاحين في بعض المناطق انهم كانوا يرعون الاعشاب ويتنقلون عراة وينتحرون ، وشكل « الرعاع » منهم في اقاليم « ميموسين » و « بواتو » و « انجوموا » زمراً من سبعة أو ثمانية آلاف رجل تنقض على جباة الضرائب وتمزق مأمور المساعدات اربا . وفي السنة ١٦٣٧ ، شقوا عصا الطاعة في غسكونيا و « بريغور » ، فتوجب تجنيد جيش لتأديبهم . ولكن ألفاً ومابقي رجل من بينهم آثروا الموت وراء المتاريس . وفي السنة ١٦٣٨ ، أدى فرض الضريبة على الملح ، في نورمانديا السفلى ،

الى اندلاع ثورة « الحفاة » . فقتل هؤلاء الفلاحون جباة اثقل الضرائب المباشرة وطأة ، اعني بها ضريبة الاقتطاع . وارادوا منع جمع كافة الضرائب التي فرضت بعد وفاة هنري الرابع .

وثار عمال المدن بدورهم ايضاً كلما ارتفع سعر الخبز وانتشرت البطالة وزيدت الضرائب . وتعددت الفتن بعد السنة ١٥٩٨ ، ثم تحولت ثورات في ليون في السنوات ١٦٢٣ و ١٦٢٩ و ١٦٣٣ و ١٦٤٢ ، وفي باريس في السنة ١٦٣٣ ، وفي روان في السنة ١٦٣٤ ، اذ قاد أحد الخرازين العمال الحبالين والوراقين وهجم معهم على « مكتب المزارع » وفي السنة ١٦٣٩ ، اذ هاجم عمال صناعة الاجواخ ، وعمال الصباغة ، بقيادة احد الساعتيين ، مأمور الرقابة على صباغة الأجواخ . فنقب الشعب المأمور بالمسامير وأرغم العجلات على ان تمر فوق جسمه ، ثم خربوا مكتب وزراء مال فرنسا ودخلوا عنوة مسكن « نقولا له تلييه » رئيس جباة ضريبة الملح .

وجملة القول ان الفتن بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٥٩ ، خلال حرب الثلاثين سنة حتى السنة ١٦٤٨ ، ثم خلال الحرب مع أسبانيا ، أكثر من ان تعد وتحصى .

وليست هذه الثورات حرباً يعلنها الفقراء على الاثرياء . فالاعتداء يتناول جباة الضرائب ، ولكنه قلما يستهدف القصور والدور البلدية ، واذا ما حدث ذلك ، فغالباً ما يكون المقصودون بعض حديثي النعمة من ضباط ورجال مال . ان ما استهدفته الثورات هو الادارة الاميرية . وما كانت لتصبح خطراً حقيقياً على الحكومة الا اذا اشتركت فيها الطبقات الاجتماعية الاخرى . وقد استطاع الملك على العموم اعادة النظام الى نصابه بسهولة بمقدار قيام قضاة المجالس التمثيلية وقضاة المحاكم ورؤساء دوائر العدل وغيرهم من المسؤولين بواجباتهم ، ووقوف قوى الامن بوجه الشعب وعزوف طبقة الاشراف عن الانضمام الى الفلاحين . ولكن جماهير من كل الطبقات اشتركت احياناً في اعمال العنف فاحدق الخطر اذ ذاك بالدولة .

ثورات الكبار
اهمية الروابط الاقطاعية

طالب « السيد » اخو الملك والامراء الملكيون ، ورثة التاج من بعده ، بان يشتركوا في الحكومة ويلعبوا الدور الاول في مجلس الملك ويتولوا السلطة في الولايات كحكام وراثيين وبالا يكون الملك سوى الاول او الرئيس بينهم ، وغالباً ما ثاروا على سلطة الملك المطلقة . ولكن ثوراتهم كانت تجر شيئاً فشيئاً الى اندلاع ثورات جماهير كثيرة من الفلاحين أحياناً . في هذا المجتمع ما زالت المشاعر الاقطاعية على حيويتها والروابط الشخصية بين انسان وانسان وروابط السيد بالفداوي على قوتها . وكان للامراء الملكيين والكبار زبائن كثر من الاشراف وعامة الشعب انتسبوا لهم ونذروالهم امانة كلية واخلاصاً مطلقاً وتابوا عنهم في المبارزات والمنازعات والمعارك والكلام والكتابة والدسيسة ، وتبعوهم في الضراء وسجنوا وقتلوا من اجلهم . وبالمقابلة ، وفر لهم السيد الغذاء واللباس احياناً ووضع فيهم ثقته وساعدهم ابداً على التقدم في المجتمع واوجد

لهم مراكز العمل وزوجهم ووضعهم تحت حمايته واخرجهم من السجون وضمّن المعاهدات التي عقدها مع الملك لانهاء الثورات شروطاً تحفظ لهم حقوقهم . وقد تقدمت هـــذه الواجبات المتبادلة على كل واجب آخر ، حتى واجب الطاعة للملك وخدمة الدولة . ولم يكن باستطاعة الملك نفسه ان يفرض سلطته الا بواسطة أمثال هؤلاء « المتفانين » وامثال هؤلاء « الطفيليين » من رجاله .

تمكن الامراء الملكيون والكبار من جمع الزبائن من حولهم بفضل الخدمات الجمة التي كانت في متناول يدهم : « السيد »، والملكة ، والامراء والاميرات، في بيوتهم واقطاعاتهم ، والامراء الملكيون والكبار كضباط كبار في بلاط الملك الذي تكاد تنحصر وظائفه الكبرى بالعائلات نفسها ، مما جعل بعضهم يخشون من ان لا يحيط الكبار الملك الا بالسلابين والقتلة . اضف الى ذلك ان الامراء والكبار كانوا حكام الولايات نفسها طيلة اجيال . فعاد اليهم حق تعيين حكام المدن وضباط الحصون وضباط الفرق والافواج وضباط عدليين وماليين كثيرين . وقد قامت في عدد من الولايات ، كنورمنديا فيما خص آل « لونجفيل » ولنغدوك فيما خص آل « مونمورنسي» روابط مصلحة وتفان بين الكبار والوف العائلات على اختلاف نسبها . وكانت الوف العائلات، ابا عن جد « مرتهنة » الكبار ، و « ملزمة » ، و « متفانية » ، تخدمهم قبل الملك نفسه .

وغالباً ما يحتل هؤلاء الاوفياء انفسهم منصب متعهدي الاملاك الملكية الذي فازوا به مع حق شغل الوظائف الملكية وتعيين الاسياد الذين يقضون بالعدل والضباط السيديين . فكسبوا بذلك نفوذاً على صغار الاشراف وبورجوازيي المدن الصغرى والفلاحين الذين يسمون وراء هذه الخدمات المختلفة الكثيرة حتى في قلب الارياف .

اتفاق الطبقات الاجتماعية على الدولة

كان لهؤلاء الاسياد اخيراً تأثير عظيم على فلاحيهم . فالروابط الاقطاعية تجمعهم ، وغالباً ما يشعر الفلاح شعور « الوفاء » و « التفاني » نحو سيده. ولا ينمو الحقد وروح العنف في قلب الفلاح الا اذا كان سيده رديئاً حقاً ؛ يضاف الى ذلك ان السيد يستطيع ، بواسطة ضباطه الذين ينظمون كل نشاط ، ان يجعل حياة فلاحيه مرضية أو ثقيلة لا تطاق . والسيد والفلاح من جهة ثانية مصالح مشتركة ضد الملك والادارة الاميريـــة . فالضريبة الملكية ترغم على حفظ الاجور دون مستواها في حـــال زوال الضريبة ؛ والضريبة الملكية تعرض للخطر ، في سنوات المحول ، جمع الدخول والفرائض واموال المزارعة . فكم من مرة اقدم الاشراف انفسهم على دعوة الفلاحين للثورة ضد جباة الضرائب ؟ والاسياد ، كما نعلم يحمون فلاحيهم ، ويتدخلون لاعفائهم من المكوس واعمال التسخير ، ويوزعون عليهم الاسلحة ابان الحروب الاهلية ، ويفرضون بمساعدتهم احترام المواشي والحصائد . ويندر ان يكون من مصلحة الفلاح مقاومة سيده في حين ان الجيوش الملكية ، كغيرها لا تعف عن الاستلاب والنهب وان الفلاح ، دون حماية ، متأكد من انه سيكون الضحية . لذلك تبع الفلاحون أسيادهم في اغلب الاحيان .

زد على ذلك من جهة ثانية ان كل ثورة كانت تمتد بسهولة بالنظر الى ان الحد لم يكن فاصلاً بين الطبقات الاجتماعية . فليس نادراً ان نرى في العائلة الواحدة افراداً قضاة وافراداً جنوداً ، وافراداً صاهروا التجار وافراداً صاهروا اعضاء المجالس التمثيلية ، وافراداً ارتقوا الى طبقة الاشراف وافراداً ما زالوا في طبقة عامة الشعب ، وقد ارتبط بعض التجار من علية الاشراف بروابط متعددة متشابكة متينة ، في عهد تميز بتنظيم عائلي قوي جمل عرف العلائق بين الحامي والمحمي ، بالاضافة الى ذلك ، من رابطة النسب ، دماً أو مصاهرة تمهداً بالخدمة من جهة اخرى مهما بلغ من بعد درجة النسب .

دور الضباط المجالس العليا والدستور

لم يطمئن الملك الى ضباطه انفسهم ، وقد اعتبر اعضاء المجالس العليا ولا سيما اعضاء المجالس التمثيلية انهم جد مغبونين باحداث الوظائف التي تقلل من قيمة مهامهم وشأنها وزيادات الضمانات التي الجأتهم الى قروض باهظة الفوائد . فهم قد ارهقوا برفع الضرائب كأصحاب دخول سنوية من الارض وبالضرائب غير المباشرة كمكلفين. فرفضوا من ثم توقيع البراءات الاميرية وشلوا عمل الملكية حتى اثناء الحروب ، وادعى مجلس باريس التمثيلي بانه وريث مجلس الملك السابق. واراد الاشتغال بصورة بديهية بالامور السياسية، ودعوة الامراء الملكيين والدوقة والامراء وضباط التاج للتداول في شؤون الدولة ، كما حاول ذلك ، دون جدوى ، في السنة ١٦١٥ والسنة ١٦٤٨ . وكان ادعاؤهم هذا بمثابة اعادة تشكيل مجلس الملك السابق وجمعية الاقطاعيين ؛ كما ان القول مبدئياً بحقهم في الاجتماع بمطلق ارادتهم واتخاذ المقررات الشرعية ، كان بمثابة اقامة ملكية تقيدها الارستوقراطية ، في حال ان الملك قد أراد لنفسه ان يكون مطلق الصلاحية وشعبياً .

وادعى مجلس القضاء لنفسه ، في السياسة والتشريع ، بالتمتع بسلطة مستقلة عن الملك وبالعمل تلقائياً بمبادرته الخاصة وللتشاور بمعزل عن اي رأي آخر وفرض مقرراته . وقد أراد جمع ضباط الملك الآخرين للوقوف على شؤون الدولة المختلفة (قرار الاتحاد، في ١٣ نوار ١٦٤٨). وحاول هذا المجلس اعادة النظر ، وحده ، في البراءات المقرة في حضرة الملك ، وذلك في الاجتماعات القضائية التي أعادت مجلس الملك السابق ، وقد حور أو الغى بقراراته براءات أو بنوداً من براءات اقرت في هذه الاجتماعات . ولم يسلّم بالاجتماع القضائي في حضرة الملك الا اذا كان حضور الملك بمثابة زيارة يقوم بها لاستطلاع آراء المجلس في موضوع سياسي عام . وقد اعلن ان في حضور الملك انتهاكاً لحرية التصويت ، وادعى لنفسه حق التشاور واقرار البراءات والاوامر بمعزل عن الملك .

الدعوة التلقائية لممثلي المملكة ، والاطلاع على كافة الشؤون ، والشرائع المسنونة بمعزل عن الملك ، كل ذلك كان بمثابة اقامة جمعية منفصلة عن الملك تتمتع بالسلطة التشريعية وبحق رقابة السلطة التنفيذية ، وبمثابة محاولة اولى للفصل بين السلطات المختلفة . فسار المجلس ، بذلك الى

ملكية مقيدة ، لا بل مهد الطريق أمام الجمهورية . وجاء عمله متنافياً وكيان الملكية بالذات التي الف الملك والمملكة في نظرها كلا لا يتجزأ . فحضور الملك لم يكن انتهاكاً لرأي اعضاء المجلس الملكي ، لأن المجلس ، الذي يمثل المملكة ، لم يكن ليوجد بدون الملك . وكان الملك يستجمع الآراء بواسطة مستشاره ولكنه يستخلص بنفسه بعد ذلك حقيقة رغبة المجلس ويتبناها كما لو كانت صادرة عنه . وكان ممكناً ان تختلف هذه الرغبة عن الرغبات المعلنة ، فيبقى للملك الحق آنذاك في اتخاذ قرار نهائي يعارض اغلبية الآراء . فكان موقف المجلس التمثيلي من ثم موقفاً ثورياً . وكان انقلاباً ، وفصلاً مصمماً بين عنصرين متحدين في الواقع يتكاملان ولا يتجزآن ، الملك والمملكة ، الملك والامة . وكان بالتالي رفضاً للملكية .

المجالس العليا وثورتها الرجعية

ولكن هذه الثورة السياسية وسيلة دوام اجتماعي . ولم يستهدف عمل المجلس التمثيلي سوى المحافظة على اوضاع أعضائه الراهنة وأوضاع أنسبائهم وحلفائهم ، وأوضاع امثاله ، وأوضاع متولي الوظائف والاقطاعات ، في وجه ثورة اخرى مركزية تقول بالمساواة الى حد ما ، هي ثورة الملكية المطلقة . فالمجلس التمثيلي انما قاوم محاولة احلال المفوض محل الضابط ومجلس الملك محل المجالس العليا والوكيل محل مختلف الهيئات القضائية والمالية . وانكر على مجلس الملك وحده ، في غياب الملك ، حق التصرف وكأنه كتيبة المملكة الاولى ، وحق ابطال كل قرار يصدر عن المجالس التمثيلية ويتعارض مع السلطة الملكية والمنفعة العامة . وطالب بالغاء وظائف الوكلاء الذين لم يكتفوا بالنظر في الشؤون الطارئة قبل احالتها الى القضاة العاديين بل بتوا بالامور الجوهرية بانفسهم بتفويض من مجلس الملك واقصوا كثيرين عن وظائفهم ، اولئك الوكلاء الذين زاولوا وظائف ضباط المال وخزنة فرنسا و « المختارين » وغيرهم . وطالب المجلس التمثيلي بان يعود الضباط الى ممارسة مهامهم وان لا يحرموا وظائفهم بناء على مجرد أمر ملكي بل بموجب حكم قضائي كما تقضي بذلك الانظمة . فكان الموضوع من ثم معرفة من سيتولى ادارة المملكة : موظفون ملكيون يعينون ويعزلون عند الحاجة ويعملون باسم السلامة العامة وسياسة الدولة العليا في سبيل خدمة مصلحة الملك التي لا تختلف عن مصالح الدولة العامة ، ام هيئات من الضباط تعود لهم ملكية وظائفهم ، لا ينقادون من ثم بسهولة ولا يعزلون عملياً ، يهتمون للمصالح التي يمثلونها فوق اهتمامهم للمنفعة العامة ، ويملكون وظائفهم واقطاعاتهم بالوراثة ويتمتعون بكافة سلطات السيد ، ويرتبطون باواصر النسب او المحالفات باشراف الجندية ، ويغدون قوى اقليمية أو محلية ، ويمثلون الاقاليم والمصالح الخاصة في وجه الملك فوق تمثيلهم الملك امام المصالح الخاصة والاقاليم .

وقد توفرت للمجلس التمثيلي وسيلة ممتازة للعمل : الاعتراض على الضرائب واقناع الفرنسيين بانهم يدفعون رسوماً باهظة غير عادلة لمجرد مجد الملك ومجرد بذخ البلاط ، بينما تعرض مطامع آل هبسبورغ في السيطرة الشاملة للخطر وجود الدولة بالذات وبينما يفتقر البلاط البائس الى

المال الضروري لتأمين غذائه . وكان من شأن ذلك حمل الجماهير على التعلق العاطفي بالمجالس التمثيلية وعلى احترامها واجلالها . ويصح الكلام نفسه عن بورجوازيي المدن المثقلين بالرسوم والقروض الالزامية والاحتكارات التجارية واستيراد المصنوعات الاجنبية . يضاف الى ذلك ان أعضاء هذه المجالس كانوا ضباطاً لفرق الميليشيا البورجوازية وأسياداً ينعمون بملء السلطة على الفلاحين في أملاكهم . فقد حدث في باريس ، ابان « ثورة المرجام » ان استدعى الاسياد من البورجوازيين الباريسيين فلاحي « سانتوان » وقرى اخرى فلبوا الدعوة وحاربوا في صفوف بورجوازيي العاصمة .

الدور الثوري للحزب البروتستانتي .

ان التنظيم السياسي للحزب قد اعطى اسياده وبلدياته قوة نادرة . منحت براءة « نانت » البروتستانت مراكز سلامة وحاميات عسكرية . ولكن البروتستانت لم يكتفوا بما منحتهم اياه البراءة فأسسوا ، بالاضافة الى ذلك ، جمعيات اقليمية وجمعية عامة . وكانوا قد قسموا فرنسا ثمانية قطاعات عسكرية ، كما كان على رأسهم قائد عام ، ومثلهم سفير في البلاط الملكي . فألفوا من ثم دولة داخل الدولة وجعلوا من فرنسا اتحاداً مؤلفاً من دولة كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وشعبين مختلفين لا يجمع بينهما سوى الخضوع لملك واحد ، وثنوية سياسية .الا ان هذا المفهوم الاتحادي الذي كان في صميم الحركات الارستوقراطية « الاقطاعية » ايضاً ، لم يكن ليتفق وحاجات الدولة . فاستفاد الاسياد البروتستانت منه للانضمام الى كل حركة ينهض بها « الكبار » وثاروا كلما كان الملك بحاجة الى السلم الداخلي ابان صراعه مع الاجنبي .

الثورات العامة

وقام في بعض الفترات اتحاد يستهدف مقاومة الملك و « أوفيائه » ضم الاشراف والضباط وجماهير المدن والفلاحين . فكان كافياً ان يعطي أحد الامراء الملكيين الاشارة المتفق عليها حتى تندلع الثورة وتشعل نيرانها تدريجياً ولايات كاملة . فيدعو الاشراف آنذاك الفلاحين لحمل السلاح وتعطي المجالس التمثيلية المثل فتفتح الاهراء التي يجمع فيها الوكلاء الحنطة للجيش « دوفينه » ، ١٦٣٠) وخزائن الملك ليستولوا منها بانفسهم على مرتباتهم المحجوزة للحاجات العسكرية (تولوز ، ١٦٣٠) وتشجع اعمال الفوضى وتتقاعس عن الوشاية بالثائرين وتقاوم التدابير المتخذة بحقهم وتتغاضى عن اعمال الجماهير اذا لم تتعرض الا للضباط الملكيين وممتلكاتهم لا لاملاك رعايا الملك الآخرين .

أما هذه الفترات فهي فترات القصور الشرعي في الدرجة الاولى، قصور لويس الثالث عشر، وقصور لويس الرابع عشر.وتبدو الروابط السياسية وكأنها تتحطم تحطيماً خلال هذه المراحل فيشق العديد من الرعايا عصا الطاعة ويتحصن العديد من الاشراف وعامة الشعب في مساكنهم ويؤلفون الزمر ويهاجون ويستلبون ، كما لو كانت تعهداتهم محصورة في شخص الملك الراحل وكما لو كانوا غير ملزمين باي واجب نحو خلفه القاصر ، وكما لو لم يعد هناك لا دولة ولا قانون بعد

وفاة الملك . فتسنح الفرصة المؤاتية لمطالبات الامراء الملكيين . ثم ان هذه الفترات هي سنوات المحول والمجاعات ايضاً أو فترات الحروب ، حين تغدو الادارة الاميرية ثقيلة الوطأة وحين لا ينقطع حبل الدسائس الاجنبية لاستمالة الامراء الملكيين . ويبدو حينـذاك ان الروح الوطنية تفسد ويفسد مفهومها . فعملاً بالرأي القديم القائل بان لصاحب الاخـاذة حق انتخاب سيده ، نرى « غاستون دورليان » و « وسنك مارس » و « كونده » يتفقون وملك اسبانيا . ويلفت النظر ان المجلس التمثيلي والضباط الآخرين والبورجوازيين والشعب باجمعه ينسون العـــدو الخارجي . وتتسابق الولايات والمدن على اعلان الثورة . فيبدو الملك وكأنه لم يعد سوى سيد لا يقوى على المقاومة الا بفضل بعض المخلصين ، وبعض العسكريين الاوفياء الذين يحتفظون له ببعض الكتائب، وانشقاقات الامراء الثائرين . وتعلق مصير المملكة مراراً عدة بمصـــادفات المعارك . فقد احرز النصر في معركة « لنس » (١٦٤٨) على اسبانيا مثلاً ولكن لا يستطيع أحد التكهن ، في ثورة المرجام الناشئة هذه ، بالاحداث الممكنة لو تحولت هـذه المعركة الى هزيمة . فان ما نرجحه نحن هو تجزئة المملكة وزوال فرنسا .

المثال الانكليزي
الدولة على الفردية البورجوازية

أما في انكلترا ، ففي عهد جاك الاول (١٦٠٣ – ١٦٢٥) ، وعهد شارل الأول حتى الحرب الاهلية ، وعهد جاك الثاني بين السنة ١٦٨٥ والسنة ١٦٨٨ ، نرى كل المتضررين بنظام تسييج الاراضي يثورون دونما انقطاع على نتائج الرأسمالية . والصورة النموذجية لهذه الاضطرابات هي ثورة السنة ١٦٠٧ في « مدلاندس » فقد أقدم الالوف من الرجـــال والنساء والأولاد والعمال الزراعيين وصغار الفلاحين الذين أفقرهم زوال طرائق الزراعـــة التقليدية والصناعيين اليدويين والقصابين والحدادين والنجارين والبنائين الذين أفقرهم نزوح السكان عن القرى ، على مهاجمة جدران صيانة المراعي وتقطيع الأسيجـــة الشائكة وسدّ الخنادق . وقد قدم لهم السكان الأغذية الضرورية . ولكن هذه الحركات التي تستهدف الاشراف الريفيين الذين يسيجون أملاكهم لا تشكل خطراً على الملك الا لانها تحرج موقفه امام الرأسماليين . فالملك يميـــل بالتفضيل الى الثائرين . والدليل على ذلك ان التحقيقات الملكية في الحوادث الثورية لا تنتهي غالباً الى نتيجة والمحاكم الملكية تدين المالكين الذين يغالون في التسييج او في رفع الضرائب . وقـــد حافظ الملكان الاولان من سلالة « ستوارت » دون اي تغيير ، على مفهوم المجتمـــع : جسم منظم متسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وتضمن بالمقابلة نمطاً حياتيـــاً يتناسب ومرتبتها . تلك موجبات روحية يفرضها الله . ويتوجب على الدولة ، التي هي تعبير زمني لهذه الموجبات الروحية ، ارغام المجموع على احترام ارادة الله والحرص على ان يؤمن لكل فرد مـــا يحتاج اليه في معيشته فقط . وجليّ ان هذا الدور السامي الذي تلعبه الدولة يؤدي الى السلطة الملكية المطلقة . فحاول الملوك من آل ستوارت ان يحتفظوا لانفسهم بالسلطـــة التشريعية

والصلاحيات القضائية الخاصة وحق جميع الضرائب دون موافقـــة الرعايا وجيش دائم يخلص لهم الوفاء .

تقدم الفردية البورجوازية

الا انهم اصطدموا بالمتشددين البوريتـانيين من البروتستانت . فقاومهم التجار المتشددون الذين منوا بخسائر مالية بفعـــل الاحتـكارات الممنوحة لرجال البطانة الملكية ، والدائنون المتشددون ، من رجـــال كنيسة أو أسياد الذين تعاقبهم المحكمة الكنسية العليا بسبب مراباتهم والذين يسخرون من تدخل الاساقفة في الشؤون الزمنية ، والجواخون المتشددون الذين يشكون من ايفاد المفوضين الملكيين لمراقبة الصناعة والاسعار ، والاشراف الريفيون المتشددون الذين تبرمهم اللجان بسبب نزوح السكان عن الارياف ، ولكنهم ناقمون على قرارات الندوة المكوكبة والدائرة القضائية في المجلس .

فقد ولى الزمان الذي كان الملك فيه يجسد المثـــل القومي ، وبات باستطاعة الطبقات المتنافسة ان تتألب عليه . والمجتمع الذي يحيط به بات مجتمعاً بورجوازي العادات والميـول . فتجار الشركات التجارية البحرية الكبرى يستخدمون اشقاء الاشراف الريفيين وابناء الاثرياء البورجوازيين على السواء . ويزاول بعض النبلاء التجارة الكبرى . وينتج كبـــار الملاكين الارستوقراطيين وصغار الاشراف للتصدير المباشر وللصناعة على السواء . وغالباً ما يكون العمال المتمرنون في لندن ابناء اسياد عقاريين . فتتحقق بذلك الوحدة بين المدن والارياف . في مدرسة القرية وفي مدرسة المدينة التجارية القريبة ، يجلس ابناء العائلات المسيطرة في المقاطعة على مقاعد واحدة الى جانب ابناء المزارعين والتجار والصناعيين اليدويين . وليس نادراً ان يتزوج ابناء الاسياد العقاريين الذين لم يخدمهم الحظ من بنات الاسياد العقاريين الاثرياء . ويقبل في طبقة صغار الاشراف اولاد ابناء التجار وابناء كبـار الملاكين الذين يتزوجون من بنات الاسياد العقاريين . اضف الى ذلك أخيراً ان الروح البوريتانية المتشددة ، وهي في جوهرهـــا ذاك الشعور الداخلي بان المسيح يحبني وبانني احب المسيح ، تملأ قلوب افراد ينتمون الى كافـــة الطبقات وتجمع بين طبقات مختلفة في احترام تطيري للشخص البشري الذي يسيره عمل الله ، وفي الوقوف موقفاً حذراً من السلطات والنظم التي تستطيـع الحد من حريته ، وفي مقت السلطة المطلقة .

الاختلاف الدستوري

ان وجود هيئة تمثل الانكليز الميسورين ، ونعني بها المجلس ، قد أتاحت لهذه المناجم ان تتصادم في صراع كان في البـــداية دستوريا . اختلف المجلس مع الملك ومعاونيه . فاعاد اصول « المنع ». فاشتكى مجلس العموم الى مجلس اللوردات واستصدر حكماً على المستفيدين من الاحتكارات الملكية اولا ثم عـــلى مستشاري الملك ، اللورد – المستشار « بيكون » (١٦٢١) واللورد – الخازن « سترافورد » (١٦٢٤) و «لود» (١٦٤٠) . واعلن المجلس مرة اخرى حق الانكليز في الامتناع عن دفع ضرائب لا يسلم بها

ممثلوهم وكافة الحقوق التي كان معترفاً لهم بها عنـد بدء ولاية هنري السابع (عريضة المطالبة بالحقوق ، ١٦٢٨) وحاول تأمين دوريته (١٦٤١) ، وتوسيع حقوق الانكليز بحيث تشمل الضرائب الغير مباشرة نفسها،والغى الندوة المكوكبة والمحكمة الكنسية العليا (١٦٤١) وحرر المالك الرأسمالي . ويتضح من ذلك ان الانكليزحاولوا من ثم ان يحلوا محل ملكية مطلقة تسعى الى تحقيق التوازن بين الطبقات الاجتماعية ملكية يقيدها ممثلو النزعات الرأسمالية المزودون بالسلطة التشريعية وبحق الرقابة على السلطة التنفيذية والادارة المحلية ، ودولة تسند اليها مصالح الطبقات البورجوازية ومن ينتسب اليها . وقـد بلغ من بعد وجهات النظر بين الملك والمجلس التمثيلي ان الحرب الاهلية قد اندلعت في السنة ١٦٤٢ وان القرن قد قدر له ان يشهد ثورتين (١٦٤٠ - ١٦٦٠ ، ١٦٨٥ - ١٦٨٨) .

المثال الهولندي

في الاقاليم المتحدة، بقيت السلطة المركزية متميزة بضعفها. والاقاليم المتحدة اتحاد مؤلف من سبع ولايات حافظت على حقوقها في السيادة . اجهزتهـا المشتركة الهامة هي مجالس الطبقات ومجلس الدولة الذي يشترك فيه مندوبو الولايات بصفةسفراء حقيقيين حافظت كل ولاية على ضرائبها وجيشها واسطولها وقائدها العسكري المسؤول عـن النظام ومجلس الطبقات ومجلسها الخاص . ولا بد من اجمـاع رأي الولايات . وفي سبيل ذلك يراجع مندوبو مجلس الطبقات مندوبي المجالس الاقليمية الذين يراجعون بدورهم منتخبيهم . فنحن هنا امام استفتاء دائم يتطلب اقناع كل مدينة في كل ولاية ؛ وفي كل مدينـة الحكام المسؤولين عنها . ويجب الحصول على موافقة ١٢٠٠ شخص تقريباً قبل التوصل الى اتخاذ قرار . وهـذا لعمري وضع يقارب الشلل .

أما الذهنية فتتميز بالاثرة . فالبورجوازيون يسيطرون في مجالس هولنـدا وزيلندا و « اوترخت » و « فريز » و « غرونتنغ » وبين المندوبين الى مجلس الطبقات.أما طبقة الاشراف فلا تسيطر الا في « غلدر » و « اوفرايسل » . ولكن هؤلاء البورجوازيين حديثو النعمة تسترهم ذهنية المدينة الصغرى والانانية التجـارية الضيقة . فاستحال تفاهمهم واتفاقهم حتى في زمن الحرب . وقد رغب الهولنديون في العمل على الانهر ، على مصب نهر اسكو ، بغية افقـار « انفرس » ، ورغبت « غلدر » في العمل على الرين لاقفال ابواب الاتحاد في وجه الاعداء . أما امستردام فقد باعت الذخائر والبارود والقنابل لاعداء الاقاليم المتحدة ، للاسبانيين اولاً ، ثم لويس الرابع عشر في عهد متأخر .

ان واجب العيش قد انمى قوتين وحدويتين متعارضتين . فقد قدمت عائـلة « اورانج » للاتحاد قادته العسكريين الذين جعلتهم حاجات الحرب يميلون الى حكومـة ملكية . كما ان الخدمات التي اداها امير اورانج قد فرضته قائداً عسكرياً مسؤولاً عن النظام في خمس أو ست ولايات . ووقع الاختيار في ولايات اخرى على احد افراد العائلة . وقد مثل امير اورانـج

الدفاع القومي ، ومن ثم فكرة الوحدة . واستند الى طبقة الاشراف في غلدر و « اوفرايسل » التي كانت اقل تعلقاً من البورجوازيين بالمصالح المادية والشؤون المحلية ، ولكنه استمال كذلك جميع اعداء البورجوازية الرأسمالية ، اي الفلاحين والعمال والبحارة والجيش .

أما البورجوازية الهولندية المجسدة برئيس سلطتها التنفيذية ، والقديمة بتجارتها العالمية والنافذة بجامعتها في ليدن ، فقد سارت على برنامج اوليفارشي يحتقر الفقراء ، والاشراف في عدادهم ، وبرنامجاً جمهورياً صممته ضد الملكية التي اعتبرتها غير منطقية وبدائية ومتسمة بطابع الاستبداد العسكري ، وفي كلا البرنامجين انتقام تقدم عليه طبقة لم تعد لتحظى بمركز مرموق في الاقتصاد وفي المجتمع . وقد أراد البورجوازيون الهولنديون تحقيق وحدة الوطن المشترك بهيمنة ولاية هولندا التي كانت أوسع الولايات ثروة واعظمها نشاطاً واشدها حزماً واعمقها ثقافة . وعلى رئيس السلطة التنفيذية في هولندا ان يلعب ما يشبه دور رئيس الجمهورية الاتحادية للاقاليم المتحدة .

ادى هذا الوضع الى قيام نزاع دائم بين رئيس السلطة التنفيذية والقائد العسكري المسؤول عن النظام رافقته ازمات حادة تقابل فيها « اولدنبرنفلت » و « موريس دي ناسو » ، و « جان دي فيت » و « غليوم دورانج » . فكانت الغلبة للقائد العسكري في فترات الحرب ولرئيس السلطة التنفيذية في فترات السلام ؛ للاول حين تتأزم العلائق الخارجية وحين يكون النزاع المسلح أمراً مرغوباً فيه ؛ وللثاني حين يرغم العياء على طلب التهدئة . وقد اتخذ النزاع طابعاً دينياً بين البورجوازية الارمينية وبين الاشراف وافراد الشعب الغوماريين .

ان هذه الدولة المتمزقة تبدو للمراقبين الاجانب وكأنها مسخ غريب الخلقة .

وهكذا تبدو الدولة في كل مكان ناقصة غير مكتملة .

٤ ــ الازمة السياسية الدولية

تخلت اوروبا شيئاً فشيئاً عن حلم الجمهورية المسيحية والوحدة الدينية الكاثوليكية والوحدة السياسية للامبراطورية – المقدسة الرومانية كما ان دولاً « عصرية » مستقلة وسيدة ومستقرة وخاضعة لنظام اقليمي وانظمة سياسية ثابتة اتجهت فيها الوحدة والمركزية ، بصرف النظر عن كل اعتبار ، الى التغلب على الاثرة المحلية الخاصة والتجزئة والبلبلة ، قد سارت قدماً في اثبات كيانها ووجودها . وقد صممت كلها كذلك على اثبات قوتها ، فتصادمت في محاولاتها التوسعية والتسلطية .

خطر آل هبسبورغ

وكانت اخطر هذه المحاولات محاولة سلالة هبسبورغ ، هبسبورغ اسبانيا وهبسبورغ النمسا . اما الفرع النمساوي ، وقد أسسه فردينان ، شقيق

« شارل الخامس » الثاني ، فقد سيطر على ممتلكات اقليمية واسعة الاطراف : النمسا العليا والسفلى التي تسيطر على مجرى الدانوب الأوسط قبل « فيينا » وبعدها ، وامارات « ستيريا » و « كارنتيا » و « كرنيول » و « تيرول » ، ومملكة « بوهيميا » ومملكة « هنغاريا » التي الفت قوة ضخمة داخل الامبراطورية وسوراً حصيناً لها في وجه الاتراك . وكان الجالس على العرش في فيينا من هذه الاسرة الحامي الطبيعي للمسيحية في وجه غير المؤمنين ، تلتف حوله المانيا كلها التفافاً تلقائياً حين يلوح الخطر التركي في الافق الشرقي .

الفوضى في الامبراطورية المقدسة

في الواقع ، اختير الامبراطور ابداً من سلالة هبسبورغ . ولكن الامبراطورية « شكل دولة غير منظمة اشبه ما تكون بالمسخ » . فالبلدان التي تحمل كلها اسم المانيا موزعة الى « امم » ناشطة مختلفة اللسان . وهي مقسمة الى « امارات ودول الامبراطورية – المقدسة » التي تفوق «الامم» عدداً والتي لا تقوم فيها اية رابطة بين « الامم » والكيانات السياسية . فهذه الكيانات المتداخلة تداخلاً غريباً مختلفة كل الاختلاف من حيث المساحة والشأن وشكل الحكومة : الدوقيات وولايات الحدود والكونتيات ورئاسات الاسقفيات والاسقفيات والاديرة والمدن الحرة والاملاك الصغرى الخاضعة لفرسان الامبراطورية . ولبلدان المانيا مجلس تمثيلي هو مجرد اجتماع سفراء . وينقسم المجلس التمثيلي الى ثلاث هيئات: هيئة المنتخبين وهيئة الامراء وهيئة المدن. وهو مصاب بالشلل عملياً. فالامبراطور هو وحده من يستطيع دعوته للاجتماع ، ولكن « لمنتخب ماينس » الرئيس» حق معارضة الدعوة ومنع ادخال المسائل التي يعرضها الامبراطور في جدول الاعمال. وباستطاعة الامبراطور من جهة اخرى التمنع عن نشر قانون اقره المجلس . ولكنه لا يستطيع حمله على اعادة النظر فيه . ويسود الرأي كذلك بان العضو الامبراطوري ليس ملزماً بالخضوع لقرار مشترك اذا لم يوافق هو عليه . ويمكن اخيراً ، في المواضيع الدينيسة ، ان ينحل المجلس التمثيلي دون ان يتوصل بعضه الى فرض قرار على البعض الآخر . وهذا الخواء العاجز هو ما أراد ابن سلالة هبسبورغ ان يجعل منه دولة .

محاولات الامبراطور التسلطية حرب الثلاثين سنة(١٦١٨ - ١٦٤٨)

استفاد الامبراطور فردينان الثاني، المنتخب في السنة ١٦١٩، من ثورة التشيك في بوهيميا الذين كانوا قد انتخبوا فردريك الخامس ، المنتخب البالاتيني ، لسحق التشيك في « الجبل الابيض » (١٦٢٠) . ففدت بوهيميا ملكا وراثيا لسلالة هبسبورغ واعادها اليسوعيون الى الكثلكة ثم فرضت عليها الحضارة الالمانية . وفي شهر كانون الثاني من السنة ١٦٢١ ، رسم فردينان باقصاء المنتخب البالاتيني عن الامبراطورية ، وهو تدبير يجر الى حجز ممتلكاته وسقوط حقه في الانتخاب . فتصرف الامبراطور بذلك تصرف السيد . وبالاضافة الى هذا نقل حق الانتخاب ، والبالاتينا العليا الى « مكسيميليان دي بافيير » الذي كان قد قدم له

جيشاً . فتصدعت من ثم المساواة في الاتحاد الانتخابي ، اذ اصبح الممثلون البروتستانت اثنين فقط (ساكس وبرندبورغ) مقابل اربعة من الممثلين الكاثوليك . وعبر الامبراطور ، وهو تلميذ اليسوعيين ، عن استعداده للقضاء على البروتستانتية في الامبراطورية . واخذ في تفسير « صلح اوغسبورغ » بوجهة النظر الكاثوليكية . واعتبر البند الذي حظر كل علمنة جديدة منذ السنة ١٥٥٢ بنداً مقبولاً شرعاً، بينما اعتبره البروتستانت لاغياً وباطلاً . وشرع الامبراطور في اعادة اراض معلمنة كثيرة للكنيسة الكاثوليكية . ورسم بحل الاتحاد البرتستانتي او الانجيلي . ونظم في أوائل السنة ١٦٢٥ جيشاً خاصاً به هو جيش القائد المأجور « والنستين » . وفي السنة ١٦٢٨ انتزع من دوقية مكلمبورغ املاكهم واراد ان ينشيء قوة بحرية . وفي السنة ١٦٢٩ ، فرض على الالمان براءة « الاعادة » التي قضت باعادة كل ما عُلمن منذ السنة ١٥٥٥ ووضعت هذه الممتلكات عملياً بتصرف الامبراطور ، فاحدثت حركة واسعة جداً في انتقال املاك البرتستانت الى الامراء الكاثوليك من ابناء الامبراطور او انسبائه او حلفائه واختلالا كبيراً جداً في ميزان القوى الراهنة . اضف الى ذلك ان شكل الوثيقة القانوني قد كان ثورة بحد ذاته . فلم تقترن اية وثيقة فيما سبق بقوة القانون الا بعد قرار يتخذه المجلس التمثيلي ويبرمه الامبراطور . ولم يسبق للامبراطور ان اتخذ اي قرار يتناول الامبراطورية بأجمعها الا بعد اتفاق مسبق مع مجموع المقترعين . وها نحن نرى الامبراطور ، بعد ان تجاوز حد السلطة في السنة ١٦٢١ ، يقدم مرة اخرى ، بوثيقة شخصية ، اقرار تبديل عميق في وضع ملكية الاراضي الامبراطورية ، فبات له « التحفظ الكنسي » قوة القانون . وبدا الامبراطور وكأنه مصمم على الاستغناء عن المجلس التمثيلي والاتحاد الانتخابي معاً . وسنراه ينفذ مقرراته بواسطة جيشه الخاص ، جيش « والنستين » . فغدت السلطة الامبراطورية سلطة ملكية مطلقة ، وغدا الامبراطور خطراً اشد تهديداً لاوروبا .

هبسبورغ النمسا وهبسبورغ اسبانيا : السيطرة على الطرق العسكرية والبحرية

وزاد في شدة الخطر ان عمل الامبراطور وعمل هبسبورغ اسبانيا كانا مرتبطين ، وان التسلطين تبادلا مد يد المساعدة. وبقي فرعا السلالتين متحالفين بالمصاهرات . ودرج اشقاء الابكار في العائلات النمساوية على البحث عن الثروة في بلاط اسبانيا . ومنذ السنة ١٦١٧ ، عقد اتفاق وضعت بموجبه الاسس لتحالف وثيق ، كانت اسبانيا آنذاك في حالة حرب مع جمهورية الاقاليم - المتحدة المؤلفة من رعاياها السابقين الثائرين . توقفت الاعمال الحربية في السنة ١٦٠٩ بهدنة الاثنتي عشرة سنة ، ثم تجددت في السنة ١٦٢١ . فكان من الضرورة بمكان لاسبانيا ، التي لم تكن سيدة البحار ، ان تؤمن نقل جيوشها من منطقة ميلانو الى لوكسمبورغ . فاجاز ملك اسبانيا للقائد « سبينولا » ان ينتزع حصون البالاتينا الرينانية عنوة من فردريك الخامس . ومكن المال الاسباني من احراز النصر في الجبل - الابيض . أما السفير الاسباني فقد دفع فردينان الى اتخاذ هذه التدابير بحق البالاتيني لأن من شأنها اطالة الحرب وتوسيعها . وفي السنة

١٦٢٠ ، استفاد حاكم ميلانو من ثورة كاثوليك « فالتلين » ، رعايا « الاحلاف الغبراء» ليحتل الوادي والممرات الالبية ، بينما قام فرد آخر من آل هبسبورغ ، هو ارشيدوق « انسبروك » بالاستيلاء على « انغادين » على المنحدر الآخر من جبال الالب . فاتيح اذ ذاك للجيوش الاسبانية في مقاطعة ميلانو ، والجيوش النمساوية في مقاطعة تيرول ، القيام باعمال عسكرية مشتركة عن طريق « مالويا » و « انغادين » و « ستلفيو » . وفي السنة ١٦٢٧ ، أرسل فردينان جيوشاً الى ايطاليا العليا ، وفي السنة ١٦٢١ ، قرر فيليب الرابع و « اوليفاريس » المقرب اليه العودة إلى سياسة فيليب الثاني ، وهي سياسة كاثوليكية تهدف الى تحقيق الهيمنة الاسبانية واجهت في الدرجة الاولى واجب سحق مقاومة « الاقاليم – المتحدة » . وكان اوليفاريس بحاجة ، في سبيل ذلك ، لأن تطول الحرب في المانيا . فالحرب تتيح له اقامة حاميات اسبانية في البالاتينا ؛ وهو كان مصمماً على احتلال بعض المواقع في الزاس وتأمين مرور الجيوش الاسبانية بين « فرانش – كونتيه » وهولندا عن طريق « سندغو » و « بريزاخ » وضفة الرين اليمني و « فيليبسبورغ » و « سبير » و « ماينس » واقليم « تريف » ولوكسمبورغ ، او بين ميلانو وهولندا عن طريق « فالتلين » وبحيرة « كنستانس » والمدن « الحرجية » (« والدشوت » و « ساكنجن» و « رينغلدن ») وفريبورغ (في بريسغو) وضفة الرين اليمنى. ثم أدرك اوليفاريس ، بعد السنة ١٦٢٥ ، ان ما يؤمن سلامة الاقاليم – المتحدة هو اسطول هولندا الحربي والسيطرة على البحار الشمالية . فكان لا بد من ثم ، لطرد المراكب الهولندية من هذه البحار من ان تتمكن الاساطيل الاسبانية من دخول مرافىء الشواطىء الالمانية لتؤمن التموين والاحتماء فيها . وكان لا بد كذلك من ان يحتل الامبراطور دائرتي وستفاليا وساكس – السفلى . والى هذا ترد عمليات والنستين العسكرية في السنة ١٦٢٧ ، والانعام عليه بلقبي « قائد البحار الاوقيانوسية والبلطيكية » و « دوق مكلمبورغ » في السنة ١٦٢٨ .

المعضلة البلطيكية

جاءت هذه المطامع تعاكس مطامع ملوك آخرين وتهدد بالخطر استقلال ممالكهم . ويأتي بين هؤلاء ، في الدرجة الاولى ، ملك الدانمرك « كريستيان » الرابع ، دوق « هولستين » ، وبالتالي احد امراء الامبراطورية ، الذي كان يجلس ويقترع في المجلس التمثيلي ، وهو احد أعظم الأمراء شأناً في دائرة « ساكس – السفلى » . وكان ابنه الثاني قيماً على اسقفيتي « فردن » و « هالبرستات » بين مجرى « الفيزر » الاسفل ومجرى الالب ، وخلفا مقرراً لاسقفي « بريمن » و « اوسنابروك » . وقد راقب ملك الدانمارك ، بفضل الرسوم الباهظة التي استوفاها ممثلوه في جمارك « السنور » ، تجارة البلطيك من خروج الحبوب والاخشاب من بولونيا وبروسيا ودخول المواد الغذائية و « المصنوعات » التي تستوردها المانيا الشمالية والشرقية من اوروبا الغربية . وكان مصمماً كذلك على ان يراقب بواسطة « بريمن » و « فردن » ، تجارة كل من الألب والفيزر وتموين الشطر الاكبر من السهل الالماني ايضاً ، فتوصل ، باستغلاله تجارة الآخرين عن طريق الجمارك ، الى مضاعفة مداخيله ،

ومضاعفة قوته بالفعل نفسه . وكان عمله هذا نوعاً من التسلط الجركي . ولكن وسائله العسكرية كانت محدودة جداً . لذلك فقد افل نجمه منذ السنة ١٦٢٩ (صلح « لوبك ») .

ومنذ السنة ١٦١١ ، حارب ملك اسوج « غوستاف – ادولف » قيصر « موسكوفيا » وملك بولونيا ، فاعطاه صلح السنة ١٦١٧ « كاريليا » و « انغريا » واستونيا الى الجنوب من فنلندا الاسوجية . وكان في نيته أن يبسط سيطرته الشخصية على الشواطىء الالمانية على بحر البلطيك ويضمن فوز البروتستانتية بجمع كافة الأمراء البروتستانت الالمان . وقد طمع هو ايضاً في نقاط الجمارك المثمرة في مرافىء البلطيك الالمانية . اضف الى ذلك أنه اعتبر اقامة ملوك آل هبسبورغ على الشاطىء البلطيكي خطراً يهدد اسوج .

المعضلة اللوتارنجية

امتدت الى الغرب والجنوب ، بين الدول الكبرى في اوروبا الغربية ، وبين الامبراطورية ، منطقة غير واضحة المعالم كانت موضوع تنازع دائم . فالاقاليم المستقلة كانت قانوناً تحت سيادة ملك اسبانيا وعضواً من اعضاء الامبراطورية المقدسة في دائرة بورغونيا في آن واحد . ولكن نصوص هدنة الاثني عشرة سنة اقرت في السنة ١٦٠٩ باستقلالها المؤقت . ولم يكن الامر بالنسبة لبورجوازيي هذه الاقاليم قضية حرية فحسب ، بل قضية حياة أو موت أيضاً . فقد تحقق لهم الازدهار بالحصار المطبق على مرفأ انفرس . وبات لزاماً من ثم ان يبقى مرفأ انفرس مقفلاً اقفالاً نهائياً .

وما زالت الاقضية السويسرية مع حلفائها ورعاياها ، تابعة قانوناً للامبراطورية المقدسة . أما في الواقع فقد أمنت استقلالها عن النمسا . ولكن وضعها كان مكتنفاً بالصعوبات . فاذا هي عرفت كيف تفتح او تقفل الجازات الالبية وفاقا للظروف ومقابل مكاسب مضمونة ، فقد تعرضت لان تصبح هدف المعارك ولأن تحتل الجيوش الاسبانية او النمساوية أو الفرنسية الطرق المؤدية اليها . لذلك فان استقلالها كان رهناً بتوازن المنافسات الاجنبية حول الجازات .

وخضعت ايطاليا لسيطرة ملوك اسبانيا من آل هبسبورغ الذين امتلكوا فيها « صقليا » و « نابولي » ، وهما مصدر تموين شبه الجزيرة الايبيرية بالحنطة ، وراقبوا ، بواسطة « سردينيا » جزيرة « البابا » والحصون التوسكانية (« اوربتيلو و « بيومبينو » و بورتو – اركولي ») وطريق نقل الجيوش بحراً بمحاذاة شواطىء ايطاليا الوسطى ، وسيطروا ، بواسطة دوقية ميلانو ، على سهل البو ومنافذ الطرق الالبية الرئيسية ، واستخدموا جمهورية جنوى لانزال الجيوش المرسلة الى مقاطعة ميلانو .

الخطر يهدد فرنسا

بات النزاع ، في هذه المنطقة الوسطى ، امراً محتوماً بين فرنسا وآل هبسبورغ . فقد احاطت بفرنسا ممتلكات ملك اسبانيا . وكان باستطاعة الجيوش الاسبانية المنتقلة ، على مقربة من حدودها ، من منطقة ميلانو الى فرانش – كونتيه ، ومن فرانش – كونتيه الى هولندا ، عن طريق الالزاس والبالاتينا،ان تحتشد وتهاجم «ابواب»

فرنسا . كما كان يمكنه ملك اسبانيا، بعد احراز النصر على الاقاليم المتحدة ، ان يرتد على فرنسا. ففدا ضرب الطريق العسكرية المؤدية من اسبانيا الى ايطاليا الشمالية ، الى فالتلين ، الى الزاس ، ضرورة ملحة وحيوية . ولكن فرنسا ، اذا ما اقدمت على هـــذا الضرب ، تدخل في نزاع مسلح مع هبسبورغ النمسا .

القوميات

وضع الملوك نصب أعينهم أهدافاً موضوعية ، ولكنهم اضطروا في سياستهم ان يحسبوا حساباً لمشاعر الطبقات المثقفة . فقد طالب الالمان بكل البلدان الالمانية اللسان ، « جرمانيا العظمى » ، وحتى بغيرها . وهي دليـــل على وجود حركة قومية نادت بالوحدة الجرمانية الشاملة . فان « فيليب كلافيه » ، البروتستانتي الدانتزيغي،واستاذ الجغرافية السياسية في جامعة « ليدن » في السنة ١٦٢٩ ، قد نشر كتاب « المدخل الى الجغرافية العامة » الذي طبع اكثر من ست وعشرين مرة . وقد تطرق هذا الالماني بايجـــاز الى موضوع فرنسا . ولكنه استشهد بـ « بلين » و « قيصر » و « تاسيت » ليطالب ، بعد تأويلات شتى ، بالمانيا العظمى : الزاس ، لورين ، برابان ، غلدر ، هولنـدا ، منطقة دانتزيغ ، بروسيا ، بوهيميا ، « ليتونيا » ، سكندينافيا .

ولم يكن الفرنسيون دونه الحاحاً بالمطالبة . فان « جغرافياتهم » المنشورة بـــين السنتين ١٦٣١ و ١٦٤٦ قد شدّدت الكلام عن فرنسا الغاليّة وغذت الشعور بان حـدود فرنسا يجب ان تكون حدود غاليا القديمة .

حين تشرب باريس من مياه الرين تكون غاليا كلها قد بلغت حدودهـــا القصوى وضم « مسرح المناطق الغالية » ، المنشور في السنة ١٦٤٢ ، خريطة لاوروبا الفرنسية تمثـــل التوسع السلامي للكابيتين خلال القرون السابقة . وقد ورد تحت « لوحة للمناطق الغالية » : وصف جديد « للامبراطورية الفرنسية » تحت سيطرة الامبراطور لويس الثالث عشر العادل » .

القيصريات البحرية

وامتدت مطامع القيصريين الى البحار ايضاً . فطالب الهولنـديون ، وهم السباقون في الملاحة والتجـــارة ، بحرية البحار . وفي السنة ١٦٠٩ ، نشر « غروتيوس » كتابه « البحر الحر » الذي انطوى على ان لكل امة الحق في الاتصال الحر بكل الامم الاخرى والاتجار معها بحرية .أما الانكليز الذين دخلوا تدريجياً ميدان التنافس الاقتصادي ثم دخلوا في نزاع مسلح مع الهولنديين ، فقد عارضوا هـــذا المبدأ . وفي السنة ١٦٣٥ ، نشر « جون سلدن » كتابه « البحر المقفل » . ففي الوقت الذي اعلن فيـــه شارل الاول السيادة الملكية على البحار الاربعة المحيطة بالارخبيل البريطاني ، اعلن « سلدن » ان مبدأ حرية البحار لا ينطبق على البحار البريطانية حيث للملك الانكليزي حقوق سابقـة لحقوق الامم الاخرى .

الجيوش والحروب الزمنية

تحولت الحرب الالمانية اذن الى حرب عامة طويـــلة الامد . فالجيوش الالمانية لم تستطع التوصل الى نتائج حاسمة . يضاف الى ذلك ان تأليف

الجيش كان بحد ذاته مضاربة مالية . فالقائد كان يعقد مع الملك ، الذي يسند اليه القيادة، اتفاقاً يدعى امتيازاً ، ويستلم منه شهادة بذلك ، ثم يعقد الاتفاقات مع الزعماء العسكريين الذين يتفقون بدورهم مع الضباط . فيؤلف مجموع الضباط من ثم ما يشبه نقابة من الشركاء الذين يتقاسمون الخسائر والارباح . واذا كان القائد ممتلكاته ، شأن « والنستين » ، فانه يغترف منها الحبوب والاعلاف للجيش ، كما أن انواله تصنع له اجواخ الملابس العسكرية .

كانت اجور الجنود ضئيلة تدفع بغير انتظام ، وكان الهرب من الجندية أمراً غير نادر . فكانت عملية التجنيد من ثم عملية دائمة ترافقها الاضطرابات واعمال العنف . وتوجب السماح للجنود بتأمين غذائهم على حساب الاهالي ، أو فرض المساهمة في نفقاتهم على البلاد . وما كان الجنود ليتراجعوا عن الاستلاب والاغتصاب والتعذيب واشعال الحرائق ونشر الرعب . وقد جرّت اعمال التخريب والتغييرات الدائمة التي تدخل على عدد الجنود الى فترات توقف طويلة الامد في سير العمليات العسكرية . وحدث احياناً ان ارغمت المجاعة الجيوش الظافرة على الجلاء عن المناطق المغزوة . ثم ان صغار الامراء الذين كانوا يعيشون من الحرب، من امثال الكونت « دي منسفلد » والدوق « كريستيان دي برونسويك » ، قد باتوا عاجزين ، منذ السنة ١٦٢٢ عن احراز النصر بقوة السلاح ، فلم يبق أمامهم سوى اقتراف الاجرام الفظيعة . وكان هؤلاء يمبثون الجنود حين يستطيعون الى ذلك سبيلا ، ويقومون بحملاتهم العسكرية حين يتجمع لديهم بضعة آلاف من الرجال المسلحين ، ولكن جيشهم هذا كان يزداد ويتعاظم اذا ما احرزوا نجاحاً أو انتصاراً . الا ان هذا الجيش كان عبئاً ثقيلاً على البلاد . فالجنود يستلبون المواشي ويقتلعون سنابل القمح ويتلفون ما لا ينقلونه معهم ويقطعون الاشجار وجفون الكرمة ويحطمون الابواب والنوافذ والمواقد وينهالون ضرباً على السكان . ولم تنج من استلابهم ممتلكات الامبراطور نفسها . فلا يبقى أمام الفلاحين الا ان يتغذوا بالأعشاب وقشور الأشجار والأثمار البرية وان يختبئوا في الاحراج . وقد تعرض المسافرون للنهب على الطرقات العامة الرئيسية . وعندما يدخل فصل الامطار ، يتشتت المرتزقة المأجورون اذا لم يكن باستطاعة قائدهم توفير معسكرات جيدة لهم . ولم تكن الجيوش في المعسكرات أقل خطراً على الاهالي من الجيوش المشتركة في الحملات العسكرية . وكان لزاماً على القادة تأمين معسكرات شتوية جيدة دونما اعتبار للاصدقاء والاعداء ، فيجر ذلك إلى توسيع نطاق الحرب واطالتها . ولم يكن الهدف من ذلك خططاً ستراتيجية بل الحؤول دون تشتت الجيوش .

ان حروب الابادة لم تحصل الا نادراً . وكان من الصعب احراز نتائج حاسمة حتى بواسطة الجيوش الدائمة القومية الطابع كجيوش « مكسيميليان دي بافير » بقيادة « تيلي » . ونشبت المعارك أبداً بموافقة متبادلة . وكانت الصفوف المتعاقبة عميقة جداً ، وربما بلغت السبعين كما فعل « والنستين » في ليبزيغ . وأعوزت الجيوش سرعة الحركة . فالمناورات التي من شأنها ان تجر الى تصدع جيش العدو والمطاردة التي من شأنها الاجهاز على تنظيمه وابادته ما زالت

بطيئة وغير ذات فعالية . فكانت الحروب أبداً ، وقبل أي شيء آخر ، حروب حصار طويلة الاجل .

أما على البحر فقد ظهرت للمرة الاولى البارجة الحربية ، المدفعية العائمة . ولكن القادة البحريين لم يتوفقوا بعد الى استخدامها الافضل . فغالباً ما أطلقت مدافعها المرعبة من مسافات بعيدة دون ان تصيب المرمى ، « فلا يفقد البحر شيئاً من ملحه » .

اجتاحت اوروبا الوسطى اذن حروب لا نهاية لها وانهكت الدول المجاورة التي اشتركت فيها .

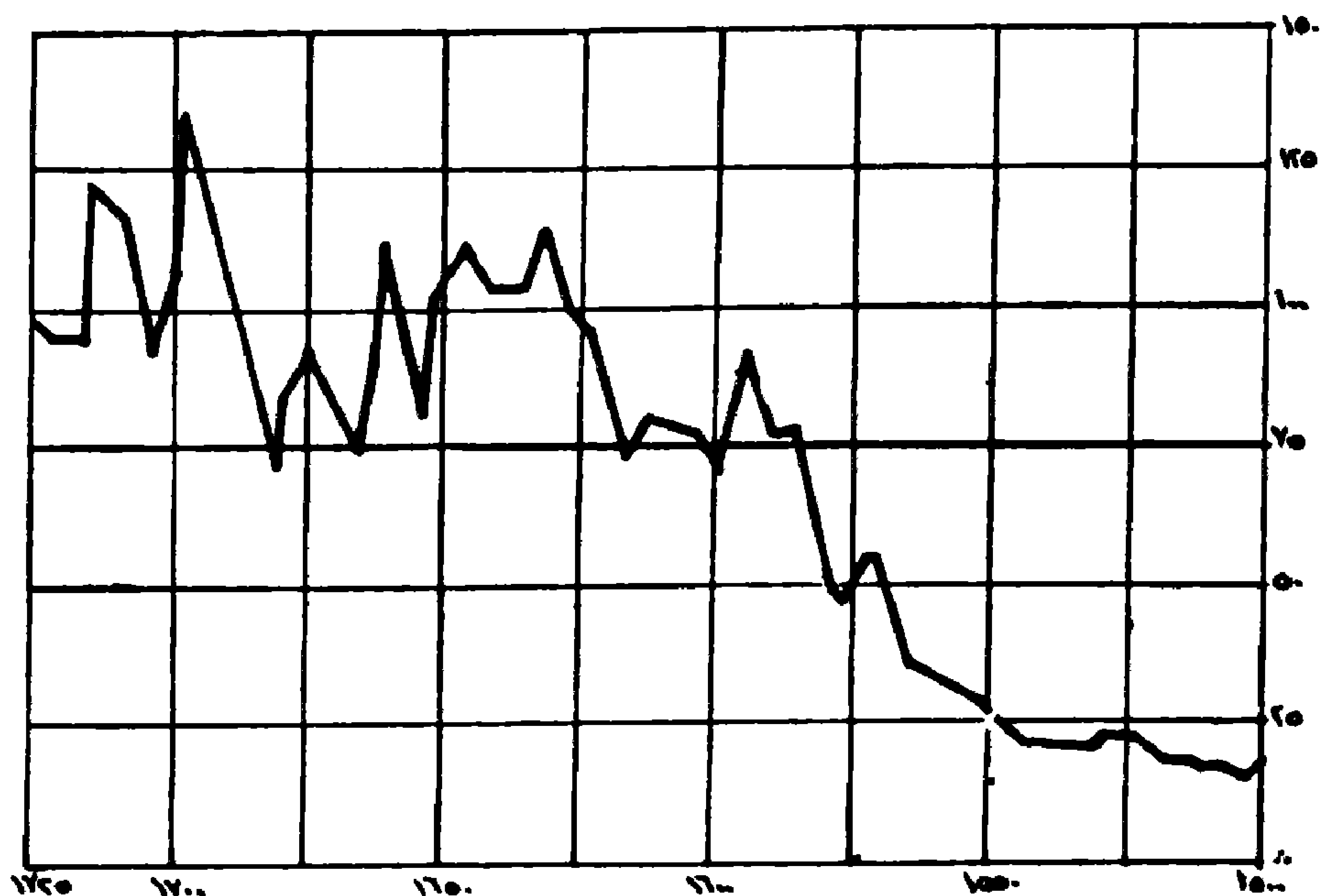
٥ - ازمة الحس الفني

مصادر الفن المستهجن

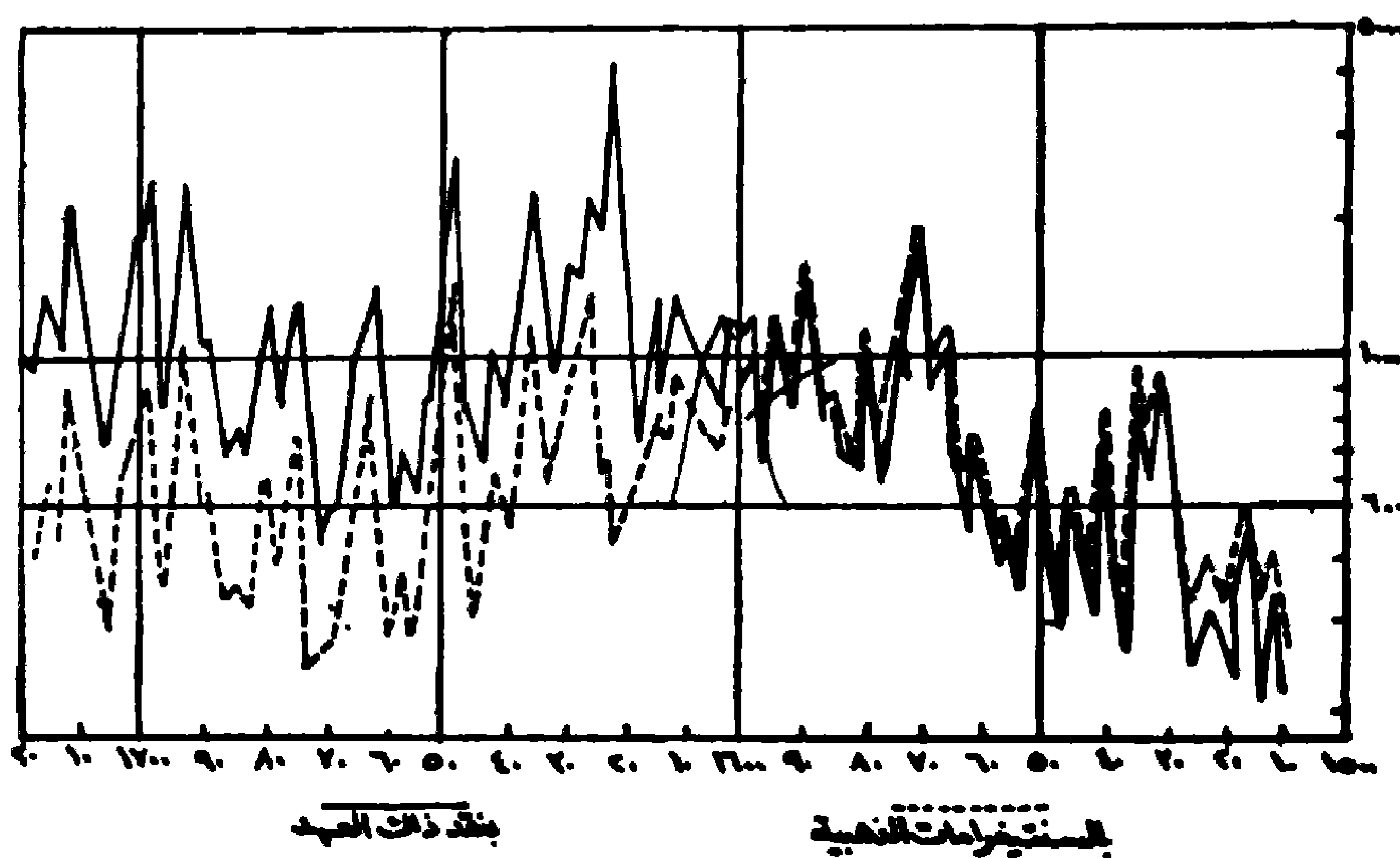
شاهد القرن السابع عشر ذروة ازمة الحس التي برزت بوادرها في حقل الفن . وقد أطلق عليها اسم « الفن المستهجن » الذي يمكن اطلاقه على كافة مظاهر الفن . وقد ظهرت دلائل الحس المستهجن ، دونما شك ، في ايطاليا بعد نهب مدينة روما (١٥٢٧) واتضحت مميزاتها في الثلث الاخير من القرن السادس عشر بصورة خاصة . وكان مركزها مدينة روما حيث شيد « جاك فينيول » ، في السنة ١٥٦٨ ، كنيسة يسوع ، وهي الكنيسة – الام لجمعية اليسوعيين ، التي كان لها اكبر اثر في اوروبا . ويعتبر هذا الفن ، فن الحركة الاصلاحية المضادة ، ومعبراً عن فكرة المجمع التريدنتيني. انطلق من روما وأشع ، عن طريق الكرادلة والاساقفة ورؤساء الجمعيات الرهبانية والسفراء وحاشياتهم ، في البلدان الاوروبية التالية : ايطاليا ، اسبانيا ، فرنسا ، فلاندر ، المانيا الجنوبية ، النمسا ، بولونيا ، أي كافة البلدان الكاثوليكية . أما البلدان الاخرى فقد اغلقت ابوابها في وجهه . ولكن فن الحركة الاصلاحية المضادة ليس سوى مظهر من مظاهر الحس الفني المستهجن . استخدمت الكنيسة نزعات كان مقدراً لها ان تفرض سيطرتها ؛ ولم تتناف هذه النزعات وعمل المجمع التريدنتيني ، ولكن حالها في ذلك حال نزعات اخرى ايضاً . اضف الى ذلك ان الحس الفني المستهجن قد ظهر بعد ذلك في بلدان غير كاثوليكية ايضاً . وقد تأثر بالازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي أحدثتها أشكال النهضة المختلفة والتي اتسع نطاقها في القرن السابع عشر . وكان بالنسبة لهذه الازمات ، علة تارة ومعلولا اخرى .

الفن المستهجن

الفن المستهجن هو مظهر من مظاهر الحس ، وبالتالي مظهر من مظاهر السجية ، نشاهده في عهود مختلفة . وهو يقابل ، في الشخصية البشرية ، فترات الخطاط القوى التي فيها تضعف وحدة الشخص ، فتحل فيه محل « انا » الواحد اشكال مختلفة من الـ « انا » . فتصعد حينذاك تدريجياً ، الى مستوى الوعي ، مكنونات اللاوعي



الشكل ٤ – السعر الاسمي للحنطة في اوروبا الغربية والوسطى
(نقلا عن السر و . بفريدج)



الشكل ٥ – سعر الجاودار في مونبيـــخ بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٧١٥
(نقلا عن إلساس)

الكثيرة والغامضة ، ومجموع الدوافع التي يكتنفها الابهام والدفعة المتعددة الاشكال لكافة القوى الحيوية . فالفن المستهجن اذن يستهوي الحرية ويحتقر الانظمة والاعتدال واللياقات . وهو لا يخضع المنطق بل يجمع المتناقضات. ليس يدري ما يريد ولكنه يريد الاجمال والخلاف في آن واحد . ينطوي في ذاته على المضادات ويعبر عن الكثير من النوايا . فاذا ما نظرنا الى تمثال ملاك من انتاج هذا الفن يتوج حاجزاً حديدياً في احد معابد سلامنكا ، نرى الساعد يرتفع كما لو كان ذلك لرفع شيء ما ، ونرى اليد تنخفض كما لو كان ذلك لوضعه في مكانه : هنالك اتجاهان متضادان في العضد الواحد ، وازدواجية في النوايا . وهذا ما نشاهده كثيراً عند « غريكو » الذي يمثل اتجاهين مختلفين في ساق واحد من ساقي تمثال المسيح . فالعقل عنده في حالة انفصام داخلي ، يزدري بموجبات مبدأ التناقض . أما الاعمدة فغالباً ما يصنعها ملتوية أو مفتتلة.

يستهوي الفن المستهجن كذلك الغموض وما فوق الطبيعة والتأثر والعواطف ومفاتن الطبيعة والفولكلور . ويبحث عن الاتحاد بقوى الكون الخفية ، ويستسلم أمام هذه القوة ويحترمها . فهو كوني يقول بالوهية الكون ؛ ويبحث عن اندفاع الطبيعة الحيوي ، فيغدو متقلباً ، صاخباً ، أشوه ، منتفخاً ، ويغدو في الوقت نفسه زاخراً ومكثاراً ، يضحي بالدقة على مذبح الحماسة ، وبالخلود على مذبح المغالاة . أما قوته فيتركها تتبعثر .

مثال الفن المستهجن : روبنس

ان روبنس ، ولعله الرسام الذي يمثل الفن المستهجن خير تمثيل ، يملك في الدرجة الاولى قوة الحيوية ، والاجزال في العطاء ، وفورة الحياة . « فهو يسلي اخصابه بخلق العوالم ، على غرار إله هندي في أوقات فراغه » . يعالج أوسع المواضيع تشعبا ، تاريخ ملك ، مثلاً قديماً ، العهد القديم ، حياة المسيح ، الدينونة الاخيرة . كل شيء يكبر ويتسع في روحه العظيمة . يخلق الواقع خلقاً جديداً . صور لوحاته تتعدى حدود الواقع . وصور نسائه مستوحاة من الفلمنكيات، ولكنهن فلمنكيات كونيات . ليس من وجود للاجسام الجميلة التي تولدها عبقريته الا في مخيلته . ان التمثيل الصحيح نادر في انتاجه . فمسيح لوحة « ضربة الحربة » في متحف انفرس ، المسيطر في النور الذي يغمره ، ليس مسيحاً معذباً، بل مسيحاً هزم الالم والموت . وعالم روبنس الخيالي هو عالم العواطف في ذروة حدتها . ففي لوحة « القنص » نرى سورة الغضب ضارية تتأهب للتمزيق . وفي لوحة « معارك النسوة المترجلات » ، نشاهد اصطفاق غريزة الابادة. وليست لوحة « السوق الخيرية » في متحف اللوفر على شيء من الابتهاجات الشعبية : فاحتساء الخمرة فيها ابتلاع،واستلام الراقصة خطف، والقبلة تلاصق او افتراس متبادل ؛ ان اندفاعاً جنونياً الى الشر يزعزع هذه البشرية التي تحرقها روح روبنس. يهمل الالوان الطبيعية سعياً وراء قوة التعبير:فاجسامه غبراء واشجاره برتقالية. يكثر من المضادات المفاجئة والالوان الجارحة والاضواء الساطعة .

ان موافقات سرية تجمع بين الاشياء والكائنات . والأشكال تفقد حدود هيئاتها الواضحة

فيتم نوع من الانصهار بين الاجسام وجوّها . ويسري النور سريان الاجسام السائلة أو سريان تيار الحياة الكونية بالذات . والاولاد السامنون الممثلون في اكليل من الاثمار هم انفسهم أطيب اثمار الطبيعة المغذية . لحم حورياته مادة سائلة ، حارة ، مختلجة ، مشعة ، متجددة باستمرار ، بل هو ذوبان نبيذ الكرمة . فالدم الذي يملأ الشرايين ويحيي العضلات ويجعل النظر متوقداً ، في « قنص اهالنطا » و « الحوريات » ، يماثل النسغ الحيي الذي ينبجس من الارض متموجاً وغصابا ويجول في الاغراس والنباتات .

وعلى نقيض التناسق والتوازن في فن النهضة نرى ان انشاءه حركة كله واندفاع وارتقاء . يصعّد سيل اشخاصه في اتجاه منحرف . ولا فرق عنده في تحديد مركز صوره الرئيسية من اللوحة ، فقد يضعها في الخلفة او المقدمة ، الى اليمين أو الى اليسار ، أو في الوسط . وعوضاً عن ان يقابل مجموعاً بمجموع، وصورة بصورة، نراه لا يتردد في مقابلة الصور المنفردة بالمجموعات. أما التلاحم الذي نلمسه في مجموع متشوش فمصدره النسق العام الذي يستولي على المشاهد ويخلق وحدة الانطباع . ففي لوحة « الصعود الى الجلجلة » المعروضة في المتاحف الملكية في بروكسل، نرى ان ما يعطي المشهد مغزاه ، مع ان المسيح قليل الظهور فيه ، هو صعود الموكب الحزين منذ الزاوية السفلى الى اليمين حتى الزاوية العليا الى اليسار . وفي لوحة « سقوط الهلكى » المعروضة في مونيخ ، نرى بشرية نتنة تذوب وتتساقط شلالات من اللحم الذي لن يلبث ان يختلط ، في النار الجهنمية المتأججة ، بالبوارق الصهباء والادخنة الكبريتية .

ان فنه يعبر عن كون تختمر فيه اختماراً مستمراً قوى تتجدد ابدا ، وعالم يتحول تحولا دائماً وتلاشي أشكاله السائحة بعضها بعضاً وتتجدد في فضاء لا نهاية له وفي ديمومة لا حدود لها ، وفاقاً لحركة الحياة الازلية .

الفن المستهجن عند معارضيه

ان روبنس هو رسام الحركة الاصلاحية المعاكسة، مصوّر النهضة الادبية الورعة التي أصلحها المجمع التريدنتيني . ولكن حس الفن المستهجن يبرز حتى في البلدان التي اعتبرت مراكز مقاومة هذا الفن .

الفن المستهجن عند رمبراندت

ان رمبراندت الذي نقصر الكلام عليه هنا يتميز ، في الاقاليم المتحدة ، بفن مستهجن قد يبز به الايطاليين والاسبانيين وحتى روبنس نفسه . فالمنتسبون الى هذا الفن من الجنوبيين يحطمون الخطوط بالحركة ويزعزعون السطوح المستوية والاجسام ويحملون الاقمشة وأجسام الملائكة تخفق وكأن ريحا زعزعا تعصف بها . اما رمبراندت فيجعل الحركة تتغلغل الى دقائق مجموع اللوحة باحكام توزيع الاضواء والظلال . ان « تنتوريه » و « غريكو » يحطمان الخطوط ، ولكنهما يبقيان على ابعاد عريضة من الخطوط الساكنة . اما رمبراندت فيمزق الخطوط بالارتجافات . يتميز الجنوبيون بتعدد النوايا التي تتعاقب بسرعة . اما رمبراندت فيتميز ، في كل برهة ، بنوايا متناقضة تتجانب في

آن واحد . يستحلب النور في الظل حيث يبقى حائراً دون ذوبان ينتشر انتشاراً سريعاً ويصطفق اصطفاقاً فجوريا في داخل الظل . ان رمبراندت يذهب بميزات الفن المستهجن الى حدود الافراط .

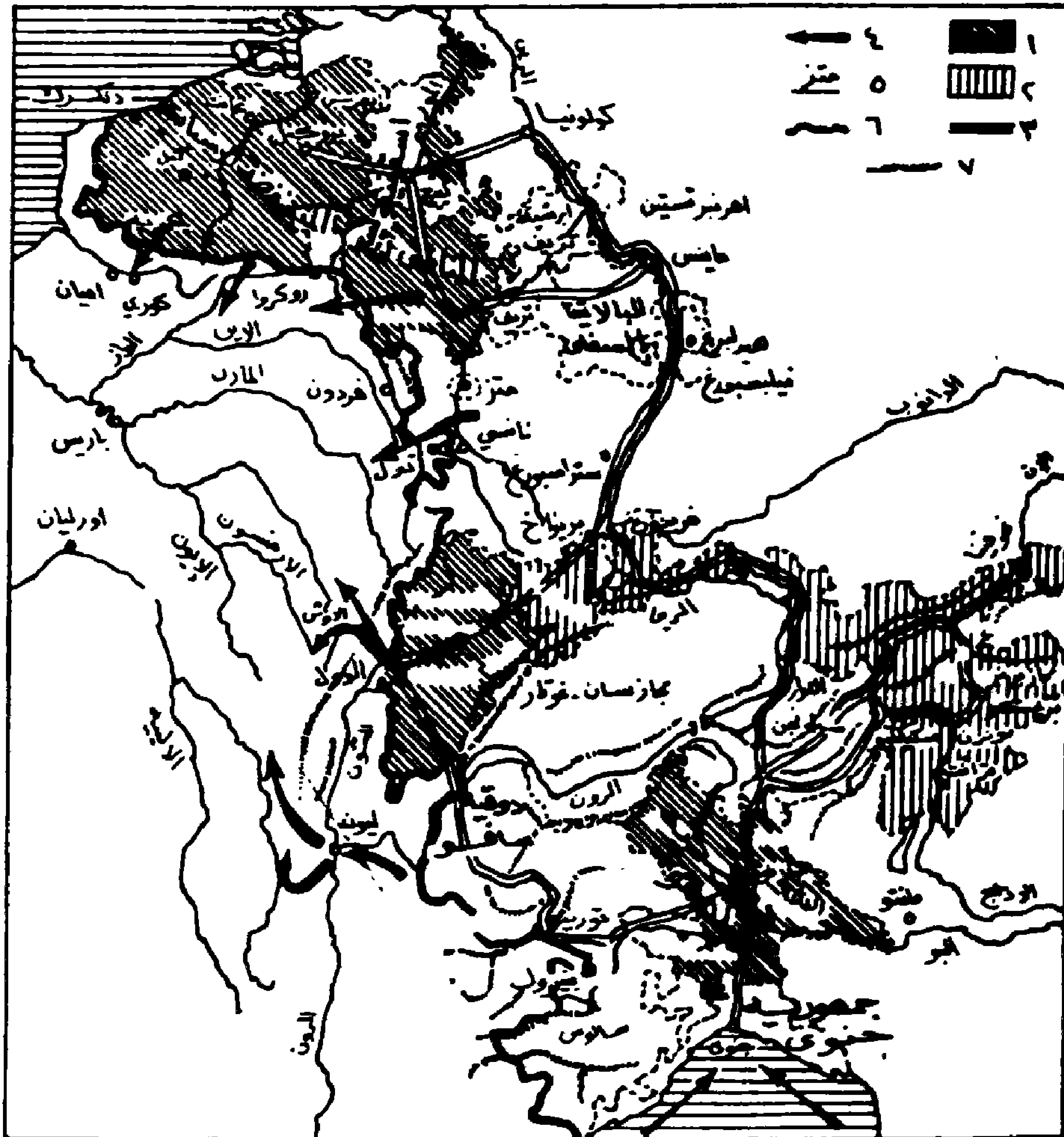
الفن المستهجن الفرنسي

انتشر حس الفن المستهجن في هندسة العمارة الفرنسية ، في ولايتي هنري الرابع ولويس الثالث عشر ، انتشاراً مماثلاً له في هندسة العمارة الايطالية أو الاسبانية في العهد نفسه ، ولا سيما في عهد شوريغرا ، (١٦٥٠ ، ١٧٢٣) ولكن دونه افراطاً في الاستهجان . فقد نشر روبنس ، بعد عودته من ايطاليا ، « قصور جنوى » وشيد لنفسه في أنفرس بيتاً مستوحى من الفن المستهجن . وادخلت النقاشة بعد ذلك الاشكال المستهجنة الى فرنسا حيث اعتمدت فوراً وعلى نطاق واسع نسبياً بسبب حاجة عميقة اليها .

حطم الفن المستهجن المثلثات في أعلى الابنية ونضدها وأضفى الحياة على الخطوط ولوى الاعمدة ولف النقوش الحلزونية واعجب بالنمط الكورنثي المتفخل،وثنى الاقسام الناتئة كما تثنى السيور ونفخها الى ان غدت محدبة وابرز العصائب وقصّر النحور وضخم القواعد وصغّر الصور الغريبة التي تغدو أفواهها أنسجة قطنية وآذانها أبواقاً ترمز الى الوفرة ووجناتها وأذقانها نباتات مختلفة .

وزخر هذا الفن بالقوة الطبيعية . فأكثر من أوراق النباتات القوية الملتفة ، التي التصقت بكل المساحات وتقوست سعوفاً وتساقطت شلالات وتعلقت أكاليل وتفلكت تيجانا . واكثر من التماسيح والقلق والأضب والدلافين والأرانب البرية والنسور . وزعزع شعباً من التماثيل . فالملائكة والقديسون والآلهة يتزنون فوق الافاريز والمذابح والمثلثات في أعلى الابنية ، ويأوون الى المشاكي أو يحرسون حول القبة والصحون . اما تماثيل الجدران النصفية المغلفة باوراق النبات فتتحول الى قواعد ، والرؤوس تزين الأغلاق وتسم الافاريز وتستخدم تيجان أعمدة . فكأن الحجر يسمو ويجيش بنوع من الحياة المسيخة .

ولكن هذا الحس لا يختلف عن ذوق الكتّاب . فان تكلف «فواتور » وفخفخة « بلزاك » وبطولة « كورناي»وغزارة« اونوريه دورفيه » وتحذلق«سكودري» ، كل ذلك يبرز في الاطارات المزينة والمثلثات المطولة والتماثيل العاضة . كما ان تعابير النقاشين هي نفسها التعابير التي نجدها في لغة « رينبيه » المبرقشة . اضف الى ذلك ان الجميع شغفون بالمسرح الذي كلف به البلاط والمدينة . ولكن ضوابط المسرح غالباً ما يغمرها النسيان ، فلا وحدة زمان ولا وحدة مكان ولا وحدة لهجة . كما أن احاديث السكارى والاغتيالات ، ومشاهد الهول والمشاهد الخلاعية تتعاقب تعاقباً مطرداً . والاهواء البشرية تنتقل الى الطبيعة باسرها . ففي نهاية تمثيلية « بيرام وتيسبيه » يتوجه كل من الحبيبين بصلوات صوفية الطابع الى القمر والجدول والزهور .وتتدخل القوى الفائقة الطبيعة ، وثنية حيناً ، كفينوس ودبانا وكوبيدون وإلهات الجحيم ، أو مسيحية



الشكل ٦ ـ الحدود الفرنسية في السنة ١٦٠٢ ، والطرق العسكرية الاسبانية
١ ـ ممتلكات سلالة هبسبورغ اسبانيا ٢ ـ ممتلكات سلالة هبسبورغ النمسا ٣ ـ الطرق العسكرية الاسبانية ٤ ـ نقاط الضعف في الحدود الفرنسية ٥ ـ مدينة استولت عليها فرنسا ٦ الحدود الفرنسية ٧ ـ خطوط المرتفعات الرئيسية

حيناً آخر ، كالملاك وابليس والشيطان . وينتصر السحر انتصاراً باهراً : الاشربة ، والجواهر المسحورة ، والمرام العجيبة ، والاموات المبعوثون احياء . وتكثر الاحلام واجوبـة هاتفي الغيب وظهورات الظلال والارواح . وتلعب المصادفة دوراً غريباً : احداث طارئة ، فراقات ولقاءات تسببها العواصف أو القراصنة ، حوادث غرق تنتهي بنجاة الغرقى ، جروح سريعـة الشفاء ، مسدسات لا يلبي زنادها ، خطف النسور للاطفال .

يطالب المشاهدون بالتأثرات القوية . لذلك نرى الممثلين يتضاربون ويتقاتلون على المسرح ، ونرى الجثث والرؤوس المقطوعـة والقلوب . ويلعب الممثلون ادوار مضطربي الحواس وأدوار المجانين اليائسين الثائرين . وتعرض على المسرح المدافن والاسفنج المليء بالدم والاجواخ السوداء الملطخة بالدموع البيضاء . وتنتهي المأساة احياناً بانتحار علني يقدم عليه كافة الممثلين .

ويسعى المؤلفون وراء تصوير السجايا الغريبة والاهواء في ذروة حدتها : انتقامات هائلة ، كانتقام « ميداي » وانتقام « تياست » ؛ ورغبات شديدة كتبادل القبلة بملء الفم والاغتصـاب على المسرح؛ الزنى والاغواء ، وهما امران عاديان ؛ الزنى بـين الأقارب : كاغتصاب الشقيقة وتسرر الاب وابنته .

وتزيد المحبة من عزم العاشق . واليك مثلاً عن ذلك في مثل هذا الادعاء بالبسالة :

... وكان يمكنني ، في سبيل امتلاكك ، أن أقدم على ما هو اسوأ من ذلك .

ففي سبيل الفوز بهذا الكنز العظيم والثمين .

حاربت الملوك ، وما كنت لأتردد في محاربة الآلهة .

كما ان العزم يبحث عن اشد العقبات هولاً والمواقف الحرجة التي من شأنها اقنـاط النفوس العادية ؛ فبطل المأساة رجـل عزم من الطراز الاول . ولكن المشاهـد يرغب في ان يرى ، الى جانب العزم ، ما يقابل العزم بعنف من اشخاص يثيرون ضحك الاستخفاف والسخريـة أو يدعون بالبسالة ، وكهول متيمين ، ومدعي علم ، ومجانين .

بالفن المستهجن يتصل التصنـع أو الكلفة . والتصنع هو على غرار الفن المستهجن ، نمط حياتي ، ومطالبة فردية بالاستقلال ، ويظهر بين وقت وآخر في عالم بلاطات الحب وردهـات الاستقبال . وقد دفع به الى الامام ، في القرن السابع عشر ، ظهور قصة من وضع « اونوريـه دورفيه » ، « استريه » ، التي أضافت اليه اثر الافلاطونية الادبية والعالمية في النهضة . يبـذل المتصنعون جهدهم للانفصال عن العامة كي يصبحوا ندرة ويثيروا الدهشة في كل شيء . فهم في المحبة كهان الحب العذري ، الحب الطاهر ، المرفوع الى مستوى الدين ، البعيد عن المخالطـات الجسدية والملذات والزواج . وبسبب رغبتهم في التميز الارستوقراطي ، انتهى الأمر بالمتصنعين في اسلوبهم الكلامي ، الى الطمطمانية ، الى طريقة تعبير خاصة بفئتهم . فكل مـا هو شعبي ،

وكل مفردات المهن ، وكل ما يشتم منه المماحكة والتظاهر بالعلم قد اقصي عن هذا الاسلوب ، وبلغ من هذا الاقتصاد ان « انجليك دانجين » قد اغمي عليها اكثر من مرة عندما كانت تسمع كلمة غير مقبولة في بيئتها . والكلمات المقبولة ، على نقيض ذلك ، هي تلك التي تعبر تعبيراً قويا يبلغ حد الافراط : فالمتصنعون يحبون «بحرارة» ؛ ويحتقرون ما هو من شيم « آخر» بورجوازي الخ .. أما في الأدب فهم يتلهون . يبحثون عن كال المبنى وعما يثير الدهشة . ولكنهم يلازمون أما الألوان الصغرى ، كالرسالة وقصيدة الهجاء والقصيدة الغزلية وما شاكل ذلك ، واما القصة الراعوية وقصة المغامرة . وكتبت الآنسة « دي سكودري » قصصاً شهيرة عرف اثرها البقاء ؛ « كورش العظيم » (١٦٤٥) ، « كليلي » (١٦٥٤) . وهدف التصنع في هـــذه القصص الى التميز باللباقة والمهارة : النكات ، والتقابل ، والاستعارة ، والصور الرمزية ، وكل ما هو بديع وغير مرتقب ومفرط . وفي اللون الرمزي ، عرفت الجغرافية العاطفية ، التي تتمثل « بخريطة الحنان » ، في الكتاب الأول من الجزء الاول من قصة « كليلي » ، شهرة عظيمة مـا بين السنة ١٦٥٤ ، والسنة ١٦٦٤ . ومن حيث ان التصنع يسعى وراء الصعوبة والغرابة ، فهو قـد استهوى التحاليل النفسية الدقيقة ، فميز وعزل وقسم وأحصى وحدد ؛ فمهد الطريق ، مـن حيث لا يدري أمام الكلاسيكية ، بحرصه على الاتقان والوضوح .

الفن المستهجن اليومي

لقد سعى الناس ، في المسرح ، وراء فتنة التزيين ، والاعمدة الفخمة ، والحدائق السحرية . ولكن الاغنياء بحثوا في حياتهم اليومية ايضـاً ، عن المفروشات المتعددة الألوان والخزائن المزدانة بالمينا والخزفيات الصينيـة والأواني البلورية والصناديق المشجرة والمدبجات والتذهيب ومرايا البندقية والمخمليات والحرائر والاقمشة المطرزة بالذهب والفضة والمربات الفاخرة والطنافس التركية والصينية والسقوف الخشبية المصورة . وفي القصور بهرت الاروقة العيون بنفائسها المتقلبة الألوان وأدهشت العقول بكل براعة تخدع العيون . وجملة القول ان الغرابة والقوة وشدة التأثير تسيطر على الحياة اليومية .

الفن المستهجن

أو ليست مصادر هذا الاضطراب الداخلي ، وهذا الجري وراء الحياة التي تبدو وكأنها هاربة ، وهذه الحاجة الى التأثرات القوية والعواطف العنيفة والاستفادة من الحياة الى آخر حدود الاستفادة ، هي البؤس والحروب والمجاعات والاوبئة وكافة اسباب الابادة التي تهدد كل شخص في كل وقت ؟ أو ليست مصادرها الصراعات الطبقية والحزبية والمشادات الدينية والسياسية التي ترغم الانسان على الوقوف في وجه مواطنيه وأعضاء عائلته واصدقائه ونفسه بالذات؟ أو ليست اعترافاً بالقلق ووسيلة للتخلص منه في آن واحد؟ أو ليس من شأنها ان تصبح بدورها سبب اضطراب فكري واضطراب اجتماعي وسياسي ؟

٦ ـ الازمة الاخلاقية والدينية

ساعد الفن المستهجن ، في الارجح، على بعث أزمة عقلية عامة برزت في الاخلاق في الدرجة الاولى . ففي هذا المجتمع، حيث توجب على الفرد ، المهدد باستمرار، البطـــل ان يثبت انه عدو خطر ، وفي هذا المجتمع الذي ما زال ارستوقراطياً ، وحيث المثل الاعلى هو الانسان النبيل ، الجندي الممتاز ، الفارس ، وحيث ساعد فقدان التوازن بشتى انواعه عـــلى اضطراب الـ « أنا » ، وبالتالي على الاندفاع في الكبرياء ، نرى ان الانسان الفاضل هو المـاهر الماهر والبطل البطل ، اي القدرة والمجد . أما الواجب ففي اشباع الحاجة إلى المجـــد . ويقوم المجد بالتقيد بقوانين الشرف الاجتماعي الذي هو الشرف الاقطاعي ، أي النبيل . ويقـــود إلى التضحية بالاهواء التي تتعارض وهذا الشرف : فالاميرة في تمثيلية « السيد » تضحي بمحبتها على مذبح واجبها نحو نسبها ومرتبتها اللذين يحرمان عليها الزواج من شريف ريفي عادي . فيصبح المجد من ثم موجباً باطنياً ، شريعة داخلية . والواجب يقضي بالانتصار لا على العقبات الخارجية فحسب ، بل على الاهواء والخوف والخجل والحنان في صميم داخلنا أيضاً . والفضيلة بالذات ، والحالة هذه ، هي السخاء ، أي السعي بشغف وراء المجد ، واخضاع الاهواء للمجد . والبطـــل هو ذاك الذي أقسم أمام نفسه بان لا تعوزه الشجاعة البتة في السعي وراء المجد ، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بنفسه لأجله .

ولكن هذه التضحية هي تضحية الاهواء الاخرى على مذبح الهوى الأعظم ، أعني بــــه الكبرياء . هذه الفضيلة هي إثبات كيان الفرد ، كما يتضح من صرخة « ميداي » : « ماذا تبقى لك في هذه الداهية الدهياء ? ـ أنا . » ان عقل البطل وقوته المعنوية وإرادته وعزمـه الفـظ وبسالته ، كل ذلك ينبـع من شعوره ، في الحقد والانتقام والطموح والحمية والوطنية والحب والاهواء « الرجولية » ، « النبيلة » ، « المسيطرة » ، وهي تعبر عـن القوة الحيويـة التي تجيش في الفرد وتدفعه إلى اثبات قوته والسيطرة على الآخرين والامتياز والتفوق على البشر الآخرين الذين سينتهي بهم الامر إلى إحاطته بهالة اعجابهم أو بنوع آخر من التكريم هو البغضاء والدسائس الدائمة والافتراءات المقيتة ، التي يعكف بها المتوسطون حول البطل .

ان البطل يبحث عما هو جميل وجليل وغريب ، وعما « لا مثيل له » ، وقد يجده في الجريمة نفسها . فـ « رودوغون » تطلب إلى أخويها قتل امهما . وكليوباترا تصرخ قائلة « أخرجي من قلبي أيتها الطبيعة ... » ان البطل ينطلق وراء العظمة وتجاوز الحدود . أجل ان أخلاق البطل دالة مجتمع أرستوقراطي ، ولكن يبدو انها تتفوق عـلى مثل الفروسيـة الأعلى ومثل النهضة الأعلى ، وان سعيها وراء تفتح الانسان في كافة نشاطاته ، ووراء نجاحـه في كافة أشكال الجمال ، أقل منه وراء ارضـاء الكبرياء بالقـوة ، وانها على مزيد من العصبية والتوتر والقلق المترجرج ، أي انها في حقيقة واقعها مظهر من مظاهر الاستهجان .

النهضة الادبية الورعة

كان الجمع التريدنتيني ، في الحقيقة ، قد كرس ، في وجه الاصلاح ، التفسير المسيحي للنهضة الأدبية . ومنذ الثلث الاخير من القرن السادس عشر ، نشر علماء الآداب القديمة الورعون مئات « المداخل الى الحياة التقوية » و « الابحاث في محبة الله » . ان الانسان انعكاس للشبه الالهي ، والطبيعة البشرية هي من ثم آية الخلق . ويغلب ان جرح آدم القديم لم يفسد كل كياننا . فان اهواءنا ثمرة طبيعتنا ، وخليقة حكمة الله ، جيدة بحد ذاتها . وواجباتنا الاولى هي نحو انفسنا . فعلينا ان نسمو الى اعلى ذرى السمو بجمال الطبيعة التي منحنا اياها الله ، وهو عقلنا ، انعكاس العقل الآلهي ، ما سيعين لنا مبادىء سلوكنا .

العالم جيد . وقد خلق ليقودنا الى الله ، « والجمالات الدنيا » هي بمثابة درجات يجب ان تتسلقها محبة الانسان درجة درجة الى ان تصل الى الاستمتاع بالجمال المطلق . « صنع الله الخلائق في جودته لنستمتع بها » . فيتوجب على الانسان ان يكون « انساناً شريفاً» ويحب جمال الطبيعة وجمالات الفنون والتماثيل والموسيقى والعطور والأعياد والأفراح ، ولا سيما الجمال النسائي ، لأن المحبة الزوجية اشعاع من المحبة الالهية وتقدم تدريجي نحوها : « لماذا الخفر من المحبة ؟ .. فهل من خجل في التعلق بصورة الله ، وخليقة عاقلة وشخص شريف حسن التربية يتباهى بالشرف والفضيلة ؟ » (كامو ، اسقف بلي . وقد درج روبنس على تحديد فنه : « تمجيد قوى الانسان وابتغاءاته » .

ويقدم الله ابداً لهذا « الانسان الشريف » نعمة الفداء . يترك الانسان حراً في الاجابة بالقبول أو بالرفض . ومن حيث هو محبة كله ، لا يستنكف البتة من موقف الانسان. والانسان يستجيب لهذه الجودة الحنون بالمحبة . أو لم تعوده النهضة الأدبية العيش في بهجة ربيع حنان شامل ؟ ان هذا المذهب الافلاطوني قد حطم قيود الحسن الفني المستهجن . فان العديد من اليسوعيين وكهنة الرعايا قد نشروا الموسوعات، « عجائب الطبيعة » . كما ان العديد من الكهنة والعلمانيين قد تأثروا الى حد بعيد بالشعراء الدنيويين . فان المئات من الرهبان والقضاة ورجال القانون وعظام الاسياد ، قد نقلوا شعراً ، في نشوة كلامية ، المزامير والتأملات والصلوات :

« ايتها النجوم المضيئة ، ايتها الصفائح الذهبية
التي يزدان بها الليل
وينثرها ماساً في اشرعته ،
ايا زهور الحدائق اللازوردية ... »

باركي الرب ، كما انشد الكبوشي « مارسيال دي بريف » . وان هذه المحبة الشاملة تقود الى محبة الله :

لا تغيروا مزاجكم بل غيروا أهدافكم ؛
أحبوا ، ولكن أحبوا الله الذي يبادلكم محبة ثابتة (الرئيس فافر) .

وباستطاعة الانسان ، اذا ما تخلص بالمحبة الطبيعية من تسلط الانانية والدناءة وتعود نسيان نفسه والتواري في الاشياء المحيطة به والاستسلام حتى التضحية بشخص عزيز ، ان يحب الله محبة حقيقية تنسى نفسها ولا تحرص الا على ارضاء الله ، دونما خوف أو أمل ، وتذعن الى كل ما يريده الله « حتى اذا كان ما يريده لنا عذاب جهنم » . وباستطاعته آنذاك ان يحب الله « محبة خالصة » . وكانت مريم المجدلية ، من هذا القبيل ، بطلة القرن السابع عشر المفضلة . وهكذا فان النهضة الادبية الورعة قد عززت التيار الصوفي .

الصوفية

ان الصوفية ، وهي الحياة مع الله وفي الله ، هي جوهر النهضة الكاثوليكية والحركة الاصلاحية المضادة . فان جماهير تنتمي الى كافة الطبقات ، عامة الشعب ، والرعاة ، والراعيات ، والبقارين ، وفقراء المدن ، والقضاة ، والاشراف الريفيين ، عاشت منذ السنة ١٥٧٠ تقريباً عيشة تأملية ، تحت نظر الله ، وبتوقه ، متحدة به ، ضحايا الانخطافات والرؤى التي هي في غالب الاحيان فدية ضعف الجسم البشري ، ولكنها شاهدت الله بفعل نور باطني سرّي . وبثت حركة اوروبية تعاليم الصوفيين الرينانيين من أمثال هارفيوس وتولر ، والصوفيين الاسبانيين والايطاليين ، وكلاسيكيي الحياة الروحية في القرون الوسطى ، من امثال كاسيان والقديس برناردوس، الذين نشرت مؤلفاتهم واعيد نشرها تكراراً باللغة اللاتينية واللغة الشعبية ، بفضل علماء الآداب القديمة . ونظمت شعراً غنائياً وَضع أسمى صوفية في متناول النساء الفقيرات الجاهلات انفسهن ، واشيعت بفضل المرشدين الكرتوزيين من أمثال « دون بوكوزين » او الكبوشيين من أمثال « بنوا دي كنفلد » . ونجمت عن هذه الصوفيات مدارس قداسة حقيقية اقلقت بال الوزراء والملوك انفسهم الذين عاملوها معاملة القوى الكبرى . فان « ماري دي فالنس » الامية قد تولت تهذيب الاشراف الريفيين ورجال الكنيسة ، وحتى الاب « كوتون » اليسوعي مرشد هنري الرابع ، واستقبلت ريشيليو الذي زارها متريبا . وتفوقت مدام « اكاري » (١٥٦٦ – ١٦١٨) ، وهي ابنة محاسب وزوجة محاسب ، في الارشاد الروحي ، وبلغ من تفوقها ان اليسوعيين ورهبان القديس فيلبس النيري وكهنة الرعايا كانوا يتوجهون اليها بغية معالجة الحالات الصعبة . وقد التف حولها « كنفلد » ، « بوكوزين » ، « فرنسوا دي سال » ، « بيرول » مؤسس جمعية « ماريلاك » الرهبانية، دوفال، الدكتور في جامعة السوربون . وحرص هنري الرابع على ان لا يفقد حظوته لديها . وقد جمعت في منزلها فتيات كن نواة الراهبات الاورسوليات والراهبات الكرمليات في فرنسا. وهي من اسهمت في ادخال هاتين الجمعيتين الى فرنسا ؛ فبدأ بذلك اصلاح اديرة الراهبات . ويعود الفضل في استكمال «فرنسوا دي سال » تربيته الصوفية الى مراقبة الصوفيات الكرمليات في ديجون ومراقبة راهبات الزيارة من بعدهن (بعد السنة ١٦١٠) ، وليس « البحث في محبة الله » سوى وصف اختباره للفتيات المتدينات .

ولما كان التأمل يتيح تجديد احوال يسوع المسيح الباطنية في نفس الصوفيين ويحيي المسيح

فيهم ، فانه قد جر قسراً الى اصلاح الاديرة . فبات من ثم مستحيلا على الراهبات اللواتي كن يعشن فقر المسيح وآلامه وعحبته ان يرتدين ملابس بيضاء صوفية ناعمة او كتانية مفضضة وان يتنافسن في اقتناء اجمل لباس واحسن مسبحة واكبر عدد من الجواهر الكريمة ؛ وبات مستحيلاً عليهن كذلك ان يعشن كل على حدة ويأكلن على هواهن في حصنهن مع صديقاتهن ، ويستقبلن الزائرين ويتقبلن الهدايا والمعاشات ؛ وبات مستحيلا عليهن اخيراً ان يستقبلن الاشراف الريفيين الآتين لملاطفتهن ، وان يخرجن متنكرات بملابس الراعيات بغية حضور اعراس القرية او الاجتماعات الريفية ، كما بات مستحيلا على الرئيسات في هذه الاديرة ، وهي ممتلكات عائلية تنتقل من عمة الى ابنة شقيقتها ، ان يستقبلن انسباءهن بين راهباتهن المخضبات والمسكات والكاشفات عنقهن وكتفيهن واعلى صدرهن، ويرفهن عنهم بالموسيقى والنزهة والولائم . وبفضل الاثر الذي تركته السيدة « اكاري » باشرت « ماري دي بوفيليه » ، رئيسة دير « مونمارتر » ، اصلاح ديرها الذي غدا مدرسة للرئيسات الاخريات . كما ان رئيسات الاديرة البندكتية، وكلهن فتيات نبيلات يحسنّ ممارسة السلطة ويتميزن بحزم تزول معه فكرة المقاومة عند المرؤوسات ، قد اقدمن بمشورة جماعة السيدة « اكاري » والكرتوزيين والكبوشيين والبندكتيين واليسوعيين على فرض التأمل الالزامي ، في ساعات معينة صباحاً ومساء، وفحص الضمير والرياضة الروحية السنوية والحياة مع الله وما تستوجبه من احترام القانون والتحصن المشدد ، واضفن الى كل ذلك منع الزيارات العالمية ، والغسيل المشترك ، والمائدة المشتركة ، واللباس الاسود ، والصلوات الليلية ، والصيام ، والقطاعة ، والبرد ، والاماتات على انواعها . وحدث الاصلاح نفسه في الرهبان من كرمليين وكبوشيين وغيرهم ، ثم انتقلت حياة التأمل من الاديرة الى العلمانيين بفضل المرشدين وواضعي المؤلفات الروحية . فقد نشر القديس « فرنسوا دي سال » « المدخل الى الحياة التقوية » في السنة ١٦١٠ و « البحث في محبة الله » في السنة ١٦١٦ .

النهضة الادبية الورعة تتعرض للخطر بفصل الايمان عن الحياة

ولكن هؤلاء الصوفيين، الواعين الضعف البشري، والمنتظرين كل شيء من نعمة الله بفضل استحقاقات الفادي، والموحدين حياتهم بادخال الانجيل كله اليها ، قد اشتبهوا آنذاك بما قد تنطوي عليه النهضة الادبية الورعة من تعلم مذهب الطبيعيين . او لم تفض ثقتها بالعقل البشري الى الفصل في اغلب الاحيان ، عند علماء الادب الورعين ، بين الحياة والدين ؟ او لم يشاهدهم الناس ، على الرغم من تصلبهم في موضوع العقيدة ومواظبتهم على الاحتفالات الدينية ، يسترشدون حكماء العصور القديمة ، ويقتدون بهم ، ويستنجدون امام الموت بالوثنيين من امثال افلاطون وسنيكا ، كما لو كانت الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، وكما لو كان حكم الانسان قانون الحياة الاوحد ؟ اضف الى ذلك التناقضات الغريبة التي نجمت عن هذه المواقف . فقد تغلبت المصلحة على الله في قلب القاضي الورع « بوشار دي شامبيني »، كبير اخوته الرهبان الكبوشيين والكرتوزيين، فقاوم دعوة ابنته الى الحياة الرهبانية وارغمها على زواج يحسن وضع ابيها

الاجتماعي ؛ واوجب القائد « دي غوندي » على ابنه ، « رتس » الشهير ، وهو ابعد الناس عن التدين والعبادة ، ارتداء ثوب الكهنوت ، بغية الاحتفاظ لعائلته بمركز رئاسة اساقفة باريس . فكانت نتيجة مثل هذه التصرفات افساد الكنيسة عن طريق الدولة ، وتعيين اساقفة سياسيين وعلمانيين ، ورتبا كنسية تسند الى العلمانيين ، وحتى الكلفينيين منهم ، واساقفة في سن الطفولة ، وكهنة اميين يعجزون عن توزيع الاسرار ، ولا يعظون ولا يبشرون ، ويتركون المؤمنين في الارياف جاهلين وجود الله ويفسدونهم ويقنعونهم ، كما حدث في ابرشية « كوتانس » بانه خير للفتيات ، في اية حال من احوالهن ، ان ينجبن الاولاد من ان لا ينجبنهم .

النهضة الادبية الورعة تتعرض للخطر بفعل تطرفاتها

ودفع الحس الفني المستهجن ببعض علماء الادب الورعين ، ممن لا مأخذ عليهم ، الى تطرفات احرجت مراكزهم . فالصور القديمة ، في نظرهم ، تحمل ، في ما خلفت ، حقائق الوحي الاولي وتبشر بالحقائق المسيحية . وما الامثال القديمة سوى رموز . فمينرفا هي الكلمة وكوبيدون هو صورة المحبة الالهية . وقد غنى الناس :

يا قديسة احراجنا ، ديانا
يا سيدة نفسي الوحيدة ،
ايتها العذراء والام ، اسمعي صوتي .

وقد رأوا في افروديت ترفض الحورية الهرطقة التي ترفض الكنيسة . الا ان جميع هذه الرموز كانت مثقلة ، لسوء الحظ ، بشهوانية محمومة من شأنها اثارة الاضطراب في الضمائر .

فهل كان احتراماً حقاً ان يرى الناس في الله ، على غرار الكثيرين من علماء الأدب الورعين ، الصديق والاخ في الدرجة الاولى ؛ وهل كان موافقاً للسيادة الالهية ان تبدو وكأنها تعتبر الانسان مطلق الحرية ، وان يكون الله مرغماً ، نوعاً ما ، على منح نعمته اذا كان الانسان قد اختار طوعاً ان يعمل الخير (مولينا) أو مرغماً على العفو بحجة انه قد يحطم صورته بالذات اذا ما حطم الانسان ، وقد يتلاشى اذا ما لاشى الخاطىء (كامو) ؟

وهل كان من اللائق نظم وصايا الله والصلاة الربية والاسرار ابيات شعر مقتضبة وغناؤها الحاناً رائجة ، والاكثار من النكت والتصنع في اللطف والاضحاك والتكلف وكل لون ادبي مستهجن ، والطلوع بمثل هذه الكتابة : « ان هذا القديس المبارك قد غذى محبة قلبي » ، أو اقدام اسقف ، من امثال « كامو » ، على تأليف قصص غرامية حتى ولو كان القصد منها دفاعاً عن العقيدة ، أو تمضية الوقت كله في احكام التأمل بالطبيعة ودرس العلوم الدنيوية لأن العالم عمل الله ؟

الجنسينية

قامت في وجه النهضة الادبية الورعة ردة فعل استهدفت اتمام عمل المجمع التريدنتيني باستيحاء روح القديس اوغسطينوس . ولكن تأويل الاوغسطينية أوقع البعض آنذاك في تطرف آخر هو الهرطقة الجنسينية . وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة

لـ « جنسن » اسقف « ايبر » الذي نشر في السنة ١٦٤٠ كتابه العقائدي الهام « اوغسطينوس » الذي وسع وكمل نظريات لاهوتي كاثوليكي آخر « بايوس » ، المحكوم عليه في السنة ١٥٦٧ . وغدت الجنسينية حركة اوروبية تميزت قوتها في فرنسا منذ ان نشر « أرنو » (١٦٤٣) كتاب « تناول القربان المتواتر » . وكان مركز الجنسينية دير الراهبات في « بور رويال » وجماعة « السادة » الذين كانوا يأتون ويمارسون حياة العزلة في جوار الدير . ولكن الجنسينية جمعت حولها انصاراً وأصدقاء في اوساط الاكليروس كلها ولدى العديد من المؤمنين . أما المؤلف الذي يعتبر اليوم اشهر مؤلف جنسيني النزعة فهو « الخطرات » التي جمعها باسكال بين السنة ١٦٥٨ والسنة ١٦٦٢ ونشرت جزئياً في السنة ١٦٧٠ وكان لها اثرها العظيم في القرن التاسع عشر .

يمثل الجنسينيون نزعة دائمة للفكر البشري هي تأويل الدين المسيحي تأويلاً تشاؤمياً . وهي نزعة لوثر بالذات . فان المتشائمين الذين يكونون اسمى فكرة عن عظمة الله وقدرته الكلية ويتأثرون بالغ التأثر بضعف الانسانية وبؤسها ، قد كوّنوا لنفسهم فكرة اله رهيب يعجز العقل البشري عن ادراك مقاصده واحكامه . بدونه لا يستطيع الانسان شيئاً. يذهب الى حيث يجد لذته ، وهو لا يجد لذة ، منذ الخطيئة الاصلية ، الا في الشر . ذهنه يدور في حلقة مفرغة ولا يستطيع التوصل الى اية حقيقة (نتيجة مذهب الاسمية)، عقله المتناقض والمتقلب سخرية ؛ وارادته عجز . الانسان لعبة . القوى الخارجية الساحقة ، واتفاق الظروف ، والعادات تقوده وتلعب به كما تلعب الريح بدوارة الهواء . الانانية وحب الذات والقابلية الفردية هي وحدها ما يحركه .

« ان هوج رياح الشهوانية
تجعل لحه يصطفق اصطفاق علم قديم » .

لا حول للانسان . ولكن الله الكلي القدرة يحمل الانسان ، بفعل نعمته ، يجد لذته في التقيد بالوصايا . وهو يمنح هذه النعمة اناساً اختارهم منذ الازل للمجد السماوي . وقد مات المسيح لاجل هؤلاء دون غيرهم وفداهم وحدهم فقط . وعديد هؤلاء قليل جداً . وليس بمكنتهم التهرب من هذه النعمة لانها تفرض نفسها عليهم . الانسان ليس حراً ، بل هو عبد الله ويقتضي من ثم على الانسان ، في حريته الوهمية ، ان لا يصنع شيئاً . دون ان يشعر « بتحريك خاص من الله » ، « بدعوة من الله » . ويقتضي ان يستقبل هذه الدعوة للتقدم نحو الاسرار ، كما يجب ان يخاف ويرتجف من التقدم نحوها بدون الدعوة . ولا يجوز ان يصبح كاهناً ويتدخل في عمل رهيب هو تقديس جسد المسيح ودمه الا اذا كان « مدعوا من الله بصوت يكاد يكون مرئياً ومحسوساً ولا يرقى اليه ارتياب » . لا كاهن بدون « رسالة باطنية » من قبل الله . فكيف يصح الاقدام على الكهنوت ؟ ويجب ان لا يتقدم الانسان من محكمة التوبة الا اذا شعر من لدن الله

بحركة صادقة للذهاب اليها وبتوبة حقيقية وأسف تام على الخطايا لاجل محبته ، والا فالحل من الخطايا يكون باطلا . ويقتضي فوق ذلك الشعور بميل وبهجة لتناول القربان المقدس ، ويحسن احياناً الامتناع عن تناوله تواضعاً على ان ان يكون سبب الامتناع تواضعاً حقيقياً، لا تكاسلا . فكيف يصح الاقدام على الاقتراب من الله ؟

يجب العمل وفاقاً لصوت الله . ويقتضي ، لسماعه ، الصمت والانفصال والتجرد والكفر بالعالم والموت بالنسبة له. يجب على المسيحي ان يوجد الفراغ في داخله بتعرية باطنية . « يجب ان يكون امام الله ، حين يصلي ، كإناء مفتوح حتى يكرر الله نعمته فيه ، شيئاً فشيئاً، وبحسب ارادته » . لن يفرط المسيحي يوماً في الاتضاع والانحناء امام كمال الله وقداسته . ولن يحترز البتة احترازاً كافياً من دوافعه الداخلية ، لأن الفضائل ليست في الغالب سوى قناع حب الذات ، ولأن العاطفة الوحيدة التي لها قيمتها هي العاطفة الخالصة الطهارة ، والعمل الوحيد الذي له اعتباره هو ما توحي به محبة الله وحدها . هذا هو الدافع الى الخوف من حب الذات وحمى فحص الضمير ، والقلق الدائم . ولن يعرف الجنسيني في النهاية فترة هدوء الا حين يجد لاعماله ، مبرراً انسانيا ، انانيا ، قد لا يكون له من وجوده البتة . فيدفعه رأيه الوهمي التشاؤمي الى حرمان الانسانية من خير ما لديها .

أراد بعضهم اعتبار الجنسينية حركة بورجوازية موجهة ضد الاشراف وتعبيراً عن صراع بين الطبقات . والواقع هو ان السيكولوجية الجنسينية تقضي على مثال « البطل » . وان من يقتنع بحقيقة هذه السيكولوجية لا يستطيع بعد ذلك ان يؤمن بهذه الصورة المثالية المتفوقة للانسانية التي حلم بها علماء الأدب القديم والارستوقراطيون . ولكن هنالك ارستقراطيين كثيرين بين الجنسينين والعاطفين عليهم : الدوق « دي ليانكور » ، الدوق « لاروشفوكو » ، المركيزة « دي سابليه » ، الخ .. فالمحاولة ، كما نرى ، لا تأخذ وجودهم بعين الاعتبار .

أما ما هو ممكن ، فالتساؤل عما اذا لم ينبع التطرف الجنسيني من الحس الفني المستهجن ، وعما اذا لم يكن الجنسينيون من هواة الاستهجان . ففي رأيهم ، « لا شيء فاضل اذا لم يكن بطوليا ، ولا شيء مسيحي اذا لم يكن عجائبياً ؛ ولا شيء مطاق اذا لم يكن منقطع النظير .. كل ما يمكن تحسينه هو في نظرهم سيء الصنع ؛ كما ان الاعتدال في نظرهم نقيصة ؛ وكل ما ليس نجاحاً هو اخفاق ؛ وكل ما ليس فريداً من نوعه هو مبتذل . وهم لا يستكبرون الا ما هو عظيم الجسامة . ولا يحترمون الا ما هو اخاذ مدهش .. ويزدرون بمصنوعات كل فن تكون دون المثل الاعلى .. كل كلمة من كلماتهم مبالغة واغراق ؛ وكل حكمة مغالطة ، وكل تعابيرهم جسارة ؛ وكل آرائهم متطرفة ، وكل وعودهم جزيلة ؛ فهم جبابرة الشيع » . (الاب « فرنسوا بونال » ؛ ١٦٥٥) .

كان من نتائج الجنسينية إثارة جدالات حادة بين الكاثوليك حول النعمة ، اهمالت محبة القريب

وادت ، على الرغم من فضلها على الادب ، لاننا مدينون لها بـ « اقليميات » باسكال ، الى بلبلة الضمائر والاضرار بالدين .

وكان من نتائجها كذلك تشجيع تيار الالحاد . فقد ادعى الملحدون ايضا بان مـا يحرك الانسان هو اللذة وحدها : فوجدوا تبريراً وتشجيعاً لهم في السيكولوجيـة الجنسينية ، وكانوا جد مرتاحين للقول بالاختيار السابق للملكوت السماوي :

« لقد اختل عقل رجال البلاط والعالميين بعد هذه التأويلات حول النعمة ، لانهم يقولون في كل حين : ما همنا مهما فعلنا لاننا سنخلص اذا كانت النعمة فينـــا وسنهلك اذا لم تكن . ثم ينتهون الى القول : ليس كل ذلك سوى ترهات .. فقبل بحث هذه القضايا ، كانوا ، اذا قرب عيد الفصح يصابون بدهشة صاهري الاجراس لا يعلمون اين يختبئون وتتشكك ضمائرهم ؛ أما اليوم فانهم يمرحون ولا يفكرون بالاعتراف ويقولون : ان ما كتب كتب . هذا مـــا فعله الجنسينيون حيال العالميين » (السيدة « دي شوازي ») .

٧ – ازمـــة العلم

الفن المستهجن
والكنيسة والجامعات والامراء والعلماء

ما زالت السيطرة ، في اوائل القرن السابع عشر ، وعـلى الرغم من جهود النهضة ، للارسطاطاليسية القريبة كل القرب من الاختبار اليومي وللطبيعة التي كانت تحمل على الايمان بالمعجزات والطيرة والرقية والتنجيم والسحر ومناجاة الارواح . فقد بلـغ هنري الرابـع ملك فرنسا ، في احد الايام ، خبر اكتشاف مؤامرة حاك خيوطها مرشده الاب كوتون . في البدء هدأ روع الملك بعض الشيء في أعقاب تكذيب صريح ، ولكنه ما لبث ان عاوده الخوف حينما ظهرت في الافق ، بصورة مفاجئة ، غمامة قاتمة السواد مضرّجة ببقع حمراء : انها مقاصد الاب كوتون المظلمة الدموية تعكر الطبيعة التي تشي به . الا ان اليسوعي قد دافع عن نفسه . وجاء في الوقت نفسه من يفيد بان الغمامة قد اختفت . فكان ذلك انتصاراً للبراءة .

وسار استكشاف العالم قدماً تشجعه ذهنية الاستهجان على تحقيق اوسع الفتوحات ، تلك الذهنية التي حملت « بيكون » على ان يرسم على غلاف كتابه : «*Novum Organon*» (١٦٢٠) صورة سفينة منشورة الاشرعة تحاول اجتياز مضيق جبل طارق ، الحد الاقصى للعالم القديم .

كانت الاكتشافات ثمرة اعمال الفلكيين والاطبـــاء . وغالباً ما انتسب المكتشفون الى البورجوازيين ، كـ « كبلر » ، ابن احد موظفي الدوق « دي ورتمبرغ ». الا ان « غاليليو » و « نابير » مكتشف علم انساب الاعداد ، كانا ينتسبان الى الاشراف الريفيين . فخرجوا مـــن الجامعات وغالباً ما مارسوا فيها عمل التعليم : فان الطبيب غاليليو قـــد درّس الرياضيات والطبيعيات في جامعة « بيزا » ثم في جامعة « بادوا » ، وكان « هارفي » استاذاً في كلية لندن

الملكية الطب ، الخ . ولكنهم يصطدمون بالجامعات وغالباً ما يضطرون الى مغادرتهـا . فـ « الفلسفة » أمة اللاهوت ، والجامعة امة الكنيسة ، وقد بدت الاكتشافات خطراً يهدد الايمان؛ اضف الى ذلك أخيراً ان عادات الآخرين من أساتذة الجامعات قد تبلبلت وان أنانيتهم قد جرحت في الصميم امام بوادر عبقرية المكتشفين . الا ان حسن طالع العلماء جعلهم يدخلون في خدمة الامراء كمنجمين وأطباء. فغدا كبلر رياضياً امبراطورياً ، وهارفي طبيباً لجاك الاول، و « جلبرت » طبيباً للملكة « اليزابت » ، وغاليلو في كنف دوق « توسكانا » .

سنن كبلر

كانت المهمة الاولى متابعة عمل « كوبرنيك » . فتولاها الالماني « جان كبلر » من « شتوتغارت »(١٥٧١ – ١٦٣٠). بعد ان أصبح معاوناً لـ «تيخوبراهي »، ترك له هذا الاخير ، وهو على سرير الموت ، ما دونه من ملاحظات وطلب اليه وضع تقاويم حركات الكواكب السيارة وبناء نظرية فلكية تتفق وتعاليم كوبرنيك . وكان كبلر يشاطر كوبرنيك آراءه البيثاغورية والافلاطونية .وقد استوحى منذ البداية اعتقاده بان الله انما خلق العالم وفاقاً لنظام سابق يجب ان نكتشف ظواهره في عدد مدارات السيارات وابعادها وفي حركات السيارات . وقد استطاع استعمال المرقب الذي اخترعه في السنة ١٦٠٨ ، كما نرجح ، طبيب عيون هولندي من « مدلبورغ » ، هو « هانس ليبرشغ » . فوضع اولاً نظام المساحات المحدودة . وأثبت ، بعد ان درس مدار الارض،ان الارض تجتاز اقسام قوس مدارها في أوقات متناسبة لطول الاشعة بين هذه الاقسام والشمس . وانتقل بعد ذلك الى درس حركة المريخ فلم تسمح له ملاحظاته برسمها مستديرة وفاقاً للآراء السائدة. فتوصل بعد تردد ومحاولات كثيرة الى القطع الاهليلجي، الذي طابق ملاحظات « تيخو براهي»ونظام المساحات المحدودة، واتاح لكبلر تحديد النظامين الاولين لحركة المريخ اللذين نشرا في السنة ١٦٠٩ في كتاب « علم الفلك الجديد » .

١ – يسير الكوكب السيار في مدار اهليلجي تحتل الشمس احد محترقيه .

٢ – ان سرعة الكوكب السيار الزاوية، في كل نقطة من مداره،متناسبة عكساً لمربع المسافة بينه وبين الشمس ؛ تزداد السرعة كلما اقترب الكوكب من مركز حركته وتنخفض كلما ابتعدت عنه [1] .

وفي السنة ١٦١٨ ، طبق النظامين ، في كتابه « موجز علم الفلك الكوبرنيكي » ، على السيارات الاخرى وعلى القمر ، باعتبار ان الشمس تحتل محترقا مشتركاً بمداراتها الاهليجية . واخيراً ظهر النظام الثالث في كتاب « انظمة الكون » :

---

١ – صيغة هندسية اخرى مماثلة : ان الشعاع الموجه بين الشمس والكوكب السيار يغطي ، في اوقات متساوية مساحات محدودة متساوية .

٣ – ان مربعات الاوقات التي تستغرقها دورات السيارات المختلفة متناسبة لمكعبات معدلات مسافاتها الخاصة الى الشمس .

واستند الى مكتشفاته في وضع « التقاويم الرودولفية » ، التي لم يُستغن عنها ، طيلة قرن كامل ، للانباء بمواقع السيارات . وتضمنت التقاويم ، بالاضافة الى ذلك ، جدولا بالنجوم من وضع « تيخوبراهي » ، وجداول من وضعه هو بانحرافات الاشعة ، وجدولاً بانساب الاعداد التي كان قد اكتشفها مؤخراً نابير في سكوتلندا (١٦١٤) و « بورجي » في سويسرا ، فسهلت عليه عمله بتحويلها عمليات الضرب والقسمة الى عمليات جمع وطرح ؛ وعملية استخراج الجذور الى مجرد قسمة بسيطة .

ان كبلر ، بعمله هذا ، قد قوّم ما توصل اليه كوبرنيك وكرس مركزية الشمس بتحديده الشمس « مركزاً » لحركة السيارات ، لا مركز حركات الارض كما ساد الرأي . واكمل كذلك وصف الحركات الحقيقية المختبئة وراء الظواهر ، فتوصل الى نظام هذه الحركات .

وحدة الكون : غاليليو وشاينر

صنع غاليليو (١٥٦٤ – ١٦٤٢) في السنة ١٦٠٩ ، بفضل توسع معرفته لانظمة علم البصريات ، مرقبا يفضل مرقب الهولنديين الى حد بعيد . وفي السنة ١٦١٠ اكتشف الاقمار الاربعة التابعة للمشتري ، ثم اقنعته مراقبة هذا الكوكب مع اقماره ، عن طريق المماثلة ، بحقيقة مركزية الشمس . واكتشف في اواخر السنة ١٩١٠ ان للزهرة ، كما للقمر ، اوجهها ايضاً . وتحقق له ان القمر شبيه بالارض . ورأى فيه الاودية والجبال وقدر ارتفاع هذه الاخيرة . واحصى اربعين نجماً ثابتاً في برج الثريا ، حيث ما كانت العين المجردة لترى سوى ستة فقط ، واستدل بذلك على بعدها السحيق . واعتبر المجرة والنجوم الضعيفة الضوء مركبة من نجوم كثيرة . واخيراً اكتشف بقع الشمس في شهر تشرين الاول من السنة ١٦١٠ . واكتشف هذه البقع ايضاً ، بفضل المرقب ، اليسوعي « شاينر » استاذالرياضيات في « انغولستات » . وقد اخترع شاينر المرقب الشمسي ، وهو مرقب موجه نحو الشمس في غرفة معتمة ، صورة الشمس مع بقعها على مساحة بيضاء . فاستطاع من ثم اجراء اكثر من ٢٠٠٠ مراقبة واستدل بها ، في السنة ١٦٢٦ ، على دوران الشمس والنجوم كلها على محاورها الخاصة .

مولد علم الآليات : غاليليو وعلم القوى

ولكن مذهب كوبرنيك بدا متنافياً وملاحظة ما يجري عادة امام اعيننا على سطح الارض ، ولا سيما في تساقط الاجسام الثقيلة . فما كان مسلماً به دون منازع انذاك ان كرة يلقى بها من أعلى الصاري في مركب متحرك لا تسقط عند قدم الصاري ، بل على بعض المسافة الى الوراء . وقد استدلوا بذلك على ان ما يلقى به عمودياً لا يمكن ان يعود ، في حال دوران الارض ، الى المكان الذي ألقي به منه ، بل يجب ان يسقط ابعد الى الغرب لان الارض ، أثناء وجوده في الهواء ، تكون قد

دارت نحو الشرق . فواجهت مركزية الشمس من ثم ، مسألة الحركة قبل كل شيء .

استرشد غاليليو، على غرار كوبرنيك وكبلر من قبله، بوحي فكرة سابقة البحث والتحقيق : هنالك نظام خفي تحت تنوع الطبيعة ، وهو نظام رياضي ؛ وسنن الطبيعة هي سنن رياضية ، والواقع هو تحبيز الرياضي تحبيزا مادياً ؛ فالطبيعة تجيب من ثم على المسائل المطروحة في اللغة الرياضية . واستوحى غاليليو ارخميدس الذي لم يكتب اسمه مرة واحدة دون ثناء وتقريظ . وقد اعترض الارسطاطاليسيون على تعاليم كوبرنيك باسم الحركة . فتابع غاليليو درس الحركة للاجابة على اعتراضاتهم .

كان كبلر قد توصل ، بعملية تجريد ساعدته عليها ملاحظات لا يحصى لها عدّ، الى استشفاف سنة الجماد : كل حركة هي مستقيمة ومتساوية السرعة بقوة الطبيعة وحدها ؛ كل جسم يخضع لتأثير قوة واحدة ، تعمل فيه فجأة ، يتحرك تحركا مستقيماً ثابتاً وبسرعة متساوية لا تتبدل . فقد تأكد لكبلر ان الجسم لا ينحرف عن الخط المستقيم الا اذا عملت فيه قوة ما ، وان سرعته لا تتدنى الا اذا اعاقت تقدمه قوة ما . واستدل من ذلك على ان الحركة تحافظ ، الى ما لا نهاية له ، على استقامتها وسرعتها المتساوية ، اذا ما ازيلت القوى المضادة .

اكتشف غاليليو منذ السنة ١٦٠٤ ، الحركة المستقيمة الاطرادية السرعة وسنة المسافات . « ان النسبة بين المسافات التي يجتازها الجرم المتحرك الهابط ، في أوقات متساوية ، هي نفسها النسبة الكائنة بين الأعداد الوترية المتعاقبة انطلاقاً من الوحدة » ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، الخ . وفي الواقع ، ان جسماً يهبط ٥ أمتار في الثانية الاولى ، يهبط ١٥ متراً في الثانية الثانية ، و ٢٥ متراً في الثانية الثالثة . فكانت الصيغة التي توصل اليها غاليليو معادلة لسنة المسافة التي تخضع لها الحركات الاطرادية السرعة : المسافات المقطوعة متناسبة لمربع الاوقات ، وفيما يلي بيان ذلك: اذا قطعت خمسة امتار في الثانية الاولى ، تكون المسافة المقطوعة في آخر الثانية الثانية ٥×٢^٢ أي ٢٠ مترا (٥+١٥) ، وفي آخر الثانية الثالثة ٥×٣^٢ = ٤٥ مترا (٥+١٥+٢٥) . وقد استخدم غاليليو سطحاً منحدراً احدث فيه فرضة مستقيمة . فكان يترك كرة تتزحلق في الفرضة ويحصي الوقت الذي يستغرقه تزحلقها من اعلى الفرضة الى أسفلها ، ثم يحصي الوقت الذي يستغرقه اجتياز الكرة لربع المسافة : كان الوقت الثاني نصف الوقت الاول ؛ فخلص من ذلك سنن المسافات . وقد استخدم ، لاحصاء الوقت ، ساعة مائية ، وزن السائل المتجمع في الاحواض اثناء الاختبارات المختلفة .

اقضت مضجعه مسألة الحركة ، فأكب على درس رقاص الساعة الذي لفت انتباهه اليه ، على ما يروى ، ذبذبة احد المصابيح في كاتدرائية بيزا . وتوصل الى تحديد السنن الاساسية :

١ – ان مدة الذبذبة لا تتعلق بسعتها . فان ذبذبة رقاص يبلغ متراً واحداً طولا تستغرق المدة نفسها سواء كان انحرافه عن الخط العمودي ، عند الانطلاق ، ١٠ او ٢٠ او ٣٠ او ٤٠ سنتيمترا .

٢ – ان مدّة الذبذبة لا تتعلق بمادة الرقاص ولا بحجمه . فان رقاصين متساويين طولاً مختلفين ابعاداً مثقلين في طرفيهما المتحركين،الاول بقطعة فلينية والثاني بقطعة رصاصية يستغرقان مدة الذبذبة نفسها .

٣ – ان مدة الذبذبة تتعلق بطول الرقاص ، وهي هي لكل الرقاصات المتساوية الطول .
فكر غاليليو منذ ذاك الحين بساعة يتحرك فيها دولاب مسنن بفعل حركة الرقاص المزدوجة ؛ ولكنه لم يحل مسألة دوام حركة الرقاص . الا ان المهم في الامر لم يقم في هذا التقدم التقني ، بل في ملاحظة تشابه عظيم بين حركة الرقاص وحركة كرة تتزحلق على سطح منحدرة . فاذا كانت السطوح مختلفة الانحدار ، وتزحلقت الكرة من ارتفاع واحد ، كانت السرعة النهائية متساوية ، لان السرعة النهائية تختلف باختلاف ارتفاع نقطة الانطلاق ، لا باختلاف انحدار السطح.وهذا ما حمل على القول ان ذبذبة الرقاص الواحد تستغرق المدة نفسها في سعات مختلفة لانه في الواقع يهبط هبوطاً متساوي السرعة على كل السطوح المنحدرة المتعاقبة ، المختلفة الانحدار ، ب١^١، ب١^٢، ب١^٣ ، التي تؤلف ذبذبته . فاهتدى غاليليو في الرقاص الى حركة الكرة على السطح المنحدر .

ولكن اذا كانت قطعتا الرصاص والفلين تهبطان هبوطا متساوي السرعة على السطوح المنحدرة المتعاقبة المساوية لخط مسيرهما ١^١، ١، ١^٢ ، فيصبح باستطاعة غاليليو ان يستدل بذلك على ان سقوطهما يستغرق وقتاً واحداً فيما لو كان هبوطهما طليقا وعموديا . فوجد نفسه مرة اخرى أمام اختباره في برج بيزا في السنة ١٥٩٢ . وقد تأيد بذلك ان سرعة الثقل هي واحدة لكل الاجرام .

٤ – ووجد غاليليو اخيراً ان مدة الذبذبة تختلف باختلاف الجذر المربع لطول الرقاص .
فاذا كانت اطوال رقاصات عدة متناسبة لـ ١ ، ٤ ، ٩ ، كانت مدات الذبذبة ، فيما بينها ، متناسبة لـ ١ ، ٢ ، ٣ . ان ذبذبة رقاص طوله ٢٥ سم تستغرق ثانية ، وذبذبة اخر طوله متر تستغرق ثانيتين ، وذبذبة ثالث طوله ٢,٢٥ م تستغرق ثلاث ثوان . ولكن هذه النتيجة هي بالذات ما توصل غاليليو اليه مع الكرة المتدحرجة على السطح المنحدر . فخط مسير الرقاص ، وهو يتلقى حركة مطردة السرعة من قوة هي الثقل . وهكذا تمثلت ذبذبة الرقاص بحركة الاجرام الهابطة .

حاول غاليليو حينذاك تمثيل حركة القذائف ايضاً بحركة الاجسام الهابطة . فاستهدفت ابحاثه ضمنا مبدأ ثبوت الاجرام والمبدأ القائل بان كل قوة تعمل في جرم ما تعطي نتيجتها بشكل مستقل عن غيرها من القوى الفاعلة . وقد استخدم المسطح المستطيل للسرعات واكتشف بواسطته مبدأ المسطح المستطيل للقوى . افترض جرماً متنقلاً على سطح افقي ا ب . الجرم سيتحرك في اتجاه واحد وبسرعة متساوية طالما لا تعمل فيه اية قوة اخرى . فاذا انتهى المسطح

فجأة في ب ، فان الثقل سيفعل فعله حينذاك ويدخل حركة جديدة هي الهبوط العمودي ب ل. ولكن الحركة الافقية المتساوية السرعة لم تبطل . لذلك فان الحركتين تتحدان والجرم ينتقل على المسيرة المنحنية الاضلاع ب ط و ح حيث د و = ٤ ج ط لأن ب د = ٢ ب ج ولأن المسافة التي التي يقطعها جسم هابط تختلف باختلاف مربع الاوقات . ويمكننا الاستناد الى البرهان نفسه في المعادلة : هـ ح = ٩ ج ط . فحركة القذائف تخضع من ثم للسنن نفسها التي تخضع لها الاجسام الهابطة . وقد اوحى ذلك بان حركة الاجرام السماوية تطابق الشروط نفسها .

اتاحت هذه الاكتشافات دحض حجج الارسطاطاليسيين على سنن كبلر . فقد نجم عنها ، لعمري ، مبدأ استقلال القوى أو وجودها معاً : كل حركة مشتركة بالتساوي بين كل الاجرام المختلفة فيما بينها ، اذ ان هذه الحركات تستمر في الحدوث كما لو كان مجموع النظام عارم الحركة. وبات جلياً من ثم ان الكرة التي يلقى بها عمودياً من اعلى صاري سفينة متحركة لا يمكن ان تهبط الا عند اسفل الساري لأن الكرة تخضع للحركة الافقية نفسها التي تخضع لها السفينة . والسفينة تشركها من ثم في قوة الدفع نفسها التي تتلقاها هي. وبات جلياً كذلك وهن الاعتراض على حركة الارض ، لأن الجرم الهابط في الهواء يدور مع الارض .

أما هذه النتائج ، ونتائج كثيرة اخرى ، وسنة الجماد التي حددها ديكارت بوضوح ، فقد نشرها غاليليو في السنة ١٦٣٨ في كتابه « احاديث حول علمين جديدين » . وقد استلزمت اعماله منذ البدء سنة الجماد . وكان « بيكن » ، صديق ديكارت ، على علم بسنة دوام الحركة منذ السنة ١٦١٣ . « ان ما يخضع للحركة مرة يبقى متحركاً الى ما لا نهاية له » . ولكن ديكارت هو من عبر بوضوح وجلاء عن سنة الجماد: الجسم الساكن يبقى ساكناً اذا لم تعمل فيه اية قوة؛واذا تحرك فانه لا يتوقف من ذاته،ان لم تنفد حركته اية قوة،كما افترض الارسطاطاليسيون، ولكنه يستمر في حركته بالسرعة نفسها وفي الاتجاه نفسه ، فحركته مستقيمة ومتساوية السرعة ؛ واذا ما اخضع هذا الجسم لعمل قوة ثابتة ، فتحدث اذ ذاك نتيجة جمة لأن القوة تعمل في الجسم بشكل واحد سواء كان ساكنا او متحركا ، يحتفظ في كل هنيهة بالحركة التي خضع لها في الهنيهة السابقة،والقوة تدخل عليه سرعة جديدة،فتصبح حركته متساوية السرعة .

ولكن الطبيعة كلها بدت وكأنها خاضعة لسنن الحركة . ففي السنة ١٦٤٤ ، اثبت توريشلي ، تلميذ غاليليو ان فوارة ماء تخرج من ثقب في جانب سفينة ملأى بالماء تتبع مسيرة عدسية الشكل شبيهة بمسيرة القذيفة ، وان حركة الماء هي نفسها حركة الاجسام الهابطة الاخرى .

هارفي والدورة الدموية

كان الانكليزي هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) قد نشر منذ السنة ١٦٢٨ كتابه « حركة القلب » حول حركات القلب والدم ، الذي عرض فيه اكتشافه للدورة الدموية الكبرى . كان الارسطاطاليسيون من قبله يعتبرون الدم وكأنه راكد في حالة توازن، والارواح الحيوانية كأنها تتملل في مستنقع الدم هذا . وكان

هارفي قد واظب في بادوا على دروس « فابريش داكوابندنتي » الذي كان قد ميز صمامات الاوردة ، وهي الشرط الضروري لاكتشاف هارفي . راقب هذا الأخير ، في البدء ، حركات القلب بفضل تشريحات أجراها على حيوانات مختلفة : كلاب ، خنازير ، ضفادع ، افاع ، علاجيم ، رخويات ، سراطين ، اسماك . فتمكن بذلك اولاً من ان يرى التشابه بين حركات القلب والتقلصات العضلية وان يرى بعد ذلك عند كل الحيوانات وصول الدم بواسطة الأوردة وخروجه بواسطة الشرايين . عند ذلك تأمل ملياً في كبر وتناسب بطينات القلب وكبر وتناسب الأقنية التي تخرج منه وكمية الدم التي تمر في القلب وسرعة مرورها . وكان جلياً ان الأوردة تنتهي بسرعة الى الفراغ والشرايين تنفجر بفعل تدفق الدم اذا لم يستطع هذا الأخير العودة من الشرايين الى الاوردة وبالتالي بلوغ البطين الأيمن في القلب . حينذاك افترض هارفي وجود حركة دموية دائرية ، وتأكد من وجودها بعدد من الاختبارات : ان ربط مجاري الدم في اعلى العضو ربطا غير مشدد يسمح بتدفق الدم بواسطة الشرايين ولكنه يمنع عودته بواسطة الأوردة ؛ أما اذا كان الربط مشدداً ، فهو يوقف كل دورة دموية ، فيتخدر العضو وينتابه الألم ويختفي النبض ويبرد العضو ولا يلبث ان يتقرع ؛ وضغط على الاوردة باصابعه فأظهر الدورة في طريق العودة وجزم بان الصمامات تقاوم عودة الدم نحو اقسام الجسم الدائرية .

واكتشف الطبيب الفرنسي « جان بكيّه » (١٦٢٢ – ١٦٩٤) ، في السنة ١٦٤٨ ، دورة الكيلوس اثناء قيامه بتشريح احد الكلاب . فاعترضوا عليه ان هذه الدورة لم تكتشف في جسم الانسان . ولكن الطبيب الجراح « جارغان » ، اكتشف الاقنية الكيلوسية وحوض « بكيّه » ، في جسم جندي لاقى حتفه في اعقاب اقتتال اشترك فيه .

وهكذا امست الحركة عنصراً اساسياً في الطبيعة كلها وفي الكون . وكانت هذه الحركة خاضعة لسنن معينة ، وكانت هذه السنن رياضية .

اصطدام الكوبرنيكيين بالارسطاطاليين

كانت هذه الاكتشافات كلها بمثابة ثورة حقيقية . فقد وجهت اشد الضربات لنظام ارسطو الذي ما زال مسيطراً . تصور الارسطاطاليسيون عالماً منظماً ، محدوداً ، محصور الابعاد ، الارض ساكنة في وسط العالم ، وكافة الاجرام السماوية متممة حول الارض ، خلال اربع وعشرين ساعة ، حركات دائرية اعتبروها طبيعية لانها اكمل الحركات طراً ، وكل الكواكب مصنوعة لاجل الانسان ، من مادة خالصة لا تفنى ، وقد جعلوا فيها مقراً الكمال غير القابل التغير والفساد ، فاذا بكوبرنيك وكبلر وغاليليو يقضون على مفهوم مركزية الانسان هذا وعلى كل هذا الكون المنظم خير تنظيم . فكان الكوبرنيكيون على خلاف مع الارسطاطاليسيين في كل النقاط . احلوا الحركة الاهليلجية محل الحركة الدائرية . وقضت سنة كبلر الثانية على الاعتقاد

السائد بان الحركات السماوية متماثلة . واظهر الكوبرنيكيون السماوات خاضعة لسنة لا محيد عنها هي سنة الولادة والشيخوخة والموت . وبرزت نجوم جديدة ، وتبين ان القمر شبيه بالأرض من حيث تكوينه ، واثبتت بقع الشمس ان الشمس قابلة للفساد. وحين اراد الارسطاطاليسيون وضع نجم جديد اكتشفه كبلر في دائرة القمر لأن كل تغيير مستحيل بعد القمر ، اوضح الكوبرنيكيون ان النجوم ابعد من الشمس عن الارض بعشرة آلاف مرة ، وان دورانها حول القمر في اربع وعشرين ساعة يتطلب سرعة فائقة في حال حصوله ، وان خللا جسيماً يطرأ اذ ذاك على الطبيعة لأن مدة دورة السيارات تزداد بازدياد المسافة : القمر ينجز دورته في ثمانية وعشرين يوماً ، والمريخ في سنتين ، والمشتري في اثنتي عشر سنة ، وزحل في ثلاثين سنة ، فكيف يصح ان تنجز النجوم دورتها في يوم واحد وهي ابعد من هذه السيارات الى حد بعيد جداً ؟ وذهب غاليليو الى ابعد من ذلك . فهاجم عقيدة الاستقرار وعدم التغير ورأى فيها دلالة على النقص والعيب . واظهر ان في التغير والانسال مزيداً من النبل والروعة ، وان التبدل واقع شامل حتى في السماوات ، ولكنه يحدث في كل مكان وفاقاً للسنن الطبيعية نفسها ، وان النوع الواحد من الاحداث الطبيعية يحصل من انحاء الكون ، وان مادة السماوات مماثلة لمادة الارض ، لا تفنى ، وانما يتحول شكلها تحولا مستمراً . وحطم الكوبرنيكيون العالم الارسطاطاليسي القديم ؛ واحلوا محل العالم ، وهو وحدة مقفلة منظمة تنظيماً تسلسليا ، الكون وهو مجموعة غير مقفلة ولا حدود لها مرتبطة بوحدة سننها ، ففتحوا بذلك ابواب اللانهاية أمام الانسان . فمنذ الان وصاعداً ، سيسترشد الفكر البشري مثال اللانهاية ، وهو فتح حققته الازمنة المعاصرة . فانهار من ثم انهياراً نهائياً منطق الكليّات (المثل العامة) القديم ، ومنطق ارسطو ونظريته في علم الطبيعيات ، ومنطق المفاهيم المرتبط بعدد ثابت من الانواع المكونة من أجناس وفروق محدودة العدد ، وبعالم متناه في الفضاء مكوّن بحيث تبقى الانواع ثابتة على الرغم من تغير الافراد . اما في نظر الكوبرنيكين ، فكل مفهوم لا يتناول اللانهاية مفهوم مجرد وناقص : وليس من واقع الا ما يدرك كله .

الكنيسة تقاوم المجددين

عارضت هذه الاكتشافات حرف سفر التكوين واعتماد الكنيسة ، منذ زمن قصي ، نظام ارسطو الذي اعتبر ، دونما سبب، وكأنه احد اعمدة الشريعة . وحين اعترف الاب شاينر لرئيسه الاقليمي باكتشافه بقع الشمس لم يرد هذا الاخير تصديق شيء من ذلك . ويروى انه قال له اذ ذاك : « لقد قرأت مؤلفات أرسطو تكراراً وباستطاعتي ان اؤكد لك انني لم أجد فيها شيئاً من ذلك . فاذهب يا بني واطمئن بالا وتأكد ان ما اعتبرته بقعاً في الشمس ليس سوى عيوب في عدساتك او في عيونك » . ولم يؤذن للاب شاينر ، في البدء ، الا باطلاع صديقه « فلسر » ، العالم في الادب القديم ، على اكتشافه ، في ثلاث رسائل حول « البقع الشمسية » لم يلبث فلسر ان نشرها . فعلا حينذاك صراخ الارسطاطاليسيين ، وهم الكثرة الساحقة ، لأن السماء قد استقذفت بهذا القول ، وصرحوا بان

الفلسفة قد « امينت اهانة محقرة » . « كانت (البقع) انخداع نظر وأوهاماً مصدرها العدسات » لانهم لم يستطيعوا تصور « رأي أبعد غواية من ذاك الذي يضع قذارة في عين العالم التي أوجدها الله لتكون مشعل الكون » .

كان الكرسي الرسولي قد نشر في السنة ١٦١٦ ما يلي : « ان القول بان الشمس ساكنة في وسط الكون قول جنوني ، باطل فلسفياً وهرطوقي ، لانه لا يتفق والكتاب المقدس . كما ان الرأي القائل بان الارض ليست في وسط الكون وأنها بالاضافة الى ذلك تخضع لحركة محورية يومية قول باطل فلسفياً واعتقاد أقل ما يقال فيه انه ضلالة » . لذلك فان غاليليو ، حين نشر في السنة ١٦٣٢ « الحوار حول نظامي العالم الهامين، النظام البطليموسي والنظام الكوبرنيكي » ، الذي هاجم فيه المذهب الارسطاطاليسي ، استدعي الى روما بطلب من ديوان التفتيش. فذهب اليها واوقف في شهر شباط من السنة ١٦٣٣ واخضع للفحص في شهر حزيران . وحين هُدِّد بالتعذيب ، رجع عن قوله ، وحكم عليه بالسجن وبتلاوة مزامير التوبة السبعة كل اسبوع طيلة ثلاث سنوات . واستحلف بان يصرّح عن كل ما قد يبدو له مريباً في نطاق العقيدة . اما « حواره » فقد ادرج في فهرس الكتب المحرمة .

التحول الفكري

كانت الارسطاطاليسية ، في هذه الاثناء ، آخذة في التصدع شيئاً فشيئاً . وكانت العلوم الطبيعية الجديدة تكيل لها ضربات لا تقل شدة عن ضربات علم الفلك . في نظر ارسطو كانت الحركة الرئيسية تبدلاً ، وكان مثال التبدل الولادة ، اي تكون كائن غير موجود من قبل . فعللت كل ظاهرة طبيعية بسبب مماثل أبداً لذاك الذي يجعل الحيوانات تتناسل وتتكاثر . وكان للكائنات الطبيعية في ذاتها مبدأ حركتها. وهذا المبدأ الداخلي الذي يسبب الحركة في كل كائن حي هو الروح . فالروح من ثم هي المثال الاصلي للطبيعة ، المثال الاصلي للشيء الخاص الذي يدرسه العالم في الطبيعيات . وفي المواد الطبيعية ، المركبة شأن كل كائن ، من مادة وصورة ، تكون الصورة المبدأ الجوهري المولّد. وطبيعة شيء ما هي صورة هذا الشيء . والصورة هي المبدأ الداخلي للحركة ، وهو مبدأ شبيه بالروح . فكانت هذه الصورة الجوهرية،من ثم ، مفاهيم غامضة يتراوح ما تشمله بين الفكر الداخلي والمادة . كان الثقل صفة داخلية تجذب الجرم نحو وسط الارض ، فهو قد عرف من ثم وسط الارض او أحس به ، وكان بالتالي روحاً سوية . وكان الثقل صفة من صفات جوهر الجرم ، مستقلاً عن المساحة أو الحجم ، شبيهاً بمفهوم المادة غير الهيولية ، اي انه كان روحاً ، لانه كان موجوداً في آن واحد في كل جزء من اجزاء الجرم وفاعلا فعله فيه ، بصورة خاصة ، بواسطة جزء واحد من أجزائه ، كالجزء الذي يلتصق بالحبل من وزن معين يستند الى هذا الحبل . وكان هذا احد الاسباب التي حملت ارسطو على القول باستحالة اخضاع الصفة والواقع للعلوم الرياضية . فالكائنات الرياضية لا تتحرك : انها أزلية وغير محدودة بزمان . ولم يتوصل ارخميدس نفسه الا الى علم توازن الاجسام : اي انه اخضع الكون للعلوم الرياضية . ثم ان الاشكال الهندسية ،

من جهة ثانية ، لا تعطي صورة كاملة عن المادة الارضية. فليس في عالم الواقع خطوط مستقيمة ولا سطوح ولا مثلثات ولا اجسام كروية . ليس لاجسام العالم الهيولي من أشكال هندسية منتظمة . ولذلك يستحيل تطبيق السنن الهندسية على موجوداته .

الا ان ما توصل اليه غاليليو في علم الطبيعيات قد أظهر ان الحركة تخضع لسنن رياضية . وبدا ان الزمان والمسافة مرتبطان بسنة العدد . واعلن غاليليو ان عالم الواقع وعالم الهندسة ليسا عالمين مختلفين . وان الطبيعة تحقق الشكل الهندسي . وان للحجر غير المهندم شكلا هندسيا ليس دون شكل الكرة احكاماً وضبطاً . وان الاشكال الهندسية مجانسة للمادة . وان السنن الهندسية تنفذ الى الواقع وتسيطر على العلوم الطبيعية . وان الطبيعة انما تتكلم لغة رياضية ، فيجب ان توجه اليها الاسئلة بهذه اللغة . وان النظرية الرياضية تتقدم الاختبار . وان سنن الطبيعة سنن رياضية . وان النظرية تعبر عن جوهر الظواهر .

استغنى الغاليليون عن الصور الجوهرية ولم يأخذوا بعين الاعتبار سوى الحركة والمسافة . واظهر غاليليو ان الجسم الجامد لا يطفو بالنسبة لشكله ، بل بالنسبة لثقله النوعي ، وانه يطفو في السائل اذا كان ثقله النوعي ادنى من ثقل السائل النوعي . استند الارسطاطاليون الى ظاهرة مألوفة هي طفو الصفائح المعدنية الرقيقة على سطح الماء . اما غاليليو فقد اثبت انها انما تطفو في الواقع على الهواء وانها تنزل حتماً الى القعر اذا ما غطست في الماء . لا شأن للشكل ، فالأهمية للثقل والحركات التي يسببها وسنن هذه الحركات . الحركة والسكون يستلزمان قوة خارجية وغريبة عن الجرم . ويبدو لنا هذا المفهوم جلياً وطبيعياً . وهذا الجلاء يرقى الى ثلاثة قرون ونيّف . واعتبر الارسطاطاليون كذلك انالاجسام الثقيلة والخفيفة تتحرك بفعل الخفة والثقل الكامنين فيها اللذين هما كائنات نصف هيولية ونصف روحية . أما في نظر الغاليليين ، فان ثقل الجسم هو قوة الدفع التي تتلقاها حركة الجسم الوازن الى اسفل في الهنيهة الاولى ، وهو من ثم القوة التي تتحملها المساحة القائمة مباشرة تحت الجسم الوازن . فليس وارداً من بعد سوى تنقلات المادة . والغاليلي يبحث عن جوهر الحركة ، عن نسبة رياضية .

ان ما يجب عمله ، في رأي غاليليو ومدرسته ، هو استخلاص الحركة ثم التأكد من الاستخلاصات الهندسية بالتحقق من الحركة . فالهندسة والحواس هي أدوات الاكتشاف . ولكن زملاء غاليليو رفضوا النظر في مرقبه ، ومعارضي هارفي رفعوا الاكتاف تهكماً حين اعلن هارفي انه لم ير الارواح قط في الدم . اعتبر الارسطاطاليسيون ان « كل كلمة تقابل مثالاً ، وكل مثال كائن . فعلم الصرف والنحو من ثم هو المنطق ، والمنطق هو العلم . لماذا درس الطبيعة والملاحظة والاستقصاء ؟ يجب ان ننظر الى العالم في فكرنا .. فنرى الحقيقة والواقع . كل تركيب كلمات تركيب اشياء ووقائع . وتنسيق الكلمات هو المعرفة .. » . أما الغاليليون فقد قاموا بتحويل فكري .

استمرار الارسطاطاليسية فقدان نظام كوني آلي

بيد ان الارسطاطاليسيين لم يهزموا بعد . فالمجددون لم يتوصلوا بعد الى ايجاد نظام يسير الكون كله بموجبه . اجـل تخلخل البناء الارسطاطاليسي وتهدمت بعض اجزائه ، ولكنه ما زال قائماً ولم يستبدل بسواه . أما الكوبرنيكيون فقد آلوا الى مذهب الطبيعية . فان كبلر ما زال يفترض وجود روح محركة مكانها في الشمس ترسل أشعة قوة ، هي نوع من التفريغ المغناطيسي ، أشبه بأشعة الدولاب . وان الشمس تدور حول محورها . وان هذه الاشعة تتناول بقوتها كل السيارات فتنقلها حول الشمس . وان السيارات ترسم مداراً اهليلجياً لأن قطبي كل منها يتعاقبان تعاقباً مطرداً أمام الشمس التي تجتذب احدهما وتدفع الآخر . وان الجاذبية « تواد بين جرمين متجاورين يميلان الى الاتحاد أو الاتصال ، شبيه في طبيعته بالمغناطيسية » . وسلم غاليلو ، اقلـه قبل السنة ١٦٣٠ ، بان علة الحركة التي كان يبحث عن جوهرها لها تفسيرها في ذلك . وقـد تأثرا كلاهما بطبيب اليزابت ، « جلبرت دي كولشستر » (١٥٤٠ - ١٦٠٣) وبمؤلفه حول المغناطيس (« الفن المغناطيسي » ، ١٦٠٠) . فان اختبارات جلبرت على الحجر المغناطيسي قد قادته الى اعتبار الارض ، بالمماثلة ، كمغناطيس ضخم . واعتقـد بالمماثلة ان الشمس والقمر وكافة الاجرام السماوية اجسام مغناطيسية تنشر قوة مغناطيسية في الفضاء الذي يكتنفها . وان هذه القوة المغناطيسية تولد حركاتها . وانها روح . وان للاجرام حياتها . وان الاجسام المغناطيسية حية ويتحرك احدها نحو الآخر تحركاً تلقائياً .

فلم تزل الحاجة ماسة ، من ثم ، الى تعميم سنة الجماد وتفسير الكون كله بالمسافة والحركة . ولم تزل الحاجة ماسة كذلك الى اخضاع الواقع للعلوم الرياضية . ولم يزل ممكناً الاخـذ على غاليلو ان الاختبارات التي فسرت استخلاصاته الهندسية كانت باطلة . فهو لم يأخذ بعين الاعتبار مقاومة الهواء وقوة الثقل والاحتكاك . وبعمل تجريدي ، ابعد العوارض وتخيل سطحاً مسطحاً تسطيحاً مطلقاً وكرة كلية الكروية ، كلاهما كلي الصلابة ، جسمان مجردان ، موضوعان لا في الفضاء الحقيقي ، بل في الفضاء المجرد الاوقليدي ، حيث لا تتأثر الاجسام بحالة السكون أو الحركة ، وحيث لا شأن إلا لسنة الجماد فقط . واستند الى مفاهيم لم تستخلص من الاختبار بل فرضت عليه فرضاً . وكان بالامكان ان يعاب عليه عند اللزوم أنه يبعد كل البعد عن الواقع . فما زال هنالك شك . وكان من الواجب تقديم البرهان القاطع النهائي على ان العلوم الرياضية تعبر عن الواقع وانها حقيقة الواقع بالذات .

تقصير بيكون

أجل كانت هنالك طريقة الانكليزي بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) الذي كان قد فكر بوضع بحث في العلم الجديد واجزائه وطريقة كل منها وشروطها . فجمع بعض النبذ واهمها اثنتان : « النظام الجديد » (١٦٢٠) و « تقدم العلوم » (١٦٢٣) . وقد هاجم بيكون ارسطو ، « ابا السفسطائيين » ، وافلاطون ، « ذاك المازح » . واوصى بالتوجه مباشرة الى الطبيعة بالاختبار للتوصل الى التسلط عليها باطاعتها اي بمعرفة سننها .

فأحدث بذلك صدمة عنيفة وأثار شعوراً قوياً واسهم في اعطاء الابحاث العلمية اندفاعاً شديداً . ولكن كتبه كانت مجرد كتب منهجية ، فلم تتضمن نظرة شاملة على العالم كان من الضروري احلالها محل نظرة الارسطاطاليسية . اضف الى ذلك انها كانت مشوشة ككتب منهجية . فان بيكون لم يسائل نفسه قط عن شروط الملاحظة بحد ذاتها وعن الاحتياطات الانتقادية الواجب احترامها . ووقف موقفاً حذراً من العلوم الرياضية . فأول ما فكر به هو تنويع الاختبارات وتوزيعها على ثلاث فئات : فئة الوجود ، فئة الفقدان ، فئة الدرجات. اما الصورة ، او الجوهر التي تولد طبيعة الظاهرة النوعية فتوجد ، كما هو طبيعي ، في الدردي . فلنأخذ الحرارة مثلا : تحدث في ٢٧ حالة ؛ ولا تحدث في ٣٥ حالة ؛ وتتنوع في ٤١ حالة ؛ والدردي هو حركة الارتجاج التي نرى نتيجتها في الماء الغالي . الحركة هي صورة الحرارة ، وهي عنصر محسوس نلاحظه ولا نستنتجه استنتاجاً . زد على ذلك ان الدردى عند بيكون هو ابداً استعداد آلي ثابت في الطبيعة . وان جوهر كل شيء في الطبيعة هو تركيب هندسي دائم . يبحث بيكون عن التراكيب والحركات الخفية ولكنه يعتبر كل تركيب مطلقاً لا يقبل التفسير . فهو اختباري لا يستطيع ان يصنع العلم . والاختبارية لا تقود الى شيء . الاختبار يفرض النظرية ويفرض الكلام لانه سؤال يطرح على الطبيعة . الا ان بيكون قد افتقر الى هذا الكلام الذي هو العلوم الرياضية . فاخفق . ومنذ السنة ١٦٢٥ اخذ عليه الاب « مرسين » انه ساذج وانه يقترح انظمة لا يجهلها العلماء واختبارات اجري بجملها من قبله وتعابير جديدة لم تأت بأي جديد حقاً . فان بيكون ، وشأنه في ذلك شأن الارسطاطاليسيين ، قد وضع الارواح في كل مكان . وقال ان الاجرام ترغب في ان تتلامس خوفاً من ان يحدث فراغ ومن ان تتجزأ الطبيعة ؛ وانها ترغب في العودة الى حالتها الاولى ، حالة العظمة والصورة ، التي كانت حالتها حين اعتدي عليها وابعدت عن استعداداتها الطبيعية ، وفي ان تتحد مع اجرام الكون واجزائه المختلفة التي هي من طبيعتها ، الخ . فلم يكن باستطاعة هذا المجدد المزيف ان يعطي الحلول الضرورية .

ازمة العقل

كانت الاكتشافات ، التي فتحت ابواب اللانهاية ، ووضعت الحركة في كل مكان اعتبرت فيه من قبل سكوناً ، وكانت الحركة التي انزلت منزلة الكمال ، تبريراً عقلياً للفن المستهجن . فقد قامت هنالك مماثلة ، دونما مشابهة ، بين مهندسي العمارة الذين يضعون الحركة في الابنية باعتماد « الاشكال التي تطير » ، وبين العلماء الذين يضعون الحركة في كافة اجزاء الكون، وبين الرسامين روبنس ورمبراندت من جهة وبين الرياضين كبلر وغاليليو من جهة ثانية .

وكانت اختلاطاً وتشوشاً ايضاً . فان في التناقض بين نظام قائم للعالم وبين الاكتشافات الجديدة ، والنظريات العقلية والمساعي الفكرية الكثيرة التي بدت وكأنها الجلاء نفسه والعقل عينه ، والتي أمست بين ليلة وضحاها نظريات ومساعي هرمة وباطلة ، والصدمات والتناقضات

الكثنة ، ما بدا تبريراً لمذهب التشكك في الكل ، واعترافاً بسقم العقل المضل وتشريع باب امام الارتيابيين والملحدين .

٨ – الملحدون

اتسمت بعض الجماعات ، التي جمع بينها اسم واحد هو اسم « الملحدين » ، بطابع مشترك هو التنكر للمسيحية ، نظرياً وعملياً ، واعتماد الحياة الوثنية أو مفهوم الحياة الوثني . وسارت من ثم على خطى نقاد النهضة العقليين ، من امثال « بومبونازي » و « ماكيافلي » ، وأمير الارتيابيين « مونتاني [1] » . واستندت ، على غرارهم ، على القدماء . ونقلت تعاليم القدماء بحذافيرها الى برامج التدريس . فوجد الطالب الفتى عند المؤلفين اللاتين واليونانيين كل ما هو ضروري للحياة : وكوّن لنفسه ، بذلك ، روحاً قديمة معادية للدين المسيحي .

ظروف الالحاد السياسية

أما ما أبعد هذه الجماعات عن الدين المسيحي فهو ، في الدرجة الأولى ، الاخلاق السيئة التي تميز بها الاكليروس ، المعين من قبل الدول لغايات سياسية : كهنة جهلة نسوا حتى صيغة الحل من الخطايا ، راهبات كثيرات الاهتمام باجسادهن ، رئيسات اديرة عالميات ، احبار لم يسلكوا سلوكاً يقتدى به ، رؤساء أديرة في سن الطفولة ، كهنة قانونيون على مقاعد الدراسة ، وخدمة رعايا سكيرون ، « لافردين » اسقف « له مان » المتظارف ، « لاربفيير » ، الذي انتقل مباشرة من « مجلس خلاعة » شقيق الملك (السيد) ، الى اسقفية « لانغر » . وقد قال احد المصلحين : « ان اسوأ ما يُفعل ... يفعل في أوساط الكنسيين » . ومما زاد في الاشمئزاز وتقزز النفوس المشادات الدينية ومجادلات اللاهوتيين ، كاثوليك وجنسنيين ، وغوماريين وارمينيين ، وقد جرت على مرأى الجماهير ومسمعها وخلت من مبادىء المحبة الاولية . اضف الى ذلك ان الحروب الدينية قد اذلت الدين وافقدته اعتباره . فباسم الانجيل تشاتم اطراف النقيض وتحاسدوا ونشروا القذارة في مقالات حاقدة عنيفة مشينة وخانوا وقتلوا . وانتهى الامر بالناس الى الارتياب من وجود حقيقة دينية والتفكير شيئاً فشيئاً بان الدين قد يكون مشؤوماً . وجاءت الحروب الاهلية والخارجية اخيراً تحل عنف الغرائز من عقاله وتقضي على البقية الباقية من احترام الدين فخلال الحملات العسكرية، لم يتورع الجنود عن تحطيم ابواب الكنائس وسرقة الحلل الكهنوتية وتخريب بيوت جسد الرب واستلاب حقق القربان وتدنيس القربان المقدس . وشجعت الحياة في المعسكرات اشباع رغائب الحواس والاستسلام لابتغاءات الجسد والسلب والنهب والاغتصاب ومغازلة النساء والانصراف الى المسكر ؛ وابعدت عن دين طهارة يحاول توجيه كل قوى الفرد الى محبة الله الخالصة والقداسة الكاملة التي لا يشوبها عيب .

---

١ – مونتاني : حياته ، فلسفته ، منتخبات ، صدر عن منشورات عويدات . (الناشر)

الحاد الفكر
ارتيابية الملحدين

اسهمت الحركة الارتيابية في ابعاد الناس عن الدين المسيحي الذي يرتكز الى البراهين . فقد ادعى الدين المسيحي ، من جهة ، بأن وجود الله يمكن اثباته عقلياً بالارتقاء من المخلوقات الى الخالق ، ومن جهة اخرى بأن الوقائع التاريخية التي نستطيع بواسطتها الاستدلال على ألوهة المسيح قد اثبتها نقد تاريخي عقلي . ولكن الملحدين كانوا كلهم على مذهب الشك بالكل . ففي السنة ١٦٣٠ قال « لاموت له فايبه » في حوار « اوراسيوس توبَرو » .

« ليست حياتنا كلها ، اذا ما فحصناها من كل وجوهها، سوى اسطورة ؛ وليست معرفتنا سوى غباوة ؛ ويقيننا سوى خرافة ؛ وبمجمل القول ليس هذا العالم سوى تمثيلية مضحكة ومهزلة دائمة » .

تأثر هؤلاء الاشخاص بالحس الفني المستهجن ، فتوسعوا في تعلم عظماء النهضة الايطاليين وتعليم « مونتاني » . شرع « غاسندي » في السنة ١٦٣٤ باحياء المذهب الابيقوري في كتابه « دفاعاً عن ابيقور » . فرأى غاسندي ، مخالفاً بذلك ابيقور ، ان الذرات ليست أزلية ولكنه رأى ، كما رأى ابيقور ، ان الكون مركب من ذرات دائمة الحركة تتساقط في الفضاء وتكون عوالم شبيهة بعالمنا لا يحصى لها عدد . وان كل الاشياء وكل الاجسام مركبة من ذرات متحركة . وان جسمنا مركب من ذرات ايضاً ، وان روحنا اقرب ما تكون الى النفحة ، او اللهيب ، وهي مجموع ذرات صغيرة جداً منتشرة في كافة أجزاء جسمنا . فالنفس تتأثر من ثم بكل ادواء الجسم . تتحرك ذرات الجسم بفعل المخيلة تنطلق باستمرار من ذرات الاجسام الاخرى ، وتتحرك الروح بفعل حركة الجسم ، فيتولد الشعور . شواعرنا صحيحة ابداً ولكن احكامنا عليها قد تكون مخطئة ، فالمخيلة تقرّب معطيات الحواس وتنظمها وتقارن بينها وتنقصها وتوسعها ثم تستخلص منها الاحكام . لذلك كانت اسباب الخطأ متعددة في هذه العمليات . ان ما فوق الطبيعة حكم سيء على معطيات الحواس بل انتاج من انتاجات المخيلة . يجب اعادة العمليات ومقابلة الاحكام وامتحانها باستمرار ، فيما بينها وبالنسبة لحواسنا . فغاسندي ، وشأنه في ذلك شأن الارتيابيين الآخرين ، كوبرنيكي وغاليلي لا غش فيه . وحين ينحل جسمنا المركب من الذرات ، تنجاب النفس وتضمحل . فلا يبقى حينذاك شعور ولا عاطفة ، ويموت الفرد بكليته .

افضت هذه المادية الى نتائج عدة . وفي مقدمتها استحالة ادراك كنه الاشياء . لا نبلغ بواسطة حواسنا سوى حقيقة نسبية كافية عملياً . أما طبيعة الاشياء الحقيقية فلا ندركها . فما هي من ثمة قيمة الآراء النظرية حول طبيعة الكائن ، حول طبيعة الله ؟ وما هي قيمة البراهين على وجود الله ؟ وما قيمة هذا البرهان على وجود الله في تسليم الشعوب كلها بذلك ، على انها تفعل ذلك انقياداً لرأي مطبوع ؟ لا وجود لرأي مطبوع بل كل شيء يصل الينا عبر الحواس ، والمخيلة تركب معطيات الحواس تركيبات مختلفة جداً بحيث لا تكون عند اناس كثيرين اية فكرة عن الله كما اعترف بذلك بعض الملحدين . وقد رأى غاسندي ان

فكرة الله هذه ، مع ما تنطوي عليه من مفاهيم اللانهاية والازل والكمال والقدرة الكلية والصلاح الكلي، ليست سوى توسيع وتعظيم كمالات الجنس البشري ، اذ ان افكارنا العامة تأتينا من الحواس . فالاله هو الانسان متحلياً بمنتهى كمالاته .

وافضت كذلك الى الوقوف موقف الحذر من الشهادة التاريخية . فكيف تصح الثقة بشهود تتكون آراؤهم تكوناً يترك مجالاً لبقاء مثل امكانات الخطأ هذه ؟ قام « نوديه » ، امين كتب الرئيس « دي مسم » ، وخريج جامعة بادوا ، بتهذيب النقد التاريخي . فتوصل منذ السنة ١٦٢٥ ، في كتابه « دفاعاً عن عظام الرجال المتهمين بالشعوذة » ، الى وضع سلسلة المراجع والعودة الى المصادر ودرس قيمة الشهادات . فبحث عن المستند الاول ، والزمان الذي كتب فيه ، ووضعه ، واتجاهه ؛ ومحّص قيمة تأكيداته وفسرها بحسب النزعة المادية للفلسفة الابيقورية . فأعيد كل شيء الى روابط طبيعية بين علة ومعلولات ، واعيدت كل دوافع الانسان الى مصلحته المادية . تظاهر « نوما بومبيليوس » بالتحدث الى الحورية « ايجيريا » بغية توطيد سلطة انظمته . كما ان مؤسسي الامبراطوريات وقادتها قد ادعوا بانهم آلات في ايدي الآلهة ، بغية ارساخ سلطتهم . واختلق نساك صحراء طيبة روايات باطلة عن معارك مزعومة ضد الشيطان للتوصل الى الشهرة والاحتيال على اموال السذج . وليس تنصر كلوفيس ودعوة جان دارك والوحي المنزل على محمد وموسى سوى حيل سياسية . ولكن ماذا يكون اذ ذاك من امر الدين المسيحي والشهادات الانجيلية ؟

الشعوب الغريبة والديانة الطبيعية

ووفرت الاكتشافات الجغرافية اسلحة جديدة . فقد سبق ان اتاح برابرة اميركا لمونتاني ان يستهزىء بالعقل والاخلاق والديانة عند الشعوب المسيحية . ووفرت الصين وسائل العمل نفسه لملحدي القرن السابع عشر . ففي السنة ١٦٤٢ ، قال « لاموت له فايه » ، في بحثه حول « فضيلة الاوثان » ، ان التسليم واجب ، ما دامت الكنيسة لا تستبعد امكانية خلاص الفلاسفة الاوثان الذين عاشوا عيشة صالحة بحسب السنة الطبيعية قبل شريعة موسى ، بان حكماء الامم ، التي لم يبشر الرسل فيها بالدين المسيحي ، قد يكونون خلصوا ايضا . فالمسيح لم يبشر به في الصين . ولكن الديانة الصينية انقى من ديانة الاغريق أو الرومان أو المصريين لانها لا تستشهد بالمعجزات ولأن الصينيين منذ القدم ، آمنوا باله واحد . فان كونفوشيوس ، سقراط الصين ، قد آمن بوجود اله واحد واتخذ مبدأً مبدأ السنة الطبيعية بالذات ، اي الامتناع عن معاملة السوى بغير ما نريد ان يعاملنا به . ومن ثم فان كونفوشيوس والصينيين قد يخلصون أيضا . أما الفكرة المركزية في كل ذلك فكانت رفق الطبيعة الذي يميل الى هدم الاعتقاد بالخطيئة الاصلية وضرورة الفداء بواسطة المسيح وضرورة النعمة ، اي بأسس المعتقد المسيحي .

وانتشر الاعتقاد كذلك بان شعوب اميركا وآسيا والمناطق الجنوبية لم تنحدر من آدم وان التوراة لا تسرد من ثم تاريخ الانسانية وعلاقتها بالله ، بل تاريخ شعب واحد فقط هو الشعب

اليهودي . فليس للتوراة ، والحالة هذه ، تلك القيمة السامية التي تعزوها الكنيسة اليها .

أما رجال الكنيسة من امثال غاسندي ، استاذ اللاهوت في « دينيه » ، وذوو الفطنة من من امثال « نوديه » أو « له فايه » ، امين سر ريشليو ، فقد تخلصوا من الورطة باعتماد تعاليم بومبونازي حول اولوية الايمان على العقل ، وفصل العقل عن الايمان .

الاقدمون يحلون محل الديانة المسيحية الابيقوريون والرواقيون

ولعل ما كان ابعد خطورة من كل هذه الحملات ان الاقدمين وفروا وسيلة الاستغناء عن الديانة المسيحية ، فهل نحن نتوخى ادارة بيت وتربية اولاد ؟ هوذا « كسينوفون » . أم نتوخى الحكم ؟ هوذا ارسطو وافلاطون وتاسيت ، ام نقوض معركة سنن الكون ؟ هوذا بلين ولوكريس . أم الاستدلال على حدود الطبيعة والمعجزة ؟ هوذا كتاب « معرفة الغيب » لشيشرون . أم التفكير بخلود النفس ؟ هوذا « فيدون » و « حلم شيبيون » . وتوفرت عند الاقدمين ، بصورة خاصة ، تعاليم تتيحُ للانسان ان يكفي نفسه بنفسه لمواجهة صعوبات الحياة وآلامها وقلقها الشديد ، تعاليم يملي فيها العقل ما تنفذه ارادة حرة . ورأى ابيقور ان قوام السعادة شرطان : « جسم بدون الم ، وروح بدون اضطراب » . وان هاتين الحالتين هما التنعم ، غاية طبيعتنا الاولى وخير الانسان الأول . وان العقل السليم يملي علينا الاشياء والآراء التي يتوجب علينا تجنبها أو السعي وراءها بغية بلوغ هاتين الحالتين . وانه سيحدو بنا الى رفض ملذات كبرى . اذا ما تبين لنا ان آلاما اكبر ستعقبها ، ومعانقة آلام كبرى وطويلة اذا ما ثبت ان ملذات اكبر ستعقبها . وانه سيظهر لنا ان القناعة والنزاهة والعدل تضعنا في الحالات التي يصدر عنها التنعم ، وان الغبطة والفضيلة شقيقتان لا تفترقان ابداً . فغدا من ثم دستور الملذة حسابا نفعيا متحذراً . وكان ذلك جوهر كتاب « الحكمة » لبيير شارون (١٦٠١) الذي ادرج في فهرس الكتب المحرمة في السنة ١٦٠٦ وسار سواد الملحدين بهدي هؤلاء المرشدين .

وآثر غيرهم الرواقيين ، ابيكتيت ، سينيكا الذي حملت رواقيته طابع الابيقورية . هنالك أشياء يناط امرها بنا ، كالرأي والارادة والرغبة والكراهية ، وبصورة عامة ، احكامنا وتصوراتنا . نحن نسيطر عليها . نحن احرار . عقلنا يولينا القدرة على تصور الاشياء ، ورؤية صلاحها وسوئها ، وابتغائها أو النفور منها ، والسعي وراءها أو الانصراف عنها . القدرة على الحكم والارادة لا تخضع لاي قيد .

وهنالك اشياء لا يناط امرها بنا ، الجسم ، الممتلكات ، الصيت ، الكرامة . انها غريبة عنا وأمرها منوط بالآخرين .

اذا ابتغينا ما هو منوط بنا فقط ، اي احسان الحكم والتوفيق بين ارادتنا وحكمنا ، فسوف نكون سعداء لأن السعادة هي في الحصول على ما نبتغي .

ولم يكن الرواقيون ندرة بين القضاة والاشراف الريفيين . لا بل ان احد الرهبان قد طلب ان يدفن والى جانبه كتاب لسينيكا لم يفارقه في يوم من الايام . ولكن الابيقوريين كانوا اكثر عدداً ، وباتت الابيقورية ، بسهولة ، نفعية وقعت موقع الرضى من الذهنية البورجوازيـة . فاعتنق هذه التعاليم رجال قضاء اشراف من امثال « دي فبر » و « دي تو » و « دي مسم » و « موتور » و « سيفيه » و « هارلي » ؛ وبورجوازيون ، ابناء تجار واطباء وضباط ملكيين ؛ وكنسيون ومهذبون ووكلاء خزائن كتب وامنـاء سر وزراء ومستشارون وسفراء واحبار وأمراء ملكيون ، من امثال غاسندي ، ابن المزارع واستاذ اللاهوت في دينيه ، ونوديه وكيل خزانة كتب الرئيس « دي مسم » ، و « لا موت له فايـه » امين سر ريشليو (١٦٣١ – ١٦٤٢) ومهذب لويس الرابع عشر (١٦٥١ – ١٦٥٨) ، اجتمعوا نوادي ثقافية حول قضاة ناصروا الادب ، كـ « بيرسك » في « اكس » ، وقد كان على صلة بجميع انحاء اوروبا والرئيس « دي مسم » في باريس والرئيس « دي تو » في قصره حيث عمل وكيل خزائن الكتب ، «بيير» و « جاك دي بوي » (١٦١٧ – ١٦٥٦) .

الفجـور ولكن الانسياق وراء الطبيعة ، اي البحث عن التنعم ، قد عنى في نظر الكثيرين بتأثير فن الحس الفني المستهجن ، انفلات غرائز ، وحميـا ارادة دون رقابة ، وتخطيا لكل الحدود . فكانت فترات القصور الشرعي وفترات الاصابة وعهـد « ماري دي ميديسيس » وعهد « آن دوتريش » عهود مغازلات خطرة وقحم جنونية انصرف خلالها بعض الاشراف الريفيين ، من امثال الكونت « دي بلفارد » والدوقيـة « دي غيز » والمارشال « دي رو كلور » المقربين الى هنري الرابـع والمدربين على المكامن والسلب والاغتصاب والاحراق بدافع من اهواء فظة ، الى العيش في اجواء الفجور الجنوني والمقاتلة والمبارزة والسكر والتجديف ، وتلهوا وانكروا الله وعاشوا عيشة من لا يؤمن . وبات مألوفا في بيئة بعض الشبان اعتبـار الدين مخاتلة وخداعاً . وقد حدث ، اثناء حصار « لاروشيل » ، ان ضباطاً تمادوا في سخريتهم من رفيق لهم تكلم عن الله الى ان ارغمـوه على طلب تسريحـه . ولم تختلف الحـال ابان ثورة « المقلاع » (*La Fronde*) . ولفت الالحاد الانتباه بين النبلاء من حاشية « غاستون دورليان » و « كونديه » . فما هو عددهم يا ترى ؟ اجاب « مرسين » على هـذا السؤال منبهراً بقوله : « ان باريس وحدها مبتلاة باكثر من ٥٠٠٠٠ ملحد » . وحوالي السنة ١٦٣٠ ، ذرف « بوشيه » الدمع أسفا على « مليون عقل مفقود » . ولكن كلا القولين صرخة الم لا قيمة احصائيـة لها . وبين السنة ١٦٢٣ والسنة ١٦٢٥ حدثت ازمة حقيقية . فقـد صدرت خلال سنتين المؤلفات التالية : « قصة فرانسيون » ، « عروس الشعر المعوب » ، « حجرة الهجاء اللاذع » ، « ديوان شعراء الهجاء اللاذع » ، « صفوة الهجاء اللاذع » . وتناولت هـذه الكتب مواضيـع معادلة التقوى والرثاء وحق اللذة في التغلب على القانون . فكانت النتيجة موجة من الرعب . واعتقد المتدينون بوجود مؤامرة مبيتة . وبات « الالحاد » واقعاً معترفاً به وقوة يجب محاربتها .

٩ – أثر الحركات الفكرية والعاطفية في السياسة

أثرت كل هذه الحركات العاطفية والفكرية في الازمة السياسية والاجتماعية فجعلتها تتفاقم وتزداد خطورة . قال ريشليو : « ان نظام الدولة يفرض بعض التساوي في السلوك » . الا ان الاستهجان والالحاد والجنسينية ومركزية الشمس قد ابرزت ووسعت الاختلاف والتفاوت والفوضى . ووفرت وسائل المعارضة السياسية . وليس مصادفة أن يكون قادة الملحدين بين الاشراف الريفيين ، من امثال كونديه وغاستون دورليان ، قادة في الوقت نفسه لحركة مقاومة الملكية المطلقة . وليس مصادفة كذلك ان يكون الكثيرون من أدباء الاستهجان ، وهم الاعداء الالداء لكل نظام وسلطة وقسر ، في عداد « خدم » العظماء و « المتفنانين » في سبيلهم ، مستعدين لخدمتهم بالتعليم كما يخدمهم غيرهم بالسيف . أو لم تغد الوان الفن نفسها مظاهر مقاومة؟ فها هو علم الاخلاق الارستوقراطية قد حث على الثورة بدافع من الحس الفني المستهجن ، والأدب قد بات وسيلة دعاوة . وها هو كورناي في « نيكوميد » و « رودوغون » ، و« روثرو » في « الامانة البريئة » ، و « بليزير » ، و « لاروشفوكو » و « رتز » في « مذكراتها » ، قد مجدوا هوى العظمة ، ورفض الخدمة ، والطباع الفظة التي تتكسر ولا تنحني ، والنفوس الكبيرة التي تستهوي المغامرات البطولية .لا بأس في ان تكون المغامرة اجرامية اذا هي انطوت على احتقار الموت وافضت الى السلطة . ان ما يفقد المرء اعتباره هو تحذره ، وتوسطه ، وبخله بماله وحياته ، وعيشته مغموراً في الخفاء . كما ان الخطر الكبير هو السبيل الى المجد الكبير . أما الخير الاسمى فهو في ان نرغم الغير على عبادتنا ومحبتنا ومهابتنا ومقتنا .

المقصد المجيد شرعي ابداً
واذا اعتبر شراً ، فمرد ذلك الى تقدير ضعيف
صادر عن نفس موعوكة
القلب الكبير لا يدهش البتة أمام المخاطر الكبيرة
ومن لا يقدم على جريمة تتوج بالغار
يتقيد على حسابه بفضيلة فاشلة

(الامانة البريئة)

كل الجرائم جميلة اذا كان لها العرش ثمناً

(الامانة البريئة)

ان القلب الكبير يشتري الاعتبار الكبير بأي ثمن
وكل جريمة حلال حين تفضي الى أكبارنا

(بليزير)

أما الملحدون فقد تظاهروا باحتقار الجماهير الجاهلة الميقانة ، اي عامة الناس . ولكنهم من جهة ثانية حطموا البطل ، وهو احد المثل الاساسية في الملكية المطلقة . فقد توسع « رينييه »

« وتيوفيل دي فيو » ، بشكل شعري ، وبمزيد من العنف والتشاؤم ، في تعليم « مونتاني » ، وجزموا بأن الانسان ليس ملك الكون، بل نتاج قوى عمياء ، وامتزاج هواء ووحل ، خاضعاً لضغط الضرورة ، متحركاً باهوائه ، العوبة المحبة والضعف والخطأ . فانى لمثل هذا الانسان التوق الى السلطة المطلقة ودور المخلص ؟ العقل الكوني خرافة . فعلى كل فرد ان ينقاد لطبيعته ويخضع لسنته الباطنية فقط . ليس للرذيلة من علة سوى الجهد الذي نبذله بغية السلوك بمقتضى الظروف ، ومن ثم بغية خيانة ذاتنا. واذا كان هنالك طماعون وجشعون ومراؤون، فمرد ذلك الى ان الانسان لا يريد ان يجد في ذاته غاية اعماله . يجب ان نتعلم « التمتع بذاتنـــا » . فغدت لحكومة والمجتمع من ثم السببين المسؤولين عن ضعف الافراد وكان معنى ذلك ان كل نظام وكل ايمان قويم وكل قانون اجتماعي وكل تضحية وكل مجهود بات موضوع سخرية وقضي عليه ، وان اسس المجتمع نفسها قد تخلخلت وتزعزت .

وافضت الجنسينية ايضاً الى تحطيم البطل . فهي قد صورت الانسان العوبة شعوره والعادة والمصادفة ؛ وصورت ابتغاء المجد غريزة تملك والسعي وراء الخير الاسمى حركة نفعية لاواعية وعمى قلب . فليس باستطاعة الملوك وقادة الحرب والوزراء ، من بعـــد ، ان يكونوا انصاف آلهة . وقابل الجنسينيون السلطة الخارجية بوصايا الضمير ، المستقل ، لأن الله نفسه يحركه . وانتزعوا من السلطة الحكم المانع في المسائل التي تقـــع تحت الحواس أو ترتبط بقوة العقل . ونظروا الى الرأي القائل اننا لا نخطىء حين نطيع ، نظرتهم الى شرك تنصبه محبة الذات ، معلنين خطأ السير ، والعيون مغمضة ، ووجوب التوجه الى الله مباشرة فوق السلطات القائمة ، الكنائس والملوك ، بغية سؤاله عن السلوك الواجب سلوكه ، وقـــد برهنوا في كل شيء عن تقلقل ومعارضة . وحلم واضعو نظرياتهم البورجوازيون ، في سبيل مقاومــــة السلطة البابوية المطلقة ، بارستوقراطية اساقفة تختارهم مجالس الكهنة القانونيين ولا يتلقون الوحي من البلاط أو من القاصد الرسولي ؛ وفي سبيل مقاومــــة السلطة الملكية المطلقة ، وبطبقة شريفة من علية البورجوازيين تكون لها السيطرة في نظام دستوري .

وهكذا كان باستطاعة كل فرد ، في نضاله ضد غيره من البشر أو ضد الحكومة ، التوصل الى مبررات فكرية . فلم يكن القرن ، والحالة هذه ، سوى اضطراب وبلبلة وتشوش . وبدت المجتمعات الاوروبية وكأنها صائرة الى الفوضى والانحلال والزوال .

الفصل الثاني

مقاومة الأزمة

كان رد الجسم الاجتماعي ، على فوضى الحس المستهجن التي كادت تقضي عليه قضاء تاماً ، بذل الجهود بغية استعادة الوحدة العضوية ، الوحدة الكلاسيكية ، وهي شرط لا بد منه لحياته. كان الرد تلقائياً في البداية ، فنبع من نوع من التوازن بين النزعات البورجوازية ونزعات اشراف الجندية . وصدر بصورة خاصة عن اناس منحدرين من الاوساط البورجوازية ، كأعضاء المهن الحرة ، ورجال القانون ، والقضاة ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ما زالوا قريبين من البورجوازية ، وقد تعودوا كلهم ممارسة النظام والاقتصاد والسيطرة على الاهواء الخاصة بالبورجوازي . وما زالوا يحرصون على بقاء العائلة والملكية ويتعشقون الشرعية ويحترمون تسلسل السلطات والرئاسات القائمة ، ويتحلون بروح كلاسيكية بفضل تربيتهم الادبية . ولكن هذه الطبقة الصاعدة لم تتوصل بعد الى وعي ذاتها وعياً كاملاً . فان هؤلاء الناس ، الذين كانوا خدام الملك ، الشريف الاول في المملكة ، و « اجراء » العظماء ، واسياداً حديثي العهد ، ورغبوا في ان يُعتبروا نبلاء وحجموا باعينهم الى المثل الارستوقراطي ، قد حاولوا ان يعيشوا حياة البطل الابي الذي يبذل نفسه في سبيل الهه وسيده وسيدته والدولة والفكرة ، بسخاء كريم ، هو هوى نبيل يرتفع على ما غيره من أهواء ، وينظمها ، ويوحد الوعي . من اوساط هؤلاء بصورة خاصة ، ومن الندوات وقاعات الاستقبال التي يتم فيها الاتصال باشراف الجندية ، انبثقت نظرية مركزية الاله الاوغسطينية ، والكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية ، والكرتزيانية (الديكارتية) ، والحكم المطلق ، والروح التجارية والاهتمام للاستقلال القومي والعظمة القومية . ولكن العمل التوحيدي الكلاسيكي لم يتمكن من تحقيق النتائج الا بفضل الدولة الملكية المطلقة التي تبنت هذه النزعات وشجعتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وعلى غير قصد أو وعي منها احياناً ، وأتاحت لها التفتح وأمنت لها نجاحاً عرف بعض الديمومة .

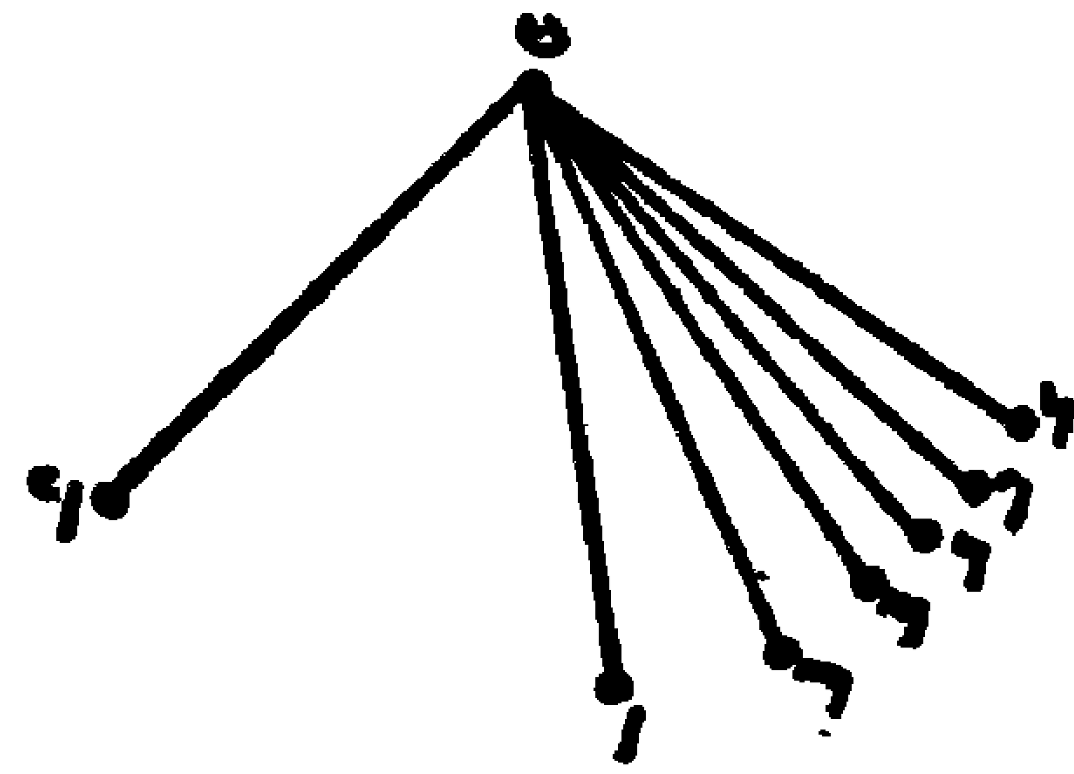
١ – المدرسة الفرنسية ، ونظرية مركزية الاله الاوغسطينية

بيرول

انتهى الاصلاح الكاثوليكي الى الاكتمال في نظرية بيرول (١٥٧٥ – ١٦٢٩) حول مركزية الاله بحسب التعلم الاوغسطيني . كان بيرول ابنا لأحد المستشارين في مجلس باريس التمثيلي وابن اخت لاربعة مستشارين آخرين في هذا المجلس وابن عم لمستشار فرنسا ، « سيغيه » . واصبح مرشداً لـ « هنريت دي فرانس » ملكة انكلترا (١٦٢٥) ، ثم كردينالاً (١٦٢٧) ، ثم رئيساً لمجلس الملكة الام « ماري دي مدبيس » (١٦٢٩) . وكان روحانياً ، من فئة مدام « اكاري » يمارس الحياة الداخلية والحياة التأملية .

الاوغسطينية

رجع بيرول الى القديس اوغسطينوس . وعن طريقه الى افلاطون والمثل المطبوعة ، بغية التمكن من مقاومة الالحاد والهرطقة والفتور . فاذا كانت طريقة المعرفة الاكوينية قد غدت حجة للابتعاد عن الله ، فلنرجع الى ذاتنا ولنخلق جوا من السكون الداخلي ، فتظهر امامنا المفاهيم الاولية ويظهر الله . فكما حدث في كل عهود الصوفية ، وفي عهد « برمنيد » ، توجب على الانسان ، في مقاومته التشتت والتعدد ، ان يبتعد عن العالم المحسوس ويحاول ان يشاهد ، في ذاته الكائن ، الواحد ، ويلامسه ، اذا صح التعبير ، ملامسة المادة للمادة . وهكذا شاهد القرن السابع عشر كله حركة اوغسطينية كبرى اسهم بيرول فيها .



الشكل ٧ – رقاص غاليلير
(انظر صفحة ٢٦٠)

مركزية الله

ان بيرول ، الذي تقيد من جهة ثانية بالتعلم الكاثوليكي حيال الحرية ، اقتبس عن القديس اوغسطينوس شعوره بعظمة الله اللامتناهية وفناء الانسان . فاستخلص نتائج ذلك في « خطبة حول معالي يسوع » (١٦٢٣) . واراد ان يقوم بثورة كوبرنيكية ، تقول بمركزية الله . واراد عقل نيّر من عقول هذا القرن ، نقولارس كوبرنيكوس الدفاع عن ان الشمس هي مركز العالم ، لا الارض ؛ وانها ثابتة وان الارض ... تتحرك امام الشمس ... ان هذا الرأي ، الذي لم يعمل به كثيراً في علم الكواكب ، لا يخلو من الفائدة ويجب ان يعمل به في علم الخلاص » .

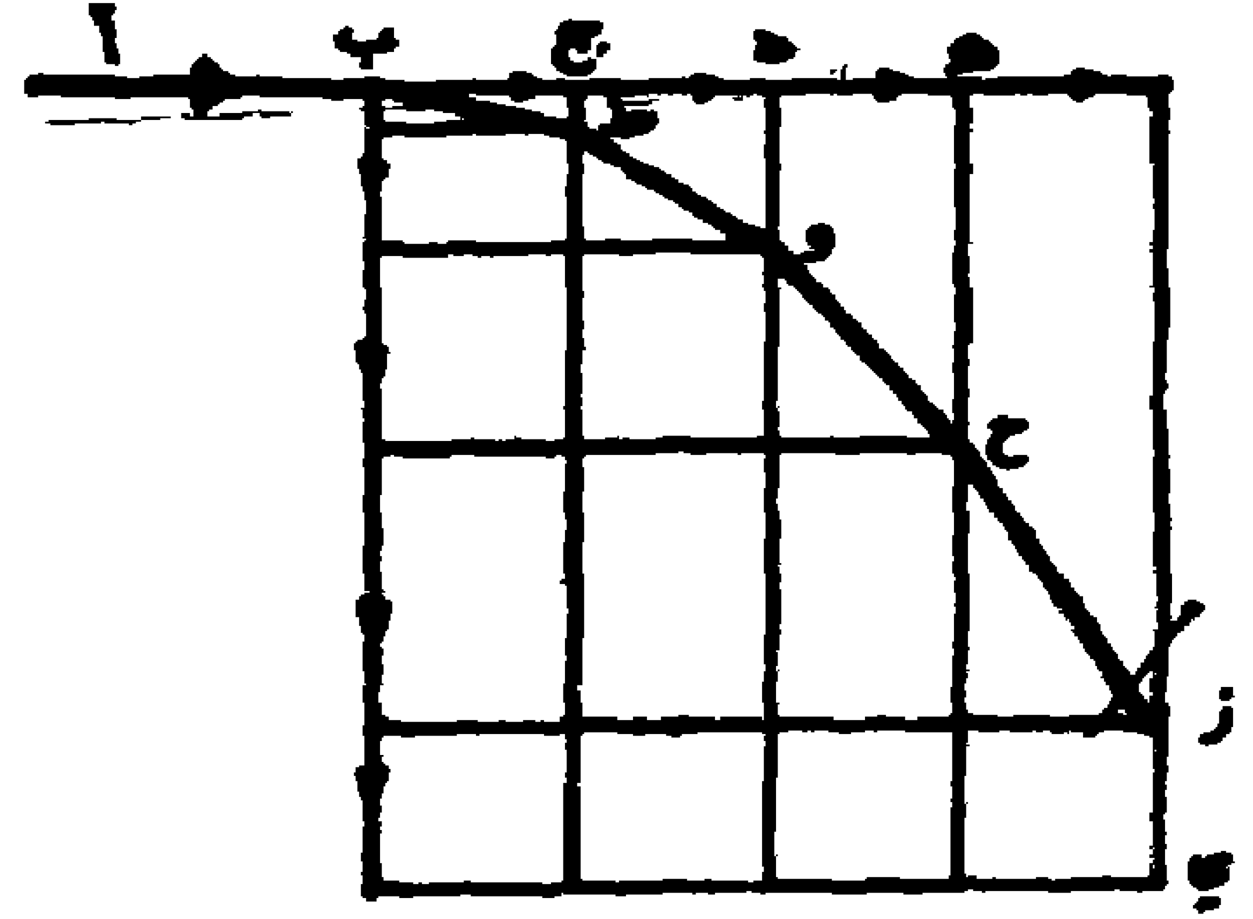
كان بيرول تلميذ اليسوعيين وتشبـع ، عن طريق القديس اوغسطينوس، من التأمل الاسامي حيث يقول القديس اغناطيوس: « يجب ان ننظر الى الله اولاً لا الى ذاتنا. وان لا نتصرف بوحي نظرنا الى ذاتنا والبحث عن ذاتنا بل بوحي النظر الخالص الى الله». فبيرول يريد ان يود كل شيء « لا الى استفادتنا ومنفعتنا الروحية، بل الى مجد الله فقط ، دونما اعتبار لمصلحتنا او لقضاء حاجتنا الخاصة » ، وان يحملنا الى الله « بعبادة عظمته وقداسته عبادة عميقة » فقط، لان « اله المسيحيين عظيم » . فلا يليق من ثم ان نعتبره كصديق واب فقط . يجب ان نعامله باحترام نادر ، دون ان ننسى يوماً المسافة اللامتناهية التي تفصل بينه وبين الانسان . بذلك احيا بيرول الفضيلة الاولى ، اي فضيلة العبادة .

يقود بيرول الانسان الى هذا الاله المثلث الاقانيم بالتعبد للاقنوم الثاني ، الكلمة المتجسدة ، يسوع المسيح . فبالتجسد تألهت ، في شخص المسيح ، كافة الحالات البشرية التي افسدت واذلت في شخص الانسان الاول . ولم يبتغ بيرول من ثم سوى يسوع المسيح ولم يفكر الا بيسوع المسيح متأملا ومشاهداً اياه في اقل ظروف حياته شأناً: « لنذهب الى بيت لحم، لنذهب الى الاسطبل. لنشاهد يسوع طفلا ، لنشاهد مريم امه ، ويوسف معاونا الام والطفل . لنشاهد الاسطبل والثور والحمار . ولكن لنشاهد بصورة خاصة حالاته الداخلية في كل دقيقة من دقائق وجوده على الارض . فحياة المسيح ليست تتابع احداث تاريخية فحسب . ان اسرار يسوع المسيح سوف تستمر وتحيا في الارض حتى آخر الدهور . انها من عالم الماضي من حيث وضعها. ولكنها من عالم الحاضر من حيث قوتها » . العيش مسيحياً هو ان نعيش الاسرار ونتقفى حالات المسيح ونتمثل بالمسيح . يجب الا نسعى وراء الفضيلة لانها جميلة بذاتها ، متفقة مع العقل ، ضرورية لكمال الانسان ، كما يجب ان لا نبحث عنها للتميز عن الغير ، لاشباع رغبة شخصية ، لانتزاع الثناء او لتأمين المصلحة : فالوثنيون والهراطقة والكاثوليك المزيفون هم الذين يسعون وراء كل ذلك . ان ما يجب عمله هو تمجيد يسوع ، وفي سبيل ذلك ، « الاستمرار في ممارسة الفضائل التي مارسها على الارض ، وفي هذا بالذات تقوم الفضيلة المسيحية . . السير على خطى المسيح . . اتمام فضائل يسوع المسيح » . يجب ان نموت لذاتنا كي نتيح ليسوع ان يوجد ويحيا فينا .

الصلاة البيرولية

بذلك يبطل اعتبار الصلاة مجرد فحص ضمير ، وتعبيراً عن رغائبنا وطلباً لاجلنا . فهي تصبح نظرة وضيعة للاعراب عن الخضوع والاعتزاز والمحبة الهيابة ، واتضاعاً ونكران ذات، وانخطافاً في الاعجاب ، في البهجة ، في عرفان الجميل الاسمى، ونشيد اعجاب وثناء . ولا تنطوي الصلاة من بعد على اسلوب لبلوغ الكمال أو للانتصار على الذات ، فهي ليست اذ ذاك سوى اقرار بخضوعنا لله ، وهبة ذاتنا لروح يسوع ، وعرض نفسنا أمام قدرة يسوع المسيح الذي يطبع بذاته ، في النفس ، آلامه ، وفضائله ، الالهية ، الفاعلة ، بايجاد ما يشبهها فينا . فضائل المسيح : « لننظر اليها بانتباه ، لنعظمها بتواضع ولننتظر من الله

بصمت ما هو مفيد لخلاصنا الابدي ؛ لنطلب بعض التأثر والاشتراك في فضائل يسوع المدهشة والالهية هذه ... ولنتوسل اليه ان يمد ساعد قدرته الكلية كي يطبعها فينــا .. » ، ولنرتض ارتضاء كلياً بالعمل الالهي . لنقلع عن فحوص الضمير الخاصة ولا نتوقفن عند الفحص العـام . يجب الا ننظر طويلاً الى نقائصنا وخطايانا ، لاننا بذلك قــد ننسى المسيح : « لا تنظروا الا الى ما هو جميل ... وما القصد من جمال يسوع الفائق الا اختطاف حياتنا في سبيل اسعادنا » . لنكرم في العذراء مريم « السمة الطاهرة » ليسوع ، وفي القديسين حالات يسوع التي احيوها في ذاتهم. هكذا سوف يُطعّم الانسان في يسوع الحي، ويثمر في يسوع الحي ، كالجفن في الكرمة . ويجب كذلك الا ينتهي الى مذهب التجرد لأن الفضائل لا يبرهن عنها الا بالاعمال ، والعمل هو غاية الحياة ، والنعم كلها تسبغ علينا حتى تحقق هذه الغاية . وكما ان حركة الآب الالهيــة التي تكون ابنه هي مصدر سر التجسد ، الذي يهب فيه ابنه الطبيعة البشرية، كذلك نحن سنذهب، بواسطة يسوع ، الى الثالوث الذي هو مصدر ومبدأ كياننا وكمال وغاية كياننا .



الشكل ٨ – نظرية غاليليو في القذائف
(انظر صفحة ٢٦١)

ان بيرول قــد سار في ذلك على لاهوت القديس بولس والقديس يوحنا ، وتعليم القديس بولس حول الجسم السري الذي لم يؤثر تأثيراً عظيماً في القديس اغناطيوس والقديس « فرنسوا دي سال » . اي انه شرح رسالة القديس بولس الى الرومانيين . وبعد ان هدم اساس مجــادلة الملحدين بافلاطونيته الاوغسطينية ، لم يترك للبروتستانت اي موضوع شكوى بتمجده الداخلي في الروح والحق ، الذي رد فيه كل شيء ليسوع ، ويسوع للاله الواحد المثلث الاقانيم. ، والذي دعا ، لتقفي آثار المسيح ، كل البشر ، العلمانيين منهم والرهبان على السواء .

اذا ما اردنا التعبير عن فكرتنا تعبيراً بشرياً ، أمكننا القول انه تخلى عـن تدريب الارادة بحسب طرائق القــديس اغناطيوس و « رودريغيز » ، التي كانت متشابهة كل التشابه بطرائق علماء الاخلاق العلمانيين ، بغية الاستعاضة عنها بطريقة مرتكزة الى الايحاء لأنها اعظم فاعلية في الارجح . فان وعي الحالة الداخلية والدوافـع والاسباب ، والضوء الملقى على الطبيعة ونتائج شتى المقررات الممكنة ، والاختيار الحر الصادر عن عقــل نير ، وكل ما كان متعلقاً بارادة انسان سيد نفسه ، قد ابدل بتوفيق لاواع بين الكائن بكليته وبين مثــال أنعم النظر فيه ، بتغذية هذا المثال وتهذيبه للاوعي أو للوعي الغامض . وهكذا فان تحويل جوهر الفرد قــد خلف مقاومة الاعراض والظواهر .

رهبانية المعبد

جاءت مركزية الله البيرولية تتمة للنهضة الكاثوليكية . وقد عرفت الانتشار بفضل رهبانية المعبد التي أسسها بيرول في السنة ١٦١١ وضمت كهنة عاملين فرض عليهم احياء حالات يسوع المسيح الكهنوتية ، وهو « الكاهن الاسمى » ، في انفسهم ، واعطاء المثل عن كهنوت كامل مقدس . وضع كهنة المعبد انفسهم تحت تصرف الاساقفة فقاموا بما انتظره منهم مؤسسهم . ونشر تلامذة بيرول روحه بمؤلفاتهم ايضاً (« ب . بورغوان » ، « حقائق يسوع المسيح ومعاليه » ، ١٦٣٦ ؛ « املوت » ، « حياة الاب شارل دي كوندرن » ١٦٤٣ ؛ « ج . ج . اوليه » « كتاب التعليم المسيحي للحياة الداخلية » ١٦٥٥) وبتحقيقاتهم. فان جان جاك اوليه ، الذي كان ابناً لاحد كبار المباشرين في فرنسا ، وحفيداً لأحد التجار الجواخين ، ومنتسبا لعائلة ضمت العديد من رجال الشرع وارتقت الى طبقة النبلاء منذ خمسين سنة ، قد أسس ، في السنة ١٦٤١ ، اكليريكية سان - سولبيس . منذ السنة ١٦٥٠ ، غدت خورنية سان - سولبيس في باريس ، وهي خورنية بيرولية كلها قدوة لخورنيات اخرى كثيرة . ونافست كليات جمعية المعبد كليات الآباء اليسوعيين . وانتسب الى البيرولية فترة من الزمن كل من القديس « فنسان دي بول » و « بوسويه » و « سان - سيران » نفسه . وكان هنالك يسوعيون بيروليون ايضاً . ولكن العداء ما لبث ان قام بين البيروليين واليسوعيين ، لأن البيروليين ، الذين ساروا على خطى القديس أوغسطينيوس ، قد ناهضوا المولينيين وعطفوا على الجنسينيين مع انهم استرذلوا هرطقات الجنسينية .

أثر البيرولية الشامل

ان هذه الحركة التي انبثقت من رزانة البورجوازيين ومنطقهم وصدق نزاهتهم ، وتحولت الى الله بفضل عاطفة بيرول الحارة ، قد محّصت الورع واوجدت في الكثيرين ، لا سيا في فرنسا ، احترام الله ومحبته المنزهة عن الغرض ، والتفاني في سبيل القريب ، وسمت تقواهم وحياتهم بطابع من الوقار والحشمة وحققت فيهم وحدة الايمان والعواطف والاعمال ، وجعلت منهم مسيحيين حقيقيين . فتأثر القرن كله بالبيرولية . وكان لبيرول ، على ما يبدو ، تأثير كبير على ديكارت . وأدت البيرولية الى تعزيز الكلاسيكية . فان مشاهدة اعظم الاسرار سمواً قد اعطت البيروليين معنى العظمة الحقة والطهارة ، ونفرتهم من الفلاظة والتجبر ، فاسهموا في انتصار العقل والعفة والبساطة والطبعية . وقد لوحظت اوجه التشابه بين ادب البيروليين الفائق الطبيعة نحو الله وأدب المتكلمين في العالم ، بين تعابير بيرول وتعابير التكلف ، بين مركزية الله البيرولية ومركزية المرأة ، اي عبادة المتكلفين للمرأة . ويصعب التمييز هنا بين ما اذا كان هنالك تأثير متبادل او بادرة لجهود واحد سمياً وراء وحدة منظمة في نشاطات مختلفة . ومن هو الذي يستطيع ايضاح النتيجة الممكنة التي كانت لمركزية الله على الخضوع للملك ، صورة الله على الارض ، ولأثر فضيلة العبادة على توسع السلطة المطلقة ؟ لا ريب في ان أثر اليسوعيين كان كبيراً عن طريق كلياتهم ومرشديهم ، ولكن ربما كان أثر مركزية الله البيرولية اعظم شأناً وابعد عمقاً .

الغومارية

ان الحركة المماثلة للحركة البيرولية ، في اوساط بروتستانت الاقاليم المتحدة هي الحركة الغومارية . فالسينودس الدولي الذي انعقد في « دوردرخت » (١٦١٩) وهو اشبه بمجمع كلفيني عـــام ، جاء ردا على المجمع التريدنتيني ، قد اقر واشهر علنا مبادىء الراعي « غومار » . فاذا بها ابعد نظريات الكلفينية عبوسة : عجز الانسان عجزاً كليا بدون نعمة الله ؛ الفدية باستحقاقات يسوع المسيح وحدها ؛ القول بالاختيار للمجد السماوي منذ الازل بقرار لا يدرك غوره يصدره الله الكلي القدرة . واضيف الى ذلك مثل ثيوقراطيـــة تمارس بواسطة كنيسة ديموقراطية ، وادانة الرأسمالية ، الخ ..

٢ ـ الكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية

اليسوعيون والكلاسيكية

اكملت مركزية الله ، عند بعضهم ، التربية التي وضع اليسوعيون اسسها . ومن جهة ثانية ، وجدت النزعات الكلاسيكية ، في التربية اليسوعية ، الوسائل التي تعززها . هذبت الكليات اليسوعية عقول وقلوب العدد الاكبر مـن الاشراف الريفيين والاثرياء البورجوازيين في البلدان الكاثوليكية . فديـــكارت وكورناي « وبوردالو » وكولبير و « اود » واوليبه كانوا من تلامذتها . وسعى اليسوعيون وراء انتصار هوى معين في الفرد ، هو محبة الله . ولكن هذه المحبة يجب ان تنتصر بالارادة . ارادة الانسان حرّة. اجل لقد فقد الانسان حرية التصرف بالخطيئة الاصلية : ولم تعد ارادته محررة مـن كل مقاومة تبديها الاهواء . ولكنه احتفظ بحرية الارادة : فباستطاعة ارادته ان ترفض او تقبل ما تعرضه الاهواء عليها . يتمتع الانسان بالعقل ، وهو القدرة التامة على تقدير قيمة افـكاره على ضوء المعرفة الطبيعية . وفي أثناء مذاكرة داخلية ، يقترح العقل على الارادة ، بشكل مفاهيم مجردة وشاملة ، حلولاً تقبلها او ترفضها . وهكذا يستطيـع الانسان، حتى بدون النعمة ، تجنب الخطيئة وتحقيق كماله .

اعد كل شيء في التعليم والتربية بحيث تحقق ارادة التلميذ انتصار ارادة الله في ذاته ، وبحيث يموت الانسان الصغير لنفسه ويتحول الى انسان جديد . ودُرب الولد والفتى على الركون الى الهدوء ، وتجنب التأثرات العنيفة ، كالحزن والجزع ، التي تشوش العقل وتضعفه ، واعتبـــار الاحداث المغمة وكأنها مرسلة من السماء لخيرنا الاعظم، والانصراف ابدا الى التأمل والاستجمام. وكانت فحوص الضمير ، الخاصة والعامة ، كثيرة جداً . فكان من الواجب الخـــلو بالنفس ، واستبطان الحياة الداخلية، واستجلاء الرذائل والنقائص الاخلاقية والشهوات والافكار الاثيمة والميول السيئة ، والقاء نور ساطع على منبـع الشر ، وما كان الحل من الخطايا ليعطي الابناء على تعهد المعترف تعهداً صريحاً بالعمل على تقويم اخلاقه .

نظمت كل الحياة المدرسية بغية خلق عادة اخضاع كافة النشاطات لاوامر الضمير . ففرض

النظام الشديد ، في المكان والزمان ، كتهذيب يعود بالخير على العقل . واعتبرت الدقة في التقيد بالمواعد كتمرين للارادة يكبح جماح الهوى الفردي وجماح المخيلة ويروض الشهوانية . وتوجب التدرب على عمل ما يحب عمله ، لا عمل ما يرغب فيه الانسان.فرنة الجرس المؤذنة بالنهوض من النوم انما هي صوت الله الذي ينادي ، والتقيد بالنظام ، انما هو واجب التلميذ الاول .

وحوفظ على التهذيب كما على النظام . فحظرت الصيحات والقهقهات والاحتدادات لأنها اعتبرت تخلياً عابراً عن السيطرة على النفس . واعتبر التهذيب زهر المحبة : ان المسيحي يفضل الملك لأنه ابن الله . وكان من الواجب ملاطفة الآخرين واظهار المحبة بمبادرات المجاملة ، وبالابتسامة .

لم تكن كل هذه الانظمة اذن كبحاً لجماح قوى داخلية ، بل توجيها . والمنافسة كانت مذهباً وطريقة . فقد استنهض الشرف والعزة والطموح الى المجد،ولكن هذه المفاهيم حولت نحو تحصيل مجد القديسين ومجد القادة الظافرين في خدمة وطنهم والتضحية بالذات على مذبح الدولة. وهكذا فقد علمت الآداب الكلاسيكية بعد تكييفها وفاقاً للذوق العصري ، وازيل الفاسد من مؤلفات المؤلفين الدنيويين ثم فسرت تفسيراً مسيحياً . وحصر الانتباه في فضائل الانسان الاساسية · العدل ، الوفاء ، احترام الوعود ، الشجاعة . وفي الاعياد المدرسية ، دارت مواضيع التمثيليات والخطب حول التاريخ القومي : جان دارك ، استيلاء الصليبيين على اورشليم ، استيلاء بودوين على القسطنطينية ، سجايا ملوك فرنسا ، الخ . وهكذا فان المسيحية لم تدن غرائز الطبيعة العميقة ، وهي من صنع الله ، بل نظمتها ووفقت بينها .

ان هذه المميزات جميعها : توجيه الاهواء القوية واستخدامها بعد تنميتها تنمية مطردة ، الاهتمام الشديد بالحياة الداخلية ، تشغل البال بما هو شامل وواضح ومتميز ، سيطرة العقل والارادة ، انما هي مميزات كلاسيكية . وقد اسهمت هذه التربية الدينية اليسوعية الطراز في انطلاقة الكلاسيكية .

الكلاسيكية الادبية : القواعد والكلاسيكية

ان القواعد ليست الكلاسيكية ، مع ان اللبس بينهما سهل الحصول. افتخر الكلاسيكيون باحترام القواعد واستخدموها . ولكن الكتاب الذين استعبدوا لها كانوا ضحاياها ، وربما خالفها كبار الكلاسيكيين اكثر مما احترموها ، الا انها قد اسهمت في اضفاء بعض طباعهم على المؤلفات الكلاسيكية .وهي اسهام في مقاومة الازمة نهض به اناس كلفوا بالنظام الاجتماعي كلفهم بالادب، ولكنهم افتقروا الى القوة الخلاقة ، وهي ليست سوى مظهر خارجي وثانوي من مظاهر الكلاسيكية .

أما منشأها فيعود الى تبني ارسطاطالية اصحاب النظريات الفنية من الايطاليين المولعين بالفن الشعري، من قبل الجيل الذي رأى النور حوالي السنة ١٦٠٠ واقضت مضجعه الحاجة الى

الوحدة . ويعود الفضل الاكبر فيها ، في فرنسا ، الى شابلين (١٥٩٥ – ١٦٧٤) . فعمل بهذه القواعد بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، ثم اهملت بعض الاهمال ابان اضطرابات منتصف القرن الى ان عمل بها مجدداً بين السنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ .

على العقل ان يراقب الفن ويبرر القواعد ويمنع الخرافات المخيلة ، القوة الدنيا المشتركة بين الانسان والحيوان . العقل ثابت وشامل ومسلم به في كل زمان ومكان . والذوق السليم هو العقل في وظيفته النقدية . العقل يملي على الفن غايته . وغايته تهذيبية : تنقية الاهواء وتوفير الامثلة الصالحة والحكم الغراء . والعقل يملي قواعد من شأنها اتاحة خلق الجمال وايقاظ التأثيرات والعواطف المتوخاة . قاعدة استخدام الطبيعة : ولكن الواجب يقضي بالنسج على منوال طبيعة مثالية وانتقاء المميزات الواجبة الحفظ في الطبيعة الخام ، وابرازها وتنظيمها ، وبالنسج بصورة خاصة على منوال الطبيعة البشرية ، أجمل الطبائع طراً . قاعدة تقفّي القدماء ، لانهم يصفون في مؤلفاتهم الطبيعة المثالية دونما نقص والتباس . ومن الصواب على كل حال ان لا ننقل عن القدماء الا ما يمكن تطبيقه على الزمن الذي نحن فيه . قاعدة الاحتمال العقلي ، وقياسها الرأي المشترك ، تنتهي الى ما يجري اعتياديا . قاعدة اللياقة : الامتناع عن الجمع بين الجد والمزاح ، وتحلية الاشخاص باخلاق لا تتناسب وصفتهم ، والاخلال بالحشمة وآداب المجاملة ، وعرض الاخلاق البربرية والمستهجنة ، والقديمة . يجب الاعتدال في عرض ما هو مدهش وعجيب واقصاء الاعمال السحرية والمعجزات المسيحية . ويجب التقيد بوحدة الموضوع ، اي وصف موضوع تام واحد لا يمكن انقاص اي من أجزائه دون تفكيك الاجزاء الاخرى . ويجب التقيد تقيداً صارماً بوحدة الزمان والمكان . فلا يجوز ان تمثل المسرحية احداثاً تستغرق اكثر من دورة شمسية ، وقصة تمتد الى اكثر من سنة وقصة راعوية غنائية تدوم اكثر من ساعة . ولا يجوز اخيرا ان تتشابك الالوان ، المأساة والتمثيلية المحزنة المضحكة والمهزلة ، والقصيدة الجدية – الهزلية ، والقصة ، والشعر الراعوي والشعر الغنائي والشعر الهجائي : ان لكل من هذه الالوان نمطاً مثالياً يجب التقيد به .

حاول الفنانون الكلاسيكيون العمل بمقتضى هذه القواعد لانها سارت وسعاهم نحو الوحدة في اتجاه واحد . ولكنهم خالفوها مراراً كثيرة فتناولهم النقد العنيف . ولعلها ادّت لهم خدمات جلى كصعوبة اضافية وجب التغلب عليها . فالفنان الحقيقي انما يبحث عن المادة الصلدة التي ترغمه على تركيز قواه . ولكن القواعد ليست الكلاسيكية . فالكلاسيكية حياة هي .

الكلاسيكية

انتجت الكلاسيكية خير ما انتجت في فرنسا . وقد حددها « ماليرب » وديكارت في الوقت نفسه الذي خرجت فيه الى الوجود بفضل الجهود الخلاق الذي حققه كورناي وبلزاك وباسكال وراسين وموليير وبوالو .

ان الكلاسيكية هي في الدرجة الاولى قوة داخلية ، وثبة حيوية ، ثورة أهواء ، حاجة

الى توفير القوة ، والى الانتاج والخلق . اذا كان الكلاسيكي اقل قوة ، فقد يغدو مستهجناً بسهولة كما يشاهد ذلك في مؤلفات ماليرب و كورناي وبوسّويه في مراحل فتورهم وتكاسلهم . فحين يتغافل ذهن ماليرب نراه ينفخ الواقع ويشوهه ويفخمه ويضخمه كما فعل روبنس واذا كانت رحلة ماري دي مديسيس، « الصيرفية الكبرى » ، من توسكانا الى مرسيليا ، رحلة طويلة وشاقة فرد ذلك الى ان نبتون (اله البحر) الذي اصيب بسم الحب قد اراد الاحتفاظ بها في امبراطوريته . وحين تعود « شارلوت دي مونمورنسي » الى البلاط ، يقول بلسان هنري الرابع :

« لقد عادت هذه الكواكب المعبودة
التي يستمد اوقيانسي مدّه وجزره منها »

ولكن قوى الكلاسيكية الداخلية ، اكبر من ان تبقى في اجواء الجلبة . فان قدرتها تتيح لها ان تجعل من الهدى حمة متلظية عن طريق المشاهدة في السكون الداخلي والتعقل الذي يربط بهذا الهوى شتى انواع البواعث . الهوى المسيطر يتغذى بغيره من الاهواء وينظمها . هذا هو مصدر المميزات الاساسية للمؤلف الكلاسيكي . فهو في الدرجة الاولى تركيز قوى . الكلاسيكي لا يضعف قدرته الداخلية بل يوجهها . يفني بعض الاهواء خوراً ويضعف بعضها الآخر بغية تحويل قوتها الى الهوى الرئيسي الذي يصبح بركانياً . يجعل من الاهواء الثانوية خدمــاً للهوى الرئيسي . الكلاسيكية هي القوة بحدودها القصوى .

من هنا تنبع الوسائل التي تستطيع تحقيق تركيز القوى ومن ثم مضاعفة الحياة. الكلاسيكية علم سنن جمال الوحدة . والمؤلف الكلاسيكي ، كما كتب ديكارت الى بلزاك في « الرسالة اللاتينية» (١٦٢٧) ، هو جهاز عضوي ، كلّ نابض بالحياة ، ترتبط جزئياته بالمجموع ويتوجب على كل قسم من أقسامه وكل عنصر من عناصره التعاضد في سبيل بلوغ الغاية المنشودة ، اعني بها التأثير الواجب خلقه والحقيقة الواجب اثباتها . هكذا يتم وضع المؤلف . وهو ينطوي على منطق داخلي ليس رقة كلام مدرسية بل اكتشافا لنظام عميق وطبيعي في الاشياء وفي تركيبها الداخلي وعلائقها الشاملة والضرورية يعبر عنه بفكرة عامة تتفرع عنها الفكر الثانوية ، فيحظر من ثم الخروج عن الموضوع وغمر الجوهر بتفاصيل لا طائل تحتها . يجب التوسع في ما هو جاف جداً ؛ وتخفيف ما يكون كثيفا وملتفا . ويجب ان يبرز المؤلف تقدماً تدريجيا منتظماً يظهر في الانتقال من برهان الى آخر ، ومن فترة ازمة الى اخرى يجب ان يكون الفكر منسقاً والتسلسل خالياً من كل عيب . يجب اقصاء ما هو تقريبي ، وما هو غير متلاحم ، والبرهان الرهــل ، والوقائع التي ترتبط ارتباطاً سيئا بالمجموع ، والاستدلالات التي ليست نتائج طبيعية للوقائع . ويجب ان تكون اللغة مهذبة وجلية وصحيحة .

الكلاسيكية حقيقة سامية . القوي يريد مـا هو كائن . نيتشه احب القرن السابع عشر . الكلاسيكي يريد في الدرجة الاولى ، وفي كل شيء ، ما هو حقيقي ، لا واقع الظواهر ، بــل

الحقيقة العميقة ، حقيقة مصادر الاهواء ، حقيقة علل الكون. هذا ما يفسر حرصه على النظام الذي هو التعبير عن النظام العميق في الاشياء . وهـذا ما يفسر الحرص على التحليل الداخلي والهمة في استبطان ادق انواع العواطف والاهواء والارتقاء الى اسبابها الخفية . وهذا ما يفسّر السعي وراء ما هو شامل وازلي ، اي اعمق ما هو حقيقي ، الذي يستحيل التعبير عنـه اذا لم نبلغ التناسق والنبل والعظمة والاتقان والانجاز والكمال. وهذا ما يفسر تجنب الفلاظة المضحكة والواقعية الفظة أو الشعبية التي تمت بصلة الى الاستهجان و تتعمد الفظاظة السهلة . وهذا مـا يفسر النفور من المجازات الشعرية . ففي « رسالتـه الاولى الى الملك » اظهر « رينييه » فرنسا توجه من أعلى الطبقات الهوائية ، خطبة الى الثائرين ، فسأل ماليرب عن زمن حدوث ذلك : فهو قد بقي في فرنسا منذ خمسين سنة ولم يلاحظ قط انها ارتفعت من مكانها . وهذا مـا يفسر الحشمة في التعبير . فالكلاسيكي يبحث عن الكلمة التي تنطبق انطباقاً كلياً على الواقع دون ان تشوهه أو تضيف شيئاً اليه . لا بل يفضل البقاء دون الواقـع والاشارة اليه اشارة فقط خوفاً من ان يجسمه . لذلك يجب البحث ابداً عن الكلاسيكي وراء تعبيره . وهذا مـا يفسر اخيراً الحاجة الى الوضوح ، لأن الابهام لا يسمح بمعرفة ما اذا كنا على صواب أو على ضـلال . المبهم قد يكون حقيقياً مثل الواضح،ولكننـا لا نستطيع التثبت من ذلك . الكلاسيكي يبذل ما بوسعه حتى يأتي فكره قريب المنال مباشرة ودون جهد . لذلك يتجنب اللبس والاضمـار والتحريف والمفردات النادرة أو الغامضة والكلمات المماتة والتعابير الفنية . فان مـا أراده « ماليرب » ، حين طالب بحمالي « بور اوفوان » لاسياده ، لم يكن سوى رفض التعابير الصعبة، لان اسياده كانوا في قاعات استقبال البرلمانيين ، في قصر « رامبويه » وفي البلاط . الكلاسيكي يريد لغة جلية ، كلمة واحدة لفكرة واحدة،ومعنى واحداً لكلمة واحدة. انه يبسّط ويوحد ويحدد معنى الكلمات وتراكيب الجمل .

ان الكلاسيكية والحالة هذه حياة عميقة القرار . ولا عجب من ثم اذا ما ازدرى الفنانون بالقواعد الضيقة والمفصلة التي لا تستجيب لغاية المؤلف الكلاسيكي . فهم لا يسلمون الا ببعض القواعد الكبرى العامة التي تفرضها طبيعة الأشياء ويقبل بها العقل البشري . وهم محدثون دونمـا وجل . يرفضون سلطة الاقدمين ويعجبون بهم ويتذوقونهم في آن واحد ، ولكنهم لا يريدون منهم سوى الروح الحيـة ، لا الصيـغ ، وجوهر مؤلفاتهم ، لا طرائقهم . الكلاسيكيون يبتغون الحرية ، ويهتمون في الدرجة الاولى للارضاء ، لان المطلوب هو ارضاء عالم محـدود من الهواة في البلاط والمدينة الذين يعيشون الكلاسيكية ؛ فيغدو الاركان حينذاك الى ذوقهم وحكمهم، والى روحهم الرقيقة بالتفضيل على روح النقادين الهندسية ، اكبر ضمانة لهم ، « القاعدة الكبرى بين كل القواعد هي الارضاء » ، حين نكون أمام جمهور كلاسيكي . لا بل ان الكلاسيكيين يخلقون اشخاصاً احياء خلقا ثانيـاً . كما ان هواة المركز يحيي في ذاتهم صور وعواطف اولئك الذين يكتبون عنهم . يعيشون حياة الأشخاص مرة ثانية، ويتأثرون باهوائهم ، ويتصرفون ويتكلمون

ككل فرد منهم مداورة . اضف الى ذلك ان مبدأهم في الوحدة هو نفسه مبدأ الحياة . وليس من حياة دون مبدأ تنظم الكائن الحي . فان اوغسطوس واغنيس و « هرباغون » و « فيدر » يحيون حياة ازلية وشاملة .

الكلاسيكية في الفن

ان هذه المميزات الاساسية توجد في الفن ايضاً. فلننظر الى بوسين (١٥٩٤ – ١٦٦٥) مثلاً . انه يجسد الفن الكلاسيكي في التصوير . في السنة ١٦٦٧ ، حلل المجمع الملكي للتصوير لوحاته في اجتماعات خاصة عقدت لهذه الغاية كما يفعل اللاهوتيون في تحليل نص مقدس . كان زبنه من بين الاشراف والبورجوازيين : الملك لويس الثالث عشر الذي كان بوسين رسامه الاول (١٦٤١ – ١٦٤٢) ، الدوق دي ريشليو ، الدوق « دي كريكي »، رئيس المحاسبة « باشار » ؛ ناظر المالية « موروا »،الصير في الباريسي، بوانتيل ، التاجران الليونيان « سيريزييه » و « رينو » . ولكن زبن هذا الفرنسي ، الذي قام في روما منذ السنة ١٦٢٤ كانوا من غير الفرنسيين ايضاً : البابا اوربانوس الثامن ، آل بربريني ، صاحب المقام الرفيع « كاسيانو دل بوزو » ، الكردينال مسّيمي . وأما لوحاته المعدة للدور الخاصة فوسيلة ثقافة العقل .

كان شهوانياً تميز بالرغائب العنيفة ، المتنوعة ، المتناقضة . استهواه العري اللحم الجميل . جسد حورياته وآلهاته يعبق لذة وتنعماً . احب الطبيعة . ففي لوحاته ، التي باتت قاتمة جداً ، يرى النظر تأجج الافق عند مغيب الشمس تأججاً بطيئاً يتميز بانواره المنعكسه الصهباء . ولو استسلم الى ميوله ، لانتهى حتماً الى الاستهجان .

ولكنه يركز قواه . فهو ينشد الحقيقة اولاً . ويعرف ان طريق الوصول اليها هي الانطلاق من الظواهر . يجمع معلوماته بضبط كلي . في السنة ١٦٣٨ ، اكتشفت فسيفساء « بالسترينا » التي تمثل الاحتفالات المصرية . فعمد اذ ذاك ، وهي المرة الاولى والاخيرة في حياته ، الىاحتذاء مثالها . صوّر كل تفاصيلها ثم استنسخ هذا أو ذاك منها في لوحاته استنساخاً لا يتميز عن الأصل وكأنه عالم آثار ينشر مكتشفاته . قاس ابعاد تمثال « انتينووس » وتماثيل يونانية شهيرة اخرى ليستوحي نسبها الصحيحة . استضاء بنور التاريخ ، فوجد في مؤلفات « بلوتارك » التاريخ الصحيح لوفاة « فوسيون » ، أي ١٩ مونيخيون . وعلق بذاكرته ان الفرسان نظموا يومذاك تطوافاً اكراماً لـ « زفس » . فأدخل من ثم ، في « مأتم فوسيون » ، موكب نزهة الفرسان بين الاشجار البعيدة تحت اسوار اثينا . وهو ، على غرار الكلاسيكيين ، لا يقبل بالكذب ، « هؤلاء الشعراء يتقيدون بنظام اشبه بنظام العلماء » .

بيد ان بوسين ، وشأنه في ذلك شأن الاوغسطينيين وديكارت وكافة الكلاسيكيين، يتخطى الظواهر ويجد في أثر المنطق الداخلي والمطابقات العميقة والنسب الضرورية وسنن الكون ، الى ان يصل من بعدها الى مبدئها المشترك . « ان الفتيات الحسناوات اللواتي يمررن في شوارع «نيم»

لـن دون جمال اعمدة « البيت المربـع » بهجة للعقل لان الاعمدة ليست سوى صور قديمـة الفتيات » . فهو لا يستنسخ لحب ، بل يلاحظ . ينظر الى الاشياء بقوة ويكثر من الملاحظات حول الابعاد والاشكال والالوان . ثم يترك الحس يتحول الى تمثيل ، والصور تتبسط وتتوحد ، والعنصر الاساسي ينبثق وينبعث . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يستلهم الصورة الداخلية ويرسم رسوماً اعدادية يبحث فيها لا عن مجرد التشابه بل عن النسبة العميقة . اضف الى ذلك انه يهتم في الدرجة الأولى للانسان الداخلي ويبرز العواطف بجلسات الاجسام ويعبر عـن التحاليل السيكولوجية بالاشارات . ويؤنس المناظر الريفية حيث ترتدي الاشجار طابع الاعمدة .

يركز ويوحد ، شأن كل كلاسيكي . ان التصوير ، في رأيه ، هو قبل كل شيء اثبـات وجود ارادة انسانية . « لا يجوز ان ترسم يد الانسان خطا واحداً لم يتكون في عقله من قبل » . فبوسين يتجنب كل ذكرى وكل تقليد وحتى تقليد نفسه : يجب ان نخلق لا ان نعيد . ينضج موضوعه على مهل في ذهنه . يبحث اولاً عن « فكرة » اللوحة ، عن معنى ما يصور . ثم يترك جلبة الصور الداخلية تهدأ وتسكن الى ان تتراءى له كل النسب ونتائج الفكرة التي ينطلـق منها . ينظم موضوعه بحسب المنطق الداخلي الذي يقتضيه اخضـاع الاجزاء للفكرة العامة والتفاصيل للمجموع . ثم يقذف بما حققه في الداخل الى الخارج كما يفعل دبكارت في حقل العلم[1]. وحين يشرع بالرسم يكون كل عمله منجزاً . وضمن اطار وحدة قوية ، يجمع في تركيب مترابط الاجزاء كل ما من شأنه خلق التأثير المنشود والتعبير عن الحقيقة السيكولوجية ويقصي كل ما يبددها ويعاكسها ويضعفها . كل شيء عنده مصدر اختيار مطلق بغية بلوغ الخلوص والصفاء . فلوحته « الطوفان » هي تصوير الصلاة المرفوضة ويأس الانسانية المهملة : الذراعـان المرفوعان في حركة المصلّي يعبران عن الصلاة ، ولكن السماء الوحيدة اللون ، المقفلة ، العمياء ، وتساقط الرماد الاربد العابس ، بدلاً من تساقط المطر الطبيعي بالوانه اللامعة ، واخدود الوميض الشاحب كل ذلك دليل غياب ورفض اجابة : ما عاد الله ليعرف الانسان .

يتميز بكل ما يتميز به الكلاسيكي . فهو مليء بالحياة ، يهتم ابداً للارضاء ، ولا يسهى عن باله البتة ان غاية التصوير هي « الاستمتاع » ، التنعم بالضوء والاشكال . خبّأ في لوحاته كنوزاً سيكولوجية صحيحة . تحلى بحشمة التعبير . قد تبدو لوحاته ، في الوهلة الاولى ، جامـدة ومعتمة : ولكن لننعمن النظر : كل ما فيها يحيا ويشتعل ويهتز كما لو كان التصوير يحتوي على « المطلق » الحي .

الاخلاق الكلاسيكية

الكلاسيكية حياة . فهي لا تستلزم من ثم مفهوم جمال واسلوبا للبحث عن الحقيقة فحسب ، بل فكرة عن الخير ووسائل صنعه ايضاً . ولذلك فان علم الجمال يشمل منطقا وعلم اخلاق ايضاً .

ان منطلق الاخلاق الكلاسيكية هو في ابتغاء القوة ، التي يريدها الكلاسيكي قوة كليـة .

فالكلاسيكي يريد ان يكون حراً ، اي ذا قلب لا تجد تعديات الغير وسهام القدر والاخفاقات والخوف من الموت الى قلبه سبيلاً . يريد ان يكون متفوقا . لا يريد ان يخضع الا لقراره الخاص ولحكمه على قيمة الاشياء . فالكلاسيكي من ثم ينكمش على نفسه ويركز انتباهه الى اهوائــه والافعال التي تقترحها على ارادته ، ويصدر احكاماً حازمة ومحددة على هذه وتلك وعلى قيمتها بالنسبة لارادته . ويقابل في حوار داخلي بين الدوافع والمبررات والنتائج . ويقرر الاختيـــار بحكم يعين ما هو صالح ومرغوب فيه . ويصوغ حكمه مبادىءَ واضحة رزينة معدة لان توجه كل الاهواء نحو ما حكم هو بصلاحه . قد يسيء الكلاسيكي الاختيار وقد يخطىء في حكمه ، فيندفع اذ ذاك نحو الجريمة . ولكن مبدأ الاخلاق هو في التقيد بالحكم . ومرد ذلك ، في حال اتضاح بطلان الحكم ، الى ان الموضوع ينقلب او يتحول ، كما حـــدث لاوغسطس « وسنّا » و « اميليا » . وفي تصميمه هذا عـــلى فعل كل الاشياء الفضلى ، يجد الكلاسيكي سعادته القصوى :

ايها الحظ ، مهما تكن الشرور التي يوجهها جفاؤك الي
فقد اهتديت الى وسيلة لاستخلاص البهجة منها .

(هوراس)

ان هذا التصميم الحازم الثابت على العمل بوحي حرية الارادة ، هو الفضيلة السامية ، النجابة المنبثقة من تفوق قوة البطل ، النجيب . القوة الداخلية تدفع بالمتجيب لان يخرج من ذاته ويهب نفسه ويحب . ويحب النجيب في الآخرين ويريد في الآخرين ، قبل اي شيء آخر ، خير ما عندهم ، اي نجابتهم الخاصة ، وحرية ارادتهم الخاصة ، ويسمو بمحبته شيئاً فشيئا نحو «الكائن» الواحد المطلق الحرية ، المطلق النجابة ، اعني به الله . وتنتهي الاخلاق الكلاسيكية الى اخلاق محبة وانعتاق ، كما نرى ذلك في التدرج الجميل الذي يقود من ال « سيد » ، عن طريق « هوراس » و« سنّا » ، الى « بوليكت » . الواجب يقود السيد الى قتل والد خطيبته ، ويقود هـذه الاخيرة الى المطالبة بموت من تحب ، وكل ذلك بوحي نخوة بطولية ترفض الضعف وتضن بكرامة العائلة : الفضيلة هنا هي هبـــة الذات حتى الموت في سبيل ما يعتبر خيراً . ثم يحقق هوراس تقدماً الى الامام . ينقطع بكليته لدولته ، لاستقلالها ، لسلامتها ، لعظمتها ، ومن ثم لحرية مواطنيه الجماعية . وهو لا يحيا الا في سبيل الدولة ، ولكنه يقدم فرحاً ، بوحي ذلك ، على قتل ثلاثة اشخاص يحبهم . ثم يحقق اوغسطس تقدماً آخر ايضاً . يريد ان يسيطر في نفسه ، نهائياً ، على الخوف والانتقام . لا يريد الانتصار الا بفعل حرية ومحبة متفوقتين ، يريد ان يوقظ ، في سنّا وفي اميليا ، محبة الخير الحقيقي والمنافسة ، اي الرغبة في ان يصبحا نظيريه . ويستسلم « بوليكت » اخيراً بملء ارادته الى الله ، الكائن الكامل ، الذي يوفر للانسان النجيب ، اكثر من المرأة والوطن والانسانية ، موجبات الخدمة والتفوق على النفس وتناسي الذات . المحبة الالهية تحوّل نفسه . بولين تخضع

لسلطتها ، فتتخلى عن محبة « ساويروس » وتندفع في محبة بوليكت لانه يجسد المثـل الاعلى الذي كانت تهواه وتبحث عنه ، ولانهـــا تراه كما تتوخى هي ان تكون . « بوليكتي ... » : فبوليكت هو هي لانه كما تتوخى ان تكون.«صوّر كورناي البشر كما يستطيعون ان يكونوا» كما يكونون ، عندما يصممون بشجاعة على ان يكونوا بشراً» .

انطلق الكلاسيكي من الاخلاق الارستوقراطية والبطولية، ولكنه تعمق فيها واندفع نحو الحقيقة السامية بفعل القوة الداخلية .فتوصل الى اخلاق كافة البشر مهما كانت طبقتهم وجنسهم وزمانهم وبلادهم ، الى الاخلاق المطلقة الحقيقية ، النابعة من اعمق ما في الانسان الذي تتمتع حرية ارادته بقوة لا حدود لها ، الى الاخلاق الانسانية .

٣ ـ الكرتزيانية (الديكارتية)

ثقافة ديكارت

ابتكر ديكارت المذهب الاجمالي والعلم الشامل الضروريين لاجهاز هزيمـة الارسطاطاليـنية بالحلول محلها . ولد في فرنسا وانتسب لعائلة بورجوازية كانت في طريقها الصاعدة نحو طبقة الاشراف. كان اجداده من جهة ابيه اطباء وابوه مستشاراً في برلمان بريتانيا ، ووالد جده من جهة امه وكيلا عاماً لمحكمة بداية « بواتييه » . طمعوا كلهم بان يصبحوا فرساناً وغالبا ما اعلن ديكارت انه احد اشراف بواتو الريفيين. تلقى تهذيب طبقة الاشراف في كليـة « لافليش » للآباء اليسوعيين . وبعـــد ان تلقى بعض الدروس القانونية ، عاش عيشة اشراف الجندية وخدم في جيش « موريس دي ناسّو » في السنة١٦١٨ ، وفي جيش « موريس دي بافيير » في السنة ١٦١٩ .

منذ هذا العهد ، وعلى غرار غاليليو ، أخذ يعالج العلوم الطبيعية بالرياضيات ، وفي تشرين الثاني من السنة ١٦١٨ ابعد صورة الثقل الجوهرية ورد الثقل الى الحركة . ومنـذ سنة ١٦١٩ – ١٦٢٠ كان قد وضع أسس علومه الطبيعية في منهجه وفي ذهنه وردها المادة ضمناً الى المساحـة فقط . ولكنه،شأن كل معاصريه،لم يتوصل بذلك الا الى مزيد من الشك والارتياب والتشويش. الا انه كان انساناً متديناً جداً ، فبدا له ان هذا الوضع اثقل من ان يطـاق . فانصرف الى التأمل ، في أحد المعسكرات الشتوية ، في جوار « اولم » ، بعـــد تتويج الامبراطور . ورأى هنالك ، في العاشر من تشرين الثاني ١٦١٩ ثلاث رؤى في منامه . سمع ازيز الصاعقة فأفاق من نومـــه ورأى شرارات نارية منتشرة في الغرفة . ففسرها بانها روح الحقيقة النازلة عليه لتتسلط عليه . ثم رأى « مجموعة قصائد » . فرأى فيها الشعر والحكمة مجتمعين معاً لان حمية الشاعر هي فيه حضور الهي يظهر له الحقيقة فوق ما يظهرها العقل للفيلسوف . في بحران الصوفية هـذا ، تجلت له حقيقة رسالته : البحث في ذاته عن مبادىء العلم لانها فينا مثلا مطبوعة ؛ خلق العـلم الشامل بتطبيق البرهان الرياضي على ظواهر الطبيعة ؛ وضع النظام الحقيقي للكون . في اليوم

التالي توسل الى الله كي ينيره ويرشده في البحث عن الحقيقة ، ونذر على نفسه للعذراء القديسة ان يزور « لوريت » سيراً على الأقدام .

في السنوات التالية ، وضع أسس منطقه وعلومـــه الطبيعية الرياضية . ولكن توجب عليه تبرير هذا العلم الجديد ، وفي الوقت نفسه ، وضع أسس اليقين والايمان بالله . يروى انه قصـــد القاصد الرسولي في باريس في شهر تشرين الثاني من السنة ١٦٢٧ ، وطلع أمام بيرول بآراء لفتت انتباه هذا الاخير ، وان بيرول انذره بتنفيذ مشروعه وجعل له من هذا التنفيذ واجباً ضميرياً . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فان ديكارت كان منتمياً الى الحركـة الاوغسطينية . وكان بيرول ، وتلميذه « جيبوف » و « سيلون » ، في ما كتب بين السنة ١٦٢٦ والسنة ١٦٣٤ ، ومرسين ، اخلص اصدقاء ديكارت منذ صدور « مسائل حول التكوين » في السنة ١٦٢٣ ، قد تبنوا رأي افلاطون في المثل المطبوعة لانه اضمن وسيلة لاثبات وجود الله . فانضم ديكارت اذن الى جماعة لن يلبث ان يستلم قيادتها . انطوت الكرتزيانية على حركة صوفية كما حدث للحركة البيثاغورية من قبل . السبيل الى وضع اسس علم جديد شامل هو محبـة المطلق وروح المغامرة والشغف والحرارة في البحث ، والقلق ، والتعطش الى الجدة ، وهي مميزات كبار الصوفيين . فالصوفية التي تقول بمركزية الله والكرتزيانية حركتان متوازيتان يجمع بينهما المصـــدر نفسه والارتباطات والمميزات عينها .

في السنة ١٦٢٥ ألـف ديكارت لمنفعته الخاصة كتاب «قواعد توجيه العقل » ثم لجأ الى هولندا حيث أقام من قبل ، ليتمكن من انجاز عمله الكبير . وجد في هذه البلاد الرأسمالية الحريات التي تؤمنها بورجوازية تدين بها « في وسط جـــماهير شعب كبير قوي نشيط يهتم لشؤونه الخاصة فوق اهتمامه لشؤون الغير »، استطاع « العيش في عزلة واختـــلاء لا يتوفران الا في الصحاري النائية » . ومنذ السنة ١٦٢٩ ، حرر فيها « التأملات » التي تتضمن أسس تعليمه حول ما وراء الطبيعة .

هدف ديكارت
احداث علم سام

لم يبق ديكارت ، شأن « مونتاني » والملحدين ، في حالة رخية من الارتياب . فكما كان يشتبه بسوء مقاصد الملاحين الذين ينقلونه ويستل سيفه ويواجـه الخطر الذي يستشفه ويخضعهم لارادته ، نرى هذا الجندي الذي لا يتنازل عن نبله الريفي يواجه اكبر المسؤوليات الفكرية والاخلاقية وينقض على الصعوبة . يستخـــدم الشك محكا ويذهب به الى اقصى حدوده حتى يرى ما اذا كان كل ما بناه سينهار أو سيبقى منه بعض اليقين الذي يتيح الحياة . فانما هدفه العمل ، اي « المعرفة الواضحة الثابتة لكل مـا هو نافع للحياة » . وهو يريد ذلك للجميع كما لنفسه . ولما كان نجيباً ، فهو يعمل لكل الناس حيث نرى الملحدين الارتيابيين المزدرين بالجماهير والمهتمين لانفسهم فقط يثنون كفهم على الحقائق التي يعتقدون بانهم اكتشفوها لانهم اعتبروا انفسهم المؤهلين الوحيدين للتمتع بها . وقد كرس ديكارت

كل حياته في سعيه وراء الحقيقة زاهداً في الثروة والمراتب الرفيعة وكل شيء ، مجابهاً العقبات والمحاولات الظاهرة والعداوات . فقضى حياته كلها في هذه المطاردة : فاما الاهتداء الى اليقين والله ، واما كارثة الظلمة والعدم ، اما كل شيء واما لا شيء . ان هذا الانسان لعظيم بعقله بين العظماء ، ولعله اعظم بقلبه ايضاً . وقد احرز نجاحاً رائعاً بتوصله الى ان يسمو مثل الشريف الريفي الاعلى ، حتى البطولة ، بالميل البورجوازي الى المعرفة العملية وبالعناد البورجوازي في السعي وراء النجاح .

مؤلفات ديكارت

في الخامس من حزيران ١٦٣٧ ، صدر عن مطابع « جان مير » ، في « ليدن » ، كتابه « خطاب حول اسلوب توجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، يضاف اليه بحث انكسار النور ، والنيازك ، والهندسة ، التي هي اختبارات لهذا الاسلوب » ، الذي يقع في ٥٢٧ صفحة . أما الخطاب فمقدمة بشكل اعترافات على طريقة القديس اوغسطينس . وقد دان للمحاولات العلمية الثلاث بشهرته الواسعة وبأثره، لأن ديكارت على نقيض « بيكون » قد قدم العلم الذي بشر به واسلوبه قد اوجز استخدامه ، والتطبيق الحسي قد أتاح ادراك المعنى الحقيقي والعميق للقواعد التي صاغها صياغة على بعض الابتذال . وانه لمشين حقاً ان يعاد طبع الخطاب ، في ايامنا ، دون الاختبارات . فالخطاب ، مع الاختبارات، يتضمن جوهر آراء ديكارت . وهو قد اوضحها واكملها في كيان « تأملات حول ما وراء الطبيعة[1] » (١٦٤١) وكتاب « المبادىء » المعد لطلاب المدارس وكتاب « اهواء النفس » اخيراً ، تضاف اليها رسائل وافرة تلفت الانتباه من بينها تلك الموجهة الى « اليزابت دي بوهيم » .

العلم الشامل

ان ديكارت مصمم على انجاز العمل الذي تراجع أمامه غاليليو : الارتقاء الى المبادىء الاولى للعلم الجديد ، العلوم الطبيعية الرياضية ، واستخلاص علم شامل منها: الفلسفة كلها اشبه بشجرة جذورها علم ما وراء الطبيعة ، وجذعها العلوم الطبيعية، واغصانها المتفرعة من هذا الجذع كافة العلوم الاخرى التي ترد الى ثلاثة علوم رئيسية : الطب ، وعلم الآليات ، وعلم الاخلاق .

الاسلوب

اسلوبه هو جوهر التفكير الرياضي . على الذهن ان يدرك الحقيقة بالحدس الذي هو ادراك ذهن صريح ويقظ ، لا يحققه سوى نور العقل ، ولا يبقى معه اي ارتياب لأنه ادراك يتصف بالمزيد من السهولة والتميز والجلاء . أما نموذج هذه الآراء الواضحة فهو الآراء الرياضية من هذا الحدس يستخلص الذهن النتائج بالضرورة ، وعن طريق الاستدلال، في حركة تفكير متواصلة مرتقياً ، بحسب العقل الرياضي، من ابسط الأشياء الى اكثر التركيبات تعقيداً . ولا يلجأ الى التعداد أو الاستقراء ، اي البحث عن كل ما يتعلق بمسألة معينة ، الا اذا

---

(١) تأملات ميتافيزيقية، تأليف رنيه ديكارت.صدرت في منشورات عويدات بالنصين الفرنسي والعربي.(الناشر)

استحال رد معرفة ما الى الحدس . فالقضايا المستدل بعضها مباشرة من البعض الآخر ترد ، عند كل خطوة ، الى استقراء حقيقي اذا كان الاستخلاص جلياً . أما اذا كان الاستخلاص انطلاقاً من عدد كبير من القضايا المنفصلة ، فلا يعود الادراك كافياً للاحاطة بها بحدس واحد . ويصبح التعداد ، آنذاك ، امراً واجباً . ثم ينشىء الذهن ، بين الاشياء الخاصة ، علائق ذات نسب واضحة ، ويقارن هذه العلائق احداها بالاخرى ، وينظمها فنان بحسب ترتيب انشائها ، بحيث ترتبط كل منها بسابقتها وتعين لاحقتها .

الشك المنهجي

ديكارت يبحث عن يقين . فيرى نفسه محاصراً بالشكوك . كان طفلا قبل ان يصبح رجلا . مهذبوه حشوا منه الرأس بالمفاهيم الغامضة . وتراكمت لديه مفاهيم اخرى عن طريق الحواس . ولكنه اختبر ان حواسه تخدعه أحياناً ، فلا يستطيع من ثم ان يركن اليها . فيلجأ مرغماً حينذاك الى عملية يتوجب على كل انسان اجراؤها مرّة في حياته : الشك في كل شيء الى ان يصادف شيئاً لا يرقى اليه الشك . وهكذا يستند ، عند الانطلاق ، الى تأكيد تفاؤلي : قيمة العقل البشري كمحك لما هو حقيقي . لانه لو توصل جدلاً الى ان كل الأشياء مشكوك فيها ، لما كان توصل الى ذلك الا بالنسبة لشيء غير مشكوك فيه ، ولما كان علم بان كل شيء مشكوك فيه ، الا لأن كل شيء لا ينطوي على مميزات ما هو حقيقي . لذلك فانه يقر ، كمبدأ اساسي مسلم به ، ان هنالك ما هو حقيقي وان العقل حكم في ذلك . ان تلميذ اليسوعيين هذا يثق بالانسان كما يثقون .

ديكارت يشك في كل شيء . فغرفته وطاولته ومصباحه : حلم ؛ ويداه وذراعاه وجسمه : اوهام . لا وجود لشيء. وليست كل الأشياء سوى طيف يبتكره جنّ خدّاع . ولكنه اذا شك ، وانكر وجود كل شيء ، وأصدر حكماً ، وكونت قوة ادراكه فكراً وانكرت ارادته وجود هذا الفكر كشيء خارج عن ذاته ، فمن الضروري الطبيعي ان يكون هو ، وهو من يفكر ويتصور ويؤكد وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس ، موجوداً . « افكر ، اذن انا موجود » . ان هذه الحقيقة الاولى ليست قياساً توفر كبراه ، اي « كل ما يفكر موجود » ، جردة الكائنات المفكرة؛ وصغراه ، أي « انا افكر »،تحقق الفكر في الفرد ديكارت ؛ ونتيجة اي « انا موجود » اثبات وجود الفرد ديكارت . بل هي الادراك المباشر في ذاته بفضل المعرفة الطبيعية ، هي توقع (حدس) وجود ارتباط لا يرقى اليه الشك ، بين هذين الواقعين : افكر ، وانا موجود . بالفعل نفسه ، وفي الوقت الذي يتوصل فيه الى حقيقة يستحيل الشك فيها ، يمكّنه هذا الحدس من قاعدة اسلوبه الاولى: كل الافكار التي يدركها العقل في ذاته دفعة واحدة بكل جلاء ووضوح ، على ضوء النور الداخلي الساطع ، هي حقيقية ، وكل ما يراه ، بكل جلاء ووضوح ، مختصاً بشيء ما، يختص في الواقع بهذا الشيء : افكر ، اذن انا موجود ؛ ٢+٣=٥، الكل اكبر من الجزء ، الخ . فيجب من ثم ان ينطلق من الداخل الى الخارج ، من الذهن الى الاشياء .

الافكار المطبوعة الله ضمانة العلم

اذن يجد ديكارت في ذاته افكاراً . قد يصدر بعضها عن حكمه الخاص الذي تؤلف الارادة بواسطته بين توقعات قوة الادراك . ولكن هنالك افكاراً اخرى، كفكرة المساحة والحركة والديمومة ، هي شرط لا بد منه لغيرها، ولا يمكن تحليلها الا افكاراً اولية ، او وحيا داخلياً ، او أفكاراً مطبوعة . وهنالك أفكار، كفكرة اللانهاية التي لا يمكن ان تصدر صدوراً اكيدا عن الانسان ديكارت ، الكائن الناقص المتناهي، ولكن يجب ان تنطوي العلة على القدر ذاته الذي ينطوي عليه المعلول. لذلك فان افكار اللانهاية والكمال لا يمكن ان يضعها فيه سوى كائن هو نفسه لامتناه وكامل اي الله . الانسان يعرف اللانهاية والكمال قبل اي شيء آخر ، ولا يعرف ما هو متناه الا بعد ذلك . ان هذه الافكار تثبت وجود الله . ان مجرد فكرة الله تثبت وجود الله . لان الله يتحلى بكل الكمالات ، فهو من ثم يتحلى بكمال الوجود . الوجود يدخل في جوهر الله . فمن جوهر المثلث الزوايا ان تساوي زواياه الثلاث زاويتين مستقيمتين ، لا ان يوجد خارج فكري الذي يدرك هذا الجوهر . اما الله فيستحيل علي ان افكر به جوهراً دون ان افكر به موجوداً ، ولكن الله كامل ، وليس من ثم بخداع . اذن كل ما ادرك وجوده بجلاء ووضوح موجود حقاً . اذن العالم الخارجي موجود. التركيب الرياضي للعالم حقيقي . وجود الله هو في الاساس من حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية .

ديكارت يعرف نفسه كفكر، كشيء يدرك ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس. وهو موقن من وجود هذا الشيء دون حاجة منه لأن يعلم ما اذا كان هذا الشيء مرتبطاً بجسد. فيستخلص من ذلك ان هذا الشيء مادة لا أبعاد لها ، أي النفس ، التي تستطيع ان تبقى دون الجسم ، والتي لا يدركها فساد الاشياء التي تحددها الأبعاد ، وانه من ثم دائم البقاء . ولكنه موقن من ان له جسماً ومن ان هناك أشياء خارجية ، لانه يشعر ، حين يتخيل ادراكه هذه الاشياء بما هو صلب ورخو وبارد وساخن ولذيذ ومؤلم ولا يتعلق بارادته ان يشعر به او لا يشعر ، لانه يفرض نفسه عليه فرضاً . أضف الى ذلك،من جهة ثانية.ان الله ليس خداعاً.فوجود الله هو من ثم في الاساس من واقع العالم الخارجي .

الفكر والأبعاد

ما هي معلومات ديكارت الثابتة عن هذه الأجسام ؟ لنأخذ قطعة من الشمع . انها جسم جامد ذو شكل معين ولون معين ورائحة معينة . انها صلبة . تحدث صوتاً معيناً اذا قذف بها الى الطاولة . لندنها من الحرارة . فترتخي وتذوب وتصبح سائلاً ويتغير لونهاوتفقدرائحتها ولا تعود تسمع صوتاً وتحتل مساحة اكبر .لنخضعهاالمزيد من الحرارة. فلن تلبث ان تتحول بخاراً . على اننا نستمر في القول انها شمع على الرغم من تبدل كل ما يقع تحت حواسنا . ونحن نعلم بانها شمع لا بالنظر ولا باللمس ولا بالشم ولا بشيء آخر غير الفحص الذهني . ان ما يعرفه ذهننا معرفة اليقين في الاجسام هو مادة تتسع طولاً وعرضاً وعمقاً. وتقوم طبيعة المادة بهذا الاتساع طولاً وعرضاً وعمقاً . كل ما هو فكر يوجد في الله وفي النفس غير متسع ، غير متجزىء ، غير هيولي ، غير قابل الفساد ، دائم البقاء . وكل ما هو جزء متسع

طولاً وعرضاً وعمقا وقابل التجزؤ الى ما لا نهاية له . فيتوجب من ثم ، عند درس الاجسام ، اقصاء كل ما قد يشبه الروح ، وحتى كل ما هو صفة الصلب والرخي والحار والبارد الخ . لأن كل ذلك ليس سوى تأويل في حواسنا للواقع الذي هو غير ذلك . ان حواسنا لا تعلمنا الا بما هو مفيد ان نعلمه عن الاشياء لا بما هي عليه في الواقع . واقعها هـو الاتساع والحركة اللذان يقبلان القياس . لا بل ان الطريقة الصحيحة لمعرفتها هي قياسها . وهكذا فان المعرفة الصحيحة للطبيعة هي رياضية . ولكن في الهندسة بعض النوعية ايضا . فيجب اقصاؤها ورد كل شيء الى الكمية . الاتساع المرسوم هو موضوع المخيلة . اما موضوع الادراك فهو الكمية الخالصة . ديكارت يعبر عن الخطوط والمنحنيات بالارقام ، وعن النسبة القائمة بينها بالمعادلات . يدخل فكرة الحركة التي اعوزت الهندسة اليونانية . يحدد مكان النقطة في المسطح بابعادها عن محوريه الثابتين . تختلف هذه الابعاد باختلاف مكان النقطة . تنسق فكرة التمثيل الهندسية مع فكرة المتحولين الجبرية في معادلة تقبل عدداً غير محدود من القيم في آن واحد. فيصل بذلك الى مفهوم الدالة ويبتكر احدى ادوات العلوم الطبيعية العصرية ، اعني بها الهندسة التحليلية . الرياضيات هي جوهر الواقع . فهي تلفت الانظار الى النظام العميق الذي يسير الكون . حقيقتها مبنية على وجود الله. وهكذا تأيدت تعاليم غاليليو، وأمّن ديكارت في الوقت نفسه ثأر افلاطون من ارسطو .

علم الآليات الشامل

كل جسم يحتل جزءاً من الفضاء . وباستطاعته ان يحتل مكانا آخر . ولكن الفضاء الذي غادره لا يبقى فارغاً بمعنى هذا التعبير المألوف. الفضاء الموصوف بأنه فارغ لا يمكن تصوره الا بابعاد الطول والعرض والعمق : فهو من ثم شيء متسع . وهكذا يجب ان ينظر الى الكون كله كما الى شيء ملآن . الاتساع الكوني يقبل التجزئة الى ما لا نهاية له دون ان نستطيع التوصل يوماً الى تصور ذرة لا تقبل التجزئة . فالذرة من ثم غير موجودة . اما ما يوجد فصغريات اجزاء الاتساع المتباينة الابعاد والمتنوعة الاشكال والمليئة بالمسام . في هذه الاجزاء وفي ما بينها توجد مادة رقيقة جداً ومائعة جداً تمتد دونما انقطاع في كل الكون . الله يعطيها الحركة التي تنتقل في هنيهة واحدة الى كل مكان . الله لا يقبل التغير ، وكمية الحركة ثابتة اذن في الكون ، ومن عدم قابلية الله للحركة ومن بساطة العمليات الالهيـة تنجم سنن الحركة، سنة الجماد ، لا يستطيع اي جسم ان يبدّل من ذاته حالة حركته او سكونه ؛ سنن الحركة المستقيمة المتساوية السرعة ، وسبع سنن لتصام الاجسام بعضها بالبعض الآخر .

من هذه الحركات ينجم تنوع الاشياء في الكون. الكون حقل آليات واسع الارجاء. فالنور مثلا ليس سوى حركة في الاجسام المضيئة ، تنتقل بسرعة كلية وبلمحان كلي الى اعيننا . النور يرسل اشعته في برهة واحدة من الشمس الينا ، كما يحدث للاعمى الذي يسترشد عصاه ، اذا عملت الاشياء المحيطة به في طرف عصاه ، ينتقل عملها حالا الى طرف العصا الآخر . وهكذا فلا فائدة في تفسير الرؤية من اللجوء الى الصور الصغيرة المرفرفة في الهواء ، أو الانواع العمدية ، كما يدعوها الفلاسفة . ان هذه الاشعة الضوئية تكون مستقيمة كل الاستقامة حين لا تمر الا في جسم

شفاف واحد . أما اذا صادفت اجساماً اخرى فتنحرف عنها ، كما تنحرف حركـة الكرة أو الحجر . هذه المقارنة بحركة الكرة وجرأة ديكارت في تحليل القوى قد ساعدتاه على ان يوضح كيف ان عمـــل النور يخضع لسنن الحركة نفسها ، وان عمود المرآة ، في الانعكاس ، هو منصّف الزاوية المتكونة بالشعاع الملتقي بالمرآة والشعاع المنعكس ، وان الشعاع الملتقي بكاسرة الاشعة والعمود والشعاع المنكسر تكون في سطح واحد وان جيب زاوية الالتقـاء ، حين يمر الشعاع من الهواء الى الماء، يبلغ $\frac{4}{3}$ جيب زاوية الانكسار . وهكذا فقـــد ردت سلسلة من الظواهر الطبيعية الى حركات مادية وجدت صيغة سننها .

الحركة الآلية شاملة . الماء والارض والهواء والاجسام كلها مركبة من عدة اجزاء صغيرة متباينة الاشكال والاحجام تفصلها مسافات مليئة بمادة رقيقـــة ؛ الاجزاء الصغيرة االمستطيلة الملساء الزلجة تكون الماء . الاجزاء غير المهندمة والمقربـة تكون الاجسام الصلبة ، كالارض والخشب الخ .. المادة الرقيقة تتحرك باشعة الشمس فتحرك بدورها الاجزاء الصغيرة التي تهزهز دقائق اعصابنا وتجعلنا نشعر بالحرارة .

ان المادة الرقيقة الموجودة في مسام الاجسام الارضية ، التي تحركهــا اشعة الشمس بقوة ، تحرك بدورها الاجزاء الصغرى في هذه الاجسام ، التي لا تجد حينذاك مــكاناً يتسع لحركاتها ، فترتفع في الهواء كما يحدث في السهل للغبار الذي تثيره اقدام المارة . هذه الاجزاء الصغيرة تكون الابخرة والنفحات المتصاعدة، والغمائم المختلفة على انواعها . اذا انخفضت هذه الغمائم فجأة تسبب في حدوث وعاصفة، واذا هبطت غمامة على اخرى، نجم عن هبوطها الرعد والبروق والزوابع والصاعقة .

الزوابـــع

المادة الرقيقة تملأ الفضاء الكوني . وتتحرك حكـــا تحركاً دائرياً : ان جسماً يغادر جزءاً من الفضاء ليحتل آخر يطرد جسماً آخر من جزء الفضـــاء الذي يبلغه ، لان الكون ملآن ، والجسم الآخر يطرد جسماً ثالثاً ، وهكذا دواليك الى ان يحتـل جسم اخير جزء الفضاء الذي تركه الجسم الاول المتنقل فارغاً . فالحركة من ثم دائرية حكماً . لذلك فان الكون مليء بزوابع المادة الرقيقة التي تحمل النباتات حول الشمس . هذه الزوابع تفسر كل الحركات التي وصفها كوبرنيك وكبلر وغاليليو وهارفي .

كل شيء آلي اذن في العالم ، وليس في علم الآليات سوى عناصر هندسية أو شبه هندسية .

الحيوان ـ الآلة
والانسان ـ الآلة

ان جسم الحيوانات وجسم الانسان آلتان باستطاعتها التحرك دونمـــا نفس . الحيوانات آلات محضة . للانسان وحده نفس ولكنها متحدة بآلة . يوجد في الانسان انسان ـ آلة يقابل الحيوان ـ الآلة . ليست النفس مـا يعطي الجسم الحرارة والحركة ، والموت لا ينجم عن انفصال النفس عن الجسم ، بـل عن فساد احد اجزاء الجسم الهامة . حرارة الجسم تقلل كثافة الدم انشط الاجزاء حيــاة تصعد الى تجاويف الدماغ ، حيث تنفصل ادق الاجزاء رقة وتكوّن التآمير الحيوانية . هذه التآمير تمر ،

كالنسيم البالغ الرقة ، في انابيب صغيرة ، الاعصاب ، وتتوزع لتحريك العضـــلات . الاشياء الخارجية تحرك الاعصاب التي تحرك الدماغ ، وهكذا تتجه التآمير الى بعض العضلات بالتفضيل على سواها . وهكذا تدور الآلة دونما حاجة الى نفس .

الاهواء والارادة

ليس في النفس سوى افكارنا . ان حركات الدمـــاغ التي تسببها الاشياء الخارجية أو حركة اتفاقية للتآمير الحيوانية تستطيع ايضاً ان تري النفس عواطف مختلفة هي أهواؤها . أما اعمال النفس فهي ابتغاءاتها . النفس متحدة بالجسم كله دون ان تحتل منه جزءاً معيناً . بيد انها تعمل بصورة خاصة في الدمـــاغ بواسطة الغدة الصنوبرية . فهي تستخدم هذه الغدة لتدفع بالتآمير الحيوانية ، عن طريق مسام الدماغ ، نحو العضلات التي تريد هي تحريكها . وكذلك تحرك التآمير الحيوانية التي تفعل في النفس وتولد فيها الاحساسات ثم تولد ، بمناسبتها ، الاهواء : الاعجاب ، المحبة ، البغض ، الشهوة ، الفرح ، الحزن ، الجرأة ، الخوف . الاهواء تحدو بالنفس الى ابتغـــاء الاشياء التي تعد لها الجسم : فالخوف مثلاً يحث على الهرب . وهي كلها صالحة في طبيعتها .

الا ان ارادة الانسان حرة . ولا يمكن البتة ان تحمل على شيء اكراهاً . تستطيع استخدام اهوائها بـ « احكام حازمة وجازمة حيال معرفة الخير والشر » . تستطيع اثارة هوى أو اقصاء آخر بتمثلها « الاشياء التي ترتبط عادة بالاهواء التي نرغب فيها والتي تناقض ما نرغب في رفضه » . فلاثارة الجرأة في ذاتنا واقصاء الخوف « يجب الاجتهاد في تبصر الاسباب أو الأشياء أو الامثلة التي تقنعنا بان الخطر ليس عظيماً ؛ وان الضمانة في الدفاع اكبر منها في الهرب ، وان في احراز النصر عزة وبهجة وان عاقبة الهرب ندامة وخزي ، ومـــا الى ذلك » . وهكذا فان فكرة الخطر ، بدلاً من ان تكون مرتبطة بمكان الغدة الصنوبرية التي تمهد الطريق أمام التآمير الحيوانية بحيث تعد العضلات للهرب ، تنتهي الى الارتباط ، بفضل العادة ، بمكان الغدة التي تعد العضلات للمعركة . فيكون الانسان قد بات شجاعاً . وباستطاعة كل فرد على بعض المهـــارة ان يغير حركات الدماغ ويحقق السيطرة المطلقة على كافة الاهواء وبلوغ السعادة .

حرية الارادة النجابة

سبيل السعادة الوحيد الينا هو الفضيلة . وتقدم الفضيلة في التوق الى الاشياء التي تتعلق بنا ، اي بحرية ارادتنا . لقد ارادت العناية الالهية ، بقرار ثابت منزه عن الضلال ، ان تتعلق بعض الاشياء بحرية ارادتنا وان يحـــدث لنا بعضها بضرورة حتمية . فيجب علينا من ثم ان ندرك مقصدها ونحصر اهتمامنا باستخدام حرية ارادتنا ونبتهج بهذا الاستخدام مهما كان من أمر النتيجة . اذا كانت لنـــا حرية الاختيار بين طريقين البت الاختيار ان احداهما اضمن من الثانية ، يجب ان يحدو بنا عقلنا الى اختيار الاولى حتى اذا كان من مقاصد العناية الالهية ان نتعرض فيها للسرقة ، ونعتبر انفسنا سعداء ، بعـــد

السرقة ، لاننا سلكنا بوحي عقلنـا . على الانسان ان لا يهتم الا الى تتميم كل الاشياء التي حكم عليها بانها الفضلى « فيسر بذلك سروراً يبلـغ من عظمته في اسعاده ان اعنف جهود الاهواء تعجز ابداً عن تعكير طمأنينة نفسه » . فالانسان لا يستطيع ان يعتبر ذاته الا بسبب استخدام حرية ارادته التي تجعله شبيهاً بالله من زاوية معينة . ويكون الانسان نجيباً حين يدرك انـه لا يملك سوى هذا التصرف الحر بابتغاءاتـه وانه لا يستحق المديح أو اللوم الا اذا احسن أو أساء استخدام حرية ارادته وان عليه « ان يعزم عزماً حازماً وثابتـاً على ان ... لا تعوزه الارادة في مباشرة وتنفيذ الاشياء التي سيحكم بانها الفضلى » ، وهذا يعني الاهتداء بالفضيلة اهتـــداء كلياً . ومن المستطاع التوصل الى النجابة بالتأمـــل في فوائد العزم الحازم على حسن التصرف بحرية الارادة وفي بطلان الهموم التي ينشغل بها الطماعون . هكذا يتمكن المرء من ان يثير في ذاته هوى النجابة التي تاق اليها الكلاسيكيون .

انتصار ديكارت

ان المذهب الكرتزياني ، ولا سيما فكر ديكارت ، قد احرزا انتصاراً . فان بوسويه و « سبينوزا » و « مالبرانش » ولبينيز ، وكافة العلماء ، لا بل كل من تحلى بذرة تفكير ، كانوا تلاميذه او تأثروا بنفوذه . اضف الى ذلك ان الندوات الاجتماعية نفسها قد اولعت بالكرتزيانية لا سيما بعد السنة ١٦٦٠ . فغدا ديكارت « ذاك الآدمي الماثت الذي لو عاش في ايام الاقدمين لجعلوا منه الهاً » (لافونتين) . وان ريغري الذي لقن مذهبه في « دفنتر » و « ليدن » قد دعاه « نوري وشمسي والهي » ، ووصفه « هيربورد » بانـه « اعظم الفلاسفة وحارس الحقيقة والفلسفة وحرية الفكر ، ومنقذها والمنتقم لها » (١٦٤٧) . وقـد تلاكم الطلاب من اجل آرائه . ودرج هويجنس العالم الهولندي الكبير على القول : « لم يولد مثيل له في يوم من الايام » مقدماً بعض البراهين على نجاحه الشامل :

« ان ما نال كل الرضى ... حين اخذت هذه الفلسفة بالظهور ، هو ان الناس كانوا يفهمون ما يقوله ديكارت ، بينما كان الفلاسفة الآخرون يستعملون كلمات لا يفهم منهـــا شيء البتة ، كتعابير الصور الجوهرية ، والانواع العمدية الخ ، ولكن ما فرض فلسفته قبل كل شيء هو انه لم يستمر في اثارة الاشمئزاز من الفلسفة القديمة ،بل اقدم على سد مسد الماضي بعلل يمكن ادراكها انطلاقاً من كل ما هو موجود في الطبيعة » .

وفعل ديكارت اعظم من ذلك. اعاد الى الانسـان مبررات الحياة والنضال والخلق. اهتدى الى اليقين واعاد الثقة بارادة الانسـان وعقله ، وبقيمة العلم ، ووطد الايمان بالله والامل بحيـاة ازلية سعيدة ، واحيا الوحدة في الانسان الذي بات لديه تفسير عام للكون، بسيط في مبدئه ، ومثل اعلى لحياة داخلية منظمة في هدوء حرية الارادة المطلقة . وجاز الاعتقاد بانه اعاد اسس الديانة المسيحية ، كما ارتأى بوسويه فترة من الزمن . كما جاز الاعتقاد بانه برر مفهوم البطل ، المرتكز السيكولوجي للملكية المطلقة ، وانه حين شدد على تفوق المؤلفات الموضوعة من قبـل شخص

واحد وعلى ترتيبها وتناسقها وكالها ، وحين هاجم معارضيه وشرع بمفرده في اعادة بنـاء صرح الفلسفة والعلم ، انطلاقاً من مبدأ مسلم به ، انما كان متنفقاً وروح السلطة المطلقة .

٤ ـ الملكيـــة المطلقة

المثال الفرنسي : المفهوم الملكي للسلطة المطلقة

كانت السلطة المطلقة امنية الجماهير التي رأت خلاصها في جمـــع السلطة في يدي انسان يجسد المملكة ويكون رمزاً حيـاً للنظام والوحدة المنشودين . وأراد الناس كلهم ان يروا في الملك صورة الله : « انت اله على الارض .. » وقد انضم الى هذا المفهوم ، لدى اناس كثيرين حلم علماء الادب القديم : يجب ان يكون الملك بطلاً يتعشق المجد ، على الطريقة القديمة ، يحمي الآداب كاوغسطس ويحمي الكنيسة كقسطنطين ويسن القوانين كجوستينيانوس ، على ان يمتـاز « بحب تفضيلي للاسلحة » لأن « صفة الفاتح تعتبر أنبل واسمى الالقاب » برأي كل المعاصرين .

ومن حيث ان الملك وكيل الله ، فهو سلطة سامية . « الامير السامي يسن القـانون » فهو من ثم لا يقع تحت سلطة القانون » . يتصرف كما يطيب له التصرف . وينتج عن ذلك ان للملوك « حقاً طبيعياً في التصرف تصرفاً مطلقاً بجميع الممتلكات ، سواء عادت للعلمانيين أم للكنسيين ، بغية الاستفادة منها كما يفعل الحكماء المقتصدون ، اي بحسب حاجيات الدولة » . السلامة العامة تتقدم حق الملكية ، وينتج عن ذلك ايضاً ان الكنيسة تخضع للملك ويتوجب عليها ان تدفع له الاتاوات على املاكها التي اعطيت لها « لخير المملكة العام » وينتج عن ذلك اخيراً :

« ان عظمة الضباط هي لمعان عظمة الامير المطلقة ، كما ان عظمة الامير السامية هي شعاع عظمة الله المطلقة ولمعانها » .

فغدت المقارنة بالشمس امراً طبيعياً ، وليس ما فعله لويس الرابع عشر سوى اصرار على رمز ملكي قديم .

ولكن الملك ، صورة الله ، يجب ان يكون « عناية الهيـــة » على الارض . عليه ان ينشر العدل « تلك الامانة الثمينة التي أودعها الله ايدي الملوك كاسهام منهم في حكمتـــه وقوته » . عليه ان يسمو الى الكمال بكل من المهن التي تكون المجتمع ، لأن « لكل منهـــا وظائفها التي يصعب جداً على المهن الاخرى ان تستغني عنها .. لذلك يتوجب علينا لا ان نحتقر احـــدى هذه الحالات أو رفع احداها على حساب غيرها ، بل الحرص على ان نسمو بها كلهـــا ، اذا امكن ذلك ، الى الكمال اللائق بها » ، وهذا هو المثل الاعلى لمجتمع يوجّه فيه العمل الاجتماعي وتنظم المهن بحسب حاجات الانسان . وعلى الملك اخيراً ان يحمي الضعفاء و « يبدي للشعوب الخاضعة لنا مظاهر العطف الابوي نفسها التي يبديها الله لنـــا كل يوم » ، و « لا يهتم بشيء فوق اهتمامه بوقاية الضعفاء من ظلم من هم اقوى منهم ، وبتأمين العزاء للمحتاجين في بؤسهم » .

سلك لويس الرابع عشر بمقتضى هذه الآراء ، ولكن هـنري الرابع ولويس الثالث عشر لم يكونا اقل منه تصميماً على ان يكونا البطل والسيد المطلق و « العناية الالهية » .

اسلوب الحكم الوزاري واسلوب الحكم الذاتي

مارس الملك سلطته بممارستين مختلفتين بحسب العهود . فحين يكون قليل القدرة ، كلويس الثالث عشر ، او حديث السن جداً ، كلويس الرابع عشر بين السنة ١٦٤٣ والسنة ١٦٦١ ، يقوم حكم وزاري ، حيث رئيس الوزراء ، كالكردينال دي ريشليو والكردينال مازارين ، في فرنسا ، والكونت – الدوق اوليفاريس ، في اسبانيا ، الخ ، يحكم باسم الملك ، ويؤدي له حساباً . وحين كان هذا الملك لويس الثالث عشر ، لم يكن هذا الاسلوب قاعدة :

« ان السيطرة على كافة ساحات الوغى في اوروبا لاسهل علي من السيطرة على مكتب الملك » .

ولكن الوزير ، في أيام الاقطاعية والتبعية هذه ، يسلك سلوك وزير الملوك في اواخر عهد الميروفنجيين . يحيط الملك برجاله ويعين اتباعه الخلص في المناصب الهامة ويؤسس سلالة ويجعل من انسبائه مشيري فرنسا وقادة بوارج ودوقية وامراء ، ويزوج بنات أشقائه وشقيقاته الى الامراء الملكيين ، ويملك ، كريشليو مثلا ، مراكز محصنة ، ك « برواج » و « له هافر » ، يوصي بها لورثته . ويتصرف ببعض الجيوش ، فرقة مشاة وفرقة اشراف ريفيين . فيرى الملك ضباطه يتخلون عنه شيئاً فشيئاً ويدخلون في خدمة الوزير ، كما يرى مستقبلاً قريبا يمسي فيه وحيداً وعاجزاً امام وزيره الذي يدين له الجنود بولائهم ولا يستطيع فرض سلطته على المملكة الا بواسطة الوزير ورجاله . لذلك كانت وفاة الوزير فرجة للملك .

وهكذا ، فان لويس الرابع عشر ، الذي بنى مذهباً مما مال اليه هنري الرابع بالفطرة ، عزم على ان يكون هو بالذات رئيس وزرائه ويلم وحده بكافة الشؤون ويكون الشخص الضروري الوحيد . فانتهى به ذلك شيئاً فشيئاً الى حياة بيروقراطية منتظمة ومنظمة في سبيل خير انتاج . « كان بالامكان ، بواسطة التقويم والساعة ، معرفة ما يفعله ، على مسافة ٣٠٠ عقدة منه » . كما انتهى به الى الانفراد ، في « فرساي » ، في قصر ومدينة لم يكن تشييدها لاجل عمل الملك اقل منه لاجل دعاوته وملذته . أراد البعض ان يروا في هذه الحياة البيروقراطية تقليداً لاسبانيا ، بينما هي ظهرت ، في الواقع حيثما اتسعت السلطة المطلقة . فمردها من ثم الى الضرورة .

تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتقهقرها في عهد الحكم الذاتي

في عهد الحكم الوزاري ، ترتبت الانظمة . ولكن توسع الانظمة كرس حقوقاً لبعض اناس خطرين ، المظام ورئيس الوزراء . فدبر لويس الرابع عشر حركة ارتداد الى الوراء ستخلي الجو للارادة الملكية . ما زالت الحكومة ، في عهد الحكم الوزاري ، اختصاص عائلة ونسب والقاب ووظائف . يدخل المجلس الاعلى اعضاء الاسرة المالكة والامراء الملكيون

والدوقية والامراء والمستشار وناظر المالية . الوزراء يتسلمون وظيفة تسند اليهم بشهادات رسمية يمنحها الملك « تقيمهم » فيها وتجعلها « ملكا » لهم . فأحدث لويس الرابع عشر ثورة حقيقية . اقصى عن المجلس الاعلى كل من قد تحدثه نفسه بسلطة سياسية بالاستناد الى نسبه او لقبه او وظيفته . تناول تدبيره ، في الدرجة الاولى ، امه وأخاه والامراء الملكيين : فزالت عن الحكومة صفتها العائلية وامست ذاتية حقاً . ثم تناول مستشار فرنسا والاحبار وكبار الاسياد . وتناول أخيراً كبار الموظفين . فأمناء السر لم يعينوا كلهم وزراء . ولم يعد مركز الوزير حالة دائمة . وليس من بعد لا رسائل ولا شهادات ملكية باسناد وظائف الوزراء.يصبح المرء وزيرا حين يدعوه الملك الى مجلس الوزراء بواسطة أحد حجابه ، ويفقد منصبه حين يكف الحاجب عن دعوته . وفي بعض الساعات يتداول الملك في شؤونه مع من يناسبه من الرعية . ليس لاحد غير الملك حق مكتسب في الحكم . كل شيء مركز في شخص الملك .

بذلت في عهد الحكم الوزاري جهود كبرى لتنمية آلة السلطة الملكية،اي المجلس . فاحدثت فيه اقسام جديدة ، مجلس البرقيات للداخل ، ومجلس الوعي . أما القسم السياسي ، اي مجلس الشؤون أو المجلس الاعلى ، والاقسام الادارية ، اي مجلس المالية ، ومجلس الشورى والمالية ، والمجلس الخاص ، فقد سبق وحددت اختصاصاتها وادخل على وظائفها توزيع اجدّ واجدى . بيد ان لويس الرابع عشر ، بالمقابلة ، قد وقف موقفاً حذراً من المجالس . وحين اتضح له انه لا يستغني عنها ، حاول اقصار اعمالها على ما هو شذشنة ونسق مطرد . واخذ يعمل وحده مع كل من امناء سر الدولة ومراقب المالية العام على التوالي . كما اخذ يبت في كافة الشؤون الهامة التي لم تعد لتمر أمام المجالس الا مروراً شكلياً، أو لا تمر البتة .وصدرت الوف القرارات المجلسية حاملة ، « بأمر المجلس » ، توقيع احد امناء سر الدولة والمستشار، دون ان يعلم بها المجلس الاعلى أو مجلس البرقيات أو مجلس المالية الملكي .

ووقف الملك موقفاً حذراً من وزرائه وأمناء سر دولته ايضاً . فاعاد النظر في تقسيم العمل وحاول اثقال اعباء العمل حيث تتشابك الامور بحيث لا يستطيع اي اختصاصي اقامة العقبات في طريق ارادته . واوجد الخلاف بين معاونيه واوغر صدورهم غيظاً بعضهم على بعض ورمى الفتنة فيما بينهم و« اشعل نار احسادهم المتبادلة » ، ورأى في كولبير و « لو تلييه » ضمانة لسلطته .

ان المعضلة التي واجهها الملك في العهدين لم تكن الفوز بطاعة رعاياه فحسب ، بل باخضاع ضباطه انفسهم لارادته ايضاً ، لا سيما وقد غدوا مستقلين بفضل بيع الوظائف ، وبممارسة ملء السلطات التشريعية والقضائية و « البوليسية » أو الادارية .

الاوامر الملكية بالسجن ومفوضو الشرطة السياسية

لجأ الملك ، في سبيل بلوغ هذا الهدف الى الاوامر الملكية بالسجن التي يعلن بها مباشرة عن ارادته للافراد أو الهيئات . فبموجب هذه الاوامر ، يوقف الملك من يشاء أو يسجنه أو ينفيه؛ ويعاقب الابن أو الزوج على سوء سلوكهما بناء على عريضة تتقدم بها العائلات ؛ ويستدرك المقاومات ، ويقاص مثيري الفتن والمتآمرين مع العدو دونما محاكمة . واذا تكلم الملك نفسه ، فما على الرعية سوى الانحناء أمام سلطته ، مصدر العدالة الشرعي .

ولجأ الملك لجوءاً مطرداً الى مفوضين يعينهم ويعزلهم على هواه ، وما مستشارو الدولة في المجالس الادارية سوى مفوضين على كل حال. وفي عهد الحكم الوزاري ، منح الملك هذه المجالس صفة « الفرقة الاولى » في المملكة واولاها سلطة على المحاكم المعروفة بالمحاكم العليـــا ، حتى في حال غياب الملك . كان باستطاعة المجالس ، منذ السنة ١٦٣٢ ، ابطال كل قرار ، حتى ولو كان صادراً عن المجالس التمثيلية ، اذا ثبت ان صـــدوره يتنافى والانظمة أو السلطة الملكية أو المنفعة العامة أو حقوق التاج . كما كان من حقهم طلب المعاملات والبت بها وحرمان المحاكم العليا من وظائفها . أما في عهد لويس الرابع عشر ، فقد ابقي على سلطة هذه المجالس ، انما كإسم وهمي مفيد ، لان قرارات المجلس غالباً ما تنبثق في الواقع عن الملك ومعاونيه المباشرين ، أي امناء سر الدولة ومراقب المالية .

خلال العهدين ، توطدت سلطة الملك على المحاكم العليا ، على الرغم من انحصار عملها في مجلسه مبدئياً ، في السنة ١٦٤١ ، احتفظ لنفسه شرعاً بحق الاطلاع على شؤون الدولة ، وانزل عدد الاعتراضات الى اثنين قبل التوقيـع في المعاملات المالية ورفضها بعد التوقيـع في شؤون الدولة . واحتفظ لويس الرابـع عشر لنفسه ، مرة اخرى ، بشؤون الدولة ، وفرض على المحاكم العليا ، في السنة ١٦٧٣ ، توقيـع المراسيم حالاً كما ترد عليها ؛ ولا تقبل الاعتراضات الا مرة واحـــدة وبعد التوقيع فقط . فآثرت المحاكم ابداء رأيها . وهكذا وجدت المحاكم العليا نفسها مقصاة عن السياسة العامة وعن المسائل الدستورية . فتعززت بالفعل نفسه سلطة الملك في الحقل السياسي وسلطته التشريعية المطلقة ، ومن ثم قدرته على فرض الضرائب على هواه والتصرف بالامـوال المجموعة دون تأدية حساب . واتيح للملك ان يطلب الى لجان تشكل من بين اخصائه وضـــع قوانين (النظام المدني في السنة ١٦٦٧ ، والنظام الجزائي في السنة ١٦٧٠ ، والنظام التجاري في السنة ١٦٧٣) اعطاها الملك وحده قوتها التشريعية دونما تسجيل ، ودونما استشارة احـد من الموظفين المسؤولين ، ودونما اسهام من قبل الهيئات الخاصة ، وانطوت على نزعة واضحـة الى الوحدة والمساواة وجاءت عملاً ثورياً حقيقياً .

عين الملك لجاناً من المجلس للحكم في قضية والتأكد من تنفيذ مرسوم ، كغرفة الـ « ارسنال » في السنة ١٦٣١ ، واللجنة التي حاكمت حكام « لاشابيل » والـ « شاتليه » بعد معاهدة الصلح

في « كوربي » ، الخ . ولم تكن هذه اللجان مجرد اجهزة تحضيرية ؛ بل أصدرت في الواقع احكاماً مبرمة .

واستخدم الملك وكلاء جيش ووكلاء قضاء وشرطة ومالية . كان هؤلاء ، في الدرجة الاولى مفتشين كلفوا مراقبة الضباط ورعايا الملك وتأدية حساب عن ذلك للمجلس . وكان باستطاعة المجلس حينذاك ، اما الفصل في القضية بموجب حكم ، واما اعطاء الوكلاء السلطات الضرورية للفصل والحكم والتشريع . وكان من ثم باستطاعة الوكيل حضور مجلس الحاكم وابداء رأيه ، وترؤس المحاكم القضائية ، واصلاح القضاء من حيث الأنظمة ، والتثبت من ان الضباط ينفذون مهام وظائفهم ، وكف أيديهم في حالة السلب ، وتلقي شكاوى رعايا الملك ، وإحقاق حقهم بواسطة القضاة . وترأس الوكيل جمعية المدن وراقب الانتخابات واستثبت ديون الجمعيات وسهر على تطبيق الأوامر والأنظمة : فكان ذلك مقدمة للوصاية الادارية . وراقب الوكيل جباية الضرائب ، وتصدر مكاتب المالية ، وسهر على تطبيق الانظمة والقوانين،ولكنه لم يتمتع بسلطة عامة مطلقة ويحق اصدار احكام من الدرجة الاخيرة الا في حالتين : اختلاسات ضباط المالية؛ الجمعيات الممنوعة ، العصيان ، الفتنة ، تجنيد الفرق .

وكان الوكيل اداة طيعة جداً . وكان باستطاعة المجلس ، في أيام الحروب أو الأزمات الداخلية ، اعطاؤه صلاحيات واسعة جداً تجعله يقوم بكافة مهام الضباط ولا يترك لهم سوى الاسم فقط . في هذه الساعات العصيبة يقيم الوكلاء ، بمساعدة مرؤوسيهم ، ادارة مفوضين في وجه ادارة الضباط . ولكن الحكومة الملكية ، وريشليو وكولبير ، يعتبرون هذه الفترات فترات استثنائية وضرورات مؤسفة . ويحاول الملك في زمن السلم الاحتفاظ بالوكيل ويميل أبداً الى توسيع صلاحياته في دوره التفتيشي . يحظر عليه الحلول محل الضباط ، ويرغب اليه في مراقبتهم فقط ، ويوجب عليه ، اذا ما قصروا في واجباتهم ، اطلاع المجلس على ذلك وانتظار الحصول على الصلاحية اللازمة لمعالجة أوضاعهم .

ولجأ الملك الى عمل بوليسي سياسي ، مارسه الوكلاء والجواسيس والعملاء المنتشرون في كل مكان ، في باريس حيث عينهم حاكم الباستيل ، الوكيل المجرم ، ثم وكيل الشرطة العام « لارني » ، منذ السنة ١٦٦٧ . وكان يكفي ان يساء تفسير كلمة واحدة حتى يمسي المرء في الباستيل ، دوقاً كان ام خادماً . وقد استند الوكلاء والمجلس الى دلائل واهية حتى يوجهوا التهم بالجناية على الملك ، وكان الحكم يصدر بالاستناد الى مجرد ظنون لان ريشليو ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر قد جاهروا بان الحصول على براهين حسابية في موضوع التآمر يكاد يكون مستحيلاً وبان انتظار الحدث يؤدي الى ضياع كل شيء . لا بل لقد لجأ الملك الى السجن الوقائي ، غير المحدود بزمن ، بمجرد كتاب ممهور بخاتمه .

وامن تنفيذالاوامر الملكيةجيش من المرتزقة تدفع لهم اجورهم بانتظام ويخضعون لنظام صارم.

لويس الرابع عشر سيد أوحد

ما عاد لويس الرابع عشر ليقبل ، في كل الوظائف العامة ، كوظائف الوزراء وامناء سر الدولة والمراقب العام ، الخ .. سوى « بالمخلصين » الذين يقومون بخدمات منزلية بالاضافة الى وظائفهم العامة وينقلون على غرار كولبير مثلاً ، رسائل الملك الى عشيقاته أو يستلمون منهن ، عند الولادة ، أولاد الملك غير الشرعيين. وقد لجأ الى الشواعر الاقطاعية، ولكنه اراد ان يكون هو مرادها وغايتها. وأراد تحقيق السلطة المطلقة بربط كافة الفرنسيين بالملك ربطاً مباشراً ، بواسطة رباط ذاتي ، كما ارتبط الفداديون بسيدهم . وأراد أن يكون السيد الأوحد المطلق أو اقله الحامي المطلق « كل العيون شاخصة اليه وحده ؛ واليه وحده ترفع كل الاماني ؛ هو وحده يتقبل كل احترام واعتبار ؛ وهو وحده محط كل الآمال ؛ وبدونه لا يطلب ولا يسمع ولا يعمل شيء. ينظر الناس الى نعمه كما الى المصدر الوحيد لكل الخيرات ؛ ولا يؤمنون بالارتقاء الا بمقدار تقربهم من شخصه واعتباره ؛ وكل ما عدا ذلك جدب ومحول » . روابط العواطف والمصالح كلها تتوجه الى الملك الذي يجسد من ثم اماني رعاياه وآمالهم وبذلك ، كما بممارسته السلطة الذاتية ، يركز الدولة في ذاته ويحقق في ذاته وحدة الدولة ، كما يمهد رعاياه ، باستغلال مشاعر قديمة جداً ، للانتقال الى مفهوم الدولة المجردة . وهكذا فان لويس الرابع عشر قد أعد الدولة العصرية بواسطة رواسب القرون الوسطى .

الاستفادة من البورجوازية

اعد الملوك الدولة العصرية باعداد طبقة اجتماعية على اخرى وبرفع البورجوازية في السلّم الاجتماعي . فخلال القرن ، اختار الملك وزراءه ومستشاريه ووكلاءه ، اكثر فأكثر ، من بين رجال القانون البورجوازيين . خلائقه هذه « تنحدر من عامة الشعب » ولكنها « تعظم فوق كل عظمة ». رفع الملك الى طبقة النبلاء « لو تلييه » وكولبير وجعل منهما مركيزين اي سيدين يسميان باسم اراضيهما ، على غرار « لوفوا » و « بربزيو » و « كرواسّي » و « تورسي » وخلق سلالات تنتمي الى الوزراء من الانسباء والانسال « البورجوازيين » الذين استفاد من قوتهم في وجه الانسباء والانسال النبلاء . في السنة ١٦٩٥ ، احلّت قائمة الضريبة الشخصية وزراء الدولة في الطبقة الأولى وساوت المستشار ومراقب المالية العام بالامراء الملكيين . وارتفعت في الأقسام الادارية التابعة لمجلس شورى الدولة نسبة رجال القانون . فقد حدد نظام السنة ١٦٧٣ عدد المستشارين الأصيلين بـ ٢٤ مستشاراً من رجال القانون و ٣ من رجال الكنيسة و ٣ من اشراف الجندية . ويجدر لفت الانتباه هنا ، بصدد هؤلاء الاخيرين ، الى ان شرط العدد المعين من درجات النبل لم يعد وارداً : فقد بات باستطاعة ابن أحد رجال القانون من النبلاء أن يتولى هذا المنصب . وفقد الدوقية والأمراء ، شيئاً فشيئاً، مراكزهم بين المستشارين الذين كان لهم الحق ، قانوناً ، بعضوية المجلس الخاص لا بل ان قانون السنة ١٦٧٣ قد اهمل ذكرهم اهمالا تاماً . وحصل مستشارو

الدولة على حق الارتقاء الى طبقة الاشراف الذي جاز انتقاله الى انسباء الدرجة الاولى . وكانوا بعد ذلك يقدمون الى الملك مع نسائهم ويسمح لهم بالتزلف اليه ، وتملكوا الاقطاعات فغدوا اسياداً . وغالباً ما اختار ابناؤهم عمل الجندية وخدموا في فرق الملك ، اقله لفترة معينة ، قبل ان يدخلوا عالم الوظيفة . وهكذا فان الملك قد رفع رجال القانون المكرسين لخدمته رفعاً مطرداً وجعل منهم اشرافاً . فغدت خدمة الملك ، الذي يجسد الدولة ، رويداً رويداً ، مقياس تصنيف طبقات المجتمع .

ترويض النبلاء

تذمر الاشراف من تصرف الملك هذا ، فهم يحتقرون هؤلاء «البورجوازيين» وقد دمدم « سان – سيمون » قائلاً : « كان هذا الملك ملك بورجوازية حقيرة » . وتألموا من تسوية بين الطبقات اقدمت عليها دولة حصدت المقاومات حصداً . فالسجون ملأى بالسجناء المرموقين : الكونت « دي كرامين » ، والمرشال « دي باسومبيير » و « باراداس » احد المقربين الى لويس الثالث عشر . لذلك حاول الملوك ان يوفروا لطبقة النبلاء المراتب الرفيعة وسبل العيش. فاحتفظوا لهم بمناصب الحكام وبعدد وفير من رتب الجيش ولاشقائهم بمعظم الوظائف الكنسية ، وادخلوهم في خدمتهم ، وارسخوا في ذهنهم روح النظام والطاعة ودربوهم شيئاً فشيئاً على حياة الوظيفة . واتم لويس الرابع عشر تنظيم البلاط. فجمع حوله في «سان جرمين» و«فونتينبلو» و«فرساي» كافة ذوي الشأن من النبلاء. واجهز على ثروتهم بتعاقب خدمتهم الباهظة الاكلاف في المعسكرات وبحياتهم البذخية في البلاط . ولم يتورع عن خوض غمار الحروب كي يجد لهم عملاً وظروف مجد وشهرة . واسترقهم بما خصهم به من معاشات وأمهار وخيرات كنسية . « قد يحدث اثناء التزلف الى الملك ان يجد المرء نفسه تحت ما يلقبه » كما قالت مدام « دي سيفينييه » بوصفها كلباً أميناً . ووفر لهم تعويضاً سيكولوجياً. ففي سلسلة من الاعياد المدهشة الفاتنة كان الملك يظهر بثياب إله الاولمب وافراد حاشيته بثياب الآلهة الثانويين أو الابطال . واستطاعوا بذلك نقل سراب حلمهم بالقوة والعظمة الى تقليد حياة الخالدين هذا مرتفعين فوق الانسانية العادية وخاضعين ، اذا وجب الخضوع ، لـ « الرب جوبتير » ، الملك الاله . وعلمتهم آداب البلاط ان يروا في الملك كائناً يفوق قدرة البشر . ودرج الرجال على رفع قبعاتهم أمام سرير الملك ، والنسوة على الركوع كما يفعلن أمام المذبح في الكنيسة . وتباهى الامراء الملكيون بالامساك بكم قميصه عند نهوضه من النوم . واحيط نهوضه ونومه ووجباته وحياته كلها براسم حافلة بمظاهر الاحترام والتكريم . وقد عبر احد رجال البلاط عن كل شيء اذ قال ، حين وفاة لويس الرابع عشر : « بعد وفاة الملك ، جاز تصديق كل شيء » .

ونجد الاشارة هنا ، من جهة ثانية ، الى ان آداب البلاط ، والبلاط نفسه ، لم تكن تمثلاً بما شوهد آنذاك في اسبانيا بل فرضها الوضع الاجتماعي وطبيعة الاشياء .

وهكذا فان الملك ، بفضل تقسيم الوظائف بين الطبقتين ، والاحتفاظ باهمها للطبقة الدنيا ، اي البورجوازية ، وبفضل رفع هذه الاخيرة رفعاً مطرداً وابقائها في وجه الطبقة الاخرى ، الاعظم قوة ، قد اعاد الصراع الطبقي الى نقطة توازن بين الطبقات أمنت سلطته الشخصية وأمنت الوحدة والنظام في الحكومة والدولة . اضف الى ذلك انه اعتمد التسوية والمساواة ، اكثر فأكثر ، في خدمة الدولة والخضوع التام والطاعة العمياء ؛ ولعله اضطر الى ذلك اضطراراً بفعل الازمة والحرب دون ان يستهدف تغيير نظام المملكة اجتماعياً . فغدت سلطته ، مع لويس الرابع عشر ، مطلقة وثورية .

المثال الانكليزي

حاول ملوك سلالة ستيوارت في انكلترا تحقيق السلطة المطلقة ، واستطاعوا الى ذلك سبيلاً خلال فترات طويلة . فقد حكم جاك الاول (١٦٠٣ – ١٦٢٥) حكم الملك المطلق الصلاحيات الى حد بعيد . وكرر شارل الاول محاولته من بعده (الاستبداد ، ١٦٢٩ – ١٦٤٠) . ويمكن ان يعتبر شارل الثاني ، منذ السنة ١٦٧٩ ، اي بعد الثورة (١٦٤٠ – ١٦٦٠) والاصلاح ملكاً مطلق الصلاحيات عملياً . وقام جاك الثاني (١٦٨٥ – ١٦٨٨) بالمحاولة الاخيرة . وقد سعوا كلهم ، باستثناء شارل الثاني ، ليس وراء السلطة المطلقة عملياً فحسب ، بل وراء جعل السلطة المطلقة نهائية بتحويلها الى وضع قانوني .

ملوك سلالة ستيوارت والدولة

اراد ملوك سلالة ستيوارت عن طريق السلطة المطلقة ان يوجهوا التطور نحو الرأسمالية ويبقوا على التوازن بين الاسياد المحافظين ، والمزارعين والفقراء ، وبين الطبقات الرأسمالية أو الطبقات المرتبطة في حياتها بالرأسمالية . وفي رأي ملوك سلالة ستيوارت ومستشاريهم من امثال « لود » رئيس اساقفة كنتربري ، وعضد الاستبداد ، ان الدولة انما هي تعبير زمني عن الموجبات الروحية . « الله والملك لم يهبانا النزر اليسير الذي نملك الا لاجل استعماله في خدمة قريبنا » . وما هدف الحكومة الاخير سوى المحافظة على التعاون الوثيق بين مختلف اجزاء جهاز المجتمع . لكل من هذه الاجزاء ، اي لكل طبقة ، وظيفة محددة يتوجب عليها القيام بها ، على ان يؤمن لها بالمقابلة مستوى حياتياً يتناسب ومرتبتها في السلم الاجتماعي . فيتضح من ثم ان ملوك سلالة ستيوارت كانوا معادين للاحزاب السياسية : « الاحزاب تستهدف ابداً غايات خاصة » . وكانوا معادين للافراد الذين تعرقل مصالحهم الشخصية تحقيق الخير العام ، ومعادين للفردية الاقتصادية المفرطة وللفردية الدينية ، التي تفوقها فظاعة ، لان الدين يجب ان يكون اداة في يد الدولة لتنفيذ مهمتها . وهذا ما يفسر عطف ملوك سلالة ستيوارت على الكنيسة الكاثوليكية التي نظرت نظرات مماثلة الى المجتمع والتي كان باستطاعتها وضع امكانات تنظيمها تحت تصرف الملك .

المجلس الخاص

كانت اداة الملك مجلسه الخاص المؤلف من مستشارين يعينون ويعزلون كما يطيب للامير ويلزمون باطاعته اطاعة كلية . بلغ اعضاؤه ، حوالي السنة ١٦٣٠ ، ٣٨ عضواً يدخل في عدادهم رئيس اساقفة كنتربري ، المستشار ، وزير المال ، بعض عظام

الاسياد ، رجال قانون ، امينا سر الدولة . لا يعرض الملك عليهم الا ما يطيب له عرضه ، ويصغي الى آرائهم ثم يضع صيغة قراره بنفسه . يتشاور المجلس الخاص وينفذ بواسطة الاعلانات والاوامر التي تقر في الاجتماع . وتدخل في صلاحياته السياسة العامة والتشريع والقضاء والمالية والحرب وشؤون الاسطول ، ودعوة المجلس التمثيلي للاجتماع وتعيين مأموري الاحكام المدنية والتعليمات الى القضاة والضباط المحليين والبت بالرسائل والعرائض. ويحضّر عمل المجلس وغالباً ما تتخذ القرارات مسبقاً ، في الديوان ، للشؤون السياسية ، وفي لجان المجلس للشؤون الجارية والادارة . أما الديوان الذي ليس معترفاً به رسمياً فيضم بعض مستشاري الملك السريين . ونرى في كل ذلك اوجه التشابه مع فرنسا على الرغم من ان تطور الانظمة هنا لم يبلغ ما بلغه في فرنسا .

فهي الاسس نفسها التي اقتضى تأمينها في هذه البلاد التي كان ملكها دون ملك فرنسا سلطة مطلقة .

سلطة الملك التشريعية

حاول ملوك انكلترا الاحتفاظ لانفسهم بالسلطة التشريعية . وسن جاك الاول القوانين بالاعلان والمناداة . وفي السنة ١٦٠٧ ، كتب « كوَل » ، استاذ القانون في جامعة كمبردج ، ما يلي : الملك « فوق القوانين بسلطته المطلقة .. يستطيع تعديل أو تعليق كل قانون يبدو له مضراً بالخير العام » . فاضطر جاك الاول لأن يتبرأ من الكتاب ولكنه استمر في سياسته . وصرح شارل الأول دون مواربة بان لاعلاناته قوة القانون . واخذ جاك الثاني يحمل القضاء على الاعتراف بحقه اي اعفاء الفرد من التقيد بهذا القانون أو ذاك (قضية ادوارد هيلز) ، ثم افرط في الاعفاء من القوانين ، ثم اصدر في السنة ١٦٨٧ بياناً حول حرية المعتقد جاء فيه ان « ارادته الملكية وهواه ... قررا ، منذ الآن ، تعليق كافة القوانين الجزائية في الدعاوى الكنسية » . وكان باستطاعته ان يفعل الشيء نفسه بصدد كافة القوانين وان يرغم المجلس التمثيلي على ان لا يقر سوى القوانين التي يوحي بها الملك .

السلطات القضائية الخاصة

وحاول ملوك سلالة ستيوارت تأمين تنفيذ ارادتهم بسلطات قضائية خاصة . فان جاك الاول وشارل الاول اكرها الشعب على اطاعة اعلاناتها بواسطة « الغرفة المكوكبة » والمحكمة العليا . أما الغرفة المكوكبة ، وهي الدائرة العدلية في المجلس الخاص برئاسة المستشار ، فقد حاكمت المتهمين الذين سبق للمجلس واوقفهم واستجوبهم وأحالهم عليها . وقد دخل في صلاحياتها كل حوادث الاخلال بالنظام العام والاخلال بالاوامر الملكية . وشملت الفئة الاولى الفتن والمنازعات ، لا سيا بمناسبة تصوين المراعي ، والحروب الخاصة بين الاشراف الريفيين ، والمؤامرات والاعتداءات على القضاة والاهاجي والشتائم . وهكذا استطاع « ونتوورث » اثناء عهد الاستبداد ، ملاحقة منتقدي

مساعيه في ايرلندا بغية خلق جيش دائم في خدمة شارل الاول . وشملت الفئة الثانية مخالفات الاعلانات الملكية ، كتلك التي حظرت زيادة عدد البيوت والمساكن في لندن، مركز الرأسمالية الكبير ؛ وتلك التي اوجبت على الاشراف الريفيين ، مالكي الاراضي في الارياف ، العيش فيها وعدم مغادرتها الى المدينة ، وقد حكم على احـــدهم ، « بالمر » ، في السنة ١٦٣٤ ، بالسجن و بـ / ١٠٠٠ / ليرة جزاء نقدياً ، لهذا السبب ؛ وتلك التي حظرت تخزين المواد الغذائية ورفع الاسعار ، وقد حكم على ١٥ شخصاً من اصحاب المصابن ، في السنة ١٦٣٤ ، بالجزاء النقـدي والسجن واقفال المصانع لاستخدامهم زيت السمك بدلا من زيت الزيتون ولاتفـاقهم على سعر ادنى معين لا يجوز تخفيضه . وكان عمل الغرفة المكوكبة مباشراً على المواطنين وعرّضا عـــلى القضاة الذين يخشون آنذاك مغبة الامر ويتشددون في تطبيق الاعلانات . وحين برزت مقاومـة « مال الاسطول » في السنة ١٦٤٠، استدعى مأمور الاحكام المدنية في سبع كونتيات لاهمالهم في شؤون التحصيل وصدرت بحقهم احكام مختلفة . فغدت هذه المحاكم تجسيداً للسلطة المطلقة .

وأعاد جاك الثاني المحكمة العليا . كانت برئاسة المستشار وشملت صلاحيتها كافة رجـــال الكنيسة وكل كلية ومدرسة تلقن دروس الصرف والنحو . وكان من حقها اصدار احكام مبرمة في دعاوى المعتقد الديني ، كالالغاء والعزل والحرم ، التي كانت بمثابة الحرمان من الحقوق المدنية والسجن مدى الحياة .

وتهرب ملوك سلالة ستيوارت من مبدأ « المثول أمام المحكمة » . فلا يوقف رعـايا الملك الا بسبب دين مدني أو بتهمة جرمية . وباستطاعة كل انسان حر سجين ان يلتمس من محكمة الملك « امراً بالمثول امام المحكمة » يوجب على السجان احضار السجين والادلاء بسبب سجنـه حتى تتمكن المحكمة من اعادة السجين الى السجن أو اخلاء سبيله بكفالة أو تبرئته . ولكن ملوك سلالة ستيورات اوجبوا على السجانين انتظار امر ثان وثالث ثم نقل السجين الى سجن آخر حيث تتجدد المهزلة . ودرج القضاة الملكيون على تحديد الكفالة بمبالغ باهظة جداً يعجز السجين ابداً عن دفعها . وادعى الملك اخيراً بان « امره الخاص » كاف لتبرير السجن ، واستند الى هـــذه الحجة حتى السنة ١٦٧٩ ، في عهـــد شارل الثاني . فكان ذلك مماثلاً للأمر الملكي بالسجن في فرنسا .

سلطة إحداث الضرائب

كانت المسألة الهامة تأمين موارد مالية دون تدخل المجلس التمثيلي ، فباع جاك الاول وظائف امناء الصناديق والقضاة والمدعين العموميين وامناء سر الدولة ، الخ . وحذا حذوه شارل الاول ، ثم شارل الثاني ولكن على نطاق اضيق . بيد ان الاهم كان ان يتمتع التاج بحق فرض الضرائب من تلقاء نفسه مباشرة . فأمر جـاك الاول ، في السنة ١٦٠٦ ، بفرض رسم جمركي جديد . رفض « جونبيتس » ، احـــد تجار شركة الشرق ، ان يدفع هذا الرسم لانه غير شرعي . فأدانته المحكمة المالية : « سلطة الملك مزدوجة ، عادية ومطلقة . أما سلطته العادية فلمنفعة الافراد ... ولا يمكن ان يدخـــل عليها

أي تعديل بدون المجلس التمثيلي . واما سلطة الملك المطلقة ... فلخير الشعوب العام ... وتعرف بالسلطة البوليسية ... تتنوع ، بحسب حكمة الملك ، الخير العام . القضية موضوع البحث قضية دولة ويجب أن تعالجها سلطة الملك الفائقـــة بحسب الانظمة البوليسية . كل الرسوم الجركية ناجمة عن التجارة الخارجية؛ ولكن التجارة والشؤون الأخرى مع الأجانب من اختصاص سلطة الملك المطلقة ... » فأمر الملك من ثم بوضع « كتاب الرسوم » (١٦٠٨) الذي فرض موجبات مالية باهظة .

بعد السنة ١٦٢٦ ، فرض شارل الاول الضرائب تلقائياً وفرض على كل رعاياه قرضا يعادل ما دفعه كل فرد من الضريبة الاخيرة. فكان عمله خطوة اولى نحو الضريبة المباشرة التي تجبى بارادة الملك . ولكن المقاومة برزت عنيفة . فأعلن الملك الاحكام العرفية ، وارسل الفرق للاقامة في بيوت السكان وسجن بعض النبلاء وكبار البورجوازيين ، واكثر من عامـــة الشعب في القوى البحرية . وخلال الاستبداد اعاد من تلقاء ارادته الاحتكارات التي الغاهـــا المجلس التمثيلي في السنة ١٦٢٤؛وامر باحترام الحدود القديمة للاحراج الملكية واستصدر أحكاما بغرامات نقدية على الملاكين المعتدين . وفي السنة ١٦٣٤ ، أعاد « مال الاسطول » الذي يوجب على قضاة المرافىء تقديم عدد معين من السفن الحربية أو ما يعادلها مالا ويعطيهم حق فرض الضرائب على السكان. تمنع « هامبدن » ، قادين في السنة ١٦٣٧ . واستند القضاة الى سلطة الملك المطلقة والى عجز المجلس التمثيلي عن حصر امتيازات التاج العليا . « الملك هو القانون » . و « للملك الحق في فرض الضرائب على رعاياه في سبيل الخير العام ... وللملك الحق في تجاوز كل قانون اذا اقتضت الضرورة ذلك » .

وبدأ جاك الثاني ، في الاتجاه نفسه ، باعلان أوجب فيه ، من تلقاء نفسه ، الاستمرار في تأدية الرسوم التي أعفي بعضهم منها في حياة الملك المتوفي (١٦٨٥) فقط .

الجيش الدائم

اقتضى لفرض ارادة الملك وجود جيش دائم يأتمر بامره وحده . وكانت هذه على الدوام اكثر النقاط ضعفاً . فقد نبا طبع الانكليز عن ذلك ، وبالنظر إلى ان البحار تحمي انكلترا لم يحظ الملك ، شأن ملوك اليابسة ، بمساعدة إلحاح ضرورات الدفاع عن الحدود . وغالبا ما قنع الملك بحرس خاص قليل العدد وببعض الحاميات الضعيفة . فلجـأ شارل الاول الى « الاكثار » من المتطوعين بينما كان « ونتوورث » يحاول تأليف جيش دائم له في ايرلندا . وفي أواخر عهد شارل الثاني ، استدعيت حامية طنجة الى انكلترا فارتفع الجيش النظامي الى سبعة آلاف من المشاة والف وسبعماية من الفرسان . ورفع جاك الثاني عدد المجندين الى ٣٠٠٠٠ رجل وأقام معسكرا في « هونسلو » للسيطرة على لندن .

وهكذا توصل ملوك سلالة ستيوارت ، على مراحل ، الى تركيز اهم مستلزمات السيـادة المطلقة في شخصهم ، وتوفقوا ، بمراقبة دائمة استهدفت الرأسماليين والاشراف الريفيين المتجهين

الى الزراعة التجارية، الى الابقاء بعض الوقت على التوازن بين المجتمعين القديم والجديد قبل السنة ١٦٤٠ ، وحاولوا مراقبة التطور نحو رأسمالية حرة بعد الاصلاح .

مثال الاقاليم المتحدة

أتاح الصراع الطبقي لرئيس سلالة « اورانج » استلام ادارة الحكومة ، وجعلت منه الحروب ملكا مطلقا ، وان لم يحمل هذا الاسم .

سلطة امراء اورانج المطلقة

منذ السنة ١٦١٩ ، وقف امير اورانج ، « موريس دي ناسو » ، قائد الجيش ، الى جانب الغوماريين المتحزبين للمجتمع القديم ، والى جانب الاشراف والفلاحين والصناعيين اليدويين والملاحين ، اي الى جانب اعداء البورجوازية والرأسمالية . فاستحال بتصرفه هذا قمع الفتن الشعبية التي أخذت تندلع في كل مكان تقريباً . ولجأ الى حملة مقالات انتقادية عنيفة مغرضة جعلت الناس يعتقدون بخيانة رئيس الحكومة « اولدنبرنفلت » الذي اتهم ، في هذه المقالات ، ببيع بلاده من فرنسا واسبانيا. فاعلن رئيس الحكومة مجرماً واعدم في ١٢ – ١٣ ايار من السنة ١٦١٩ ، وأقصى مجمع « دوردرخت » كل تفسير حر للتعاليم البروتستانتية وأدان الارمينيين بالهرطقة . فنزح عدد كبير من الرعاة الارمينيين عن البلاد . وخسر الجمهوريون الاكثرية في كل مكان ، في مجالس المدن والجمعيات الاقليمية والجمعيات العامة . وتكون في الرأي العام تيار فكري لمصلحة الامير ، الذي اعتبر منقذاً ، كان من نتيجته احلال الاورانجيين في كافة المراكز المرموقة . ولم يلبث تجدد الحرب ، والخطر المحدق بالحدود ، والحاجة الملحة الى تركيز السلطة ، بغية تعهد الجيوش وادارة العمليات العسكرية والدبلوماسية ،ان رفعت سلطة امير اورانج الى منتهاها، فمارس « موريس دي ناسو» حتى السنة ١٦٢٥ ، ثم فردريك – هنري من بعده ، سلطة ذاتية مستندة الى الجيش والطبقات الشعبية المطمئنة والاكليروس العادي للرأسمالية . وبات امير اورانج متمتعاً بسلطة مطلقة اتاحت له ادارة كل السياسة الخارجية بمعاونة مجلس يضم بعض الانجبة . لا بل ان ممثلي المجالس العامة قد سمحوا لامين سرهم في السنة ١٦٣٤ بحضور اجتماعهذا المجلس واعترفوا بشرعية مقرراته.

الجمهورية البورجوازية العاجزة

انتهى الصلح المعقود في السنة ١٦٤٥ والنصب الذي عقبه بسلالة اورانج الى الضعف والوهن . فلجأ غليوم الثاني الى قلب نظام الحكم ، ولكنه توفي في السنة ١٦٥٠ ، ولم تضع له امرأته ابنا الا بعد وفاته بعدة أشهر . غدت سلالة اورانج دون زعيم آنذاك ؛ فانهار الحزب الاورانجي . تأسست الجمهورية البورجوازية مرة اخرى تحت سلطة اقليم هولندا ورئيس سلطتها التنفيذية « جان دي فيت » الرئيس الحقيقي لجمهورية الاقاليم المتحدة . ففقدت سلالة اورانج كل سلطة . والغيت مهام القائد العام في اقليم هولندا ، في السنة ١٦٦٧ ، اذ جاء في البراءة الدائمة ان مهام الضابط العام والاميرال العام تتنافى ومهام القائد العام . الا ان الجمهورية البورجوازية برهنت عن ضعفها وعجزها عن تأمين سلامتها ومصالحها . فان الحربين اللتين اندلعتا بين الانكليز والهولنديين انتهتا

في السنة ١٦٥٤ بتقهقر تجارة الهولنديين الذين اضطروا للقبول بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة، وبفقدان المستعمرات الهولندية الاخيرة في اميركا الشمالية في السنة ١٦٦٧. وأخيراً اجتاح لويس الرابع عشر الاقاليم المتحدة في شهر حزيران من السنة ١٦٧٢. ومرد كل ذلك الى ان البورجوازيين الجمهوريين لم يعملوا بتحذيرات « جان دي فيت » ، بل انشغلوا ، قبل أي شيء آخر ، بالتجارة والكسب السريع ، وحرصوا على ان لا يتجاوزوا حداً ادنى في دفع الضرائب ، فرفضوا الاعتمادات المطلوبة للجيش وقاوموا احداث الضرائب المباشرة وأهملوا صيانة التحصينات التي تداعت وتهدمت وباعوا الذخائر من فرنسا . وكانوا قد قضوا على نظام الجيش لغايات سياسية . فاضطر الضباط المدربون ، وجلهم من النبلاء والاورانجيين ، الى تقديم استقالتهم ، واستبدلوا بابناء البورجوازيين الذين أعوزتهم الخبرة والروح العسكرية .

سلطة غليوم الثالث امير اورانج المطلقة

تصاعد شعور الجماهير القومي ضد الجمهوريين . وانفصل عنهم بعض البورجوازيين ممن تضررت مصالحهم بفقدان المستعمرات الاميركية . الا ان ذكريات الماضي المجيد واقصاء سلالة اورانج عن كافة الوظائف المدنية والعسكرية في اقليم هولندا ، الذي فرضه الانكليز في السنة ١٦٥٤ كخير ضمانة للحؤول دون عمل ثأري ، قد عينا أمير أورانج الشاب ، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، لان يكون المنقذ . فتسلم تحت ضغط الرأي العام الشعبي ، منذ الرابع والعشرين من شهر شباط من السنة ١٦٧٢ وظيفة الضابط العام والاميرال العام في الاتحاد . واعادت المدن كلها ، ثم الاقاليم ، ثم المجالس العامة ، وظيفة القائد العام ، والغت البراءة الدائمة وعينت غليوم اورانج ضابطاً عاماً وأميرالاً عاماً مدى الحياة ، كما كانت الحال قبل السنة ١٦٥٠ . وتجددت الحملة المغرضة ، التي استهدفت « أولدنبرنفلت » فيما سبق ، على « جان دي فيت » ، وأخيه « كورنالي » ، فمزقتها الجماهير تمزيقاً . ومنحت المجالس غليوم الثالث كافة السلطات التي طلبها وغدا تابعه « فاجيل » رئيس السلطة التنفيذية .

تمتع غليوم الثالث بسلطة لا ينازعها منازع حتى صلح «نيماج» . إلا ان النصب العام والوضع السلمي قد زادا مرة اخرى من شأن البورجوازية الجمهورية الكبرى الداعية للسلام والراغبة في التعاون مع فرنسا . فتجدد الصراع الطبقي ، كما بين السنة ١٦٠٩ والسنة ١٦١٨ ، على الصعيد الديني .

بيد ان سياسة ضم الاقاليم الى فرنسا التي انتهجها لويس الرابع عشر ، ثم ابطال براءة « نانت » ، الذي أوغر صدور كافة هؤلاء البروتستانت غيظا ، قد أزالا نفوذ البورجوازيين أصدقاء فرنسا . وفي السنة ١٦٨٨ ، جعلت الثورة الانكليزية من غليوم الثالث ملكا على انكلترا . فأكسبه ذلك نفوذاً واسعاً ، اذ انه بدا وكأنه المدافع عن الحريات في جميع أنحاء اوروبا وحامي الدين البروتستانتي . ولم تلبث حرب تكتل أوغزبورغ ان اندلعت. فغدا غليوم

الثالث مرة اخرى ، في الاقاليم المتحدة ، اميراً سيداً حقيقياً كما كان موريس دي ناسو وفردريك – هنري من قبل . ولجأ إلى الضغط بغية تأمين انتخاب أنصاره قضاة في المـــدن ، فامسى الاورانجيون اكثرية في المجالس الاقليمية والمجالس العامة . وحل محل « فاجيل » ، الذي توفي في السنة ١٦٨٨ ، على رأس السلطة التنفيذية ، هنسيوس المتفاني في خدمة الاورانجيين. فمارس غليوم الثالث حتى وفاته (١٩ اذار ١٧٠٢) سلطة تـكاد تكون مطلقة .

ان الأقاليم المتحدة تقدم لنا ، من ثم ، على مراحل ، مَثل نظام نرى فيه الصراع الطبقي والخطر الخارجي والضغط الشعبي تجعل السلطة تتركز في أيدي قائد حرب يتمتع ، بفضـــل نسبه ، بما يشبه حقاً تفضيلياً ، ومثل نظام اشبه بنظام مطلق مستند الى الرأي العام ، دون ان تحدث تبدیلات ذات شأن في النظم الجمهورية البورجوازية. وهكذا فان هذا النظام يتوسط الملكية والدكتاتورية ويتقرب من دكتاتورية « كرومول» حامي انكلترا بعدفوضى الجمهورية الانكليزية . وعلى الانظمة الجمهورية البورجوازية ، أمام الازمات الداخلية والخطر الخارجي، ان تفسح المجال للانظمة التسلطية .

٥ ـ الروح التجارية

فكرة عامة عن الروح التجارية

ان الهدف الاول هو رفع قوة الدولة ، وبالتالي مواردهـا ، الى الذروة ، والتزود بالاسلحة والذخائر والسفن تزوداً مستقلا عـــن الخارج . ولكن وسيلة المقايضة الاولى هـــي النقد المعدني الثمــين . فهو ما يتيح ، قبل اي شيء آخر ، الشراء والبيع ، ومن ثم انهاض همة المنتج ، وتنمية الاقتصاد ، والحد من خطورة المجاعـــات والاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي تنجم عنهـــا ، وزيادة قدرة المكلف على الدفع ، وتمكين الدولة من دفع مخصصـــات جيوشها ، ومرتبات موظفيها ، والمحافظة على النظام الداخلي والسلامة الخارجية ، وانهاض همة المنتجين مرة اخرى بتسديد ثمارها . النقد المعدني الثمين هو « دم الاقتصاد » ، لا بل دم الدولة بالذات . ولكن حجمه محدود جداً . فقد توصل بعضهم الى تقدير المعدن الثمين المتداول في اوروبا ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بخمسين ملياراً مــن الفرنكات (سعر ١٩٢٨) . وهذ يعني ان الدول الاوروبية تصرفت كلها ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بحجم من الذهب والفضة المسكوكة يعادل النقود المعدنية في مصرف فرنسا وحده في اواخر السنة ١٩٢٩ .

اما نتيجة ذلك فقومية اقتصادية وشبه حرب مالية دائمة بين الدول . كل دولة تحـــاول ايجاد تجارة يكون ميزانها مؤاتياً لاجتذاب المعدن الثمين والاحتفاظ به فيجب من ثم ان تمنع الاستيرادات البذخية ، وان يحد من استيراد المصنوعات جهد المستطاع . لا سيما وانها تنقص حجم عمل المواطنين . يجب ان تنتج المصنوعات في البلاد حتى ولو كلف انتاجها اضعاف الاسعار الخارجية . يجب ان تشرع ابواب البلاد لدخول الخامات ، وانما يجب جهد الامكان

ان تنتج في البلاد المصنوعات الضرورية للدفاع الوطني ، كالصواري ، وخشب البناء ، والقار والقنب ، والقطران ، الخ . في هــذا العهد ، وفرت الزراعة معظم المواد الاولية الضرورية للصناعة . فوجب من ثم ، بدون تردد ، ان يعتمد ، عند الاقتضاء ،نظام جمركي قاس حيال مزارعي البلاد وفرض رسوم ضئيلة على المنتوجات الزراعية المنافسة او اعفاؤها مــن كل رسم وتحظير تصدير المنتوجات الزراعية الوطنية او إثقالهــا بالرسوم ، بغية الحصول على محاصيل زراعية وفيرة باسعار متدنية تضمن انخفاض سعر كلفة المصنوعات المعدة للتصدير .

فالمهم انما هو زيادة حجم التصدير ما امكنت الزيادة ،وبالتفضيل، تصدير المصنوعــات لان العمل قد رفع قيمتها . ويجب من ثم توفير اكبر عدد ممكن من المنتجين واعتماد سياسة تشجيع زيادة النسل . الا ان التغلب على المنافسة يستوجب بيع النوع الافضل بالسعر الادنى . فيجب من ثم ان تكون نسبة الفائدة متدنية حتى يتوفق المتعهد الى رؤوس اموال لا تجر عليــه نفقات باهظة . كما يجب ان يدفع للعامل اجر زهيد وان يبقى مستوى حياته متدنياً . ولكنه اذا لم يسلم بهذا الواقع واستسلم للبطالة في بلاد تغمرها المصنوعات الاجنبيــة اولاً ، والاقتصاد الراكد ثانياً ، ينتهي حتماً الى البؤس ، كما ان الدولة التي تفتقر الى القوة ، تتعرض لشر الاخطار اي الغزو والسيطرة الخارجية . اما المتعهد الرأسمالي فيجب على نقيض ذلك إنهاض همتــه بمكاسب وفيرة .

يجب ان يكون هنالك مستعمرات تقدم للوطن الام المواد الاولية ومنتجــات الاستهلاك التي تفتقر اليها ، على ان تستغرق بالمبادلة منتوجات الوطن الام للمحافظة على الميزان التجاري . ويجب ان توفر مواد غذائية ، خامات او مصنوعات ، بسعر متدن ، حتى يتــاح اعادة تصديرها . اما المستعمرات المغرية فهي مستعمرات المنــاطق الاستوائية لان منتوجاتها تختلف عن منتوجات اوروبا . وتعتبر المستعمرة قبل كل شيء مؤسسة تجارية توفر لتجارة الوطن الام المحاصيل التي تفتقر اليها البلاد المنافسة او محاصيل تكون اقل كلفة من محاصيل البــلدان المنافسة . هــذا كان اساس مذهب الحصرية . تحتفظ الدولة بكافة العلائق مع مستعمراتها . فهي تضمن بذلك اسواق المستعمرات لتصريف محاصيلها الخاصة التي يمكن بيعها باسعار مرتفعة، وتشتري فائض محاصيل هذه المستعمرات باسعار متدنية ، وتعيد تصديرهـــا وتستجمع اموال الدول المتعاملة معها ، ولا تعطي المستعمرات سوى قسم من هذه الاموال .وقد نظرت الدول الى المستعمرات ، في الدرجة الاولى ، كما الى وكالات تجارية على السواحــل او الجزر ، او « حقول مزروعات » يتعهدها المهاجرون في مناطق اعظم اتساعاً . وليس سوى رجال الدولة الاسبانيين والفرنسيين ، وبين هؤلاء ريشليو وكولبير ، من رأوا ان سكان المستعمرات يجب ان يتمثلوا ويحوّلوا الى اسبانيين او فرنسيين وان المستعمرات يجب ان تؤلف ولايات الوطــن الام في ما وراء البحار .

ان التجارة بمفهومها هذا تدويل اقتصــادي او اقتصاد موجه . فبمقدور الدولة وحدها

تنظيم االاقتصاد والدفع به الى الامام كا هو لائق . وهي تفعل ذلك ، في مرحلة اولى ، في سبيل بلوغ هدف سياسي ، هو قوتها . وهي لا تسعى وراء الازدهار بحد ذاته ، وليس رفع مستوى الحياة غايتها الاولى . فالازدهار وسيلة ورفع مستوى الحياة نتيجة مباركة ثانوية . الجوهر هو قوة الدولة . السياسة تتقدم الاقتصاد . وتغدو الدولة، في مرحلة ثانية ، تعبيراً عن البورجوازية التجارية والصناعية الثرية التي هي اغنتها وانجحتها ، فيصبح إثراء هـذه البورجوازية غاية وقوة ، وقوة الدولة نتيجة . الاقتصاد يتقدم السياسة . الاقاليم المتحدة مثال المرحلة الثانيـة ، وفرنسا مثال المرحلة الاولى . اما انكلترا فلا تزال بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٨٨ ، مثـال المرحلتين معاً .

مثال الاقاليم المتحدة : جوالة البحار

ان اقتصاد الاقاليم المتحدة اقرب الاقتصادات الى الاقتصـاد الحر . فليس للبلاد من ميزة سوى مركزها الجغرافي على البحار الضيقة عند مصب طريق الرين النهرية الكبرى بين بلدان البلطيك وبلدان المتوسط ، وسهولة بلوغ المحيطات. وحين اتاح الانتصار السياسي على اسبانيا ، واقفـال مصاب الـ « اسكو » ، وتقهقر أنفرس ، ان يستفيد شعب نشيط من ذلك ، جعل الهولنديون والزيلنديون والفريزون من انفسهم وسطاء تجارة العالم . انصرفوا الى تجارة تخزين البضائع ، وجمعوا لديهم منتوجات العالم اجمع لمقايضـة بعضها بالبعض الآخر بواسطة النقد ولاعادة تصديرها . فامسوا جوالة البحار . واعتمدوا مبدأ الحرية الضروري لتجارتهم . فخالفوا الانكليز بقولهم بحرية البحر . وكانوا في بلادهم ، اقله في المدن الكبرى ، متساهلين نسبياً حتى حيال غير المؤمنين . ومنحت المعاهدة المعقودة مع ملك فارس في سنة ١٦٣١ جميع الفارسيين اجازة عامة بالاتجار مع الاقاليم المتحدة ومستعمراتها في المحيط الهندي ، كا منحت الحصانة الدولية لملك فارس ، والسكنى على نفقة الجمهورية للتجـار الفارسيين والاعفاء من الضرائب غير المباشرة ، على ان يأتوا باعداد كبيرة ويستحضروا مالاً وفيراً للشراء وإذناً بممارسة العبادة الاسلاميـة سراً . هكذا لجأ الهولنديون الى وسائل مختلفة وتوسطوا بين المنتج المحلي والشاري الاجنبي .

الشركات التجارية والدولة

ولكن اقتصادهم ليس بالاقتصاد الحر الصرف . فالتجارة البحرية تخضع في الاساس لقوانين الشركات التجارية ولرقابة متبادلة بين الشركات والدولة . ولا عجب في ذلك اذ ان تجارة الافراد الحرة وخيمة العاقبة في عهد يتميز بندرة المعادن الثمينة . فان الافراد ، الذين يسعون كلهم وراء الكسب ، يـلقون في اسواق اوروبا وآسيا كميات ضخمة من المنتوجات بالنسبة لكمية النقد المتوفرة . فتنخفض الاسعـار ويفلس الافراد وتنتحر التجارة . وفي فترات الحروب الاوروبيـة ، والمنازعات التجارية في المحيطات ، والصعوبات التي يثيرها الامراء المحليون ، والازمة الاقتصادية ، يكـون الافراد عاجزين وتشل التجارة . وليس لدى الدولة من جهتها ، بسبب افتقارها الى الموارد الماليـة ،

الموظفون والسفن والجيوش والوسائل اللازمة لتنظيم تجارة ما وراء البحار . وبات من ثم لزاماً على التجار ان يتجمعوا ويوسعوا الشركات . فتجمعت ست غرف من التجـــار في السنة ١٦٠٢ وأسست شركة الهند الشرقية . وقد ضمت ٧٣ مديراً من مدراء الشركات التجارية . اسندت ادارة الشؤون المشتركة الى هيئة من سبعة عشر شخصاً تعينهم الغرف ، على ان تعين غرفـــة امستردام ثمانية منهم لانها تتحمل وحدهـــا نصف النفقات المشتركة . وعاد لكل غرفة امر البت في تجارة اعضائها والصفقات الواجب اجراؤها في الهند والمبالغ الذهبية الواجب ارسالها وبيع البضائع المستلمة . وعاد لهيئة السبعة عشر امر البت ، باكـــثرية الاصوات ، بتنظيم الاساطيل وتحديد خط سيرها وتعرفة البضائع . واستفادت من احتكار الاتجار مع الهنـــد . واعتمدت في المستعمرات مبدأ البحر المقفل وادعت بتحريم دخول الهند على الانكلـــيز والبرتغاليين والفرنسيين . ومارست حقوقاً ملكية ، كالحرب والسلم والمعاهـدات مع الاوثان وتعيين حكام ومجالس يكون له سلطة القضـــاء المدني والجزائي في الوكالات التجارية التابعة للشركة . وتجمع لديها اخيراً في الهند ، جيش بري مؤلف من عشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل وجيش بحري وضعت تحت تصرفه بين اربعين وستين سفينة ، وباتت ترسل سنوياً الى اوروبا بضائع تتراوح قيمتها بين عشرة ملايين واثني عشر مليوناً ، وتوزع ارباحاً تعادل ٢٥ الى ٣٠ ٪ ، فارتفعت اسهمهـا من ٣٠٠٠ فلورين الى ١٨٠٠٠ فلورين حوالي السنة ١٦٧٠ .

ولكن صلة وثيقة قامت بين الشركة والدولة . فقد عين حكام المدن المدراء الجدد مدى الحياة . وكان كل المدراء اعضاء في مجـالس المدن والمجالس الاقليمية والمجـالس العامة . وسيطرت غرفة امستردام في هيئة السبعة عشر كما سيطر اقليم هولندا في المجالس العامة . وكان مصرف امستردام ، الذي يعود تأسيسه الى السنة ١٦٠٩ ، مصرفاً بلدياً . واختير مدراء المصرف من بين الاوصياء على المدينة (الحكام ورؤساء البلدية) ، الذين كانوا في الوقت نفسه مـدراء شركة الهند الشرقية . فكان هنالك ، الى حد ما ، تشوش والتباس بيـن الدولة والشركـة والمصرف ، وغالباً ما خطت كلها الخطوات نفسها . ان السياسة والحرب هما اداتا التجارة التي تديرها مواثقة من الرأسماليين .

اما شركة الهند الغربية ، التي تأسست في السنة ١٦٢١ ، فقـــد خضعت لتنظيم مماثل ، ولكنه ابعد حرية . يقدم المساهمون الفرنسيون ، كل سنتـــين الى الحكام ، مرشحيهم لتولي مهام المدراء . ويعين المساهمون لجان مراقبة ترغم المدراء على عرض كافة المسائل الهامـة على جمعيات المساهمين اما مجلس التسعة عشر فيكاد أن يكون عاجزاً . وتقوم الاحزاب في الجمعيات . لذلك كانت سياسة الشركة مترددة وحائرة وكان أفول نجمها سريعـــاً . اضف الى ذلك ان البرازيل فقدت في السنة ١٦٦١ وامستردام الجديدة (نيويورك) في السنه ١٦٦٧ . فاقتضى تصفية حسابات الشركة في السنة ١٦٧٤ .

تجارة المعادن الثمينة ومصرف امستردام

افضت التجارة البحرية الكبرى الى تكديس المعادن الثمينـــة في الاقاليم المتحـــدة ، ولا سيا في امستردام . فقد نقل الهولنديون بضائعهم الى غينيا وعادوا منها بالذهب . وموّنوا اسبانيا ، حتى اثناء الحرب ، اذ ان نصف منتوج مناجم الفضة الاميركية كان يصل سنوياً الى امستردام . وكانت للهولنديين السيطرة على تجارة قادش . وبسبب نظام الحصرية اضطروا الى ان يودعوا البضائع لدى الاسبانيين الذين كانوا يبيعونها في الهند الغربية ويعودون باثمانها . ومارسوا التجارة الممنوعة ايضاً انطلاقاً من جزيرة « كوراساو » المجاورة لقرطجنة . فكانت المراكب الهولندية تتخذ مـن « كوراساو » قاعدة لها وترسو على مقربة من الشواطىء الاسبانية ، فيقصدها السكان في زوارقهم ويبتـــاعون ما يحتاجون اليه . بفضل هـــذا المعدن كله ، كان الهولنديون من الوسطاء بين الهند واوروبا لان الشرقيين نادراً ما ارتضوا من الاوروبيين بغير المعادن الثمينة .

وصدر الهولنديون النقد المعدني ايضاً . فان دور النقد عندهم قد ضربت نقوداً تجارية شرعية الوزن والعيار وثق الناس بها وتهافتوا على طلبها ، كالدنانير التي تحمل رسم الأسد ، في مرافىء الشرق الادنى وفي آسيا الصغرى ، والركسدالات الفضية في البلدان البلطيكية ، و « الدوقيات » الذهبية في روسيا ، و « الدوقيات » الفضيـــة الصغرى ، في الهند والصين . وكان على التجار الاوروبين الراغبين في الاتجار مع هذه البلدان أن يحصلوا على القطع النقدية الهولندية ويأتوا الى امستردام ، لهذه الغاية ، ببضائعهم او سبائكهم المعدنية المستطيلة أو بقطعهم النقدية الخاصة .

وكان مصرف أمستردام ، الذي تأسس في السنة ١٦٠٩ بناء على طلب تجار امستردام ، يزيد من امكانيـــة الاستفادة من كمية المعادن الثمينة هذه بوسائل الدفع التي يوفرها للتجار . فكان مصرف تخزين تودع فيه النقود والسبائك الذهبية والفضية المستطيلة . وكان من شأن الثقة التي أوحاها ان تدفقت الودائع عليه حتى من الخارج . وكان مصرف صرافة أيضاً يوفر للتجار نقد أية بلاد من البلدان ، ويتيح بذلك شراء البضائع من كل منشأ ، ويجتذب من ثم التجار الاجانب. وكان مصرف دفع يجري دون مقابل ، بتحويل حساب لآخر ، ودونما نقل المعدن الذي يستغرق وقتاً طويلاً ويستلزم نفقات باهظة ، كافة عمليات الدفع التي يحتاج اليها التجار ، ضمن حـدود ودائعهم . وقد استخدم المصرف ، في عملياته ، نقداً حسابيا هو الفلورين « بنكو » ، ثابت القيمة ، يعتبر بمثابة كفالة للتجار . ثم أصبح مصرف امستردام ، شيئاً فشيئاً مصرف دين اخيراً . فبدأ باعطاء السلفات لمدينة امستردام في حالة الحرب ، ولشركة الهند الشرقية بغية تجهيز أساطيلها. وانتهى ، بعد السنه ١٦٨٣ ، إلى إعطاء السلفات للافراد أنفسهم .

واستمرت ، إلى جانب المصرف العام ، المصارف الخاصة ، التي كانت تسلّف التجار المبالغ الضرورية لاكمال شحناتهم ، وتحسم السفتجات التي تدفقت عليها مـــن كل مكان وأضيفت الى رؤوس الاموال المتكدسة في أيدي الهولنديين .

كانت نتيجة هذه العناصر كلها وفرة في وسائل الدفع الممتازة التي جعلت البائع يفضل الشاري الهولندي على كل شار سواه ، وأتاحت للهولنديين، في أي وقت، اجراء صفقات كبرى ، وعرض شتى أصناف البضائع بكميات كبرى وباسعار دنيا . وجرت هذه الوفرة إلى انخفاض نسبة الفائدة . وكان باستطاعة الهولنديين البيع بسعر أدنى وتجميد أموالهم مدة طولى ، كأن يسبقوا التجار الانكليز والفرنسيين إلى تخزين بضائعهم في قادش ، ويتفاوضوا في موضوع الصفقات قبل منافسيهم ، ويحددوا آجالاً بعيدة للدفع . وكان باستطاعة الصيارفة الهولنديين أخيراً اقراض ملوك فرنسا وانكلترا وأمراء ألمانيا . وقد أتاحت سلفات المصرف لمدينة امستردام وشركة الهند الشرقية تجهيز الاساطيل والجيوش في الظروف العسيرة . وقد سهلت كميات النقود الكبرى القروض والضرائب وتجنيد الجيوش البرية والبحرية والتحالف مع الدول. وجعلت وفرة رؤوس الأموال من هذه البلاد الصغرى قوة سياسية كبرى .

المثال الانكليزي

ترتدي الروح التجارية الانكليزية طابعاً مشتركا . لقد دهش الانكليز من نهوض فرنسا السريع في عهد هنري الرابع. فبرزت فكرة التنظيم، الموروثة عن عهد اليزابت ، بروزاً شديداً ولفتت انطلاقة التجارة الهولندية الانتباه إلى فوائد حرية التجارة النسبية وفوائد الشركات صاحبة الامتياز . وبدا نمو التجارة ، الذي كان أقل منه في الاقاليم المتحدة ، أشد حاجة إلى تدخل الدولة ، ولكن انطلاقة الرأسمالية التجارية والصناعية الهامة قد أوحى لبعض التجار ، منذ ذاك الحين ، بالحقد على الانظمة والاحتكارات ، وبالميل الى الحرية ، وبان التجارة يجب ألا تخضع الا لتشريع عام وبان هذا التشريع هو من شؤون المجلس التمثيلي .

وثائق الملاحة

بذل الملكان جاك الاول وشارل الاول جهوداً كبرى في سبيل التدخل في الحياة الاقتصادية . فقد انصرف إلى هذا العمل المجلس الخاص تعاونه « لجنة تجارة » منذ السنة ١٦٢٦ وتساندة الغرفة المكوكبة . وبقيت التجارة البحرية حرة في المناطق القريبة من انكلترا وأسبانيا وفرنسا، وقد استطاع صغار مجهزي المراكب ممارستها دونما صعوبة. أما التجارة البحرية في البلدان النائية أو في البلدان التي ليس بلوغها بالأمر اليسير ، فقد نظمت في البدء بسلسلة من وثائق الملاحة التي لا تختلف وثيقة كروموول الشهيرة (١٦٥١) عنها اختلافاً جوهرياً . فقد احتفظت بتجارة انكلترا مع ممتلكاتها في آسيا وافريقيا وأميركا لسفن الانكليز والايرلنديين أو السفن المبنية في المستعمرات التي يملكها المهاجرون . وأوجبت ان يكون القبطان وثلاثة أرباع الملاحين انكليزاً او رعايا ملك انكلترا . وانقصت عدد السفن التي كانت رهن الطلب ، فرفعت بالفعل ذاته أجور نقل البضائع ووجهت رؤوس الاموال نحو بناء السفن وأفضت شيئاً فشيئاً إلى زيادة عددها وعدد البحارة .

الشركات التجارية

فتأسست بعض الشركات التجارية . وكانت على نوعين : الشركة « المنظمة » والشركة المساهمة . استفادت الشركة المنظمة من احتكار تجاري اقصى عنها المنافسين . كل عضو من أعضائها يتجر باموال الخاصة وينصرف إلى أعماله التجارية الخاصة . الا ان كل عضو مقيد ببعض الانظمة : البيع بسعر أدنى معين، وعرض أصناف ممتازة . لذلك كانت المنافسة بين الاعضاء محصورة وكانت الشركة شبيهة بجمعية الصناعيين التي تستهدف اتقاء الكساد أو فرط الانتاج . انتمى إلى هذا النوع تجار لندن المغامرون وتجار شرقي انكلترا وتجار « نيوكسل » المغامرون ، والشركة التركية . واستفادت الشركة المساهمة كذلك من احتكار محصول معين أو منطقة تجارية معينة، ولكن رؤوس الاموال تجمع كلهافتضاعف قوة المشروع. وقد تأسست في البدء لرحلة واحدة او لمدة محدودة. ثم غدت دائمة بعد السنة ١٦٦٠، فاستطاعت الشركات الاقدام على مشاريع طويلة الاجل . انتمت الى هذا النوع الشركة المسكوبية والشركة الافريقية وشركة الهند الشرقية الشهيرة التي تأسست في السنة ١٦٠٠ واستفادت من احتكار التجارة الانكليزية بين رأس الرجاء الصالح ومضيق « ماجلان » ، في المياه الشرقية ، وتمتعت بحقوق ملكية . وقد درج الملك على منح مساحات كبرى في المستعمرات للافراد أو للشركات التي توطن فيها المزارعين او المكترين .

الرقابة الاقتصادية

وحاول جاك الاول وشارل الاول تنمية الصناعة عن طريق شركات احتكارية وانظمة جديدة ومنع الاستيراد . واسند الى عدد غفير من الضباط امر مراقبة النوعية . ولعل التنظيم في عهد الاستبداد لم يكن دونه شأناً في عهد كولبير . فقد صب السر « جون كولبير » في المجلس التمثيلي جام غضبه بقوله : « ها... ان سيلا من الطفيليات قد غزا كل البلاد. اعني بذلك المحتكرين ... على غرار الضفادع المصرية، احتلوا بيوتنا ولم يبقوا لنا غرفة واحدة ليسوا فيها ؛ يشربون في طاسنا ويغترفون من صحيفتنا؛ يجلسون قرب نارنا ، ولجدهم في طستنا ... وسمونا وختمونا من رأسنا حتى أخمص قدمينا » .

ثم استقرت الحرية مع الثورة . فانهار المجلس الخاص وزالت المكوكبة وتلاشى التنظيم والرقابة . ولكن نوعية المنتوجات انهارت ايضاً . الغت الجمهورية عملياً كافة امتيازات الشركات . ولكن التجار ، الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً كبيراً ، ملأوا الاسواق بالبضائع . وعجزت الدولة عن تأمين سلامة السفن . فافضت حرية التجارة الى نتائج سيئة .

فرجع شارل الثاني في عهد الاصلاح الى نظام تدخلي معتدل لأن الطبقات الرأسمالية خرجت ظافرة من الثورة ، مع ان هذا الظفر لم يكن حاسماً . تدخلت الدولة ، بصورة خاصة ، بتدابير عامة ، كالتشريع والجمارك والمعاهدات . واستعان الملك بمجلس تجارة مؤلف من بعض اعضاء المجلس الخاص وبعض اعضاء الشركات التجارية . قدم هذا المجلس تقاريره للملك الذي اصدر قراراته النهائية . وتدخل شارل الثاني باعتماد سياسة معاهدات تجارية مع البرتغال واسبانيا

والاقاليم المتحدة وفرنسا والدانمرك (١٦٦٧ – ١٦٦٨) . ونظم التجارة البحرية بوثيقة السنة ١٦٦٠ حول الملاحة ، التي استوحاها من وثيقة السنة ١٦٦٣ التي توسع فيها . فحظرت كل تجارة بين المستعمرات واوروبا. غدت انكلترامستودعاً ضخماً للسكر والتبغ والقطن والنيلج والزنجبيل واخشاب الصباغة الخ. التي تشترى باسعار منخفضة في المستعمرات وتباع باسعار مرتفعة للخارج. وغدت المستعمرات سوقاً لا تباع فيها سوى المصنوعات والمواد الغذائية البريطانية . وتواصلت سياسة الشركات صاحبة الامتيازات . وخصت شركة الهند الشرقية، بصورة خاصة ، بامتيازات جديدة في السنة ١٦٦١ شملت احتكاراً جديداً وسلطات ملكية .

أما في الداخل فقد انخفض عدد الشركات الصناعية الاحتكارية ، التي كانت مدينة بامتيازها لصك صادر عن المجلس التمثيلي لا لشهادات رسمية صادرة عن التاج . واهملت قوانين تنظيم الحياة الاقتصادية . فلم يعد هنالك من تحقيق ولا من رقابة نوعية المنتوجات ورقابة الاسعار والاجور . فباتت الحرية الاقتصادية شبه تامة ، وسارت الاعمال التجارية على هذا المبدأ : الكسب هو وحده ما يوجه عمل التاجر . فبقيت نوعية المنتوجات متدنية .

دانت انكلترا لتدابير التوجيه الاقتصادي بالازدهار الذي بقي دونه في الاقاليم المتحدة على كل حال . وبقيت تجارة شركة الهند الشرقية ادنى الى حد بعيد من تجارة منافستها الهولندية ولم تشكل سوى جزء ضئيل جداً من تجارة الهند البحرية . فهي قد بلغت، حوالي السنة ١٦٤٤، ٥٠٠٠٠ جنيه استرليني تقريباً ، كما بلغ عدد السفن العائدة كل سنة من « سورات » الى لندن ٢٠ الى ٢٧ سفينة معدل حمولة كل منها ٥٠٠ طن .

المثال الفرنسي: الكولبيرية الدائمة

ان النظام الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا قد جعل الحاجة الى تدخل الدولة اشد الحاحاً . فالمذهب الذي طلع به « برتلمي دي لافماس » في عهد هنري الرابع، و « مونكريتيان » (الاقتصاد السياسي، ١٦١٥)، وريشليو، وكولبير ، هو هو لم يتغير ، كما لم تتغير اساليب الحكم في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر . ولم يأت كولبير بجديد سوى التوسع في تطبيق نظام كان ملكاً مشتركاً وتقليداً بسبب تعاظم سلطة لويس الرابع عشر المطلقة وبسبب حاجات سياسته ، وانخفاض الاسعار المضر بالانتاج ، والازمة الاقتصادية التي كانت نتيجة طبيعية لارتفاع نسبة الوفيات في السنتين ١٦٦١ و ١٦٦٢ . فقد احدث عدة مئات من المصانع الملكية بينا لم يكن في فرنسا قبله سوى عدة عشرات منها فقط . ولكن « الكولبيرية » تشمل القرن بكامله ، وتنشط كلما توطدت السلطة المطلقة ، في عهد هنري الرابع بعد السنة ١٥٩٦ ، وفي اثناء وزارة ريشليو ، اقله قبل « الاختيار العظيم » الذي آذن الحرب (١٦٣١) ، وفي عهد لويس الرابع عشر بعد السنة ١٦٦١ .

الهدف سياسي قبل اي شيء آخر . يجب الحؤول دون خروج « هذا الذهب وهذه الفضة

من خزائن فرنسا ليثري بها اعداء الدولة » ، ومحاربة الاعداء الخارجيين الذين لن يكون « المكوك » واداة صناعيينا « اقل وبالاً عليهم من السيف » (لافماس).

« الشركات التجارية هي جيوش الملك ومصانع فرنسا هي رديفه » (كولبير) .

الادارة الاقتصادية

ان باستطاعة الدولة وحدها التغلب على « الصعوبات التي لا يحاول التجار التغلب عليها بنشاطهم الخاص » . لذلك تنظمت ادارة اقتصادية رسمية كاملة . وكان جهازها الرئيسي مجلس الملك الذي عاونه مراقب التجارة العام ، « لافماس » ، منذ السنة ١٦٠٢ حتى السنة ١٦١٢ ، ولجنة التجارة منذ السنة ١٦٠١ حتى السنة ١٦١٦ ، وريشليو ، ناظر الملاحة والتجارة ورئيسها وسيدهما الاعلى . ولكن السلطة المركزية ما زالت متشتتة . فقد احتفظت المجالس التمثيلية وغرف المحاسبات ، الخ .. بصلاحياتها الاقتصادية ، وليس بعد من اجهزة ادارية جديدة ذات اختصاص في الولايات . أما بعد السنة ١٦٦١ فقد انتقلت معظم الصلاحيات الاقتصادية تدريجياً الى مراقب المالية العام، كولبير . الا ان المستشار وأمين سر الدولة في بعض الولايات ولو تليه ولوفوا في مصالح الجيش الصناعية ، قد احتفظوا ببعض المهام الاقتصادية . وقد عاونهم مجلس ملكي للتجارة ، واسندت امور التحقيق الى الوكلاء ومفتشي المصانع العامين .

نظمت الدولة الاستهلاك بقوانين تقيد النفقات المفرطة ، والتجارة بتحظير المعادن الثمينة والنقود المعدنية ، ومنع الاحتكار ، وصفقات العينات ، وشركات المشترين وتحديد عدد الوسطاء بالابقاء على المنافسة بفضل ايجاب البيع للاسواق في ايام ومواعيد معينة . ونظمت الدولة الصناعة بقواعد عامة تحدد الطول والعرض والوزن والنوعية والصقل . وقام المفتشون العامون وكتبة المصانع بزيارات متكررة الى المصانع والمساكن . أما العقوبات التي تعرض لها المخالفون فغرامات نقدية وحجز وهدم ، واخيراً (١٦٧٠) نصبة وغل .

الدولة محدثة الصناعات

كان الهدف الأول ، بحسب التسلسل المنطقي ، منع اخراج الأموال . لذلك بات من واجب الدولة احداث صناعات جديدة حتى لا تضطر الى الشراء من الخارج . وانما قد يحدث ان لا تكون لهذه الصناعات سوق داخلية فتصبح الدولة اذ ذاك زبونها الوحيد . والفلاحون لا يبتاعون مصنوعات حديدية كثيرة كما ان أدوات زراعية كثيرة ، كالمساحي والمقالب ، تصنع من الخشب . وغالباً ما تصنع البواسن نفسها من الخشب الصلب . فالدولة تكاد تكون السوق الوحيدة لصناعة الحديد ، لاجل سفنها واسلحتها ومعداتها وقصورها حيث يعالج المهندسون الحجر بالحديد . وكانت الدولة، منذ السنة ١٦٦٥ حتى السنة ١٧٢٦ ، الزبون الوحيد لصناعة التنك في « بومون » . وخلاصة الكلام ان النقطة الاولى ، في التسلسل المنطقي ، هي ان يدوّر المال في داخل المملكة ، وهي الدولة من ينظم حركته الدائرية الضرورية للحياة : ضرائب ، صفقات الدولة، تسديد حساب الميّارة

اجور العمال ، ضرائب ، وهي حركة تفضي الى توفير المصنوعات والمواد الغذائية في كل مكان. أما النقطة الثانية فهي منطقياً زيادة هذا الحجم من المال بمضاعفة البيع الى الخارج . فيتضح من ثم ان الصناعة هي أهم عناصر المثال الفرنسي .

الدولة تستحث انشاء المشاريع . عملاء الملك يبحثون عن التجـــار الراغبين في انشائها . الملك يرفع من مرتبة النشاط الصناعي في السلم الاجتماعي بترقية اصحاب المشاريع الى طبقـــة النبلاء ، وباعلانه ان صناعة الزجاج وصهر الحديد والتجارة الكبرى لا تحط من مقام النبلاء ، وبزياراته الى المصانع مــع حاشيته ، سواء دعي هنري الرابع أم لويس الثالث عشر ام لويس الرابع عشر ، وباطلاق اسم الصناعة الملكية على بعض المشاريع والسماح لها باستخـدام شعار التيجان المزدانة بالزنابق .

والدولة تؤمن حياة المشاريع الجديدة بتوفير الوسائل الضرورية لها الى ان يصبح المشروع قادراً على الحياة بوسائله الخاصة . فعملاء الملك يحثون علية النبلاء وكبار الاكليروس والمجالس الاقليمية والمدن على تقديم رؤوس الاموال . والملك يرغم كذلك ، على هذا العطاء ، رجال المال المحولين جل اهتمامهم الى التزام الضرائب والقروض الملكية ، وسائل تخزين الأموال ، فيكسف وجههم ولكنهم يمتثلون بكل حقارة . كما ان الملك يخفض نسبة الفائدة القانونية ، الى ٢٦ ، ٦ ٪ في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٣٤ ، والى ٥ ./. في السنة ١٦٦٨ . ويحـــاول تخفيف الدخول الملكية والضرائب المباشرة ووفاء ديون المدن والجمعيات . ويمنح المشاريع ذات الامتياز اعفاءات اميرية ومساكن وابنية وتعويضات ادوات ومساعدات للانفاق على التأسيس أو لتغذية رأس المـال ، وتمبينات لاسكان العمال والعمال المتدربين وتغذيتهم .

ويوفر الملك اليد العاملة اللازمة للمشاريع . فكولبير يعتمد سياسة تشجيع النسل ، ويعفي من الضرائب ، الى حين ، المتزوجين في سن العشرين والعائلات المؤلفة من عشرة أولاد فما فوق . والملك يمنع هجرة العمال لأن عليهم حق من حقوقه . والملك يجمع المتسولين في مستشفيات حيث يكرهون على تعلم مهنة من المهن . وكولبير يلزم المتعطلين والعوانس وسكان الاديرة بالعمـــل للمصانع ، والآباء والامهات في مختلف الطبقات بارسال أولادهم الى التدريب . والملك يستحضر الاختصاصيين من البندقية و « فلاندر » واسوج والمانيا ويجنسهم ويزوجهم ، ويغمرهم بآلائـه ولكنه يشترط عليهم تدريب العمال الفرنسيين والبوح باسرارهم .

وتضمن الدولة ، للمشاريع ذات الامتياز ، حرية العمل ضد نقابات أهل الحرف الواحدة : حق استخدام ما يلزمها من عمال وعمال متدربين ، وحق انشاء المصانع والمستودعات التي تحتاج اليها . ويحررها من الانظمة النقابية ويؤمن لها سلطات قضائية خاصـــة ، كطلب حكم قصر العدل أو مجلس الملك .

وتؤمن الدولة تموين المشاريع بالخامات بحرية نقلها وأعفائها من الرسوم الجمركية والاجازة

بالتزود بها من الاحراج الملكية .

وتؤمن الدولة التعليم التقني . فالمتدربون يتمرنون في مصـــانع « اللوفر » و « التويلري » و « غوبلين » والمصانع الملكية ، ومصانع المستشفيات ، ومدارس بناء السفن وعـــلم المياه السطحية في المرافيء . وبايعاز من كولبير تولت اكاديمية العلوم اصدار كتـاب « وصف الفنون والمهن » (١٦٧٥) وكتاب « مجموعة الآلات » (الجزء الاول ، ١٦٧٧) . وظهرت كتب تقنية : « التاجر الكامل » « لجاك سافاري » (١٦٦٩) ، و «الحسابات المضبوطة» «لباريم»، وتولت « صحيفة العلماء » اطلاع القراء على الطرائق الصناعية الجديدة . وانصرفت الاكاديمية الى محاولات الاختراعات الآلية : الآت رفع البضائع وتنسيقها ؛ آلات البـــذر والحصاد والتقنية والطحن ؛ شتى انواع المناويل . فقـد رفعت احدى الآلات المثلث القائم في اعلى اللوفر الذي يزن ١٠٠٠٠٠ كيلو غرام . فاعتقد « برّو » ان عهد الآليات سيبدأ قريباً .

وتؤمن الدولة الاسواق للمشاريع ذات الامتياز : طلبات ، احتـــكار البيع لفترة معينة ، حماية المنتوجات في السوق الداخلية بالتعرفات الجركية المرتفعة ، منع البضائع الاجنبية .

أمثلة المشاريع صاحبة الامتيازات

هنالك امثلة مختلفة عـــن المشاريع صاحبة الامتيازات . فالدولة تحمي « المصانع اليدوية الملكية » ، وهي مجموع مصانع لصناعة معينة في مـــكان معين . ومـــا صناعة القلانس والجوارب في « طروا » سوى مجموع ارباب المهن الذين يعملون في هذه الصناعة في طروا .

وتحمي الدولة شركات التوصية ، ثم الشركات المساهمة بعد السنة ١٦٧٣ . يشترك الموصّون باعداد محدودة مع تجار صناعيين : اربعة شركاء في مصنع « فان روبيه » في « ابفيل » . أما في المناجم وصناعة التعدين الكبرى وصناعة الاصواف ، فالشركات شركات حقيقية تضم تسعة مساهمين واثني عشر وسبعة عشر مساهماً ، كشركة « داليان دي لاتور » ، جابي الاموال العام في مقاطعة « دوفينه » ، التي تخصصت في صناعة المدافع والمراسي والاسلحة والمصاهر

وفي بعض الاحيان تكون الدولة تاجراً ـ صناعياً في مصانع الدولة . ففي مصنع «غوبلين وهو مصنع مفروشات التاج ومدبجاته ، اثنان وعشرون رئيس مصنع . الدولة تفاوضهم قطباً تقدم لهم المناويل وتبيع منهم الخامات وتفرض عليهم الرسوم الايجازية والرسوم النهائيـــة ويفاوض رؤساء المصانع العمال ويقدمون لهم سلفات مالية .

وهنالك اخيراً ادارات ملكية . فالدولة تحقق احياناً تأميمات حقيقة كما حدث في بعض الصناعات الحربية مثلاً ابان الحرب الهولندية . صودرت المصاهر في مقاطعة « نيفرنيه » .وتو ادارة الانتاج مهندسون وعمال تابعون للبحرية . وفرض على كل مصهر تسليم وزن معين م المصنوعات . وحددت بكل دقة ارباح اصحاب المصانع والاجور واثمان الخامـــات . وكانه هنالك ادارات اخرى ايضاً .

طرائق الانتاج والكسب

هنالك ثلاث طرائق مختلفة للانتاج . الانتاج في المصانع الفردية الصغرى اولاً . ثم انتاج المصانع الصغرى التي تشتغل لمعمل يجري فيه تركيب القطع والصقل والتحويل . وكانت هذه الطريقة اكثر الطرائق رواجاً لانها تتيح النقل الجزأ . هكذا استخدمت دار الصناعة البحرية في « روشفور » المعدن الذي تنتجه مصاهر « انغوموا » و « ليموسين » و « بريغور » ومنطقة « اللوار » واصبحت سوقـاً له . وهكذا تخصص كل مصهر في مقاطعة نيفرنيه في جزء من اجزاء المرساة التي تجمعها مصانع التركيب في « امفي » و « كوسن » . وفي صناعة الاصواف انجز الغزل والنسج في مصانع عائلية صغرى ، الصقل والصباغة في المعمل . فازداد عدد الصناعيين اليدويين المستقلين لان صاحب المشروع الرأسمالي يبحث في الارياف عن يد عاملة اقتصادية وطيعة تمارس في المنزل عملا عائلياً غالباً ما يكون موسمياً . وفي بيكارديا انشيء في الارياف ١٩٠٠٠ منوال من اصل ٢٥٠٠٠ . وأفضت المشاريع ذات الامتياز الى تنمية العمل الحر . فان عشرة تجار صناعيين في « اميان » يؤمنون الحياة لـ ١٠٠٠٠٠ شخص يجمعون بين عمل المناويل ليلا وعمل الحقول نهاراً . وهنالك اخيراً معامل حقيقية تضم عدداً كبيراً من العمال . ففي عهد هنري الرابع ضم مصنع انسجة « فولف » الكتانية الناعمة في « سان – سفر » في « روان» ٣٥٠ منوالاً و ٥٠٠ الى ٦٠٠ عامل مجموعين في ابنية يحيط بها سور مقفل . وفي عهد لويس الرابع عشر ضم مستشفى « سلبتريير » العام ١٨ مصنعا عمل في بعضها أكثر من ٢٠٠ عامل (حتى ٢٩٢) .

وكان الملتزمون من النبلاء أو من كبار ذوي المراتب في الكنيسة أحيانا . وقد يحدث ذلك في المناجم والمصاهر ومصانع الزجاج ايضاً . اما أصحاب المشاريع ، من أمثال الدوق « دي لورين » والدوق « دي مركور » والدوق « دي مونبنسييه » والكردينال «دي غيز» والكردينال « دي ريشليو » ، واعضاء المجالس التمثيلية ، فقد استثمروا مشاريعهم استثماراً مباشراً احياناً . الا انهم لزموها تلزيماً في اغلب الاحيان. يقدمون الابنية والادوات. اما الملتزمون فبورجوازيون ابناء تجار يستعينون بخدمات مدراء تقنيين . فهناك من ثم ثلاث فئات : اصحاب المشاريع ، الملتزمون الرأسماليون ، والتقنيون .

وقد بولغ في تقسيم العمل . فهناك ، في مصانع النسيج مثـلا الغزالات ، والغسالات ، وطارقوا الصوف ، والمنفشون والحاكة والجزازون والصباغون والحلاجون والقصارون .

نحن نفتقر إلى الارقام حول الانتاج. ففي ليون كان «فورتييه » يصنع اربعه أزواج جوارب مقابل ثلاثة يصنعها اصحاب المناويل الحلفين . ولكن الانتاج قد بلغ شأواً بعيداً على كل حال . ففي اميان ، انتج « فان روبيه » ، في عهد كولبير ١٢٠٠ قطعة من الجوخ الناعم سنوياً . وفي بيكارديا انتج ١٠٠٠٠٠ عامل ١٨٠٠٠٠ قطعة من الاقمشة. ولعل انتاج المملكة كلها ، في جميع انواع المشاريع ، بلغ مليون قطعة من الجوخ سنوياً .

الدولة والنقابات

لم يكن المشروع ، في نظر الحكومة ، سوى تدبير مؤقت ، اذ كان من المفروض ان تتخذ الصناعة ، بعد تأسيسها واستقرارها ، الشكل النقابي . فقد حاولت الدولة تعميم النقابة التي رأت فيها ، بانظمتها ووكلائها وحراسها المحلفين وجمعياتها وانتظامها ، مساعداً للسلطة . فصدرت في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٧٣ ، براءات تجعل العمل النقابي الزاميا ، فاخفقت . الا ان عدد المهن النقابية ، وان بقي متدنيا ، قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً وشمل اعظم المهن شأناً .

فرضت الدولة الوصاية على النقابات . فقد احتفظت لنفسها بحق الموافقة على الانظمة الاساسية ، واخضعت المهن لسلطتها المطلقة . وراقب عملاؤها الانتخابات . كما ان الدولة توصلت الى تقسيم ارباب المهن . وأعادت الى ما لا نهاية له انتخاب قلة من أثرياء ارباب المهن للوظائف النقابية . ولم تقبل في الهيئات البلدية سوى اغنى اغنياء ارباب المهن النقابية العامة وجعلت منهم ارستوقراطية تستدعى الى جمعيات الاعيان والمجالس الاقليمية ويسمح لها بارسال وفود لمقابلة الملك . واجازت لارباب المهن تخفيض عددهم بالمبالغة في الموجبات المفروضة على من يرغب في ان يصبح رب مهنة . وزاد الملك من خطورة التفاوت الاجتماعي . وحاول ان يحصر الفوائد في عدد ضئيل من ارباب المهن وان يميز بينهم اقلية من الاغنياء المتفانين في خدمة الحكومة . وهذا ما عناه التطور الاقتصادي على كل حال . ففي ليون جعل ارباب التجارة من الملتزمين رفاقاً عاديين . اما الانتاج لاسواق اعظم اتساعا فقد افضى الى سيطرة الوسطاء .

الدولة والتضحية بالعمال لاجل الانتاج

وزاد الملك من خطورة التباعد بين ارباب المهن والعمال . فقد ضحى العمال ماديا لمصلحة الانتاج وتخفيض كلفة الانتاج . وكان العمال جنوداً في جيش صناعي اسندت اليه مهمة تأمين عظمة الدولة وقوتها . فبات لزاماً ، بسبب تقلبهم وتشردهم وتبلدهم ، ان يدربوا على عمل متصل ونسق سريع ومستمر ونوعية فضلى . فخضعوا من ثم لنظام حديدي اشبه بنظام الحياة الرهبانية .

أضف او ذلك ان الدين ، الذي يوجب كال القيام بالواجبات اليومية ، قد كان عوناً للانتاج . ففي المعامل المركزية للمشاريع ذات الامتياز ، وفي المستشفيات العامة ، يحضر العمال القداس يومياً ويباشرون العمل برسم اشارة الصليب وتلاوة صلاة معينة . الاعتراف والمناولة الزاميان في الأعياد الكبرى . وترافق وجبات الطعام قراءات تقوية . الثرثرة ممنوعة في المصنع ، الا ان باستطاعة العمال ترتيل الاناشيد باصوات خافتة .

يتمتع المدير بملء السلطة في مؤسسته . العمال يشتغلون تحت رقابته ورقابة معاونيه . يعملون بالقبالة ، مما يضاعف الانتاج . يعاقبون بالغرامات المالية والجلدة والغل والالقاء من اعلى الصواري والتعليق على أعواد المشانق ، على تأخرهم وتبلدهم وكلامهم البذيء وتجديفهم وغشهم وعصيانهم وسكرهم وترددهم على البيوت المقفلة والحانات والخمارات ووقاحتهم في الكنائس وتسررهم وكل

ما قد يكون سبباً مباشراً او غير مباشر لانخفاض الانتاج او ارتفاع النفقات الذي قد يحملهم على المطالبة بزيادة الاجور .

الاجور ضئيلة . يوم العمل يستغرق ما بين اثنتي عشرة ساعة وستة عشر ساعة ، ولا يتوقف العمل الا اثناء الوجبات التي يخصص لها ثلاثون أو خمس وأربعون دقيقة . العامل يُستغل بواسطة اجره : الشركة تدفع له حقه موادّ غذائية او مصنوعات تخمن اثمانها كما يطيب لها التخمين . والدولة تشل امكانات العامل الدفاعية . تحظر عليهم الجمعيات والدسائس . ففي « روشفور » طالب « دي تزّون » بسجن صاهري المراسي الذين اشتكوا من انخفاض اجورهم . وقد اوجب على ضباط القضاء تقديم المساعدة للملتزمين كلما طلبت منهم . ان كسب رب العمل ، وهو مصدر نشاطه ، يتقدم بالضرورة على كل شيء آخر .

أما عمال المشاريع ذات الامتياز فيعفون من الضرائب والترصد والحراسة والخدمة العسكرية ، وتقدم لهم المساكن مع حديقة صغيرة في الاغلب ويتقاضون منحاً عند الزواج وعند ولادة ابكارهم ويستفيدون من الاسعافات الطبية . وباستطاعتهم ان يصبحوا ارباب مهن دون ان يستلزم ذلك منهم طرفة رائمة أو نفقات خاصة .

ويخضع ضباط القضاء رفاق النقابات والعمال المستقلين لنظام مماثل باستثناء الامتيازات . التدريب يستغرق مدة طويلة (خمس سنوات) . التكتلات والاضرابات ممنوعة . على العامل ان يتقدم خطياً بطلب صرفه من الخدمة كلما تبدل رب مهنته ، وهذا ما يعادل بطاقة العمل النابوليونية . في السنة ١٦٦٦ الغي عشرون عيداً من أعياد البطالة ، فأنزل عددها الى ٩٢ . النظام العام هو هو لا تبدل فيه .

الدولة والزراعة

وجدت الزراعة تشجيعاً لها في انطلاقة الصناعة وتزايد الطلب عليها . استورد كولبير الاكباش من انكلترا واسبانيا بغية تحسين الاجناس الوطنية . ونشطت الدولة الزراعات الصناعية ، العظلم والفوة والكتان والقنب والتوت ودودة القز . وقدم الملك البذار والماشية للفلاحين وأعفاهم من الضرائب في سنوات القحط وطلب منهم الحنطة والمشروبات الروحية والخمور والمقددات، لاجل الجيش والمشاريع العامة . فتواصلت من ثم اعمال اصلاح الاراضي تتولاها جمعيات الفلاحين أو البورجوازيون الميسورون كالاطباء والتجار وضباط القضاء السيدي الذين يقومون باستثمار الاراضي الجديدة . وانشأ بعض الاسياد استثمارات جديدة فأحيوا الارض وخططوها وأعادوا تجهيز المزارعين بحيوانات القرن وضموا الاستثمارات لمضاعفة الانتاج واستولوا على بعض الاراضي المشاعية بالاختيار ووضع اليد فالغت الحكومة تملكهم حيناً (١٦٠٠ ، ١٦٢٥ ، ١٦٥٦ ، ١٦٨٣) وابقت عليه حيناً آخر (١٦٦٧ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٧ ، ١٧٠٢) بحسب ميلها الى حماية الفلاح الصغير أو الى زيادة الانتاج .

الدولة والتجارة الخارجية

نظمت التجارة الخارجية ، كما في انكلترا والاقاليم المتحدة ، بوثائق ملاحة (قانون « ميشو » ، ١٦٢٩ ، التعرفة الجركيــة ، ١٦٦٤) وشركات تجارية ، وحماية جركية (تعرفة ١٦٦٤ وتعرفة ١٦٦٧) لم يتوصل الملك الى فرضها في مناطق حدود المملكة ولم تشمل الولايات كلها . وازداد حجمها بفضل المستعمرات . وقد حلم ريشليو وكولبير بجعل مستعمرات المناطق المعتدلة ، كنـــدا واكاديا مثلاً ، ارضاً فرنسية جديدة .

جاء النجاح عظيماً . فاكتسبت المنتوجات الفرنسية شهرة النوعية الجيدة . وحوالي السنة ١٦٧٠ صدرت الاجواخ الفرنسية مثلاً الى ايطاليا ، واسبانيــا ، والمانيا ، ومؤانيء الشرق الادنى ، والهند .

٦ – الدعاوة الملكية

لقد سعى الملوك وراء استعادة وحدة المشاعر المؤاتية للملكية المطلقة . فالآداب والفنون والدين يجب ان تقترب باستمرار من الخدمة العامة . والقوانين يجب ان تخلق في رعايا الملك ميلا إلى النظام وتسلسل السلطة وتعيد اليهم توازنهم الداخلي وتسهم في توحيد نزعــاتهم . فاضطر الملوك إلى تشجيع الكلاسيكية التي تعتبز علم سنن جمال الوحدة . ويكفي هنا ان نقدم مثل فرنسا . ففي فترتين مختلفتين ، اي بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، والسنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ ، رافقت غلبة الكلاسيكيين على منافسيهم سيطرة السلطة المطلقة في هذه البلاد بفضل الحمــايه الملكية . وقد حاولت الحكومة شيئاً فشيئاً ، ايقاف اتباع الملك في وجه أتبــاع الأسياد من الفنانين وأهل الأدب ، ثم حل التبعيات الثانية بحيث لم يبق من نصير للآداب والفنون ، في عهد لويس الرابــع عشر ، سوى الملك .

الدعاوة الادبيــة

الدولة تراقب المطبعة والمكتبة . وتحاول تحديد عــدد اصحاب المطابــع لمراقبتهم مراقبة اجدى . مستشار فرنسا ، ثم الملك منــذ السنة ١٦٦٦ ، يستقبلان اصحاب المطابع الجديدة . ولكنهما لا يستقبلان منهم سوى عــدد ضئيل . فمنذ السنة ١٦٦٧ حتى السنة ١٦٧٦ هبط عدد المطبعين المكتبيين ، في باريس ، مــن ٨٤ الى ٣٦ . وقد جمعوا في المدن الكبرى وفي احياء خاصة ، تحت رقابة ضباط القضاء . وحظر على الاديرة والكليات والافراد اقتناء المطابــع .

مستشار فرنسا هو وحده من يرخص بالطبع . اسندت مراقبة المطبوعات الى كلية اللاهوت في باريس اولاً ، ثم مارسها ، منذ السنة ١٦١٢ ، مراقبون ملكيون . منعت كل المنشورات التي تعالج شؤون الدولة وكل المؤلفات التي تهاجم الجلالة الملكية والاخلاق والدين . وراقب الضباط

الملكيون البيع وبيع التجول والمستودعات وطاردوا مؤلفي الاعلانات الشتمية والاغـاني والاهاجي والكتب الممنوعة وعاقبوهم بالغرامة المالية والسجن والنفي والاشغال الشاقة . أما المؤلفات التي تشكل خطراً كبيراً فيحرقها الجلاد بيده .

الدولة تراقب الصحافة وتوجهها . فهي من اوحت بـ « المركور الفرنسي » منذ السنة ١٦١١. كما ان الاب « جوزيف » ، صاحب النيافة الرمـادية ، قد اسهم في الادارة . وكان لريشليو صحافيون رهن اشارته، « فنكان » ، «بليتيه» «فربيه» « صوفي » ، « رينودو » . وحين اسس « رينودو » « جريدة فرنسا » ، في السنة ١٦٣١ ، اعد له ريشليو ولويس الثالث عشر مقالات غير رسمية .

الدولة تراقب تمثيل المسرحيات . فعلى الممثلين ان يعرضوا المسرحيـات والادوار على وكلاء الملك في المحاكم العدلية . ويسهر الضباط الملكيون على الامن اثناء التمثيل .

كان لهنري الرابع شعراؤه الخاصون ، « شعراء اللوفر » ، « برتو » ، « فوكلين ديزيفتو » ، « دي برون » ، « مالرب » . وقد نظموا الشعر بناء على طلب الملك ولخدمته ، والفوا الاناشيد والقصائد القصيرة وقصائد المناسبات ، ولادات العائلة الملكية وأمراضها ووفياتها وانتصاراتها. ولكن الملك قد ترك شعراء عديدين يدخلون في خدمة العظماء .

الاكاديمية الفرنسية

حاول ريشليو ،على نقيض هنري الرابع ،جمع اهل القلم ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، في خدمة الملك . وجد بين المالربيين اعظم مساعدي الملكية تفانيا، وبين الملحدين ايضاً ، لأن هؤلاء يطمحون الى ارستوقراطية الفكر ويزدرون بالجماهير والارتيابيين ، فساروا بسهولة وراء السلطة المطلقة الظافرة . علم ريشليو عـن طريق « بواروبير » المقرب اليه ، ان اشخاصاً عدة يجتمعون ، منذ السنة ١٦٢٩ ، عند احد امنـاء سر الملك ، « فالنتين كونرار » ، للتداول في شؤون الادب . ففرض ريشليو عليهم ،في الاشهر الاولى من السنة ١٦٣٤ ، ان يؤلفوا جمعية صاحبة امتيـاز ، الاكاديمية الفرنسية ، استأثر هو بلقب ودور حاميها ، وعززها بثلاثة من مستشاري الدولة وبحافظ اختام الملك . وقد وقعت الشهادات الملكية بذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٥ .

عينت للاكاديميين مرتبات شهرية وخصصوا بانعامات . فتوجب عليهم من ثم التغني بمجـد الملك ووزيره . في السنة ١٦٣٥ نشروا « البارناس الملكي » تمجيداً « لمآتي الملك المسيحي جداً والفاضل جداً لويس الثالث عشر » ، و « قربان عرائس الشعر » تقريظاً جماعياً « للكردينال العظيم ريشليو » . واليهم ينتسب بعض من وقفوا في وجـه الصحفيين الاسبانيين والفلمنكيين : « هاي دي شاتليه » ، « جان سيلون » ، مستشار الدولة ، و « جـان سيرمون » ، ابن شقيق مرشد الملك .

اراد ريشليو ان تجعل الاكاديمية من اللغة الفرنسية والادب الفرنسي اللغـة والادب الاولين

في اوروبا ، « هذه اللغة التي نتكلمها والتي قد يتكلمها كافة مجاورينا قريباً اذا استمرت فتوحاتنا كما بدأت » . وقرر الاكاديميون « وضع القواعد لمفرداتها وجعلها بقاموس مستفيض واجرومية واضحة جداً ، ثم العمل على «وضع علم بيان وعلم قريض يكونان دستوراً لمن يرغب في الكتابة شعراً أو نثراً » ، واخيراً تقديم نماذج النثر الفرنسي المنمق بخطبة اسبوعية . وفي السنة ١٦٣٧ تقدمت الاكاديمية بملاحظاتها حول « السيد » .

ان حماية ريشليو جعلت أهل القلم يشعرون بكرامتهم ودفعت بهم الى الانتاج . فسياسته وحروبه جعلت الناس يعيشون في جو من التوتر الادبي والتصميم على النصر والعزة القومية ولا « يفتخرون بالانتساب الى شعب عظيم والاسهام في عمل سيسجله التاريخ » . ففجرت الانطلاقة القومية المؤلفات الادبية .

ما زالت الاكاديمية الفرنسية جمعية خاصة تحميها الدولة . وحين توفي المستشار « سيغيه » في السنة ١٦٧١ ، امم كولبير الجمعية ، ووضعها تحت حماية الملك ، وقدم لها اللوفر منتدى ، وخصصها باعتمادات مالية لكتبتها وقرطاسيتها وتدفئتها وانارتها ، وبمكافآت الحضور لاستعجال العمل . فاعتبرت الا كاديمية انها « خادمة » جلالته . واستمرت على جعل الفرنسيين اكثر قدرة على العمل لاجل مجد الملك بمعرفتهم اللغة معرفة فضلى » .

« كل مفردات اللغة وكل مقاطعها تبدو لنا ثمينة لاننا ننظر اليها كما الى ادوات يجب ان تستخدم لاعلاء مجد حامينا العظيم » (راسين) .

مجّد الملك بشتى انواع التقاريظ . وقد وضع شابلين لائحة بالمؤرخين والشعراء الواجب منحهم الانعامات ، ضمت عدداً كبيراً من الاجانب ، الفلورنسيين والهولنديين والالمان . فتلقوا سفتجات واشارة الى « السلوك الواجب عليهم سلوكه للاعراب عن امتنانهم » .

دافعت الاكاديمية عن مذهب « النظاميين » . فاذعن له الكتاب الفرنسيون كي يصبحوا اكاديميين . هكذا قضت « الحكمة » . ويتضح من كل ذلك ان الدولة عززت موقف المجتمع من الحس المستهجن .

الدعاوة الفنية : هنري الرابع والتجميل الملكي

لم يكن من وسيلة لانطباع عظمة الملكية في النفوس خير من البناء وتزيينه اللذين كانا سبيلاً « للتأثير على عامة الشعب واستمالتها » ايضاً . أراد هنرى الرابع ان يدخل على المدينة نظام الدولة بالذات . يجب ان يسيطر العقل على المدن سيطرته على الفكر . والعقل يعبر عنه بالهندسة . لذلك فان الملك يريد تحقيق انشاءات كبرى متناسقة الاجزاء وساحات عامة هندسية الشكل وشوارع ومجموعات بنائية متقابلة ومتناسبة . ولكن كما ان الملك في الدولة يرئس الامة ، وكما يجب ان تخضع الافكار الثانوية العارضة للفكر الرئيسي ، كذلك يجب في المدن ان تنظم المجموعات

البنائية حول بناء مركزي ملكي حتى يحترم التسلسل في المدن كما في الدولة .

لاجل توفير الهواء لاحياء باريس التي يرتفع عدد سكانها بسرعة كلية والتي تنبعث منها روائح كريهة جداً ، قرر هنري الرابع فتح ساحات عامة وشوارع كبرى ومتنزهات . فأمر في شهر حزيران من السنة ١٦٠٥ بانشاء الساحة الملكية . وقد انجز بناء الملك وبناء الملكة في السنة ١٦٠٧ ؛ وبيعت لبعض الاسياد العظام والبرلمانيين والضباط اراض تتسع لاربعة وثلاثين بناء . الساحة الملكية هي نموذج ساحات النهضة وساحات الملكية المطلقة . ان الانسان، بحسب روح النهضة ، يسيطر على هذه المساحة المقفلة، المحدودة ، المتميزة ببيوت غير مرتفعة . وبحسب روح المجتمع المنظم والمتسلسل السلطات، تحيط الزنانير الحجرية الافقية وشبكات الزوايا الحديدية بالجدران القرميدية وتتقابل الاشكال وتتنضض . وبحسب روح السلطة المطلقة تنتظم البيوت المتماثلة انتظاماً متناسقاً بالنسبة لبناءي الملك والملكة ؛ الساحة العامة عارية تتجه الشوارع الى وسطها حيث سينصب في المستقبل تمثال الملك وحده ، مركز كل شيء ، المشرف على كل شيء ، المؤله ، الاله على الأرض . واحدثت ساحات عامة اخرى مماثلة .

في هذه الاثناء ، اظهر الرسامون للفرنسيين كيف يجب عليهم ان ينظروا الى الملك . ففي اللوفر ورواق الملوك ، روت الصور التي تزين السقوف قصصاً مستعارة من الميثولوجيا والعهد القديم ، ومثلث ابطالها بصورة هنري الرابع ، تأليف كلا العصرين القديمين ، الانسان الكامل ، المستنير والمسير بروح الله .

وقد احب هنري الرابع ، على غرار لويس الرابع عشر من بعده ، ان يري ابنيته بنفسه للاجانب ويدهشهم ويرهبهم بجلاله . ولكن كبار اعيان المملكة نسجوا على منوال الملك ، كالدوق « ديبرون » في قصر كاديلاك . فكان لزاماً على الملك ان يبزهم . الا ان ريشليو ، حيال هذه النقطة ، لم يفلح في اقناع لويس الثالث عشر ، الملك المقتصد ، فاضطر الى الاكتفاء بقصر اميري ومدينة جديدة احدثت لتكون له اطاراً ، في ريشليو .

لويس الرابع عشر وتأميم الفنون : الاكاديميات

طبق لويس الرابع عشر سياسة هنري الرابع ولكن على نطاق اوسع. فاشرف بنفسه على اعمال البناء ، يعاونه كولبير ناظر الابنية العام (١٦٦٤) ، و « لو برون » ، الخبير في حقل التزيين ، والاكاديميات التي تهيء المواضيع وتدرس المشاريع وتوزع العمل وتراقب التنفيذ وتفرض النمط . في السنة ١٦٦٣ ، امم كولبير اكاديمية التصوير والنقاشة . في السنة ١٦٧١ ، تأسست اكاديمية هندسة العمارة ؛ وفي السنة ١٦٧٢ ، اكاديمية الموسيقى . وتحولت جمعيات خاصة في الولايات الى فروع لاكاديميات باريس الكبرى . واخيراً انشئت في السنة ١٦٦٨ اكاديمية روما ووضعت منذ السنة ١٦٧٦ تحت سلطة الاكاديمية الملكية للتصوير والنقاشة . فأمسى الفنانون منذ ذاك التاريخ في مركز يحسدون عليه . كان الرسام يتلقى علوم الاكاديمية ويذهب الى روما لاستكمال تخصصه

ويعود ليدخل في خدمة الملك ويستلم من « لو برن » المواضيع المطلوب التوسع فيها وفاقاً لقواعد تفرضها الاكاديمية . منذ السنة ١٦٦٤ حتى السنة ١٦٧٤ درجت اكاديمية التصوير والنقاشة على عقد مؤتمر شهري ، يدرس فيه المجتمعون تمثالا أو لوحة ويتناقشون وينهون نقاشهم بقاعدة تدون في سجل خاص . فتوطد في الفن رأي مشترك فرض نفسه .

التجميل في عهد السلطة المطلقة

اوحى الملك بتشييد اقواس النصر تمجيداً لانتصاراته (باب سان دنيس ١٦٧٣ ؛ باب سان – مارتين، ١٦٧٤) . وابرزت ساحات ملكية عامة معدة لأن تحيط بتمثاله . وشق الدوق « دي لا فوياد» باريس ونصب في ساحة الانتصارات تمثال لويس الرابع عشر لـ « ده جاردين » : الملك ساحق « سربروس » المثلث الرؤوس . وعند التدشين ، سار الدوق في مقدمة فرقة الحرس التي يقودها ودار ثلاث مرات حول التمثال و « قام بكل ما كان يقوم به الوثنيون أمام تماثيل اباطرتهم » . وفي زوايا الساحة اتقدت باستمرار منائر مقامة فوق الاعمدة في فوانيس من البرونز المذهب تذكر بالمصابيح المقدسة أمام الايقونات . وأمر الملك بتشييد قصور واسعة الارجاء اذهلت سكان الولايات والاجانب بعظمتها وتناسقها الكامل ايضاً الذي ينم عن نظام حديدي . ان صف الاعمدة الكبير الذي صممه « شارل برّو » (١٦٦٧ – ١٦٧٤) واشرف على تنفيذه في اللوفر يتميز بتناسبه الكلاسيكي : فعلى كلا جانبي المحور الوسطي تتوازن اجزاء البناء بقناطر وتتقابل . وعلى كلا جانبي الجزء الوسطي ، من البناء الذي تعلوه جبهة مثلثة الزوايا ، ينبسط جناحان كبيران تلتصقها الاعمدة الكورنثية الكبرى التي تتعاقب مثنى وتنتهي الى اجزاء زاوية تزينها ركائز ضخمة . كما ان الاساس وسطوح الاعمدة والافاريز تبرز الخطوط الافقية، فتترك في النفس انطباع عظمة ثقيلة . الا ان فقدان السقوف ، والدرابزونات الايطالية النمط ، وتفاهة وجه البناء الابيض ، تستجيب لمجتمع تمهده الدولة التي تبتلعه ، وتذكر بالتزيين المسرحي الذي استهوى لويس الرابع عشر في شبابه ، عند « مازارين » ، والذي اضطر مهندسو المهارة لاضافته الى الكلاسيكية الفرنسية .ويذكّر بالتزيين المسرحي ايضاً وجه قصر فرساي المطل على الحديقة . ففي فرساي انشأ الملك ، على مراحل ، المدينة الملكية ذات الطرق المؤدية الى القصر الملكي ، الذي يستدبر المدينة ويطل بوجهه على حديقة « له نوتر » ويمتدل على « رقاص مهيب » هو الحرقة الكبرى ، حيث نسقت الطبيعة ، التي يسيطر عليها الانسان السيد، تنسيقاً يتناسب مع شتى ابنيته ، ونظمت لاجل حياته المجتمعية . أما في مقر « مارلي » الملكي(١٦٧٩ – ١٦٨٦) فقد صمم كل شيء للتذكير بان الملك هو مركز العالم وكوكب الكون الساطع . ففي مشهد مسرحي ، وحول مسكن جوبتير ، انشىء ١٢ بناء اهديت لبعض الرموز المجردة أو لبعض الآلهة : الشهرة ، الفزارة ، أبولون،منيرفا، الخ ، التي تواكب سير الالهة.وشيدت الكنيسة على احد الجوانب قبالة البناء المعد للحرس، كما لو كان الرب الاله،هو ايضاً،أحد ضباط السيد الملك .

تصوير عهد السلطة المطلقة

ان في تزيين كل هـــذه القصور لسياسة مستخلصة من كتاب « التحولات » لاوفيد . فرواق المرايا يروي قصة الملـــك . وقد رسم « لو برون » صور السقف الرمزية تمجيداً للملك . وتلقي « تعليقـــات » « فيليبيان » على غرفة الملك في قصر « تويلري » ضوءاً على فن التصوير في الابنية الملكية : « ان كل هذه الصور المستوحاة من تاريخ ابولون توافق الشمس وترمز ، علاوة على ذلك ، الى مآتي الملك ومآثره . فهو صاحب الجلالة من يجب ان نراه في اللوحة الوسطى بصورة ابولون ؛ وهو من نراه محاطـــاً بهالة من المجد ؛ وهو من يبدو متسامياً فوق كل شيء ومن ينشر انواره عـــلى الارض ويثير الاعجاب في كافة انحاء العالم بفضل وقاره وخصاله الرفيعة » . ومـــا عقوبة مارسياس ، الذي سُلخ حيًّا لتجاسره على مجاراة ابولون ، سوى « صورة القصاص الذي يستحقه اولئك الغلاظ المعجبون بأنفسهم حين يتجاسرون على مساواة انفسهم بأميرنا في فن قيادة الشعوب » .

آلت الطريقة المعتمدة في كل مكان الى تصوّر امثلة عامة والى رد « كل شيء الى المثـــل المطلق »، قالت بها الفلسفة المدرسية الاكوينية، ونادت بها الفلسفة الكرتزيانية التي تتميز بالتجريد واقصاء الفردية والسعي وراء المطلق . اساءت الكنيسة الظن في ديكارت ، وفي السنة ١٦٧١ حكمت السوربون على مؤلفاته وأمرت بان لا تدرس سوى تعاليم ارسطو . كان الملك مقيـــداً بقسم التكريس ، فحظر تعليم الكرتزيانية ، ولكنه لم يمنع انتشار هذا المذهب بواسطة الكتاب والندوات الاجتماعية لأن روحه لم تكن بعيدة عن تلك التي تحرك الوزراء والفنانين .

الدعارة الدينية : تأخر الروح البروتستانتية

لقد رأى الملك ابداً ان في الوحدة الدينية تكميل السلطة المطلقة . اضف الى هذا ان قسم التكريس ألزمه بالقضاء على الهرطقـة . واعتقد كل رعاياه ، الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، « بان الخلاف في الدين يشوه وجه الدولة » : « ايمان واحد ، شريعة واحدة ، ملك واحد » . اضف الى هذا ايضاً ان فتوراً في الايمان ورغبة في الاتحاد مع الكاثوليك قد برزا شيئاً فشيئاً ، خـلال القرن ، في الاوساط البروتستانتية . وقد مال الكلفينيون ، امام تعدد الشيع والكنائس وامام الفوضى البروتستانتية ، لان يروا في الدين مستودعاً موضوعياً لحقائق راهنة جاهزة يتوجب على سلطة منظورة ان تستخلصها من الكتاب المقدس وتفرضها فرضا . وكانت المجالس الادارية للرعاة البروتستانت تضع انظمة قاسية جداً . فباتت الكلفينية سلسلة اوامر ونواهٍ بعد ان كانت عبادة روحية . فانفصل بعض البروتستانت عن تعليم كلفين واصبحوا ارمينيين ونقلوا بعض عبادتهم الى شخص الملك ورأوا بان للملك حقاً مطلقا على الاشياء الخارجية، ومن ثم على العبادة . وامسى معظم البرتستانت لامبالين بالعقيدة قد يكتفون ببعض التنازلات حيال النقـاط التي تثير شعورهم : عبادة الايقونات ، الابتهـال الى القديسين ، مناولة المرضين السريين ، الصلوات باللغة العامية . ورأى غيرهم ، ممن كانوا اشد تصلبا ، بان مذهب بيرول يقرب وجهـات النظر الكاثوليكية والبروتستانتية ويسهل الارتدادات والاتفاقات .

ارتد بعض العظماء الى العقيدة الكاثوليكية منذ عهد لويس الثالث عشر : ابن « سوللي » ، الدوق « دي ليديغيير » ، الدوق « دي لا تريموي » ، وكان ارتداد هـــذا الاخير ابان حصار « لاروشل » . وقد اسهم الميل الى النظام في حدوث الارتدادات . وفي عهـد لويس الرابـع عشر ، لم يميز « تورين » ، تلميذ تيلينوس الارميني بين المذهب البروتستانتي المشيخي والجمهورية، واعتبر هذه الاخيرة مفسدة لكل نظام بشري والهي. «ان استقلال الرعاة يتنافى وكل نظام». وفي السنة ١٦٦٨ ، كفر بعقيدته .

تعاظم شأن البورجوازيين تعاظماً مطرداً في اوساط البروتستانتية . الا انهم كانوا يخافون ، في حال اندلاع الثورة ، عامة الشعب من جهة ، ودكتاتورية احد الاشراف ، كـ « روهان » مثلا ، من جهة ثانية . وكانوا حريصين على الاحتفاظ بمركزهم لانهم تولوا وظائف مالية كبرى في البلاط ، ووظائف قضائية هامة ، ومحاكم بدائية كاملة في الجنوب ، ولانهم كانوا بالاضافة الى ذلك تجاراً وصناعيين . فاكتسبوا كلهم روح الحكمة ومحبة النظام والفوارق الاجتماعية. ولم يكن للدين في حياتهم شأن كبير .

انتهى البروتستانت ، الذين تباهوا من جهة ثانية بانتسابهم الى ملك عظيم ، الى النظـــر الى لويس الرابع عشر كما الى ابن الله ، عطاء الله، والاعتقاد بان عقم الاثنين وعشرين شهراً الذي سبق الحبل به دليل على تدخل الاله في هذا الحبل . احلوه الى جانب الله . وفي السنة ١٦٥٧ ، قال له مندوبو كنائس الاصلاح : « رأينا في السياسة لا يختلف عنه في الدين . نحن نعتقد بان الرعية غير قادرة على استحقاق اي شيء من سيدها وانها ، حتى ولو ادت له كل الخدمات الممكنة ، لن تستطيـع ابتغاء أي انعام من انعاماته الا اذا ابتغته ابتغاءها النعمة » .

الدولـــة واخضاع البروتستانتية

توصل الملك من ثم الى اخضاع البروتستانتية تدريجيـا . فقـــد اتفق اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانت ، بصدد الوسائل ، عـــلى اعتماد تعاليم القديس اوغسطينوس. على الدولة حماية النفوس الضعيفة من جور العقول القوية حين تسقط هذه العقول في الهرطقة . عليها استرجاع الهراطقـــة بتدابير قسرية تكون لها قيمة علاجية. الحقيقة هي شمس الروح. ولكن يجب ان تتوجه اليها البصيرة الداخلية، العادة وتأثير البيئة وسلطة السيد تمنعها من ذلك . لذلك يجب ازالة هذه العقبات بالتهديـد ، والحرمان من الانعامات ، والقسر والعنف .

قضى الملك في الدرجـة الاولى على الحزب السياسي البروتستانتي . أتاحت انقسامـات البروتستانت للويس الثالث عشر وريشليو احتـلال « لاروشل » (١٦٢٨) ثم إلحاق الهزيمة بثوار الجنوب . رفض الملك التفاوض في الصلح على قدم المساواة بين سلطتين . في ٢٣ حزيران ١٦٢٩ ، منح العفو المعروف بعفو « آليه » . اعفي عن الثورة واعيد العمل ببـراءة نانت ، ولكن بالبراءة وحدها : يجب ان تهدم كافة تحصينات المدن وتحل المنظمة السياسية والعسكرية

البروتستانتية. فلم يعد من وجود للجمهورية البروتستانتية. وسلك البروتستانت منذ ذاك التاريخ سلوك الرعايا الأوفيـــاء . فكان جزاء اخلاصهم اثناء ثورة المقـــلاع اثبات براءة نانت في السنة ١٦٥٢ .

حاول الملك بعد ذلك تحقيق وحدة الكنائس . فكر ريشليو برد البروتستانت عن طريق مفاوضة دينية على صعيد قومي . ويقال انه توصل الى اقناع ٨٠ راعياً . عاد لويس الرابع عشر الى المفاوضات منذ السنة ١٦٦٢ . حوالي السنة ١٦٦٥ ترأسها مجلس غير رسمي ضم بين اعضائه تورين وبوسويه. نشر بوسويه كتابه « عرض الايمان الكاثوليكي » (١٦٧١) وهو « روعة الاصلاح المضاد » . اقترح تورين استمالة ٥٠ راعياً وافتتاح مؤتمرات يدعون اليها والتماس الايضاحات من البابا وابطال براءة نانت التي باتت غير ذات موضوع . الا ان الحروب التي حولت انتباه الملك ومقاومات الكلفينيين المتصلبين ادت الى فشل كل المساعي . استخدمت الرشوة منذ اوائل ولاية لويس الرابع عشر ، فاغدقت الاموال والانعامات على البروتستانت. ومنذ السنة ١٦٧٤ ، ادار مؤرخ الملك « بليسّون » ، البروتستانتي المرتد ، « صندوق الارتدادات » الذي وزع المكافآت المالية ، « فاعد القلوب لعمـــل النعمة » . واستخدم الملك ارساليات الكبوشيين ودور نشر الايمان ، فحصلت ارتدادات محصورة العدد .

ولكن الملك ، في الوقت نفسه حرم متصلبي الرأي من انعاماته واخذ يفسر البراءة تفسيراً مشدداً ملزماً. بدأ العمل بهذا الاسلوب بعيد عفو « آليه » ، ثم بولغ في استخدامـــه . واخذت جمعية القربان المقدس تستحث القضاة . وطالبت جمعيات الاكليروس « بحدود ضيقة » . وقد مهد الطريق أمام هذا الاسلوب كتاب « جان فيليو » ، المحامي في محكمة بواتييه البدائية الذي جمع ، بين السنة ١٦٤٥ والسنة ١٦٦٨ ، كافـــة القرارات التفسيرية لبراءة نانت ، وكتاب « برنار » ، المستشار في محكمة بيزيه البدائية (« شرح براءة نانت » ، ١٦٦٦) . ليس ما يمنع اسناد وظائف الدولة الى البروتستانت ، ولكن « هذه المادة مـــن براءة نانت تحصر الاهلية لتولي الوظائف العامة برعايا جمهورية لاروشل البروتستانتية ، دون ان يكون هنـالك موجب لان يتولوها » . وهكذا خلت البراءة شيئاً فشيئاً من مضمونها واضطهد البروتستانت . واخيراً لجأ الملك الى العنف . منذ السنة ١٦٨١ ، استحصل الوكيل « دي ماريلاك » في « بواتو » ، على اذن باسكان الفرسان في منازل السكان : فحققت اعمـــال العنف بعض الارتدادات في السنة ١٦٨٥ ، اعتمد هذا الاسلوب في كل المناطق . فكانت نتيجة مآثر الجيوش افـلاس الضيوف بفعـل متطلبات الجنود ، وشتمهم وضربهم اذا لم يسمعوا أقوال الكبوشيين ، ونساء يجررن بشعرهن ، وتعذيباً باحراق الارجل بالنار ، وحرماناً من النوم، واغتصاباً . ارتد البروتستانت آنذاك باعداد غفيرة. فبدت براءة نانت منذ ذاك التاريخ وكأنها غير ذات موضوع والغيت في ١٨ تشرين الاول من السنة ١٦٨٥ ببراءة « فونتينبلو » .

الدولة والجنسينية

اعلن الملك على الجنسينية حربا لا هوادة فيها . اعطى صفة القانون ، في السنة ١٦٥٣ والسنة ١٦٥٥، لمراسيم البابا اينوشنتيوس العاشر بالحكم على الهرطقة . في السنة ١٦٦٠ اصدر الامر بان تحرق « اقليميات » باسكال بيد الجلاد . ثم اوجب على رجال الكنيسة توقيع قانون ايمـــان قويم . وأدّب دير « بور روايال » ، مركز الشيعة، بطرد الداخليين والمبتدئين (١٦٦١) وسجن الراهبات (١٦٦٥) . واخيراً توصل الدبلوماسي «دي ليون » ، بمهارته ومراوغته ، الى تظاهر الجنسينيين بالخضوع ، و « سلام الكنيسة » .

الكنيسة الغليكانية

كان الملك مصمماً على قيادة كنيسة فرنسا وتركيز كل سلطة في شخصـه وتحقيق الوحدة الدينية من حوله وارغام البابا على الاكتفـــاء بسلطة روحية وهمية . وكان قد شرع عملياً بتعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة ، واعطاء أو رفض صفـة القانون لمقررات المجامع : اي ان الكنيسة قد امست تحت حمايته . وساند الملك في موقفه هذا المجلس التمثيلي ، والبورجوازية والسوربون وصغار رجـال الاكليروس ، بدافع عـداء قومي غريزي للبابا، وطالبوا « باحترام حريات الكنيسة الغليكانية وحقوقها وامتيازاتها » . فالملك في نظرهم يستمد سلطاته الزمنية مباشرة من الله ، كما يستمد البابا سلطاتـه الروحية . وليست سلطة الملك من ثم دون سلطات البابا صفة الهية ، بل هي مساوية لهـــا ومستقلة عنها . الملك حامي الكنيسة وحارس زمنياتها ، فهو يتمتع من ثم بكل سلطة على نظـــام كنيسة فرنسا وزمنياتها . لا يحق للبابا ان يحرمه أو يحل رعاياه من قسم الوفـاء أو يبت في نظام اكليروس فرنسا وزمنياته . للمجلس التمثيلي ولمجلس الملك الحق في ابطال انظمة السلطة الكنسية التي يثبت تنافيها وقوانين المملكة واعرافها ، والانظمة المتخذة في فرنسا التي تفرض الارادة الملكية .

الا ان الغليكانية قد انطوت على طابع لا يخلو من الخطر . فان « ريشيه » ، الغليكاني الهمام ونقيب كلية اللاهوت ، انبرى يؤكد (١٦١١) ان المسيح لم يعط سلطته للقديس بطرس وحده بل لجميع الاساقفة الذين يخلفون الرسل الاثنى عشر ، والذين يتمتعون من ثم بحق الهي عـلى غرار البابا ، ويجب ان يكونوا مستقلين عنه . والكهنة كذلك يخلفون الاثنين وسبعين تلميذاً . فليست الكنيسة من ثم ملكية شاملة بل ارستوقراطية قومية . الا ان ريشليو قاوم تعليم ريشيه : ان من يرغب في ادخال الارستوقراطية الى الكنيسة لا يمكن ان يقاومهـــا في الدولة . فارغم ريشليو ريشيه على الرجوع عن تعليمه (١٦٢٩) . ولكن ضرورات السياسة الملكية ارغمت الكردينال بدوره ، على الرغم من ميوله البابوية، على الابقاء على التوازن بين الغليكانيين والبابا. لا بل يبدو انه طمع بلقب بطريرك « غاليا » الذي كان من شأنه منحه السلطة الروحية عـلى كنيسة فرنسا . ولكن البابا تظاهر بالصمم على ما يبدو .

ان الضرورات السياسية حملت لويس الرابع عشر عــلى محاولة تنظيم كنيسة غليكانية تكون بمثابة الند للكنيسة الانغليكانية . انطلق في محاولته من حق التعيين في الرتب الكنسية

المرتبطة بعدد من الاسقفيات وجمع دخولها اثناء شغور المراكز الى ان يقسم الاساقفة الاصيلون يمين الاخلاص . أراد لويس الرابع عشر ، لاعتبارات مالية ، ان يشمل حقه هذا كل الاسقفيات الخاضعة له . فاصطدم بالبابا انوشنتيوس الحادي عشر . وضعت الجمعية العامة لكنيسة فرنسا « بيان البنود الاربعة » في السنة ١٦٨٢. ذكر البيان بنظرية السلطة المزدوجة ورفع رقابة الكنيسة وحكمها عن السلطة المدنية ، واكد تفوق المجامع العامة على سلطة البابا ، واعلن ان سلطة البابا مقيدة بالمجامع والاعراف القومية ، ورفض عصمة البابا في مسائل الايمان واخضع صحة مقرراته لحكم الكنيسة . جعل لويس الرابع عشر من هذا البيان قانوناً واضافه الى قوانين الدولة . فاصبح تدريس تعاليمه الزاميا في كافة انحاء المملكة . تمتع الملك من ثم بسلطة زمنية مطلقة على الكنيسة وبات قادراً في الحقل الروحي على رفض رسوم البابا العقائدية التي لم تقترن بعد بموافقة مجمع مسكوني ، فغدا رئيساً لكنيسة قومية تخضع خضوعاً كلياً لسلطة الدولة المطلقة ولا يربطها بالبابا سوى رابطة الاحترام .

النومارية

ان لهذه الرقابة على الحياة الفكرية والفنية والدينية ما يماثلها في كل البلدان التي تدين بالسلطة المطلقة او تلك التي تحاول تحقيق هذه السلطة . فلم تخل منها الاقاليم المتحدة ، مع انها كانت متساهلة نسبياً . ففي العهود الغومارية التي توافق في الزمن عهود توسع سلطات امير اورانج، سنت قوانين صارمة قيدت المسرح وفرضت حفظ يوم الرب واتخذت التدابير ، حتى في الاقاليم التجارية والبورجوازية ، كهولندا وزيلندا ، ضد الكاثوليك الذين لم يسمح لهم الا بالعبادة الفردية : منع التجمع لحضور الذبيحة الالهية أو اي احتفال ديني آخر ؛ منع الكهنة من دخول البلاد ؛ السماح لكل مواطن « بتشويش الممارسات البابوية » ، ليلاً ونهاراً ؛ مكافآت للواشين ؛ عقوبات غرامة مالية وجلد ومصادرة الممتلكات .

٧ – التوازن الاوروبي
والتسلسل في تنظيم اوروبا

الاحلاف ضد تسلطية آل هبسبورغ

اهتدت فرنسا الى الهدف : انقاذ الحريات الاوروبية من مدّعيات آل هبسبورغ بالسيطرة الشاملة ، والوسيلة : اتحاد الشعوب الاوروبية باخضاع خلافاتها الدينية ومطامعها الفردية للهدف المشترك . اتجهت السياسة نحو نوع من الوحدة الكلاسيكية . باتت فرنسا مركز المقاومة وشحذت العزائم ونظمتها . حتى السنة ١٦٣٥ ، قامت بحرب « صامتة » ، مصلحة ذات البين بين خصوم العدو المشترك ومقدمة لهم المال وواضعة يدها على النقاط الستراتيجية . في السنة ١٦٣٥ ، دخلت في حرب معلنة ضد اسبانيا ، وبالتالي ضد الامبراطور .

توصل ريشليو منذ السنة ١٦٢٩ الى حمل اسوج وبولونيا على عقد هدنة بينهما، وحذا مازارين حذوه في السنة ١٦٤٥ بحمل اسوج والدانمرك على عقد الصلح فيما بينهما في «برومسبرو». في السنة ١٦٣٦ ، استطاع ملك اسوج ، غوستاف - ادولف، بعد ان اخلى سبيله ، النزول الى اليابسة في «ستتين». ولكنه كان مفتقراً الى المال . حينذاك عقد الكردينال ريشليو الكاثوليكي جداً، مع غوستاف - ادولف اللوثري جداً ، معاهدة مساعدات مالية (بارروولد ، ٢٣ كانون الثاني ١٦٣١) لتأمين الانفاق على الجيش الاسوجي الذي كان مقدماً على غزو المانيا ومحاربة ملك سلالة هبسبورغ الكاثوليكي جداً. دام التحالف الاسوجي الفرنسي حتى السنة ١٦٦٧، وجدد ريشليو محالفات فرنسا مع كلفينيي الاقاليم المتحدة (١٦٣٠) . ثم جددت هذه الاتفاقات تكراراً قبل السنة ١٦٤٨ . وتوصل ريشليو ، ثم مازارين من بعده ، الى الاتفاق مع ترنسيلفانيا ، الامارة الهنغارية الخاضعة لسيادة الاتراك ، فقام راكوكزي ، امير هذه المقاطعة التابع الخاضع للكفرة ، بغزو النمسا . ووجد ريشليو ، ثم مازارين من بعده ، اعضاداً لهما في المانيا على الامبراطور ، لاسيما عضد « مكسيمليان دي بافيير » الذي كان متخوفاً من مطامع امير هبسبورغ اسبانيا في البالاتينا ، ونظما تكراراً ، بين البروتستانت والامبراطور ، ما يشبه فريقاً ثالثاً كاثوليكياً المانيا . وجلي ان هذه الاتفاقات لم تخل من الصعوبات والصدمات . فان غوستاف - ادولف ، الذي احرز النصر في « بريتنفلد » ، قد شرع في غزو المنطقة الرينانية ، متجهاً بابصاره نحو الالزاس ومهدداً بتقدمه بفصل فرنسا عن حلفائها ومحاولاً ان يجمع حوله امراء المانيا الشمالية من البروتستانت ليجعل منهم امبراطورية بروتستانتية ليست دون الامبراطورية الكاثوليكية خطراً. الا ان وفاته ابان المعركة في «لوتزن » ، حيث انتصر ولاقى حتفه، كانت خشبة خلاص لريشليو على الرغم من ان ضعف اسوج وهزيمة الاسوجيين في «نوردلنجن » (١٦٣٤) قد ارغما فرنسا ، في عهد لاحق ، على دخول حرب معلنة .

سواء كانت الحرب صامتة أو معلنة ، فهي تعتمد على تشجيع الثورات والمؤامرات عند العدو . فالاسبانيون تحالفوا مع العظماء الثائرين على ملك فرنسا ، الدوق « دورليان »، والدوق « دي بوّيون » ، « مونمورنسي » ؛ وتعهدوا بارسال ١٨٠٠٠ رجل الى « سنك مارس » لدعم ثورته ، مقابل استرجاع الاراضي التي يحتلها الفرنسيون ، وفاوضوا « كونديه والمقلاعيين وقدموا لهم فرقا عسكرت في باريس مع اعلامها الحمراء الحاملة صليب القديس اندراوس واستقبلوا اللاجئين والامير « دي كونديه » والدوق « دي يورك » والملكيين الانكليز الذين حاربوا في معركة الـ « دون » في صفوف الاسبانيين (١٦٥٨) . ولكن ريشليو من جهته قد ساعد الكتالونيين الثائرين على فيليب الرابع الذين نادوا بلويس الثالث عشر « كونت برشلونا » (١٦٤٠) وتحالف في السنة ١٦٤١ مع البرتغاليين الثائرين على اسبانيا وارسل لهم مالا وعتاداً . وساند مازارين سكان نابولي المتمردين على السيطرة الاسبانية (١٦٤٧) .

ستراتيجية اللواحق

ما زال لـ« ستراتيجية اللواحق » دورها الاول في العمليات الحربية. النتيجة الحاسمة ليست سهلة المنال. يقتضي يوم كامل لتوزيع صف من الجنود مؤلف من ٣٠٠٠٠ رجل على خطوط الجبهة في وجه العدو. اذا رغب العدو عن المعركة، فان لديه متسعا من الوقت لينسحب انسحاباً منظماً. ويقتضي لمطاردته ان يعيد الجيش صفه، ولكن الجيش لا يستطيع دخول المعركة حينذاك. لا تدور المعركة الا اذا وافق عليها القائدان وصرفا الوقت اللازم في تنظيم جيشيهما وجهاً لوجه. يجب ارغام العدو على دخول المعركة بانتزاع مستودعاته ونقاط مروره. وهذا يصح على الاخص في الرقعة الفلنكية التي تتشابك فيها الانهار والاقنية. ولا حيلة، امام الحصون القائمة عند ملتقى الانهر، الا في احتلال كل مربع على حدة بالاستيلاء على الحصون والجسور والمستودعات. ويصح القول نفسه عن مناطق النواتىء او الجبال. كالمنطقة الهرسينية في اوروبا الوسطى، والالب والبيرينيه حيث يجب الاستيلاء تدريجياً على حصون المجازات وتقاطع الاودية. ولكن الحصون كثيرة في كل مكان. فكل تموّن يصبح مستحيلا على مسيرة خمسة ايام من المستودع، ويضاف الى ذلك ان جنود الحملات العسكرية لا يجهزون باسلحة تمكنهم من الدفاع طويلاً عن أحد الجسور او أحد المواقع. فيقتضي من ثم انشاء موقع محصن في كل منها. وبالتالي فان الحرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً.

السياسة وستراتيجية الابواب

كان هم المحاربين الاكبر الاستئثار الى «ابواب» الممالك التي يستطاع بواسطتها صد الغزو وشل العدو بخشيته من الهجوم، ثم الاستئثار الى خطوط المواصلات الاوروبية. وقد عمل الفرنسيون قبل سواهم بهذه الستراتيجية والسياسة التي تنجم عنها بسبب وجودهم في موقع يحتل وسط الصراع. لذلك استولى ريشليو على « بينيرول »، « باب » ايطاليا، التي يستطيع الفرنسيون انطلاقا منها تهديد ميلانو، مركز التسلح الاسباني، وقطع الطريق العسكرية، المارة في ايطاليا، من أسبانيا الى الاقاليم المتحدة. وقد تصلبت فرنسا حتى ١٦٩٧ في رفضها الجلاء عن هذا الموقع. وأنقذ ريشليو « لافلتلين » ووضعها تحت سلطة أسيادها القدماء، الـ« غريزون » « البروتستانت »، وأمن لفرنسا استخدام الممرات استخداماً مانعا مطلقا (١٦٢٤ و ١٦٣٥)، لان « لافلتلين » « مهمة جداً للاسبانيين لوصل دول ايطاليا بدول المانيا »، وأزلق ريشليو الفرنسيين نحو الرين حيث تتشابك الجيوش الامبراطورية والاسوجية والاسبانية واللورينية، وحيث يتنازع المتحاربون رقبات الجسور. ومنذ السنة ١٦٣٢، أمر ريشليو تدريجياً بالاستيلاء على مواقع اللورين المحصنة واستحصل على حق مرور الجيوش الفرنسية في الدوقية. ووضع « منتخب تريف » تحت حماية فرنسا واستولى لمصلحته على « فيليبسبورغ » و « اهرنبرتستين »، وحمى اسقفية بال وكونتية مونبليار لمصلحة دوق « ورتنبرغ »، واقفل بذلك باب بورغونيا. في كانون الاول ١٦٣٣، ادخل الكونت « دي هانو » الفرنسيين الى ثلاثة من مدنه في ألزاس السفلى، « بشولر »، و « انغولر » و « نوولر ». وفي كانون الثاني ١٦٣٤، طلب الكونت « دي سالْم »، محافظ

مقاطعة « هاغنو » ، حماية فرنسا لهاغنو و « سافرن » . وفي ٩ تشرين الاول ١٦٣٤ تفاوض « هنري موغ » وكيل اتحاد « كولمار » في ستراسبورغ مع ملك فرنسا ، باسم كافة مدن ألزاس العليا : فقد قبل بدخول حامية فرنسية على ان تحتفظ هذه المدن بحكوماتها وامتيازاتها الدينية . وأمر ريشليو في السنة ١٦٣٨ بالاستيلاء على بريزاخ ورقبة جسرها الهامة . وطلب مازارين الى تورين وكونديه احتلال « فريبورغ » (بريسغو) حارسة المجازات الجنوبية الى « الحرج الاسود » ، و « سبير » و « ورمس » ، و « ماينس » ، (١٦٤٤) . وارسل مازارين جيشا لمهاجمة الحصون الاسبانية في توسكانا بغية قطع طريق تنقلات الجيوش الاسبانية بين نابولي ومنطقة ميلانو (١٦٤٦) .

لم تسلك فرنسا هذا السلوك الا بوحي الاسباب الستراتيجية . فلا ريشليو ولا مازارين نهجا سياسة حدود طبيعية . كثيرون من الفرنسيين فكروا في ذلك. فان نقائص الخرائط الجغرافية التي تمثلت الانهار فيها بخطوط ثخينة والجبال بخط من التلال الصغيرة التي تذكر بجدور متواصل، قد اشاعت الرأي بان الحدود الثابتة يجب ان تكونها امات طبيعية كالانهار والجبال، وقد عينت « تأويلات » قيصر ، حدوداً لفرنسا ، جبال الالب وجبال البيرينيه ونهر الرين . ولكن نظرات رجال الدولة الفرنسيين كانت واقعية .

حرب تقويض الجيوش

ان حرب تقويض الجيوش العدوة والاندفاع حتى عاصمة العدو لم تعد من المستحيلات . فالجيوش زادت قدرتها على القتال والحركة . واستفاد غوستاف – ادولف من دروس اللاجئين الفرنسيين البروتستانت ، من أمثال «بونتوس دي لا غاردي » ، فأحكم أدوات الحرب واستطاع بذلك اعتماد فن حربي جديد . خفف وزن البندقية ، فبات بمكنة حاملها اطلاق النار بدون اسنادها الى شيء . واستخدم الخرطوش المصنوع من الورق المقوى لحشوة البارود . وتجهزت عدة فرق من فرقه بالبندقية ذات الدولاب. فباتت سرعة اطلاق النار عند الاسوجيين بالنسبة لها عند الامبراطوريين، تعادل نسبة ٥ الى ١ . وبات حامل البندقية يحشوها في الوقت الذي تستغرقه ثلاث أو أربع طلقات . وبات من ثم باستطاعة غوستاف – ادولف الاكتفاء بستة جنود عمقا من حاملي البندقيات ، وبثلاثة احياناً . يرتب الجنود صفوفاً الواحد على مسافة خطوات من الآخر بسبب اخطار الانفجارات المفاجئة التي تحدثها الفتائل المشتعلة ، وعلى مسافة خطوات بين الصف والآخر ، للسبب نفسه وحتى يتمكن مطلق النار من الاندساس بين الصفين والوقوف وراء صفه يحشو بندقيته بينما يطلق رفيقه النار ، بحيث يستمر الاطلاق دونما انقطاع . وبات باستطاعة غوستاف – ادولف تقسيم المشاة كتائب صغرى مستقلة اقل كثافة وأسرع حركة . واصبحت نيران الاسلحة الحربية اكثر فعالية ضد فرق الخيالة ، فبات بمكنته زيادة عدد حاملي البنادق ورفعه الى ضعف عدد حاملي الحراب. واستخدم حشوة البارود الجاهزة بغية الاسراع في اطلاق نيران المدفعية ، وزاد عدد المدافع ، وزود المشاة بمدافع صغيرة من عيار ٤ سم يمكن دفعها بالايدي بغية مواكبة الفرق اثناء الهجوم

ومساندتها بنيران المدافع حتى هجمة الالتحام الاخير . أما مشاته ، وهم ضعفا خيالته ، فقد حطموا ، باسلحتهم النارية وحرابهم على السواء ، هجمات خيالة العدو ، وانهكوا بنيرانهم مشاة العدو وقضوا على معنوياتهم ومهدوا الطريق للغارة على خيالتهم . ما زالت فرق الخيالة سلاح النتيجة الحاسمة . توزع على الجناحين لحماية الشاكلتين ، اللتين هما نقطة الضعف عند فرق المشاة ، وتحاول اخلاء ميدان المعركة من فرسان العدو لمهاجمة مشاته جانبياً . تهاجم بنيران الاسلحة ، يساندها حاملو البنادق الموزعون بين كتائب الخيالة ، وتطلق نيران الطبنجات ، ثم تسير خبباً وتكر على العدو بالسلاح الابيض . وقد تبنى روح اصلاحات غوستاف - ادولف اشهر قادة اوروبا العسكريين ، الفرنسيان تورين وكونديه ، وقائدان في خدمة الامبراطور ، « مرسي » والايطالي مونتيكوكلي . وقد رفع هؤلاء نسبة حاملي البنادق الى اربعة وخمسة اضعاف حاملي الحراب .

فاصبح من ثم تدمير جيش العدو اكثر سهولة . واخذ كبار القادة العسكريين ينظرون كلهم الى الحرب كما نظر اليها نابوليون : حصارات قليلة ومعارك كثيرة ، لأن المواقع العسكرية ستستسلم بعد احراز الانتصارات في الأرض المكشوفة ؛ الهدف الرئيسي : العدو اينما وجد. وقد عبر عن الوحدة الكلاسيكية في الفن العسكري بارتباط الاسلحة المختلفة التي تعمل كلها لمصلحة السلاح الاول ، اي الفرسان ، وباخضاع كل الحركات لغاية واحدة : ضرب العدو في الصميم بعد القضاء على جيوشه . ان في هذه النظرة لمجرد نزعة نحو مثل اعلى . فهناك جيوش كثيرة دمرت في ميدان المعركة ، كالجيش الاسباني الذي قضى عليه فرنسيو كونديه في « روكروا » ولنس (١٦٤٣ - ١٦٤٨) والجيش الامبراطوري الذي قضى عليه تورستنسون» في ليبزيغ (١٦٤٢). ولكن دون استثمار النصر خرط قتاد . فان الحاجة الى المؤن والمال ما زالت ترغم المنتصر على التوقف في اغلب الاحيان ، وهذا ما حدث للاسبانيين المندفعين نحو باريس بعد استيلائهم على « كوربي » ، (١٦٣٥) ولتورستنسون الذي وصل الى مسافة ٢٥ ميلاً من فيينا (١٦٤٢) ، ولكونديه المتعطش الى الاندفاع نحو عاصمة النمسا بعد معركة « نورد لنجن » (١٦٤٥) . ولكن ريشليو ومازارين واصلا اعادة تنظيم الجيش بمساعدة بعض المدنيين . فشرع امينا سر الدولة للشؤون الحربية « سوبليه دي نوييه » و « لو تلييه » من بعده (منذ ١٦٤٣) في معالجة المسألة من جميع نواحيها . حرص وكلاء الجيش على ضبط دفع الاجور وتوزيع المواد الغذائية في اوقاتها ، ونظروا في الجرائم التي اقترفها الجنود،وارغموا مواني الجيش على انشاء المستودعات المقررة وعلى تسليم المؤن الجيدة . وحين اتفق الاسوجيون والفرنسيون اخيراً على توحيدجهادهم والقيام بعملية هجومية مشتركة ، احرز النجاح تاماً . فقد كان تورين و « رانجل » زاحفين على فيينا ، بعد انتصارهما على البافاريين في « زوسمار سهوزن » (ايار ١٦٤٨) ، حين علما بتوقيع معاهدات وستفاليا .

المؤتمرات الاوروبية

كان من المفروض ، بحسب فكرة روجها البابا منذ السنة ١٦٣٥ ، ان ينعقد مؤتمران في وستفاليا ، احدهما في «مونستر» للدول الكاثوليكية والثاني في «اوسنابروك» للدول البروتستانتية . ومع ان موعدهما قد حدد في ٢٣ اذار ١٦٤٢، فانهما لم يفتتحا رسمياً الا في ٤ كانون الأول ١٦٤٤ . فكان على فرنسا وحلفائها، في مونستر، وعلى الامراء البروتستانت والدول البروتستانتية ، في اوسنابروك ، ان يجروا مفاوضات مع الامبراطور وحلفائه . أما في الواقع فقد كان المؤتمر اوروبياً لأن كل الدول تمثلت فيه باستثناء القيصر والسلطان وملك انكلترا. احتلت المدينتين الصغيرتين جماهير غفيرة بعد ان اعلن حيادهما اثناء المفاوضات . وتبارت وفود الدول الكبرى فيها ابهة في عرباتها الفاخرة وملابسها الرسمية وكرماً فائقاً في استقبالاتها .

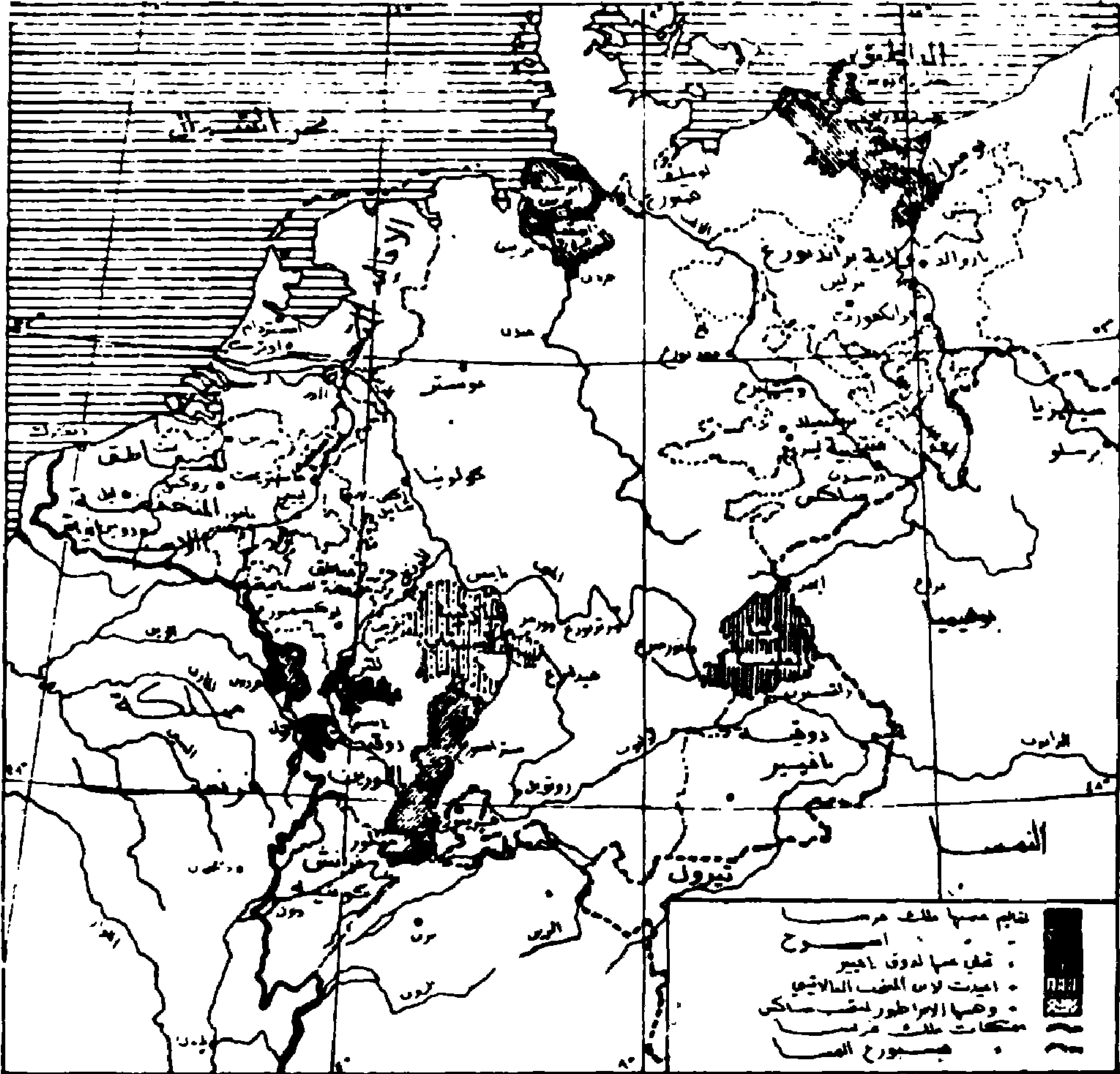
استغرقت المفاوضات وقتاً طويلاً . كانت المسائل المطروحة معقدة . وكان على المؤتمرين ان يتبادلا استطلاع الرأي في كل شيء وان لا يفصلا في شيء الا بالاتفاق بينهما . ولجأ الدبلوماسيون بصورة خاصة الى التسويف والمماطلة املاً منهم بنجاح عسكري يحسن موقفهم. عقد صلح منفرد بين اسبانيا والاقاليم المتحدة في ١٥ ايار ١٦٤٨. ومرد ذلك الى ان مازارين قد انفرد في اقتراحه على فيليب الرابع مقايضة كتالونيا، التي كان الفرنسيون سائرين في احتلالها ، بالاقاليم المنخفضة الاسبانية ، رغبة منه في ان يجعل من باريس « حصناً منيعاً لا يرام » . وقد سبق للهولنديين ، حين كانوا يخشون جانب اسبانيا ، ان اقترحوا على ريشليو تقاسم الاقاليم المنخفضة بغية الحصول على ايد فرنسا . ولكن ريشليو رفض الاقتراح لانه آثر تيسير استقلال المنطقة التي اصبحت بلجيكا فيما بعد. أما الآن وقد امسى ملك اسبانيا مستضعفاً والفرنسيون اقوياء، فرغب الهولنديون عن مجاورة الفرنسيين لهم . وفي ٢٤ تشرين الاول ١٦٤٨ وقعت في آن واحد معاهدتا اوسنابروك ومونستر ، اي « صلح وستفاليا » ، أو « دستور » اوروبا الجديدة .

«الدستور» الاوروبي

كرست المعاهدتان في الدرجة الاولى انقسام الامبراطورية والمانيا وعجزهما. وقد اعتبرت هذه النصوص قانوناً امبراطورياً ونظر اليها رجال القانون كما الى دستور الدولة الالمانية . غدا ملك فرنسا وملك اسوج كفيلين « للحريات الجرمانية » . تمتع الامراء الالمان باستقلال يكاد يكون ناجزاً. استفادوا من «الرئاسة الاقليمية »، الشبيهة بالسيادة، وحق لهم التفاوض مع الدول الاجنبية وفيما بينهم لضمان سلامتهم. يضاف الى ذلك ان الامبراطور لم يعد عملياً ليستطيع شيئاً بدون المجلس التمثيلي للاقاليم الذي سيطر عليه العجز بدوره بفعل الحاجة الى اجماع الاصوات في كل المسائل الهامة .

تأمن توازن القوى في الامبراطورية بين الكاثوليك والبروتستانت الذين كانوا حلفاء اسوج وفرنسا على كل حال . أقر في البدء نوع من التساهل الديني بين الدول . وشمل صلح اوغسبورغ الامراء الكلفينيين ، واعترف بشرعية الكلفينية اسوة باللوثرية ، واستفاد الامراء من هذا

المبدأ : « الامير يختار مذهبه ويلزم به رعاياه » . ثم تنازل الامبراطور عـــن براءة الاسترداد وصلح براغ . ابقي على العلمنات السابقة لسنة ١٦٢٤ . استعاد ابن المنتخب البـــالاتيني لقب المنتخب والبالاتينا السفلى. احتفظ مكسيميليان دي بافيير بالبالاتينا العليا وحصل على منتخبية



الشكل ٩ اوروبا بعد معاهدتي وستفاليا

احدثت لمصلحته. ففدت الهيئة الانتخابية ، بصرف النظر عن الامبراطور ، تضم اربعـة من الكاثوليك وثلاثة من البروتستانت ولكن المساواة العددية استعيدت فيما بعد باعطاء صوتين مناوبة ، لكل من المنتخبين البروتستانت .

تقهقرت جرمانية آل هبسبورغ في كل مكان . سبق لاسبانيا ان اعترفت باستقلال الاقاليم المتحدة وأقصتها من ثم عن دائرة بورغونيا ، وبالتالي عن الامبراطورية. واعلن استقلال الاقضية

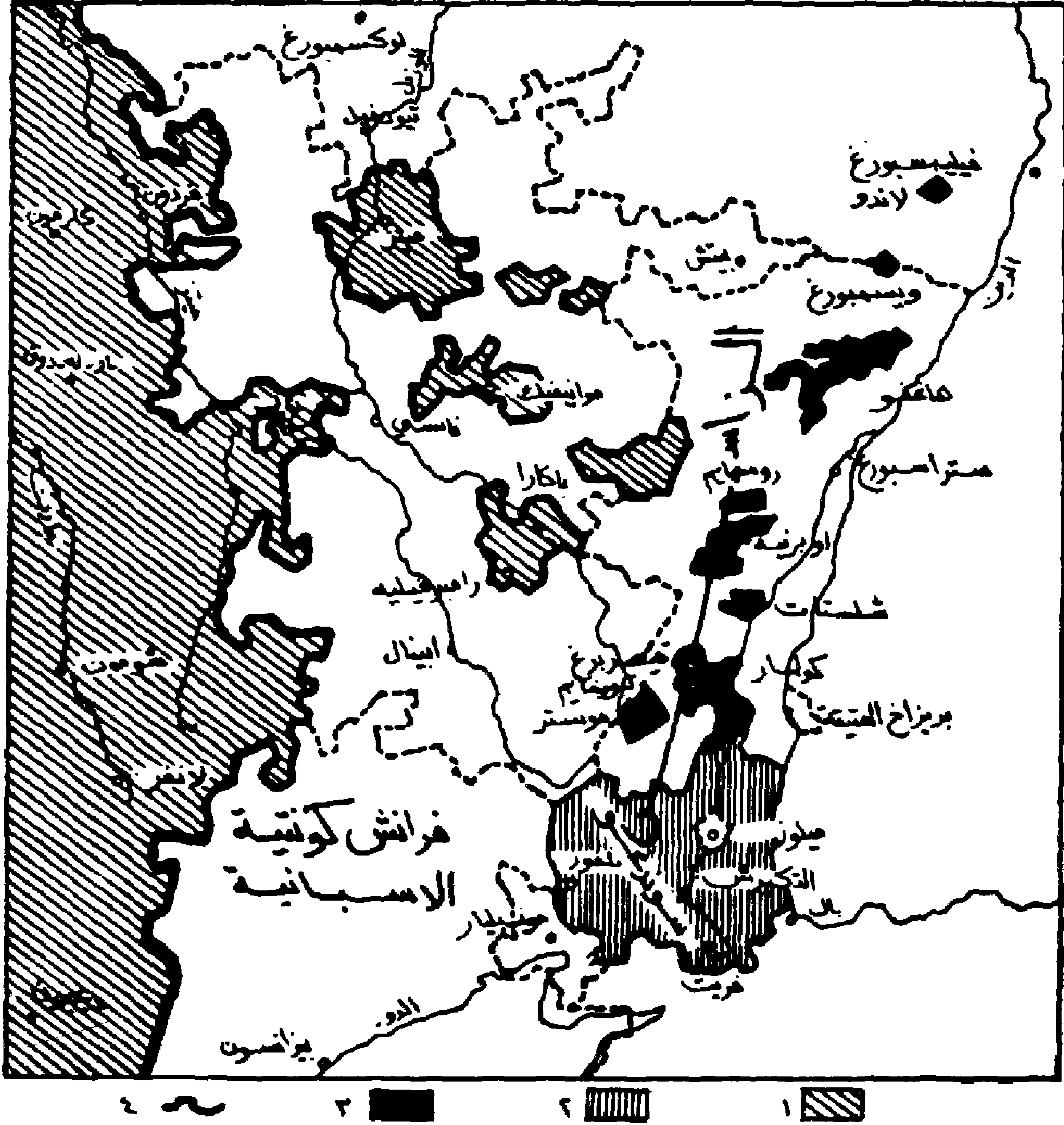
السويسرية الناجز . وحصلت اسوج ، تعويضا لها عن نفقات الحرب ، على اقاليم تتيح لها تأمين سلامة « البحيرة الاسوجية » ، بمراقبتها مصاب الانهر الالمانية وطرق التجارة المؤدية الى السهول الالمانية : بومرانيا الغربية مع مصاب الاودر ومرفأ ستتين ، واسقفيتا بريمن وفردن المدينتان اللتان تشرفان على مصب الفيزر غربا ومصب الإيلب شرقاً . وحصل ملك فرنسا على « ابواب » تقوم على الطرق العسكرية الكبرى . وظفر بالسيادة على اسقفيات « متز » و « تول » و« فردون » المحتلة منذ هنري الثاني . كما ظفر في الالزاس بكل ما امتلكه الامبراطور فيها باعتباره رئيس سلالة النمسا وبكل الحقوق التي تمتع بها باعتباره امبراطوراً . في هـــذا العجاج من الجمهوريات والمدن الحرة والامارات الكنسية والسيادات ، في هذا الاختلاط الالسني والديني والثقافي ، حيث تكلم ألزاسيو وديان «الفوج» العليا اللغة الفرنسية ، وغيرهم الالمانيـــة ، وسوادهم لهجات مختلفة ، وحيث كان ثلث السكان لوثريين والثلثان كاثوليكيين ، وحيث سيطرت الحضارة الجرمانية على الرغم من الآثار العميقة التي تركتها السيطرة الرومانية ، نرى بصورة خاصة امارة الالزاس العليا ، ومنطقة صلاحية محكمة هاغنو الكبرى ، واراضي امبراطورية ضمهـا بعض الاقطاعيين الى اقطاعاتهم ، كاراضي آل « ريبوبيير » حول « ريبوفيليه » . وقد صيغ تسليم هذه الاراضي بكلمات غامضة ، ومتناقضة في اغلب الاحيان : فقد حسب المفوضون المطلقو الصلاحية ان الاقوى سيفسرها لمصلحته في المستقبل .

معاهدة البيرينيه وخلافة ملك اسبانيا

كان مقدراً لآل هبسبورغان يتخلوا مرغمين عن السيطرة الشاملة . ولكن امير هبسبورغ اسبانيا رفض التسليم بالهزيمة . بعد ان عقد الصلح مـــع هولندا ، استدعى مفوضيه المطلقي الصلاحية . ولما كان دوق اللورين حليفاً لاسبانيا ومستقلاً عن الامبراطورية منذ السنة ١٥٤٢ ، استمر الاحتلال الفرنسي لهـذه الدوقية وتواصل النزاع بشكل حرب فرنسية اسبانية . ولكن التشوش النقدي والاقتصـادي في اسبانيا ، وثورة المقلاع في فرنسا ، جعلاها تطول زمناً طويلاً . واخيراً اتفق مازارين مع « كرومول » الذي لم يستطع الحصول من ملك اسبانيا ، فيليب الرابع ، على فتح اسواق الهند الغربية للتجارة الانكليزية . وقع الطرفان معاهـدة تحالف صريح في ٢٣ اذار ١٦٥٧ . تمكن تورين ، يسانده الاسطول الانكليزي وقوة انزال مؤلفة من ٦٠٠٠ انكليزي ، من احراز النصر في معركة « الدون » (١٤ حزيران ١٦٥٨) . لم يبق لملك اسبانيا لا جيش ولا مال . وفقـد الأمل بتلقي العون من النمسا . فقد توفق مازارين الى حمل مجلس المنتخبين على الزام الامبراطور ليوبولد بان لا يتدخل في حروب ايطاليا ودائرة بورغونيا . ولضمان تنفيذ هذا التعهد ، ألّـف منتخبو « تريف » و «مايفس» وكولونيا الكنسيون ، واميرا نويبورغ و « هس – برونسويك » خط حياد كفلته اسوج وفرنسا ، فاضطر ملك اسبانيا الى الانحناء .

نوقشت شروط الصلح على نهر « بيداسوا » ، في جزيرة المؤتمر ، منذ شهر نيسان ١٦٥٩ حتى حزيران ١٦٦٠ . وقعت معاهدة البيرينيه في ٤ حزيران ١٦٦٠ اقفلت بموجبها حدود

فرنسا في وجه الغزو . واستعادت فرنسا او غنمت منـــاطق « ارتوا » و « روسيّون »
و « سردانيه » التي كان ريشليو قد استولى عليها ، ومواقع هامة على الطرق المؤدية اليهـــا :
« غرافلين » ، « لندرسي » ، « لو كينوا » ، « افين » ، فيليبفيل » ، « مـــارينبورغ » ،



الشكل ١٠ ـ الممتلكات الفرنسية ، الزاس في السنة ١٦٤٨
١ ـ مملكة فرنسا ٢ ـ اقاليم نمساوية غنمتها فرنسا ٣ ـ المدن الامبراطورية العشر ٤ ـ حدود فرنسا

« مونميدي » . واستعاد دوق اللورين دوقيتـــه ، ولكن فرنسا احتفظت « بالارغون » ،
« ترموبيلنا » ، والطريق الحرة لجيوشها .

زد على ذلك ان الاتفاق الفرنسي الاسباني قد اعطى فرنسا امكانيـــة منع امير هبسبورغ النمسا من ان يضم الى ممتلكاته وراثة عرش اسبانيا ويعيد امبراطورية شارل الخامس . فاقتضى

اتخاذ بعض الاحتياطات بالنظر الى حقوق الامبراطور في خلافة فيليب الرابع . تزوج لويس الرابع عشر من ابنة ملك اسبانيا البكر ، ماري – تريز ، حتى لا يتزوج منها امير هبسبورغ النمسا ، الامبراطور . فرض فيليب الرابع ان تتنازل عن ارث ابيها . ولكن الدبلوماسي الفرنسي « دي ليون » ادخل هذا التنازل في عقد الزواج « مقابل » ٥٠٠٠٠٠ دينار ذهباً ، عالماً ان الخزينة الاسبانية اعجز من ان تدفع هذا المبلغ . احتفظت من ثم ابنة ملك اسبانيا بحقوقها التي انتقلت الى لويس الرابع عشر ، زوجها . يضاف الى ذلك ان التنازل كان باطلاً على كل حال : ان حقوق ماري تريز المتصلة اليها بفعل نسبها لا يمكن ان تكون موضوع تنازل ، ولذلك استقبح الاسبانيون انفسهم على ملكهم ولم يأخذوه بعين الاعتبار . فكان من ثم باستطاعة لويس الرابع عشر المطالبة بنصيبه من الارث واحباط مطامع الامبراطور عند الاقتضاء .

التحكيم الفرنسي في اوروبا

ان انتهاء الاعمال الحربية أتاح لفرنسا فرض وساطتها في اوروبا . كانت اسوج في حالة حرب مع كافة دول السواحل البلطيكية ، روسيا ، بولونيا ، براندبورغ ، الدانمرك ، ومع هولندا . فخشي مازارين الامكانات التي توفرها لامير هبسبورغ النمسا خلافات البروتستانت الشماليين . توفق الى عقد الصلح بين اسوج والدانمرك في كوبنهاغن ، وبين اسوج وبولونيا وبراندبورغ في « اوليفا » (ايار – حزيران ١٦٦٠) . وقد استمر لويس الرابع عشر في لعب دور الوسيط هذا في مستهل حكمه الشخصي.

ليبنيز ومخطط الاتحاد الاوروبي

وهكذا عاد السلم والاتفاق في اوروبا الى سابق عهدها . اما اسسها فكانت : تساهلا دينياً نسبياً ؛ توازن القوى بين دول كبرى تنفصل بينها دول صغرى كانت لها بمثابة القطيلة ، كالاقاليم المنخفضة الاسبانية بين فرنسا والاقاليم المتحدة ، او كحلف الرين ، الذي تشرف عليه فرنسا ، وبافيير بين فرنسا والنمسا؛ واخيراً التحكيم بين الدول الاوروبية تجريه دولة راجحة السلطة والنفوذ ، فرنسا ، وبالتالي تكريس المراتب بين دول اوروبا . وحين اقدم لويس الرابع عشر على خوض حرب نقل الحقوق (١٦٦٧) واعتبرت سياسته محاولة جديدة للهيمنة وبسط السيطرة ، بدا وضع اوروبا وكأنه خطوة اولى نحو مثل اعلى ، فاستوحاه الفيلسوف الالماني ليبنيز ، ووضع في السنة ١٦٧٠ مخطط اتحاد لاوروبا . اعتبر التوازن مختلا والمانيا ضعيفة لا تقوى على احباط مطامع جيرانها ، فاقترح تقويتها بتحويلها الى اتحاد دول متحالفة تتمثل في جمعية واحدة يكون لكل دولة المانية فيها حق الجلوس والاقتراع. بهذا تمنع الاعتداءات المحتملة الوقوع ويصان سلم اوروبا . ولكن اوروبا تتميز بحرارتها الخلاقة والفاتحة . يقتضي صمام امان لهذه القوة . قد تحوّل الى استعمار القارات الاخرى . يكون لكل دولة اوروبية نطاق عمل وفتح في هذه المستعمرات تجنباً للمنافسات والاصطدامات : اسوج في سيبيريا ، انكلترا والدانمرك في اميركا

الشمالية ، اسبانيا في اميركا الجنوبية ، هولندا في الهند الشرقية ، فرنسا في افريقيـــا ومصر . فلن يحاول لويس الرابع عشر حينذاك تحقيق الملكية الشاملة ، والسيطرة بقوة السلاح ، بـل يكتفي بممارسة التحكيم الشامل . وتابـع ليبنيز في الوقت نفسه محاولة سلامية كبرى ، هي تحقيق وحدة الكنائس ، بالاتفاق مع بوسويه الذي كان منصرفاً الى توحيد الكنيستين الكاثوليكية والبووتستانتية في فرنسا ؛ وقد نشر بوسويه آنذاك « شرح العقيدة الكاثوليكية في المواضيع المختلف عليها » الذي كان له أثر عم اوروبا (١٦٧١) ، واتصل بـ « بوفندورف » ، مهذب ولي عهد اسوج حيث كان الاجتماع مرغوبـــا فيه ، وتولى في « سان جرمين » هداية دوق « اوسنابروك » زوج حفيدة المنتخب البالاتيني ، وأعد مشروعا للمناولة تحت العرضين السريين ارضاء للبروتستانت . وفي الامبراطورية بذل الفرنسسكاني « سبينولا » جهوداً كبرى منذ السنة ١٦٧٥ لتحقيق المصالحة بموافقة الامبراطور والبابا « اينو شنتيوس » الحادي عشر . وفي السنة ١٦٧٩ ، وافق البابا على « شرح » بوسويه . فأمكن لليبنيز تأمل تنفيذ مخططه ، وهـو تحقيق مثالية العمل المنجز في معاهدات وستفاليا والبيرينيه .

الفصل الثالث

المظاهر الجديدة للأزمة

لم تتكشف وسائل مقاومة الازمة الا عن كفافها الضروري لموازنتها ، دون ان تمكن من التغلب عليها . فكان لا مناص مثلا من تقنيات زراعية اخرى ، اي من نماذج اخرى للملكية العقارية ، وبالتالي من انظمة اجتماعية وسياسية غير تلك المعمول بها في البر الاوروبي ، حتى تزول الازمة المزمنة في المواد الغذائية . يضاف الى ذلك ان استعمال العلاجات نفسه قد خلق اسبابا اخرى للازمة .

١ - النزاعات الاوروبية

النزعات التسلطية القارية

يجب ان يُبحث عن أحد الاسباب الكبرى للازمة ، وهو ابرزها ان لم يكن اهمها ، في الحروب التسلطية ، الاوروبية والاوقيانوسية ، في عهد حكم لويس الرابع عشر الشخصي . فالنزعات التسلطية لم تلق السلاح قط . اوقف تسلط آل هبسبورغ ، ولكنه لم يهزم . واصرّ آل هبسبورغ النمسا على مدعياتهم . فان الامبراطور ليوبولد الاول ، سور اوروبا المنيع في وجه الاتراك ، وقائد جيش الصليبية الظافرة امام فيينا (١٦٨٣) ، ومنتزع هنغاريا وترنسيلفانيا مــن الكفرة (صلح كارلوفيتز ، ١٦٩٩) ، الذي توفق خلال سنوات معدودة الى الاستيلاء على منــاطق الدانوب والساف والدراف الواسعة الارجاء حتى قمم جبــال الكاربات وحتى بلغراد ، بينما لم يستول لويس الرابع عشر الا على بعض المواقع المحصنة في الاقاليم المنخفضة ، وعلى منطقــة « فرانش - كونتيه » الصغرى ، الفرنسية لغة وروحاً ، ان هذا الامبراطور ، الذي اوشك تكراراً ان يؤدي للمسيحية خدمة توحيد الكنائس ، التي لا تقدر بثمن ، وان يضع حدًّا نهائياً لانشقاق الكاثوليك والبروتستانت ، والذي سطع نفوذه العظيم ، وطالب باسبانيا والهند ، قد صان اوروبا كما يصان المقنص الخاص .

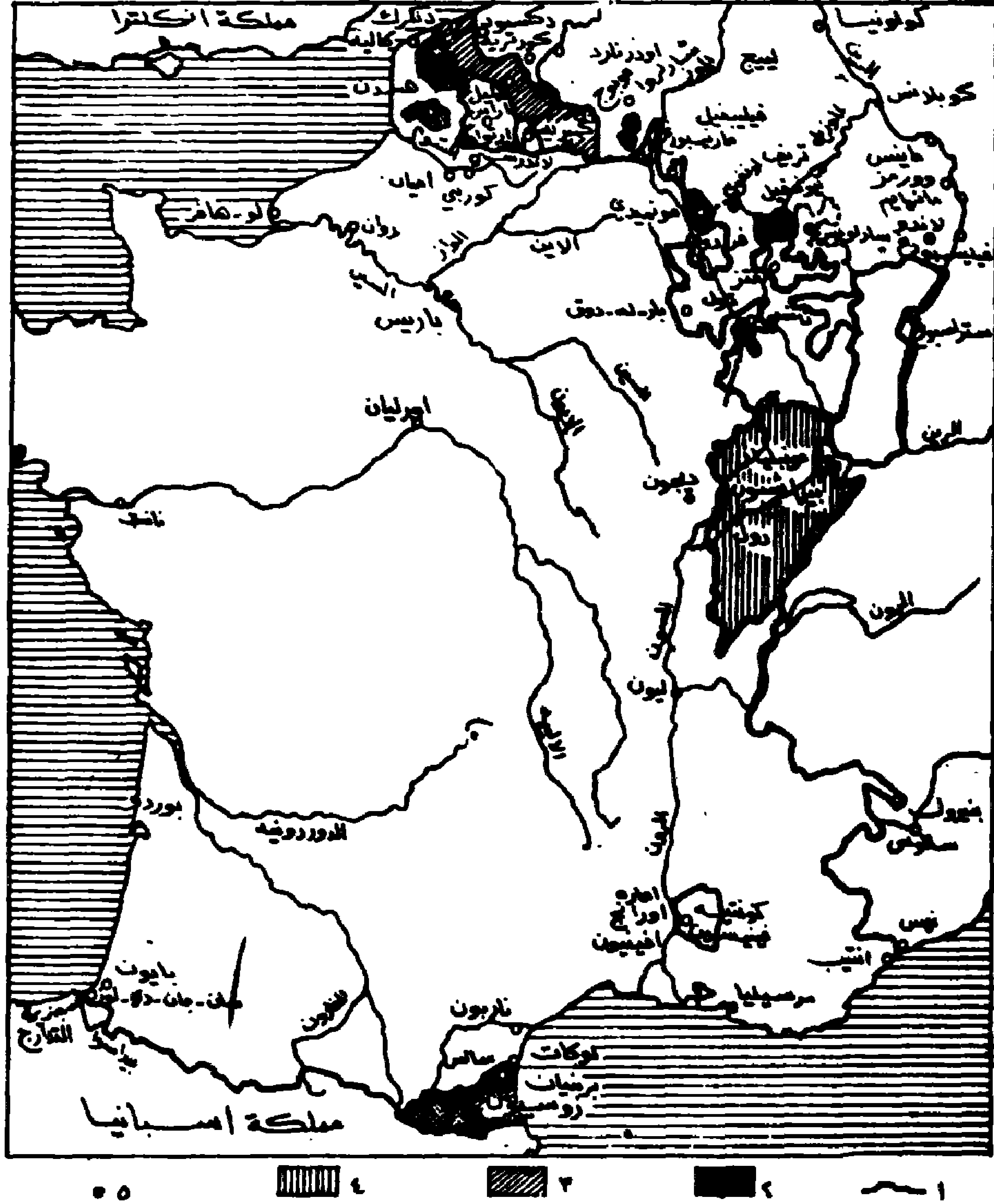
كما ان الحكومة الفرنسية ، التي دافعت عن الحريات حتى ١٦٦٠، قد نزعت هي ايضاً الى التسلط بعد احرازها النصر وتوطيد التفوق الفرنسي ؛ فقد حاول لويس الرابع عشر فرض هيمنته وادعى بالتاج الامبراطوري نفسه . . فادى ذلك الى تصادم آل هبسبورغ وآل بوربون. وادى الصراع السياسي ضد الازمة الى ازمة سياسية جديدة .

النزعات التسلطية البحرية

ان الروح التجارية عززت النزعات التسلطية البحرية وارغمت النزعات التسلطية القارية على الاتجاه بانظارها ، في الوقت نفسه ، شطر البحر . ففي عهد الجمهورية وعهد حماية « كرومول » اولاً ، زاحمت انكلترا الاقاليم المتحدة، منذ السنة ١٦٥٠ ، على التفوق التجاري والبحري واحتكار تجارة الهند واميركا وتركة الاسبانيين البرتغاليين الذين أفل نجمهم . واكرهت الحرب الانكليزية الهولندية (١٦٥٢ – ١٦٥٤) الاقاليم المتحدة على الارتضاء بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة (معاهدة وستمنستر ، ١٦٥٤) ومن ثم بالحد من دورهم كجوالة البحار حدًّا ملموساً . وفي السنة ١٦٦١ ، تزوج شارل الثاني من الاميرة البرتغالية « كاترين دي براغانس » التي امهرت بومباي وطنجة . فاتاحت قاعدتا العمليات هذه للانكليز الادعاء بالوساطة بين الاقاليم المتحدة والبرتغال: كان البرازيل البرتغالي ثائراً على السيادة الهولندية ؛ فاضطرت الاقاليم المتحدة الى التخلي عن هذه الارض الاستعمارية (١٦٦١).واخيراً ارغمت الحرب الانكليزية الثانية (١٦٦٤ – ١٦٦٦) الهولنديين على التخلي عن هولندا – الجديدة وعن امستردام الجديدة (التي اصبحت نيويورك) (معاهدة بريدا ، ١٦٦٧) . وهكذا خسر الهولنديون تجارة الهند الغربية واكرهوا على الانكفاء نحو الهند الشرقية . وكانت النزاعات الانكليزية الهولندية هذه فاتحة الحروب الكبرى لاجل السيطرة على البحار والتجارة العالمية . ثم نهجت فرنسا النهج نفسه . كان كولبير طامعاً في السيطرة الاقتصادية وهي شرط السيطرة السياسية . فأقدم ، بتعرفة السنة ١٦٦٧ ، على تلك الحرب الجمركية التي كانت سبباً من اسباب الحرب الهولندية (١٦٧٢ – ١٦٧٨) . بعد الهجوم الصاعق على هولندا، استُطلع رأي كولبير، في شهر حزيران ١٦٧٢ ، في شروط معاهدة الصلح القريبة، فاقترح ضم الاقاليم المتحدة ، وبالتالي تجارتها ، واكراه الهولنديين ، الفرنسيين الجدد ، على التخلي عن جزء من تجارتهم للفرنسيين القدماء . وقد جاءت هذه المشاريع ، التي لم يعلم بها الهولنديون ، تتمة لمخطط التجزئة الاقليمية والانهيار الاقتصادي والاذلال الذي عرضه «لوفوا » على الاقاليم المتحدة في حزيران ١٦٧٢ .الا ان هذا المخطط وحده كان كافياً : انتفض الهولنديون سخطاً وصمموا على القتال حتى النهاية . وهكذا فان الروح التجارية ، المعدة ، فيما خصها ، لمعالجة الازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي تعرضت لها الدولة ، قد أدت بهذه الاخيرة الى حروب كان مقدراً لها ان تثقل وطأة الازمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

خلافة عرش اسبانيا

استمرت كل النزاعات بفعل خلافة عرش اسبانيا التي سيطرت على السياسة الاوروبية منذ السنة ١٦٦٠ حتى السنة ١٧١٣ . لم يرزق فيليب الرابع ، ملك اسبانيا ، حتى السنة ١٦٦٠ ، سوى ابنتين ، احداهما تلك التي تزوج منها



الشكل ١١ - الغنم الفرنسي منذ معاهدتي وستفاليا حتى معاهدة اوترخت

١ - الحدود ٢ - معاهدة البيرينيه ١٦٥٩ ٣ - اكس لا شابيل ، ١٦٦٨ ٤ - نيميغ ، ١٦٧٨

٥ - اقاليم ربطتها بفرنسا غرف الاجتماع

لويس الرابع عشر ، والثانية تلك التي لن يلبث الامبراطور ليوبولد الاول ان يختطبها . ورزق

بعد ذلك ابناً هو شارل الثاني الذي غدا ملك اسبانيا ، ولكن ضعف بنيته البالغ قد حمل الجميع على الاعتقاد بأنه لن يرزق اولاداً وبانه سيموت قريباً . فالى من تؤول خلافة العرش يا ترى ؟ اجل ان ماري تيريز ، عقيلة لويس الرابع عشر ، قد تنازلت عن هذه الخلافة في معاهدة البيرينيه. ولكن التنازل ، بصرف النظر عن ان الامير لا يستطيع ان يتنازل تنازلاً صحيحاً عن حقوق تتصل اليه بالنسب ، قد سُلم به « مقابل » ٥٠٠ ٠٠٠ دينار لم تدفع قط : اذن فهو باطل. لذلك فلويس الرابع عشر ، وهو ابن وزوج اميرتين ملكيتين بكرين ، يحتفظ بكافة حقوقه التي تفوق حقوق ليوبولد ، وهو ابن وزوج اميرتين اصغر سناً . واذا ورث ليوبولد خلافة العرش ، فهذا يعني اعادة امبراطورية شارل الخامس ، وتهديد فرنسا بالزوال واوروبا بالاستعباد ، وضياع نتيجة جهود وتضحيات استغرقت قرناً ونصف القرن . واذا ورثها لويس الرابع عشر ، فهذا يعني صيرورة السيطرة التجارية والبحرية الى فرنسا مع الوسائل الموصلة الى الامبراطورية الشاملة . فالمقصود انما كان استثمار الامبراطورية الاسبانية في اميركا واستغلال المفترقات التجارية ذات الاهمية الحيوية : بحر الشمال الذي تقوم الاقاليم المتحدة على سواحله ، والبحر المتوسط الذي تتيح السيطرة عليه صقليا ومملكة نابولي ، وكلاهما ممتلكات اسبانية . وغني عن البيان ان الدولتين البحريتين ، انكلترا وهولندا ، ما كانتا لتقبلا برؤية فرنسا تعيد فتح مصاب نهر اسكو ، وتبعث انفرس التي قد تصبح المنافسة البحرية لامستردام ولندن اذا ما رفعت عنها قيود معاهدة مونستر وضمنت مساندة دولة واسعة الاطراف تقوم وراءها ؛ وبترك الفرنسيين يسيطرون سيطرة نهائية في افريقيا الشمالية ومرافىء الشرق الاوسط ؛ أو بتركهم يحصلون على احتكار في المستعمرات الاسبانية في اميركا ، ويزودونها « وحدهم » « بالمصنوعات » والزنوج ، ويقصون منافسيهم عن التيار التجاري الجديد نحو « شيلي » و « بيرو » و « كاليفورنيا » السفلى عن طريق مضيق « ماجلان » . لذلك راقب الانكليز والهولنديون عن كثب خلافة عرش اسبانيا حتى يكون لهم نصيبهم منها .. قام الخلاف حول الخلافة بين سلالتين ملكيتين ولكنه أثار في وجه كل دولة مسألة خطيرة ذات اهمية قومية لأن الممالك انما تتجسد بملوكها. وكان شعور الشعوب بذلك كافياً لاخفاق وسائل الدبلوماسية العادية . اشترى لويس الرابع عشر محالفة ملك انكلترا شارل الثاني بجعالة شهرية ، وامدادات مالية ، وسرية هي « لويز دي كيروال » الحسناء التي اصبحت دوقة « بورتسموث » . واشترى الوزراء وحتى زعماء المعارضة في المجلس التمثيلي . ولكن ضغط رجال المال ومجهزي البواخر والتجار وحقد الشعب الانكليزي على فرنسا البابوية والمنافسة ، اكرها شارل الثاني على التخلي عن حليفته فرنسا ، بينما كانت حرب هولندا على اشدها (١٦٧٤) ، وعلى تزويج ابنة شقيقه ، ماري ، الى « غليوم دورانج » ، ثم التحالف مع هولندا على فرنسا (١٦٧٨) .

فكر الخصمان اكثر من مرة بتقسيم مسبق بغية افتتاح التركة . فبموجب تقسيم السنة ١٦٦٨ بين لويس الرابع عشر والامبراطور ، تقرر اعطاء لويس الرابع عشر المناطق المنخفضة ،

وفرانش – كونتيه ، ونافار ، ومملكة نابولي ، وصقليا ، وحصون مراكش ، واخيراً الفليبين ، على ان يعطى الامبراطور ما سوى ذلك . أما بعد اتفاق السنة ١٦٩٨ ، بين لويس الرابع عشر والدول البحرية ، فان اتفاق السنة ١٧٠٠ بين لويس الرابع عشر وهولندا وانكلترا قد اعطى ارشدوق اسبانيا ، شارل ، الهند والمناطق المنخفضة ؛ وولي العهد ، نابولي وصقليا ومواقع توسكانا . وفكر لويس الرابع عشر باستبدال صقليا بنيس وسافوا ، ونابولي باللورين فيستكمل بذلك ارض مملكة فرنسا . ولكن هذه المحاولات اصطدمت تارة بتصميم الاسبانيين الصريح على الابقاء على كال امبراطوريتهم ، واخرى برفض الامبراطور . فتوالت الحروب .

النزعة الى التسلط الدستوري

ثم لم يلبث الاختلاف حول الآراء الدستورية الذي نجم عن اختلاف مراحل التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي بلغتها كل دولة من الدول ان اصبح بدوره سبباً للنزاع . فبعد الثورة الانكليزية (١٦٨٨) مثلا ، رفض لويس الرابع عشر الاعتراف بشرعية « غليوم دورانج » الذي اختاره الشعب الانكليزي ملكاً عليه ، وساند اولئك الذين بعينهم نسبهم لهذه الولاية ، اي جاك الثاني ثم جاك الثالث ، من آل ستيوارت . فكان ذلك تصادماً بين مبدأ الملكية الوراثية المبنية على حق الهي ومبدأ الملكية المبنية على التعاقد الحر .

المدعيات الفرنسية والملسع الاوروبي

بدا التسلط الفرنسي أرهب من كل تسلط آخر ، واتهم لويس الرابع عشر بأنه انما يريد استعباد اوروبا . اما الحقيقة فهي ان سياسته حتى السنة ١٦٧٨ تعتبر دفاعية ، ومكملة لسياسة ريشليو . ان لويس الرابع عشر واصل سياسة « الابواب » و « الطرق العسكرية » القديمة» دونما نظر الى الحدود الطبيعية . وهذا كان مقصده من الاستيلاء على اللورين ومن استرجاع دنكرك من شارل الثاني بالشراء . لا بل يمكن اعتبار حرب نقل الحقوق نفسها (١٦٦٧ – ١٦٦٨) حربا دفاعية لان فيليب الرابع قد اوصى ، وهو على فراش الموت ، بان خلافة العرش تعود ، بعد شارل ، الى حفدة ابنته الثانية ، مرغريت – تريز ، خطيبة الامبراطور ليوبولد : فبات لزاماً ، والحالة هذه ، الاستيلاء على بعض بقاع المناطق المنخفضة بغية اقفال حدود فرنسا . ويجوز اعتبار الحرب الهولندية عملا دفاعيا ضد التسلط التجاري الهولندي وضد السياسة الهولندية التي كان من شأنها إتاحة استيلاء الامبراطور على المناطق المنخفضة بحدها من التوسع الفرنسي فيها . زد على ذلك ان اسبانيا التي حالفت الهولنديين على فرنسا قد خسرت ، بالاضافة الى شطر من الفلاندر ، منطقة فرانش – كونتيه التي قال لويس الرابع عشر عنها : « انها شقت لي طريقا جديدة الى المانيا ، يمكنني في الوقت نفسه اقفالها في وجه اعدائي » . فما زال الفرنسيون يعملون بوحي فكرة ابعاد الغزوات عن فرنسا بالاستيلاء على الطرق المؤدية اليها التي تنتزع من العدو وتتيح عملا عسكريا هجوميا اذا ما احدق بها خطر هذا العدو .

الا ان دخول الفرنسيين الى المناطق المنخفضة ، في السنة ١٦٦٧ ، بينما كانت اسبانيا منهكة بفعل حكمها السيء والتشوش النقدي ، وبينما لم يحرز الامبراطور انتصاره على الاتراك امـام الـ « راب » الا بفضل التجريـدة الفرنسية (١٦٦٣) ، وبينما كان لويس الرابـع عشر يمارس حماية حقيقية على الامراء الرينانيين ، باستثناء المنتخب البالاتيني ، قد نشر الذعر في اوروبا . في هذه السنة بالذات ، نشر الفرنسي « اوبري » « مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية » . وقد دافع في هذا الكتاب عن حق لويس الرابـع عشر في استعادة القسم الاكبر من ، ألمانيا « ارث الامراء الفرنسيين القديم ، والتي امتلكها شارلمان بوصفه ملك فرنسا » ، وفي استعادة المنصب الامبراطوري الذي انتزعته ألمانيا من فرنسا . وزعم ان كل ما هنالك يؤمّل ولي العهد بالسيادة على البحر والبر على السواء وبالملكية الشاملة . وما دور روما اوغسطوس سوى اعـداد لدور فرنسا لويسْ الرابـع عشر التي ستؤول اليها السيادة المطلقة على الكون .

كان السخط والذعر شاملين . فان السفير الامبراطوري ، « ليزولا » ، قـد اشتكى ، في كتابه « ترس الدولة والعدالة » ، من ان عدة لويس الرابـع عشر الحربية لا مبرر لهـا سوى تصميمه على فتح كافـة انحاء اوروبا . العالم المسيحي مهدّد بالخطر . يجب ان تتسلّـح اوروبا وتتحد ، او ان تقبل باستعباد الفرنسيين لها . وكان للكتاب صدى عظيم جداً . وقد روي خطأ في حينه ، ان صورة ولي العهد بلباس الامبراطور تملأ كل مكان في فرنسا ، حتى الحانات . ومثل احد النقوش فرنسا مدرّعة ، تغطي رأسها ثعابين هائجة ، تتقدم، وهي تنفخ النار في بوق، نحو اوروبامجتاحة يحتلها جنود فرنسيون مهانقون يطعنونالاطفال طعنات نجلاء برماحهم ويجهزون على الجرحى بالمساعير ويسحقون المدنيين تحت سنابك جيادهم ، بينما تنهـار الجدران المشتعلة ويتصاعد دخان الحرائق نحو السماء . ولعل لويس الرابع عشر ، الذي امر بسجن « اوبري » ، لم يكن مصمماً تصميماً واضحاً على الضغط والطغيان ، ولكن الرأي العام الاوروبي نظر اليه نهائياً كما الى مجنون او كما الى « هائج ثائر » .

الملك ـ الشمس وفرنسا ـ الشمس

بعد معاهدتي نيميغ (١٦٧٨ – ١٦٧٩) ، لم يبق مجـال للارتياب . فان ضبط الحدود الشمالية ، وضم فرانش ـ كونتيه ، والاحتفـاظ باللورين ، واكتسـاب فريبورغ (في بريسغو) ، باب الهضبة الدانوبية ، وانقاذ الحلفاء الاسوجيين من الدانمرك وبراندبورغ المنتصرتين عليهم ، ودور الحكم في اوروبا ، والاقدام في ايام السلم ، بحسب عرف اوروبي قديم على كل حال ، على ضم اقاليم خاضعـة لاقاليم اخرى اعطيت لها بموجب المعاهدات ، كل ذلك جعل فرنسا تزهو خيـلاء وكبرياء . منحت باريس الملك ، في السنة ١٦٨٠ ، لقب « لويس الكبير » . ومن هم يا ترى ، في نظر الفرنسيين آنـذاك ، حكيم الرواقيين ، وهمام ارسطو والانسان الالهي عند اللاكديمونيين ، اذا مـا قورنوا بلويس ؟ مجرد ظلال او رموز . « ما كنا لنؤمن بهذا القدر من المعجزات (التي اتاها) لو لم نشاهدهـا بام العين : فلماذا البحث اذن في الاسطورة عن اعمال « هركول » وفي التاريخ عن اعمال الاسكندر ،

ما دام لويس الكبير يعطينا المثل عن كل الفضائل » ؟ ان هـذا البطل ، بمفهوم البطولة القديم ، يريد السيطرة الشاملة واثباتها الرسمي ، الامبراطورية . ولكن الفرنسيين متفقون في الرأي ويتفننون مع لويس الكبير بفرنسا الكبرى . افلم يكن لفرنسا ، في ما يزعمون، عظمة وامتياز لا نظير لها ؟ أو لم يكن الفرنسيون اساتذة في كل الفنون ؟ أو لم تكن لغتهم لغـة اوروبا ؟ ففي نيميغ حرر سفراء الدانمرك برقياتهم باللغة الفرنسية. لا بل ان سفير اسبانيا المتعجرفة كان يجيب باللغة الفرنسية على ترحيب زملائه به . ولم ير الفرنسيون في ذلك ما يثير الدهشة،فليس هنالك سوى لغة واحدة كاملة وحكم واحد كامل ومثل ادبي اعلى واحد ، تتوفر كلها في فرنسا ! اللغة الفرنسية شبيهة بخلق الامة التي تتكلمها : حلوة ، عذبة ، صافية ، نقية ، نبيلة ، عظيمة . ليس لاية بلاد وضع شبيه بوضع فرنسا ؛ ولا تتوفر لاية بلاد كما لفرنسا الاشياء الضرورية للحيـاة . الفرنسيون اغنياء بجميع مواهب الروح والجسد . يخوضون الحروب لتحرير الشعوب وتحضيرها اذا حالفهم النصر فانهم يبتهجون بعدالة وعظمة ، كما ان مهزومي فرنسا يستفيدون من هزائمهم فوق ما تستفيد فرنسا الظافرة من ظفرها . أو ليس عدلاً ، في زعمهم ، ان تسيطر مثل هـذه الامة على العالم ؟ كانت فرنسا لهم ، بالنسبة للكون ، كما هي الشمس بالنسبة للسيارات في نظام كوبرنيك . وكانت فرنسا – الشمس خليقة بالملك – الشمس .

ومن سخرية القدر ان ضم ستراسبورغ ، الذي تم في ايام السلم والذي كان له ما يبرره ، قد احدث اسوأ اثر . سبق لستراسبورغ، المدينة الامبراطورية الحرة ، وباب الالزاس ، ان سمحت ثلاثا لجيوش الامبراطور بعبور جسر الرين ، على الرغم من حيادها . فاستولى لويس الرابع عشر على المدينة (١٦٨١) لسد هذه الثغرة المفتوحة في جهازه الدفاعي . ولكن هذا العمل فسر بانه تصميم على فتح لا يقف عند حد ، فالقى الذعر في اوروبا . اضف الى ذلك ان لويس الرابع عشر ، رغبة منه في دعم مدعياته بالامبراطورية ، قد رغب في ان يؤدي خدمة جلى للعـالم المسيحي بجمع المسيحيين المنفصلين الى الكثلكة ، وفي ان يؤديها وحده بمعزل عن اي شخص آخر . فكانت رغبته مدعاة لخشية البابا وفشل انضمام بروتستانت المانيا الذي اعده سبينولا والامبراطور ، والذي كان الامراء ، بتأثير من ليبنيز، مهيئين للقبول به : الاعتراف بالبابا رئيساً والقبول بالمجمع التريدنتيني . أما لويس الرابع عشر ، فكان بمقدوره ، بواسطة فرسانه إبطال براءة نانت في فرنسا . وعزيت اليه رغبته في ارسال فرسانه لمساعدة جـاك الثاني على اعادة انكلترا الى احضان الكثلكة . فاعتقدت اوروبا كلها بان لويس الرابع عشر انما يريد الاحتلال لتحقيق الارتداد . فارتجف الاوروبيون قلقاً . لا بل ان اصدقـاء لويس الرابع عشر القدماء انفسهم ، بورجوازيي امستردام المعادين لرئيس السلطة التنفيذية ، والامراء الالمان ، قـد تخلوا عنه « لضمان رصيدهم » . وثار الانكليز وطردوا جاك الثاني (١٦٨٨) . واتحدت اوروبا ضد فرنسا .

المحالفات ضد فرنسا

جاء رد فعل اوروبا ، امام الخطر ، محالفات بقيـــادة الدول البحرية . كانت الاحلاف محصورة ، قبل السنة ١٦٨٥ : حلف السنة ١٦٦٨ الثلاثي ، بين انكلترا وهولندا واسوج، الذي ارغم لويس الرابع عشر على ايقاف فتوحاته في « فلاندر » وعلى توقيع معاهـــدة صلح « اكس - لا - شابيل » (١٦٦٨) ، وحلف « لاهاي » الكبير (١٦٧٣) بين الاقاليم المتحدة والامبراطور واسبانيا ودوق اللورين الذين انضم اليهم المجمـــع الجرماني (١٦٧٤) ، ثم الدانمرك ، وقد انقذ الاقاليم المتحدة والمنـــاطق المنخفضة . ولكنها غدت شبه شاملة ودائمة بعد السنة ١٦٨٥ . فان البروتستانت الفرنسيين المهـــاجرين حرضوا اوروبا على لويس الرابع عشر وعملوا على توحيد الامراء ضد فرنسا .وكان قلب الاحلاف النابض غليوم دورانج ، رئيس السلطة التنفيذية في الاقاليم المتحدة ، الذي اصبح ملكاً على انكلترا في السنة ١٦٨٩ ، واشتهر بعصبيته البروتستانتية وعنف عـــدائه للفرنسيين . تحالفت انكلترا والاقاليم المتحدة مع تكتل « اوغزبورغ » الذي تألف في السنة ١٦٨٦ من الامبراطور وملك اسبانيا وملك اسوج لضمان العمل بمعاهدتي وستفاليا ونيميـغ ، وما ان ارتضى لويس الرابع عشر ، في السنة ١٧٠٠ ، بوصية شارل الثاني ملك اسبانيا لمصلحة دوق انجو ، الذي اصبح ملكاً على اسبانيا باسم فيليب الخامس ، كي لا يترك الخلافة لامير نمساوي ، حتى تألف الحلف مرة اخرى من انكلترا والاقاليم المتحدة والامبراطور ومعظم الامراء الالمان والدانمرك . وقـــد رفعت معنويات المتحالفين فكرة الحرب الصليبية ضد لويس الرابع عشر . ساعـــدت الدول البحرية بمالها كل امراء البر الاوروبي المعوزين الذين ما كانوا ليصمدوا طويلا لولا هذه المساعدة . فبدأت بين الفرنسيين والانكليز حرب مائة سنة جديدة لن تضع أوزارها الا في السنة ١٨١٥ . وكان على فرنسا ، للمرة الاولى ، ان تخوض الحرب وحدها ضد اوروبا كلها ، حتى بعد السنة ١٧٠٠ ، لان أسبانيا كانت مستضعفة ، فالقي عبء الصراع كله على كاهل فرنسا التي واجهت اعداءها على طول حدودها البرية ، من دنكرك حتى طولون ومن برينيـــان حتى بايون ، وفي اسبانيا ، وعلى الجبهة البحرية ايضا ، في البحر المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، وفي المستعمرات حتى في اميركا والهند . فباتت فرنسا ، كما سيحدث لها بعـــد مرور قرن كامل في عهد مجلس الميثاق « ولجنة الانقاذ العام » ، موقعاً كبيراً محاصراً .

ديمومة الحرب وعجز الجيوش

طالت الحروب اكثر فاكثر . فبعد حرب « نقل الحقوق » (١٦٦٧ - ١٦٦٨) والحرب الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٨) دامت حرب حلف إوغزبورغ منذ السنة ١٦٨٨ حتى معاهدة ريسويك في السنـــة ١٦٩٧ وحرب خلافة عرش اسبانيا منذ السنة ١٧٠٢ حتى السنة ١٧١٤ ، ومنذ السنـــة ١٦٨٨ حتى ١٧١٥، اي طيلة ثمان وعشرين سنة ، استغرقت الحروب منها احدى وعشرين سنة تقريباً . ويرد ذلك الى ان الحلفاء ، الذين استفادوا من تفوقهم العددي والمـــالي ومن عضد البروتستانت فرنسا ، قد تضاربت مصالحهم فانقسموا وطالت المسافات التي تفصلهم عن فرنسا فصعب تنسيق

حركات جيوشهم ، بينما استفاد الفرنسيون من توسطهم اعداءهم ووحدة قيادتهم وقوّة مركزية ادارتهم . كما يرد الى ان الجيوش الفرنسية بعد تألب اوروبا باجمعها على فرنسا ، قد فقدت تدريجياً قدرتها على المناورة وعلى احراز الانتصارات الحاسمة .

الاساطيل والصف

قام الفن الحربي البحري اولا ، ما بين السنة ١٦٥٠ والسنة ١٦٨٠ ، بالبحث عن العدو العائم قبل كل شيء آخر والسعي الى تدميره بمعركة حاسمة الوطيس ؛ والمناورة لعزل قسم من الاسطول واضناكـه ؛ ومطاردة الفلول بدون هوادة . في سبيل تحقيق هـذا الهدف عمد امراء البحر ، الانكليز منهم ، كـ « مُنك » ، والهولنديون ، كـ « روبتر » و « ترومب » ، والفرنسيون ، كـ « دوكين » و « تورفيل » ، الى خطة « اقتصاد القوى » . حتى ولو لم يكن اسطولهم ، في مجموعه ، دون اسطول العدو عـدداً ، فانهم كانو يناورون بحيث يحشدون معظم قواهم ضد الجزء الذي يريدون تدميره من اسطول العدو ويحققون التفوق العددي في هذه النقطة . لذلك قادوا الى المعركة عدداً من الفرق المتضامنة هدفا ، المستقلة حركة . واحتفظ قادة الفرق ببعض المبادهة . فكان باستطاعة الفرقة ان تغادر مكانها لتطوق العدو او لتستفيد من ثلمة في صفه . كان الهجوم سيداً .

ولكن صفوف مدافع السفن قامت في جوانبها . فلا مجال اذن للحصول على اقصى فاعلية نيرانها الا اذا صف الاسطول كله ، سفينة بعد الاخرى ، ترفع كل منها صاريها الكبير في المؤخرة وتوجه جانبها نحو العدو . منذ السنة ١٦٥٣ ، امر دوق يورك ، الذي سيصبح جـاك الثاني ، باعتماد هذه التشكيلة . الا ان تطبيقها تطبيقاً صارمـاً يشل الاساطيل التي تعجز اذ ذاك عن المناورة وينحصر عملها في اطلاق نيران مدافعها . ولكن امراء البحر والقباطنة انتهوا شيئـاً فشيئاً الى التغلب على كل اعتبار واعتماد الصف المحدود . بعد انتصاره في « بيتشي هد » ، طارد تورفيل العدو باسطوله كما كان مصفوفاً للمعركة ، فلم يتمكن من تطويق وتدمير اجزاء اسطول العدو المتشتتة ، وكان ذلك سبباً هاماً من اسباب اخفاق عمليـة انزال الجيوش في انكلترا . في السنة ١٦٩٦ ، نشر الاب « هوت » ، مرشده واستاذ الرياضيات ، « فن الجيوش البحرية او بحث حركات الاساطيل » حيث احل الصف في المرتبة الاولى . تشبـع الضباط الفرنسيون من هـذه المعلومات ، وفي السنة ١٧٠٤ ، طبق الانكليزي « روك » ، وخصمه الكونت «دي تولوز » هذه النظرية تطبيقاً صارماً في معركة « فيليز – ملكه » . لم يستفد تولوز من ثلمة احدثها ليحاول عزل مقدمة القوة الانكليزية . كما لم تحاول هذه الاخيرة تطويق مقدمة القوة الفرنسية . لم تتحرك القوتان المتقابلتان . فاطلقت نيران المدافع دون جدوى طيلة سبـع ساعات .

بيد ان عدم فاعلية العدد في المعارك البحرية ، وجولة تورفيل الذي توفق في السنة ١٦٩١ الى ركوب البحر طيلة خمسين يوماً تجنب خلالها عدوًّا يفوقه عدداً ، والى تدمير قافلة انكليزية هولندية محملة بكل غال ثمين ، ونهكة الخزينة الفرنسية في اعقاب ارتفـاع نسبة الوفيات في

١٦٩٣ – ١٦٩٤ وخلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، اوحت كلها للفرنسيين بفكرة الاستعاضة عن حرب الاساطيل بحرب القرصنة . ففعل القراصنة البحريون ،« جان بار » و « دوغي‌تروين» وغيرهما ، ما يقضي العجب واستولوا على الوف السفن المدوة . ولكن العدو قاوم بطراداته . وكانت الحاجة ماسة الى الاساطيل وخوض المعركة البحرية لتنظيف البحار من هذه الطرادات، ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا بعد السنة ١٦٩٤ والسنة ١٧٠٤ . فاطلقت يــدا العدو ضد القراصنة ، ولم تفلح حرب القرصنة في شل تجـــارته على الرغم مما الحقت به مـــن خسائر فادحة .

اما في البر ، فقد بلغت الجيوش اقصى فعاليتها بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ . فقـــد ازدادت قدرتها على اطلاق النيران باستخدام البندقية استخداماً متعاظمـاً وباستعمال القذائف اليدوية لضرب النقاط الساكنة واكتشاف مخابىء العدو ، وبتنظيم فرق خاصة من ملقي القنابل ومطلقي نيران المدافع . وأتاح اطلاق القذائف بحيث ترتد الى الارض او الى اي حاجز آخر ، بفعل انحناء المدافع انحناء خاصا ، نشر الفوضى والذعر في صفوف الاعداء وبلوغ هـدف خفي بصورة غير مباشرة . وشكلت فرق من المشاة مجهزة خير تجهيز وسريعة الحركة جـــداً ، هي فرق « الدراغون » . وسمحت البزة ، وهي مختلفة باختلاف الاسلحة والفرق ، للقائـــد بتمييز شتى فرقه في ساحة المعركة، وسهلت عليه القيادة . واتاحت المشية العسكرية قيادة فرق المشاة بكل تنظيم ، وحفظ المسافات والابعاد الملائمة لمعركة بالاسلحة النارية . كما ان تنظيم « لوفوا » لقوافل العربات الصغيرة والكبيرة ، والمخازن على مقربة من الحدود ، ومستودعات الاعلاف ، أتاح للفرنسيين دخول المعركة قبل غيرهم واخذ اعدائهم على حين غرة منذ انتهاء فصل الامطار . ولمهاجمة المواقع المحصنة ، احكم « فوبان » جهاز الخنادق « الموازية » لتحصينات العدو ، بغية ايواء مدافع النقب ، وجهاز الحفر المعوجة بغية التقدم تدريجياً . اما للدفاع فقد أخفى الحدران في خنادق عميقة لا تبرز منها فوق الارض سوى متاريس ترابية تنغرز فيها القذائف دون ان تخلخل شيئاً ويسهل اعادتها الى ما كانت عليـــه . وشبك نيران ابراج الحصون . « المدينة التي يحاصرها « فوبان » ساقطة حتما ؛ والمدينة التي يدافع عنها فوبان ممتنعة الفتح » . فاستطاع قادة نخبة ، كـ«تورين» وكونديه ، اكثر من أي يوم مضى، السعي وراء معركة التدمير ، «وحجب المواقع كـ«ما يسترخت » في السنة ١٦٧٢ ، والانقضاض خطا مستقيما على قلب بلاد الاعداء ، كما في هولندا . وكانت الستراتيجية الفرنسية ستراتيجية الحرب الصاعقة . وهي لم تصادف الفشل في هولندا الا بفعل غمر البلاد بالمياه .

بعد السنة ١٦٨٠ اخذت الجيوش ، رويداً رويداً ، تفقد فعاليتها وقدرتها على المناورة . وكان ذلك نتيجة استخدام البندقية التي كملها فوبان باضافة الحربة اليها في السنة ١٦٨٧ ، والتي عم استعمالها في كافه الجيوش الاجنبية منذ حرب حلف اوغزبورغ ، وفي الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٠٣ . والبندقية ، في جوهرها ، قطعة فولاذية تطرقها صوانة حـــين يطلق الزنبرك .

يزند الطرق شرارات تشعل النار في بارود الخزنة الذي ينقل النار بدوره الى البارود الموجود في مدفع السلاح ، بواسطة ثقب صغير يعرف بثقب اشعال البارود . ثم اطلق اسم البندقية على السلاح الناري بكامله . جاء هذا السلاح اسهل استعمالا واقل خطراً من البندقية القديمة ذات الفتيل. فما عاد الجندي ليشغل باله بالحوادث التي قد يسببها الفتيل المشتعل اثناء حشوه البندقية؛ وما عاد ليتقيد بطول معين للفتيل حتى يصادف سقوطه على بارود الخزنة ؛ فقد اصبح باستطاعته ان يحرك سلاحه على هواه بالقرب من رفيقه او في وسط الدوالي والاشجار،وان يحشوه ويطلق النار بسرعة . منذ ذاك الحين ، غـــدت نيران المشاة وسيلة المعركة الاولى ، وشكلت فرق المشاة ، وهي ملكة المعارك ، حتى خمسة اسداس مجموع الجيوش . ولكن ما لفت انتباه القادة هو سرعة اطلاق النار في البندقية ، طلقة في الدقيقة،والاطلاقات الكتابية الكثيرة (التي أخرت اعتمادها في الجيش الفرنسي) . لذلك كان عنوان الكمال في نظر القادة اطلاق نيران الاسلحة في آن واحد ، وغايتهم المنشودة التوصل الى اطلاقها باستمرار ، ومدّ سماط من الرصاص امام جبهة الجيوش ، وانشاء جدار من نار في سبيل بلوغ هذه الغاية . رتبوا الجيوش صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . ولكن القادة استمروا في اعتماد الصفوف الخمسة عمقـــاً والخطوات الاربـع او الخمس مسافة وبعداً ، في حال ان الاطمئنان الى السلاح الجديد كان يسمح باعتماد الخطوة الواحدة مسافة وبعداً بين الجنود ، وسرعة الاطلاق باعتماد الصفوف الثلاثة عمقاً فقط . وبسبب عـدم توفر الوسائل للانتقال من الصف المتلاحق الى الصف المتلاصق ومن الصف المتلاصق الى الصف المتلاحق ، توجب ، كما في الماضي ، مجابهة العدو على بعض المسافة والهجوم عليه ببطء ، وتوزيع الجنود هنا وهناك في الحقول . يضاف الى ذلك زوال فرق مطلقي النار بتواتر ، خلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، باستثناء خمسين رجلا في كل فوج . ومرد ذلك الى ان استعمال البندقية قد أمن السلاح الضروري لصد العدو بنيران محكمة التصويب ، بنيران قاتلة ، فلم يعد من مبرر حقيقي لاستخدامهم . الا ان القـــادة الفرنسيين ، الدوق « دي لوكسمبورغ » ، « لورج » ، « بوفلر » ، « كاتينا » ، واندادهم ، « لويس دي باد » ، منتخب بافيير و غليوم دورانج ، ابان حرب حلف اوغزبورغ ، و « فندوم » و « فيليه » و « برويك » من جهة ، والامير « اوجين» و « تشرشل » والدوق « دي مارلبورو » من جهة ثانية ، ابان حرب خلافة عرش أسبانيـا ، لم يتخلوا يوماً عن فكرة معركة التدمير التي ستنتهي حتما بسقوط المواقع المحصنة. ولكن الصف جعل جيوش حرب خلافة عرش أسبانيا اقل قدرة على المناورة والحركة مـــن جيوش تورين وكونديه . وقد حافظ لويس الرابع عشر على رباطة جأشه في أسوأ ساعات الحرب لانه كان مقتنعاً ، كما قال مراراً ، باستحالة انهزام هذه الجيوش الجرارة انهزاماً كاملا .

بسبب نقائص جيوش البر والبحر هذه،فشلت كل محاولات الحرب الصاعقة والاندفاع حتى المراكز الحيوية . فشلت في السنوات ١٦٨٩ - ١٦٩١ محاولات انزال الجيوش الفرنسيـــة في انكلترا ، بينما التزم الفرنسيون حربا دفاعية على الحدود البرية ، وفشل في السنة ١٧٠٢ الهجوم

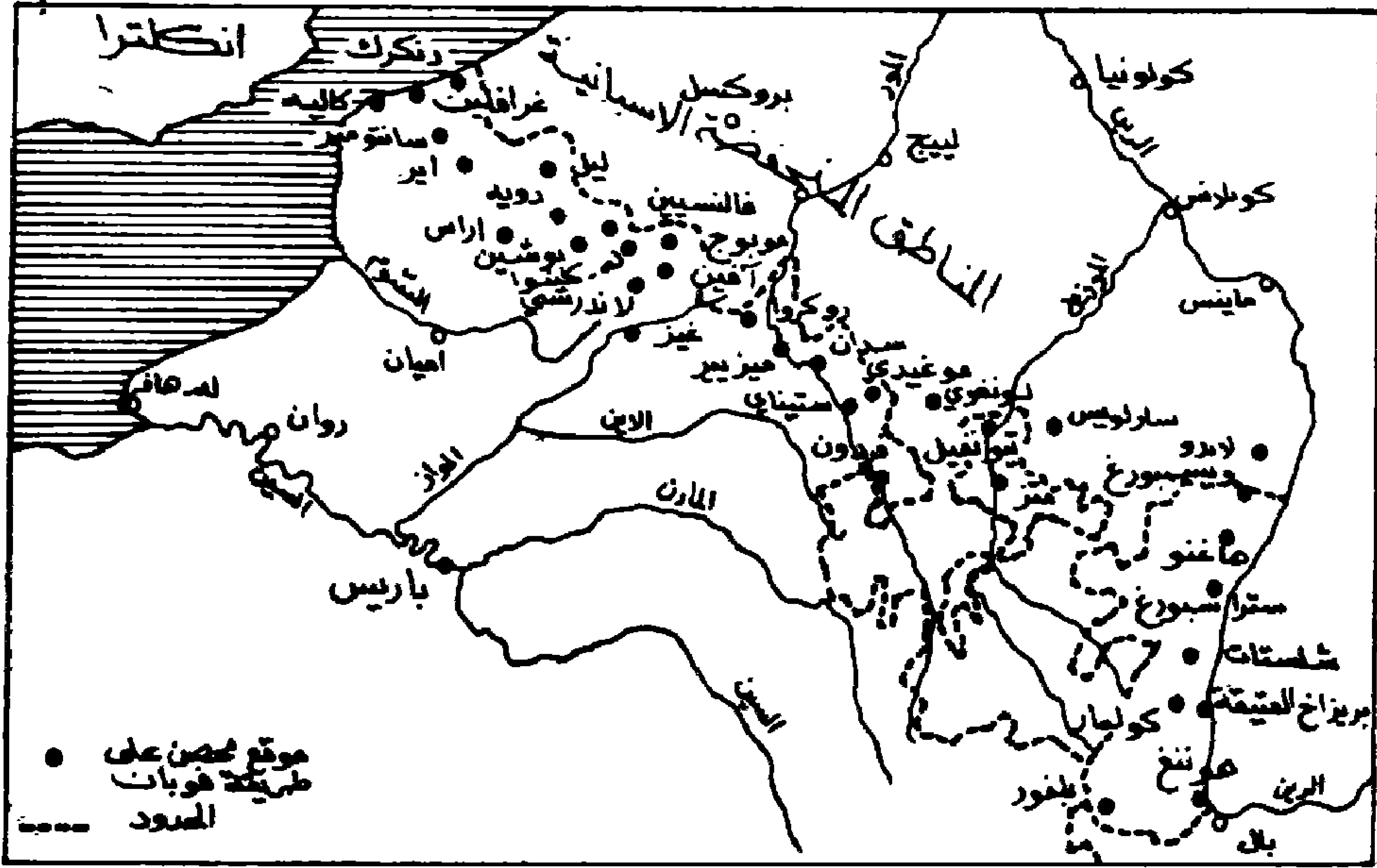
المركز على فيينا الذي رسمه لويس الرابع عشر ؛ وفشل الحلفاء في التوصل الى غير فتح الولايات ؛ « بافيير » بعد « بلنهايم » (١٧٠٤) ، و « برابان » و « فلاندر » بعد « راميي » (١٧٠٦) . اضف الى ذلك ان بعض طرائق الدفاع قد أخرت تقدم الجيوش . فالفرنسيون قد اجتاحوا البالاتينا تكراراً لحماية الرين . وفي السنة ١٦٨٩ ، احرقوا هيدلبرغ ، ونسفوا قصرها العائد الى عهد النهضة . ودمروا مانهايم وسبير و « وورمز » و « بنجن » . وبعد اودنارد ، عجز الحلفاء عن الانقضاض على باريس لان جيشاً فرنسياً مؤلفاً من ٨٠٠٠٠ رجل،هزم دون ان يقضى عليه، ما زال يهددهم من الوراء ، ولانهم اصطدموا بـ « الحدود الحديدية » المعروفة باسم فوبان ، وهي جهاز دفاعي بناه فوبان ووضع تصميمه لويس الرابع عشر . تألف هذا الجهاز من سلسلة مواقع محصنة تتصل فيا بينها بمواقع محصنة ثانوية ، ويقوم وراءها وبموازاتها خط دفاعي ثان . وكان الهدف منه اقفال طريق الغزو : مجازات الواز و « سيدان » و « فروار » و « بلفور » وسافوا العليا . وهو ما ساعد فرنسا على الصمود .

التوازن الاوروبي

وهكذا تحولت الحروب الى حروب انهاك وافناء . استخدم المحاربون كل وسيلة تساعدهم على احراز النصر . استخدم الحلفاء البروتستانت الفرنسيين . فقام هؤلاء في كل مكان بالدعاوة ضد الفرنسيين وتجسسوا وتآمروا لمصلحة الاجانب . وقد نظم «جوريو» ما بين السنة ١٦٩٢ والسنة ١٧٠٥ ، وباموال الوزراء الانكليز ، شبكة جاسوسية كاملة الحلقات . وحرض « بروسّون » و « فيفان » بروتستانت منطقة الـ « سيفين » و « فالديي » اقليم « دوفينيه » على التمرد والثورة . وقد هدفا من وراء هذه الثورات الى تسهيل دخول الجيوش الاجنبية ، ووزعا ذهب العدو بوفرة . فساعدت ثورة « كاميزار » « السيفين » ، في السنة ١٧١٠ ، على انزال الجيوش الانكليزية في « سيت » و « آغد » . وقد حسب البروتستانت على الرغم من تحذيرات « بايل » ، ان الحلفاء المنتصرين سيشترطون على لويس الرابع عشر عودتهم الى فرنسا . ولكن الحلفاء لم يأتوا على ذكرهم اثناء المفاوضات . واخيرا وضع العياء والنهكة حداً للنزاعات المسلحة . فاضطر المحاربون الى التسليم بتقاسم الاراضي والسلطة والنفوذ. قبل الحلفاء مكرهين ، في معاهدة ريسويك (١٦٩٧) بالتخلي عن فكرة اعادة فرنسا الى حدود السنة ١٦٤٨ والسنة ١٦٥٩ ، وقبل لويس الرابع عشر مكرها ايضا بالتخلي عن اللورين وعن حصون ضفة الرين اليمنى . وفي معاهدتي اوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤) ، قبل لويس الرابع عشر والامبراطور مرغمين بتقاسم خلافة اسبانيا . فاحتفظ فيليب الخامس باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وامبراطور النمسا شارل السادس بالمناطق المنخفضة ومنطقة ميلانو والحصون التوسكانية ونابولي وسردينيا ؛ اما لويس الرابع عشر فكان نصيبه انه حال دون تجدد امبراطورية شارل الخامس واحلّ احد افراد سلالة بوربون على العرش الاسباني . وهكذا لم تتوفق اية قوّة برية الى السلطة الشاملة .

الحدود ـ الخطوط والدول ـ القطائل

انتظمت الحدود بين الدول تدريجياً بموجب معاهدة نيميغ والمعاهدات التي تلتها . تخلت فرنسا شيئاً فشيئاً عن مواقعها المحصنة في اراضي الاعـداء ، وكانت لها بمثابة « ابواب » لهجوم مستقبل : سالوس وبينيرول في ايطاليا ، فريبورغ وبريزاخ وكهل وفيليبسبورغ على ضفـة الرين اليمنى ، « شارلروا » و « اودنارد » ، « وآت » و « منين » و « ايبر » و « دكسمود » وتورنيه الخ ، في المناطق المنخفضة الاسبانية. وازالت فرنسا شيئاً فشيئاً الجيوب الاجنبية في داخل المملكة . فلم يبق في السنة ١٧١٣ سوى ثلمة واحدة هامة هي اللورين . فقد جرى الانتقال اذن ، في هذا العهد ، من الحدود — المناطق القديمة الى الحدود — الخطوط في مفهوم الدول المعاصرة ، التي تعينها الامات الدفاعية ، كقمم



الشكل ١٢ ـ حدود فوبان الحديدية

سلاسل الجبال ، والانهار المحاطة بخنادق محفورة في الارض ، كما في الفلاندر ، والحـدود المجهزة بالحصون ؛ فقد قابلت « الحدود الحديدية » مثلا حصون « الحاجز » الهولندية . وفكر الساسة ، على الرغم من حكمتهم العملية ، بجعل الحدود فاصلا بين اللغات والحضارات . فجاءت هـذه الحدود دليلا على ان الدول اقتربت من الحد الاقصى لتوسعها وانها ستتصادم تصادماً مباشراً ، واوضح الدبلوماسيون مفهوم الدولة — القطيلة ، كسافوا ، بيمون ، وبالاتينـا ، ومنتخبية كولونيا ، التي القي على عاتقها عبء الفصل بين الدول الكبيرة وابطاء هجمات الجيوش والحـدّ منها . ولكن هذا الدور المرهق قد أخضعها لسنّة الاقوى ، اي للانكليزي .

الحق العام الجديد

توصلت الدولتان البحريتان ، انكلترا وهولندا ، في معـاهدتي ريسويك واوترخت ، الى اقرار حق عام جديد مبني على مبادىء العقد . وقد اعترف لويس الرابـع عشر واوروبا ، على مرتين ، بشرعية ملوك تولوا سلطاتهم ، بعد ثورة السنة ١٦١٨ ،

بموجب عقد مع الشعب الانكليزي لا بموجب حق إلهي يكسبهم اياه نسبهم ، غليوم دورانج وماري، ثم الملكة « آن » . لا بل ان الانكليز والهولنديين قد ادخلوا هذا الحق العام الجديد ، الى حد ما ، عند جيرانهم في البر الاوروبي . ففي ريسويك واوترخت طالب الهولنديون بالحاح بتسجيل المعاهدتين في مجلس باريس التمثيلي ، كما لو كان هذا التسجيل يضيف الى توقيع الملك ضمانة اخرى . وفي اوترخت ، فرض الانكليز تنازل فيليب الخامس عن عرش فرنسا ، وتنازل الدوق « دي برّي » والدوق « دورليان » عن عرش أسبانيا ، وهي تنازلات باطلة بموجب مفهوم حق السلطة المطلقة الصرف ، وطالبوا ، اسوة بالهولنديين ، بتسجيل المعاهدة في المجلس. فاضعفوا بذلك اعداءهم ، لا بمنع فرنسا من ضم عرش اسبانيا فحسب ، بل بتعزيز مدعيات مجلس باريس التمثيلي ، المؤلف من قضاة يملكون وظائفهم ويتميزون بنزعاتهم الارستوقراطية والاقطاعية ، وبمعارضتهم لتعاظم سلطة الدولة.وبتوسع نطاق حقهم العام ، الملائم لبلاد مرتفعة النسبة البورجوازية ، والمتنافي والوضع الاجتماعي في فرنسا ، حيث ما كان ليخدم الا مصالح الارستوقراطيات الرجعية ، أعاق الانكليز ، على غير علم منهم في الارجح ، تطور الامة الطبيعي واضعفوا الدولة .

انقسامات اوروبا ورجحان النفوذ الانكليزي

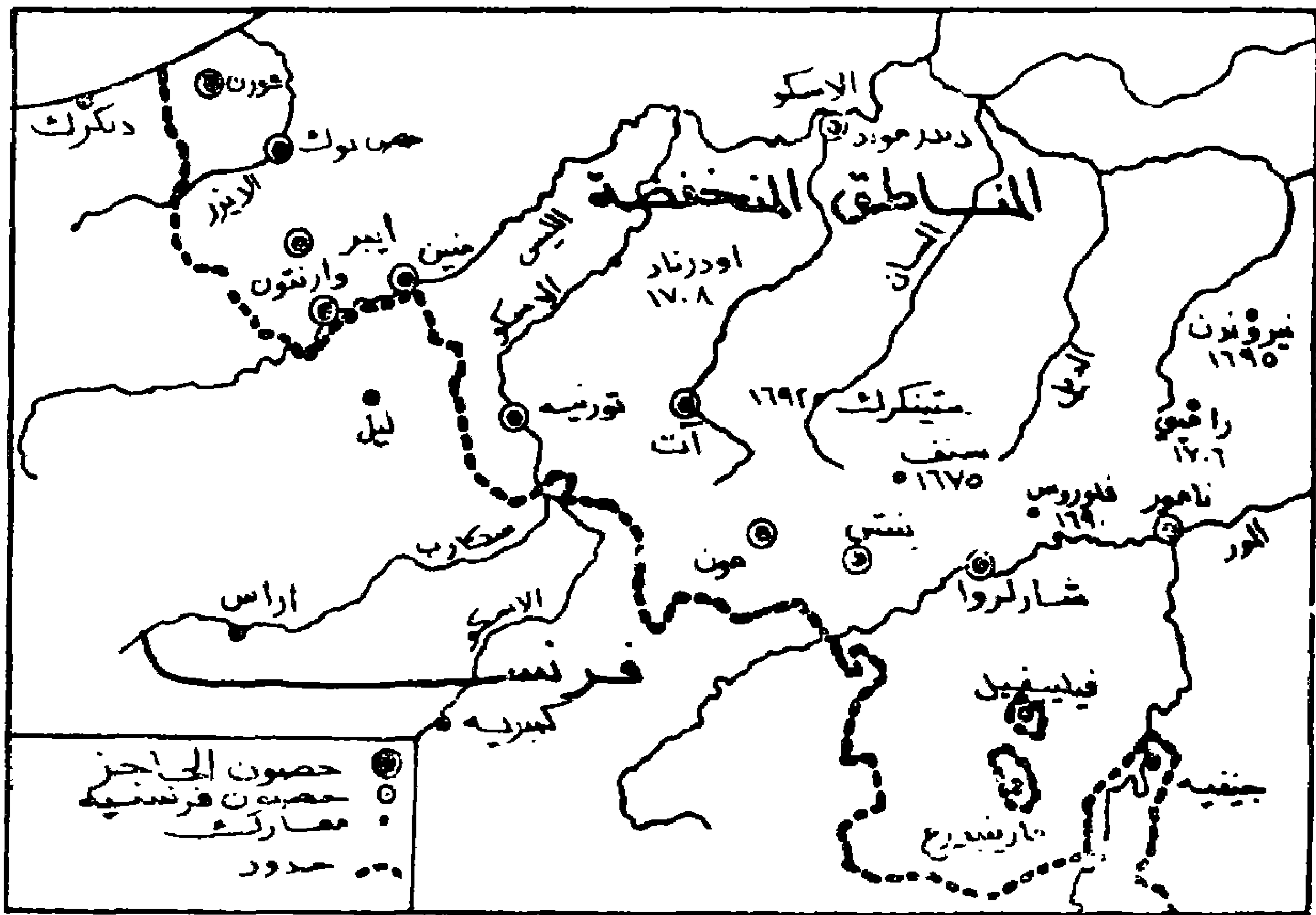
أخيراً ، توصل الانكليز الى بسط نفوذهم السياسي والبحري والتجاري . فقد أتاحت انقسامات الاوروبيين التي توفقت معاهدتا اوترخت الى تغذيتها وسمها ، سيطرة الانكليز على الطرق البحرية الرئيسية والاسواق التجارية الهامة . قسمت شواطىء بحر الشمال المحفوفة بالاخطار بين ملكين متعاديين هما لويس الرابع عشر وشارل السادس . فبقيت أنفرس مقفلة وسطع نجم لندن . ووفر النزاع بين الاسوجيين من جهة وبين الدانمركيين والبروسيين والروس من جهة اخرى ، امكانات المناورة لاحراز المكاسب في بحر البلطيك والمضائق الدانمركية .

قسمت مجازات البحر المتوسط بين عدوين عنيدين هما شارل السادس وفيليب الخامس ؛ اما الانكليز ، مالكو مضيق جبل طارق وجزيرة مينورك ، فقد راقبوا مدخل البحر المتوسط الى الاوقيانوس ، وحوض المتوسط الغربي الى الحوض الشرقي ، واحرزت شركتهم التركية بعض المكاسب في ايطاليا وفي موانىء الشرق الاوسط على الفرنسيين .

منذ السنة ١٧٠٣ ، اعطت معاهدة « ميتوين » الانكليز احتكار الاسواق البرتغالية والبرازيلية وانتزعت معاهدتا اوترخت الامبراطورية الاسبانية من الفرنسيين وفتحت امام الانكليز اسواق اسبانيا بتخفيض الرسوم على اقمشتهم الصوفية وباعطائهم الافضلية على غيرهم ، واسواق اميركا باعطائهم احتكار توريد العبيد الزنوج وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات كل سنة الى بعض موانىء اميركا الاسبانية . وفي الانحاء الاخرى من أميركا ، انتزع الانكليز من الفرنسيين

جون « هدسون » مع رجحان النفوذ في تجارة الفراء، واكاديا والارض الجديدة مع رجحان النفوذ في صيد الاسماك ، وسان كريستوف مع منتوجها من السكر .

وهكذا توصل الانكليز الى ارساء أولويتهم تحت ستار الدفاع عن الحريات الاوروبية وعن حقوق الانسان ضد لويس الرابع عشر . وبفضل التوازن الاوروبي الذي تحقق في البر بين الدول الكبرى ، وخشية فرنسا ، والارتيابات والمنافسات المتبادلة ، استطاع الانكليز ، أسياد البحار وتجارة العالم ، المحافظة عليها . فللمرة الاولى منذ القرون الوسطى بسطت دولة بحرية نفوذها على البر الاوروبي ، وللمرة الاولى رافقت النفوذ ظروف جعلته يبدو وكأنه تحرير وانقاذ .



الشكل ١٣ ـ حصون الحاجز التي احتلها الهولنديون (معاهدة اوترخت ، ١٧١٥)

القوميات

كان من شأن هذه الحروب انها حركت التشامخ القومي . فقد اعترف لاوروبا في مجموعها بعبقرية خاصة ؛ وانتشرت الكلاسيكية واللغة الفرنسية في كل مكان؛ ولكن ذلك لم يمنع كل دولة من ان تعتبر نفسها متفوقة على ما سواها ، او بالاحرى جامعة وحدها المجد من أطرافه . وجاء في مؤلف اديسون، «سبكتاتور»، ان الازهار هي رمز الامم: فرائحة أزهار ايطاليا ذا فرة تنفـّر من يشمها ؛ ورائحة ازهار فرنسا الزاهية والفاتنة ضعيفة وعابرة ؛ أما أزهار المانيا فلا رائحة لها عموماً : واذا انتشرت منها رائحة ما فرائحة كريهة . وتخيل الفرنسي « لو ساج » انكليزا قساة يقدمون الغليون والجعة لسيدة أفكارهم ، والمانيا

غلاظاً ، مفككوكي الازرار ، سكارى ، غارقين في قذارة التبغ ، متمرغين حول طاولة تغمرها فضلات افراطهم في الاكل والشرب . وأكد « بوفندورف » و « ليبنيز » ان الحق الجرماني سابق لكل ما سواه من حقوق ومتفوق عليها ، وان اللغة الالمانية ، التي ليست دون اللغة اللاتينية قدماً وجمالاً ، ترتقي الى اصول العالم ، وان الشعر الالماني لا يعلو عليه شعر آخر . ولعل الاوروبيين لم يعوا ما يوحدهم وعيهم للاختلافات والمنافسات القائمة بينهم .

اضف الى ذلك ان الطباع الفردية جبارة . فالانكليز يقبلون بنتائج الاختبار في العلوم ، ولو لم تسمح بتكوين افكار واضحة كل الوضوح؛ اما الفرنسيون فيتمسكون بهذه الاخيرة ويميلون الى بناء البراهين المتسلسلة المستخلصة خير استخلاص ؛ وأما الالمان فيصعب عليهم القول بالآلية البحتة ويسلّمون ابداً بالقوى الخفية ، وبالارواح تقريباً.

٢ – الحرب وأزمة الدولة

ما زالت طريقة الانتاج ، وحركة تداول المعادن الثمينة ، والنقد ، والاسعار ، اسبابا هامة من اسباب الازمة ، كما سبقت الاشارة الى ذلك في مستهل هذه الدراسة حول القرن السابع عشر . وتفاقمت كافة اسباب الازمة بفعل الحروب الطويلة وما رافقها من قتل وخراب ، وهدر القوى والوقت في انتاج ما هو عقيم وزائل (كالبارود والقذائف والاسلحة) ، وتحويل المال عن وظائفه الاقتصادية العادية لاجل حاجات الدولة ، وتحوير توزيع الدخول لمنفعة رجال المال وموالي الجنود . فبرزت مظاهر جديدة للازمة . ولكن الحروب احدثت نتائج مختلفة باختلاف نظام الدولة المعنية ، على انها استعجلت في كل مكان تطوراً ما زال في مرحلته الاولى ، فلم يكن الجديد جديداً بصورة كلية ومطلقة ، وغدت الدول والمجتمعات اشد اختلافاً بعضها عن بعضها الآخر .

انكلترا
التصلب الرأسمالي

ما زالت الرأسمالية التجارية سائرة في طريق النمو ، يرافقها تصلب الفردية النفعية المعادية للمذهب القائل بان الملكية وظيفة عامة . وقد ُنظر اكثر فأكثر الى مهن التجار والمزارعين والبحارة كما الى رسالات ، او كما الى استجابات لدعوة الله . فظهرت كتب تقرأ من عناوينها : « المعنى الروحي لعمل الحقول (١٦٦٩) » و « المعنى الروحي للملاحة » (١٦٨٢) » و « رسالة التاجر » (ريتشارد ستيل ، ١٦٨٤) . المسيحي يخلص بالايمان ، ولكن الايمان الحقيقي هو ذاك الذي يولد الاعمال ، والانسان سيحاكم على اعماله . ان التاجر ، كالراعي ، مدعو لعمل خاص لاجل الخير العام . فواجبه كمسيحي يفرض عليه من ثم الانصراف بكل قوته الى شؤونه . ولكن الدليل على ان المسيحي قد عمل ما في وسعه وكان امينا لرسالته ، وان الله قد بارك تجارته ، هو النجاح والكسب . احراز النجاح واجب ؛ واستخدام الفوائد التي

تضعها عناية الله بين يدي المسيحي فريضة الزامية . المسيحي يظفر بالثروة والحياة الابديــة في آن واحد ، ويرضي ، على خلاف ما جاء في الانجيل ، ربين في آن واحد : المال والله. الاندفاع وراء الكسب يصبح فضيلة ، والتقدم الاقتصادي غاية ، والانتاج المتزايد ابداً عبادة . فمكس الدين المسيحي ومهد السبيل أمام جشع الغني وتسلط الامة التجاري .

نجاحات الفردية النفعية

كان من نتيجة ثورات انكلترا انهــا انجحت تدريجياً ، بواسطة النظم السياسية الجديدة ، الفردية الاقتصادية والاجتماعية . ففي السنة ١٦٤١، ادى الغاء الغرفة المكوكبة والمحكمة العليا الى تحرير المالك والمتعهد الرأسمـالي . انتقلت اراض كثيرة ، بفعل المصادرات، الى ايدي تجار المدينة .وساعدت الحرب الاهلية على نجاح المتطرفين . وطالب « الممهدون » بحق التصويت للجميع وهدم الاسيجة والعودة الى الزراعة الجماعيـــة . وطالب « الكادحون » بتوزيع الاراضي وتحريرهم « من السلطة الملكية التي كانت في قبضـــة الاسياد » . ولكن المالكين والتجار اعتبروا الملكية حقاً سابقاً للدولة التي وجدت لحمايتــه . وقد ارتأى « ايرتون » وكرومول ان الملاكين دون غيرهم هم الذين يؤلفون الهيئة السياسية وان بمقدورهم استعمال ممتلكاتهم كما يطيب لهم دونما خضوع لرقابة رئيس أو لادعاءات الفقراء الذين ليس بؤسهم سوى قصاص لخطاياهم . رد المجلس التمثيلي العرائض المقدمة احتجاجاً على الاسيجة . ولكن الجمهورية (١٦٤٩ – ١٦٥٣) لم تبد قادرة على حماية الملكية ، وهذا هو احـد اسباب دكتاتورية كرومول « الحامي » (١٦٥٣ – ١٦٥٨) . وتغلب الرأي القـــائل « بان كل فرد سيعمل ما يؤمن له الدخل الاوفر ، على ضوء الطبيعة والعقل ... وان فائـــدة الفرد ستكون فائدة للمجموع » (١٦٥٦ ، « ج . لي » ، «تبرير تنظيم حق التسييج») . فخدم الجميع «اجمل سيدات العالم » ، اي إلهة الاعمال ، وليس وعي ذلك ما اعوز الهولنديين .

بعد اعادة الملكية ، في عهد شارل الثاني ، لم يطرأ اي تغيير على عدة نقاط سبق اقرارها : المجلس الخاص لا يتدخل بين المالكين والمتعهدين من جهة ، وبـــين الشركاء والاجراء من جهة ثانية ؛ الاشراف الريفيون يسيجون حقولهم بحرية بغيـــة زيادة انتاج الصوف والحنطة المعدين للبيع ؛ بطل العمل ، أو كاد ، بقانون الفقراء ، فاستطاعت الرأسمالية الزراعيـــة ان تتصرف تصرفاً طليقاً ، وكبار الملاكين ان يحولوا المشاركات الطويلة الاجل الى مشاركات اختياريـــة يسهل زيادة دخلها ، وان يرفعوا عدد المزارعين ويسيجوا الاملاك العامـــة في القرى . فغدت انكلترا من أهم مصدري الحنطة والصوف واللحوم الى البر الاوروبي ؛ كما ان نقل البضائع في السفن حدا بالمجهزين الى التسلح ؛ وغدت تجارة المستعمرات احدى اهم تجارات العـــالم ، وقد عززها فتح المستعمرات البرتغالية بعد زواج شارل الثاني من « كاترين دي براغانس » ، والتشدد في العمل بوثيقة الملاحة ، واحداث مجلس التجارة والمستعمرات .

ثورة السنة ١٦٨٨
وانتصار البورجوازية الرأسمالية

ولكن هذه الانطلاقة جرّت الى نزاع تجاري طويل الامد مع هولندا وفرنسا . رضي الرأسماليون الانكليز عن سياسة شارل الثاني ضد هولندا ، ولكنهم لم يرضوا عن موقفه ، ولا سيا عن موقف جاك الثاني ، من فرنسا التي غدت اخطر منافسة في التجارة والمستعمرات . واذا أقدم جاك الثاني من جهة ثانية على اعادة الكثلكة الى انكلترا بمساندة لويس الرابع عشر ، فيكون معنى ذلك اعادة مذهب « الملكية وظيفة عامة » ورقابة الدولة في آن واحد . فأدى الصراع الاقتصادي ضد فرنسا ، والصراع لاجل افضل دين يتفق والذهنية الرأسمالية ، الى ثورة السنة ١٦٨٨ .

تمثل ثورة السنة ١٦٨٨ انتصار البورجوازية الرأسمالية وتجار مدينة لندن والاشراف الريفيين المتخلقين باخلاق البورجوازيين بفعل الرأسمالية الزراعية . وقد مثلت عملياً انتصار نظرية الاتفاق المعقود بين الملك والامة . فان اللوردات والعموم قد اعلنوا غليوم دورانج وزوجته ماري ، ابنة جاك الثاني ، ملكا وملكة على انكلترا ، لانهما يضمنان احترام « بيان الحقوق » (١٦٨٩) ، وقد منعهما هذا البيان عن كافة الاعمال التي حاول آل ستيوارت بواسطتها الاحتفاظ بصلاحيات السيادة وبلوغ السلطة المطلقة : فلا قدرة لهما على الادعاء بالسلطة التشريعية ، لان ايقاف مفعول القوانين او الاعفاء من تنفيذها اعتبرا تصرفا غير شرعي ؛ ولا قدرة لهما على تجنيد جيش دائم بدون موافقة المجلس التمثيلي ، او جباية اموال لايقرها المجلس التمثيلي ؛ ولا قدرة لهما على المطالبة بصلاحيات استثنائية او بمحكمة من المفوضين للقضايا الكنسية ، ولا على تنظيم الحياة المدنية ومن ثم حياة رعاياهما اليومية بقرارات ينفردان باصدارها . واخيرا بات من حق كافة البروتستانت اقتناء الاسلحة وتشكيل ما يشبه حرساً قومياً بورجوازي النزعة .

لم يبق سوى الاعراب بالافعال عن رجحان نفوذ المجلس التمثيلي المعبر عنه ضمناً في هذا النص ، فجاءت الحرب ضد فرنسا بسبب الثورة تتيح ذلك . فكر المجلس التمثيلي ، في البداية ، بمنح غليوم وماري دخلاً مدى الحياة مقابل ادارة البلاد العادية الطبيعية : اي الادارة المدنية والعسكرية والبحرية في ايام السلم . فيكون للملك من ثم بعض الاستقلال . ولكن المجلس التمثيلي ، في ظروف الحرب ، كان يقر سنويا النفقات العسكرية والبحرية الاستثنائية . فتوصل من ذلك شيئاً فشيئاً الى اقرار نفقات الجيش والبحرية العادية التي خرجت نهائياً في السنة ١٦٩٥ من اختصاص الملك . ولم يقرر المجلس التمثيلي كذلك مرتب الملك الى لمدّة اربع او خمس سنوات ، وكان من تقتيره في تقريره ذلك ان المرتب لم يكن ، حوالي السنة ١٧١٣ ، سوى دخل شخصي صرف للملك ، دون ان يكون باستطاعة الملكة آن تسديد نفقات الحكم . فجرد الملك ، بكل ما للتعبير من معنى ، من دخوله ، وبات تابعاً كلياً للسلطة التشريعية . أما المجلس التمثيلي ، الذي غدا مسؤولا في حال العجز المالي ، فأخذ يراقب الحسابات والخدمات

والجهاز التنفيذي الملكي .

بيد ان المجلس الخاص الذي اندلعت الثورات تكراراً عليه قد استمر لتصريف الاعمال الجارية والادارة ، ولكنه حرم كل سلطة ؛ فانحصر دوره في اثبات القرارات المتخذة شرعاً . رسمت السياسة في الديوان ، وهو اجتماع يضم بعض الوزراء حول الملك . تألف الديوان في عهد شارل الثاني من بعض المقربين الى الملك ، ولكنه لم يضم في عهد الملكة آن سوى بعض رؤساء مصالح يحتل اللورد ـ الخازن بينهم مركز الصدارة . فبحسب تطور بدأ منذ السنة ١٦٦٧ ، أخذ الخازن شيئاً فشيئاً يتمتع بمزيد من النفوذ والقوة . وتألف الديوان ، الى جانب الخزانة، من بعض المفوضين . الى هؤلاء عاد ، اثناء الحرب وفي الضائقة المالية ، امر تنظيم الشؤون التي تتوقف عليها السياسة كلها . فمن جهة كان اعضاء الديوان يجتمعون فيه بحضور الملك او غيابه ، بحسب العهود ، ولكن المقررات السياسية الهامة ما كانت لتتخذ بدون رأي الخازن . ومن جهة ثانية كان الخازن يتقدم بالمقترحات من المجلس التمثيلي الذي يجتمع اعضاؤه في اللجان البرلمانية . فبدون ان يكون هنالك موازنة ، جرت العادة ، منذ السنة ١٦٩١ ، على تدوين القوانين المالية الصادرة عن البرلمان في مخطط الخزانة العام ، ولكن المجلس التمثيلي كان ينظم نشاط الحكومة والمصالح باقراره قيمة الاعتمادات وتوزيعها. وقد أمنت الخزانة ارتباط الحكومة بالمجلس التمثيلي بحيث يصعب التمييز بين الموّجه والموجَّه .

أثر الخزانة ومصرف انكلترا والمدينة

كان على الخزانة ان تأخذ بعين الاعتبار ما يبديه حاكم مصرف انكلترا ومدراؤه من آراء . احدث هذا المصرف في السنة ١٦٩٤ ، بغية تسليف وزارة المال المبالغ التي تحتاج اليها . فكر اللوردات ـ الخزَنة ، أثناء الضائقة المالية التي أدت اليها الحرب ضد فرنسا ، بتوزيع النفقات على سنوات عدة بتحويلها الى دين قومي ، بحيث لا يتوجب عليهم سوى دفع الفوائد كل سنة فقدم بعض المكتتبين الى وزارة المال سلفة اولى بلغت قيمتها ٠٠٠ ٢٠٠ ١ جنيه وتألفت منهم هيئة باسم « حاكم وشركة مصرف انكلترا » . اعطي المصرف الحق في تبديل السفتجات وشراء السبائك وبيعها وتقديم سلفات للافراد واصدار نقد ورقي . وكان المصرف على اتصال يومي بالخزانة. وهم عملاؤه في أنفرس وامستردام وهمبورغ ولشبونا ومدريد والبندقية من أتاحوا للحكومة تمويل الحرب . وبواسطته كان للرأسماليين الانكليز اثرهم حتى في مجلس الوزراء .

واخيراً ، ساعدت مدينة لندن المجلس التمثيلي والمصرف على فرض وجهات نظرهما على الملك . ضمت لندن ٠٠٠ ٨٠٠ نفس ، اي ضعف سكان باريس ، واحتكرت ٩/١٠ النشاط الانكليزي ، ولعبت دور الوسيط التجاري والمالي بالنسبة للقسم الاكبر من انكلترا. وشعر كل سكانها متضامنين بقسطهم من المسؤولية في ازدهار التجارة الانكليزية، وكان مركز الحكومة قريباً من المدينة . فكان خطر الثورة قوة رأسمالية اضافية .

قاعدة الميزان السياسي

لم تتلاش سلطة الملك نهائياً. فالوزراء مسؤولون امامه أولاً. ولا يزال في جعبته وسيلة قوية للتأثير على رجال السياسة : هي الوظائف العامة ، المتزايدة تزايداً مطرداً في أيام الحرب ، التي يسندها الى من يشاء في الجيش والبحرية والادارة المدنية . ولكن سلطته محدودة .

المشاريع التجارية الحرة وانشراح البورجوازي

استطاع الرأسماليون العقاريون والتجار ، من ثم ، ادارة الحياة الاقتصادية . المجلس يوجهها وفاقاً لآرائهم بقوانين عامة ، والحرص على استقرار النقد ، وتعزيز وثيقة الملاحة ، وحركة الرسوم الجمركية والضرائب غير المباشرة . فالدولة توفر بذلك الظروف المؤاتية لحرية نشاط اصحاب المشاريع ، ولكنها تمتنع عن اثبات وجودها بقرارات ادارية يومية . لا تدخل بعد السنة ١٦٨٨ من قبل الحكومة في شؤون الادارة المحلية . فزمام هذه الاخيرة في ايدي الاعيان ، اسياد الرعايا ، وحرية تأسيس المشاريع تامة مطلقة . لذلك انطلقت الرأسمالية انطلاقة كبرى . « تجارتنا اعظم تجارة في العالم » . وتوسعت طبقة المتمولين والتجار . ولكن الرأسماليين العقاريين اتهموهم باستغلال الحروب لمصلحتهم ، وثار ثائرهم عندما رأوهم يشترون الاراضي ويصبحون قضاة ومدراء كونتيات ينافسونهم في مناصب الكنيسة والدولة . الا ان التضاد بينهم ليس عميق الجذور ، فكثير من مصالحهم مشتركة ، ولم يغرب ذلك الا عن بال القلة النادرة منهم . فليس في انكلترا جمارك داخلية . انها تؤلف سوقاً قومية تتسع في السنة ١٧٠٧ باتحادها مع سكتلندا تحت اسم المملكة المتحدة . التاجر يتوجه حيث يريد لشراء الحنطة التي يبيعها في المناطق النائية ويفتح في كل مكان اسواقاً لتصريف بضائع المنتجين . الصناعة متشتتة جداً : ففي كل مكان مناجم ومشاريع مختلفة تشكل اسواقاً للمواد الغذائية . الرأسماليون العقاريون يضاربون في مصفق لندن ويسهمون في اقراض الدولة وفي عمليات رجال المال . اشقاؤهم الاصغر منهم سناً يصبحون متمولين وتجاراً . لذلك بات البورجوازي في انكلترا ، مثل الانسانية الاعلى . منذ السنة ١٧٠٩ ، سخر اديسون وستيل في مطبوعتيهما الدوريتين ، « سبكتاتور » و « تاتلر » ، من الالقاب التي يمنحها النسب واخلاق طبقة الاشراف والمبارزة والمقامرة ، ومن فئة المنصرفين الى شؤون الفكر ايضاً ، المنشغلين ابداً بالفنون الجميلة والآداب . النفع الاجتماعي هو الجوهر . يجب الانصراف الى التجارة والفنون الآلية والتوفير . فصديق الجنس البشري ، من ثم ، هو التاجر الذي يشرك كل البلدان في اليسار الشامل .

« أما نحن التجار فأشبه بطبقة من النبلاء تكونت في العالم خلال القرن السالف ... ان التاجر التاجر خير من في البلاد من اشراف » .

التاجر هو « الاديب » (*Gentleman*) . الفقر في نظره دليل العيب . الفقراء كسالى ومتكبرون . فالاحسان ، فردياً كان أو تطبيقاً لقانون الفقراء ، ليس محبة حقيقية . المحبة

الحقيقية هي اصلاح الطبع بغية اغناء الفقير عن تلقي المساعدة . الاسعار المرتفعة بركة مـن الله لانها ترغم على مضاعفة العمل ؛ أما الاجور المرتفعة فكارثة ، لأنها تشجع على الفجور الاسبوعي (ديفو ، ١٧٠٤) .

لذلك كانت الحياة الفكرية الانكليزية معقولة وعملية ونفعية قبـل اي شيء آخر . ولذلك نجح العلم الاختباري والفلسفة الاختبارية . نشر « نيوتون » ، في السنة ١٦٨٧ ، « المبـادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية » . وطبق « وليم بتي » و « غريغوري كنغ » و « دافننت » روح الجهاز الآلي على دراسة المجتمعات واسسوا « الحساب السياسي » . ورسم « لوك » المثل الفلسفي والانساني الاعلى لهذا المجتمع البورجوازي في « محاولات » ثلاث : « الحكومـة المدنية » ، « العقل البشري » ، « تربية الاولاد » . وقاد مذهب العقليين بعضهم الى الدين الطبيعي وانكار الوحي : « جون تولند » (١٦٩٦) و « كولنز » والملحدين . وعرفت الصحافة الدورية نجاحاً كبيراً . ففي عهد اتساع النشاطات القومية هذا ، استلمت انكلترا زمـام الحركة الفكرية الاوروبية .

الانكليز فخورون جداً بنظمهم ، وهم يعتبرون انهم مدينون لها بانتصارهم وباثبات تفوقهم على الملكية المطلقة ، وانها المثل الاعلى للحكومة الفضلى . ولكنهم ينسون انهم مدينون بالنصر الى حلف لعبت فيه الملكية النمساوية المطلقة دوراً اولياً . انتصر الانكليز باثارة ملكية مطلقة على ملكية مطلقة ، ولم يأت النصر حاسماً على كل حال .

سبّب التطبع بإطباع البورجوازية انهيار الاخلاق الرفيعة ، فبرهنت الطبقات العليـا عن تعطش لا يروى للمال وعن اخلاق فاسدة وداعرة ، وتميز الشعب بالفظاظة والاهواء العنيفـة . وهوت الامة في مادية فظيعة . فانفجرت في كل مكان ، حوالي السنة ١٧١٥ ، الشكاوى والفتن والثورات ضد سيطرة التجار ورجال المال . فاضطر المجلس التمثيلي الى اعـلان الحكم العرفي في بلاد الحرية هذه .

الاقاليم المتحدة

فرضت الحرب دكتاتورية غليوم دورانج . ولكنه توفي عقيماً في السنة ١٧٠٢ ، ولم يكن في سلالة اورانج من هو جدير بخلافته ، فاستغني عـن منصب رئاسة السلطة التنفيذيـة . سار الاورانجيون وراء رئيس السلطة التنفيذية هينسيوس ، خليفة غليوم دورانج ، الذي واصل سياسته بالعناد العبوس نفسه . وبسبب الحرب انضم الحزب الجمهوري والبورجوازي الى شخصه . فاحتفظت الحكومة حتى معاهـدة الصلح بقوة كفية . ولكن الغلبة تأمنت بعد ذلك للاوليغارشية البورجوازية .

كانت الحرب ثقيلة الوطأة جداً على الاقاليم المتحدة . بلغ الدين ٢٥٠ مليون فلورين يقابلها دخل سنوي يقدر بـ ١٣ مليوناً . فأدى ابتلاع هذه الاموال والمنافسة الانكليزية التي اقفلت الاسواق التجارية الى انهيار البحرية والتجارة وصيد الاسماك . ولم تتوصـل الاقاليم الى حفظ

حد ادنى من التوازن الا بفضل المصرف والقروض من الخارج . ففـدت بلد المضاربين وذوي الدخول بعد ان كانت بلد اصحاب المشاريـع ومجهزي السفن والتجار والصناعيين . « لم يعرف التاريخ يهوديا أبعد يهودية من بعضهم » (مونتسكيو) . ورافق هذا النوع المتدني من النشاط ، الذي عقب مجهوداً عسكريا تجاوز قوة البلاد المادية والادبية ، انهيار العزائم وزوال القـوة الخلاقة الذي زال معه كل مثل اعلى . وسعى البورجوازيون وراء المتعة . فبنـوا لانفسهم بيوتا وفرت فيها الفروش والمدبجات ، والطنافس المفرصة بالذهب ، والمداخن المرتفعة ذات الاعمدة المرمرية ، واللوحات الثمينة ، والاواني الذهبية والفضية . وكانت روح التضامن العام سائرة في طريق الانهيار الكامل ، فليس بعد من يهتم للمصلحة العامة . وغدت المحسوبية والرشوة قاعدة تمشي عليها هؤلاء البورجوازيون الذين احتكروا الوظائف العامة . كما غدت هـدايا ملتزمي الدخول العامة للقضاة أمراً مألوفاً . ولن يلبث أحد المؤرخين ان يسخر من البحارة الذين آثروا اثناء حرب الاستقلال ، نسف العدو لسفنهم على اخفاض البيرق استسلاماً . امـا الميل الى الآداب والفنون فقد افسح المجال للميل الى المعارف المفيدة كالقانون والعلوم الاختبارية . وفترت الروح الدينية ، فارتفع عـدد المقلبين القائلين بالدين الطبيعي . وتدهور الحس الفني القومي : فشيد فندقا « قيصر غراخت » و « هيرغراخت » الكبيران على الطراز الذي يحمـل اسم لويس الرابـع عشر ؛ واعاد الرسامون النماذج الايطالية كما لو كانوا مجرد تماثيـل متحركة » . وانحط الشعب بفعل بؤسه المتزايد فغدا متـولا وقحاً . واصيبت الامة بالهزال .

فرنسا
دكتاتورية الحكم

تفجرت في فرنسا ازمة حادة بفعل ندرة النقد وانخفاض الاسعار العـام والعواقب الاقتصادية الوخيمة لـ « فناءي » ١٦٩٣ – ١٦٩٤ و ١٧٠٩ – ١٧١٠ ، ولا سيما المجهود الحربي الذي زاد في الطين بلة . الملك يحكم حكماً مباشراً مطرداً ، بمعاونة مفوضيه ، فتبرز الصبغة التعسفية والدكتاتورية للملكيـة المطلقة . فهو الملك وحده من يدرس الامور مع احد الوزراء ويتخذ القرارات ويجري الاصلاحات ويفرضها على مجالسه التي تناقصت جلساتها تناقصاً مطرداً والتي لا تستشار الا شكلاً . ويبرز انفراد الملك هذا في الدبلوماسية وتنسيق العمليات العسكرية واحداث الضرائب كالضريبة الشخصية والعشر . ويلعب الدور الاول بين الوزراء مراقب المالية العام ، « بونشارترين » ، « شاميار » ، « ده ماريه » (١٧٠٨ – ١٧١٥) ، الذي يطيب للملك العمل معه بالتفضيل على غيره . يشترك في اعمـال المجلس الاعلى الذي يوجه السياسة العامة ، ولرأيه فيه حول الاساليب والوسائل ، تأثير حاسم .

المكاتب

اضطر امناء سر الدولة الى زيادة عدد كتبتهم بسبب كثرة وأهمية الشؤون المتزايدة والحاجة الى الاسراع في العمل والضرب بقوة . في فرساي ، احتلت المكاتب وحدها بناءين طويلين على جانبي الدار الامامية ، أو دار الوزراء . وكان للوكلاء ، الذين أسند اليهم المزيد من الاعمال ، مكاتبهم ايضاً ، رئيسا كتبة أو ثلاثة ، وعدد من الكتبة ،

تولوا توجيه مراسلات ادارية منتظمة ، لا سيما الى المراقب العام ، وتكونت لديهم محفوظات كبيرة الحجم . ودرج الملك اكثر فأكثر على ابقائهم مدة اطول في مراكز عملهم : « دوغيه دي بانيول » ، ٢٤ سنة في ليل ؛ و « لامواتيون دي بافيل» ، ٣٠ سنة في اللنغدوك . فاصطبغوا بصبغة المدراء الدائمين . اختاروا لهم مندوبين ثانويين بين ضباط محاكم الارياف والمدن ليقيموهم في وجه ضباط المحاكم العليا . وعمت فرنسا شبكة من المفوضين الملكيين يعاونهم وكلاء الشرطة الذين عينوا في السنة ١٦٩٩ في كافة المدن الكبرى والمتوسطة، بعد نجاح هذه المؤسسة في باريس ، وقد استخدم هؤلاء المفوضون ، لجمع الضرائب وتنفيذ سياسة التموين ، احصاءات اكثر وفرة وافضل اتقاناً : احصاءات السكان ، تسجيل الميلادات ، الزواجات والوفيات ، جداول الاسعار ، بيانات حركة الاسعار .

النظام الاداري

في هذه المرحلة بالذات، وبسبب الحاجة الماسة الى جمع الضرائب واستخدامها لمشتريات الجيش ، وبسبب الحاجة الماسة الى العمل في الاقتصاد ، مصدر مطارح الضرائب ، لم تكتف ادارة الوكلاء بمنافسة ادارة الضباط فحسب ، بل حلت محلها احياناً . عمل الوكلاء مع ضباط المالية وراقبوهم في كل ما له صلة بالضرائب القديمة . ووقع عليهم وحدهم تقريباً عبء الضرائب الجديدة و « الشؤون الاستثنائية الطارئة » . وكان لهم ، في الحقل القضائي ، صلاحية اصدار الاحكام في مادتي الامن السياسي والتمرد وكل ما يجر اليه . وقد اعطتهم قرارات عديدة بتجديد مهامهم حق الحكم في كل القضايا التي يبدو من المفيد سحبها من القضاة العاديين . اشرف الوكلاء على « الامن » بمعناه الواسع ، أي على الادارة ، واعتمدوا طريقة العمل المباشر ، واصدروا القرارات والانظمة ، فعالجوا الحاجات العامة بنصوص ترتدي طابع الاكراه . نفذ هؤلاء المفوضون مقاصدهم دون ان يطلبوا اي اذن أو إجازة من القضاة ، الضباط العاديين . ولم يكن باستطاعة القضاة التدخل في اعمالهم أو طلب ملاحقتهم بمادة المسؤولية الشخصية ، خشية من أن تكف يد هؤلاء القضاة لمصلحة مجلس شورى الدولة ، جهاز القضاء الخاص ، الذي يحكم ابداً ، في هذه الحالة ، لمصلحة مفوضي الملك . وهكذا تعاظم النظام الاداري شيئاً فشيئاً ، بسبب الحرب ، على حساب النظام القضائي ، ووفر سلطة كبرى للحكومة المركزية وتأثيرها حتى في اعمال حياة رعاياها اليومية . أما في انكلترا فقد خضع الضباط والمفوضون للقاضي العادي . وحق للسلطة القضائية التدخل في الاعمال الادارية وتلقي الشكاوى المرفوعة على الضباط والمفوضين وتقدير الاخطاء المرتكبة وحتى دستورية القوانين . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الادارة كلها يمارسها أهل اليسار ، كما أن الاعيان وشتى الهيئات المحلية تمارس الادارة بحرية، على انها تكون مسؤولة عن اعمالها أمام المحاكم . الحرية مؤمنة في الجزيرة ، أقله حرية أهل اليسار . أما في فرنسا ، ذات الحدود البرية الطويلة المهددة بالاخطار ، فكل شيء يخضع لفعالية الدفاع ، والملك ، القائد الحربي ، سيد مع مفوضيه . نظام انكلترا بلوتقراطي ذو نزعات الى الحرية المدنية والدينية . حكومة فرنسا دكتاتورية الطابع تسلطية

النزعة . الحرب ابرزت الخلافات بواسطة عصبها ، المال ، لأن المجلس التمثيلي امسى في النهاية سيد الضريبة في انكلترا ، وهم أهل اليسار أنفسهم من يجبونها ، بينما يقرهـا الملك وحده في فرنسا ويراقب جبايتها بواسطة مفوضيه . ملك انكلترا لا يحصل بنفسه على عصب الحرب ودم الاقتصاد العام ؛ أما ملك فرنسا فعلى نقيض ذلك .

البيروقراطية

الا ان ارتفاع عدد المعاملات غالباً ما حال ، اقله بالنسبة للامور الجارية ، دون تمكن الملك ، وامين سر الدولة ، والوكلاء في الولايات ، من اتخـاذ القرارات اللازمة بصددها . فهي المكاتب التي تعـد القرارات ، استناداً الى السوابق المماثلة ، وترسل المعاملات جاهزة للتوقيع . وهكذا حدث السلطة الشخصية من ذاتها ، على غير قصـد منها ، بالادارة التي انشأتها والتي تسير على غرار جهاز ضخم يعيش حياته الخاصة ويتمتع بقوته الخاصة . فكان هذا مولد البيروقراطية .

الحقوق الاميرية اثناء الحرب

سيطرت الحقوق الاميرية اثناء الحرب على حياة المملكة في هذه المرحلة . اضطر الملك لأن يحـذو حذو انكلترا وهولندا والنمسا وبروسيا ، ولأن يطلع بكل جديد مريب . فبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٦٩٨ جبى ضريبة شخصية وبذل جهداً كبيراً لجعلها متناسبة ودخل الاشخاص الفعـلي فوق تناسبها ووضعهم القانوني ، ثم جددها ابتداء من السنة ١٧٠١ حتى السنة ١٧١٥ . واحـدث منذ السنة ١٧١٠ ضريبة العشر ، المستوحاة من الرسوم الحدثة في انكلترا وهولندا وفلانـدر ، التي فرضت بالتساوي على جميع انواع الدخول . فكان ذلك تقدماً تدريجياً نحو المساواة أمام الضريبة التي تنطوي على مبدأ المساواة في خدمة الدولة والمجتمع . قوبلت هذه الضرائب بمقاومات ضارية . الا ان الضريبة ما لبثت ان تحولت الى ضريبة تقسط اجزاء من المئة تضاف الى الاقتطاع ، أو الى مجرد وسيلة لتسهيل القروض بشكل اشتراك في الضريبـة . ووسع الملك الضرائب غير المباشرة ورسوم الجمارك والورق الموسوم ، مستهدفاً من ورائها اسهام ذوي الامتيازات ايضاً في النفقات العامة . ولكن كل ذلك لم يكف لسد الحاجة . فبات لزامـاً اللجوء الى دين قومي . ولكن الملك لم يتوفق ، كما حدث في انكلترا ، الى انشاء مصرف دولة . فالصيارفة لم يوافقوا على تأسيسه بسبب نقص النقد ، ولا سيما بسبب اعتقادهم باستحالة قيام مثل هذا الجهاز في ملكية مطلقة : أراد الصيارفة أن يبقوا اسياد استخدام مـالهم ؛ كما ان انشاء مصرف الدولة يستلزم استبدال النظم السياسية . لذلك أكره الملك على اللجوء الى حيل باهظة الاكلاف كالتحويلات النقدية واحداث الوظائف وتعيين الدخول وتجربة النقد الورقي (١٧٠١ – ١٧١٢) وابتكار شتى انواع السندات الملكية ، والقروض الالزامية ، دون ان يتوصـل في الوقت نفسه الى استهلاكها استهلاكاً منتظماً . فلا عجب من ثم اذا ما بلغ الدين ، في السنة (١٧١٣) ، ٢٣٢٨ مليون ليرة ملكية تورية (نسبة الى مدينة تور) ، يقابلها ٣٤٤ مليونا في انكلترا . فان فرنسا التي

لم تتجمع فيها رؤوس أموال ضخمة ، قد انهكت تحت وطأة مجهود الحرب .

الاقتصاد اثناء الحرب

اذا افضت اموال مجهود الحرب الى نتيجة مفيدة، هي ايلاف الفرنسيين النقد الورقي ، فأنها قد انضمت الى « الفناءين » لزيادة الازمة الاقتصادية والاجتماعية سوءاً . فالحروب رفعت نسبة نقص النقد الذي شكت منه فرنسا ، وشأنها في ذلك شأن اوروبا ، في اعقاب تدني انتاج المناجم الاميركية ، والذي آل طبعاً الى تخفيض الاسعار تخفيضاً مكدراً . وقد صدّرت فرنسا النقد بانتظام لتأمين حاجات جيوشها في الخارج . ومنذ السنة ١٦٨٦ ، اشهر « ده ماريه » نتيجة هذا الضرر الوخيمة على الاسعار والتجارة والاقتصاد. وغالباً ما أبعد النقد المتبقي عن وظيفته الاقتصادية بنقله الى دور النقد للتحويلات النقدية . واذا ما استثنينا ارتفاع الاسعار في سنوات المحول ، جاز لنا القول ان الاسعار بقيت متدنية والارباح محدودة والانتاج منخفضاً ، لا سيما وان التبدلات الدائمة الطارئة على قيمة النقد تحول دون كل حدس أو تقدير وتخمد نشاط التجار والصناعيين اليدويين والتجار الصناعيين . وجر الركود الاقتصادي الى تعزيز التنظيم المعروف باسم كولبير . ووضعت بالاضافة الى ذلك انظمة لا يحصى لها عد . ولكن الوظائف المحدثة آنذاك عدد وافر من وظائف المفتشين والمراقبين والكيالين والوسطاء والحراس ، الخ .. الذين يتقاضون كلهم رسوماً مختلفة مقابل كل عمل من اعمال وظيفتهم . فارتفعت الاسعار عند الاستهلاك بينما هي تدنت عند الانتاج . ابتاع الصناعي اليدوي بالغلاء نبيذه وخشبه وشمعه ؛ وابتاع الفلاح بالغلاء ، من سوق البلدة ، ادواته أو احذيته ، بينما لم تطرأ اية زيادة على سعر الحنطة . خفت نسبة الاستهلاك ، ثم نسبة الانتاج بدورها ايضاً . وتضررت التجارة والصناعة . زد على ذلك ان مراقبة المحاصيل الزراعية والجهود المبذولة للابقاء على تدني الاسعار قد جرّت الى الاجداب وزادت من سمة تبدلات الاسعار . وقد بين ذلك « ده كازودي هاليه » لمجلس التجارة في السنة ١٧٠١ ، و « بواغلّبير » للمراقب العام « شاميار » في السنة ١٧٠٤ . اذا عين للحنطة سعر منخفض ومنع بيعها خارج نطاق الولاية ، اكتفى فلاح مناطق زراعة القمح بزراعة ما يكفيه لسد حاجته . واذا ما امحل المحصول ، عمت الفاقة والعوز . يضاف الى ذلك ان نظام السنة ١٦٩٩ مثلاً ، رغبة في منع المضاربة ، قد حظر على التجار شراء الحبوب قبل الحصاد . اي ان القانون حظر الصفقات البعيدة الاجل التي تحد من الارتفاعات والانخفاضات . لذلك كان التاجر مضطراً ، بعد الحصاد الماحل، الى الشراء والبيع باسعار مرتفعة جداً؛ أما اذا كان الحصاد وفيراً، فيمكنه الشراء من الفلاح باسعار متدنية جداً. وأدى انهيار الاسعار ، بين السنة ١٧٠٣ والسنة ١٧٠٨ مثلاً، واستحالة البيع الى ضيق ذات يد الملاكين والفلاحين وعجزهم عن دفع الضريبة . لذلك طالب العالمون بأصول الاقتصاد ، من امثال « كازو » و « بواغلبير » ، والوكلاء ، بحرية التجارة وتخفيف الحقوق الاميرية ورفع سعر الحبوب الذي سيتيح للفلاحين والملاكين الشراء ، ومن ثم توفير العمل والازدهار للعمال والتجار . فطلعت بعض الآراء القائلة بالحرية الاقتصادية وباعتبار الزراعة

مصدر الثروة الوحيد (*Physiocratie*) . ولكن الرقابة العامة ما لبثت ان اجابت بواغلبير بما معناه : لا بد من مرور سنوات عدة قبل ان تفضي حرية التجارة وحرية الاسعار وتخفيض الضرائب الى انطلاق الزراعة والاثراء العام وزيادة مطارح الضريبة ، بينما نحن بحاجة ملحة الى توفير النظام في المدن بتخفيض اسعار الخبز ، ووسائل الدفاع عن المملكة بجباية الضرائب . فتوجب الاكتفاء باجازات تصدير دوريه .

تفاقم الصراع الطبقي

تفاقم الصراع الطبقي في مجتمع شكا من نقص مواد الاستهلاك فبورجوازية التجار والصيارفة الذين يسهمون في التجارة البحرية والامتيازات الحربية والعمليات المالية الرسمية قد حافظت على مستوى معين من الازدهار والنفوذ. شيد أعضاؤها الفنادق الفخمة وغدوا خير زبن الفنانين واشتروا الاراضي من الارستوقراطية العقارية وجاروها وزاحموها . واكرم الملك نفسه في قصر مارلي مثوى الصيرفي «صموئيل برنار» واستماله للافادة مما له من وجاهة ومكانة وما يتمتع به من ثقة . وأخذ المثل البورجوازي يزاحم في الادب مثل الرجل النزية ومثل البطل .

أما صغار الاشراف الريفيين فقد عضهم الزمان بنابه ، فتزوجت كريماتهم من الفلاحين . وأوصى بعض كبار النبلاء بأن يتعلم ابناؤهم مهنة لا تليق بمقامهم . ومال الدهر بعدم كذلك على صغار المستثمرين الزراعيين وصغار أرباب المهن والعمال .

لذلك بات حقد شتى درجات الارستوقراطية على البورجوازيين حقداً جافياً وضارياً . ولكن ثورات العمال والفلاحين على البورجوازيين كانت شبه مستمرة أيضاً . وقد استهدفت في أغلب الاحيان الجباة بائعي الوظائف ومندوبي ملتزمي الضريبة . وقد لعبت الشائعات دوراً كبيراً في اندلاع هذه الثورات ، لان الجماهير صدقتها دونما تردد في غمرة الحقوق الاميرية . ففي آلنسون ثارت نساء الشعب لانهن اقتنعن بان عليهن دفع «ستة فلوس عن كل قميص بيضاء وعشر نحاسات عن ولادة الذكر وخمس نحاسات عن ولادة الانثى» . وقد حدثت في الارياف ظواهر مماثلة لظواهر «الذعر المظيم» .

معارضة السلطة المطلقة والثورة الفكرية

ارتد هذا الاستياء كله على السلطة المطلقة وعلى الملك . في السنة ١٧٠٩، سار بعض الباريسيين على قصر فرساي نفسه : فاوقفهم الجيش عند جسر «سيفر» . عادت المجالس التمثيلية الى معارضتها، ولكن بخشية وحياء . وحاولت المجالس التمثيلية الاقليمية استثبات البراءات واللجوء الى التحذيرات . وآثر مجلس باريس التمثيلي استمالة الرأي العام بتشيعه الغليكانية. فساند الجنسينيين ضد تدخل البابا في شؤون فرنسا (١٧٠٥ و ١٧١٣) . ومن جهة ثانية اعاد البروتستانتي «انطوان كور» تأسيس كنيسة كلفينية في الخفاء (مجمع الصحراء الاول ، ٢١ آب ١٧١٥) .

لم يعد الملك سيد بلاطه كلياً . فان مشهد الضباط الاشراف الذين يعودون يومياً من الجيش فاقدين ساقا او ذراعاً ، والجداول الطويلة باسماء الاشراف الذين لاقوا حتفهم في المعارك ، وحسرات كبريات السيدات ، امهاتهم ، قد دفعت الى الاستفادة من الحياة بالمزيد من الاستمتاع والتلذذ . فكانت النتيجة ذلة الشباب وانحطاطه .

« يتكلمون عن بقعة يتميز شيوخها بالظرف والتهذيب والادب ؛ أما شبانها فأفظاظ وقساة قلوب ، دونما اخلاق ولا تهذيب ، ينصرفون عن التولع بالنساء في سن الانصراف اليه في البقاع الاخرى ، ويؤثرون عليهن الاطعمة واللحوم والاهواء المضحكة » (لابروبير) .

ظهرت بوادر ثورة فكرية حقيقية على أنظمة الفكر التي بدت مرتبطة بالسلطة المطلقة . الا ان الحكومة المفتقرة الى وسائل عمل دول القرن العشرين ، قد انقذت ظواهر السلطة . يضاف الى ذلك ان بعض كبار الموظفين قد استميلوا : كالمستشار « بونشارترين » الذي رفض الموافقة على التدابير القاسية التي طالب بها « بوسويه » . فبرز مذهب جمع بين الكرتزيانية والغسّندية والمذهب الذري ، وتحول الى ذهنية عقلية ونفعية ، وشغف بالعلوم ، وكلاسيكية كاذبة في علم سنن الجمال ، ودين طبيعي ، وتهذيب اخلاق . وكان « فونتنيل » و « بيل » من كبار دعاة هذه التعاليم . وانتشرت نظريات « لوك » السياسية والاجتماعية في أوساط البورجوازيين ، بينما حدد الاقطاعيون الغاضبون مثلهم السياسي الاعلى كارستوقراطيين معادين للملكية المطلقة في معية دوق بورغونيا . فتكونت من ثم معظم آراء « عصر الانوار » .

نجاحات السلطة المطلقة في اوروبا

في كافة انحاء اوروبا ، باستثناء بولونيا واسوج ، ادت الحروب الى تقدم السلطة المطلقة وتوحيد ومركزية الدولة التي سارت شوطاً الى الامام في ارغام كافة طبقات المجتمع على خدمتها . يضاف الى ذلك، من جهة ثانية، ان هجرة البروتستانت الفرنسيين ، ونفوذ بلاط لويس الرابع عشر وفرنسا واقتفاء التقنيات والممارسات المفيدة لزيادة القوة أو للدعاوة ، ادت الى انتشار الآراء نفسها من اقصى اوروبا الى أقصاها . ولكن هذه الظواهر اختلفت باختلاف نظام الدول الاقتصادي والاجتماعي ووفاقاً لتحول الحروب الى انتصار أو هزيمة .

اسبانيا

جدد لويس الرابع عشر اسبانيا . فهو من أسدى النصح والمشورة الى حفيده وقدم له المديرين المدبرين. تحققت مركزية المملكة ، وألغيت امتيازات كتالونيا وأراغون . واضطلعت الحكومة على شاكلة الحكومة الفرنسية : اربعة أمناء سر دولة ، وكيل مالية عام ، مجلس مؤلف من غرف ذات اختصاص ، وكلاء أقاليم ، خزانة مركزية ، ملتزمون عامون ، ولايات تعامل معاملة مالية واحدة. زد على ذلك ان دخول الدولة قد ازدادت بسرعة بفضل النقد الذي ادخلته الجيوش الاجنبية والذي أنعش الاقتصاد الاسباني ، فاستطاع فيليب الخامس ، في السنة ١٧١٤ ، تجهيز ٢١ سفينة وتجنيد ١٣٢ فوجا من المشاة ، و ١٣٠ كوكبة من

الخيالة . وعلى الرغم من محاكم التفتيش واليسوعيين ، انفتحت أسبانيا للتأثيرات الاجنبيـة : فقد نقلت مسرحية « سنا » لكورناي الى الاسبانية في السنة ١٧١٣ ، و « عظات زمان المجيء » « لبوردالو » في السنة ١٧١٤ . وأسس الملك أكاديميـة ، وكان للموسيقى الايطالية حظوة كبرى عند الاسبانيين . فعادت أسبانيا الميتة الى الحياة .

الملكية النمساوية

استغل الامبراطور ، في ممتلكاته « النمساوية » النفوذ الذي اولتـه اياه انتصاراته الداوية على الاتراك وصراعه ضد لويس الرابع عشر . فقد حاول خلق شعور هبسبورغي مشترك في هذه الملكية المتعددة الدول المتشلتة في انحاء اوروبا ، واصدر في السنة ١٧١٣ ، امراً يعلن الوحدة الممتنعة الانحلال لمختلف بلدان الملكية . ولكن البلدان التي غنمها في السنة ١٧١٣ ، اي لومبارديا والمناطق المنخفضة ، وهي اغناها وانشطها اطلاقاً ، قد عاشت في الواقع حياة انفراد . واضطرت هنغاريا المحتلة ، تحت الضغط ، لان تقترع في السنة ١٦٨٧ لحق الذكور من انسال سلالة هبسبورغ في وراثة التاج، وقضي على ثورة « راكوكزي » . الا ان جوزف الاول اضطر في السنة ١٧١١ الى التعهد باحترام الكلفينية وضمان امتيازات « الدول » الهنغارية حيث يسيطر كبار الملاكين المقاربين . أما في النمسا وبوهيميا وفي « الدول الوراثية » القديمة ، وهي بلدان زراعية بحتة مدنها كثيرة وبورجوازيتها فقيرة ، فقد عزز الامير سلطته ولكن بواسطة تقاسم الارباح مع كبار الارستوقراطيين المقاربين . وقد خدم هـؤلاء الامير ، وغدوا ، من أوجه كثيرة ، طبقة اشراف خدمة . وفي الجمعيـات فرضوا الارادة الملكية على طبقة الاشراف الوسطى وعلى البورجوازية . ولكن الامير احتفظ لهم بالوظائف الهامة في الجيش والادارة وأمّن لهم كل سلطة على الفلاحين المزارعين المرهقين باعمـال التسخير والاتاوات . ولما كانت الدولة تسلسلية السلطات وكل طبقة مسجونة داخل امتيازاتها ، باتت الحياة الفكرية والاخلاقية والدينية مقتصرة على أبسط مظاهرهـا . فتلقت النمسا سلبيا التأثيرات الخارجية : كاثوليكية المجمع التريدنتيني ، اليسوعيين ، الاستهجان الايطـالي ، والتأثيرات الفرنسية اخيراً . ولكن الغلبة ما زالت للتأثيرات الايطالية . ففي الحضارة كما في السياسة ، ولت النمسا الجرمانية وجهها تولية مطردة شطر ايطاليا والشرق .

ايطاليـا

ما زالت ايطاليا مقسمة وخاضعة للسيطرة الاجنبية : فقد حلت النمسا فيها محل أسبانيا في السنة ١٧١٣ . ولكن الكلاسيكية الفرنسية والعلم والفلسفة الفرنسيين ، قد تركت أثراً عميقاً فيها . فقد درست تعاليم غسّندي في بيزا وبادوا ونابولي وروما . وكان لديكارت حظوة في نابولي ، وتهافت الناس اكثر فأكثر على قراءة مؤلفاته في كافة أنحـاء ايطاليا . ومثلت مسرحيات كورناي وراسين . وكانت مؤلفات «مابيون» و «مونفوكون» الواسعي الاطلاع موضوع اعجاب عام . فاستعادت نخبة ايطالية قوتها الخلاقة ، لا سيا منذ السنة ١٦٩٠ . ونهضت العلوم الاختبارية من سباتها بفضل « ريدي » و « فاليسنييري » . وطمح « مافيي » الى

مجاراة الفرنسيين في حقل المآسي . واسس « موراتوري » وذوو العلم الواسع من الايطاليين مدرسة كبرى للنقد والتاريخ . وفرضت الموسيقى الايطالية نفسها في النمسا وألمانيا بفضل « كورلي » و « فيفالدي » . وامتزج القالب الايطالي بالقالب الفرنسي في المؤلفات الالمانية .

دول آل هوهنزولرن

تألفت دول سلالة براندبورغ ، في أواسط القرن ، من ست مجموعات من الاقاليم منتشرة بين نهر « نيمن » ونهر « الموز » : دوقية بروسيا ، بومرانيا الشرقية ، براندبورغ ، امارة هالبرستات ، امارة « مندن » ، كونتية « رافنسبورغ » كونتية « مارك » ، دوقية « كليف » . فالدولة اذن مجموعة دول والامير مجموعة امراء يتمتعون بسلطات مختلفة تقيدها ابداً جمعيات محلية هي المجالس الاقليمية . وليس من رابطة سوى شخص الامير ومجلسه السري . الامير يعيش من دخول املاك لم يحسن استثمارها واحتكارات ورسوم جمركية ، على غرار السيد في القرون الوسطى . لا يحصل بسهولة ، اثناء الحرب ، على مساهمات الدول التي تعتبر ان الحرب لا تعنيها اذا توالت فصولها في دولة اخرى من المملكة . وليس لديه ، في أيام السلم ، سوى بضعة الوف من الجنود الموزعين هنا وهناك وهنالك .

استفاد المنتخب « فردريك – غليوم » (١٦٤٠ – ١٦٨٠) ، المنتخب الاكبر ، من اشتراكه في الحروب الاوروبية الكبرى كي يحقق انتقال امارة القرون الوسطى الى الدولة العصرية . فحد من صلاحيات الجمعيات المحلية التي عارضت الضرائب الضرورية للحرب وغدا سيد الضريبة وتوصل في السنة ١٦٨٦ ، بعد صراع طويل ، الى وضع الخزانات الاقليمية ، التي ادارها حتى ذاك التاريخ ممثلو المجالس الاقليمية ، تحت سلطة موظفيه المباشرة . واحدث ضرائب غير مباشرة ، كالضريبة على مواد الاستهلاك ، التي كانت ضريبة دائمة وتناولت النبلاء انفسهم . واذا ما احتفظت بعض الدول بحق الموافقة على الضريبة ، فان موافقتها لم تكن سوى اجراء شكلي .

مكن المنتخب نظم الحكومة المركزية اي المجلس السري ، وديوان المستشار للشؤون الخارجية ومجلس الدعاوى للقضاء ، وغرفة المال ، ومفوضية الحرب العامة ، فجاءت آلة كبرى تسير كل شيء . وفي الولايات عزز صلاحية الحكام ، ومجلس الوصاية الذي عاون كلا منهم ، وموظفي الدائرة الخاضعين لهم ، وأكثر في كل مكان من المفوضين والمستشارين الاقليميين ومفوضي الرسوم . أما الضباط ، قضاة كانوا أم رتباء عسكريين ، الذين كانوا مرتبطين بالمجالس الاقليمية ومتميزين بروحهم النفعية ، فقد قلمت اظافرهم . وهكذا اوجد المنتخب طبقة من الموظفين البورجوازيين ، الملزمين بتحمل اعباء الخدمة العامة الثقيلة مقابل اجر هزيل ، والمقسورين على حياة وضيعة ومتقشفة ، والمتحلين بالتهذيب والوقار ، والمستمدين عزة مفيدة من شعورهم بدورهم الاجتماعي . وقد امن تنفيذ الاوامر جيش دائم من المرتزقة يبلغ عددهم ٣٠ ٠٠٠ رجل ويخضعون لنظام صارم .

وفي سبيل تأمين الاموال اللازمة للنفقات ، انصرف المنتخب الى تحقيق مجموحة رعاياه وزيادة عددهم بانتهاج سياسة تجارية صارمة. فأمر باصلاح الاراضي وجعل من براندبورغ ملجأ لكل من هاجروا بلادهم بسبب الاضطهاد الديني ، وقدم لهم الاراضي ومواد البناء ، واعفاهم مؤقتاً من الضرائب . وانمى التجارة والصناعة باعتماد انظمة كولبيرية صارمة . فارتفع عدد السكان الى مليون ونصف المليون تقريباً . وأحرز تصدير الاخشاب والجلود والآدمة والحبوب تقدماً سريعاً .

وقد أكمل عمله خليفته فرذريك (١٦٨٨ – ١٧١٣) . استفاد من الخدمات التي أداها للامبراطور خلال الحرب ليحصل منه على اجازة بحمل لقب ملك بروسيا . توّج في ١٨ كانون الثاني ١٧٠١ . فبات سيداً ، وسما بنفوذه فوق نفوذ كافة الامراء الالمان وعزز سلطته فتعززت قوة دوله ووحدتها . وكان يعد نفسه بمقام الامبراطور . فنشطت مقاومة سلالة براندبورغ لسلالة النمسا ، وتكهن بعضهم بان الملك الجديد لن يلبث ان يقف في وجه النمسا،لانه هرطوقي وملك أرض انتزعها الفرسان التوتونيون من السلافيين ، أي ملك ولاية ألمانية تنبسط عند الحدود ، فيحق له من ثم ان يجعل من نفسه ممثل الجرمانية ضد النمسا الكاثوليكية التي ترتبط بالبابا وتميل عن المانيا نحو البلدان الدانوبية والبلقانية .

روسيا واوروبا

روسيا بعد الحرب الاهلية في « عهد الاضطرابات » واستتباب الامن والنظام في عهد القياصرة ، ميشال فيدوروفتش (١٦١٣ – ١٦٤٥) « وألكسي ميخالوفتش » (١٦٤٥ – ١٦٧٦) و « فيدور ألكسفتش » (١٦٧٦ – ١٦٨٢) ، اضطرت الحكومة ، بسبب حروبها الدائمة ضد اسوج وبولونيا والاتراك ، الى اقتباس التقنية العسكرية عن الغرب . فدخلت كتائب من الانكليز والالمان في خدمة القياصرة وتولى بعض الضباط الاجانب تدريب الجيوش الروسية . واحدثت الحقوق الاميرية خلال الحرب تطوراً نحو السلطة المطلقة والمركزية . واحظى القياصرة طبقة نبلاء خدمة على حساب الطبقات الاخرى . وقصد البلاط والعاصمة بعض التجار الاجانب . فانفتحت البلاد لبعض التأثيرات الاجنبية ، التأثير الالماني في ايام ميشال وألكسي ، والتأثير البولوني في ايام « فيدور » الذي كان اول من تلقى تربية اوروبية . وتسربت اليها بعض الكتب اللاتينية والبولونية . وقد تابع السير في هذه الطريق بطرس الاكبر الذي جلس على عرش القياصرة منذ السنة ١٦٨٢ حتى السنة ١٧٢٥ . امسى سيد روسيا الاوحد في السنة ١٦٨٩ بفضل الضباط الاجانب ، السكتلنديين منهم والسويسريين والالمان ، وحنكته رحلته الى الغرب (١٦٩٧ – ١٦٩٨) ، فكان مديناً لحرب خلافة عرش اسبانيا ، بعد انتزاعه آزوف من الاتراك ، بالاشتراك في السياسة الاوروبية الكبرى . فأرغم دول جنوبي البلطيك الداخلة في صراع ضد اسوج ، التي بسطت سيطرتها على شاطئي هذا البحر ، على قبول التحالف مع روسيا . ووقع كل من « اوغست دي ساكس » ، ملك بولونيا ،وملك الدانمرك ، معاهدة مع بطرس (١٦٩٩) ، ثم تحالفت الدانمرك

مع براندبورغ (١٧٠٠) . فلس الهانوفريون والهولنديون والامبراطـــور ان توازن القوى في البلطيك لن يلبث ان يختـــل وان هنالك خطراً كبيراً من ان تبسط روسيا سيادتها على البلطيك والمضائق الدانمركية اذا قدر لاسوج ان تمنى بالهزيمة . ولكنهم كانوا منهمكين بمحاربة حليف اسوج ، لويس الرابع عشر . وبينما كان ملك اسوج ، شارل الثاني ، سائراً قدمــاً في الاستيلاء على بولونيا ، كان بطرس منصرفاً الى احتلال سواحل خليج فنلندا وبلاد ليفونيـا وتأسيس « مدينة القديس بطرس » (سان - بطرسبورغ) (١٧٠٣). وبعد ان محق القيصر جيوش شارل الثاني عشر في بولتافا (١٧٠٩) ، استولى على « ريغا » وفتح استونيـا وزوج ابنة شقيقه من دوق « كورلند » واستولى على بومرانيا (١٧١٢) وفنلندا الجنوبيـة وجزر « آلند » (١٧١٤) ، بينما انتزع الحلفاء ما تبقى من فتوحات « غوستاف ادولف » . فانهارت السيادة الاسوجية على البلطيك وتوجب النظر في خلافة اسوج .

اصلاحات بطرس الاكـبر الاول

خلال هذه الحروب ، ولأجل هذه الحروب ، طبع بطرس روسيا بالطابع الاوروبي . وقد تم ذلك باصلاحات كثيرة غير مدروسة اجريت بحسب الظروف او الدوافع الظرفية . فبعد عودته من اوروبا اصـدر الاوامر بسبد اللحى وتقضيب الاكسية والاكمام وفرض اللباس الهنغاري او الالماني (١٧٠٠) واصلح الرزنامة واوجب احصاء السنين لا ابتداء من خلق العالم بل ابتداء من اصلاح الرزنامة . واصبح الجيش جيشاً دائماً بقيادة ضباط من فرقتي الحرس اللتين غدتا مدرسة للاشراف وخلقتا طبقة عسكرية . وبسبب تعدد الغزوات وتكرر غيابه ، حذا القيصر حـــذو اسوج وانشأ تدريجياً ، منذ السنة ١٧٠٧ ، مجلس الشيوخ المؤلف من بعض اختصاصي بطانته الذين يحلون محله في الادارة ويوجهون الاوامر الى الحكام . واحدثت شيئاً فشيئاً ثماني حكومات يرئسهـا قائد منتدب يتمتع بكافة الصلاحيات العسكرية والمالية والقضائية . وقسمت الحكومة ولايات والولايات اقضية والاقضية مديريات . وتولى ادارة الولاية مفوض اقليمي يعينـــه القيصر . وهكذا كان مجلس الشيوخ والحاكم ومفوضو الولايات كلهم مفوضي القيصر يتمتعون بصلاحيات القيصر نفسها . اختيروا من طبقة الاشراف اما مفوضو الاقضية فقد انتخبهم الاشراف المحليون وكانت مهمتهم الاولى جباية الضرائب . واما في المديريات ، فقد انتخب الفلاحون مجلس قضاء اضطلع في الوقت نفسه بجباية الضرائب . وحق للمدن ان تحدد الضرائب وتسند توزيعهـا وجبايتها الى هيئات منتخبة . فكـان مفهوم الادارة في جوهره افراداً او هيئات تنتخبها فئات السكان المختلفة المتجمعة طوائف وتراقبها شبكة محكمة الحلقات من مفوضي القيصر . ولكن مجلس الشيوخ تكشف عن عدم الوفاء بالحاجة . فقد تبين ان هنالك حلقة مفقودة بينه وبين الحكومات . وظن بطرس بأنه اهتدى اليها في نظام الهيئات الاسوجي (القضاء، الشؤون الخارجية ، امارة البحر ، الحربية ، المالية ، التجارة) ، وبدأ منذ السنة ١٧١٢ بانشاء هيئـة التجارة .

لجأ بطرس ،في كافة الوظائف الهامة وقيادة الجيش ، الى الاشراف الملتزمين بخدمة الدولة . وبالمقابلة لم يعد القيصر ليتدخل بينهم وبين الفلاحين . وبعد ان فشل في تعليمهم مهنتهم بممارستهم لها ، اوجب بطرس على الاشراف الاختلاف الى المدارس المهنية ، مدرسة العلوم الرياضيـــة (١٧٠٥) ، الاكاديمية البحرية ، مدرسة المهندسين ، مدرسة المدفعية (١٧١٢) .

ولكن كل ذلك ما زال في طور البداية . اما الحقوق الاميريـــة فليست سوى فيض من الحيل المرتجلة ، كما ان السياسة الاقتصادية ما زالت مرتكزة الى نظريات وتعاليم غير واضحة . ولن يستطيع القيصر الشروع في وضع تنظيم جديد شامل منسّق الا ابتداء من السنة ١٧١٥ .

تسببت هذه الاصلاحات في ازمة داخلية خطيرة . ولعلها ايقظت الفتنة اكثر من الخسارة الرهيبة في الارواح ومن ثقل الضرائب ، لأنها شكلت قطيعة مع نهج حياة وحضارة . فالقديسون يلتحون وليس من سابدي اللحى سوى الهلكى . ودخان التبغ دنس لان الانجيل قال ان ما يخرج من الفم بدنس الانسان . افليس هذا القيصر العاري الذقن،الذي يدخن ويمتطي البحر ويسترق السنوات من الله ، هو نفسه المسيح الدجال يا ترى ؟

هزائم السلطة الاسوجية المطلقة وانهيارها

استفاد ملوك اسوج من حروبهم الظافرة لتحديد ممتلكات كبار الاشراف ، واقصائهم عن الحكومـة والادارة ، واقامة نظام مطلق مركزي وبيروقراطي أتاح حسن ادارته لهذه البلاد الصغيرة الانطلاقـــة الاقتصادية ولعب دور هام في السياسة الاوروبية . اسوج بلاد غنية انتجت الحبوب في سكانيـا وقامت فيها صناعات تعدينية متقدمة بفضل مناجمها الحديدية والنحاسية واحراجها الكثيفة ، ومارست تجارة بحرية ناشطة على هذا البلطيك الذي هو « بحيرة أسوجية » . فنمت بورجوازيتها وشاع الميل الى فنون الغرب وعلومه الاختبارية في هذه الطبقة الصاعدة وفي الارستوقراطية .

الا ان هزائم شارل الثاني عشر افقدت السلطة المطلقة حظوتها . فقد خسرت اسوج الاقاليم الغنية التي أمنت لها ، الى جانب الموارد الكبرى ، السيطرة التجاريـــة في البلطيك . وشكت البلاد من التجنيد العسكري المتكرر ، والضرائب ، وتوقف التجارة ، والسلطة الملكية . ومـا عادت الوصاية لتتمكن من اسماع كلمتها اثناء غياب شارل الثاني عشر . وتصرف قادة الولايات وحكامها وكأنهم مستقلون عن السلطة المركزية . واستعدت الارستوقراطية لمعارضة السلطة الملكية المطلقة والقيام بثورتها بعد وفاة شارل الثاني عشر (١٧١٨) .

يتضح من ثم ، خلال حروب أواخر القرن الكبرى ، ان كافة الدول الاوروبية كانت سائرة في طريق تبدل الانظمة ، وتطور توازن الطبقات ، وازمة الحس والفكر . وسنلمس هـــذه الظواهر ، في اهم الدول الغربية ، انكلترا ، والاقاليم المتحدة ، وفرنسا ، وفي ايطاليا والمانيـا الغربية الى حد ما ، في انقلاب العلوم والفلسفة والدين وعـــلم سنن الجمال والمفاهيم السياسية والاجتماعية وفي بث بعض الآراء الجديدة في انحاء اوروبا الاخرى .

٣ – ازمة الفكر والحس

العلم الكورتزياني والنيوتوني

ان للعلم العصري ، والحروب ، و « الفناء » ، والازمـــة الاقتصادية ، واستبداد لويس الرابع عشر الشامل ، والتهديد الدائم الذي تاه به على اوروبا ، قد أسهمت كلها في معارضة المذاهب التي بدت وكأنهـــا ادوية ناجعة للازمة ، مركزية الله الصوفية ، الكلاسيكية ، الكورتزيانية ، السلطة المطلقـــة ، الروح التجارية على الطريقة الكولبيرية ، فبرزت الازمة مرة اخرى . ويرجح ان كفة الازمـة كانت صائرة الى الرجحان حتى بمعزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لان المذاهب قد حملت في ذاتها بذور تناقض او اتجاهات جديدة . ولكن الظروف ساعدت مساعدة كبرى على طلوع أو تجدد آراء مختلفة او مناقضة . ادت حالة اوروبا الى سيطرة قلق مقض غامض ، مادي وادبي معا . ومال عدد متعاظم من الناس الى البحث عن اللذة والرفاهية . ورجحت كفة فقدان التوازن والوحدة . فكانت الاولوية للعقل والمنطق في الظاهر . أما في الواقع، فان معظم الناس قد استخلصوا النتائج منطقياً من مقدمات يفرضها الحس . وفي معظم الحالات تحول هذا الحس الى البحث عن حياة ارضية فضلى ؛ فسادت الذهنية النفعية .

جمهورية الآداب

تؤلف اوروبا جمهورية كبرى من العقول المثقفة . أما مركز الحياة الفكرية الذي قام في ايطاليا خلال القرن السادس عشر وفي فرنسا خـــلال الارباع الثلاثة الاولى من القرن السابع عشر ، فما زال ينتقل باتجاه الشمال . فهم الانكليز من يلعبون الآن اكبر دور خلاق بفضل انطلاقتهم الاقتصادية والسياسية العارمة وذهنيتهم البورجوازية المسيطرة . فان « مبادىء » « نيوتون » تعود الى السنة ١٦٨٧ و « مجـــادلات » « لوك » الى السنة ١٦٩٠ . منذ السنة ١٧٠٢ ، كانت الآداب الانكليزية في رائعـــة نهضتها ، وفي السنة ١٧١٢ تفوق الانتاج الانكليزي على الانتاج الفرنسي كمية ونوعاً . وكانت السنة ١٧١٣ ، وهي سنة معاهدتي اوترخت ، سنة عجائبية بلغ فيها « بركـــلي » و « بوب » و « سويفت » و « اربوثنوت » و « اديسون » و « ستيل » ذروة عبقريتهم .

حافظت فرنسا على مركز عظيم جداً بفضل اللغة التي ابتدعها كلاسيكيوها والتي طابقت حاجات اوروبا . حلت اللغة الفرنسية محـــل اللغة اللاتينية . « الناس كلهم يرغبون في تكلم الفرنسية ؛ وهم يرون في ذلك دليلا على التربية الجيدة . . . هنالك مدينة توجد فيها اثنتا عشرة مدرسة فرنسية مقابل مدرسة لاتينية واحدة ؛ مؤلفات الاقدمين تترجم في كل مكان ، وقد اخـــذ العلماء يخشون من ان تقصى اللغة اللاتينية عن ارضها القديمة » (« اخبار جمهوريـــة الآداب » ، ١٦٨٤) . وقد لعب دور الوسيط الاكبر البرتستانت الفرنسيون المهاجرون الى « ملاجئهم » المختلفة في انكلترا و « براندبورغ – بروسيا » و « هس – كاسل » وسويسرا وتروج واسوج

والدانمرك والمستعمرات الانكليزية، بوسطن ونيويورك، وحتى في موسكو. وكان اهمها اطلاقا ملجأ هولندا .

منذ ذاك الحين ، تلاقى في الاقاليم المتحدة، مفترق الامم ، رجال آتون من كافة البلدان . فقد قصدها الانكليز والسكتلنديون والدانمركيون والاسوجيون والبولونيون والهنغاريون والالمان لتلقي الدروس في ليدن وغرونتنغ واوترخت . وتعاظم بمجيء البروتستانت الفرنسيين دور هولندا الدولي الكبير . وأسس البروتستانت الفرنسيون صحفاً اوروبية كبرى : « اخبار جمهورية الآداب » لبيير بيل ، (اذار ١٦٨٣) و « المكتبة الشاملة والتاريخية » لجان لو كلير (كانون الثاني ١٦٨٦) ، و « تاريخ مؤلفات العلماء » لِ « باسناج دي بوفال » (ايلول ١٦٨٧) . فأثروا في الانكليز اللاجئين الذين كانوا يعدون الثورة الانكليزية . وكان « جان لو كلير » وباسناج و « دي بوسك » وجوربو عوناً للوك على انضاج الآراء الدينية والسياسية التي بررت الثورة والتي كان لها تأثيرها الشامل فيا بعد . وبعد الثورة قام اللاجئون البروتستانت الى انكلترا، « ابيل رويّه » و «ده ميزو» و « كوست » بترجمة المؤلفات الانكليزية وادخلوا عليها ما افتقرت اليه من وضوح وتلاحم واحتشام ورصانة فاستطاعت بحلتها الجديدة ان تنتشر في كافة انحاء اوروبا . وان بيير كوست الذي اصبح عضواً في جمعية لندن الملكية وناشر مؤلفات « لابروبير » و « لافونتين » و « مونتاني » في انكلترا ، قد ترجم « المحاولة الفلسفية » للوك (١٧٠٠) و « محاولة في علم البصريات» لنيوتون (١٧٠٤) و «محاولة في السخرية » لشافتسبري. وهكذا فقد تبودلت الآراء وامتزجت وتلقحت بفضل الجمهورية البروتستانتية الفرنسية الكبرى .

انتشار الكرتزيانية

انتشرت الكرتزيانية في كل مكان . في السنة ١٦٥٧ ، درّس مذهب ديكارت علانية في جامعات هولندا . بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٦ ، نشر « كليرسليه » ، المحامي في مجلس باريس التمثيلي ، ثلاثة مجلدات من آثار ديكارت اللاتينية غير المنشورة ، مع ترجمتها الفرنسية ، ولا سيما من الرسائل التي هي اسهل منالاً من الابحاث العقائدية . استطاعت الكرتزيانية من ثم تثبيت أقدامها في كافة البلدان وكافة الاوساط الراقية . في فرنسا ، رحّب بها كبار النبلاء، وكبار البورجوازيين في المحاكم العليا والمهن الحرة ، والجمعيات الدينية الكبرى . تألفت اكاديميات كرتزيانية حقيقية ، والقيت اسبوعياً محاضرات علمية كرتزيانية في قصر الدوق « دي لوين » ، ودارة الامير « دي كونديه » ، ومنزل مقدم العرائض « هابير دي مونمور » ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، وفي اجمل قصور باريس . فدان بالمذهب الكرتزياني المركيزة « دي سابليه » ومدام « دي سيفينييه » وابنتها مدام « دي غرينيان » ومدام « دي لا فاييت » و « لاروشفوكو » و « آرنو » . ودرّست الكرتزيانية عند رهبان القديس فيلبّس النيري ، والبندكتيين، والاوغسطينيين. ويعود الفضل لاحد الفرنسيسكان في انتقال الكرتزيانية الى انكلترا ودخولها دخول الفاتحين الى جامعتي كمبردج واوكسفورد .

وانتشرت الكرتزيانية في جنيف واستولت على عقول كثيرة في ايطاليا والمانيا . وقد بلغ المذهب ذروته بكتاب « احاديث حول تعدد العوالم » لفونتنيل (١٦٨٦) .

الكنيسة ضد الكرتزيانية

على الرغم من كل ذلك ، لم تتوقف مقاومة الكنيسة لديكارت . كان مقصده انقاذ الدين ، ولكن تعليمه ما لبث ان اصبح خطراً عليه . رد المادة الى الاتساع ، ولكن ما هي الطريقة ، والحالة هذه ، لفهم استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ؟ كيف يمكن لجسد المسيح ، الذي هو جزء من الاتساع ، ان يكون في خبز الذبيحة ، بينما لا يزال الخبز ، الذي هو جزء من الاتساع ايضاً ، يحتل مكانا معيناً ؟ ان ما كان حوشياً في مذهب الماهيات الواقعي ، قد بات مستغلقاً كلياً ، لا بل مستحيلا، في مذهب الاتساع الكرتزياني . كان اله ديكارت مهندساً عبوساً ، وميكانيكياً فظاً ، لا يستشف فيه الاله الحي الذي عبده اسحق وابراهيم ويعقوب . ولم يكن في مذهب ديكارت مكان لشخص المسيح. وكان من شأن ديكارت ان يوصل الى الدين الطبيعي الذي قد لا يكون اقل مناقضة للمسيحية من الالحاد ، والذي ربما ادرك فيه « الفيلسوف المقنع » شيخوخته مجروراً بمنطق تعليمه ، كذلك الشريف الريفي ، الذي جرفه مذهبه في الرشد والادراك ، وربما غدا ديموقراطياً .

لذلك وقفت الكنيسة موقفاً صريحاً مناهضاً للكرتزيانية . في فرنسا طالبت السوربون ، في السنة ١٦٧١، بتدريس ارسطو دون غيره ، فكان من الملك ، المقيد بقسم التتويج ، ان منع تدريس مذهب ديكارت (١٦٧١ ، ١٦٧٥ ، ١٦٧٨) . فخضع رهبان القديس فيلبس النيري وبندكتيو « سان – مور » وكهنة « سانت جنفييف » القانونيون . وفي السنة ١٦٨٠، منعت محاضرات « ريجيس » الكرتزيانية . وفي السنتين ١٦٩١ و ١٧٠٤ ، ألزم الملك اساتذة الفلسفة في كليات جامعة باريس بالتعهد خطياً بان لا يدرسوا المبادىء الكرتزيانية . وادرجت مؤلفات الاب « مالبرانش » في فهرست الكتب المحرمة (١٧٠٩) . ولكن الملك لم يتخذ اي اجراء ضد المدنيين الكرتزيانيين ، لا بل اقدم المستشار ، في السنة ١٦٩٢ ، على تأنيب مؤلف «مركور الظريف » لانه نشر « شيئاً ما » تعرض فيه لسمعة ديكارت.

تشويهات الكرتزيانية

ولكن الكرتزيانية التي انتشرت لم تكن ، من جهة ثانية ، مذهب المعلم الصحيح الذي كان ارفع واعز من ان يستطيع الكثيرون ان يدركوه ويحيوه في مجموعه. ان ما احرز النجاح كان كرتزيانية مشوّهة تلطفها الغسندية والمذهب الذري . يتضح ذلك في « الاسس الطبيعية » لـ « ريجيوس » (١٦٤٦) و « التمييز بين الجسد والروح » لِـ « كوردموا» الذي عين قارئا لولي العهد بوساطة بوسويه ، و « بحث في الطبيعيات » الشهير لِـ « روهو » (١٦٧١) الذين اعيد نشره تكراراً ، « والجملة الفلسفية » لريجيس (١٦٩٠) . فان هؤلاء الفلاسفة ، الذين تعودوا التفسيرات الآلية ، ولم يروا بعد ضرورة لاثبات قيمة العلوم الطبيعية الرياضية ، وكانوا اقل تحمساً للحقيقة من ديكارت ، وحملتهم فطنتهم ، من

جهة ثانية ، على عرض آرائهم مجزأة وكأنها نظريات او ترجيحات ، قد فصلوا العلم عن علم المعقولات ونادوا باستقلالها الواحد عن الآخر ولم يعودوا يبحثون عن استخلاص كل شيء من مبدأ واحد ، بل يقدمون مجموع تفسيرات آلية لظواهر منفردة . وتملقوا بالاختبارات تدفعهم اليها رسائل ديكارت التي يتجلى هذا العقائدي فيها مختبرا دان له الكل بالكثير خلال القرن السابع عشر . وفي نظرهم ان مطابقة الاختبار للنظرية تعطي احتمالا عقلياً يكتفون به . وهم يبدون عاجزين عن التفريق بين الفكر والصورة ، بين الفكر والحس . سبق لديكارت ان لفت الانتباه الى اننا قد نكوّن فكرة واضحة وجلية عن شكل له الف ضلع يستحيل علينا تصوره. أما في رأي ريجيوس وريجيس ، « فالفكرة » لا تمثل لنا هذا الشكل تمثيلاً اوضح من شكل آخر يختلف عنه بعدد اضلاعه . فلا عجب من ثم اذا ما انزلقوا نحو مذهب الحاسّيين : كل افكارنا تأتينا من الاختبار والحواس . اما الافكار الازلية ، كفكرة الله ، فتتكون بالتجريد والافتراضات الاختيارية . والنفس لا تعمل الا بفعل ارتباطها بالجسد ، ثم تفنى بعد الموت . وانزلقوا نحو المذهب الذري ايضاً لأن جزئيات المواد ، كما يقول « كوردموا » تصير حتماً الى الانسحاق لولا وجود الذرات . ونظرت « صحيفة العلماء » الى الكرتزياني ريجيس ، الذي لم يعرف لا نيوتون ولا لوك ، نظرتها الى احد الغسنديين .

تقدم العلوم ضد الكرتزيانية يضاف الى ذلك اخيراً ان اكتشافات علماء الطبيعة قد خطّأت الآليون ونقد ديكارت ديكارت في العديد من النقاط ايضاً . يرد ذلك الى ان ديكارت يبدي بعض اللامبالاة حيال الوقائع . انه يستخلص ، وفي رأيه ان الاختبار هو موافقة بين آن من اوان الاستخلاص وبين التحقق من ظاهرة ما . فسّر بعض الوقائع المعروفة تفسيراً آلياً دون ان يستثبتها دائماً . انتقد التفسيرات السابقة ولكنه نادراً ما انتقد الوقائع . يسلّم بأن الصاعقة تتحول حجراً ، وبأن النيازك والمذنبات ليست سوى مجرد ابخرة ملتهبة . يشاطر ارسطو رأيه في ان القلب مركز حرارة قوية يضعها الله فيه . هذه الحرارة تغلي الدم الذي تتخثر ابخرته في الرئة . الغليان يسبب حركات القلب . ويدافع ديكارت عن الدورة الدموية، ويشهر « هارفي » بايراد اسمه في « الخطبة »، ولكنه لا يسلّم بتفسيرة لحركات القلب. اما هارفي فيبين ان حركات القلب دقات مفاجئة وحركات سريعة لا قدرة للغليان على احداثها. ديكارت يتمسك بنظريته لانها تبرر الفرق بين دم الشرايين ودم الاوردة .ويتمسك بها كذلك لانها تتيح له الحفاظ على تسلسل استخلاصاته ، وينبذ الملاحظة الثانية التي لا تندمج فيها . ويكتب لـ « مرسين » : اذا كان تفسيري خاطئاً ، فكل فلسفتي خاطئة ايضاً » . ولكن الملاحظين اضطروا لان يقولوا قول هارفي : القلب عضل ينقبض .

روهمر وسرعة النور وانجرّ ديكارت كذلك ، بفعل مفهومه للاتساع ، الى اعتبار انتشار النور انتشاراً فواتياً . الاتساع هو جوهر المادة ، فالجرم من ثم جزء محدود من الاتساع ، وهو بالتالي مغلق وعادم الحركة . وليس لحركته او لتوقفه سوى سبب واحد هو الصدمة . عمل الصدمة فواتي ، لذلك فان عمل النور ينتقل من الاجرام

المنيرة الى العين على طريقة انتقال حركة الدفع من طرف عصا صلبة الى طرفها الآخر . ويعلن ديكارت ان فلسفته ستنهار كلياً اذا اثبت الاختبار الحسي وجود تأخر ما ، لان مذهبه متماسك الحلقات . ولكن الدانمركي « رومر » لاحظ في السنة ١٦٧٦ ظهور القمر التابع الاول حين خروجه من ظل جوبيتير ، بالنسبة لاوضاع الارض المختلفة على مدارها ، فتحقق له ان النور يتأخر ستة عشر دقيقة عن بلوغ الارض حين يتوجب على القمر اجتياز مدار الارض . وكانت نتيجة العملية الحسابية التي اجراها ان سرعة النور تبلغ ٣٠٨ ٠٠٠ كيلومتر في الثانية . وتقدر هذه السرعة اليوم في الثانية بحوالي ٧٧٨ ٢٩٩ كم في الهواء وبـ ٧٩٦ ٢٩٩ كم. في الفضاء .

ليبنيز والحركة

وانتهى ديكارت اخيراً الى الكف عن البحث عن الصيغة الرياضية لسنن الطبيعة .ولا غرو فآليته آلية الصدمة . ولما كان سبب كل حركة حركة ، لا يمكن ان يجري التبادل الا بالصدمة التي تفسر الصدم والضغط والثقل . العلة الاولى للصدمة هي ذاك الثبات الالهي الذي يستلزمه عقلياً دوام الحركة . من هذه العلة الاولى نستخلص عللاً ثانوية ، مبدأ ثبوت الجماد ، المبدأ العام لتصادم الاجرام الذي تؤلف ملاحقه السنن السبع لتصادم الاجرام ، واخيراً مبدأ الجماد . وقد اعطى ديكارت مبدأ تصادم الاجرام العام الصيغة التالية : « اذا كان الجرم المتحرك الذي يصطدم بجرم آخر اقل قوة لمواصلة الحركة المستقيمة من هذا الجرم الآخر لمقاومته ، فانه يفقد بعض الشيء من مقصده دون ان يفقد شيئاً من حركته ؛ و ... اذا كان اعظم قوة ، فانه يحرك معه هذا الجرم الآخر ويفقد من حركته بقدر ما يعطي منها » .

بيد ان ليبنيز قد أثبت ، بعد ان أكتشف حساب الكمية الصغرى في السنة ١٦٧٦ ، خطأ سنة دوام الحركة التي توصل اليها ديكارت . يفرض ديكارت خطأً ان الحركة مقياس القوة ، التي هي حاصل ضرب الحجم بالسرعة ، اي ح × س ، لان لبرة تهبط اربع اقدام تحقق طبعاً قوة اربع لبرات تهبط قدماً واحدة . ولكن نسبة حركة اللبرة لحركة اللبرات الاربع ، كما يقول ليبنيز ، هي نسبة ٢ لِـ ٣ بحسب سنن غاليليو ، وان المطابقة في الوزنين هي حاصل ضرب الحجم بربع السرعة اي ح × س^{٢} ، وهذه القوة هي الثابتة الحقيقية التي يبحث عنها ديكارت .

وفي رأي ليبنيز ان سنن التصادم التي توصل اليها ديكارت تناقض مبدأ الديمومة الذي هو ملحق مبدأ اللانهاية . يعبرمبدأ الديمومة عن خاصية مشتركة بين كافة التنوعات الحقيقية هي التالية : الطبيعة لا تقفز قفزاً ، ولا يمكن لشيء ان ينتقل من حالة الى اخرى الا بوسائط متعاقبة لا يحصى لها عد . « ان ما يمكن مشاهدته استمرار مركب من اجزاء لا يمكن مشاهدتها ؛ لا شيء يحدث فجأة ، لا الفكر ولا الحركة » . الواقع ديمومة قد نعجز عن استقصاء اجزائها . وقد اعتقد ديكارت ، بسبب انكفافه عن مواصلة التعمق في فكرة

اللانهـــاية ، وافتقاره الى مبدأ الاستمرار والى الاداة الرياضية الضرورية ، اي تحليل الكمية الصغرى ، والى الاختبارات الكافية ، بأن الجرم ، كلما استوقفه عائق متمطط ، يطفر ويعود الى الوراء بسرعة مساوية عددياً لسرعته الاولى ، لان حركته تستمر ومقصـده ينعكس . ولكن هذه الظاهرة لا تحدث الا في بعض الحالات . ولو ان ديكارت فكـر بالحالات التي يكون فيها للجسم الصادم قوة تفوق مقاومة الجسم المصدوم بقدر غـاية في الصغر ، لأدرك ان الصدمة ليست ظاهرة بسيطة بل معقّدة جداً تنطوي على تعاقب تحول حركات طفيفة جداً : خمود ، تبادل تشوه الاجرام ، توقف ، استعادة الشكل ، استعادة الحركات . كل هـذا الذي يدوم ، على الرغم من انه يبدو فواتياً ، اعتبره ديكارت بسيطاً . فتوصل من ثم الى آلية حركيّة لا يستطيع ان يحسب فيهـــا شيئاً . واضطر بسبب ذلك لان يتخيل ، لتفسير نوع من الظواهر ، آلية تصورها على غرار الحيل البشرية . ولكن نتيجة واحدة قد تحقق بعـدّة اليات مختلفة كل الاختلاف بعضها عن البعض الآخر . لذلك فان مكتشف الهندسة التحليلية ، والعالم بعلم الكائنات الذي جعـل من الرياضيات جوهر الواقع ، ومنقذ علم الطبيعيـــات الرياضي ، قد انتهى الى مذهب في العالم لم يعد فيه مكان للرياضيات .

باسكال
ونظرية رجحان الافتراض

كل هذا اثبت ان الطريقة الكرتزيانية تنطوي على خطأ اساسي . فمنذ نشر الخطب ، راح علمـــاء كثيرون من المقربين الى مرسين وروبرفال وغسندي وباسكال وهوبس يبتسمون تهكماً من مماثلة الاتساع للمادة ويحكمون على تولد الظواهر من تقلبات المـــادة اللطيفة والزوابـع حكمهم على مجرد اسطورة . « ان اسفاط البوري ... وماء البحر والخشب العفن تنطوي ، في هذا القـدر القليل من النور الذي تولده « على بدائع تفوق كل ما نستطيع معرفته » . واستمروا في التحزب للفراغ ضد الملء الكرتزياني ، وكان اشهرهم «بليز باسكال[1]» ، ابن احد القضاة في محكمة المساعدات في « كلرمون – فران » . نظر الى المادة اللطيفة التي قال بها ديكارت كما الى صـــورة جوهرية ونظر الى ديكارت كما الى فيلسوف مـدرسي . ازدرى بنظرية الافتراض الكرتزيانية وباعتقادية ديكارت المبنية على مبدأ عقلي اكيد لا يحتاج تحقيقه الى اختبار . في رأي ديكارت ان نظرية النور تستخلص من السنن التي طبع الله مثل مفاهيمها في نفوسنا والتي لا يمكننا ، بعد امعان التفكير بها ، ان نشك في انها تطبق بكل دقة في كل ما هو موجود او حادث في العالم . الله أوجـــد المطابقة بين نفوسنا ، حيث اودعت بذور الحقيقة ، وبين العالم الواقعي الذي يخضع لسنن الله . فالاستخلاص ، من ثم ، سيتيح لنا ادراك الواقع . ولكن باسكال يكتب بخلاف ذلك : « ليس كافياً ، لكي يكون الافتراض جلي الوضوح ، ان تنتج عنه كل الظواهر ... لان كل اشياء هذه الطبيعة ، التي لا يبرز وجودها لاية حاسة من حواسنا ، يصعب الايمان بوجودها بقدر ما يسهل اكتشافها » . ليس للافتراض من قيمة الا اذا امكن استثباته بالحواس . ويكون محتملا حين يتفق والحواس كلها . ولكنه قد لا يكون صحيحاً ، فاذا نتج عنه ما يناقض ظاهرة واحـــدة من

---

١ ـ باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات ـ صدر عن منشورات عويدات (الناشر)

الظواهر مثلا ، فيكون ذلك كافياً للجزم في بهتانه » . قابل باسكال اعتقادية ديكارت ومبدأه العقلي الاكيد بنظرية اختبارية الافتراض ورجحانه . وقد توصل بالفعل الى نتائج جلية . فقد فسر بثقل الهواء صعود الماء في الانابيب الذي عزي حتى ذاك التاريخ الى نفور الطبيعة من الفراغ. وفي السنة ١٦٤٨ ، اثبت ، باختبار « بوي دي دوم » ، افتراض توريشلي ، الذي قال بان الهواء وازن · وفي كتابه « بحث في توازن السوائل وثقل الهواء » ، رد كل الظواهر الى حركات المادة ووضع مبدأ الضغط المائي ، وابتكر ميزان الجو ، ووفر امكانية حساب صعود الماء في الانابيب في كل مكان من العالم وحسب وزن كل الهواء الذي يحيط بالارض . ومنذ السنة ١٦٥٧ ، وضع اسس حساب الاتفاق . فجاءت النتائج تبرر مفهومه للافتراض .

منهج الآليين

ولكن ذلك أفضى بالنتيجة الى ان مبادىء المهندسين غير لازمة الحدوث وانها مجرد معطيات حقيقية واختبارية تدرك بالحدس ، او بالقلب ، كما يقول باسكال. فعلم الطبيعيات ليس من ثم علماً اثباتياً ، استنتاجيا ، مرتبطا بعلم المعقولات . وفي هذه الحالة ليس علم المعقولات ، وهو علم صوري على غرار الرياضيات والجدل والمنطق ، تحليلا للواقع . فليس من ثم اي اعتراض اذا لجأ باسكال الى القلب لاثبات الدين . رفض العلماء المبادىء العقلية الاكيدة ومبادىء علم المعقولات وبراهين اثبات السنن . لم يقبلوا بهذه الاعتقادية الجديدة . واكتفوا ببعض القواعد المنهجية البسيطة : رفض التسلط ، واستيحاء العقل في كل شيء ، واعتبار الجلاء مقياساً للحقيقة ، والفصل أبداً بين المبهم والواضح ، والاختبار لاجل المراقبة ، لان لا سبيل لنا الا الى الكائن العلمي ، لا الى الواقع ، ولا سبيل لنا الا الى الكمية التي ليست سوى احد مرائي الظواهر . ليست سنننا سوى أوصاف للطبيعة ، لا براهين على تركيبها . فلنقل : « كل شيء يحدث كما لو ان ... » ولكن الجميع يؤمنون بالسنن الطبيعية ، ومن ثم بالاله السامي الثبات والاستمرار في مقاصده ، الذي خلق العالم على غرار آلة ضخمة تقصي سنة الجماد عنها مع قاعدة ديمومة العمل ، التي هي القاعدة الذهبية في علم الطبيعيات الجديد ، كل سحر ، وتجعل من العلم معرفة شتى أنواع الحركات المنظمة . وهكذا تخلخل مذهب ديكارت بدوره بفعل هذه الآلية العملية . بيد ان التأليف لا يهدم الا بتأليف آخر توصل اليه نيوتون .

تأليف نيوتون

ان نيوتون (١٦٤٢ – ١٧٢٧) ، استاذ الرياضيات في جامعة كمبردج (ترينتي كولدج) منذ السنة ١٦٦٧ ، وعضو الجمعية الملكية للعلوم منذ السنة ١٦٧٢ ، وموظف دار النقود في لندن منذ السنة ١٦٩٥ ، قد قام في وقت واحد ، منذ ١٦٦٥ – ١٦٦٦ ، بابحاثه الرياضية والآلية والبصرية . في تموز ١٦٨٧ ، نشر « المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية » التي طبعها طبعة ثانية في السنة ١٧١٣ . وظهر كتابه ، « بحث في البصريات » ، في السنة ١٧٠٤ . ولكنه ، منذ السنة ١٦٦٦ ، أطلع اصدقاءه على اسلوبه في حساب المدود وابحاثه الاولى حول الجاذبية الكونية . ومنذ السنة ١٦٧٢ نوقشت في جمعية لندن

الملكية طريقته في تحليل الضوء الى ألوانه الاولية بواسطة الموشور، كما نوقش، منذ السنة ١٦٧٥، مفهومه للهواء الاصفى المعد لتفسير الجاذبية الكونية .

منهج نيوتون

منهجه هو منهج باسكال والآ لبين الاقحاح . ولا يبدو انه استوحى «بيكون» . ففي رأي العالم الانكليزي ، « دافيد بروستر » ، ان نيوتون ليس مديناً بشيء لبيكون ، وحتى لو لم يكتب بيكون شيئاً ، لما حال ذلك دون اكتشافاته ، لا سيما وانه من المستحيل ان يكتشف شيئاً بمناهج بيكون .

نيوتون يسير في طريق التحليل . يرفض « الافتراضات » ، اي كل القضايا التي لا تستنتج من الظواهر . وهو لا يعني بذلك رفض كل افتراض يستهدف البحث ، وهذا أمر مستحيل ، بل كل قضية لا يمكن استثباتها باختبار تقع نتائجه تحت الحواس. على الفيلسوف ان يجري ملاحظات واختبارات ويخلص منها بالاستنتاج الى نتائج عامة واعتبار هذه القضايا صحيحة الى ان تثبتها بعض الظواهر اثباتاً كلياً أو تظهر انها قابلة للاستثناءات . لا يستطيع اي « افتراض » اضعاف البراهين المبنية على استنتاج مستخلص من الاختبار . يجب على الفيلسوف ان لا يسلم الا بالعلل التي هي كلية الضرورة لتفسير الظواهر ، لأن الطبيعة لا تفعل شيئاً دون جدوى ولانها لا تلجأ في عملها الا الى حد ادنى من العلل البسيطة جداً . يجب الا يبحث الا عن العلل الموجودة حقاً ، لا « عن السنن التي كان باستطاعة الكلي القدرة ان يوجد بواسطتها النظام المدهش الذي يسود الكون ، لو رأى من الموافق استخدامها ، بل تلك التي وضعها بعمل حر صادر عن ارادته . فيمكننا ان نعتقد بالصواب بأن المعلول الواحد قد ينتج عن عدة علل مختلفة ؛ ولكن العلة الحقيقية ، في نظر الفيلسوف، هي تلك التي تحدث حالياً المعلول موضوع البحث : ولا تعترف الفلسفة الصحيحة بغيرها » . ومن البديهي ان الفيلسوف يستخدم الرياضيات ، ولكن بحسب رأي غاليليو وباسكال ، بغية حساب وارتقاب عدد كبير من الظواهر، لا بغية اسدال الستار على جوهر خفي ما ، كالقوة الجاذبة الحقيقية مثلاً . هذه البراهين لا توصل، على وجه مقنع، الى نتائج عامة، ولكن يغدو ممكناً، بفضل هذا التحليل، الانتقال من المركبات الى البسائط، ومن الحركات الى القوى التي تسببها، ومن المعلولات الى العلل، ومن العلل الخاصة الى علل اعم. ثم يتيح التأليف الانطلاق من هذه العلل المعروفة والممتحنة وعرض نظام وترتيب الظواهر المرتبطة بها .

حساب الكمية الصغرى

ابتكر نيوتون الاداة الرياضية الضرورية للابحاث الجديدة . منذ السنه ١٦٦٥ ١٦٦٦ صمم طريقة المدود التي اطلع الجمهور على مبادئها الاساسية في كتاب « المبادىء » ، وعلى علاماتها الخاصة في المجلد الثاني من كتاب جبر « ووليس » الذي نشره هو . لقد سبق لكبلر منذ السنة ١٦٣٥ ان استوحى مفهوم اللانهاية الجديد وطلع بفكرة الكميات الكبرى والكميات الصغرى التي نبذتها الهندسة اليونانية . تخيل الدائرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه من مثلثات تجتمع رؤوسها في نقطة الدائرة وتتوزع

قواعدها على محيط الدائرة ؛ والكرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه مـــن الاهرام . وسبق لديكارت ان ادخل على الرياضيات فكرة الحركة التي افتقرت اليها الهندسة اليونانية . وسبق لووليس (١٦١٦ - ١٧٠٣) ، في كتابه ، « حساب اللانهاية » ، ان استخدم سنة الاستمرار التي تفرق بين الهندسة العصرية والهندسة القديمة . درس نيوتون كبلر وديكارت وفييت ووولبس. فرض ان المحور الافقي يزداد ازدياداً متساوياً بدلالة الزمان ، فاعتبر مساحـــة المنحني كمية ناشئة تزداد بنسبة طول المحور العمودي . توصل الى جملة المد واوضحها في حدود متوالية متناهية او لامتناهية . أما منهجه فطريقة حساب الكمية الصغرى الشبيهة بطريقـــة ليبنيز . فقد توصل ليبنيز ، خلال احدى اقاماته في باريس، حيث حوّل هويغنس شغفه نحو الرياضيات ، الى ان يبتكر بدوره حساب التفاضل وحساب التكامل ، ونشر مبادىء الاول في السنة ١٦٨٤ ومبادىء الثاني في السنة ١٦٨٦ ، مع العلامات التي ما تزال مستخدمة في ايامنا هذه . ولكنه اعتقد بأنه اكتشف جوهراً خفياً حين اهتدى الى ح × س٢ ، ولم يتمكن من استخدام اكتشافه في حساب سنن الطبيعة . ومنذ السنة ١٦٩٩ ، وخلال جدال حاد ، اتهم نيوتون بانتحال ليبنيز وليبنيز بانتحال نيوتون .

مسألة الجاذبية

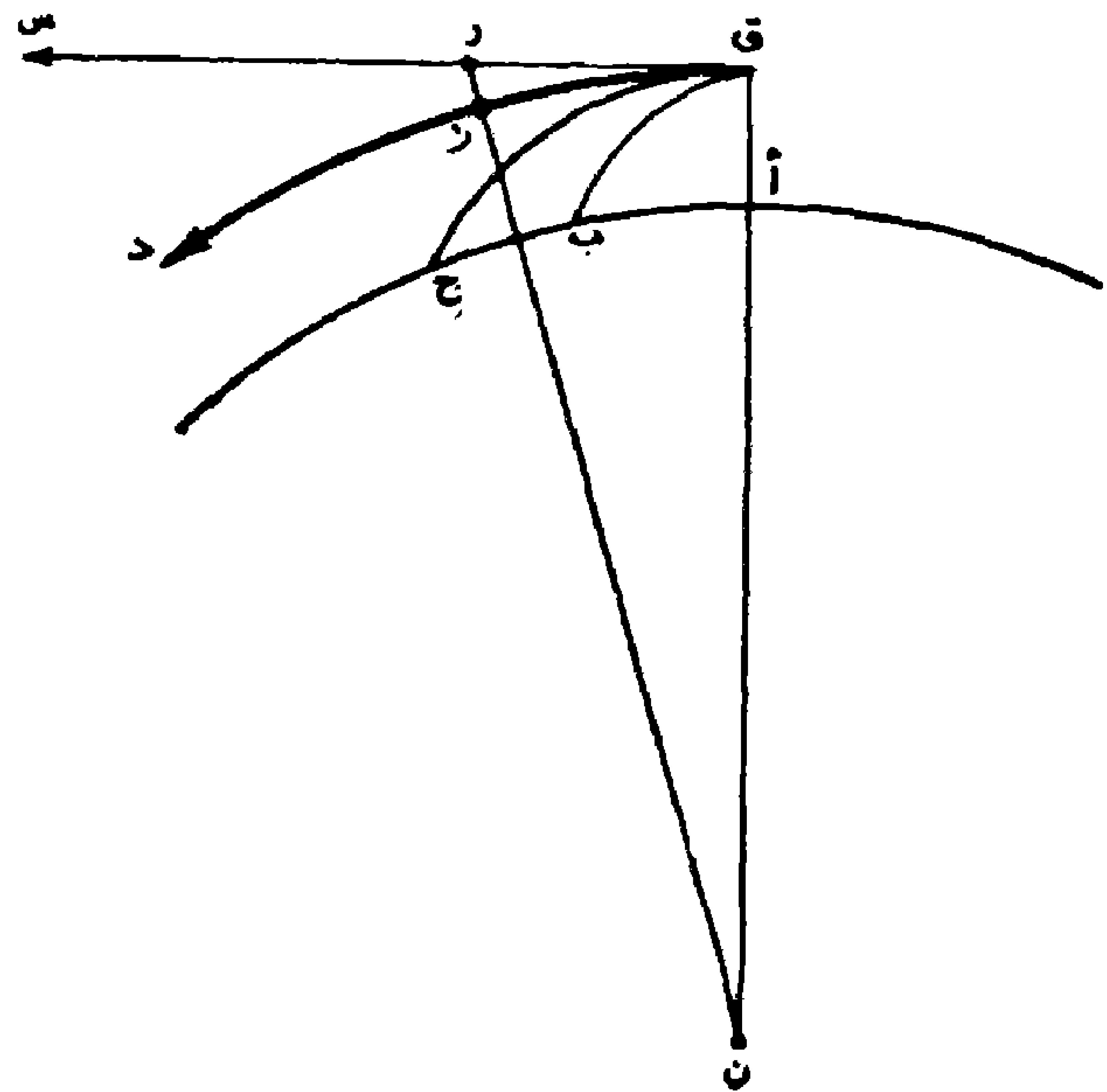
استطاع نيوتون ، بعد هذا الاكتشاف، مجابهة مسألة لم يتوفق كبلر وغاليليو الى حلها . القوة الخارجية ضرورية لتحويل حركة جرم مستقيمة ومتساوية السرعة . فما هي والحالة هذه القوة التي تحيد الكواكب عن الخط المستقيم في الفضاء وتجعلهـــا ترسم خطوطاً منحنية يا ترى ؟ منذ السنة ١٦٦٦ فكر نيوتون بحركة القمر حول الارض فتساءل عما اذا لم تكن الجاذبية ، التي يُستثبت تأثيرها حتى في اعلى قمم الجبال ، تمتد الى القمر وتؤثر في هذا الجرم وتبقيه على مداره ، وعما اذا لم تكن الجاذبية هي القوة الجاذبـة الى المركز . استند في براهينه ، بالمماثلة ، الى حركة القذائف . فاذا زادت السرعة ، قاومت القوة الجاذبـــة الى المركز ، وسقطت القذيفة على سطح الارض في مكان يزداد بعده بنسبة سرعتها . فيمكننا من ثم تصور قذيفة تسير بسرعة فائقة بحيث انها لا تسقط بل تعود الى قمة الجبل العالي الذي يفترض انها أطلقت منها . واذا كانت سنة كبلر الثالثة صحيحة ، فكما ان المساحات التي يرسمها شعاعها الى مركز الارض تكون نسبية للوقت ، كذلك تكون سرعتها في طريق عودتها الى الجبـــل مساوية لها عند الانطلاق ، فتستأنف دورتها كما تفعل السيارات بالضبط على مدارها . وقد بلور افكار نيوتون في المسائل المطلوب حلها هبوط تفاحة سقطت على الأرض .

فأخذ نيوتون من ثم يحاول معرفة السنة التي بموجبها تتدنى قوة الجاذبية كلما ابتعد الجرم عن الأرض .

ان قذيفة تترك وشأنها في النقطة ق تهبط وفقاً للخط العمودي ق ا . ولكنها تطلق وفقـاً للخط الافقي ق س بسرعة تقاوم الجاذبية . كان من الواجب بعد مرور ثانيـــة ان تكون في

النقطة ر ، ولكنها تكون في النقطة ر١ على محيط دائرة شعاعها ن ق . فقد سقطت اذن من ر الى ر١ ي خمسة امتار .

بموجب هذه السنة حسب نيوتون آنذاك مقدار الاسراع الذي تحدثه قوة الجاذبية في جرم يبلغ بعده بعد القمر . ارتأى ، بالاستناد الى سنن كبلر ، انه ، في الارجح ، نسبي نسبة عكسية لمربع الأبعاد . فاذا كان الامر كذلك ، ولما كان هذا الجرم ، الموجود على مقربة من سطح الارض ، وتفصله عن مركز الارض مسافة توازي الشعاع الارضي ، اي ٦٤٠٠٠٠٠ متر ، يهبط ٥ امتار أو ٥٠٠٠ مم في الثانية ، فانه حين يكون على مسافة توازي مسافة القمر ، أي على بعد ٦٠ شعاعاً ارضياً ، أو ٣٨٤٠٠٠٠٠٠ متر ، يهبط في الارجح ٥٠٠٠ مم : ٦٠^2 اي ١،٣٩ مم.



الشكل ١٤ ـ السقوط ر ز الذي تسقطه في ثانية قذيفة مندفعة بسرعة كافية لأن لا تهبط في ب او ج بل لأن تدور حول الارض وفاقاً لدائرة شعاعها ن ق .

تبقى على نيوتون معرفة ما اذا كان هذا المقدار هو مقدار اسراع انجذاب القمر نحو المركز يرسم القمر محيط دائرة في ٢٨ يوماً ، أو ٢٤١٩٢٠٠ ثانية . شعاع هذه الدائرة يوازي شعاع الأرض ٦٠ ضعفاً أي ٣٨٤٠٠٠٠٠٠ متر ومحيطها ٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠ متر . فسرعة القمر من ثم هي دون ١٠٠٠ متر بقليل . فيتضح بعد حساب وتر الزاوية القائمة ن ل في المثلث القائم الزاوية ن ق ل ان القمر يهبط ، بعد مرور ثانية ، من ل الى ل' اي ١،٣٩ مم . فاهتدى نيوتون تقريباً الى المقدار نفسه الذي اهتدى اليه في حسابه الاول . واتضح من ثم ان الجاذبية الارضية تتحول كعكس مربع المسافة .

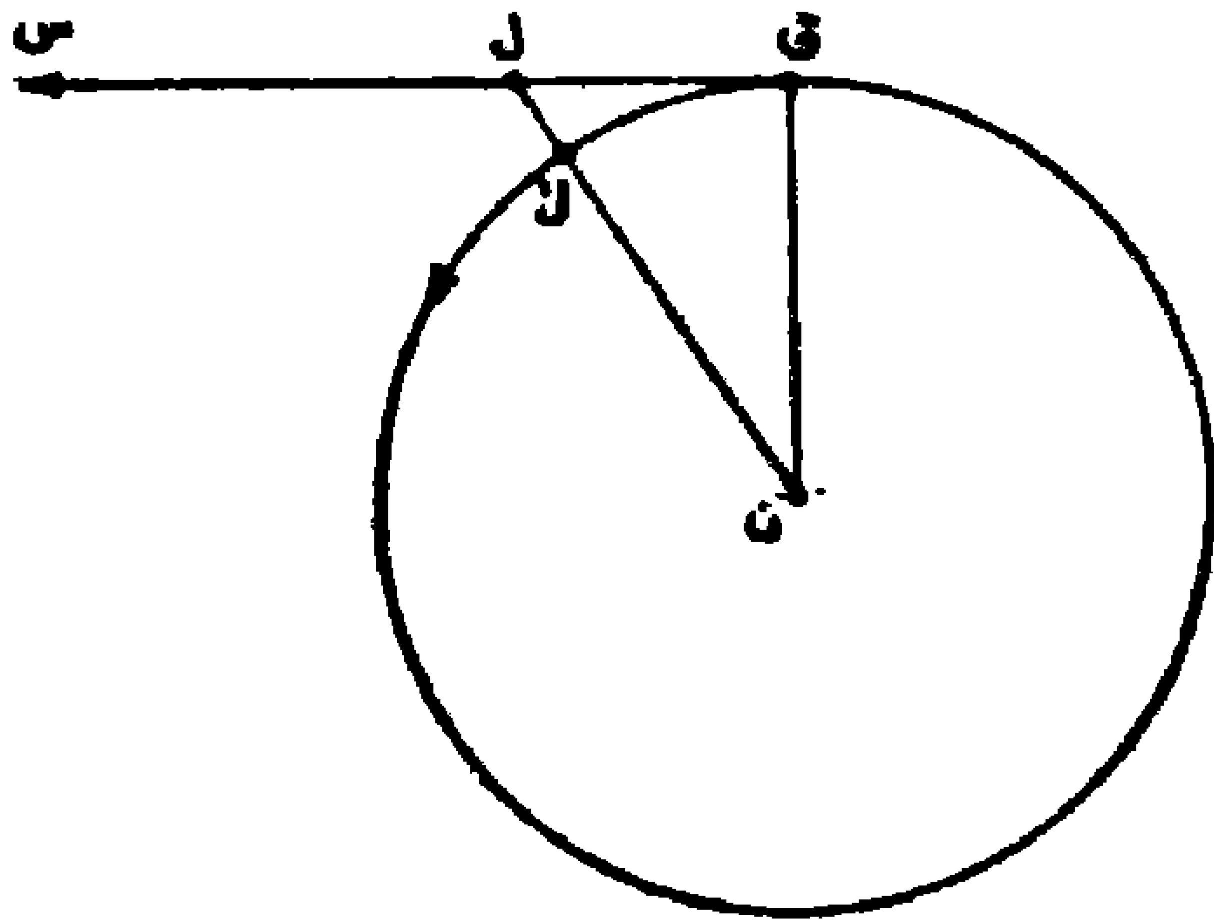
أما الهولندي « هويغنس » (١٦٢٩ — ١٦٩٥) الذي كان والده صديقاً لديكارت فقد حاول بدوره ، بعد ان اكتشف حلقة زحل في السنة ١٦٥٦ ، تركيب ساعة ذات رقاص ، ودرس هبوط الاجرام الوازنة ، ودرس قوة السيارات المبعدة عن المركز ، وغدا على قاب قوسين من سنة الجاذبية . ولكنه اعتمد الهندسة القديمة بصورة خاصة ، فلم يهتد اليها (« ذبذبة الساعة » ، ١٦٧٣) . فاستفاد نيوتون ، بعد ذلك ، من نظريته في القوة المبعدة عن المركز ،

أو الحركة الدائرية ، ليثبت ان قوة الجاذبية الشمسية تتحول ، هي ايضاً ، كعكس مربع المسافة ، وليرتفع الى سنة الجاذبية العامة .

بيد انه لم ينشر استنتاجاته لانه لم يعرف ما اذا كان يقتضي حساب المسافة بين الكواكب وسطح الارض أو بين الكواكب ومركز الارض . وليس صحيحاً انه اضطر الى انتظار نشر قياس خط الطول الذي اجراه الاب بيكار في السنة ١٦٦٩ – ١٦٧٠ ، لمعرفه الشعاع الارضي وحساب المسافة بين الارض والقمر . فقد كان لديه عدة تقديرات كافية لطول الشعاع الارضي نخص بالذكر منها تقدير « غونتر » . ولكنه حل ، في السنة ١٦٨٠ ، مسألة معرفة مسيرة جزء صغير يتحرك في جوار قوة جاذبه تتحول بحسب سنة المربع المعكوس. فاظهر ان هذه المسيرة قطع اهليلجي يحتل الجرم الجاذب أحد محترقيه . وأثبت في السنة ١٦٨٥ أن جرماً كرويا ذا ثقل نوعي متساو في كافة نقاطه المتساوية البعد عن مركزه يجذب جزءاً صغيراً خارجياً كما لو كان كل ثقل الجرم مجموعا في مركزه . فبات من ثم باستطاعته اعتبار كافة أجزاء النظام الشمسي كما لو كانت اجزاء صغرى ثقيلة . وقرر اذ ذاك نشر « المبادىء » .

نظرية نيوتون

درس فيها ، أول ما درس ، الحركات الطليقة للاجزاء الصغرى والاجرام الخاضعة لبعض سنن قوى معلومة . فاقر مبادىء أساسية مسلماً بها بدون برهان ، هي وجود زمان « مطلق وحقيقي ورياضي ، يجري جريانا متساويا دونما اعتبار لاي شيء خارجي ، ووجود فضاء مطلق «يبقى هو هو دون تغير » ، ووجود « حركة مطلقة » هي « انتقال جرم من مكان الى آخر » ، وقد غدت هذه المبادىءمبادىء علم الطبيعيات حتى « انشتين » . وأقر أخيراً ، كمبدأ أساسي ، ثبات سنن الطبيعة .



الشكل ١٥ – السقوط للَا الذي يسقطه القمر في ثانية

وصاغ سنن الحركة :

١ – كل جرم يستمر في سكونه أو في حركته المتساوية السرعة وفاقا لخط مستقيم ، ما لم تتبدل حاله بفعل بعض القوى . وهذه سنة سبق لديكارت ان صاغها .

٢ – ان تبدل الحركة نسبي للقوة ويجري في اتجاه انطلاق القوة . ويستخلص ذلك من استنتاجات غاليليو

٣ – يقابل كلَّ فعل ردة فعل موازية ،أو الافعال المتبادلة بين جسم وآخر متساوية ومتقابلة

ابداً . ويعود الفضل في صياغة هذه السنة الى نيوتون وحده .

قادته حساباته الى تأمل الاجزاء الصغرى الثقيلة. كما ان تجمد السوائل، واحتفاظ الاشعة الضوئية بخصائص مختلفة في جهاتها المختلفة، الذي جعله يعتقد بان الاشعة المضيئة اجسام جامدة، وثبات طبيعة الماء ذاتها وطبيعة الارض عينها واجزائها الصغرى منذ قرون ، الذي يبعد فكرة الدروس التي قال بها ديكارت ، قد حملته على اعتبار كل الاجسام مركبة من اجزاء صغرى متسمة صلبة ، ثابتة ، مستغلقة ، لا تقسم ، متحركة وذات قوة ثبوت ، اي مركبة من ذرات .

مهاجمة نيوتون للزوابع الكرتزيانية

ان هذه الاجزاء الصغرى تتحرك في الفراغ أو اقله في وسط قليل الكثافة جداً . وهاجم نيوتون في المجلد الثاني من « المبادىء » زوابع ديكارت ونظرية الملء . استخلص بالحساب نتائج المبادىء الآلية الكرتزيانية واظهر ان علم الطبيعيات الزوبعي يفضي الى نتائج تتنافى وسنن كبلر . فاذا دارت كرة صلبة مثلاً في سائل جنيس خاضع لحركة دائرية متساوية السرعة، فان الوقت الدوري لاجزاء هذه الزوبعة الكرتزيانية يكون نسبياً لمربعات المسافة الى مركز الكرة . ولكن الاوقات الدورية للاقمار التي تدور حول جوبتير هي بنسبة واحد ونصف لمسافاتها الى مركز هذه السيارة ، والقاعدة نفسها ترعى السيارات التي تدور حول الشمس. فلو كانت هذه السيارات تنتقل بفعل الزوابع ، لخضعت هذه الزوابع للسنة نفسها التي تخضع لها السيارات . ولكن لا شيء من ذلك ، اذن ليس من زوابع .

وبحسب الآلية الكرتزيانية كذلك ، تتحرك الاجرام ، التي تنقلها الزوابع ، وفاقاً للسنة نفسها التي تسير اجزاء الزوابع ، من حيث السرعة والاتجاه . ولكن ، لو كان هنالك زوبعة لكانت مادة الزوبعة ، بتأثير ضغط مادة الزوابع المجاورة ، اشد انحصاراً ، في اقصى نقاط القطع الاهليلجي عن الشمس ، منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولكانت مادة الزوبعة المنحصرة اسرع حركة في اقصى نقاط القطع الاهليلجي عن الشمس منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولفاصت السيارة في الزوبعة ايضاً . ولكن السيارة ، بحسب سنة كبلر الاولى ، اسرع حركة في ادنى نقاط القطع الى الشمس منها في اقصاها . فليس ثمة من زوابع .

لو كانت الكواكب تنتقل بفعل الزوابع لصعب التوفيق بينها وبين وفرة الزوابع ، وبينها وبين حركة الزوبعة الشمسية وحركات زوابع السيارات ، ولصعبت معرفة كيف ان المذنبات التي تنقلها الزوابع ، تستطيع ان تجتاز بسرعة فائقة وبسهولة فائقة مدارات السيارات من خلال زوابع هذه الاخيرة .

واخيراً ، لو كانت الفضاءات السماوية ملأى بالمادة ، دون ان يتخللها اي فراغ ، وبالتالي

كثيفة جداً ، مهما كان من رقة وسائلية هذه المادة ، لكانت مقاومتها اكبر من مقاومة الزئبق ، ولفقدت الكرة الصلبة ، في مثل هذا الوسط ، اكثر من نصف حركتها في اجتيازهـا ثلاثة اضعاف محورها . « لذلك يقتضي ان تكون هذه الفضاءات السماوية ، التي تتحرك فيها السيارات والمذنبات في كل اتجاه،حركة طليقة مستمرة ، دون اي نقص محسوس في حركاتها ، خالية من كل سائل مادي .

بيد ان ميزان الحرارة الذي يوضع في الفراغ يشير الى الحرارة نفسها التي يشير اليها ميزان آخر يوضع في الهواء ، وفي الوقت نفسه تقريباً . فيمكننا التسليم اذن بان الحرارة تنتقل في الفراغ بفعل اهتزازات وسط أرق من الهواء الى حد بعيد يبقى في الفراغ بعد اقصاء الهواء عنه بواسطة المضخة الماصة . ويمكننا ان نسلم كذلك بان هـذا الوسط هو نفسه ما يكسر النور ويعكسه ، ويدفىء النور الاجسام بفعل اهتزازاته . ويمكننا اخيراً ان نسلم بان هذا الوسط ، اي الاثير ، يملأ السماوات كلها ويتسرب الى الاجسام كلها .

آلية الفراغ الذرية

وهكذا تمكن نيوتون ، بتطبيق براهينه حيال الكواكب ، بالمماثلة ، على اجزاء الاجسام الصغرى ، من بناء آليـة ذرية مرتكزة الى الفراغ والجاذبية الكونية . في الفراغ تتحرك كائنات مادية هي عبارة عن نقطة ذات ثقل ثابت . كل من هذه الذرات يخضع لقوة جاذبة تنبثق عن نقطة اخرى ويعمل بدوره في هذه الاخيرة عملا موازياً يقابل جاذبيتها مباشرة. يتجه هذا العمل المتبادل بين الذرتين وفاقاً للخط المستقيم الذي يصل بينهما . وهو نسبي لثقلهما ويتحـول بنسبة عكسية لتربيع المسافة بينهما .اذا كانت هذه المسافة ملموسة ، اصبح هذا العمل جاذبية الثقل التي تفسر سقوط الاشياء على سطح الارض ، وسير القمر ، والسيارات ، والاقمار والمذنبات ، ومـد البحر وجزره ، وتسطح الارض عند القطب الذي اثبتـه اكتشاف « ريشيه » في « كايين » في السنة ١٦٧٢ ؛ يجب تقصير رقاص الساعة عند خط الاستواء « اذن فهو يميل الى حركة ابطأ ، اذن الجاذبيـة أقل في خط الاستواء ، اذن الرقاص فيه كما على جبـل عال ، اذن الارض سميكة في المنطقة الاستوائية ، اذن القوة الجاذبة الى المركز في هذة المنطقة متدنية . اما اذا كانت المسافة قصيرة جداً ، فان هذا العمل يفسر تلاحم الاجسام عند ما تكون الذرات متجانسة تفسيراً افضل من السكون الذي فسر به ديكارت كيفية تلاصق اجزاء الجوامد الصغرى.وفي نظر نيوتون ان هذا السكون صفة خفية او مجرد لا شيء . التلاحم يفسر خصائص الجوامد والسوائل والغازات . واذا كانت الذرات مختلفة كيماويا،فان هذا العمل يفسر التقارب الذي يسهم مع التلاحم في تحديد وتنظيم التركب والتحلل الكيماويين .

الأثير

على الرغم من نفوره من«الافتراضات»،حاول نيوتون تفسير الجاذبية الكونية . وقد اعتقد ان الاثير يجب ان يكون في الشمس والسيارات والمذنبات والنجوم اندر منه في الفضاءات السماوية.فيجوز الاعتقاد من ثم بان كثافة الاثير تزداد كلما ابتعدنا في الفضاء.

الاجرام السماوية تبذل جهداً في انتقالها من مناطق كثافة الاثير الى مناطق ندرته ، وهذا ما يسبب الجاذبية المتبادلة بين هذه الاجرام والجاذبية بين اجزائها وبينها بالذات . والخلاصة هي ان الجاذبية ضايقته ، فعاد ، على غرار ديكارت ، الى تصور انتقال الحركة بالتماس ، بالدفع . يضاف الى ذلك انه لاحظ من جهة ثانية ان كل الاجسام البالغة درجة معينة من الحرارة تنشر نوراً مصدره حركة اجزائها ، كمياه البحر في الطقس العاصف ، أو كالخشب واللحم والسمك حين يتسرب اليها الفساد ، فتساءل عما اذا لم يكن ممكناً ، بعكس الامر ، ان تتلقى الاجسام نشاطها من اجزاء ضوئية صغرى مصدرها اشعة ماكثة في الاجسام تحرك اجزاء هذه الاجسام .

النور

فقد سبق له منذ السنة ١٦٦٦ ان حلل نور الشمس ، بواسطة الموشور ، ووجد ان الطول في صورة الشمس ، عند خروجها من الموشور ، يبلغ خمسة اضعاف العرض ، وان ألوان الموشور تتعاقب وفاقاً لنظام محدد على الحاجز العاكس : الاحمر في الاعلى والبنفسجي في الاسفل . فالاشعة المختلفة تتكسر من ثم انكساراً غير متساو ؛ ويقابل كل درجة من درجات قابلية الانكسار لون معين . ولكن نيوتون اعتقد ، على نقيض « هويغنس» الذي تصور اللون في « بحث حول النور » كموجات سائل ، أو اثير تختلف عن اثير نيوتون ، يحركه خفقان الاجسام المنيرة ، بان الاشعة الضوئية جسيات صغرى ، أو ذرات تطلقها الاجسام المنيرة . فمن شأن السائل ان يحول دون ارتجاجات اجزاء الاجسام الصغرى وان يحول كذلك دون حركة الكواكب . وتخضع هذه الذرات بدورها لسنة الجاذبية الكونية وتحدث ارتجاجات في الوسط الذي تعمل فيه .

« الساعاتي الازلي »

ولكنه لم يتوقف عند هذه العلل الثانوية ، بل ارتفع الى العلة الاولى « التي ليست آلية » ، وذهل منها . فتدبير الفاعل المفكر يبدو ظاهرا في نظام الاشياء . ولا يعقل ان تتحرك كل السيارات في اتجاه واحد وفي مدارات مشتركة المركز بفعل قدر اعمى او سنن الطبيعة البسيطة . « يجب ان ينظر الى مثل هذا التناسق المدهش في نظام السيارات كما الى نتيجة اختيار . ويصح القول نفسه في التناسق البادي في جسم الحيوانات . . . لا يمكن ان تكون هذه الصناعة سوى نتيجة حكمة وتفكير فاعل قدير حي ابدا يستطيع ، بفعل وجوده في كل مكان ، ان يحرك الاجسام على هواه في مركز حواسه الثابت اللامتناهي ، وان يكوّن اجزاء الكون ويعيد تكوينها بهذه الوسيلة . . . بيد ان ذلك لا يجيز لنا النظر الى العالم كما الى جسد الله ولا الى اجزائه المختلفة كما الى اجزاء مختلفة من الله . . . » ، الله هو الله الذاتي ، « سيد الاشياء » ، الكائن اللامتناهي ، الازلي ، الكلي الكمال ، « الكلي القدرة والعالم بكل شيء » . العلم يثبت وجود الله لان القول بملازمة الحركة للمادة يتنافى وسنة ثبوت الجماد ، ولو ان الله لا يخلق في كل آن كمية جديدة من الحركة ، لفسد العالم وسقم وفني شيئاً

فشيئاً بفعل تلف طاقته . فقاد العلم من ثم الى دين طبيعي يجب ان يكمله الدين الموحى به .
وكما كتب البروتستانتي الفرنسي ، كوست ، الذي ترجم مؤلفاته في السنة ١٧١٣ : « يمكننا الآن ان نعبد ونخدم ، بمزيد من الحرارة ، سيد وخالق الاشياء كلها ، وهذا هو اكبر خير نستطيع جنيه من الفلسفة . . . ان هذا المؤلَّف الكبير لنيوتون سيكون من ثم سوراً ركيناً لن يقوى الملحدون والزنادقة على تقويضه البتة ، وفيه يجب البحث عن الاسلحة اذا اردنا الدخول في حرب ظافرة » .

استقبل مذهب نيوتون استقبالا حماسيا في انكلترا . « كانت الطبيعة وسنن الطبيعة متواريتين في الظلمة . قال الرب : ليكن نيوتون . فكان النور » (بوب) .

مقاومة الكرتزيانيين

بيد ان الكرتزيانيين الانكليز قد ابدوا بعض المقاومة ، وفي البر الاوروبي قابل كبار العلماء نيوتون بعنف . فان هويغنس ، وليبنيز ، واكاديمية العلوم في باريس ، وكافة الكرتزيانيين ، فونتنيل ، « كسيني » ، « ريومور » ، الايطالي « بوليني » ، قد وقفوا في وجهه . نعت هويغنس مبدأ الجاذبية بالمحال ، ولم يختلف ليبنيز عنه في الرأي .

كلهم نبذوا الجاذبية باعتبارها صفة خفية . « اذا نحن استشرنا افكارنا في موضوع سبب الحركة الطبيعي ، فهي لن تقدم لنا شيئاً جلياً واضحاً سوى الصدمة او الدفع ... فلا نتخلين قط عن مبادىء آلية واضحة ؛ اذا نحن تخلينا عنها ، ينطفىء كل النور الذي نستطيع الحصول عليه منها ، ونغرق نحن مرّة اخرى في ظلمات فلسفة ارسطو القديمة ، حفظنا الله منها » (سورين ، في اكاديمية العلوم في باريس ، ١٧٠٩) . وعبثاً اجاب النيوتونيون بانه لا يجوز اننعت بالخفيّة صفات أثبت الاختبار وجودها ، حتى ولو استحال علينا تكوين فكرة واضحة وجلية عنها .

تسرب الشك الى اذهان بعض المؤمنين . ففي نظر ليبنيز ان الله هو العقل الشامل ، بينما يرى نيوتون ان الله يختار الاشياء والسنن الطبيعية بفعل ارادة اختياري ، كفنان اختار ان يتعهد عمل الكون ويحافظ عليه . فرأى ليبنيز في ذلك إهانة للحكمة الالهية ، لان الاعتقاد على غرار نيوتون بان الله قد بنى عالما لا يستطيع السير بمفرده ، بدون معجزة تدخل الله الدائم لتعهد الحركة ، هو استهانة للقدرة الالهية والكمال الالهي . وتمسك ليبنيز اخيراً بالملء الكرتزياني ضد الفراغ ، لان ازدياد حجم المادة يتيح لله مزيداً من الظروف لممارسة حكمته وقدرته .

بذل الكرتزيانيون اذن جهوداً يائسة للمحافظة على الزوابع . فان الاب « فيلّمو » قد وفق في السنة ١٧٠٧ بين حركة الزوابع وسنن كبلر مهملاً ما ارتآه ديكارت بأن السيارات هي كالسفن التي تسير ابداً سيراً ابطأ من النهر الذي يجرّها : السيارات والزوابع تخضع لحركة واحدة . وفي السنة ١٧٠٩ ردّ سورين على هويغنس ، الذي اكد بأن سرعة الزوبعة يجب ان تكون ١٧ ضعف سرعة الارض ، وبأن الاشياء كلها ستتطاير عن سطح الارض ، اذا كانت الارض متحركة بفعل الزوبعة ، بأن كلما ازدادت سرعة السائل كلما تدنت كثافته . فلا يستطيع

من ثم ان ينتزع او يقتلع شيئاً . اما المذنبات فكانت ملبّكـة . كان « هالي » قـد حدّد عناصر مدارات ٣٤ مذنباً ظهرت بين السنة ١٣٣٧ والسنة ١٦٩٨ . لاحظ التشـابه البادي في عناصر مدارات مذنبـات ١٥٣١ و ١٦٠٧ و ١٦٨٢ ، فعزاها الى مذنب واحد انبأ بظهوره مرّة اخرى في السنة ١٧٥٨ . ولاحظ « لاهير » في السنة ١٧٠٢ ان ظهور واختفاء المذنبـات لا يُريان تدريجياً ، بل دفعة واحدة : اذن فهي نيران عابرة تشتعل اشتعالاً فجائياً . ولكـن كسّيني اثبت انها تزداد حجماً وسرعة ظاهرين. فارتأى فيلّلو حينذاك وضعها فوق سماء زحل بغية تجنيبها مصادفة زوبعة السيارات . ولكن لوحظ ان ارتفاع مذنب ١٧٠٢ كان خمسة اضعاف ارتفاع القمر فقط. عزا ديكارت مد البحر وجزره الى ضغط القمر على المادة الرقيقة التي قال بوجودها بينه وبين الارض . ومن الجلي ان القمر اصغر من ان يسبب هذه النتيجة . فاجاب فيلّلو على الاعتراض في السنة ١٧١٠ : « هي زوبعة القمر ما يسبب الضغط » . ولكن تأثير الشمس لوحظ بعد ذلك ايضاً ؛ فتوجب اذ ذاك اللجوء الى زوبعة الشمس . وفي سبيل الاتفاق مع الملاحظات والحسابات، مست الحاجة الى تعقيد التفسير الكرتزياني تعقيداً مطرداً ، في حال ان التفسير النيوتوني قد اجاب على كل شيء بمنتهى البساطة . ولكن الكرتزيانيين كانوا ابعد من ان يقتنعوا ، حوالي السنة ١٧١٣ — ١٧١٤ ؛ واستمر الصراع ضارياً بينهم وبين النيوتونيين . فتخبط العالم العلمي في ازمة حادة .

الكرتزيانية والنيوتونية والكيمياء

أدخل الكيمياويون الآليـة الى علمهم . ففي باريس فسر « نقولا لمري » الظواهر بمبادىء الفلاسفة المصريين ، اي ديكارت ، وذلك خلال دروسه في مختبره (شارع غالند) ، و المغارة السحرية المضاءة باكفهرار الافران، ،وفي « كتاب الكيمياء المدرسي » الذي نشره في السنة ١٦٧٥ . عمل ماء تحليل الذهب في الذهب مصدره « حدود » هذا الماء،ومذاق الحوامض الحاذر ، والشكل المقرّن الذي تتخذه عند التبلور مصدرهما اجزاؤها الصغرى المقرّنة . القلويات تفور اذا ما امتزجت بالحوامض، اذن اجزاؤها الصغرى مسامية وباستطاعة حدود الحوامض ان تتسرب الى الداخل . الزئبق سائل ابداً لان اجزاءه الصغرى مستديرة . ولاحظ « نقولا له فيفر » ، مدرس الكيمياء في حديقـة النباتات ، في كتابه « الكيمياء القياسية » ، ارتفـاع وزن الاجسام التي تتأكـد ، وكـوّن فكرة غامضة عن « روح شاملة » عرف خصائصها هي الاكسجين . تنبثق هذه الروح الشاملة من الكواكب بشكل نور و « تتجسّـد » في الهواء وتسبب معظم النتـائج الملموسة في المعادن والنباتات والحيوانات . وتعمل الروح الشاملة في النبـاتات ، وترقق وتبخر كل ما في الدم من سوائل زائدة . وادخل الانكليزي « روبرت بويل » (١٦٢٧ — ١٦٩٧) في الكيمياء مفاهيم ديكارت ونيوتون، فحدد الجسم البسيط جسماً لا يمكن تحليله بأية وسيلة من وسائلنا . كل ما يحدث في الطبيعة يجب ان يفسر آلياً ، ولا يمكن ان تتعلق الفوارق بين الاجسام المختلفـة الا بحجم الاجزاء الصغرى وشكلها وحركتها . الهواء ضروري لاحداث اللهيب وتغذيته . وهو

يلعب الدور نفسه في الاحتراق والتنفس ، ويشبه « بويل » ديمومة حياة الحيوان بديمومة لهيب الكحول في اناء مقفل . وعرّض بويل الصلصال والرصاص والقصدير للهيب . فتغير منظر هذه الاجسام بعد العملية وزاد وزنها . اذن دخلت اجزاء النور الصغرى الموجودة في اللهيب الى الرصاص والقصدير والصلصال وامتزجت بذرات هذه الموادواعطت ، بالاتحاد بها ، اجساماً جامدة. وميز الالماني « بكر » بين نوعين من الاجسام: الاجسام المركبة والاجسام غير القابلة التحليل . فكان بالامكان صنع مركبات بغية تحليلها واظهار عناصر تركيبها مع صفاتها . وقال مواطنه « ستاهل » (١٦٦٠ – ١٧٣٤)-ان الذرات مختلفة بعضها عن البعض الآخر وان لها صفات خاصة اصلية مطلقة ، وان في التجاذب الكيمياوي بين الاجسام بعض ما في الاجسام الحية : الذرات المتجانسة تطلب بعضها بعضاً بفعل طبيعتها . وكان اول من اكتشف ان تكليس المعدن ظاهرة مماثلة لاحتراق المواد العضوية المختلفة . الكلس المعدني هو رماد معدن محروق ؛ اذا اضيف بعض الزيت او الشحم او الدهن الى هذا الرماد ، فانه يصبح معدناً مرّة اخرى . اذن فان الجزء القابل الاحتراق في الجسم الدهني ينتقل الى الكلس المعدني ويحل محل ما فقده المعدن بالتكليس . ومن ثم فان هذا الجزء القابل الاحتراق مادة تنتشر في الهواء اثناء الاحتراق دون ان تصير الى الزوال . وان هذه المادة سائل كوني هو « السائل اللهبي » .

الكرترزيانية والآلية والعلوم الطبيعية علم الوظائف الحيوانيـة : الحيوان - الآلة

وتسربت الكرتزيانية والآلية والطريقة الاختبارية تسرباً عميقاً الى علوم الطبيعة ايضاً . ولكن الحيوان – الآلة الذي تكلم عنه ديكارت قد افضى بعلماء كثيرين الى سلوك طريق مضلة . فنقل بعضهم علم الآليات ، بلا شرط ولا استثناء ، الى نطاق وقائع مختلفة . في كتابه « حركة الحيوانات » (١٦٨٠) فسر « بورلي » ، الرياضي والفلكي والعالم بالطبيعيات ، حركة الكائنات الحية من زاوية آلية بحتة . واعجب الطبيبان « بغليفي » (١٦٦٩ – ١٧٠٨) و « بورهاف » بتطبيق « المبادىء الرياضية ومبادىء الهندسة المائية ومبادىء علم السكون ومبادىء الجاذبية » على بنية الكائنات الحية . « فهل هذة الآلات المسلّحة بالاسنان شيء آخر غير الكلّابات يا ترى ؟ » المعدة قرعة زجاجية ؛ الاوردة والشرايين وجهاز العروق انابيب مائية ؛ القلب زنبرك ؛ الاحشاء مناخل ومصاف ؛ الرئة منفاخ ؛ زاوية العين بكرة؛ العضلات حبال . فطلق من ثم على الالياف اهمية دونها اهمية الاخلاط . يجب ان تكون الالياف قوية ، والا فالمرض والموت . لذلك اعتمدا المعالجة بالمهيجات والمقويات : الكيّ والدلك والمحجم والحراقة ولصوق الخردل والكينا ، دون ان يتخليا ، من جهة ثانية ، عن المعالجة بكبريت الرصاص . اغتاظ « ستاهل » من اهمال العلماء الحياة . الا انه رجع القهقرى الى تعليم عصر النهضة . النفس هي مبدأ الحياة . النفس تشرف على سير الاعضاء خير اشراف . فيقتضي من ثم احترام ردود الفعل الطبيعية ، والانصراف عن معالجة الحمى مثلاً لانها مجهود تبذله النفس

التخلص من المواد التي تعسّفها .

احرز التقدم في حقل التشريح بصورة خاصة بفضل بعض المراقبين . استخدموا المجهر ، الذي كمله « روبرت هوك » ، وتقنيات جديدة تقضي بحقن العروق بسوائل ملونة . وهذا ما فعله « اوستاش » و « مالبيغي » و « ريولن » و « غليسّون » و « غرال » و « سوامردام » . وكان لدى « رويش » ، في امستردام ، مجموعة من الاجزاء التشريحية تظهر فيها العروق الدموية واللمفاوية . وقد قال فونتنيل ان جميع هؤلاء الموتى ،« الخالين من الجفاف الظاهر ومن الغضون ، والمتميزين بزهرة الوجه ولدانة الاغشية ، اشبه بالقائمين من بين الاموات » . فاستطاع مالبيغي اكتشاف الفليقات الكبدية وجسيمات الكلى وجسيمات حاسة الذوق واظهار اتصالها بالشرايين الكلوية الصغرى .وشرح غليسون عروق الكبد . واكتشف الهولندي « لوينهوك » (١٦٣٢ – ١٧٢٣) في السنة ١٦٧٧ حيوانات الرجل المنوية ، والكرويات الحمراء البالغة الصغر « بحيث لا توازي مئات الالوف منها حجم الرملة الواحدة » ، والعروق الشعرية ، ورأى الكرويات الحمراء تتخذ شكلاً مستطيلا لاجتياز العروق الشعرية الدقيقة جداً . فأكمل بذلك اكتشاف « هارفي » .

ولكن « مالبيغي » و « لوينهوك » لم يتوصلا الى اقناع الارسطاطاليين وانصار المعالجة بكبريت الرصاص الذين قابلوهما بالصيغ الفلسفية والاستشهادات بالنصوص الكتابية والكلاسيكية .

علم الوظائف النباتية

تقدم علم الوظائف النباتية بفضل ابحاث « ماريوت » و « مالبيغي » . أظهر ماريوت ، في كتابه « بحث في نمو النبات » ، ان النباتات لا تمتص من التربة غذاء جاهزا يوافق مادتها الخاصة موافقة مباشرة ، بل تحول كلها عناصر مشتركة : « اذا أبرنا شجرة اجاص برية بمئبر من شجرة اجاص زراعية ، فان النسغ نفسه الذي كان من شأنه ان ينتج في الشجرة الاولى اثمارا صغيرة الحجم رديئة الطعم ، ينتقل الى الغصون التي تتفرع عن المئبر وينتج فيها اجاصاً كبير الحجم لذيذ الطعم ... فهو النسغ نفسه ، الذي كان في جذع الشجرة ، ما عين له نتيجتان مختلفتان ، اما بقوة خفية ، يدعوها البعض نوعية ، وتكون في كل مئبر ، اما بتركيب خاص في الالياف والمسام يجعل النسغ يتخذ أشكالاً وأوضاعاً شبيهة بما في هذه المآبر من اشكال واوضاع. وتراءى لمالبيغي دور الاوراق في التغذية الذي انكره ارسطو . فقد طمر بالتراب فليقتي نبيتة قرع ذارّة ورأى ان النبيتة ما لبثت ان ذبلت . ولاحظ من جهة ثانية ان أوراقها تتساقط حال تكون الاوراق الجديدة . فخلص من ذلك الى ان الفليقات تقوم بعمل المرضعة وان « الطبيعة أوجدت الاوراق بغية هضم النسغ المنتقل الى قريباتها بواسطة الالياف الخشبية » .

اصاغر الاجسام

افتتح المراقبون عالم أصاغر الاجسام كما افتتح الفلكيون عالم اكابرها ، ورفعوا القناع عن تشابهات تقلق البال بين الجهاز العضوي لكل من الانسان والحيوانات وطرحوا مسائل التوالد والنوع . في السنة ١٦٧٥ ، اكتشف لوينهوك النقاعيات ؛ وفي السنة ١٦٧٧ ، وصف حيوانات الانسان المنوية ، كما وصف بعد ذلك بقليل الحيوانات المنوية في الارنب والكلب والضفادع والاسماك والحلزون والحمار ، واظهر الاخيطـــة الدموية في قلب ذكر البط وعضلات الضفدعة . وفي السنة ١٦٨٨ ، اهتدى الى كرويات الدم الحمراء في الحيوانات، ولاحظ ان كرويات الاسمـــاك والطيور بيضوية الشكل . وبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٧٠٠ استثبت التناسل الذاتي عند الارق . واورد « مالبيغي » في كتابه حول دودة الحرير (١٦٦٩) تاريخ هذه الدودة الذي غدا مستنداً لمعرفة تنظيم الحشرات . واكتشف أنابيب التنفس في دودة الحرير والزيز وقرن الايل والجرادة والنحلة ، ورجم بانها تلعب عند الحشرات دور الرئتين . واورد الطبيب الهولندي « سوامردام » ، في كتابـــه « ملاحظات حول التحولات » (١٦٦٩) ، تاريخ القمل والصرصور والجرادة والبعوضة والخنفساء والفراشة والنملة والنحلة . ووصف « ريدي » (١٦٢٦ – ١٦٩٧) ، طبيب غراندوق توسكانا ، ديدانا معوية كثيرة ، واكتشف الغدتين اللتين تفرزان سم الثعابين . ولكن ما توصل اليه ، انكره « شاراس » (١٦٧٨) الذي زعم بان « السائل الاصفر » الذي تكلم عنه « ريدي » ، قـد وضع في الجروح و « لم يتسبب في اي حادث » . وقد عزا « شاراس » نتائج النهش الى تـأمير الثعبان الذي يغضب « فتصعد التـأمير الى رأسه وتدخل بسرعة الى الجروح التي أحدثتها الاسنان » .

مسألة التوالد

أسفرت هذه الملاحظات عن تجدد مسألة التوالد. اعتقد معظم العلماء بالتوالدات الذاتية . بين « ريدي » في « ابحاث في توالد الحشرات » (١٦٦٨) ان الديدان لا تولد تلقائيا من تعفن الجيف . فاذا حوفظ على قطعة لحم من الذباب بشق مقفل اقفالا محكماً ، لن تتولد ديدان البتة . لا تتولد هذه الاخيرة الا من البيوض التي يتركهـــا الذباب . الكائنات الحية لا تتولد الا من الجراثيم . ولكن ما توصل اليه « ريدي » لم يبد عظيم الاهميـــة ، ودفعت الآلية ماريوت الى الاعتقاد بان النباتات قد تتولد من الحمأ المجفف بفعل تجمـــع بعض الاجزاء الصغرى .

دب الخلاف بين أنصار البيوض وانصار الحيوانات المجهرية . اعتقـــد لوينهوك بان الجنين يتكوّن بالحيوان المنوي ، وبان لا حاجة من ثم الى بيوض بل الى محل موافق . ولكنه واجـه اذ ذاك الحالات الوراثية حيث يشابه النسل الابوين معاً . أما أنصار البيوض فقـــد اعتبروا الجنين سابق التكوين واقصروا دور الحيوان المنوي على دور التحريك فقط . والواقع هو ان هؤلاء واولئك قد قالوا بالتكوين السابق . سبق لمالبيغي ان لاحظ في السنة ١٦٦٩ « ان رسم خطوط الدجاجة الاولية موجودة مسبقاً في البيضة ، وان اصل هذا الرسم سابق للولادة » . قادت نظرية التكون السابق الى نظرية تداخل الجراثيم . فان الجنين السابق التكوين في البيضة

مبايضه المصغرة التي تحتوي على جنين سابق التكوين له مبايضه ، الخ . كل الكائنات اللاحقة ، بعد الكائن الأول سابقة التكوين وتتداخل جراثيمها بعضها في البعض الآخر . « كانت البشرية كلها موجودة في أصلاب آدم وحواء » (١٦٩٢) . وقد حسب « هارتسوكر » في السنة ١٦٩٤، ان أول جرثومة تكونت ستصبح « بالنسبة لآخر جرثومة تظهر في السنة الاخيرة من القرن الستين كا هي الوحدة التي يليها ٣٠٠٠٠ صفر بالنسبة للوحدة » ، وخلص من ذلك الى استحالة النظرية . ولكن « مالبرانش » اعلن ان « الفكرة لا يمكن ان تبدو ماجنة وغريبة الا لاولئك الذين يقيسون معجزات قدرة الله اللامتناهية بمقياس وحي حواسهم ومخيلتهم » .

مسألة النوع

وطرحت المماثلات مسألة تحديد النوع . لم يتحقق التقدم في علم الحيوان بل في علم النبات حيث الاشياء اكثر بساطة ، اذ ان لبنية باديات اللواقح مخططا عاما واحداً . ففي السنة ١٦٨٦ ، اعطى « جون كاي » ، في « تاريخ النباتات » ، تحديداً واضحا للنوع واقترح تصنيفاً مستنداً الى تركيب الطلع والاوراق الاولى، وادخل التمييز الاساسي بين ذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة . وميز « تورنفور » ، الاستاذ في « حديقة الملك » ، في كتابه « السبيل الى معرفة النباتات » (١٦٩٤) بين الاشجار والشجيرات والشجيرات الصغرى والاعشاب ، وعين التقسيمات في كل فئة وفاقاً لمميزات النورة . فصادف نجاحاً عظيماً لدى العلماء الفرنسيين والايطاليين والالمان والانكليز بفضل ايجازه ووضوحه . ولكن ست طوائف فقط ، من اصل ٢٢ ، طابقت فئات طبيعية . وفي السنة ١٦٨٩ ، ادخل « مانيول » الاستاذ في « مونبلييه » مفهوم « الفصائل » المميزة لا بحسب جزء معين من النبات ، بل بحسب مجموع مميزات كل نبات يدخل في الفصيلة .

العلوم الاجتماعية
الحساب السياسي
الاحصائيات

ان الكرتزيانية والآلية اوحينا بفكرة العلم الاجتماعي ، وانضمتا في البلدان التي تميزت بانطلاقة رأسمالية كبرى ، الى الحاجات المتولدة من توافر الرقبيات ومن نجاح التأمينات على الحياة ، للتسبب في ولادة علم احصاء الجماعات البشرية . فنظم « غرونت » ، في السنة ١٦٦٢ ، بيانات بالوفيات، مع حساب ترجيحات بقاء الاحياء ، بالاستناد الى لوائح الموتى في لندن ، ونظم الهولندي « دي فيت » ، في السنة ١٦٧١ ، بيانات مماثلة . واصلح هالي اخطاء غرونت في السنة ١٦٩٣ بالاستناد الى جداول برسلو . بفضل هذه البيانات توصل غرونت و « وليم بتي » وماثيو هايلز ، في « اصول الانسانية الاولى » (١٦٧٧) ، الى وضع سنة نمو السكان وفاقا لمتوالية هندسية ، وحدد هايلز فترة المضاعفة بخمس وعشرين سنة . فلم يتبق أمام « مالتوس » سوى ان يقارن هذه السنة بسنة الايراد غير المتناسب . بذلك انتقل علم احصاء الجماعات البشرية من مرحلة الوصف التاريخية الى مرحلة وضع السنن العلمية . وانضمت الكرتزيانية والآلية الى الرأسمالية التي أوجدت عادة التعبير بالارقام عن كل شيء والى حاجات الدول المتحاربة ، عسكرياً ومالياً

فنشأ عنها كلها علم جديد .

ففي سبيل حساب نسبة القوى بين انكلترا وفرنسا المتنازعتين ، اوجد وليم بتي ، تحت تأثير الكرتزيانية والآلية ، علماً جديداً هو الدرس العددي للاحداث الاجتماعية ، « الحساب السياسي » (١٦٨٢ – ١٦٩١) ، وهو لحات في مقارنة ثروات انكلترا وفرنسا . استهدف من وراء ذلك «ايضاح افكاره بمفردات العدد والوزن والقياس، والاقتصار على البراهين المحسوسة والاسباب المرتكزة الى اسس ظاهرة في الطبيعة ، تاركا لسواه أمر الاهتمام بما يتعلق منها بذهن البشر وآرائهم وأهوائهم ورغائبهم المتقلبة » . حلل الظروف الطبيعية بالدقة التي اتاحتها له معطياته العددية المحدودة ، وحسب القوى والجهود ، وحاول رد القوى المركبة الى عملية القوى البسيطة ، الثابتة والقابلة القياس . ونحا نحوه مواطناه «دافننت» و « غريغوري كنغ » ، فاصبح بمكنة السر « ددلي نورث » ان يكتب في السنة ١٦٩١ ، في مستهل « خطبتـه في التجارة » ، « امست المعرفة آلية الى حد بعيد » .

واعطت حاجات الدول العسكرية والمالية علم الاحصاء اهمية جديدة . ففي فرنسا فرضت بعض التدابير التشريعية (١٦٦٧ ، ١٦٧٣) على خدام الرعايا تنظيم سجلات الحالة المدنية . ونشرت مستندات الحالة المدنية في باريس ، بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٦٨٤ ، واستؤنف نشرها بعد السنة ١٧٠٩ ، وتكرر احصاء عدد السكان : استقصاء السنة ١٦٦٣ بناء على طلب كولبير ، واستقصاء السنة ١٦٩٣ في سبيل سياسة تموينية ، والاستقصاء الكبير الذي قام به الوكلاء منذ السنة ١٦٩٧ حتى السنة ١٧٠٠ ، بناء على طلب دوق بورغونيا ، والذي استخلص منه « فوبان » و « سوغرين » تقديراتها لعدد سكان فرنسا . نظمت هذه الاحصاءات على اساس «العائلة» ، لا على أساس الشخص في تاريخ معين فجاءت من ثم ناقصة جداً ، ولكن فوبان ، المهندس والمتعهد ، قد برهن عن ادراك حقيقي لما يجب ان يكونه الاستقصاء الاحصائي الجيد . فقد اقترح في « العشر الملكي » الذي حرره في السنة ١٦٩٩ ونشره في السنة ١٧٠٧ ، احصاء عدد السكان كل سنة على اساس مراتبهم ومهنهم ؛ ووزع جداول الاحصاء على أساس الرعية : الرجال ، النساء ، الفتيان (فوق ١٤ سنة) ، الفتيات (فوق ١٢ سنة) ، الصبيان ، الصبايا ، الخدام ، الخادمات ، عدد البيوت من الفئات المختلفة ، والحيوانات الاليفة من كل نوع ، والاراضي المزروعة والبائرة ، والكروم المزروعة والمهملة ، والغابات على انواعها ، والمطاحن والخمارات .

النفعية ، الآلات

ما زال العلماء مسيرين قبل كل شيء ، في ابحاثهم ، اما بالحاجة الى حل المسائل الفلسفية والدينية وتوطيد قواعد المعتقدات اللازمة لحياتهم ، واما بالتعطش الى الفهم الذي هو شكل من اشكال روح النهضة وشهوة القوة وروح السيطرة والاستمتاع . ولكنهم انشغلوا اكثر فاكثر بتطبيق تحقيقاتهم على الحياة المادية . وجاءت الانطلاقة الاقتصادية والاجتماعية تعزز في الاذهان تقليد ديكارت . ففي رأي ديكارت ان

غاية الفلسفة هي فائدة الجنس البشري ، الفائدة الكلية . ولذلك فقد سعى وراء تخفيف آلام البشر وتعزيز قدرتهم على الطبيعة . منذ السنة ١٦٣٧ ، كتب لوالد « هويغنس » بحثاً موجزاً في الآلات البسيطة . وتخيل آلات متحركة لتنفيذ الاعمـــال الشاقة هي اسلاف اجهزتنا الآلية المسيرة بالكهرباء والمغناطيس. وبعد ان رأى مدارس الفنون والمهن في هولندا ، اشار بان تلقى على الصناعيين اليدويين دروس في الرياضيات والطبيعيات والآليات في قاعات تزود بكافة الادوات الضرورية . واتجهت الأفكار نحو اختراع الآلات . اضف الى ذلك ان اعمال البناء والاشغال العامة في الدول المطلقة ، والآلات المستعملة لرفع الاثقال قد أثارت الاعجــاب وحملت على الاعتقاد بان البشرية دخلت في عهد الآلية . وتوصـــل الفرنسي باسكال في السنة ١٦٤٢ ، والانكليزي « صموئيل مورلند » في ١٦٦٦ ، والالماني ليبنيز بين السنة ١٦٧١ والسنة ١٦٩٤ ، الى ابتكار آلات حاسبة ، وانهمك هويغنس في اكتشاف ساعة ذات رقاص بغية حل مسألة خطوط الطول ، واختـرع « ادوارد سومرست » ، مركيز « وورسستر » في السنة ١٦٥٥ ، آلة بخارية رفعت الماء حتى علو ٤٠ قدمــاً في « فوكس — هول » . وتوصل الفرنسي « دنيس بابين » الى ابتداع صمام الامان في السنة ١٦٨١ ، وأول آلة بخاريـــة مزودة بمكبس يتحرك داخل اسطوانة . قوة البخار المتمططة تدفع المكبس الى الاعلى . يتخثر البخار اذ ذاك فيحدث الفراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية تحت تأثـير الضغط الجوي . في السنة ١٧٠٧ استخدم بابين آلته في تحريك سفينة : الآلة البخارية ترفع الماء الذي يهبط على دولاب ويحركه ، وتنتقل الحركة الى المنفات . واستحصل المهندس العسكري الانكليزي « تومـاس سافري » (١٦٥٠ — ١٧١٦) ، في السنة ١٦٩٣ ، على شهادة حكوميــة حفظت له حقوق استثمار آلة بخارية معدة لضخ مياه المناجم نحو الخارج . فكانت هذه الآلة الاولى التي طبقت عمليـــاً . استخدمت لتموين المدن والمنازل الخاصة بالمياه ، ولانزاح بعض المناجم ، الا ان رفع المياه حتى علو كاف في المناجم يتطلب ضغطاً يبلغ عدة اجواء . ولكن تجاوز ضغط ثلاثـة اجواء كان عملية خطرة لا سيما وان « سافري » لم يستخدم صمام الامـــان . فكانت الآلة من ثم خطرة ، واستلزمت من جهة ثانية محروقات كثيرة ، فلم تفلح في التغلب على منافسة الآلات التي تــدار بالاحصنة .

تقدمت الابحاث في كل الاتجاهات . ويتكلم اليسوعي « كسبار شوت » في احـد مؤلفاته اللاتينية عن غواصة (؟) جرت تجربتها في السنة ١٦٥٣ ، على حد قوله ، في نهر الرون .

فكرة التقدم والثقة العمياء في العلم

جاء في احدى فقرات مدخـــل وضعه باسكال لبحث في الفراغ راج مخطوطاً في القرن السابع عشر ما يلي : « يجب ان ننظر الى جميع البشر الذين تعاقبوا على مر القرون الطويلة كما الى انسان واحد يدوم ابـــداً ويتعلم دائماً » . معارفنا تفوق معارف الاقدمين ، وهذا يعني ان معارف من سيأتون بعـــدنا ستفوق معارفنا . وفي السنة ١٦٨٨ ، توسع فونتنيل في الفكرة نفسها خلال المشادة التي قامت

بين الاقدمين والمعاصرين ؛ فتبين ان العلم يمهد السبيل لتقدم غير محدود . وانطوت مقدمته لكتاب « تاريخ تجدد الاكاديمية الملكية للعلوم » (١٧٠٢) على نشيد تهليل للعلم . الى العالم يعود امر توجيه البشر . العالم متفوق على الامراء والفـــاتحين . وهو سيبرع في السياسة لانه متمرن على الحسابات الدقيقة والتركيبات الصعبة . معارفنا ستتوسع ابــداً . سننتهي الى معرفة كافة اجزاء الآلة المدهشة . معارفنا ستعطينا القدرة لا على التفكير تفكيراً صحيحـاً وجلياً فحسب ، بل على « اكتشاف الآلات الجديدة والسريعة التي تختصر وتسهل عملنا ، والتبصر في تدبير اعتماد عدة عوامل أو مواد تؤمن لنا منتوجات جديدة ومفيدة يكون باستطاعتنـا استخدامها ومن ثم زيادة مجموع ثرواتنا ، اي الاشياء المفيدة لرفاهيتنا » . سيأتي يوم يطير فيـه الانسان و « يصل في يوم آخر الى القمر » . الموت سيتقهقر والارض ستغدو فردوساً .

امسى العلم معبوداً واسطورة . فلم يفرق بينه وبين السعادة ، كما لم يفرق بين التقدم المادي وبين التقدم الاخلاقي . واتجه العلم الى الحلول محـل الفلسفة والدين . « يسمو علم الطبيعيات الحقيقي حتى يصبح نوعاً من اللاهوت » (فونتنيل) .

٤ – ازمة الفكر والحس

جماليات المعاصرين ، جفاف الادب

نشأت نظرة جديدة الى الجمال ، وقد نشأت عن العلم في الدرجة الاولى . وفسر فونتنيل ذلك بقوله : « لا ترتبط الروح الهندسية بالهنـدسة ارتباطاً يحـول دون نقلهـا من الهندسة الى معارف اخرى . ان المؤلف السياسي ، والاخلاقي ، او الانتقادي ، أو حتى البياني ، سيكتسب مزيداً من الجمال ، مع حفظ النِّسب ، اذا ما دبجته يد المهندس . ولعل مصدر الترتيب والوضوح والدقة والضبط ، التي تسود الكتب منـذ بعض الوقت ، تلك الروح الهنـدسية التي انتشرت انتشاراً لم تعرفه في أي وقت مضى » . ان الروح النفعية ، التي قوّاهـا نمو العلم ، والازمـة الاقتصادية والاجتماعية ، وارتقاء البورجوازية ، قد اوجدت الرغبة في المؤلفات المفيدة ، اي المؤلفات الواضحة الدقيقة . وجاءت الروح الهندسية والروح النفعية تعززان عصرية ردهـات الاستقبال حيث كان الناس سعداء باكتشاف هذا العون لمهاجمة العلماء والاساتذة وادعياء المعرفة ، اي كل اولئك المبرمين الذين يفرضون بذل الجهود . فقد ولى زمان أثارت فيـه سعة الاطلاع ، والعصور القديمة ، حماس الهواة المستنيرين ، وعمت فيه رغبة المعرفة الجماهير . ان عهد الشغف بمعرفة كل شيء ، بأي ثمن ، قد عقبه عهد نفّرته الانظمة الاجتماعية خلال الحروب الطويلة فأراد التوصل الى بعض الوضوح في كل شيء ، باقل جهد ممكن ، اي الى « صباغ معرفــة في أحب المسائل التي تثار في المجتمعات المحترمة » . الشيء المهم الوحيد هو التألق في الحديث ، والتحلي بخلق جميل ولهجة ظريفة ، فيُعف حينذاك عن المعرفة ، اذا كان هنالك من معرفـة . المترفون

يزدرون بالملافنة . بات التمكن من معرفة المؤلفين الاقدمين وقفا على اقلية ضئيلة . « ليس هناك سوى الملافنة تقريباً من يتقنون اللاتينية » ؛ اما الآخرون فامامهم الترجمات ، « الخائنات الحسناوات » حيث الحذف والتخفيف والتجميل ، التي تموه مؤلفات الاقدمين وتشوهها خدمة للعالمين . هؤلاء فقدوا كلياً معنى الجمال الكلاسيكي . وفي المشادة بين الاقدمين والمعاصرين ، وقفوا الى جانب المعاصرين ، اي الى جانب «شارل برّو» (« قصيدة في عصر لويس الكبير » ، ١٦٨٧ ؛ « مقارنة بين الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨ - ١٦٩٦) ، وفونتنيل(« استطراد حول الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨) وكل من يثبتون تفوق « عصر لويس » على عصري بريكليس واوغسطوس وتفوق الكمال « العصري » على كال الاقدمين . وكان للمشادة صداها في كافة انحاء اوروبا . ففي كل مكان ، في « لاهاي » ، و « امستردام » ، وانكلترا ، والمانيا ، صادفت النظرة « العصرية » الى الجمال انصاراً كثيرين .

النظرة الجمالية الجديدة هي انتقال بروح العلم الكرتزياني الى الادب . ان هدف المؤلِف الأول هو الإفهام ونقل الحقائق المفيدة . فالصفات الجوهرية من ثم هي « الجمالات الشاملة » ، العقل ، والرأي الرشيد ، وقابلية الملاحظة والفهم ، والتدقيق ، والترتيب ، والوضوح ، والمنطق . في سبيل بلوغ الحقيقة ، يجب اعتماد النهج المتبع في علم الطبيعيات حيث يحكم على الاجسام بحسب اتساعها وحركتها ، بصرف النظر عن الصفات الحسية : يجب ان نحكم على الشعر والبيان بصرف النظر عن الاذن والفؤاد . لنقف موقفاً حذراً من الاحساس والتأثر والهوى والحميا الجميلة والحرارة المقدسة والحماس والثمل الشعري . كل ذلك حرارة دم وخيال ووهم وجنون . الخلق الشعري العصري عملية حصافة وبرهنة لا تنطوي على اي غرض او ميل . واذا كان « المعاصر » يناقض بذلك كل من سبقه ، فهو المحق والمصيب : فكما ان هنالك تقدماً في العلوم ، فهنالك تقدم في الفنون ايضاً ، واذا اختلف الكمال المعاصر عن كالات العصور الاخرى ، فانه متفوق عليها جميعها . لذلك لم يتردد « هودار دي لاموت » في تكميل هوميروس وتنقيته من « النوافل » ، النعوت ، الصور ، المقارنات ، السذاجات ، الدنايا ، العوارض التاريخية ، الطابع المحلي ، وكل ما يعيد الى الذاكرة حضارة بربرية . وأقصر المؤلف المركب المتناسق الملون المليء بالحياة الذي وضعه الشاعر اليوناني على الوقائع والعناصر البينة الشاملة . « ديكارت نحر الشعر في عنقه » (بوالو) . « الشلل ادرك القلب » (دارجنسون) . « لقد ذهب الآلهة . وباستطاعتي القول انني رأيت الآداب تزهر وتموت وانني عمرت فوق ما عمرّت (هويه) . افضل كتاب هو « السجايا » (١٦٨٨ — ١٦٩٤) للابرويير ، المراقب الاجتماعي المعارض . فكانت الغلبة للكلاسيكية الكاذبة المرتكزة في جوهرها الى القواعد والطرائق ، الحذرة من العبقرية ، العاطفة على متوسطي المواهب .

ملاجىء الشعر
الرسم والتزيين
الاوبرا ، النظام الخيالي

«يمكنه الانسان ان يعيش ثلاثة ايام بدون خبز ؛ اما بدون شعر فلا» . ان الشعر ، الذي أقصي عن الادب ، قد التجأ الى الرسم والتزيين . وفي المشادة التي قامت في فرنسا بين انصار «روبنس» وانصار «بوسين» حوالي ١٦٦٨ ، رجحت كفة الاولين رجحاناً ظاهراً : حوالي السنة ١٧٠٠ ، بحث المصورون والجمهور عن اللذّة في الضوء واللون . جـدّ الفنان في اثر ما يتميز بحميا الاهواء وقوّة التعبير والحياة العارمـة والسجايا الفردية . فان «كوابل» ، في كنيسة فرساي ، و «لافوس» ، في «الانفاليد» ، قد اعـادا الشباب الى المعقود بالوان اوفر صفـاء وبهجة وبرسوم ارسخ بروزاً ومتانة . ووصل «فاتو» (١٦٨٤ – ١٧٢١) من «فالنسيين» الى باريس في السنة ١٧٠٢ وتتلمذ لِ «كلود جيلو» وكلود اودران» . ورسم لوحاته العسكرية الخالية من التصنع ، «ظهر الحرب» ، وعرض لوحاته المعدة للمهازل والاعياد الانيقة . وتحوّل التزيين بعد ١٦٨٥ – ١٦٩٠ ، فأحيـا «بيرين» تصوير الاوراق المتشابكة واضفى عليه الخفة والرقة ، واطلق العنان لمخيلتـه ، فابتدع مواضيعه الجديـدة : حنايا الاوراق النباتية ، والرسوم الحلزونية الانيقة ، وقوائم الدرابزونات التي سنـد اليها صور الانسان التيس وابي الهول والعنقاء ، وبعض اشخاص المهزلة الايطالية والاوبرا ، كالموسيقيـين العازفين على القيثار والبوق ، العازّين الدفوف بايديهم ، الماشين على ايديهم ، او كالصينيـين والاتراك الذين ابتدعهم خيـاله . وفي «مودون» ، ملأ «كـلود اودران» الثالث السقوف بصور آلهة الحب والقرود والهنود والدلافين . فغزت الجدران رسوم القرود او رسوم المواضيع الصينية كتلك التي حققهـا «فـاتو» في قصر «لا مويت» . وبرزت مرة اخرى الحركة والخيال وتأثيرات المخيلة والحس .

اما الاوبرا ، وهي عيد الالحان والالوان والاوزان ، وتأثر شهواني عـذب ، فقد استقبلت استقبالاً حـاراً في نابولي وروما وفلورنسا والبندقيـة وفيينّـا و «درسـد» وليبزيغ وباريس ولندن .

واخيراً وجد الشعر له ملجأ غير منتظر في احلام عصور ذهبية اورد ذكرهـا على لسان «البربري الصالح» ، و «الصيني الحكيم» في الف نظام اجتماعي خيالي نسقت تنسيقاً منطقياً بالاستناد الى معطيات استوقفت الحواس .

انحطاط تعلم الآداب القديمة

هبط مستوى الدروس في الكليات بسبب سيطرة الشواغـل النفعية على التلاميذ وآبائهم . فالحياة قد قست على الكثيرين . اما الاولاد ، المتزايدون تزايداً مطرداً ، والمنحدرون من البورجوازية التجـارية ، فيأتون من اوساط تقف موقفاً حذراً من الآداب القديمـة : «اعتبرت الدروس اليونانية غير ذات فائدة فضعفت وانحطت . وخلت صنوف الفلسفة : ما هي الفائدة من كل هذه الاشياء الباطلـة ؟» واذا كان اللغة اللاتينيـة بعض الحظوة ، فبوصفها اجراءاً ضرورياً للوصول الى مهن مختلفة او

دلالة على المركز الاجتماعي المحترم » . وطلب حديثو النعمة ، في الدرجة الاولى ، من المدرسة ، تزويد اولادهم بتلك « المعارف الجميلة » ، بتلك « الصباغات » من كل شيء ، بتلك « الآداب اللطيفة » ، التي تتيح كلها البروز في المجتمع . فارضاهم الاساتذة بفيض من التمارين العامة ، في التاريخ والجغرافيا ، والمرافعات باللغة الفرنسية ، والرقصات الرمزية ، وكلها ترضي حب التظاهر العائلي ولكنها تضر بعلم الآداب القديمة اضراراً كبيراً .

٥ – ازمة الفكر والحس

ازمة الدين

تراجع الصوفيين

ان الصوفيين الذين انقذوا الكاثوليكية بالصلاة باتوا وكأنهم في عالم آخر لأن ليس من يفهمهم . فان « نيقول » (« مدعو الوحي » ١٦٦٥ – ١٦٦٦ ؛ « بحث في الصلاة » ، ١٦٢٩ ؛ « دحض اخطاء مذهب التجرد الرئيسية » ، ١٦٩٥) ، ومالبرانش ، وبوسويه ، وبوردالو ، كانوا غرباء عن الصوفية او معادين لها . الاوغسطينية سيطرت وسيطر معها الاقتناع بأن التنعم واللذة هما محرك الانسان الوحيد وبأن الارادة لا تميل الا الى ما يقع منها موقع الرضى . وذهب الجنسينيون بهذا المذهب الى حد الافراط : كل ميولنا وكل عواطفنا تعود في جوهرها الى حب الذات . ولكن الصوفيين ادعوا بأنهم لا يبحثون في محبتهم لله عن التعزيات الحسية . وقالوا ان هذه المحبة هي ميل الى الله ، قد يبعثه الله دون ان يرفقه باللذة ، في وسط يبوسة هي تطهير داخلي . واكدوا انهم يشعرون بالسعادة ، دونما لذة ، في وسط الآلام . فكانوا من ثم مغررين انفسهم في نظر نيقول والآخرين . وكل ما يعزونه الى النعمة ليس سوى وهم انانيتهم وصنع مخيلتهم .

كان خصوم الصوفية كرتزيانيين وآليين ، فاعتقدوا بامكانية معرفة الله العقلية فقط ، عن طريق الافكار الواضحة والبرهنة . أما الصوفيون فقد تكلموا عن مشاهدة مبهمة ، عن حوار مع الله دونما صوت كلام أو تلامس مادي ، دونما شيء يمكن ان يقع تحت الحواس أو يكون بمعنى الكلمة المادي . كانت معرفتهم لله معرفة سرية ، خالية من المثل ، غامضة ومبهمة . وابى خصوم الصوفية التسليم بما لا يشعرون به ، اي بتمييز فكرة الله ومعانقة الله . وفي رأيهم ان الصوفيين لم يدركوا ما يقولون ، وانهم ضربوا بالرشد عرض الحائط ، وأنهم معتوهون ومجانين .

احب الصوفيون الله ، وكانت المحبة حياة لهم . أما خصومهم فقد أرادوا ديناً مفيداً ، عملياً ، يستهدف اكتساب الفضائل مباشرة . ورفضوا مناجاة النفس لله ، واتحاد النفس بالله ، وعبادة الله الحاضر حضوراً ذاتيا مباشراً . واقصروا الصلاة على التأمل استعدادا للقيام بواجب ، أو التسلح ضد التجارب ، أو تنظيم المشاغل والاعمال ، على فحوص الضمير المتعددة . باطلة كل فكرة عن الله « لا تتضمن اية فكرة عن أمر أو قاعدة يجب التقيد بها ، أو عن رذيلة يجب تجنبها » .

فاقتصر الدين من ثم على مساعدة الاخلاق وبات علماً اخلاقياً نفعياً ، وأنزل الله الى مرتبة معاون للانسان . وكان ذلك انحداراً جديداً من نظرية مركزية الله الى نظرية مركزية الانسان .

مذهب التجرد

انفجر الموقف هذا في قضية مذهب التجرد . ان النظرية التجردية التي طلع بها الاب « جان فالكوني » من جمعية سيدة الشكر ، انتشرت في فرنسا مرة اخرى بواسطة « مالافال » (« الطريقة السهلة للسمو بالنفس الى التأمل » ، ١٦٠٠) ، وفي اسبانيا بواسطة « مولينوس » ، أحد كهنة ابرشية « ساراغوس » (« الزمام الروحي » ، ١٦٧٥). في رأي التجرديين ان من واجب النفس الاستسلام لله في راحة كاملة استسلاماً نهائياً. حينذاك يفعل الله بالنفس ما يطيب له ان يفعل . في هذه الحالة ، التي تكون دائمة ، لا تستطيع النفس ان تخطىء مهما صدر عنها . فيتضح من ذلك ان هذا التعليم انطوى على نتائج خطيرة : فقد رفض التجرديون الصلوات اللفظية ، والوردية ، واشارة الصليب ، والمصلوب ، زاعمين بان كل ذلك يمنعهم من الاتحاد بالله . اعتبروا كل أفكارهم ايحاءات من الله وحسبوا ان كل ما يمر في خاطرهم جائز وحلل لهم . سجن مولينوس وادين بناء على طلب محكمة التفتيش الرومانية . وأقدم البابا انوشنتيوس الحادي عشر على ما أقدم عليه مكرهاً تحت ضغط لويس الرابع عشر . فان رقيمه ، في الواقع ، قد خطّأ مذهب التجرد وخطأ معه ممارسات مشتركة بين التجرديين والصوفيين تتفق كل الاتفاق والمعتقد القويم ، كصلاة التجرد أو صلاة الايمان التي هي نظرة محبة مباشرة من النفس الى الله ، دونما صور باطنية وتأمل وبرهنة وتفكير .

أما في فرنسا فقد سبق لاحدى المتصوفات ، السيدة « غويّون » ان نشرت « الطريقة الموجزة والسهلة جداً للصلاة » ، ولن تلبث ان تؤلف « السيول الروحية » . وجمعت من حولها بعض الاشخاص الروحيين الذين كان لهـا عليهم سطوة كبرى . وكان من بينهم الاب « دي فينيلون » مهذب دوق « بورغونيا » . وكانت السيدة «غويون» صديقة للسيدة «دي منتنون » ، فشغفت بآرائها معلمات وآنسات « سان – سير » . الا ان صوفيتها ما لبثت ان اصبحت موضوع ارتياب لا سيما وان من شأن بعض تعابيرها المفرطة أو الخرقاء ان لا يفرق السامع بينهـا وبين التجرديين . حكم على « الطريقة الموجزة » في رومـا في السنة ١٦٨٩ . ونبهت السيدة « دي منتنون » الى الخطر في السنة ١٦٩٤ . وتحولت القضية الى مبارزة بين بوسويه وفينيلون دافع فيها كلاهما عن آرائهما ، بوسويه في « درس في حالات الصلاة » ، وفينيلون في « تفسير مبادىء القديسين حول الحياة الباطنية » في السنة ١٦٩٧ . وتدخل اخيراً لويس الرابع عشر ، فاعفي فينيلون من مهمة التهذيب في السنة ١٦٩٥ واقصي عن البلاط واسندت اليه رئاسة اساقفة « كمبريه » ، ثم حكم البابا على كتابه في السنة ١٦٩٩ .

بيد ان ما يلفت النظر هو ان « التفسير » قد اثبت بان فينيلون ، المدافع عن الصوفيين ، لم يكن اطول باعاً في فهم الصوفية من خصومه. فقد شدد على طابع التجرد في المحبة الصوفية ،

بحيث ان الصوفي يحب الله مـــن كل نفسه حتى ولو حدث ، بفرض مستحيل ، ان الله يجهل محبته ويريد له نيران جهنم الازلية . واستشهد فينيلون بالقديس برناردوس وغـــيره . ولكن القديس برناردوس قد تبرأ منه مسبقاً . فهو قد سبق له وابان ، ضد « ابيلار » الذي قال قول فينيلون ، ان محبة الله لا يمكن ان تكون مجردة تماماً . فمحبة الله ، من جهة ، تستهدف الكائن الاعظم ، اي الخير الاسمى والسعادة السميا . أما محبة الخليقة ، من جهة ثانية ، فقد لا تقابلها مكافأة ، وتصبح مجردة في حال تماديها . ولكن محبة الله مكافأة ابداً لأن الله احبنا قبل ان نحبه ولا يطلب منا سوى محبتنا كي يسبغ علينا نعماً جديدة . يضاف الى ذلك اخيراً ان النفس لا تحب الله من اجل ذاته ما دامت قادرة على فرض المستحيلات ، فان النفس ، حين تحب الله من اجل ذاته ، تنقطع عن الفرض والتفكير وتنصهرُ في الله . وقد اتضح من كل ذلك ان فينيلون لم يختبر الصوفية وانه ، هو ايضاً ، قد تكلم عنها كما يتكلم الاعمى عن الالوان .

ولكن النتيجة التي آلت اليها كل هذه المشادات هي تكريه قراءة المؤلفات الصوفية وانقاص عـــدد النفوس الداخلية حتى في الاديرة ، بينما كان الدين يتعرض لهجمات العقليين والمؤرخين .

التاريخ ضد الدين

استخدم العلم الواسع في التاريخ لغايات سياسية ودينية ، فعـارض في نموه التاريخ الخطابي على طريقة « تيت – ليف » مع ما ينطوي عليه من خطب وحكم وتحاليل ومقارنات . ولم يزل هنالك ، على كل حـــال ، مؤرخون من هذا الطراز ، كـ « فرتو » مثلاً الذي ارشد الى مستندات حول حصار مـــالطة بعد الانتهاء من تحرير نصه ، فأجاب بان المستندات جاءت متأخرة وان الحصار قد تم ، أو كالاب « دانيـــال » الذي ذهب للاطلاع على مجلدات مكتبة الملك ، فامضى هناك ساعة واعتبر نفسه مسروراً جداً . وعارض التاريخ كذلك ، في اتساع ابحاثه ، بعض الكرتزيانيين المولعين بالحقائق الشاملة دون غيرهـــا . فقد درج « مالبرانش » على القول ان آدم امتلك المعرفة الكاملة دون ان يعرف التاريخ ؛ وقد اكتفى ، في حقل التاريخ ، بما عرفه آدم . واعجب الكثيرون بهذا الموقف لأن « الجيل الطالع كان راغباً في الرخاء والطيش ومنصرفاً عن كل ما لم يبد له سهلاً » .

البندكتيون

ولكن جمعية بندكتيي « سان ــ مور » كانت قد نذرت نفسها للعلم التاريخي الواسع لاجل مجد الله . وكانت مصممة على نشر مؤلفات الآباء وعـــلى وضع تاريخ جمعية القديس بندكتوس . وقد نظم العمل المشترك ، في دير الرئاسة ، « سان – جرمين ده بريه » ، ما بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٤٨ ، «لوقا داشري» الذي خلف غريغوريس تاريس. حوالي السنة ١٦٦٤ ، كانت تجتمع في قليته ، أيام الآحاد، ندوة من العلماء الواسعي الاطلاع في التاريخ ، « دي كانج » ، « بالوز » ، « فيون ديروفال »، رئيس « هارلي » . ثم جـــاء تلميذه « مابيون » (١٦٣٢ – ١٧٠٧) فأسس علم « الدبلوماتيقية » الذي يعين درجة صحة وثائق القرون الوسطى ، الصكوك ، المعاهدات ، العقود ، السجلات (« الدبلوماتيقية » ، ١٦٨١) .

واسهم بفخر في أعمال البندكتيين الذين نشروا ، حتى السنة ١٧٩٢ ، ٧١٠ مؤلفات يضم كل منها عدة مجلدات كبرى : « غاليا المسيحية » ، « مؤرخون من فرنسا » ، « مؤرخو الحروب الصليبية » ، « فن استثبات التواريخ » ، طبعات مؤلفات الآباء اللاتين واليونانين ، مجموعة الوثائق .

ومن جهة ثانية ، استهدف روح السلطة هجوم عام زعزع الايمان في وحي الكتب المقدسة والامتياز الديني للشعب اليهودي . وكان مصدر هذا الهجوم ، في الدرجة الاولى ، تطبيق العقلية الكرتزيانية على العلم التاريخي الواسع .

البحث اللاهوتي السياسي (« سبينوزا »

أعلن سبينوزا في كتابه « البحث اللاهوتي السياسي » ان العقل يثبت عجز الدين وضرورة نبذ كافة المعتقدات التقليدية . الدين غير ناجع : اذ يستحيل التمييز بين مسيحي ويهودي ، أو تركي أو وثني . لماذا يا ترى ؟ لان الدين لم يعد فعلا داخلياً، مدروساً ، مقتنعاً به،بل عبادة خارجية، وممارسات آلية ، وطاعة سلبية لاوامر الكهنة . ولكن هـؤلاء الكهنة طماع استولوا على الكهنوت بدافع الجشع . يجب التخلص منهم ، والاعتماد على النفس ، واستخدام العقل ، شرف الانسان .

الطاعة مفروضة باسم الكتاب ، في حال ان الكتاب ، كما ثبت ذلك ، ليس عمل الله ملقناً أنبياءه : فهو حشو بالمتناقضات والاخطاء . كتب الكتاب القديم ليست اكيدة الصحة . فهي متألفة من وثائق مختلفة المصادر ومتفاوتة القيمة . الوثائق الاصلية افسدت بفعل خرق المستنسخين وأسيء سبكها . الكتب التاريخية البحتة (الاسفار الخمسة ، يشوع ، القضاة ، الملوك) معدة لتقديم تاريخ شعب اسرائيل من زاوية موافقة لمدرسة معينة من اللاهوتيين . وهي لا تعود ، في شكلها الحالي ، الى ما قبل عزرا . ولا ريب في ان الشعب اليهودي لم يختر للمحافظة على الشريعة الالهية لانه شعب ولى وانقرض . الدين العبراني والمسيحي ظاهرة تاريخية ذات صبغة عابرة ، لها تفسيرها في زمانها وظروفها .

ريشار سيمون

ان « ريشار سيمون » (١٦٣٨ – ١٧١٢) ، أحد كهنة جمعية القديس فيلبس النيري ، الذي سبق له ان قال بالكرتزيانية ، قد تأثر تأثراً عميقاً بـ « البحث اللاهوتي السياسي » وبمحاجات المؤرخين الذين لم يتوصلوا الى التوفيق بين معطيات التوراة العددية والمعطيات العددية لدى الشعوب الاخرى . فسما بطريقة سبينوزا الى ذروة كمالها . ووفاقاً للروح الهندسية الكرتزيانية لم ينظر الا الى جزء من الواقع . فتكون لديه مبدأ اساسي مسلَّم به دون برهان : اقصى اعتبارات الجمال والاخلاق ؛ وجعل من شرح المتن علما قائماً بذاته مستقلا عن اللاهوت وعلم المعقولات.لم يكترث، في تحديد درجة الصحة ، الا للمعطيات المادية ، المخطوطات ، حبرها ، كتابتها ، احرفها ، فواصلها ، نقاطها ، حركاتها . فان تفسير

التوراة عملية تحليل لغوي ، واتباع نهج نحوي جيد ونقد تاريخي سليم ، واتقان اللغة العبرانية ولغات الشرق ، والاقتصار على المعنى الحرفي ، ووضع الكتب المقدسة في إطارها ، ومعرفة حياة الانبياء ودروسهم ودورهم ، وزمان وظرف تأليفهم كتبهم ، والشخص الذي وضعوها من أجله ، واللغة التي وضعت بها ، ونصيب كل كتاب ، وكيفية جمعه ، والايدي التي انتهى اليها ، الخ .

استطاع حينذاك الاجابة على السؤال التالي : هل يجوز النظر الى التوراة كما الى كلام الله ، الموحى به مباشرة ، المدون خطاً ، المنتقل الينا في حالته الاصلية ؟ وقد أجاب بالنفي ، لان الاسفار الخمسة مثلا ليست من تأليف موسى ، كما هو ثابت . انها تتضمن استشهادات وامثالا وأشعاراً تنم عن لغة وانشاء لاحقين لعهد موسى ، « فهل يعقل ان ينسب الى موسى الفصل الاخيرمن سفر «تثنية الاشتراع» حيث دون وصف موته ودفنه ؟» كما انها تتضمن اقوالاً مكررة لا يحصى لها عد . فهي من ثم مؤلف غير متلاحم الأجزاء وضعته أقلام خرقاء في عهود مختلفة ، ونقح برفل تكراراً ، بحيث يستحيل اليوم معرفة واضعه الاول الحقيقي .

هل يجوز اعتبار العقيدة الكاثوليكية والممارسات الكاثوليكية مستخلصة مباشرة من التوراة ومسوّغة بها ؟ كلاّ . فقد درس العهد الجديد ووجد ان هذا المقطع من القديس يوحنا : « لي ثلاثة شهود في السماء » ، الذي يؤلف احد مرتكزات عقيدة الثالوث ، لا أثر له في المخطوطات الصحيحة . ولا يمكن ان يعزى الى مريم نذر بتولية دائمة ، اذا ما استندنا الى لوقا ، ١ ، و٣٤ . يضاف الى ذلك ان تفسير « ريشار سيمون » للكتاب المقدس كان تفسيراً عقلياً . فهو ، مثلا ، يضعف النصوص التي تثبت مجانية انعامات الله . وقد ترجم هذا المقطع : « اعززت يعقوب ، ولكنني غضبت على عيسو » بـ « احببت يعقوب اكثر من عيسو » .وفي حادثة امرأة لوط ، ترجم هذا المقطع : « حولت الى تمثال من الملح » بـ « غدت كتمثال من الملح » ، اي جامدة » . الا ان بوسويه توصل الى إدانة ريشار سيمون واتلاف طبعة الكتاب . وشن البروتستانتيون « فوسيوس » و « سبانهايم » و « باسناج دي بوفال » و « جوريو » و « لو كلير » هجمات عنيفة على سيمون . وكان في رأي بوسويه ان المهم في الامر هو فائدة القارىء الاخلاقية والدينية ، التي ترتبط بسلطة الكنيسة المؤتمنة على التقليد .ان التقليد ، اي ما آمنت به الكنيسة منذ البداية ، يتقدم على النص ، كما ان هذا المعنى او ذاك حقيقي لان الرسل والآباء والمجامع والملافنة قد اجمعوا الرأي على ذلك بالهام من الروح القدس ، وعلى علم قواعد اللغة ان ينحني امام اللاهوت . ولكن سيمون لم يرتدع ولم يتراجع . وحين نشر في السنة ١٧٠٢ ترجمة العهد الجديد ، المعروفة بترجمة « تريفو » ، لم يتوفق بوسويه ، هذه المرة ، الى حمل المستشار على إلغاء الكتاب ، لان الايام كانت قد تبدلت .

بوسويه
والعلل الثانوية

ان بوسويه ، الذي تأثر بالكرتزيانية ، قد خلخل ، على غير قصد منه، الدين الذي كان راغبا في الذود عن حياضه . في كتابه « خطبة في التاريخ العام» (١٦٨١) ، اراد ان يثبت ان الله قد رتّب كل تاريخ العالم الوثني استعداداً لمجيء يسوع المسيح . ولكنه لم يلجأ الى الله تفسيرا الا مرة واحدة ، مكتفيا في ما عدا ذلك بالعلل الثانوية ، او العلل البشرية ، لتفسير الاحداث الانسانية . هاجم البروتستانت ، الذين جاهروا ، شأن الكاثوليك ، بان « الدوام دليل حقيقة ، والتحول دليل ضلال » ، فنشر في السنة ١٦٨٨ ، « تاريخ تحولات الكنائس البروتستانتية » المستقى من المصادر . ادى هذا التاريخ الى بعض الارتدادات ، كما انه ادى عند البروتستانت ، كجوريو ، منذ « الراعويتين » السادسة والسابعة ، و « باسناج » ، و « بورنيه » ، الى ردة فعل شاملة : سلم كلهم بضرورة التحول ، دليل الحياة الداخلية وعمل الروح القدس . ولكن من شأن هذه الحركة ، اذا بولغ يوما في تسلسلها المنطقي، ان تفضي الى حرية دينية لا حدود لها. فأوحى بوسويه بذلك الى البروتستانت بنزعة خفية، او استعداد غير ظاهر في البروتستانتية، هو مبدأ الحرية لا بل مبدأ الاباحية الذي تنطوي عليه . ومن سخرية القدر ان بوسويه « قد عمل بصورة غير مباشرة على استعجال نشوء تلك المسيحية المبسطة ، المقتصرة على رمزية ملاطفة ومرتخية ومبهمة » ، التي أمست في القرن التاسع عشر « الدين السري للعديد من الزنادقة الاتقياء » .

« بيل »
وآراؤه في المذنب

نشر « بيير بيل » ، البروتستانتي الفرنسي اللاجىء الى هولندا ، عدة « رسائل وآراء في المذنب » ظهرت في السنة ١٦٨٢ والسنة ١٦٨٣ والسنة ١٦٩٤ . ساد الرأي بان المذنّبات دلالات طبيعية يرسلها الله للانباء بقصاص صارم استحقه البشر . ودرج الناس على التأكيد بان حوادث مشؤومة تعقبها ابداً : اغتيال ملوك ، زلازل ، مجاعات ، حروب ، طواعين . فأثبت « بيل » ان هذا الرأي لا يستند الى اساس متين. ولو فرضنا جدلا ان المذنبات ترافقها مصائب عدّة، فلا يعني ذلك انها الدليل عليها او المسبب لها . فلا يحق مثلا للمرأة التي تنظر من نافذتها ، في شارع « سانت ـ اونوريه » ، فترى كل مرّة عربات تمر امامها ، ان تتصور انها سبب مرورها ، كما ان ظهور هذه العربات ليس، بالنسبة للجيران ، دلالة طبيعية على ان عربات اخرى لن تلبث ان تمر من بعدها . وفي الواقع ليست المصائب في سنوات المذنّبات اكثر منها في السنوات الاخرى . فيجب من ثم ان نفرق بين مصادفة وجود شيئين معا وبين علاقة العلة بالمعلول .

لذلك كان من واجب الانسان السليم التفكير ان لا يعتقد بقدرة المذنبات حتى ولو اجمعت الآراء على ذلك وشهدت الشعوب كلها بذلك . ولكن اجماع الآراء يعطي برهانا على وجود الله، كما ان التقليد يعتبر محافظة مستمرة على حقائق الايمان : فاجماع الرأي ، كما قيل عن المذنب ، لا يبرهن شيئاً .

زد على ذلك ان القول بان المذنبات دلالات طبيعية خرافة وثنية قديمة حوفظ عليهـا في المسيحية . فلو كانت المذنبات دلالات طبيعية ، لاتى الله بالمعجزات ليحفظ الوثنيين في عبادة اصنامهم. وفي الواقع ليس المسيحيون الذين يؤمنون بقيمة المذنبات كدلالات طبيعية سوى عبدة اصنام. المعجزة لا تليق بكرامة الله ، لانها تخلف «شرائع الله» ، وتخالفهـا لاجل خلائق بشرية حقيرة . الايمان بالمعجزات والعناية الالهية ، انما هو نتيجة الكبرياء . اذن فعبادة الاصنام تتآكل المسيحيين الحاليين . ولذلك فانهم يقعون في كل الرذائل ، بينما هناك ملحدون صالحون يعملون بوحي قواعد الشرف . يجوز ان نتصور مجتمعا من الملحدين قد يوازي مجتمعا مسيحيا او يتفوق عليه . الم يكن للالحاد ابطاله وشهداؤه ؟ وفي « قاموسه » ، الذي جاء روعة الالحـاد الواسع الاطلاع ، استأنف الارتيابي « بيل » هجماته على الكتب المقدسة والعقائد الروحانية ، فتهافت الشبان على ابواب المكتبات لاجل قراءة هذا الكتاب « الذي لم يتخلله سطر واحد انطوى على تجديف صريح » والذي لم يكن من شأنه، مع ذلك، « ان يقود الى الالحاد » . في فرنسا كانت المشاعر مهيأة بفعل فضيحة المناولات الالزامية . فبعـد إبطال براءة نانت ، ارغم الوكلاءُ البروتستانت بالقوة على المناولة . فكان ذلك خرقـاً للقدسيات لان هؤلاء المنكودي الحظ لم يكونوا مهيئين لتقبل جسد الرب بما يليق من عواطف الاحترام والمحبة . استنتج البروتستانت من ذلك ان الكهنة دجالون لا يؤمنون بالوجود الحقيقي . لا بل ان بعض الكاثوليك ، ممن عاش بينهم البروتستانت،قد تزعزعوا حينذاك في ايمانهم. فكان ان بعض البروتستانت،الذين جحدوا معتقدهم وتناولوا تحت سطوة الخوف ، اعترفوا في قرارة انفسهم بوثنيتهم وباقـتراف الخطيئة ضد الروح القدس ، وهي الوحيدة التي لا تغتفر ، فبحثوا عن النجاة من قلقهم المقض بتبني آراء الملحدين ونشروا العدوى في اوساط الكاثوليك .

وقد أثارت اليابان والصين آنذاك شر المصاعب .

الملحدون

شقت الطريق أمام الملحدين الانكليز ؛ فان « تولند » (١٦٧٠ — ١٧٢٢) عدو الكهنة الذين يبتكرون بعض العقائد ، كخلود النفس،لضمان سلطتهم ، قد قال بعالم ازلي يسير بحركة تلقائية ، وبمباديء تجعل من الفكر حركة من حركات الدماغ ، وباخلاق مبنية على العقل . أما « كولنز » (١٦٧٦ — ١٧٢٩) فقد احتج في « خطابه حول حرية الفكر » على غرابات التوراة وعلى عجائبها التي ليست سوى خداع وغش . وجاء في كتابه « محاولة في طبيعة النفس البشرية ومصيرها » : « لما كان الفكر نتيجة عمـل المادة في حواسنا ، جاز لنا الاستنتاج بانه خاصية من خاصيات المادة أو ظاهرة من ظواهر المادة يسببها عمل « المادة » .

عبثاً حسب نيوتون انه اثبت وجود الله . وعبثاً قاوم الراعي « ابلي بنوا » عقلية العلماء الواسعي الاطلاع ، في السنة ١٧١٢ . فبحسب طريقة « بيل » ، كما قال،وهي طريقة كرتزيانية

تفرض الوضوح المطلق وتذكر الشهادات ، يمكننا تقديم الدليل على ان « بيل » ليس مؤلف « قاموسه » . انه يؤكد ذلك : ولكن ما هو الدليل على صدقه ؟ انه يقسم على ذلك : ولكن هناك ايماناً كاذبة . قد يستشهد باصدقائه : ولكن يجب اثبات صدق الاصدقاء . قد يتعلل بالكتبي والصفاف والمصحح : ولكن هؤلاء شهود يجب استثبات صدقهم اولاً . في واقع الحياة ، يجب الاكتفاء بالبراهين التي توفر يقيناً أدبياً : « ان البراهين الصحيحة من الندرة والصعوبة بحيث تصبح غير ذات جدوى في الامور التي تفرض فيها الحياة ضرورة العمل ، وبحيث يجب التخلي عن كافة وظائف الحياة ، اذا ما طولب ، في سبيل الاختيار ، بوجوب توفر البراهين التي لا تنال منها الاعتراضات التي قد يتقدم بها فيلسوف حذق. وليس من مرتكز للفنون والعلوم والمجتمعات والشرائع والتجارة سوى مثل هذه البراهين ... » ان المادة غير المخلوقة ، التي تتحرك وفاقاً لنظام معين ، سر مستغلق على العقل استغلاق اعظم اسرار الدين . الانسان حيوان متدين يميل بالسليقة الى المحبة والتفوق والانصهار في اللانهاية . وحين لا يعبد الله ، فانه يعبد العلم ، أو الوطن ، أو الملك ، لأن العبادة وبذل الذات فرض واجب عليه .

ولكن السد كان اضعف من ان يقاوم قوة السيل الجارف .

٦ – أزمة الآراء السياسية والاجتماعية

البورجوازيون: «لوك»

كانت ثورة السنة ١٦٨٨ ، لـ « جون لوك » (١٦٣٢ – ١٧٠٤) ، مناسبة لمراجعة ونشر الفلسفة العملية ، لا بل النفعية ، التي وافقت انطلاقة العلوم وكانت معدة لتبرير ثورة الاعيان الظافرين وايضاح نزعاتهم العميقة . ولد « لوك » على مقربة من « بريستول » ، وانحدر من عائلة تجار ورجال قانون ، وتلقى الدراسة في اوكسفورد ثم غدا فيلسوفاً ولاهوتياً وطبيباً ، وارتبط منذ السنة ١٦٦٦ ، كطبيب، باللورد « اشلي » الذي اصبح الكونت « دي شافتسبري » في عهد لاحق . حين عين هذا الاخير وزيراً ، اصبح لوك امين سر « دائرة التجارة » (١٦٧٢ – ١٦٧٥) . بعد زوال حظوة الكونت ، سافر لوك الى فرنسا (١٦٧٥ – ١٦٧٩) . عندما اخفق شافتسبري في محاولته الثورة وفر الى هولندا ، لحق به لوك اليها في السنة ١٦٨٤ . حرره بيكون وديكارت وغسندي ، في هذه الاثناء ، من الارسطاطاليسية التي تدرس في اوكسفورد. في هولندا ، وضح لوك آراءه بمخالطته البروتستانت الفرنسيين اللاجئين . عاد الى انكلترا في السنة ١٦٨٨ . منذ السنة ١٦٧١ ، امتلك آراءه الرئيسية ، ولكنه لم ينشر أهم مؤلفاته الا بعد الثورة الانكليزية ولاجلها : « رسالة اولى في التساهل » ، وقد كتبت في السنة ١٦٨٥ – ١٦٨٦ ونشرت في السنة ١٦٨٩ ؛ « محاولة في الحكومة المدنية » ، و « محاولة في العقل البشري » (١٦٩٠) .

في رأي لوك ان البشر ، في حالة الطبيعة ، احرار ومتساوون فيما بينهم . يهتدون بهدي

العقل الذي يرشدهم الى حقوق الانسان الطبيعية ؛ الحياة ، الحرية ، الملكية اي حق كل فرد في التصرف بثمار عمله بنسبة حاجاته ، العائلة ، السلطة الابوية . كل هذه الحقوق مقدسة. الله وهبها الانسان . وهي سابقة في الزمان لكل مجتمع .

الا ان البشر ، بعد تعرضهم للكوارث الطبيعية وهجمات اعدائهم ، اضطروا لأن يؤلفوا مجتمعاً حتى يستطيعوا التمتع بحقوقهم الطبيعية . هدف المجتمع هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية . البشر يؤلفون المجتمع بموجب عقد اجتماعي . كل منهم يتخلى للمجتمع عن حقـــه في تنفيذ القانون الطبيعي . « لا يمكن ان تتخطى سلطة المجتمع حدود الخير العـــام » . المقررات تتخذ بالاكثرية . القوانين متساوية للجميع . لا يستطيع اي قانون ان يحرم انساناً من ممتلكاته ؛ اذن الضرائب مقبولة . كل انسان يبلغ سن الرشد حر في ان ينخرط أو لا ينخرط في المجتمع ، وفي ان يعقد أولا يعقد اتفاقاً مع الآخرين ، ولكنه ، اذا ما انتمى الى المجتمع ، لا يستطيع ان يتركه بعد فترة طويلة أو قصيرة من الزمن .

يمكن ان تمارس سلطة المجموع مباشرة ، وهذه هي الديموقراطية . ولكن باستطاعة المجموع كذلك ان يفوض سلطته الى جماعة أو الى فرد ، ويؤسس أمـــا اوليغارشية وأما ملكية . المجموع يعقد اتفاقاً مع مفوضه ، هيئة كان أم فرداً . المفوض مقيد ببنود العقـد . لا يستطيع التصرف بممتلكات رعاياه تصرفاً تعسفياً . يطبق القوانين التي تسنها جمعية غير دائمة ، لأنه من الافضل الفصل بين سن القوانين وتنفيذها . بمكنة المجتمع استعادة السلطة من مفوضه اذا خالف العقد. الرعايا لايقاسمون المفوض كمفوض،بل كمنفذ لارادة المجتمع .اذا لم ينفذ هذه الارادة،فالرعايا في حل من يمينهم. بمقدورهم ان يثوروا ويستخدموا الاسلحة . جرائم جاك الثاني تبرر الثورة . ليس غليوم الثالث مغتصباً لأن سلطته الملكية تستند الى رضى الشعب . فاطمأن بذلك الضمير الانكليزي .

يجب فصل الكنيسة عن الدولة . الدولة مجتمع معد لأن يضمن للمواطنـــين التمتع بحقوقهم الطبيعية . الكنيسة مجتمع معد لأن يتيح لهم كسب خلاصهم الابدي ؛ « مجتمع » طوعي مؤلف من افراد يجتمعون بملء اختيارهم بغية عبادة الله علناً ، بالشكل الذي يرون فيـــه ارضاء له وخلاصاً لنفوسهم. فليس الدين ، بالتالي ، من اختصاص القاضي . الكنائس اشبه بتعاونيـــات الصناعيين اليدويين أو الجمعيات العلمية . تقر انظمتها وتفرض عقوبات روحية . ليس باستطاعتها التعرض لشخص المؤمنين أو لممتلكاتهم . حرية الضمير وحرية العبادة كليتان . لا حدود لهاتين الحريتين سوى التعديات على الحقوق الطبيعية والآراء المتعارضـــة ووجود المجتمع الانساني أو القواعد الاخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدني . فلا يجوز من ثم الاغضاء على الكاثوليك لانهم يربطون السلطة الزمنية بنعمة الهية هم مؤتمنون عليها ولأن كهنتهم تحدوهم رغبة جشعة في السيطرة . ولا يمكن الاطراف على الملحدين لأن العهود المقطوعة لا تخضع ، بالنسبة لهم ، لايـة

عقوبة ، ولأن الحقوق الطبيعية لم تعد في نظرهم ثابتة وممتنعة الابطال . « ان إلغــاء الله ، ولو بالفكر فقط ، معناه ملاشاة كل شيء » .

في سبيل ضمان التساهل والسلام الاجتماعي ، يطرح لوك جانباً كل المثل التي لا يمكن تبريرها بالاختبار أو التوصل اليها بالتركيب ، اي مثل اللانهاية الحالية ، المادة ، الجوهر الحقيقي ، حرية الارادة ، الخ . لا نبحثن الا عن معرفة ما يمكن ان يفيد في الحيــاة . قوانا ضعيفة وفظة : لا نسعين وراء معرفة كاملة ومطلقة تعجز عنها الكائنات المتناهية . ولنهملن الافتراضــات الميتافيزيقية حول طبيعة النفس وجوهرها وعمل النفس في الجسد وعمـــل الجسد في النفس . لا نهتمن الا لما هو مفيد . ولندرسن عقل الانسان فقط وكيفية تكوّن الافكار وتركبها، فهذه هي المعرفة الحقيقية التي يمكن تطبيقها عملياً .

النظرية الكرتزيانية في الافكار المطبوعة تنطلق من معرفة مباشرة وباطنية مزعومــة . فهي تفسح من ثم مجالا لكل الافكار الفردية السابقة التكوين . وان كل الآراء التي يجب ان توفر الطمأنينة للعقول ، كبراهين وجود الله مثلا ، تتعلق من ثم بالافكار السابقـــة التكوين لدى كل فرد ، في حال ان تأمين توافق اعضاء الجسم الاجتماعي يوجب ايصالها الى « مفهـــوم صحيح للاشياء ... وايصال العقل الى طبيعتها المتصلبة وعلائقها الثابتة ، لا السعي وراء ايصال الاشياء الى آرائنا السابقة التكوين » . ليس لدينا ، لحسن الطالع ، مفاهيم مطبوعـــة ، كمفهوم الله ، واللانهاية ، والازل . فالطفل لا علم له بها ، ونادرون هم الاشخاص الذين يعرفون المبادىء النظرية كمبدأ المماثلة والتناقض ، والتعاليم العملية كـ « عامل الغير كما تريد ان يعاملك » . والعقل من ثم لوحة ملساء تنتظر ان تطبع الحروف عليها ، او غرفة مظلمة تنتظر وصـول اشعة الشمس اليها . هو الحس ما يوقظ العقل ويولد الافكار ، الافكار البسيطة الخارجية ، كالحار ، والجامد والصقيل ، والصلب ، والمر ، والافكار البسيطة الداخليـــة ، الانتباه ، الذاكرة ، الارادة ، الديمومة . يلجأ العقل الى المقاربة والتركيب ، ويجعل من هـــذه الافكار موضوع استدلالاته الخاصة ، فتصبح على مزيد من التعقيد والتجريد . اليقين هو ادراك الموافقة بين فكرين بواسطة افكار وسيطة .

بعض الافكار البسيطة ، كالاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد ، « صفات اولية » تمثل الاشياء على علاتها ؛ والبعض الآخر ، كالالوان ، والاصوات ، والطعوم ، « صفات ثانوية » يحدثها فينا ما تطبعه في حواسنا حركات الاجسام المختلفة الصغيرة . ولكن الصفات الاولية نفسها ليست العناصر الحقيقية للاشياء لأنه يتعذر علينا تصور هذه الافكار البسيطة موجودة بذاتها دون مادة تتحد بها لا نعرفها . ونحن ، في الواقــع ، نطلق اسماً واحـــداً على مجموعة من الافكار البسيطة . فان افكاراً بسيطة يرينا اياها الاختبار مجتمعة ابداً ، كالاصفر ، وقابل الذوبان ، والمطيل ، والكثيف جداً ، الخ ، نطلق عليهـا

اسماً هو الذهب في ما يعنينا هنا . هذه الافكار مترابطة فعلاً وتكوّن كلاً واحداً ، وليس من ريب في تركيب الذهب الخاص ، في جوهر الذهب . الا اننا لا ندرك الجوهر وليس لدينا عنه اية فكرة ؛ لا نستطيع ان نضيف اليه شيئاً فوق ما يوفره لنا الحس والتفكير . فالبحث الممكن الوحيد هو من ثم البحث الاختباري عن الصفات المجتمعة معاً . وهكذا وضع لوك الاسس الركينة للعلم الاختباري واقصى اعتراض مبدأ الجاذبية النيوتونية ، وازال حظوة النظريات الميتافيزيقية ، المضرة بالنظم الاجتماعية ، التي ترتكز اليها الكاثوليكية مثلاً .

اوضحت دراسته قيمة العقل وحدوده في آن واحد . الانسان لا يستطيع ان يبلغ من الحقائق الا ما يتيحه له عقله . فواجبه يفرض عليه من ثم ان لا يقول بحقيقة قضية ، لا يقبل بها عقله ، اي انه يفرض عليه رفض المحال . وعليه بالتالي ان ينبذ النظرية الكاثوليكية المستحيلة حول الحق الالهي . ولكن العقل ، الذي لا يستطيع بلوغ العناصر الحقيقية للاشياء ، اي الجواهر ، لا يلبث ان يلمس عجزه . لذلك يكتفي الانسان بالحقيقة المرجحة ، ثم يتذكر صعوبة بلوغ الحقيقة ، فلا يرفض ما لا يمكن ادراكه ، ويصبح غاية في التواضع والمحبة . ويتذكر كذلك ان لكل هيئة اجتماعية الحق في اقامة الحكومة التي تبدو لها مفضلة على سواها ، وان ما من شكل حكومة افضل اطلاقاً من سواه ، وان الظروف والمصالح العابرة وتبدل الاشياء الدائم يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار .

ولكن الافكار البسيطة الداخلية أتاحت له اثبات وجود الله ، قاعدة مذهبه السياسي والاجتماعي .تعطي هذه الافكار البسيطة عن الذات فكرة مركبة لكائن غير لازم الحدوث. ان وجود مثل هذا الكائن تفرض وجود كائن ازلي ، كلّي القدرة ، كلّي الادراك ، خلق فيّ خاصية المعرفة ، وخلق المادة ايضاً لأنه "خلّق" روحي التي يصعب خلقها اكثر من المادة .

يتضح من ثم ان نظرية لوك كانت عقلية ،اختبارية ، بورجوازية .لم يكن لوك ديموقراطياً . في رأيه ان البشر الاحرار هم النبلاء والاكليروس وكبار الملاكين الريفيين والبورجوازية العقارية او التجارية . فهؤلاء هم الذين يضعون فيما بينهم العقد الاجتماعي . وتتفق الملاحظات المدونة في مفكرته في السنة ١٦٧٩ وتقريره المرفوع للجنة التجارة في السنة ١٦٩٩. فالمشردون الاصحاء الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ٥٠ سنة ، والذين يقبض عليهم بسبب تسولهم ، يجب ان يحكم عليهم بخدمة ثلاث سنوات في الاسطول اذا كانوا من الكونتيات البحرية ، او بالعمل ثلاث سنوات في « بيت العمل » اذا كانوا من الكونتيات الاخرى . اما المتسوّلون الذين لم يبلغوا سن الرابعة عشرة فيجب ان يجلدوا ويرسلوا الى مدارس العمل الخاصة . مذهب لوك هو مذهب بورجوازي كبير مستنير . لذلك غدا هذا المذهب انجيل المجلس التمثيلي الانكليزي والبروتستانت الهولنديين ،كما غدا في وقت لاحق انجيل فولتير وكبار البورجوازيين الفرنسيين.

مبتدعو الانظمة الخيالية
الارستوقراطيون الرجعيون
فينيلون

ان عدداً كبيراً من النبـلاء المتضررين ، الذين اذلتهم سياسة لويس الرابع عشر البورجوازية وانتفاخ رجال المال ورجـال الدولة المنحدرين من اصل بورجوازي ، اقاموا مثلاً اعلى لهم كل نقيض لما يفعله الملك المظيم وانتصبوا خصوماً للملكية المطلقة التي حاول بوسويـه الدفاع عنها في « السياسة المستمدة من الكتاب المقدس » (١٧٠٩) . بعد وفاة الملك ، زمجر الدوق « دي سان سيمون » قائلاً : « كان مُلكـه ملك بورجوازية صغيرة » . منذ السنة ١٦٨٩ ، اجتمع حول دوق بورغونيا ، الابن البكر لولي العهد ، اشراف ريفيون تواقون الى ردة فعل ارستوقراطية ، هم الدوق « دي بوفيليه » مربيـه ، والدوق « دي شفروز » ، والدوق « دي سان سيمـون » والاب « دي فينيلون » ، مهذب دوق بورغونيا ومرشد الدوق « دي شفروز » . وحين نفي فينيلون رئيساً لأساقفة كمبريه ، لم ينقطع عن مراسلة اصدقائه وعن الايحاء الى دوق بورغونيا ببعض الآراء . اصبح هذا الاخير و في السنة ١٧١١ ، الوارث المبين قبل وفاة والده ، ولكنـه توفي هو نفسه في السنة التالية ، كما توفي فينيلون ايضاً قبل الملك المظيم .

عبّر فينيلون عن آراء هذا الفريق في عدة مؤلفات نخص بالذكر منها « مغامرات « تليماك » (١٦٩٩) ، و « مخططات حكم وضعت بالاتفاق مع الدوق « دي شفروز » بغية عرضها على دوق بورغونيا » و « جداول شون » (تشرين الثاني ١٧١١) . انها احلام اشراف ريفيـين ساخطين يستمدّون مثلاً اعلى من طراز مجتمع كان تحقيقه ممكناً قبل ٣٠٠ سنة . فان « جداول شون » تعد لمجتمع فرنسي ارستوقراطي متسلسل السلطـات مستقر حيث ستكون السيطرة لطبقة مقفلة من النبلاء في مجلس الطبقات وفي الوظائف القضائية والادارية ، وحيث يحد من سلطة الملك مجلس طبقات يضم بعض كبار البورجوازيين واكثرية من النبلاء . سيجتمع هذا المجلس مرة كل ثـلاث سنوات ولا ترفع جلساته الا بعـد انهاء المناقشات . سيصوت على الضريبة ويراقب جبايتها ويكون باستطاعته مراقبة كافة شؤون الدولة ويشرف على السياسة الملكية . سيكون نظام الدولة اتحادياً . سيكون لكل ولاية مجلس خاص يتوزع اعضاؤه على غرار توزيع اعضاء مجلس الطبقات ويتمتعون بسلطات مماثلة .

لن يحكم الملك وحده ، مع كل من امناء سر الدولة ، بل بحسب مبدأ المملكة القديم ، اي في مجلس عام يعاونه مجلس شورى يشترك في كافة اعماله ، وستة مجالس اخرى لكافة شؤون المملكة . هذه هي نظرية تعدد المجالس . سيلغى بيع الوظائف . وسيستغنى عن خـدمات الوكلاء ومقدمي المعاريض ، ادوات الحكم المطلق الاولى . سيعاد الى الضباط القدمـاء شأنهم ووظائفهم التي حدّ منها وجود الوكلاء . سيمارس القاضي الادارة بأحكامه وبقرارته التنظيمية ، وبفضل هذا التداخل بين الوظائف القضائية والادارية ، سيقدم القانون على ارادة الامير .

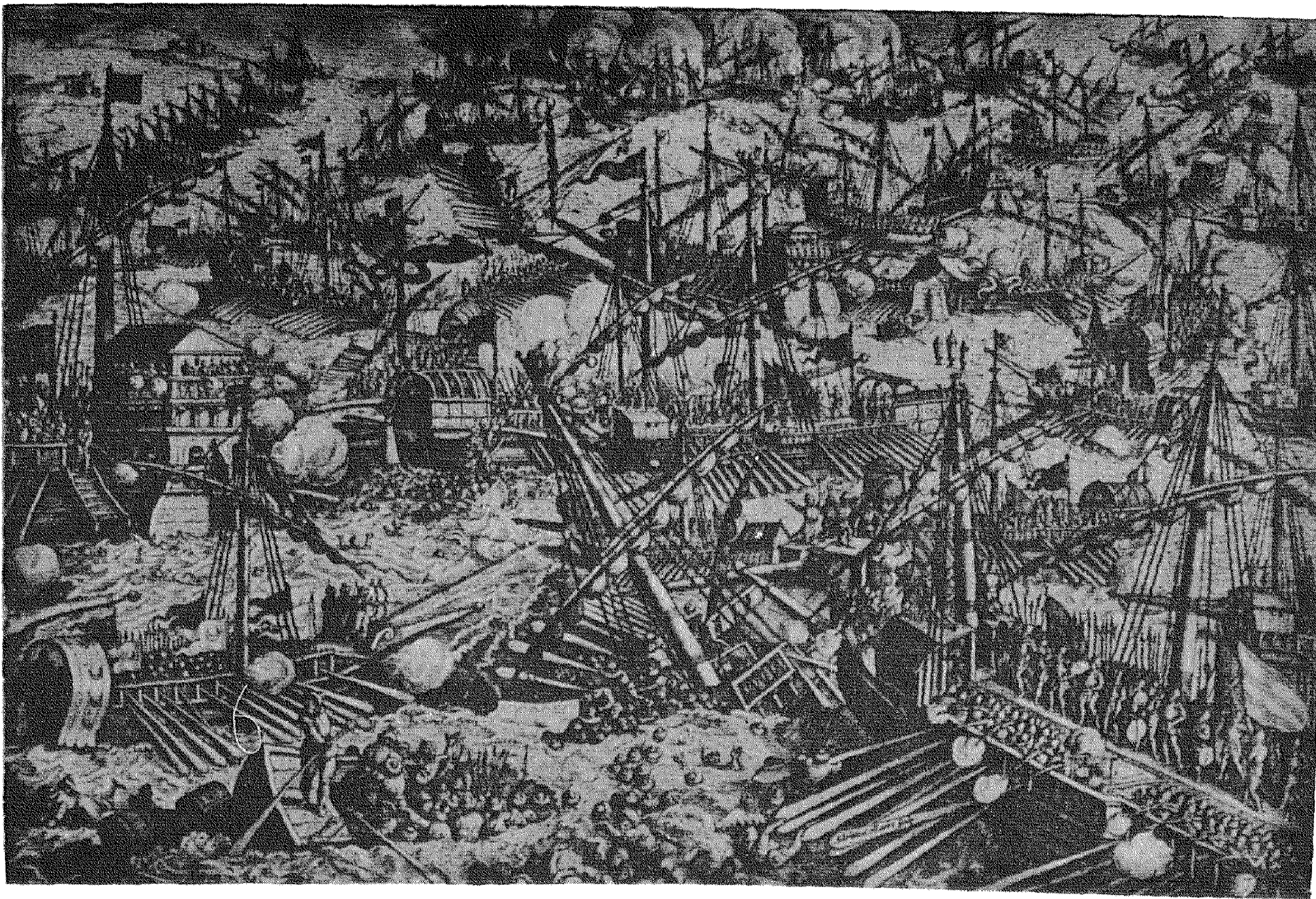
ستعاد الى النبلاء اولويتهم . سينظم في كل ولاية سجل بالاشراف وفي باريس سجل عـام .

كل ولد نبيل سيدون اسمه في السجل . سيمنع الزواج من غير النظير . سيحظر الارتقاء الى طبقة الاشراف الا على اولئك الذين يؤدون للدولة خدمات جلى . سيحظر كذلك على مشتري اراضي النبلاء انتحال اسمائها . ستكون طبقة النبلاء قوية بثروتها . وسيعتمد في كل بيت ، على غرار اسبانيا ، نظام العقار المتعلق بلقب الشرف ، الذي يرثه مع اللقب بكر الابناء ، تجنبا لتجزئة الثروات بقسمة الارث . سيحق للنبلاء تعاطي تجارة الجملة دون ان يحط ذلك من مقامهم . ستكون الوظائف المدنية والعسكرية في حاشية الملك وقفاً عليهم . سيلغى بيع الوظائف العسكرية وتكون الافضلية للنبلاء في تولي المناصب . لن يحق للنبلاء دخول القضاء فحسب ، بل سيفضلون على ادناء النسب المساوين لهم اهلية في مناصب الرئيس والمستشار في مجالس القضاء العليا ومناصب النائب العام والنائب الجنائي في المحاكم . ستمارس هذه الوظائف مدى الحياة ، وسيخلف الابناء الاكفاء آباءهم . فستكون من ثم ، في وقت قريب نسبياً ، هيئة من « القضاة العسكريين » ، اي قضاء وادارة من النبلاء . وبما ان ضباط الفرق سيختارون ، جهد المستطاع ، من بين اقارب واصدقاء كبار الضباط ، وبما ان الاسياد سيكونون قادرين على تسليح فلاحيهم ، وبما ان مستشاري الدولة ، « الموفدين السيديين » الى الولايات لاصلاح التجاوزات، سيختارون من بين القضاة، فسيفضي كل ذلك الى حكومة وادارة ارستوقراطيتين غير مركزيتين عملياً .

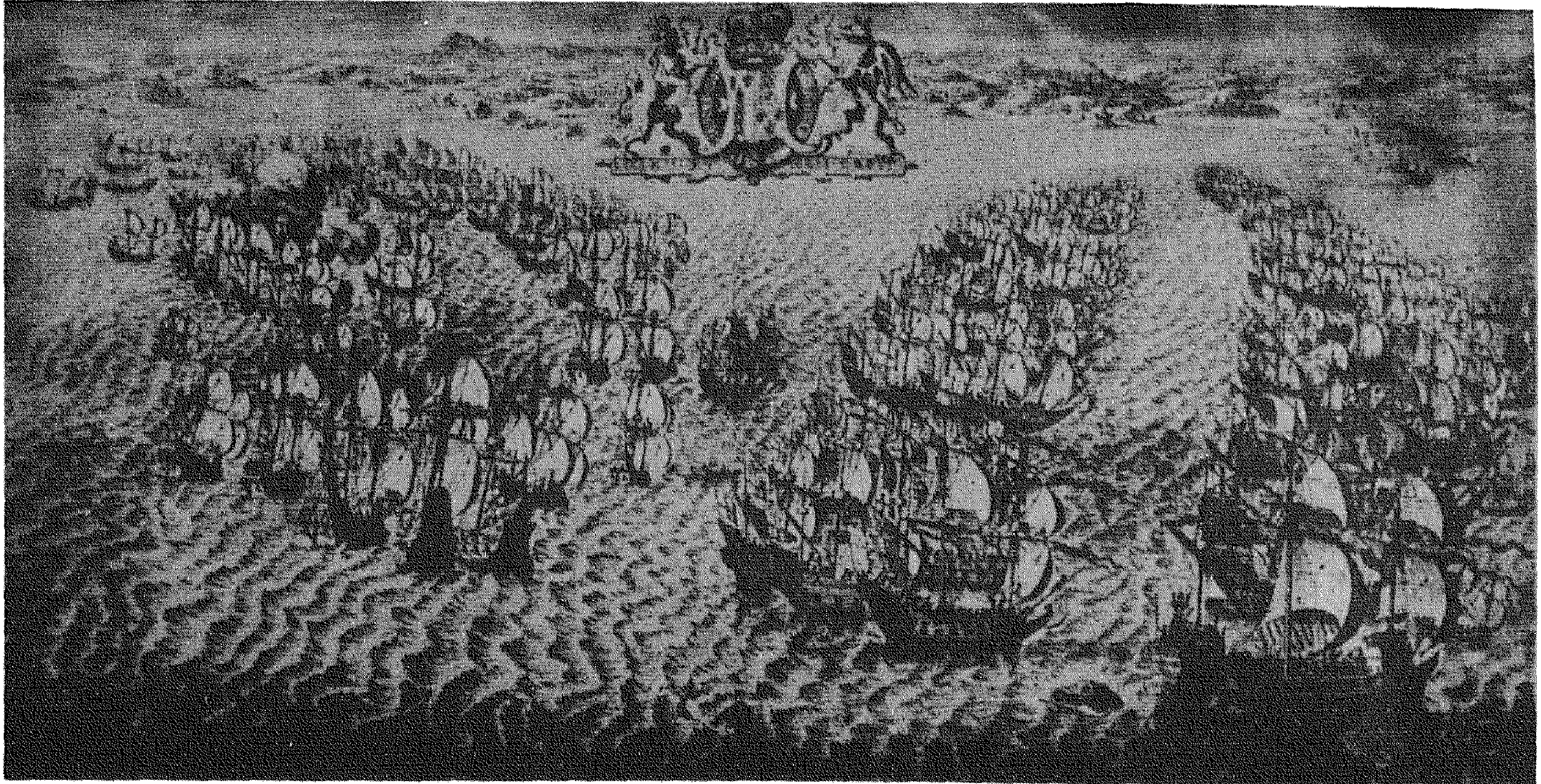
على هذا المجتمع ، حيث لا يثير الطموح نظام ينزع الى نظام الطبقات المقفلة ، ان يعيش في الفقر . سيؤمن الملك حاجاته بدخل املاكه ، على غرار ملوك القرون الوسطى . سيعطي مثل البساطة ويفرض على الجميع التقيد به . ستسن قوانين تقيد النفقات المفرطة : « البذخ يفقر النبلاء ويفسد الامة ويثري التجار » . سينظم مجلس الشورى كل التجارة . وسيعين رقباء لمعرفة وسائل اثراء كل فرد . سيوضع بيان بثروات العائلات . ستلغى اعمال رجال المال . سيحول مجلس الطبقات دون كل مضاربة وكل اتجار بالاموال وكل مراباة . وسيحرص على ان لا تبور قطعة ارض واحدة . ستكون تجارة المحاصيل الزراعية طليقة من كل قيد . ستثري فرنسا ببيعها الحنطة والزيوت والخمور والانسجة الخ ، باسعار مرتفعة ، لأن ما ستبتاعه من الانكليز والهولنديين ينحصر في « الافاويه والتحف » التي لا تداني البتة قيمة مبيعات فرنسا .

ان ما طلعت به « جداول شون » هو من ثم مخطط اشتراكية دولة ، زراعية ، تفرضها ارستوقراطية مسيحية برئاسة الملك .

وكان مقدراً لذهنية المقربين الى دوق بورغونيا ان توحي بفكرة « تعدد المجالس » في عهد الوصاية ، وبنظريات « بولنفيلييه » و « منتسكيو » ، وبمعارضة محاكم فرنسا العليا للملك ، وان تلهم كل رجعيي القرن الثامن عشر .



١٧ - مَعركة ليبانت (٧ تشرين الأول ١٥٧١)



١٨- هجوم الأسطول الانكليزي على الأرمادا في شهر تموز من السنة ١٥٨٨



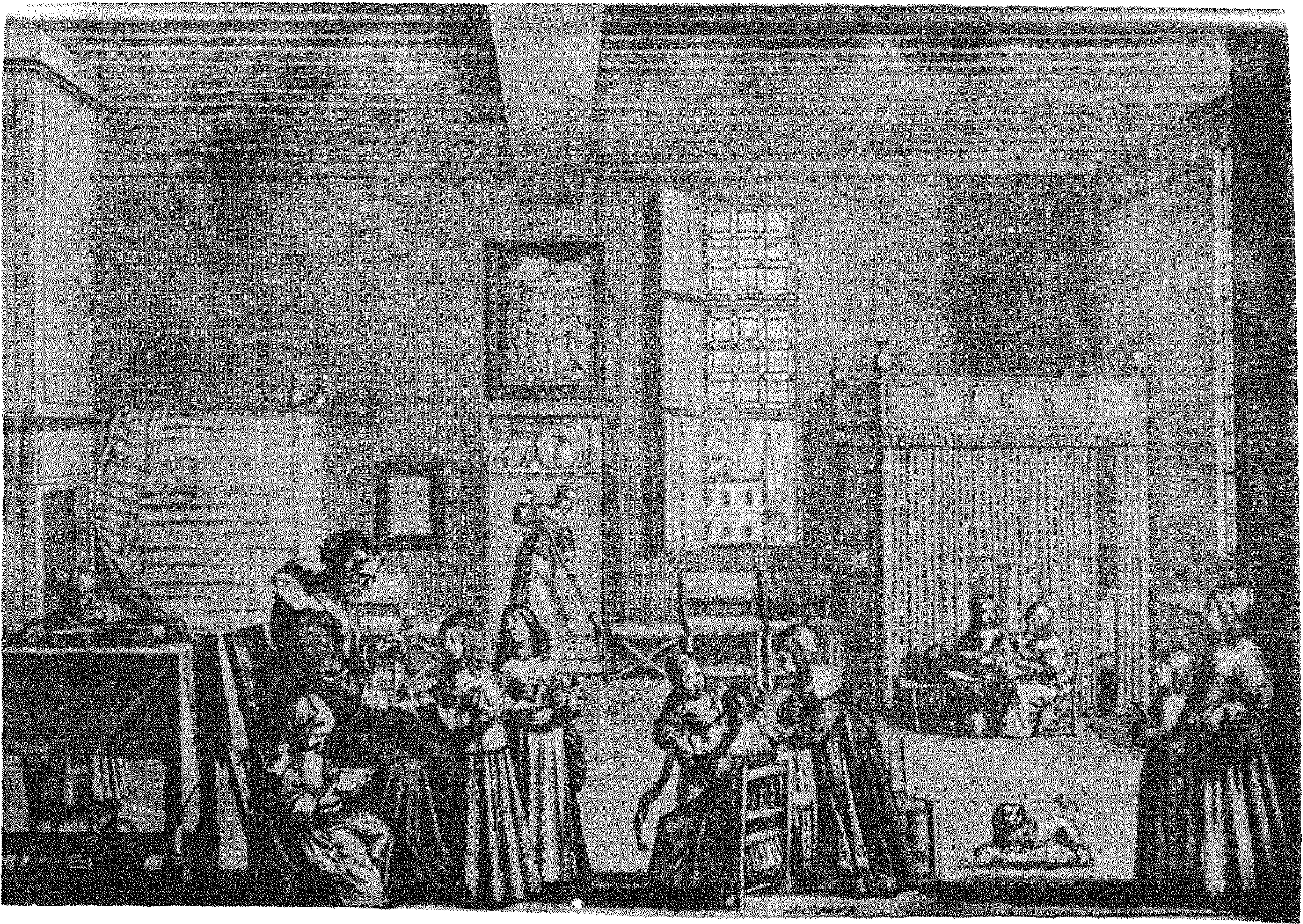
١٩ـ مكتب أحد الوكلاء



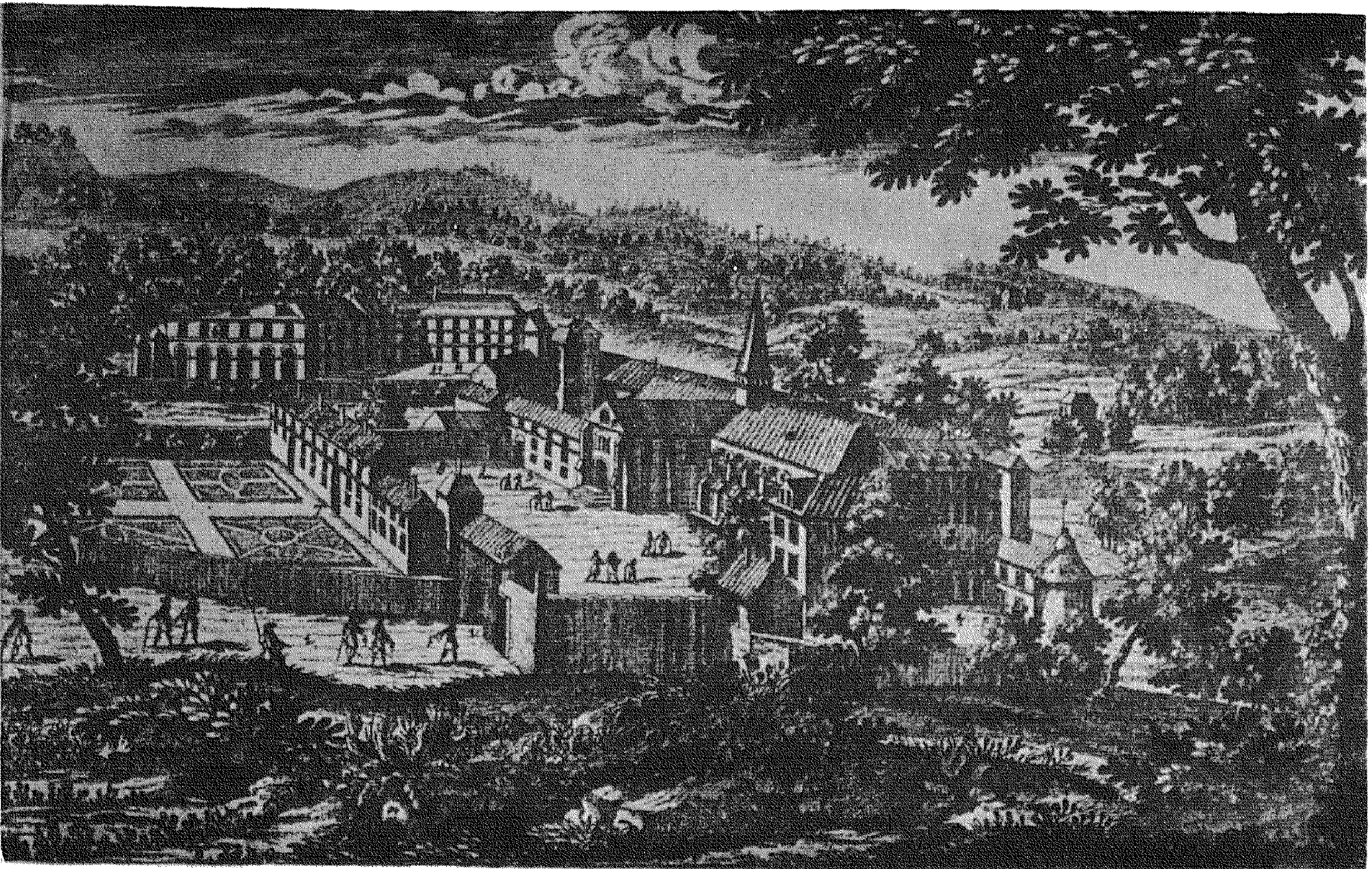
٢٠- الصَيرَفي



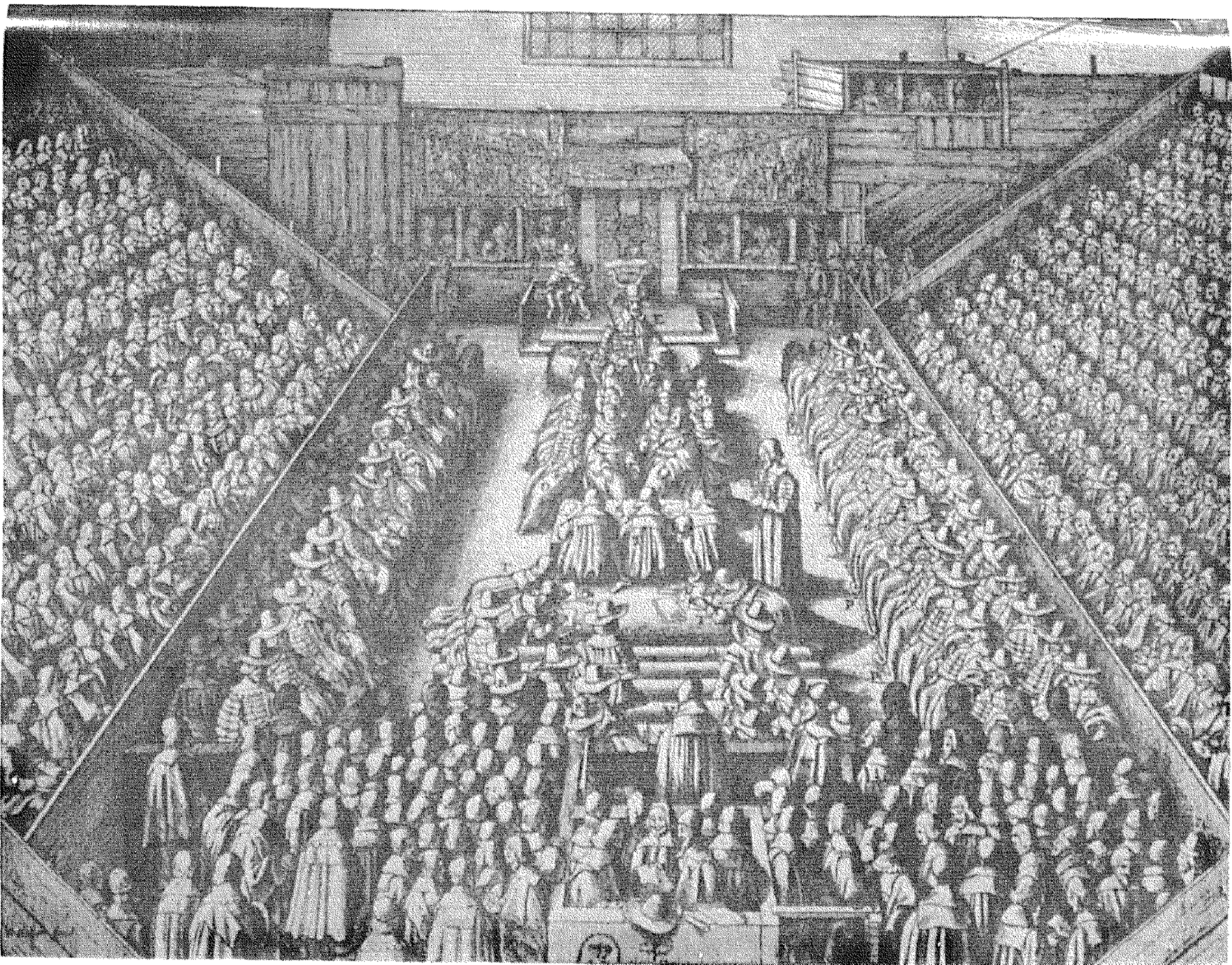
٢١- داخل منزل بورجوازي هولندي ، في أوائل القرن السابع عشر



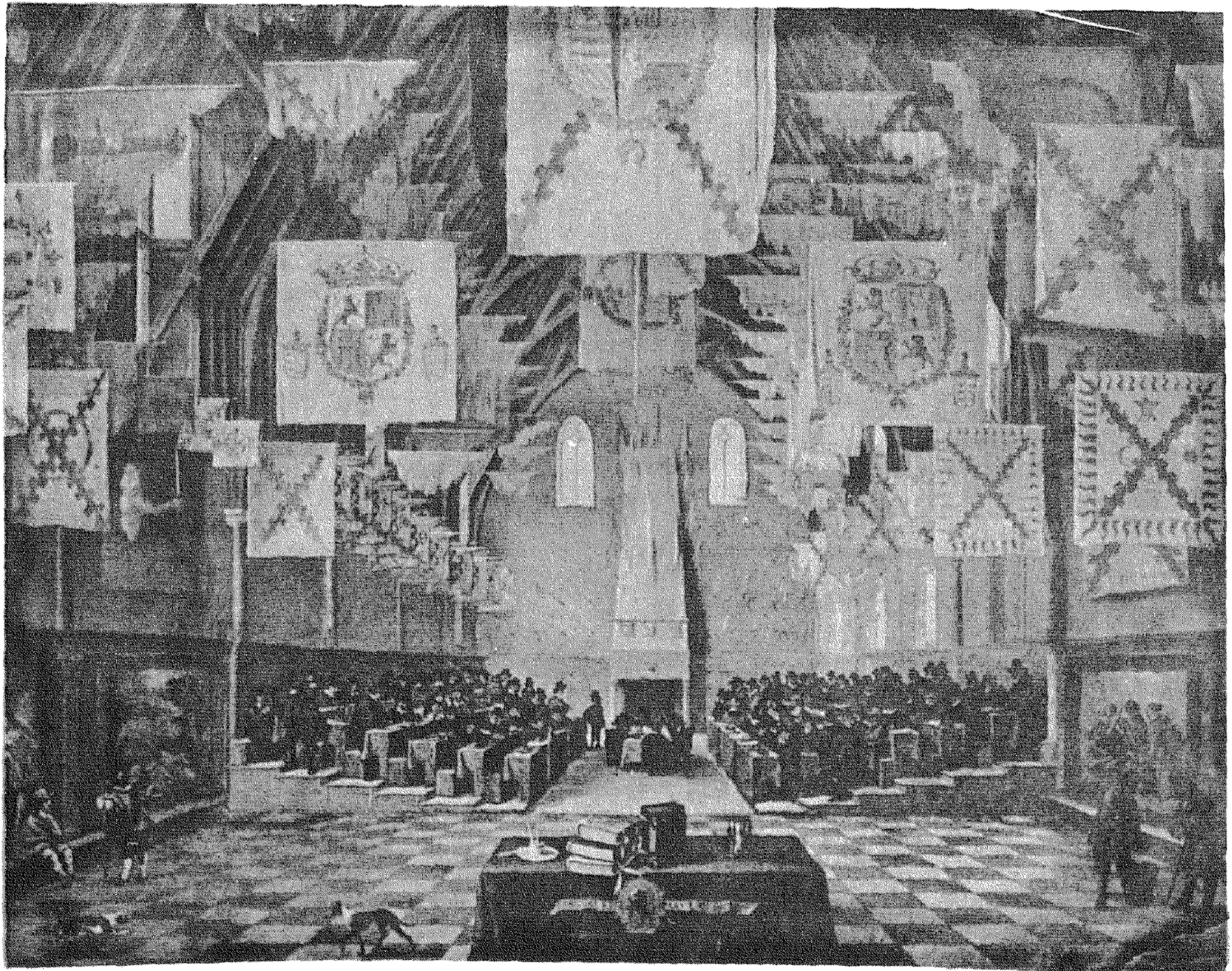
٢٢- معلمة المدرسة



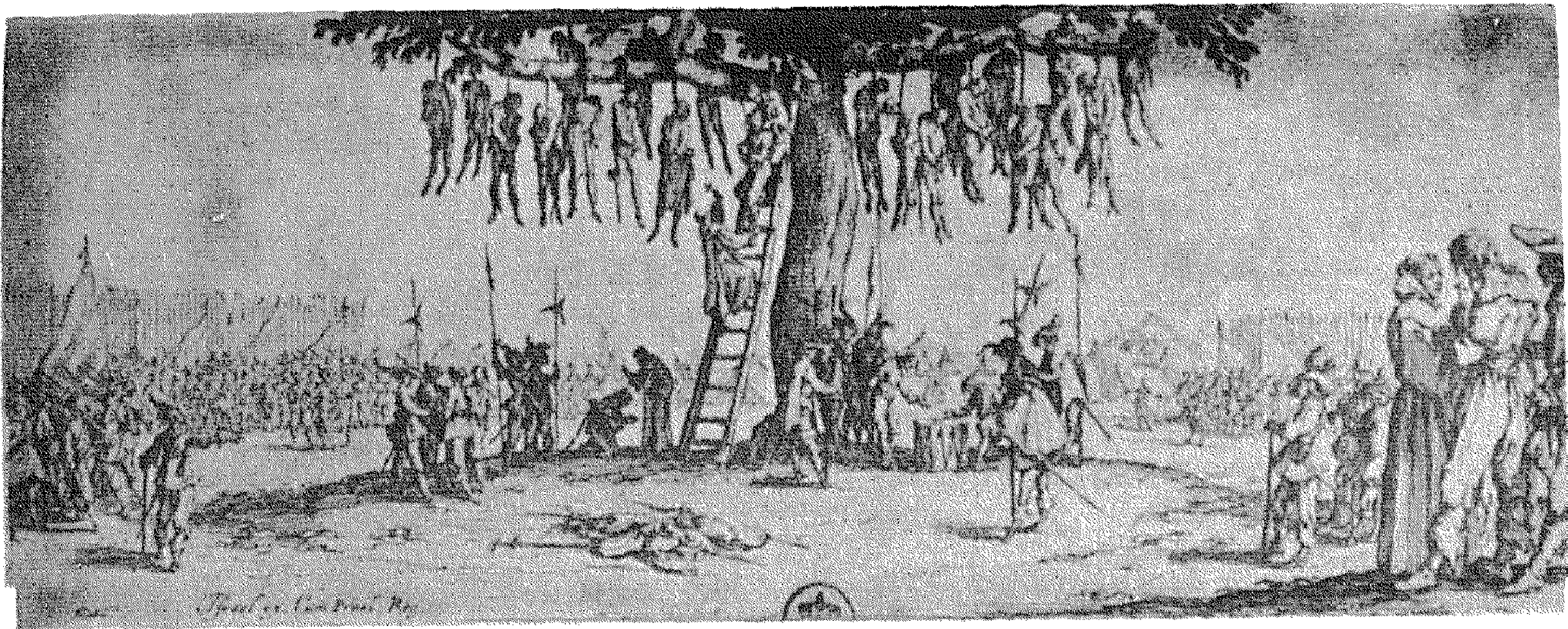
٢٢- دير بور - رويال الحقول

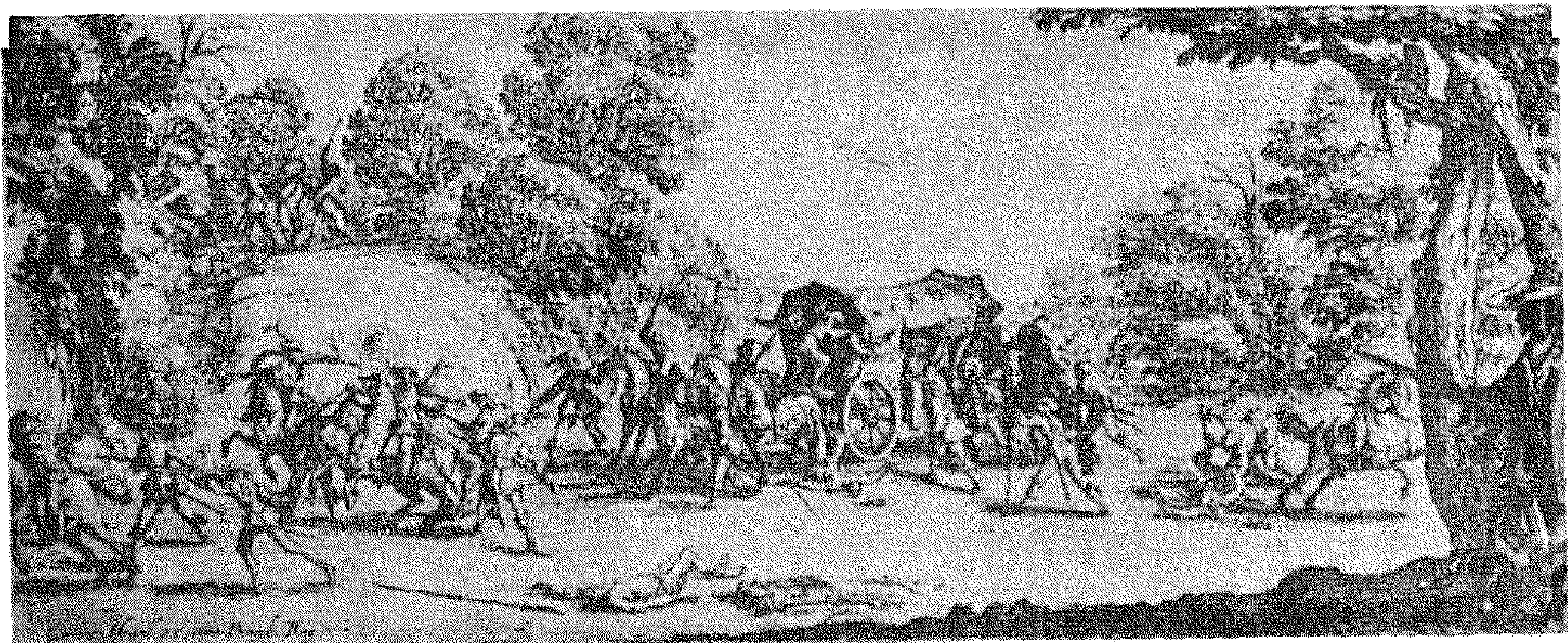


٢٤ - احدى جَلسات البرلمان الانكليزي (١٢ أيار ١٦٤١)



٢٥ - قاعة بيننهوف الكبرى في لاهاي أثناء انعقاد جمعية مجلس الطبقات برئاسة جاكوب كاتس في السنة ١٦٥١

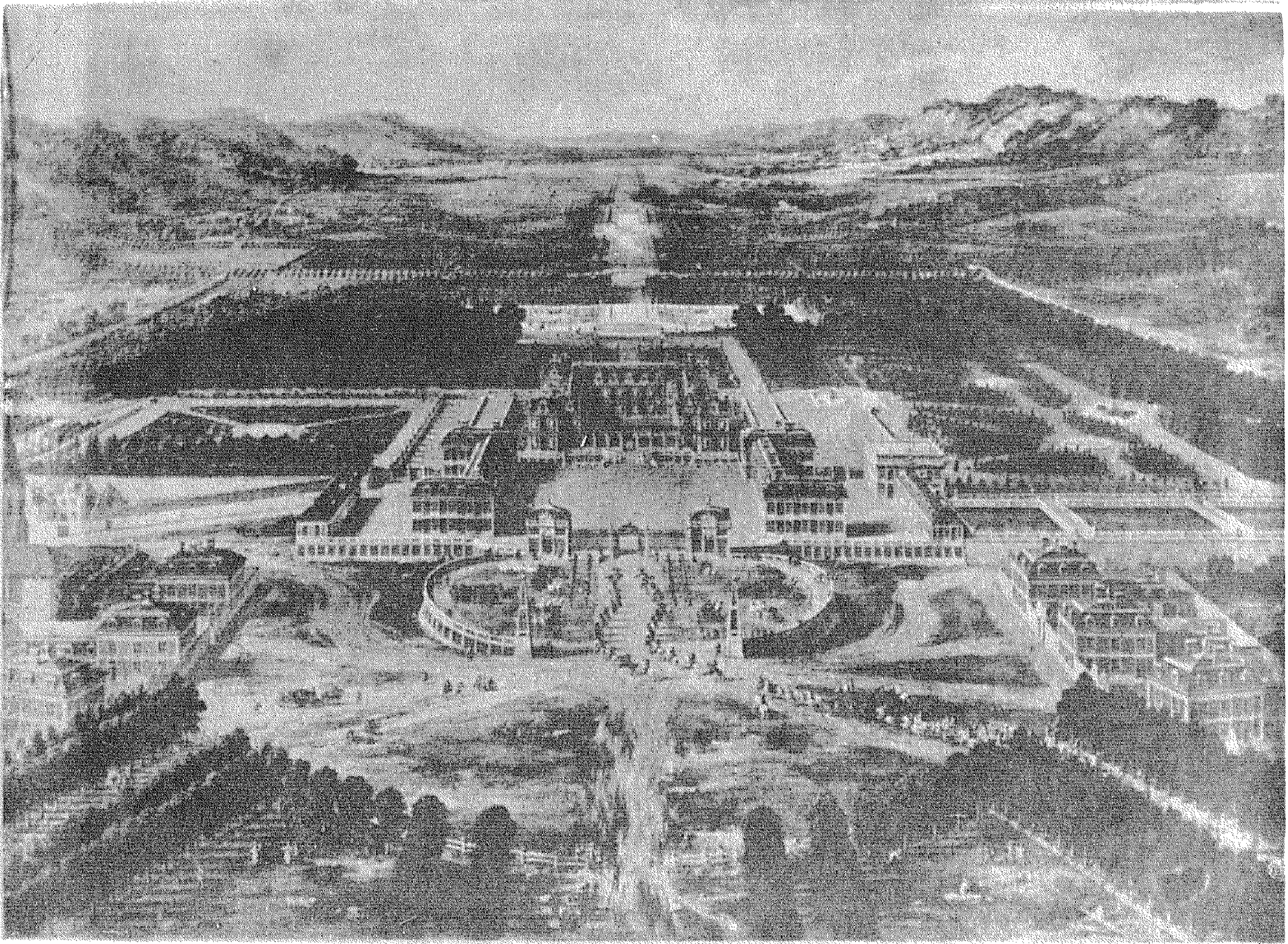




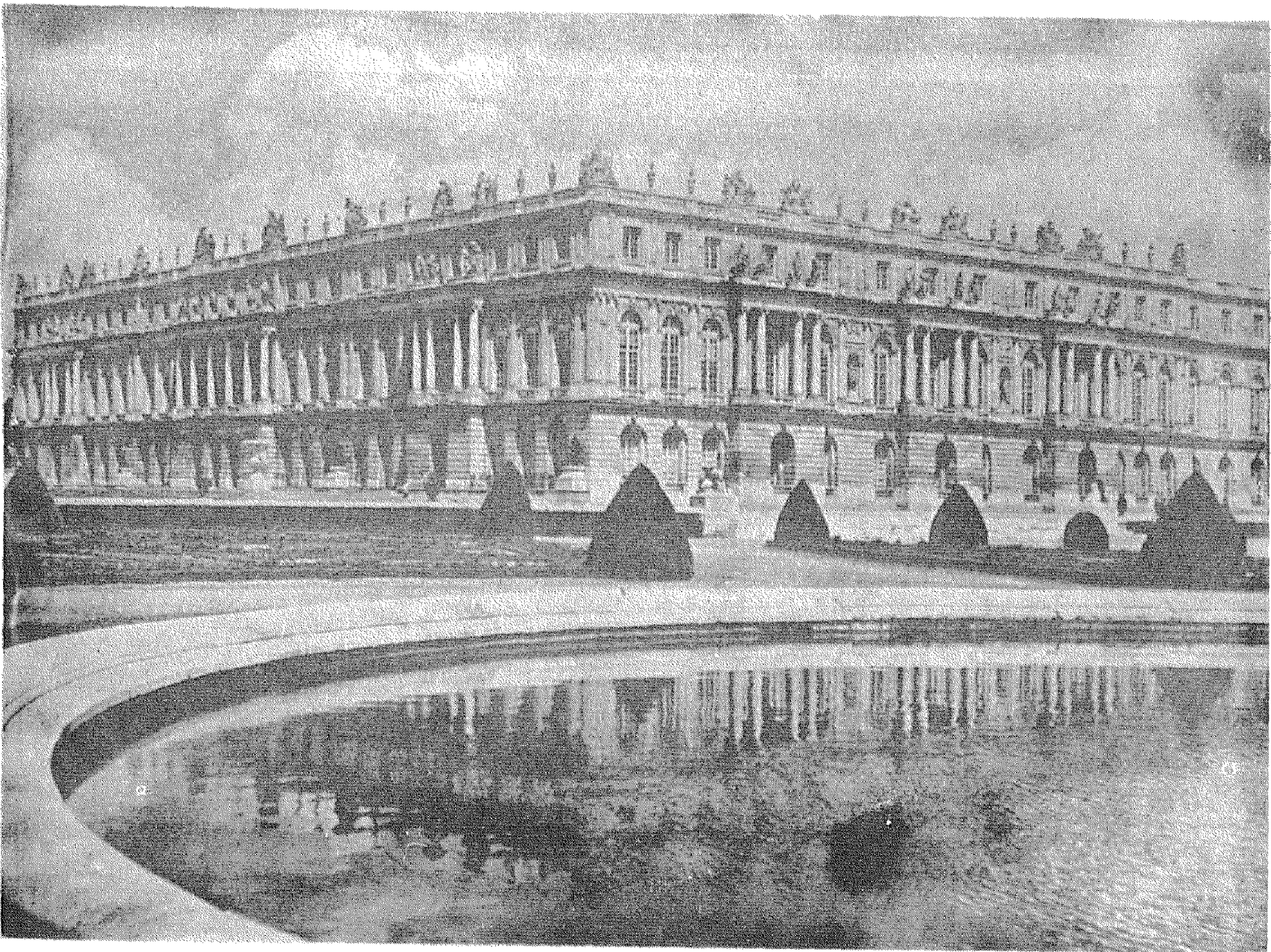
٢٦- تجاوزات المرتزقة



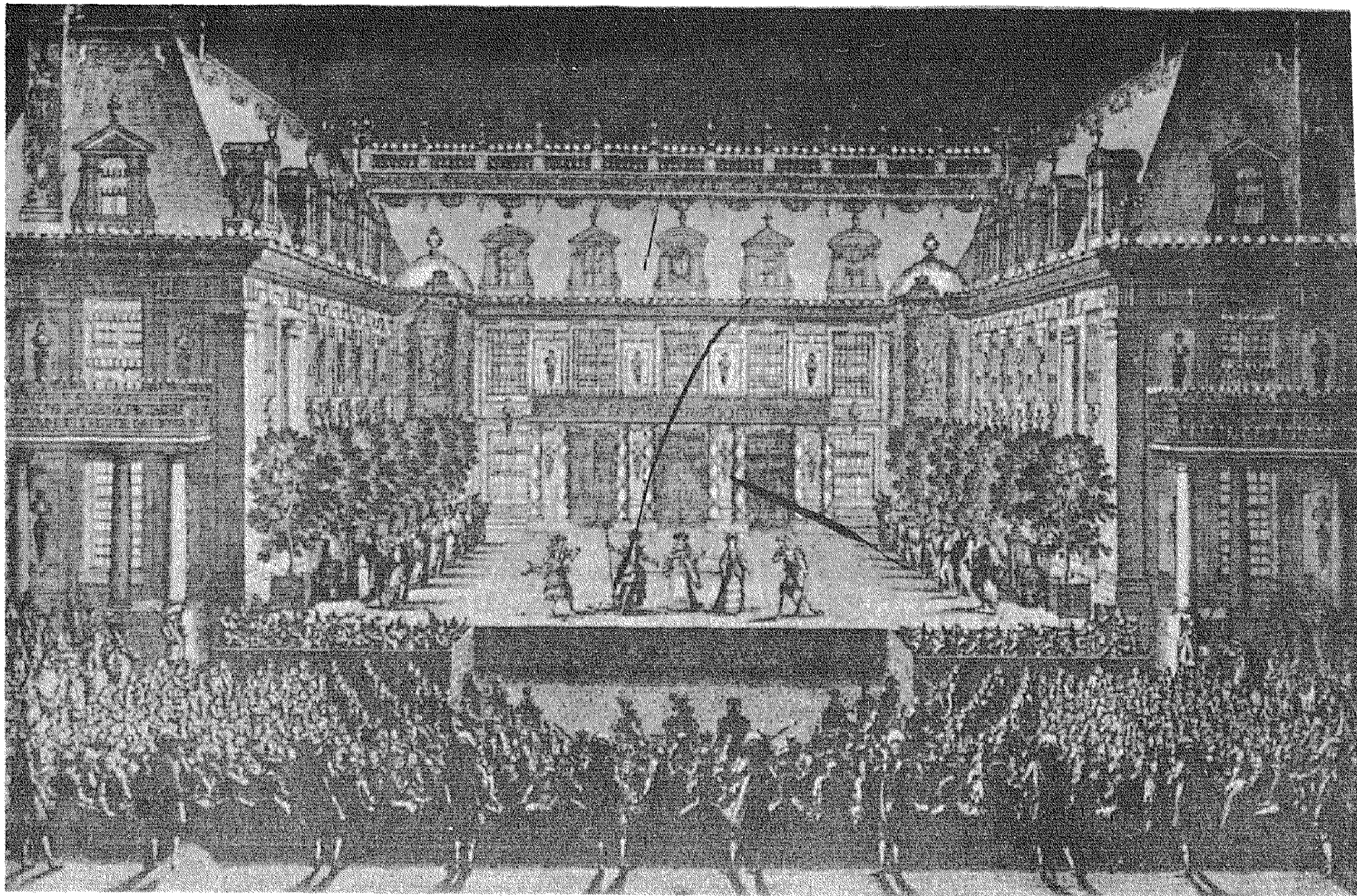
٢٧- استسلام بريدا



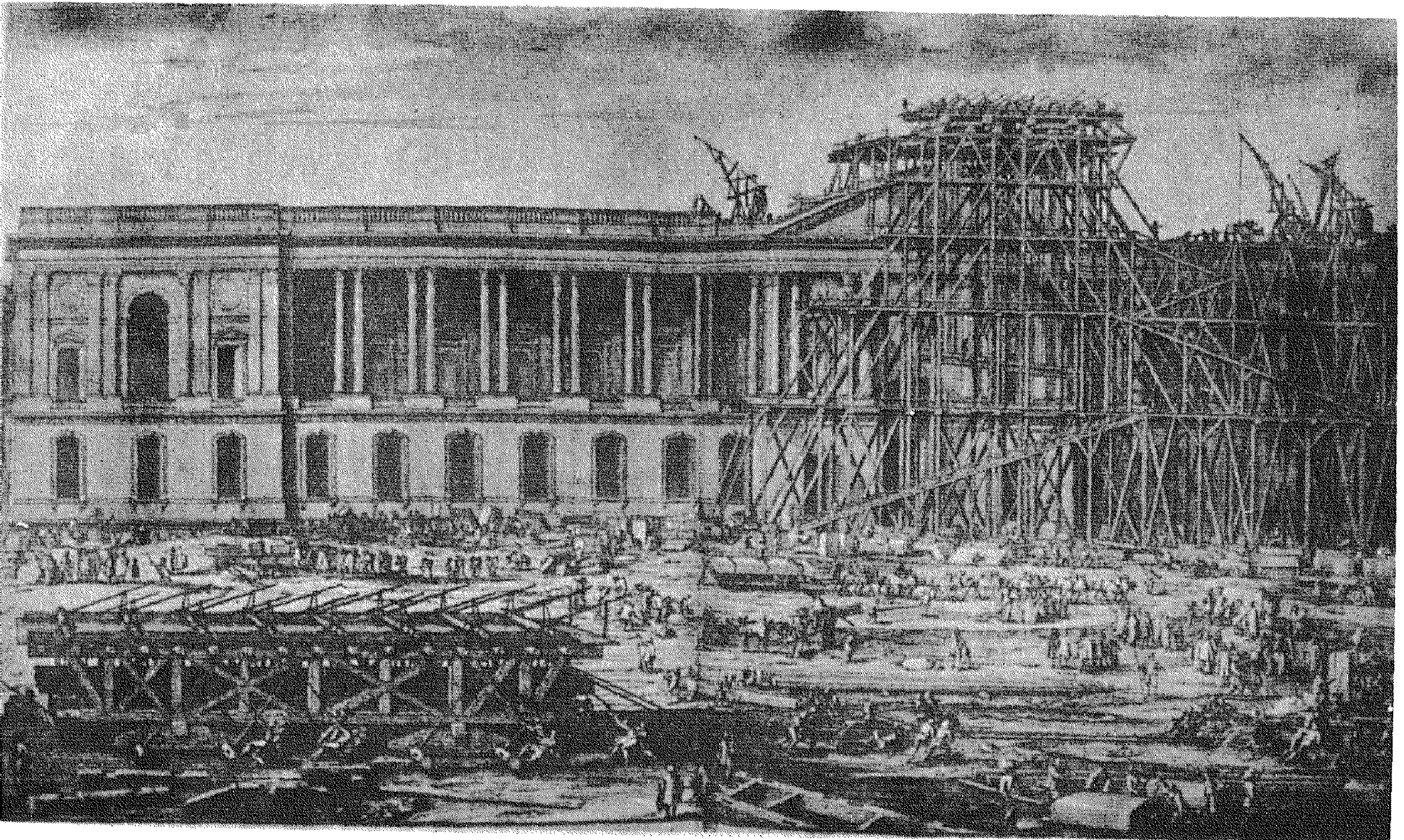
٢٨ - منظر لقصر فرساي مأخوذ من جهة باريس في السنة ١٦٦٨



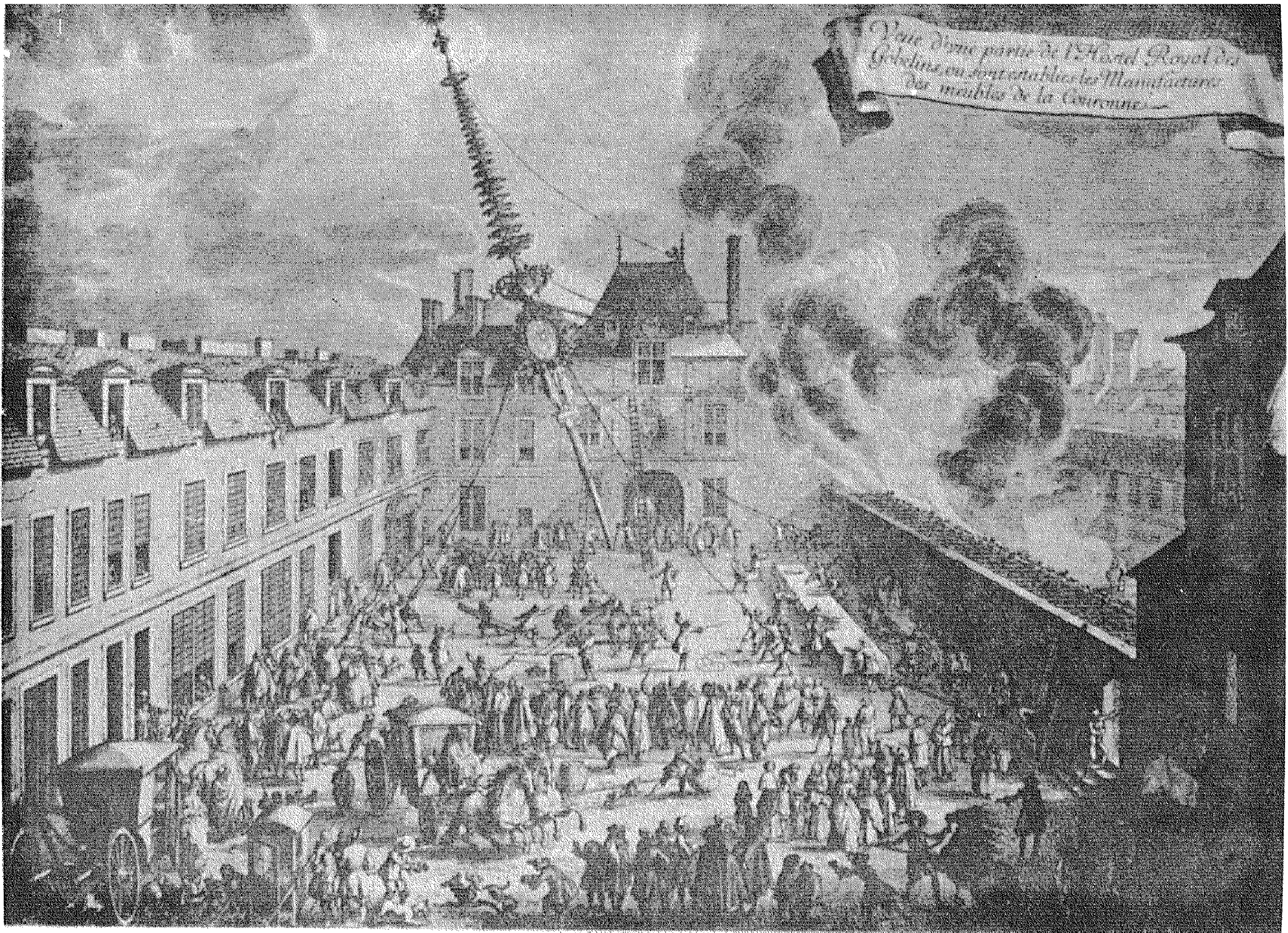
٢٩ - قصر فرساي . منظر القسم الأوسط من القصر مأخوذ من زهراء الجبهة الجنوبية



٣٠ - التمثيل الأول للمأساة الغنائية "السست" لـ"كينو" و"لولي" في البهو الرخامي في السنة ١٦٧٤



٣١ـ تشييد اعمدة اللوفر



٢٢ ـ رقصات في فناء مصنع غوبلان الملكي

مبتدعو الانظمة الخيالية الرومنطيقيـــة السياسية الديموقراطيون والاشتراكيون

ووضعت مخططات تجديد اجتماعي على ايـدي اناس تأملوا مـن المجتمع واستخلصوا النتائج ، بصرامة كرتزيانية ، انطلاقاً مـن معطيات اختارها حسهم .

في « البحث اللاهوتي ، السياسي » ، زعزع سبينوزا اركان سلطة الكتاب المقدس لان هذه السلطة يستغلها الملوك . ولكن ما يدعوه الملوك دينا هو الخوف الذي يريدونه مسيطراً على الشعوب المستعبدة . النظام الملكي هو فن مخاتلة الشعوب . ان ما تدعوه الرعية واجب الطاعة هو مصلحة الملك . وهي تعتقد انها تجاهد من أجل خلاصها بينما هي تضمن عبوديتها . تقوي بدمها سلطة رجل واحد يعاملها معاملة الوسائل ، ويحرمهـا مبرر حياتها بحرمانها من الحرية . اما العلاج فهو روح الامتحان التي تظهر ان السلطة تفويض تقبل به الرعية ، وان الديموقراطية هي أقرب شكل حكم الى الحق الطبيعي ، وان هدف النظم السياسية هو ان تضمن للفرد حرية المعتقد وحرية الكلام وحرية العمل .

واشاد البارون « دي لاهونتان » بالدين الطبيعي والاخلاق الطبيعية والشيوعية الاصلية . البربري هو الجميل والنبيل والسعيد؛انه ضليع ومشاءوصياد ماهر يقاوم التعب والحرمان وينقذه جهله من ويلات عديدة . المتحضرون هم البرابرة الحقيقيون . ليعش البربري الصالح (١٧٠٣) !

وولدت العلائق بالبلدان النائية كذلك الف نظام خيالي اوردت في روايات الرحـــلات الخيالية . فوصف ونظم الف مجتمع مقبل بالصرامة الهندسية التي تتميز بها روح المساواة . يجب ان توزع المساكن بمجموعات وان تضم المجموعة ١٦ حيا ، والحي ٢٥ بيتاً، والبيت ٤ غرف ، وان يقيم في الغرفة ٤ اشخاص ؛ الشوارع تكون منظمة والبيوت مربعة وذات نمط واحد . يجب ان ترتب الاشجار في حدائق مربعة الشكل بحسب اثمارها المفيدة او اللذيذة الطعم . فتوالى حلم التنسيق انتقاماً لاغترار الكبرياء وشهوة التسلط .

من لا يهتم بامور الدولة وامور الدين ? من لا يصلح هذا او تلك ? من لا يلقي درساًعلى الوزير والاسقف ، وعلى البابا والملك ? وقد حدث ذلك بمزيد من السهولة لان الكرتزيانية قد ازدادت انتشاراً في المجتمعات الاوروبية وحملت معها الى كل مكان روح الارتياب والاستقصـــاء الحر . أو ليس الرشد خير ما يشترك فيه الجميـع اشتراكاً متساوياً في العالم ? الا يحمل كل شخص ، في ذاته ، العقل الشامل ? اوليس الانسان اكثر استعداداً لبلوغ الحقيقة بنور الطبيعة كلما قـــل درسه وقلت معرفته وقل من ثم « انشغاله » وقلت آراؤه السابقة التكوين ? ان حـــالة ثورة فكرية دائمة كانت في طور التمخض .

الخلاصة

هكذا انتهى القرن السابع عشر بعاصفة هوجاء من الآراء المختلفة . ان قرنا شاهد البورجوازي يثبت وجوده في وجه البطل والبطانة ورجل الفضيلة ، والرأسمالية التجارية تنفتح وتزدهر ، والرأسمالية الصناعية تنمو وتتسع ، والروح التجارية

والملكية المطلقة تبلغان كمالها الخاص ، واشتراكية الدولة ترتسم ، والنظام التمثيلي يرى النور ، ان قرنا شاهد ذروة الاستهجان والكلاسيكية ، شكسبير وراسين ، روبنس وبوسين ، واعطى غاليليو وديكارت ونيوتون ، وعقلية الكمية والآلية ، ان قرنا قاطع العقل البشري فيه ارسطو نهائيا وأدرك الكون بالرياضيات والاختبار ، وفتح العلماء والفلاسفة ورجال الدين فيه اللانهاية امام الانسان ووضعوا امام اعينه تقدماً لا حدود له ، ان قرنا انتزع فيه مسيحيون من كل مذهب ، بيرول وباسكال ، وارمينيوس وغومار ، قلبهم الخافق المختلج كي يمدّوه نحو لانهاية العظمة والقدرة والقداسة والكمال والمحبة ، ان قرنا ربما حقق ابدال النوع البشري، ان مثل هذا القرن الجدير عن حق وحقيق ان يدعى : « القرن العظيم » .

انتهى بازمة متجددة . ولكنه مدين باخصابه ، الى حد بعيد ، لازماته بالذات . فان الانسان ، في بحثه عن الدواء وصراعه ضد قوى التفكيك والتهديم ، قد حقق المزيد من الاكتشافات في كل الحقول .

افضى هذا الجهد المبذول الى انماء الفردية . فقد ابرزت الامم والافراد ، بفضل المجابهة والمنافسة ، المميزات والابتكارات الخاصة ، وتبادلتها واستفاقت بالمقارنة الى ابتكارات جديدة انطلقت منها لتحقيق ابتكارات اخرى . لا ريب في ان الفرد اشد ارتباطاً بالهيئات والجمعيات والعائلة واكثر خضوعاً لسلطتها وتقاليدها وانظمتها من انسان مجتمعات القرن التاسع عشر المتحررة . ولكنه اكثر استقلالا واقوى شخصية الى حد بعيد من اي انسان في اي مجتمع من مجتمعات القارات الاخرى . ان هذه الفردية ، هذه الحرية النسبية فكراً وعملاً ، هي ما صنعت اخصاب اوروبا وعظمتها وما تتسم بسمة خاصة هي « البحث دوما ككل » .

القسم الثاني

أوروبا والعالم

مـــدخل

اتصال أوروبا بالعالم

ان الاوروبيين ، الذين انعزلوا حتى اواخر القرن الخامس عشر ، في شبه جزيرتهم الصغيرة والبحار الضيقة المحيطة بها والجزر المتناثرة في هذه البحار ، قد شقوا آنذاك عباب الاوقيانوسات الشاسعة واتصلوا بالعالم . فاقبلت الانسانية على وعي ذاتها .

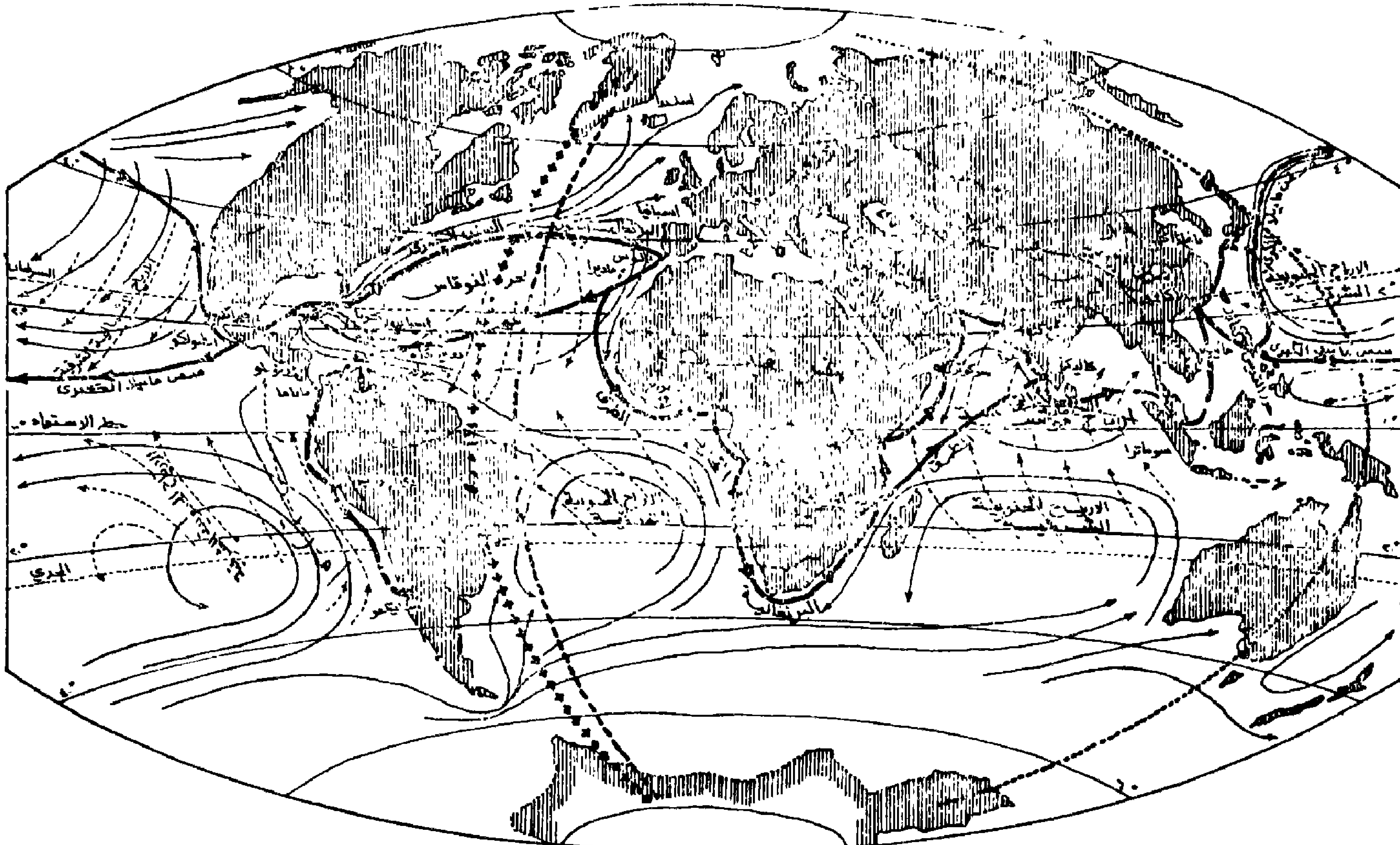
لماذا اقتحم الاوروبيون الاوقيانوسات

بدأت « الاكتشافات الكبرى » على ايدي البرتغاليين والاسبانيين الذين ما لبث الفرنسيون والانكليز والهولنديون ان حذوا حذوهم . كان البرتغاليون السباقين في هذا المضمار لاسباب سياسية ودينية . اراد الامير « هنري البحار » (١٣٩٤ ، ١٤٦٠) استكشاف شواطيء افريقيا الى الجنوب من مراكش بغية الاهتداء الى مملكة مسيحية اسطورية ، هي مملكة الخوري يوحنا ، ومهاجمة مسلمي مراكش من الوراء . أي ان عمله كان امتداداً للحرب الصليبية . اسس هنري في «ساغر» على مقربة من رأس « سان - فنسان » ، مدرسة حقيقية للملاحة اجتذب اليها بحارة جنوبيين وفلورنسيين وفلكيين المانيين. منذ السنة ١٤٠٦، تقدم البرتغاليون على طول الشاطيء الافريقي وبلغوا « الرأس الاخضر » في السنة ١٤٤٥ ، وخط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، ورأس الرجاء الصالح في السنة ١٤٨٨ . ولم تكن فكرة مهاجمة الاسلام من الوراء غريبة كذلك عن نزول الاسبانيين الى الحلبة .فان هؤلاء، بعد سقوط غرناطة، آخر مملكة اسلامية في اسبانيا (١٤٩١) ، قد اخذوا تحت حمايتهم المشروع الذي اعده كريستوف كولومبوس للبحث في الغرب عن طريق تؤدي الى آسيا . وقد حركتهم كلهم اخيراً حرارة الرسالة والرغبة في اهداء كافة الشعوب النائية المجهولة الى « الدين الحقيقي » .

وكان لاندفاع الاوروبيين اسباب اقتصادية ايضاً لم تلبث ان احتلت مركز الصدارة بين الاسباب الاخرى . افتقرت اوروبا القرن الخامس عشر الى المعدن الثمين. ولم تكن النقود كافية

فقط للكيات وتجارة تتقدم تقدماً كلياً . ذهب الاوروبيون بعيداً في استثمار منـاجم اوروبا الوسطى دون ان يتوصلوا الى إرواء تعطشهم الى الفضة والذهب . تكلمت روايات اسطورية عن كنوز خيالية موجودة في افريقيا وآسيا التي اصبح الاتصال بها اشد صعوبة ، بفعل الفتح التركي ، بينما اصبح هذا الاتصال امراً منشوداً . رغب الاوروبيون في ان يذهبـوا بانفسهم للبحث عن الذهب . فكانت اولى نجاحات البرتغاليين الذين قايضوا ، اقله منذ السنة ١٤٤٦ ، النحاس والنبيذ والحنطة والجياد والمنسوجات والاسلحة بذهب السودان والعاج والعبيد والفلفل ، بمثابة تحريك جديد للاطماع .

لقد ذهب بعضهم الى ان السبب الاول للاكتشافات الكبرى هو تقدم الاتراك في آسيا الصغرى وحوض المتوسط الشرقي ، وقطعهم طرق التجارة القديمة بين الهند والغرب ، فأرغمت صعوبة الحصول على الافاويه على البحث عن طريق جديدة مباشرة . لا شك في ان حروب الاتراك قد شوشت التجارة احياناً ، ولكن الاتراك انفسهم لم يقفوا موقفاً عدائياً من التجارة مع الغربيين . فقد جددوا تكراراً وبملء رضاهم المعاهدات التجارية مع البندقيين والجنويين وتقيدوا بما كانت تنص عليه . وحافظوا على حرية طرق القوافل المارة في بلاد فارس والطرق البحرية في الخليج الفارسي والبحر الاحمر . و ما ان افتتح سليم الاول مصر في السنة ١٥١٤ حتى بادر الى تجديد المعاهدات التي كان المماليك ، اسياد مصر السابقون ، قد عقدوها مع البندقية . و في السنة ١٥٢٨ ، وقع خليفته سليمان معاهدة مع فرنسوا الاول ، فجاءت السفن الفرنسية تنافس البندقيين في الاسكندرية . لا بل ان الاتراك خفضوا الرسوم التي فرضها المماليك على الافاويه : فحددوها بـ ٥ ٪ ثم بـ ٣ ٪ بدلا من ١٠ ٪ . كلا ، ليس للاتراك اي ضلع في ازمة الافاويه التي نجمت عن ظروف اخرى . فهناك اولا حروب الخلافة التي نشرت الخراب والدمار في امبراطورية المماليك بعد السابع من شهر آب من السنة ١٤٩٦ ، والتي استفاد منها البدو لقطع طرق القوافل . منذ السنة ١٤٩٧ ، إقفلت اسواق القاهرة لان بضائع الشرق قد قطعت عنها . وفي الوقت نفسه انتشرت في ايطاليا ازمة اقتصادية : فانهارت المصارف الواحد بعد الآخر في روما والبندقية . ولعل احد أسباب هذه الازمة الاموال الطائلة التي استقرضتها الدولة البندقية لتأمين نفقات الحرب ضد الاتراك والفرنسيين . وقد يكون هنالك سبب آخر هو الحاجة المتزايدة الى النقد . فان البرتغاليين اخذوا يجمعون ذهب السودان عن طريق شاطىء افريقيا الاطلسي ، فلم يعد يصـل بانتظام الى المتوسط كما في السابق . اضف الى ذلك ان الاضطرابات في مصر قد انقصت حجم الافاويه المستوردة ، وان التجار الالمان انقصوا حجم الفضة التي كانوا يأتون بها من مناجم اوروبا الوسطى الى البندقية . الى هـذا ترد افلاسات المصارف . ولكن الاكتشافات الكبرى كانت قد ابتدأت حين برزت هذه الازمات . زد على ذلك ان البرتغاليين لم يتقدموا على طول الشاطىء الافريقي بحثاً عن الافاويه في الدرجة الاولى . فبالاضافة الى الذهب ، كانوا بحاجة الى اليد العاملة ، الى عبيد ، والى الملونات لمنسوجاتهـم ،



الشكل ١٦ ـ اهم الطرق البحرية في القرن السادس عشر

النيلج ، العظلم ، « دم التنين » ، والى المواد الغذائية التي كانوا بحاجة دائمة اليها ، القمح ، السكر ، السمك . ولكن نجاحات الاتراك ربما لعبت دوراً سيكولوجياً . فيبدو ان هجوم الاسلام الكبير الواسع قد ولّد في كافة العالم المسيحي قلقاً مقضاً جماعياً وزاد في تصميمه على ضرب المسلمين من الوراء .

بدأت مغامرة ما وراء الاوقيانوسات على ايدي البرتغاليين والاسبانيين . وقد دفع هؤلاء واولئك اليها ثلاثة بواعث : الانجيل والمجد والذهب . وهؤلاء واولئك كانوا صليبيين في الدرجة الاولى بعد صراع ضد المغاربة استغرق ثمانية قرون الاستعمار هو الطريق الاوقيانوسية للحرب الصليبية . يستعد له بالصلاة ، على غرار خدمة الفروسية . وتُحقق الفتوحات « كي يحارب الاسبانيون ابداً ضد غير المؤمنين واعداء ايمان المسيح المقدس » (غومارا) . فان « دياغو فيلاسكيز » ، حاكم كوبا ، حين زود فرناندو كورتيز بتعليماته ، عين له هدفاً اولاً من فتح المكسيك خدمة الله ونشر الايمان المسيحي . يجب ان لا يضاع اي ظرف يتيح التبشير بايمان كنيسة الله الحقيقي . هذه هي وصية فيلاسكيز الوحيدة التي لم يخلّ بها كورتيز قط . حمل البيرق هذه الكلمات باللغة اللاتينية : « ايها الاصدقاء ، فلنتبع الصليب ، اذا كنا مؤمنين ، فبهذه العلامة سننتصر حقاً» . وان هذا الدبلوماسي الماهر قد عرّض عمله اكثر من مرة للخطر بتسرعه في تحطيم اصنام الوثنيين وارغام هؤلاء على اعتناق الدين المسيحي . ولكن الحرب الصليبية كانت قد عودت المسيحيين تصور نشر الدين المسيحي بشكل الحرب وافناء غير المؤمنين او اخضاعهم .

غالباً ما كان البرتغاليون والاسبانيون اشرافا ريفيين واشفاء ابكار العائلات النبيلة في المناطق الفقيرة . وكان جلهم من الجنود المتمهنين . كما ان العديد من جنود جيوش الفتح الاسباني اصبحوا احراراً في اعقاب الاستيلاء على غرناطة . مثالهم هو « خوان موغولون » ، الفارس ، ابن الفارس ، المولود في « كاسيرس » في مقاطعة « استرامادورا » ، الذي خدم في الجيوش الملكية على التوالي في ايطاليا والمغرب حيث اشترك في الحملات العسكرية واعمال الحاميات في جربا والجزائر وأسهم في فتوحات فلوريدا وفنزويلا والبيرو ووصل اخيرا الى المكسيك بعد خدمة احدى وثلاثين سنة في الجندية قضى منها اثنتين وعشرين في الهند . ولم يكن الكثيرون ايضا سوى رعاة فقراء ويتامى واولاد عائلات فقيرة رافقوا الجنود ثم غدوا جنوداً بدورهم . ولكنهم كلهم ادعوا وطالبوا بحمل لقب « هيدالغو » ، اي اشراف ريفيين ، وسعوا وراء تحقيق مثل الفروسية . كلهم غادروا بلادهم تحركهم رغبة في تحقيق عظائم الامور . واتهم البرتغاليون بانهم اعتقدوا بان العالم انما خلق لاجلهم وبانهم يريدون بسط سيطرة شاملة . اما الاسبانيون ، فقد كتب عنهم مواطنهم « ميشال سرفيه » : « ان روح الاسبانيين قلقة وتسعى وراء المشاريع الكبرى » ، وذكر « برنال دياز دل كستيلو » في تقريره عن فتح المكسيك ، انه ورفاقه كانوا يحلمون بالتفوق على الرومان انفسهم ، بومبيوس وقيصر ، وعلى هانيبعل نفسه ،

اعظم قائد عرفته العصور القديمة . ولكن ما أسهم في احياء مثل الفروسية ، في عهد الاستعمار، هو روايات الفروسية قبل دراسة الآداب القديمة . ففي اواخر القرن الخامس عشر قـام بعض الكتبة من جهة بصهر الموضوعين القصصيين الكبيرين : موضوع شارلمان ورولان وموضوع روايات الطاولة المستديرة ، ومن جهة ثانية ، نشرت الطباعة هذه الروايات . فان اول كتاب مطبوع عن الفروسية ، في اسبانيا ، طبع في فالنس في السنة ١٤٩٠ ، وهو كتاب « تيران الابيض » الذي كان موضوعاً باللغة الكاتالونية . وترجمت عدة روايات فرنسية الى اللغة الاسبانية وطبعت في الفترة نفسها . واخيرا احرزت قصة « اماديس غاليا » للاسباني « مونتالفو » ، في السنة ١٥٠٨ ، نجاحاً قلما عرفته قصة اخرى في عصر من العصور . واتبعه المؤلف بملحق في السنة ١٥١٠ ، هو « مآثر اسبلنديان » . ونشر اكثر من خمسين رواية فروسية حتى السنة ١٥٥٠ عرضت كلها على القارىء وكأنها قصص حقيقية ، دارت حوادثها ابداً في بلدان نائية ، في جزر مسحورة ، ملأى بالوحوش الغريبة والكنوز الاسطورية . وكان بطلها ابداً فتى شجاعاً ذكيـاً جميلا ينتصر وحده في النهاية على كافة الاعداء ويتغلب على كافة الصعوبات ويجمع الثروات ويتزوج من اميرة جميلة كالفجر ويصبح ملكاً. فعرفت نجاحاً منقطع النظير . ان السفراء والقادة ورجال الدولة والامبراطور شارل الخامس نفسه كانوا ينقلون ابداً روايات فروسية بين امتعتهم . قرئت بصوت عال في الخمارات ، وفي المزارع للحصادين ، وفي المعسكرات للجنود . فكم رواية تظهر لنا محاربين بلغوا البطولة بفضل امثلة قصص الفروسية ! كان « الفاتحون » متشربين بها . وقد جاء في تقرير « برنال دياز دل كستيلو » ، حين رأى هو ورفاق كورتيز بحيرة مكسيكو، الملأى بالجزر ، للمرة الاولى ، ما يلي : « ما ان رأينا كل هذه المدن الآهلة بالسكان ، في المياه ، وسكان آخرين كثيرين في اليابسة ، وتلك الطريق المستقيمة الممهـدة التي تؤدي الى مكسيكو حتى بلغت منا الدهشة كل مبلغ . فقلنا ان ذلك اشبه بالاشياء السحرية التي يرويها كتاب « اماديس » بسبب الابراج الكبرى والابنية المنتصبة في المياه » . وفي « مآثر اسبلنديان » ، عاد مونتالفو الى اسطورة « الامازون » ، تقودهن الملكة « كالافيا » ، كما يقول ، ويعشن في جزيرة تـدعى كاليفورنيا . هذه الجزيرة شهيرة بوفرة ذهبها وفضتها . تقع « الى يمين الهند » من جهة الفردوس الارضي » . وتعني « الى يمين الهند » الشمال الغربي بالنسبة لاناس آتين من اوروبا . وقد جاء في تعليمات « دون دياغو فيلاسكيز » حاكم كوبا الى فرناندوكورتيز ، بتـاريخ ٢١ تشرين الاول ١٥١٨ . في البند ٢٦ ، ما يلي : « عليكم معرفة مكان وجود الامازون اللواتي يقول عنهـن مرافقوكم من الهنود انهن لسن ببعيدات عنهم » . واثناء الحملة على « غريجالفا » في « يوكاتان » ، دون احد الكهنة ، في شهر ايار ١٥١٨ ، ما يلي : « سرنا والشاطىء حيث صادفنا برجا جميلا جداً مشيداً على أحد الرؤوس . يقال انه مأهول بنساء يعشن دون رجال . يعتقد بانهن جلس الامازون». وكتب كورتيز في رسالته الرابعة الى الامبراطور ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول ١٥٢٤، ما يلي : « يؤكد إسياد ولاية « سيغواتان » انهم رأوا جزيرة مأهولة كلهـا بنساء ليس بينهن رجل واحد ، وان هذه الجزيرة تقع على مسيرة عشرة أيام من ولايتهم، وان الكثيرين منهم ذهبوا

اليها ورأوها . ويقولون كذلك انها غنية جداً باللآلىء والذهب . سأسعى جهدي لمعرفة الحقيقة وارفع بها تقريراً مسهباً لجلالتكم » . واستهدفت عدة حملات بعد ذلك بلاد الامـازون . وفي اسبانيا اصبح الاشتراك في البحث عن الامازون يعطي الحق بحمل الوسام . وبموجب مرسوم صادر في حزيران ١٥٣٠، انعم الملك على الفاتح « جيرونيمو لوبيز » بترس اعترافاً منه ببسالته. وقد جاء في تعداد الخدمات التي اوردها تبريراً لهذا الامتياز « ثم ذهبتم نحو الشمال بحثاً عـن الامازون » . ان اسعار المخيلات بروايات الفروسية كان من ثم احـد الظروف الرئيسية للاكتشافات الكبرى ولتأسيس امبراطوريات شاسعة جداً، بالنسبة لتقنيات ذاك العهد، وسمت توسيعاً مطرداً « بالسيف والبركار اكثر فأكثر واكثر فأكثر، (شعار الضـابط « برناردو دي فارغاس ماشوكا ») .

اما الذهب فكان الحصول عليه شغل الاوربيين الشاغل. فقد كتب برنال دياز دل كستيلو» : جئنا الى هنا كي نخدم الله والملك ، ولكننا جئنا كي نصبح أغنياء ايضاً . واطفأ التكالب على الذهب عند بعضهم كل عاطفة اخرى . فقد أجاب « فرنسوا بيزار » راهباً اخذ عليه سرقـة الهنود واهمال تبشيرهم بالله ، بقوله : « لم آت لمثل هذه الاسباب ، انما اتيت لاستولي عـلى ذهبهم » .

جابه البرتغاليون والاسبانيون صعوبات الاستعمار في ما وراء الاوقيانوسات وتغلبوا عليها بفضل النظم الاجتماعية الموروثة عن القرون الوسطى ، وبفضل سلسلتين مـن الاختبارات الاستعمارية : اختبارات استرداد اسبانيا واختبارات الاستعمار الاوروبي في المتوسط والبحر الاسود خلال القرون الوسطى . كان الفتح مشروع توصية نهض به « الاقارب » و « الانساب » من جهة ، و « المتفانون » او « المعالون » ، اي « الخلائق » من جهة ثانية . ورافق الضبـاط الاسبانيين الذين ذهبوا الى الانتيل ، ثم الى المكسيك والبيرو ، عدد كبير من افراد عائلاتهم ممن عاشوا في مساكنهم وعلى موائدهم، خدموهم وشاركوهم مكاسب الفتح . فقد احاط بـ «الونسو بيزارو» ستة عشر شخصاً من اخوته واعمامه وابناء اعمامـه اشتركوا كلهم في الاستيلاء على مكسيكو . واحاط كذلك بكل هؤلاء الضباط « خلائق » وفية يتعهدونها وتخدمهم بتفان مطلق . في البدء احيط بها القائد العام . فكورتيز كان « معـال » « دياغو فيلاسكيز » اولا . ولكن « الخلائق » بدورها تعهدت « مُعاليها » . فان « الفارو دي براغامونتي » قـد آوى باستمرار بين عشرة وخمسة عشرة رجلا وفر لهم سبل العيش والاسلحة والمطايا مقابل خدماتهم المنزلية والعسكرية . فتكونت من ثم فئات تسلسلية الدرجات قوية جداً من الاوفياء الخلص . توجب على كل فرد ان يسهم بما يستطيـع الاسهام به . القائد يقدم رؤوس الأمـوال والسفن والمدافع . الآخرون يقدمون ما تسمح لهم به امكاناتهم . أما الفقراء فيقدمون سيوفهم والمؤن التي يحتاجون اليها في الطريق . وبعد الفتح ، يكون نصيب الفرد نسبياً لاسهامـه . استمرت هذه الفئات الاجتماعية في المستعمرات طيلة القرنين السادس عشر والسابـع عشر . وكان نواب

الملك خلائق احد اعضاء مجلس الهند . يصلون الى مراكز ولايتهم محـــاطين بالانسباء حتى الدرجة الخامسة . يعينونهم حكاماً ومستنطقين وقضاة . وكان لهـــؤلاء بدورهم خلائقهم التي يسندون اليها الوظائف . وكان لديهم بالاضافـــة الى ذلك اناس يؤمنون لهم القوت والسكنى مقابل مواكبتهم لهم في حلهم وترحالهم . وكانت الحاشية الكبيرة سبيلا للظهـــور واثبات الوجود . فيتضح من كل ذلك ان مجتمع العوالم الجديدة قد اقتبس اعرافاً اوروبية قديمة جداً .

جرى تقاسم الغنائم واستغلال المهزومين وفاقا لطرائق اقتبست عن حرب الاسترداد. فبعد انتزاع اقليم من ايدي المسلمين ، كان المنتصرون يتقاسمون الاراضي والحقـــوق . والمقصود بالحقوق هو حق المنتصر في فرض الجزية واعمال التسخير عـــلى المغلوبين في ارض معينة ، شريطة تعهد المستفيد من هذا الحق بالخدمة العسكرية ونشر العبادة المسيحية . وحصـــل المنتصرون كذلك على املاك واسعة وارقاء كثيرين، ارقاء مغاربة ، وارقاء برتغاليين واسبانيين من معتنقي الدين الاسلامي ، وارقاء زنوج يبتاعونهم بواسطة المسلمين . لذلك كانت الامـلاك الواسعة الملأى بالعبيد مألوفة لدى البرتغاليين والاسبانيين قبل فتوحات ما وراء الاوقيانوسات بزمن طويل. اضف الى ذلك ان عدد الارقاء قد بقي مرتفعاً في اوروبا القرون الوسطى، في ايطاليا، وفرنسا الجنوبية ، واسبانيا والبرتغال . وكانوا يستوردون من المستعمرات الايطالية في البحر الاسود خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومن شواطىء افريقيا منذ « هنري البحار ». وكان الاوروبيون قد ألفوا استخدام اليد العاملة العبدية في مؤسساتهم الاستعمارية في ازمير وآسيا الصغرى وفلسطين و « كريت » و « كيئو » وحتى في شبه الجزيرة الايطاليـــة وشبه الجزيرة الايبيرية . فنقلت كل هـــذه الاعراف والانظمة الاجتماعية الى ما وراء الاوقيانوسات .

واخيرا اقتبس البرتغاليون والاسبانيون الاختبار الاستعماري عـــن الايطاليين ولا سيما الجنويين في اساكل الشرق الادنى وفي البحر الاسود . لقد انمى الجنويون الشركات الاستعمارية منذ السنة ١٣٤٦ واتقنوا دقائق تقنيتها كما اتقنوا تقنيـة احتلال الارض في البلاد المحتلة . وصادف ان جنوى فقدت مستعمراتها في اساكل الشرق الادنى في الوقت نفسه الذي بدأت فيه الحملات الاسبانية والبرتغالية . فانضم الى هذه الاخيرة عدد من الجنويين . وكان للجنويين من جهة ثانية مؤسسات هامة في لشبونة واشبيلية. فأخذ البرتغاليون منذ السنة ١٤٥٤ يطبقون اساليب الاستعمار المتوسطي على العالم الاوقيانوسي ، فأنشأوا امبراطورية استعمارية هي امبراطورية الشمال الغربي الافريقي والجزر التابعة له : منـاطق مراكش الغربية ، والساحـل الصحراوي ، والشواطىء السودانية ، وجزر « ماديرا » و « الأسور » و « الكناري » و « الرأس الاخضر » . فتوصلوا بفضل قواعدهم البحرية في « أسفي » وازمّور وارزلا والقصر الصغير الى فصل الامبراطورية الشريفية عن البحر . وفتحوا الطريق الى « اوقيانوسات الحبوب » المراكشية والى « سوسة » التي يصل اليها الارقاء الزنوج من « النيجر » ، والى التبر السوداني وسكر سوسة وماديرا . وضمنوا بذلك سلامتهم . كما اشترك الفلمنكيون والانكليز والنيرلنديون والفرنسيون

كمساهمين في مشاريعهم ، وكانوا على اتصال دائم بها . فيتضح من ذلك ان اوروبا اختبرت الاستعمار منذ امد طويل في العالم القديم فنقلت خبرتها الى العوالم الجديدة .

ان اقصى جنوبي غربي شبه الجزيرة الاسبانية،اي الشاطىء الممتد من لشبونة الى جبل طارق هو ما لعب في البدء ، ولمدة طويلة ، الدور الاستعماري الاول . فهنا تتوفر بالتعاقب الريح اللازمة لبلوغ السفن عرض البحر ، حتى موعد هبوب الرياح بين دائرتي الانقلاب ، عند انقلاب الشمس الصيفي ، والريح اللازمة للعودة الى اسبانيا في فصل الخريف . وهنا يوجد الملاحون المدربون على تسيير السفن نحو الجزر البرتغالية ، وملاحو « الفارف » البرتغاليون وملاحو موانىء « نيابلا » و « بالوس » و « مغير » وبحارة « الوادي الكبير » واشبيلية و « سان لوكار كادِز » . وقد استفادت هذه الموانىء الاخيرة من محور مواصلات الاندلس ومن ثروة السهل الزراعية فانتهت الى احتلال المركز الاول من الجهة الاسبانية، كلشبونة على مصب نهرها الواسع من الجهة البرتغالية . فتأسس احتكار عملي اثبته القانون .

سار البرتغاليون والشاطىء الافريقي وفي نيتهم تغيير سيرهم نحو الشرق حالما يستطيعون الى ذلك سبيلا والاتجاه بعد ذلك شطر آسيا . اما كريستوف كولومبوس،فقد سار في السنة ١٤٩٢ باتجاه الغرب بغية بلوغ آسيا بعد دورة حول الارض . كان التعمق في درس مؤلفات العصور القديمة قد ادى بالفعل الى حدوث نهضة في الرياضيات وعلم الفلك منذ اواسط القرن الخامس عشر . ففي « بادوا » و « فراري » والبندقية ، عند الفلورنسي توسكانلي ، وفي فيينا ، مع بورباخ (١٤٢٣ – ١٤٦١) ، وفي نورمبرغ ، مع تلميذه « ريجيو مونتانوس » (١٤٣٦ – ١٥١١) ، وفي « ساغر » ، بين اعضاء المجلس الذي الفه جان الثاني ملك البرتغال (١٤٨١ – ١٤٩٥) والذي عمل فيه « مارتن بيهايم » من نورمبرغ ، رسخت آراء الاقدمين حول كروية الارض . وقد ساد الاعتقاد من جهة ثانية بان آسيا غير بعيدة من جهة الغرب بسبب خطأ ارتكبه بطليموس في تمديد المتوسط بالاتجاه الشرقي الغربي وتقدير طوله بستين درجة . فحسب الناس ان آسيا توجد حيث تقع اميركا . وقد انتشرت هذه الآراء وعمت . فاستطاع كولومبوس الاتفاق مع بعض البحارة ، الاخوة (بنزون) ، الذين كانوا قد فكروا بدورهم بمشروع بلوغ آسيا من جهة الغرب .

منذ هذا التاريخ ، وحتى القرن التاسع عشر ، اعتمدت اوروبا على البحر في الدرجة الاولى للاتصال حتى ببلدان العالم القديم . ولا غرو فان القوة اللازمة لنقل الوزن نفسه هي بنسبة ١ في البحر لـ ٣٥ في البر . فالبحر حر وخال من جميع العوائق ، كالاحراج والمستنقعات والصحاري والجبال العالية واعتداءات السكان ، التي تزيد كلها من مشقة وخطر الاستكشافات والاسفار البرية .

تفوق السفينة الاوروبية

هم الاوروبيون وحدهم من حلّوا مشاكل الملاحة عبر الاوقيانوسات. وقد ولد الفن البحري القادر على قهر المسافـــات البحرية الطويلة في ثلاثة مراكز : مركز الزورق المصنوع من جذع شجر مجوف والمزود برقـاص (بين جزيرة مدغشقر وجزيرة الفصح) ، ومركز السفينة الشراعية المستوية القعر (في بحار الشرق الاقصى) ومركز السفينة ذات الحيزوم (في بحار اوروبا) . ولكن منطقة الزورق ذي الرقاص قـــد افتقرت الى الخامات والحركة التجارية فحال ذلك دون تقدمها . زد على ذلك من جهة ثانية ان الزورق ذا الرقاص لم يكن قادراً على السير يمنة ويسرة لمقاومة الريح. واذا ما استثنينا المساحلة بين جزيرة واخرى ، التي قد تغطي مسافات طويلة على كل حال،فان فائدة هذا الزورق تنحصر في الهرب على غير هدى امام خطر كبير ، دون امل بالعودة .

كانت السفينة الشراعية المستوية القعر قادرة على قطع المسافـــات الطويلة . فقبل وصول الاوروبيين بحراً ، بلغت اساطيل الدولة الصينية ، بين السنة ١٤٠٣ والسنة ١٤٣١ ، الجزيرة العربية ومضيق اورموز . ولكن طاقة حضارات الشرق الاقصى على التوسع والانتشار كانت محدودة وضئيلة لاسباب اجتماعية ودينية . في اواخر القرن الخامس عشر ، طرأ على التجـارة الصينية تقهقر ملموس . اما السفينة الشراعية نفسها فلم تخل من مساوىء كبرى . فقبل وصول (فاسكو دي غاما) (١٤٩٨) و « البوكرك » (١٤٠٣) ، كان الصينيون لا يزالون يستعملون دفة اشبه بالمجذاف . لذلك لم تتمكن من المياه ، وكانت ادارتها عملا شاقاً ، فقدر للسفينـة ان تبقى صغيرة وان لا تسير بالاشرعة الا اذا دفعتها الرياح من الوراء . فاقتصر عملها على المساحلة وعلى الرحلات المباشرة ، بفضل الرياح الموسمية الشتوية ، بين الصين وجزر « السوند » ، وبفضل الرياح الموسمية الصيفية بين «السوند» والشواطىء الصينية . وحين شاهد الصينيون الدفه المحورية الاوروبية ذات المفصلة المعدنية ، حاولو النسج على منوالها . ولكن تأخر صناعتهم المعدنيـة لم يتح لهم استعمال المفصلة . فارغموا على الاكتفاء بدفة محورية ذات مدار خشبي هي دون الدفـة ذات المفصلة بسبب احتكاك الخشب بالخشب وهشاشتهـــا النسبية . الا ان حجم السفينة الشراعية قد تضخم. فبلغ محول السفن التجارية ١٢٠٠ طنة مع أربعة الى ستة صوار و ١٠٠ الى ١٢٥ بحاراً و ٢٠٠ الى ٤٠٠ مسافر . وتمكن الصينيون ، اكثر من السابق ، من الاستفادة من سهولات قيادتها ؛ فان قعرها المستوي يتيح لها الدوران كالخذروف ، ودخولها المحدود في المـاء مناسب جداً على مقربة من مصاب أنهر الشرق الاقصى،واشرعتها الحصيرية المركبة على عوارض خيزرانية افقية متعاقبة سهلة التحريك على غرار مصاريع النوافذ المتحركة؛ ومن السهل كذلك تضييق وتوسيع مساحتها برفع او خفض الدوقل العلوي فقط لان العوارض يستقر بعضهـا على البعض الآخر على التوالي اذا خفض الدوقل فلا تدفع الريـــح اذ ذاك سوى القسم العلوي من الشراع ؛ يضاف الى ذلك اخيراً ان هذا الشراع المشدود الملتصق بالصاري يتجه من ذاته حين تبدل السفينة اتجاهها وانه يسمح بحصر الريح اكثر من الشراع اللاتيني . ولكن هـــذه السفينة

الشراعية ، بسبب اشكالها المسطحة التي جعلتها تزيغ عن طريقها ، وبسبب صعوبة استعمال دفتها التي كان يقتضي لتحريكها بين ستة وثمانية ملاحين ، وبسبب ضعفها من جراء تكرر انقطاع ردنها ، قد بقيت في الدرجه الاولى سفينة تسير بالريح الهابة على اشرعتها من الوراء ، كما بقي استخدامها محصوراً في مناطق الرياح الموسمية ولا سيا في الشرق الاقصى .

هي السفينة الاوروبية وحدها ما توجهت الى كل مكان . فقد كان للدفة المحورية ذات المفصّلة ، التي ابتكرت في القرن الثالث عشر ، اثرها العظيم في الماء بفضل مساحتها العريضة . كما ان ذراع الرافعة من جهة مدير الدفة قد ضاعف قوة الرجل ، وقد عرف الاوروبيون ، خلال القرن السابع عشر ، كيف يركبون الملفاف على الدفة التي زودت منذئذ بدولاب سهل الادارة . غدت قياسات الدفة غير محدودة فازدادت قياسات السفن والاشرعة حين توفر الخشب لذلك . وابتكر البرتغاليون ، في القرن الخامس عشر في الارجح ، السفينة المزودة بعدّة مزدوجة : اشرعة مربعة للريح الهابة من الوراء ، واشرعة لاتينية لمقاومة الريح المعاكسة ، وهي عدة اتاحت اجتياز الرياح الهابة بين دائرتي الانقلاب من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . اضف الى ذلك ان حيزوم السفن واشكالها الدقيقة قد اتاحت لها مقاومة التهور والحيدان عن الطريق ، والسير بالتالي يمنة ويسرى في اقرب اتجاه الى اتجاه الريح المعاكسة . سار كولومبوس باتجاه يؤلف مع اتجاه الريح ٦٧,٥ درجة . فكان بمقدوره ، اذا ما سار على التوالي يمنة ويسرى ان يجتاز الريح المعاكسة . وقد تمتعت هذه السفينة ، حيال الريح ، باستقلال يوازي استقلال السفن الشراعية الكبرى في القرن التاسع عشر . وكان طبيعياً ان تدور بصعوبة ولكنها كانت تدور بأمان وبسهولة . فتطورت السفينة الشراعية الاوروبية وفاقاً لهذه المميزات . واعتمدت في النهاية الاشرعة المربعة لان الدفة واشكال السفينة قد اتاحت السير في اقرب اتجاه الى اتجاه الريح المعاكسة ،ودونما صعوبة تذكر. حمل كل من الصاري الامامي والصاري الكبير من اسفل الى اعلى ، شراعاً منخفضاً ، وسطحاً مستديراً ، وشراعاً مربعاً . واحتفظ صاري مؤخر المركب بشراع لاتيني تسهيلا للحركة . وحمل الصاري الكبير المائل على مقدم السفينة شراعين . وكان هذان الاخيران مع شراع صاري المؤخر يساعدان على تدوير السفينة كما لو كان ذلك بحركة رافعة . اما الكوثل ، الذي كان مربعاً في اوائل القرن السادس عشر ، فقد استدار اسفله منذ السنة ١٦٣٥ في انكلترا ، ومنذ السنة ١٦٧٣ في فرنسا، ومنذ السنة ١٧٢٠ في البلدان الشمالية ، لان كل انقاص غير مدروس يطرأ على القطع يحدث الدرادير ويزيد من مقاومة المياه . فسيطرت السفينة الاوربية على البحار ، وفي القرن السابع عشر بات المركب المثلث الصواري ملك الاوقيانوسات .

مسألة تحديد المكان

ان الاوروبيين وحدهم عرفوا كيف يحددون ، بضبط كاف ، نقطة الانطلاق والاتجاه الذي يسيرون فيه ونقطة وجودهم في وقت معين في عرض البحر ، ونقطة الوصول ، وكيف يعطون هذه المعارف قيمة شاملة بنقلها من جيل

الى جيل بأساليب كانت في متناول عقل كل انسان . لم يستخدم الصينيون البوصلة بل استرشدوا النجوم . وهكذا فعل البولينيزيون الذين تميزوا ،بالاضافة الى ذلك ، بتلك الفطرة البدائية الغريبة الغامضة التي استطاعوا بفضلها ، في بحارهم ، ان يسيروا في الاتجاه المقصود دون ان يروا اي شاطىء . ولكن الاساليب بقيت اختبارية ، ذات قيمة محلية فقط ، غير محددة وصعبة النقل الى الاجيال اللاحقة .

ووجهت مسائل الملاحة أول ما ووجهت حين تُخُطّي خط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، فتعذرت الاستفادة من النجم القطبي لتعيين العرض ، اي المسافة بالنسبة الى خط الاستواء ، ثم حين بلغ « برتلمي دياز » ، في السنة ١٤٨٦ ، خط العرض الجنوبي ٢٦ ، اثناء سيره بمحاذاة الشاطىء الافريقي ؛ فحاد عنه لتجنب الارياح والتيارات المعاكسة ، وامتطى عرض البحر عدة ايام فنبهته حالة البحر والجو الخاصة الى انه لم يعد في حمى افريقيا ، فصعد نحو الشمال بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح دون ان يراه ، واعطى بذلك اول مثل اكيد لامتطاء عرض البحر في التاريخ المعاصر .

الاساليب في اواخر القرن الخامس عشر اعتمد الربابنة ، في ملاحتهم ، « على التقدير » في الدرجة الاولى ، لمعرفة الطريق التي قطعوها والنقطة التي بلغوها . وقد قدروا سرعة السفينة بالمراقبة ، اي بالنظر الى مرور المياه امام جانب المركب . وتوجهوا بواسطة ابرة ممغنطة مركزة على عوّامة في حوض مليء بالماء . ولمعرفة مكان وجودهم ، جمعوا بين الدلالات السابقة . ورسموا على الخرائط « طرقاً وابعاداً » تتيح لهم معرفة العرض والطول . ولكن الدلالات كانت تقريبية ، بسبب الانحراف الممكن عن الاتجاه المعين ، فكان الاسلوب غير ذي جدوى للرحلات الطويلة . فرسم الربابنة في هذه الحالة على الخرائط « طرقاً وارتفاعات » ، وخطوط عرض وحسبوا كل يوم نقطة وجود المركب على خطوط العرض . كان هذا الاسلوب معروفاً منذ العصور القديمة في نصف الكرة الشمالي . والمفروض هو ان يكون النجم القطبي في سمت الرأس (٩٠ درجة) بالنسبة لمراقب يشاهده من القطب ، وبمستوى الافق بالنسبة لمراقب يشاهده من خط الاستواء . . فيكفي من ثم تحديد الزاوية التي يؤلفها مع الأفق الخط الذي يصل عين المراقب بالنجم القطبي لمعرفة العرض . واستخدم الربابنة « الاسطرلاب » وهو دائرة مقسمة الى ٣٦٠ درجة ومزودة بعضادة متحركة ينتقل احد طرفيها فوق التداريج ، وبصفيحتين عموديتين مثبتتين في كل من طرفي العضادة فتحت فيها خلتة لتصويب النظر . اما « الربع البحري » الذي استخدم منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر فكان جهازاً يمثل ربع الاسطرلاب . ولكن نسبة الخطأ في هذه الاجهزة بلغت بين ٤ و ٥ درجات . لذلك استخدم « القوس » الذي ابتكر في القرن الرابع عشر ، وهو سهم خشبي مدرّج يتزحلق عليه عدد من المطارق ويصوب النظر بواسطته الى النجم القطبي . فتراوحت نسبة الخطأ بفضله بين ١٢ و١٥ دقيقة فقط . الا ان الربابنة ، بالاضافة الى اخطاء

التصويب بسبب حركات المركب ، قد اهملوا اصلاح انحراف الاشعة .

ما ان تجاوز البحارة خط الاستواء حتى تلبكوا ووقعوا في حـــيرة . اختفى النجم القطبي عن الانظار . فعين ملك البرتغال ، جان الثاني ، مجلساً ضم اليه فلكياً من نورمبرغ هو مارتن بيهايم (١٤٥٠ – ١٥٠٧) . سافر هذا الاخير حتى الدرجة ١٥ والدقيقة ٤٠ من العرض الجنوبي. اتقن المجلس طريقة تعيين العرض بالارتفاع الزاوي للشمس فوق خط الاستواء السماوي في اعلى منحناه الظاهر عند نصف النهار . ولكن هذا الارتفاع يختلف باختلاف الفصول في كل نقطة من مساحة الارض خارج خط الاستواء . فتوجب من ثم تزويد البحارة بجداول انحراف حسب عليها مسبقاً ارتفـاع الشمس الزاوي ، في كل عرض ، وفي كل يوم من ايام السنة . وضع المجلس هذه الجداول فبات ممكناً استئناف السير قدماً .

وبفضل معرفة العرض والاتجاه والمسافة المقطوعة المقدرة على اساس السرعـــة ، استطاع الربابنة استدلال الطول . ولكن نسبة الخطأ كانت كبيرة جداً . لذلك بحثوا عن تقدير الطول تقديراً مباشراً . فقد كانوا ملمين بمبدأ الفروق بين الساعات . ان فرق الطول بين مكانــين يساوي ١٥ درجة في الساعة و١٥ دقيقة من القوس في الدقيقة و١٥ ثانية من القوس في الثانية . ولكنهم افتقروا الى وسيلة عملية لحساب فرق الساعة بين مكان وجودهم ونقطة انطلاقهم . « يخامرنا الشك في ان يتوصل شيطان الى صناعة ساعة تفي بالحاجة » . استخدموا الساعات الرملية المقدرة لـ ٢٤ ساعة التي كانوا يقلبونها رأساً على عقب طيلة الرحلة رغبـــة في المحافظة على ساعة الانطلاق . ولكن العواصف البحرية كانت تغير سرعة تساقط الرمل في جهاز غير دقيق . وكان سهلا ، في رحلة طويلة ، ان يحصل خطأ في احصاء تقلبات الساعة المتعاقبة . ولكن جهل الربابنة الذي اثار كريستوف كولومبوس وامريكو فسبوشـــي ، لم يوصلهم الى حلول اخرى . فبلغ خطأهم ٢٠ درجة تقريباً بحسب تقـدير كولومبوس ، اي ما يناهز ٤٠٠ عقدة

حاول دياز وكولومبس وفسبوشي استخدام الطرائق القمرية وطرائق مقارنة السيارات . في ١٣ كانون الثاني ١٤٩٣ ، بحث كولومبوس في هايتي عن ميناء امين يراقب منه مقارنة الشمس والقمر . فاذا عرفت في زمان ومكان معينين ساعة اخفاء القمر لنجم معين ، يكفي مراقبة الاخفاء في مكان آخر يبلغه البحار وتعيين ساعة حدوثه ، فيكون الفرق بـــين ساعتي المراقبة على الارض لظاهرة فلكية واحدة هو الفرق بين خطي الطول . واستخدمت بالشكل نفسه الكسوفات والخسوفات وكافة المقارنات او اللقاءات الظاهرة بين النجوم . في ٢٣ آب ١٤٩٩ ، راقب فسبوشي لقاء القمر الظاهر بالمريخ الذي انبأ « ريجيومونتانوس » بحدوثه في نصف الليل بالضبط في نورمبرغ . فوجد القمر على بعد ٥°٥ درجات الى الشرق من المريخ عند نصف الليل ، وقدر سرعة القمر بالنسبة الى المريخ بدرجة في الساعة واستنتج من ذلك انه على خط الطول الغربي ٥°٨٢ . واستخدم دياز وكولومبوس وفسبوشي « تقويم»

« ريجيومونتانوس » بين السنة ١٤٧٥ والسنة ١٥٠٦ ، « وروزنامة الكسوفات والخسوفات» بين السنة ١٤٨٣ والسنة ١٥٣٠ ، وكانا واسعي الانتشار في الأوساط الاسبانية والبرتغالية . ولكن الاخطاء لم تكن نادرة في تقدير بداية الظواهر ونهايتها ، الكسوفات والخسوفات ، اللقاءات ، الاخفاءات ، وفي تحديد مكان النجوم الصحيح بالاستناد الى ميلها وعمودها المستقيم . وقد بلغت هذه الاخطاء ٢٤ دقيقة احياناً ، مع العلم ان خطأ عشر دقائق في محل القمر يؤدي الى خطأ ٥ درجات في الطول او ١٠٠ عقدة .

النجاحات المحققة

يتضح مما تقدم ان جهوداً كبرى بذلت للتوصل الى تعيينات اكثر دقة . فقد ابتكر البحارة ، لحساب السرعة ، مقياساً خاصاً اطلق عليه اسم « لوك » ، وصف للمرة الاولى في السنة ١٥٧٧ ، واضيف بعد السنة ١٦٢٠ الى كافة المؤلفات التي تبحث في الملاحة . واللوك حبل مجهّز بعقد متساوية المسافات ومنتهٍ بلوحة سندبانية مثقلة بالرصاص ومزودة بعوامة . تلقى اللوحة في البحر ، فتستقر في مكانها تقريباً ، وينحل الحبل وتمر العقد بين اصابع الربان . اما المسافة بين عقدتين فتوازي جزءاً من ١٢٠ من الميل البحري. فالعقد التي تمر بين اصابع الربان في ٣٠ ثانية ، يقابلها عدد موازٍ من الاميال البحرية في الساعة . ولكن كان يقتضي معرفة طول الدقيقة في دائرة الارض الكبرى لتحديد الميل وتحويل المسافة المقطوعة الى احداثيات هندسية . منذ السنة ١٦٣٣ ، وجد « مور وود » للميل قياساً يوازي ١٨٦٦،٦٦ م واقترح ان يكون طول العقدة ٥١ قدماً . ولكن البحارة تمسكوا بعقدة الـ ٤٢ قدماً ، اي ١٥٤٠ متراً لكل دقيقة من دائرة العرض الكبرى لتأمين سلامة النزول الى اليابسة : اذ ان البقاء على مسافة ٢٠ عقدة من المكان الذي يعتقد الملاح انه بلغه « افضل من الوصول الى مرمى المدفع من بعده » .

وفي سبيل التوصل الى معرفة الاتجاه ، استبدلت الابرة المغنطة ، المترجرجة ابداً بفعل حركات السفينة ، « ببركار الطريق » ، وهو ابرة بشكل معين على كثير من الاطالة مركبة على جذع فولاذي هو لها بمثابة المدار ، تدور فوق دائرة ارياح عينت عليها مساحات محدودة للارياح تتخللها الاشارة الى الاتجاهات . وسبق لكولومبوس ان اكتشف في ١٣ ايلول ١٤٩٢ انحراف الابرة المغنطة . فان هذا الانحراف قد اتجه نحو الشمال الشرقي بعد ان اتجه نحو الشمال الغربي . وهنالك خط انعدم فيه الانحراف يقع على مئة عقدة الى الغرب من جزر الأسور . ولكن سواد الملاحين انكروا واقع هذا الانحراف حتى في القرن السابع عشر .

حُسب العرض بسهولة كبرى بفضل قوس « دايفز » ، وهو جزء من الربع البحري ، الذي وصف شكله الاول في السنة ١٥٩٤ والذي استعمل بعد ذلك حتى القرن الثامن عشر . ولكن حساب الطول قد بقي شغل البحارة الشاغل ، مع ان كسوفات الاقمار التابعة لجوبتير قد أتاحت التوصل الى مزيد من الدقة . فان مراقبة تواريها في ظل النجم السيار وخروجها من هذا الظل ، اذا ما قورنت بمعطيات جدول الانباء ، تعطي مباشرة فرق الساعة المطلوب .

استخدم بصورة خاصة بعد نشر تقويم «كسيني»(١٦٦٨). الا ان الحل الحقيقي الذي لم يتوصل احد اليه كان في اكتشاف مقياس الزمان. منذ السنة ١٥٣٠ وصف «غامـــا الفريزي» الساعات التي يسهل نقلها واشار «راي» بساعات ذات زنبرك محرك ومنفذ يزود بـدولاب التقاء. وكان «بارنتز» اول بحار استخدمها في رحلته الى زيلندا الجديدة (١٥٩٦). ولكن هذه الساعات كانت سريعة التعطل. في السنة ١٦٦٤ سلم «هويغنس» ساعتين الى المـــاجور «هولمس» الذي توفق الى تقديرات محدودة الاخطاء على الشاطىء الافريقي. وحذا حذو هذا الاخير الاسطول الفرنسي المرسل الى «كنديا» في السنة ١٦٦٩. ولكن النتائج كانت هدفـــا للاعتراض والانكار. فبقيت المسألة بدون حل طيلة القرن السابع عشر.

ازدرى الربابنة باعمال الفلكيين وتابعوا الملاحة «على التقدير». فان النتائج المشكوك فيها التي حققتها الاساليب العلمية قد ساعدت على استمرار الثقة في الطول المقدّر الذي اعتبر وكأنـه الطول فحسب. فقد كتب الاب فورنييه، مؤلف كتاب شهير في علم المياه السطحية (١٦٤٣)، ما يلي: «في السنة ١٦٣٥ بالذات، وصل الى «دييب» مركب كان قـــد ارسل الى جزيرة «موريس» التي تبعد اكثر من ١٣٠٠ عقدة والتي بلغها الربان دون ان يضل الطريق، مع انه لم يذهب اليها قط من قبل. واني اشك كثيرا في ان يقدم اولئك الذين يثقون بعملياتهم الفلكية على مثل هذه الرحلات، مع ما لديهم من ادوات». اجل لقد بلغ الربانية اهدافهم، ولكنهم بلغوها بعد جهد وتلمس وتردد. كانت الخرائط الموضوعة ملأى بالاخطاء. وبلغ الخطـــأ في خريطة العالم التي وضعها «اورتليوس» في السنة ١٥٨٧، سبعة عشر درجة في الفرق بين طول لندن وشنغاي. وجاءت الشواطىء في خريطة فرنسا التي وضعها «سانسون» في السنة ١٦٧٩ مئة كيلومتر ابعـــد الى الغرب. وحتى في السنوات ١٧١٢ – ١٧١٤، ارسل «فريزيه»، مهندس الملك، الى «شيلي»، فحدد الطول الغربي لمضيق «لومير» بـ ٦١،٣٥ درجـة بدلا من ٦٧،٣٠ درجة، وعين المسافة بين هذا المضيق ورأس «هورن» بخمسين عقـدة بدلاً من ٣٠. وكانت نتيجة هذه الاخطاء ان عينت امكنة عدة على العرض الواحد للجزر الصغيرة المنعزلة. توجب اتخاذ الاحتياطات لبلوغ الشاطىء، ايقاف المراكب بواسطة القلوع، وقياس عمق البحر، واطلاق نيران المدافع في الضباب لتقدير المسافة بالاستناد الى الصدى. فهدر وقت كثير، ولم يحل كل ذلك دون حوادث غرق السفن. في السنة ١٦٨٦، غرقت عند الشواطىء الافريقيـــة السفينة البرتغالية المقلة الوفد السياحي الى البرتغال، بينما اعتبر القبطان انه تجاوز رأس الرجـاء الصالح وبات بعيداً في عرض البحر. وكان من بعد مسافة المكان الذي حصل فيــه الحادث على الشاطىء الشرقي الى الرأس ان توجب على الناجين من الغرق السير غربا مدّة ٣١ يوماً على طول الشاطىء قبل ان يبلغوه.

الكرات والخرائط

حلت مسائل الملاحة هندسيا على كرة، كتلك الكرة الشهيرة التي جاء بهـا «مارتن بيهايم» الى نورمبرغ (١٤٩١)، وهي نسخة عما وضعه بطليموس اضيفت اليها معلومات ماركو پولو حول آسيا ومعلومات البرتغاليين حول افريقيا، او ككرة

مركاتور (١٥٤١) . ولكن المليمتر الواحدة في كرة شعاعها ٦٠ سنتيمترا ، يعادل ١١٫٥ ميلا في الواقع . فبات لزاما رسم خرائط ، هي ادوات حساب ، لايجاد الحل البياني لمسائل التقدير . فاستخدمت حتى القرن الثامن عشر ، خرائط موضوعة على مسطحات رسمت عليها خطوط عرض وخطوط طول مستقيمة متساوية البعد . وكانت فائدتها ان مسيرة المراكب المنحنية كانت ممثلة بخط مستقيم . اما مساوئها فان كل خط عرض كان له مقياسه الخاص وان الخريطة لم تحتفظ لا بالمسافات ولا بالزوايا . فكلما اجتاز قوس الدائرة الكبرى التي ترسمها طريق المركب خط طول جديد ، ألَّف زاوية مختلفة . فكان لزاما حساب هذه الزوايا المختلفة مسبقا للتمكن من توجيه السفينة وفاقا لقوس الدائرة الواصل بين نقطة الانطلاق والنقطة المقصودة ، واذا انحرفت السفينة عن طريقها مست الحاجة الى حسابات جديدة . فكان لا بد من خريطة تحتفظ بالزوايا .

مسقط مركاتور

نشر مركاتور في السنة ١٥٦٩ خريطته الاولى التي رسمها بعد بحث وتردد على الكرة . ازدادت المسافات بين خطوط العرض ازدياداً مطرداً نحو الشمال ، ولكن مركاتور جهل قاعدة تدريج خط الطول وتوسيع خطوط العرض في كل نقطة من خط الطول . تأمل «ادوارد رايت» في خريطة سابقة وعرض في السنة ١٥٩٩ نظرية المسقط المعروفة باسم مركاتور . ترسم كرة داخل اسطوانة ، وتوسع الكرة الى ان تلتصق كل نقطة من هذه الاخيرة بكل نقطة من الاسطوانة . فتكون خطوط الطول الخطوط المستقيمة المتوازية العمودية بالنسبة لخط الاستواء ، وخطوط العرض الخطوط المستقيمة الموازية لخط الاستواء . ولما كان خط العرض يصبح دائرة كبرى ، وجب ان يوسع خط الطول في عرض معين بنسبة الدائرة الكبرى للطول الاصلي لخط العرض هذا . وازدادت المسافة باطراد بين خطوط العرض وفاقا لقاعدة معروفة . ففي كل نقطة يكبر الطول والعرض والمعينات بنسبة واحدة وتحتفظ الخريطة من ثم بالزوايا وبالوضع الخاص لكل مكان بالنسبة لغيره . والمسيرات خطوط مستقيمة تقطع كل خطوط الطول مكونة معها زاوية واحدة لان نسبة خط الطول لخط العرض في كل نقطة هي النسبة نفسها بينهما على الارض . ووضع « رايت » بالاضافة الى ذلك ، لكل معين ، جداول تبين عرض نقاط تقاطع المعين وخطوط الطول المتوالية . الا ان الربابنة لم يعيروا هذه التحسينات اهتماما كبيرا .

تقدم الجغرافيا

لم يحرز رسم اليابسة سوى تقدم بطيء . فالمنشورات حول الاسفار قد افتقرت الى الدقة والوضوح ، وقد حدث احياناً ان ظهرت بعد تحريرها بزمن طويل فلم تلفت الانتباه دائماً . ان رواية رحلة كولمبوس الاولى (شباط ١٤٩٣) التي ترجمت الى اللاتينية وطبعت في رومـا ، وبال (١٤٩٤) ، وستراسبورغ (١٤٩٧) ، ودخلت فرنسا والمناطق المنخفضة ، قد بقيت شبه مجهولة تقريباً ، في حال ان احدى رسائل « امريكو فسبوشي » حول رحلته الثالثة (١٣ ايار ١٥٠١ حتى ٧ ايلول ١٥٠٢)، التي نشرت في باريس

ثم في ستراسبورغ في السنة ١٥٠٥ ، عرفت اوسع انتشار بين روايات الاسفار. في السنة ١٥٠٧، اوعز « وولد سيمولر » ، في أعقاب ظهور كتابه « علم الفلك » ، بطبع روايات اسفار امريكو فسبوشي الاربع وباعتماد اسم امريكا للاراضي الجديدة .

الا ان سلطة بطليموس قد اخرت التقدم . فعلى الرغم من ان البحارة قد أثبتوا ان خط الاستواء يمر في البحر جنوبي غينيا ، عند وولد سيمولر و « شونر » وغيرهما في احلال غينيا جنوبي خط الاستواء لأن بطليموس ، الذي جهل خليج غينيا ، قد أحل خط الاستواء في البر . وكان هنالك شبه قطيعة بين البحارة المتهنين والعلماء . ولم يسلم هؤلاء الا تدريجياً بقيمة ما شاهده البحارة بأم عينهم .

وأعاقت سلطة الدولة بدورها انتشار المعارف . فقد رغب الامراء في حفظ سر الاكتشافات . وقد حظر في البرتغال ، تحت طائلة الاعدام ، كشف النقاب عن الخرائط التي وضعها رواد العوالم الجديدة . وحتى في البر الاوروبي ، عارض منتخب ساكس ، « جان فردريك » ، نشر خريطة للساكس . وكان من الضروري ، لمصلحة الدفاع ، ان يبقى علم وضع الخرائط سلاحاً سريا في ايدي الامراء . ولكن الحكومات العدوة قد لجأت الى الرشوة واستحصلت على الخرائط بمبالغ طائلة ، وكان البحارة الايطاليون الذين ينتقلون من خدمة دولة الى خدمة اخرى ، ينقلون خرائطهم معهم .

يضاف الى ذلك أخيرا ان التعليم الذي اعتمد في جوهره على تفسير مؤلف مكرس مقرر كـ « بحث في الكرة » لـ « ساكرو بوسكو » ، الذي حرر في القرن الثاني عشر، او « النظريات الجديدة في السيارات » لـ « بورباخ » (١٤٦٠) ، قد تسبب في نوع من الشلل .

بيد ان الاكتشافات قد ذاع خبرها . ففي السنة ١٥١٣ ، انكر « ستوفلر » في محاضراته التدريسية التي القاها في « توبنجن » ، وجود منطقة حارة يستحيل اجتيازها . واكد استدارة الارض وواقع التقابل بين جهات الارض ، باسم اختبار البحارة. وبعد الرحلة الدائرية التي قام بها « ماجلان » و « سيبستيان دل كانو » مرورا بمضيق ماجلان ، والفيليبين ، حيث قتل ماجلان، ورأس الرجاء الصالح (١٥١٩ — ١٥٢٢) ، اظهرت الكرات التي صنعها شونر في السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٣٣ ، قارة اميركية مغلوطا في رسمها ، ولكنها متميزة عن آسيا .

اخطار الاسفار البحرية

تحلى الرجال الذين القوا بانفسهم في البحار ببسالة نادرة جداً . فقد شاعت روايات مرعبة كثيرة : عند خط الاستواء توجد منطقة مياه غالية ، وحجارة مغناطيسية تجتذب السفن الى قعر البحار ، وحيوانات مخيفة غريبة تترصد السفن والبحارة . أجل لقد خفت وطأة الذعر مع الاختبار ، ولكن الاخطار الحقيقية قد بقيت : العواصف ، والامواج العاتية التي يبلغ ارتفاعها ارتفاع مسكن مؤلف من ست طبقات في رأس الرجاء الصالح وتهدد بابتلاع السفن الخشبية الصغيرة ، واخطار المجاعات في اسفار بحرية غير

التغلغل بعيداً في افريقيا السوداء . وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الغـابات في الغينيه ، المطلة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جماهير غفيرة ضخمة على الوثنيـة ، بين سكان مقاطعة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الارواح ، مراكز مقاومة تحد من تقدم الاسلام في تلك البلاد .

اما في آسيا ، فقد تابع الاسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والافاويه . فقد عمل سلاطين ترنات وتيدور على نشر الدين الاسلامي في جزر المولوسك . وحمل دعـاة الاسلام ، سكان جزيرة مندناو ، احدى جزر الفيلبين ، على اعتناق الاسلام. واضطر الاسبانيون الى اغراق السفن الاسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقـة ، ان تعرضت مصالحهم التجارية للاذى والخسارة ،للحؤول منهم دون تغلغل الاسلام ، الى جزيرة لوسون التي ألفت الحصن الامامي للحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكمبوديا،راح المسلمون من الملايو بعد ان كانوا يلتزمون جباية الضرائب والرسوم،يزاحمون بشدة الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتغاليون وفرنسيون ، وتوصلوا ، عام ١٦٤٢ ، الى حمل رهاما ديبـاتي ، ملك كمبوديا ، وراماتو بداي تشام ، ملك تشامبـا ، على اعتناق الاسلام .

اما الصين . فلم يقم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون اخـذ عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخـامس عشر كان الدرويش علي اكبر يعتريه الذهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من إزدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا بـه من نفوذ . فقد كتب ما يلي : « تدل بعض تصرفـات الامـبراطور على انه اعتنق الاسلام سراً الا انه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الاتراك ان يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الاسلام .

اما في اوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الاسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حتى ان المسلمين اطلوا على ابواب فيينا ، اذ ان اعداداً كبـيرة من رعايا الشعوب التي غلبت على امرها ودالت دولها للاتراك ، راحوا يعتنقون الاسلام ، كما ان عدداً محترماً من الاوروبيـين نزحوا ليقيموا بين المسلمين ، في السلطنة العثمانية ، او في بلدان شمالي افريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ – ١٦٤٨ اسلاميـة بكامل سكانهـا ، في مقاطعة رودوب الجبلية والبانيا وجزيرة أوبيه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيـا وتساليا ومولدافيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين ان الناس كانوا يقبلـون على الاسلام بعشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وان اعداداً كبيرة من النازحين والاسرى والهاربين كانوا يعتنقون الاسلام وينصرفون للعيش بين المسلمين . فالحاميات الاسبانية في افريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقليـة وكالابريا وجنوى والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تغص بركابها ، قاصدين شمالي افريقيا كانوا مرشحين لاعتنـاق

الكتاب الأول

أوروبا والعالم القديم

الفصل الأول

الحضارات البلدية عند قدوم الأوروبيين

تحقق الفتح الاوروبي على ايدي اعداد قليلة من الرجال . ويرد ذلك الى ان الاوروبيين قد وجدوا امامهم شعوبا ما زالت في مختلف مراحل العصر النيوليتي وعصر النحاس واوائل عصر الشبه وافتقرت افتقاراً يكاد يكون كليا الى الحيوانات الاليفة ، ولا سيما الى حيوانات الركوب والجر ونقل الاحمال ، وافتقاراً كليا الى العجلة والحديد . انتسبت هذه الشعوب كلها الى الجنس المعروف بالجنس المغولي والمتميز ببشرة متفاوتة الصفرة ووجنات ناتئة وشعر اسود واملس . ويغلب على الظن ان هذه الشعوب متأصلة من العالمين الماليزي والبولينيزي في آسيا ، وقد انتقلت منها الى اميركا ، كما نرجح ، عن طريق مضيق « بهرينغ » ، والجزر الاليوسية ، واوستراليا والقطب الجنوبي ، في عهد غير معروف ، قبل العهد الميلادي . وكانت قلة عند قدوم الاوروبيين لا يتجاوز عددها الخمسين مليونا في كل القارة الامركية ، وقد توزعت على غير تساو في مناطق القارة المختلفة . وكانت قد بلغت مستويات حضارية على كثير من التفاوت . ففي الوسط ، اي في المكسيك والمضيق الاميركي والبيرو ، وجدت دول حقيقية كثيفة السكان . وقد تعلق هؤلاء بالارض وعاشوا من الزراعة واسسوا المدن . اما الى الشرق من جبال « اندس » والى الشمال من نهر « ريو لرما » في المكسيك ، فقد عاشت قبائل من القناصين والقطافين والصيادين عيشة بدوية او شبه بدوية ومارست احيانا زراعية بدائية متناثرة جدا : ولعل سكان اميركا كلها ، الى الشمال من نهر « ريو غرانده دل نورته » ، لم يتجاوزوا خمسمائة الف نسمة . وجلي ان النتائج

جاءت مختلفة جداً . ففي الوسط وفي جبال « اندس » ، حل الاسبانيون محل الطبقة الحاكمة ونشأت حضارة مختلطة سيطر عليها الطابع الاوروبي ، وفي الشمال رفض البلديون مبدأ الانصهار واعلنوا على الاوروبيين حربا شعواء لا هوادة فيها، في جزر الانتيل والى الشرق من جبال اندس، تعرضوا خلالها للتقتيل والافناء فلجأوا الى الغابات العميقة النائية. الحضارات الاميركية عديدة جداً وتاريخها متطاول في الزمان . ولكننا لن نتكلم هنا ، وبايجاز ، الا عن اهم هذه الحضارات عند حدوث الفتح .

١ - حضارات العهد النيوليثي

في البدء وجد الاسبانيون في جزر الانتيل منذ السنة ١٤٩٢ ، ثم في اليابسة بين نهر «داريين» ومصب الاورينوك منذ السنة ١٤٩٩ ، والبرتغاليون في البرازيل منذ السنة ١٥٠٣ ، والفرنسيون في كندا منذ السنة ١٥٣٣ ،والانكليز، امام شعوب مستوياتها التقنية متدنية جداً تقابل مراحل تخطاها الاوروبيون منذ زمن بعيد : لا نستطيع تعدادها كلها والتعمق في درسها . بل نكتفي بتقديم بعض الامثلة فقط .

الالغونكيفيون

في اسفل مستويات سلم التقنيات ، نجد شعوباً لا تتعاطى سوى القنص والصيد ، كالالغونكيفيين ، او الشعوب التي تتكلم الالغونكيلية . تقسمت هذه الشعوب الى فروع عدة . ففي اكاديا ، وفي ما يعرف اليوم بـ « برونسويك الجديدة » ، انتشر الـ « واناباكي » : « ميكماك » ، « ابيناكي » ، « ماليسيت » ، « باساكوامودي » ، « بينوبسكوت » ، « قوفنوك » ؛ وفي لابرادور : « مونتانييه » ، « وتاسكابي » ؛ وبين نهر « سان لوران » والبحيرات الكبرى : « الالغونكينيون » بحصر الاسم ؛ في شمال البحيرة العليا : « اوجبوا » ؛ في جنوبي خليج هدسون : « كريبه » . وحين دخل « جاك كارتيه » في السنة ١٥٣٤ الى خليج « ميراميشي » ، احاط بسفينته على الفور عدد غفير من زوارق الميكماك . ونحن مدينون بالكثير مما نعرفه عن هذه الشعوب لتقارير الآباء اليسوعيين ومذكرات ورسائل تجار الفراء ومراسلات الضباط الملكيين الادارية .

باستطاعتنا ان نقدم الميكماك مثلاً عن الالغونكيليين . استقروا في اكاديا حتى رأس « غاسبيزيا » وفي الارض الجديدة، ولا سيا في المنطقة المحيطة بـ « خليج الفرنسيين » (خليج « فوندي») . اوصلتهم رحلات القنص والصيد والتجارة الى «تادوساك» على نهر «سان لوران» . وقد وجدوا في جزيرة « انتيكوستي » ايضاً ، وغالباً ما صعدوا في حملاتهم على طول شواطىء لابرادور . تراوح عددهم بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ في الارجح . اقاموا في منطقة بحيرات وخلجان تحيط بها احراج السنديان والدردار والجميز والصنوبر واشجار القضبان . وفرة قنيص : الايل ، الدب ، الدلدل ، السنجاب ، الارنب ، القندس، البط ، الاوز . ووفرة اسماك . كان الميكماك

اصحاء البنيـــة ، اقوياء ، اصغر شكلا من الاوروبيين ؛ وتميزوا بعيونهم السود وشعرهم الاسمر ولحيتهم الفئة . عولوا في معيشتهم على القنص والصيد وانتقلوا انتقالا موسمياً من منطقـــة الى اخرى . ففي الربيع والصيف وأوائل الخريف يقيمون على مقربة من الانهر وعلى شاطىء البحر. وفي اواخر الخريف وفي الشتاء ينكفئون الى الغابات ، وفي كانون الثاني يقصدون صيد الفقمة . وفي شباط وآذار يقتنصون القندس والدب والوعل . وفي منتصف آذار يصطادون الاسماك في النهر لانها اذ ذاك تملأ مياهه . وفي اواخر نيسان يكثر الرنك والحفش والحوت والبط الكبير . وبين ايار وايلول تغزو الاسماك مياه الشواطىء . وفي اواسط ايلول يصعد الميكماك الانهر مـع السلور . وفي تشرين الاول وتشرين الثاني يقتنصون الوعل والقندس مرة اخرى . وفي كانون الاول يبحثون تحت الجليد عن اسماك « بوتامو » ويجدون عدداً وافراً من الرقوق الصغيرة .

استخدم هؤلاء الهنود السكاكين والفؤوس والمحاك المصنوعة من المرو والصوان. واستخدموا كذلك خطاطيف خشبية ذات رأسين وصنانير عظمية واشباكاً من اغصان محبوكة قد تبلـغ ٦٠ متراً طولا . وصنعت اقواسهم من اغصان الجرمشق . كما صنعت اوتارها من اطناب الحيوانات . وزودت سهامهم برأس عظمي . عرفوا اضراء الكلاب بالصيـد . ونصبوا الاشراك حتى للدب والايل . وعرفوا تمطين الجلود بتجفيفها تحت اشعة الشمس ، وصقلها بكبد الطير ، وبدلكها الى ان تصبح لينة كالاقمشة الصوفية . وصنعوا منها الاحذية والملابس والاكيـــاس . اتسعت زوارقهم المصنوعة من قشور الاشجار لِ ٥ او ٦ اشخاص بالاضافة الى الكلاب والاكياس ، وقد تراوح طولها بين ثماني وعشر اقدام . اقام الميكماك في الـ « ويغوام » ، وهــــو كوخ مخروطي الشكل مركب من مجموع قطع خشبية ، يبلغ عددها ١٦ او ١٨ ، ينحني بعضها نحـــو البعض الآخر ، وتغطى بصفائح من قشور الشجر . كان باستطاعة النساء ان يبنين الويغوام في اقل من ساعتين . كما كان باستطاعتهن نقضه ولفه وحمله على ظهورهن في اقل من هذا الوقت . عرف هؤلاء الهنود تدخين الاسماك واللحوم . جوفوا جذوع الشجر بالجمر والمناحت العظميـة وصنعوا منها القدور . صنعوا الاقداح بثني قشور الشجر وتخييطها بابر عظمية وخيوط مستخرجـة من الجذور . غزلت النساء وبر الوعل بمغزل من خشب الجرمشق وحكن منه الجوارب وزخـارف الملابس والزنانير والاساور والعقود ، وصبغنه صباغاً احمر او اصفر او اسود او ابيض . ونقش الرجال في العظم والخشب ، « لمجرد التسلية » ، الحيوانات ، والطيور ، والاشكال البشرية .

الفئة الاجتماعية الاساسية هي الزمرة المؤلفة من عدة عائلات تنتقل مجتمعة من مـــكان الى آخر . يسود العائلة مبدأ تعدد الزوجات . للقادة زوجات كثيرات يؤمن لهم اليد العاملة وينجبن المحاربين . المحاربون العاديون يكتفون بامرأتين او ثلاث . اعتبر الزواج شأناً عائلياً . ولكن الفتاة لا تكره على الزواج . الخطيب يعيض الوالد من خسارته بان يعمل في خدمته سنـــة او سنتين . يتمتع الزوج بسلطة كبرى . وغالباً ما تتعرض النساء للضرب ، وتسند اليهن الاعمال دائماً : بناء الزوارق ، دباغة الجلود ، صنع الالبسة ، اقامة الويغوام ، نقل الاحمال ، تزويـــد

المحاربين بالسهام اثناء المعارك ، ولكنهن يتصرفن بحرية في منازلهن ويأكلن كل ما يشتهين . نظام الويغوام صارم جداً . لكل فرد مكانه الذي يحدده التقليد . تفصل النار بين الفتيان والفتيات ويحظر عليهم تبادل اطراف الحديث . اضف الى ذلك ان هذا التبادل محظر على كافة فتيان وفتيات الزمرة .

لكل زمرة رئيسها ، « ساغامو » ، او « الرجل القوي » . ينتخب مدى الحياة ، تارة من بين المحاربين الاكفاء ، واخرى من بين ابناء الرئيس الراحل ، ابتداء بالبكر . تخضع لكل رئيس عائلتان على الاقل وخمسة عشر عائلة على الاكثر . يحدد لكل منها دورياً مكان للصيد . يفصل في الخلافات ولكنه يحكم في الجرائم الهامة بالاشتراك مع المجموع . الاغتيال والاغتصاب يُصَفّيان بالثأر والانتقام . الرئيس يشرف على صنع الزوارق وترويض الكلاب على الصيد وتخزين المواد الغذائية . يجمع حوله شباناً ورجالا لاعائلة لهم ويغذيهم ويؤلف منهم حرسه الخاص وقوته الضاربة .

الحروب كثيرة وتعلن انتقاماً للشرف . خير الصفات الشجاعة . مطمع المحاربين هو اثبات بسالتهم وفرض هيبتهم . يقرر اعلان الحرب بعد خطب طويلة ويعلل بحجج مختلفة اكثرها وروداً اهانة القبيلة او مسبة احد الاجداد . تبتديء برقصات حربية ، وممارسات سحرية : الحرب سلسلة من المفاجآت والمكامن والغارات الليلية . يسحل الظافر رؤوس المهزومين او يقطعها حتى يعود باشعرة الغلبة . يشد الاسرى الذكور الى جذوع الاشجار وترقص نساء المنتصرين من حولهم موجهة اليهم الشتائم ، ثم يقطعون اربا اربا . اما مصير نساء المغلوبين واولادهم فالعبودية . في سبيل ضمان الوحدة ضد الـ « ايروكوا » ، تألف اتحاد من قبائل الـ « واناباكي » كان يعقد مؤتمرات منظمة تتخللها الاحتفالات الرمزية .

ان الطبيعة ، في نظر الميكماك ، نسخة عن الحياة الاجتماعية ، او مجتمع كبير من الارواح الخفية ، المماثلة لروح البشر . يعبدون الشمس وزوجها ، القمر . ترفع القبيلة صلواتها الى الشمس كل صباح ومساء وتشكر لها انعامها بالوجود على الرجال وتوفيرها الغذاء لهم ، وتمجد عظمتها وجمالها ، وتلتمس منها منحهم قنيصاً وفيراً والتغلب على الاعداء ، واخصاب نسائهم . لكل رجل نفس هي كالصورة عن ذاته . تسبقه في الوجود ، وتستطيع على مرور الزمن ان تكون عدة اشخاص على التوالي . كل نفس تعيش بعض الوقت ، بعد الممات ، حول ويغوام العائلة وتقتنص ارواح الحيوانات بارواح الاقواس والسهام . لذلك يوارى الميت التراب مع اسلحته وادواته . الروح تأكل ارواح الاطعمة . لذلك يحتفظ بحصتها من كل الوجبات . في يوم غير معروف تنتقل الى بلاد الارواح ، نحو الغرب، وتستطيع ان تبلغ ، بعد محن كثيرة ، ارضا سعيدة تعيش فيها حياة هانئة وتأكل ما يطيب لها اكله وتقتنص لمجرد التسلية .

لكل ما في الطبيعة روح اشبه بطيف يستطيع ، الى ما حد له ، اعطاء صورة الى مواد

جديدة . تخيل الهنود الانواع الحيوانية على صورة القبائل البشرية ، وتخيلوا لكل منها لغته الخاصة . الحيوانات الهرمة لا تموت بل تتحول الى انواع اخرى . الوعل الهرم يصبح حوتاً والعكس بالعكس، وهذا ما يفسر تشابه لحوم الوعل ولحوم الحوت . القندس يصبح ارنباً أسود لان هذا وذاك هما الحيوانان الوحيدان اللذان يشعران بالصياد من مسافة بعيدة ويهربان قبل ان يقرب منهما . السنجاب يتحول الى ثعبان لان الثعابين تكثر حين ينـدر السناجب والعكس بالعكس . ولما كانت للحيوانات ارواحها ، باتت الحيطة امراً ضرورياً ، لان هـذه الارواح سريعة الانفعال على غرار الهنود ، ولذلك يجب الا يلقى بعظام الوعل الى الكلاب ، اذ ان روح الوعل الميت تذهب وتخبر الوعول الحية التي لا يمكنها ان تغتفر الاهانة ، فيصبح القنص عملية غير مثمرة باعتبار ان القنص هدية القبيلة الحيوانية للقبيلة البشرية .

ان هذا العالم غير المنظور لاعظم شأناً الى حد بعيد من العالم المادي المنظور . فما هو السبيل الى الاتصال بهذه النفوس او الارواح يا ترى ؟ ان هذا الاتصال يتم بواسطة الانسان الذي ندعوه « شامان » ، اقتباساً من تعبير نقله قوزاق بطرس الاكبر عن الـ« تونغوز » في سيبيريا . لقد توصل الشامان ، بفضل الايمان والصلوات الطويلة والاخلاق الطاهرة ، لان يضمن لنفسه حماية احدى الانفس التي بفضلها يعرف كل ما يجري في عالم الارواح ويستطيع التأثير عليها . وهكذا فانه يعرف المستقبل ويبدي رأيه في قيمة مخطط حربي ويستمطر الغيوم للحيلولة دون وصول العدو او يحدث الجفاف تمهيداً لهجوم قبيلته . يعرف اين يتوفر القنيص . يرئس في بـدء كل سنة احتفالات انبعاث التجديد التي بدونها قد تتوقف اعمال الطبيعة . يحـول دون مجيء انفس الاموات لتعذيب الاحياء . يؤمن لكل هندي روحاً حامية . يشفي المرضى باستحضار روحه الحامية التي تطرد الارواح الشريرة ، اذا كان الناس كلهم مؤمنين . يحول جلد حيوان يبسطه امامه الى حيوان حي يتقدم ويطلب الاكل . يطفىء مشعلا من مسافة بعيدة ويجعل الماء يغلي بمجرد النظر اليه ، ويخلص نفسه دفعة واحدة من القيود التي يكون موثقاً بها . انه نبي يجترح المعجزات .

ولعل هؤلاء الهنود آمنوا بقوة كبرى محبة للانسان، كلية الوجود في الطبيعة، هي الـ «مانيتو» ولعل هذا الايمان وصل اليهم عن طريق المسيحيين .

ال « توبي – غواراني »

وفي مستوى اعلى ، اي في درجة الزراعة المتنقلة في الاحراج المحرقة، وجد ، في جزر الانتيل واميركا الجنوبيـة ، الـ « اراواك » الودعاء الهادئون الذين صادفهم كولومبوس ، والـ « توبي – غواراني » . توزعت قبائل هؤلاء بين فنزويلا و « ريو ده لا بلاتا » . وان من نعرف اخبارهم هم الـ « توبينمبا » الذين استوطنوا ، في القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر ، الشاطىء الشرقي من القارة الاميركيـة بين مصب الامازون ومصب « ريو ده لابلاتا » . وقد وصلت الينا اخبارهم بواسطة مؤلفات « توفيـه »

الذي قام برحلتين الى البرازيل (١٥٥٠ – ١٥٥٤) ، ومؤلفات البروتستانتي «ليري» ، رفيق «فيلو غينيون» ، وكتاب المرسل البرتغالي «كاردين» الذي تكلم عن الطقوس والعادات ، وكتب المرسلين الفرنسيين «كلود دابفيل» (١٦١٤) و «ايف ديفرو» (١٦١٣ – ١٦١٤) ورسوم الهولندي «اكهوت» التي صورها في البرازيل في السنة ١٦٤٣ ، ومستندات كثيرة اخيراً حول خصوصيات هذه الشعوب .

كان التوبي – غواراني في مرحلة نيوليتية متخلفة عن المرحلة التي بلغها الـ «مايا» . جهلوا المعدن باستثناء الذهب الذي روجته التجارة . استعملوا فؤوساً من حجر ازرق – اسود ، ذات حد نصف مستدير ، تصنع ليلاً كل شهر في اليوم الاول من الهلال . نساؤهم وبناتهم يرقصن ويغنين اثناء العمل امام القمر . وقد اعتقدوا انهم بتصرفهم هذا لن يمنوا بهزيمة . وصنعوا سكاكين حجرية . واستخدموا اسنان بعض القواضم للقص والثقب . كما استخدموا محارة الحلزون الكبير للنحت والصقل . وصنعوا الصنانير من الاشواك المعقوفة . ولم يكن لديهم من ادوات زراعية سوى الحربة المصلبة بالنار .

كان القوس سلاحهم المفضل . واستعملوا كذلك اقواسا كبيرة ذات اوتار قطنية ونبالا قصبية طويلة مزودة برأس من العظم او سن الكوسج او ذنب الشفنين البحري . وعرفوا الـ «بولاس» ، وهي كرتان تزود بها سيور جلدية وتقذفان بحيث تلفان السيور حول حوامل الحيوان او الانسان المطارد . واستخدموا للدفاع عن انفسهم تروسا مستديرة مصنوعة من جلد التابير او الخشب الخفيف او قشور الشجر . ولم يجهلوا النار التي كانوا يشعلونها بتدوير مثقب صلب في خشب طري . وجوفوا جذوع الشجر اوْ لجأوا الى قشورها لصنع الزوارق التي اتسعت لثلاثين او ستين شخصاً والتي كانوا يجذفون فيها وقوفاً . وقد كانوا بحارة مهرة . ولم يكن لديهم حيوانات للركوب والجر او التغذية الكبرى .

وفرت لهم الزراعة تغذيتهم الاساسية . مارسوا الزراعة المتنقلة في الاحراج المحرقة . زرعوا المنيهوت والذرة الصفراء والقلقاس الهندي والفاصوليا والفول السوداني والقشطة والفلفل والتبغ والموز وقصب السكر . كما زرعوا الاشجار المثمرة ، البلاذر والعنباء ودبّاء الهند والقرع . واضافوا الى ذلك حصيلة القنص والصيد .

كانوا يسمنون نساءهم ويجزرونهن في الوقت اللازم ، ويلتهمون العدو الذي يهوي ارضاً ، ويسمنون الاسرى للمآدب الكبرى ، ويسكرون بعصير القشطة والمنيهوت المختمر . واستعملوا المخدرات : لفافات التبغ الطويلة ، وغبار الـ «باريكا» ، ومعجون الـ «غوارانا» .

أقاموا في قرى محاطة بسياج من اوتاد تتخللها المنافذ وتنصب امامها الافخاخ . وضمت القرية بين ٥٠٠ و ٦٠٠ شخص موزعين على بيوت يتراوح عددها بين ٤ و ٧ وتختلف قياساتها بين ٥٠ و ٢٠٠ م طولا و ١٥ و ١٦ م عرضا ، هيكلها خشبي وعقدها بشكل نصف دائرة ،

يغطيها سعف النخيل او قشور الشجر . كان البيت الواحد يؤاوي بين ٥٠ و ٢٠٠ شخص ، وهو اشبه بـ « جينوس » اغريق هوميروس وبـ « جنس » الرومان الاولين . وكان هنالك نادٍ للرجال . وكانت القرية تنقل من مكانها مرة كل خمس او ست سنوات بسبب المزروعات . ضمت مفروشات البيت الاسرة المعلقة والمناصب الخشبية والخزفيات والزنابيل والمناخل ومباشر ومعاصر المنيهوت والهواوين المحفورة في جذوع الشجر ، والعلب المصنوعة من بيوت السلاحف . ولم يعتبر الفتيان يافعين الا بعد مرحلة تدريب تشمل درس الدين وتقاليد التكتل التاريخية . وكانوا خلال هذه المرحلة التي تسبق المراهقة يُفصلون عن بنات حواء ويتلقنون الدروس في نادي الرجال ، وهذا ما ساعد على انتشار السحاق واللاوطة . وكان تعدد الزوجات شيئاً مألوفاً وقد درج عليه الرؤساء بصورة خاصة . ولكن الازواج من الجنسين غالباً ما كانوا يستبدلون ازواجهم .

سار التوبي – غواراني حفاة في اغلب الاحيان . ولكن النساء عرفن غزل الحبال والاسرّة المعلقة والمخدمات وتعلمن من الارّواك بعض مبادىء الحياكة . وصنعن الوشائح والوزرات.

تزين التوبي بالارياش الملصقة بالجسم بواسطة الراتينج او العسل . واعتمر الرجال قبعات من الارياش الخضراء والحمراء والصفراء والزرقاء وحملوا تيجاناً وعقوداً واساور ومخدمات من ريش واطاراً كبيراً من أرياش النعام على الاليتين . وحصر في الرجال تزيين الشفتين وتعليق المطيات بالانف . وحملت النساء الاقراط وأساور كبيرة من العظم الابيض أو الاصداف .

درج كلا الجنسين على تنتيف الشعر حتى الاهداب والحواجب. وسبد الرجال شعرهم بشكل نصف قمر في القسم الامامي من الرأس . ودرج كلا الجنسين كذلك على تزيين الجسم والوجه بخطوط مستقيمة وخطوط حلزونية وخطوط مموجة زرقاء وصفراء وسوداء وحمراء ، اي انهما درجا على التوشم .

ديانة «التوبينمبا»

فسر التوبينمبا كافة الظواهر الطبيعية واصل الاشياء ومصير الانسان بروايات خرافية تتدخل فيها كائنات مماثلة للانسان اعظم قوة منه رأوا في عواطفها وأهوائها وآرائها تأويلا لكل شيء . اعتقدوا بوجود الروح في كافة الاجسام الحية ، ولكنهم كانوا آخذين في التطور نحو القول بتعدد الآلهة .

ان « مونان » ، الكائن الذي لا نهاية ولا بداية له ، قد خلق السماء والارض والبشر. عاش بين الناس ولكن الناس ازدروا به. عند ذاك انزل مونان عليهم نار السماء. خلص رجلا واحداً، هو « ايرين – مايه » ، واعطاه امرأة كي يعمر الارض مرة اخرى . من « ايرين – مايه » انحدر كافة البشر ونبي او « كرايبيب » ، هو « ميرمونان » ، المقرب الى مونان المعظم ، الذي علم البشر سير القمر والشمس ، وخلود النفس ، والزراعة ، وتنتيف الشعر ، الخ . ولكنه حوّل الاشرار الى بهائم . وحين نفروا منه أحرقوه على كومة من حطب ، فانشق رأسه

محدثاً صوتاً فظيعاً، وكان ذلك مصدر البروق والرعد. ترك « مير-مونان » ابنا هو «سوماي» . رزق هذا الاخير توأمين ، « تامندوار » ، الفلاح ، و « اريكونت »،المحارب. اهان اريكونت تامندوار الذي اغتاظ وضرب الارض ضربة قوية جعلت الماء ينبجس منها . فكان الطوفان . غرق كافة البشر باستثناء الاخوين وامرأتيهما .

من تامندوار انحدر التوبينمبا ومن اريكونت الـ « تومينو » ، الذين يتحاربون تحاربا دائماً.

آمن التوبينمبا بالحياة الثانية وبتجسد الاجداد مرة ثانية في الولد وبرحلة طويلة وسلسلة من الامتحانات قبل بلوغ منطقة ستجد النفس فيها سعادتها الابدية . اما نفوس اولئك الذين انتقموا الانتقام الحسن واكثروا الاكل من لحوم أعدائهم فستذهب الى ما وراء جبال مرتفعة، الى متنزه تكسوه الاحراج ، قرب مونان ، حيث يرقصون ويبتهجون ابتهاجاً دائماً .

خشي التوبينمبا الجن والشياطين والارواح ونفوس الموتى التي تسبب الزوابع والعواصف والامراض والجفاف والهزيمة في الحرب والحوادث الطارئة والخدورات . درجوا على تطييب خاطرها بتقادم زهور وأرياش . وحموا أنفسهم منها بمشاعل أو نار تحت السرير المعلق تخاف الارواح منها خوفاً كبيراً . وكلما تعرضت صوالح القبيلة للخطر ، احتسوا المشروبات المخمرة ثلاثة او اربعة ايام متتالية . فتحركهم اذ ذاك حمية وحشية يعتقدون تحت تأثيرها انهم يتصلون بالقوى غير المنظورة . ويحدث خلال هذه الايام انفلات جنسي لا يعرف حداً .

وكان لدى التوبينمبا سحرة محترمون جداً .

وكانت الحروب دائمة بين القبائل . الاسرى يؤكلون . وتقوم هذه الشعوب بنزوحات كبرى دافعين بالمهزومين امامهم . وكان التوبينمبا قد توصلوا في اواخر القرن الخامس عشر الى طرد الـ « توبينا » الى داخل البلاد والحلول محلهم على شاطىء البحر بين مصب «سان - فرنسسكو» و « كياميا » .

التطورات حين وصول الاوروبيين

عند وصول الاوروبيين ، كان التوبينمبا في طريق التطور نحو الوثنية وعبادة الاصنام . ينصبون في مداخل القرى اوتاداً مزدانة باوتاد صغيرة رسم عليها رجال عراة . وينحتون في القرع شكل اوجه بشرية ويعتقدون ان الارواح تقيم في هذه الاشكال . ويصنعون اصناماً من الشمع او من الخشب . ويحرصون على ان تكون لكل عائلة قرعتها ، « ماراكا » ، الملأى بالحبوب او الحصا . ويتخيلون ان صوت الحصا والحبوب هو صوت احد الارواح . ويسأل التوبينمبا الماراكا عما تريد . وتقرر الماراكا الحرب او السلم، وتشكر لها الانتصارات بالاناشيد والرقصات .

انتشر الايمان « بالارض التي لا موت فيها » . وتنبأ الرقاة والسحرة بنهاية العالم . فاقتضى من ثم البحث عن ارض امينة تنمو فيها المزروعات وتقلب الجارف الارض تلقائياً وتجدد

النساء المسنات صباهن . ادى وصول البرتغاليين والحروب والمذابح الى تعزيز هـذه الاعتقادات وتسببت في نزوحات جديدة اهمها نزوح السنة ١٥٤٠ . اتجهت احدى قبائـــل التوبينمبا نحو المغرب ، بقيادة ساحر ، بحثاً عن « ارض الخلود والراحة الابـدية » . كان افرادها عشرة آلاف، فوصل منهم ٣٠٠ الى البيرو في السنة ١٥٤٩ حيث اسرهم سكان « شاشابوياس » . وتكلم الهنود عن بلاد خرافية ، هي مملكة الـ « اوماغا » ، حيث كل شيء حجارة كريمـة وذهب . وهكذا تعززت اسطورة الـ « ألدورادو » .

لم تكن الحضارات البلدية هنا ادنى من حضارات الاوروبيين فحسب ، بـل كانت في تقهقر وهبوط ايضاً ربما بسبب الحروب الدائمة بين القبائـل ، وربما بسبب تطور طبيعي في المفاهيم الدينية . فان التأثر الذي بعثه وصول الاوروبيين ، اولئك المسوخ الغريبة ، قد عزز على الفور الايمان بانقلاب العالم ونهاية الازمنة وحياة جديدة ، كما عزز نوعاً من الايمان بمهدي آت ، ولعـله تسبب في انحلال اخلاقي واجتماعي .

الايروكيـون

وبلغ ايروكيو اميركا الشمالية درجة اعلى من درجـات الحضـــارة النيوليتية . ونقصد بالايروكيين هنا الشعوب التي تكلمت اللغة الايروكية « ايروكوا » ، « هورون »،« نوترال » ، « توباكو » .احتل الايروكوا جنوبي بحيرة« ايريه » وبحيرة « اونتاريو » واعالي نهر « سان لوران » حتى مسيرة يومين الى الجنوب من « مونريال » وحتى النهر هودسن » . والايروكوا اقوام من قدامى القناصين والصيادين اتوا من كولومبيا في الارجح عن طريق وادي نهر « مسيسبي» حيث يعتقد انهم تعلموا الزراعة. واستقرت بعض فروعهم ابعد الى الجنوب ، الـ « شيروكي» في جنوب جبال « السفاني » ، والـ « كونستاغا » والـ « سوسكهنا » ، في وادي سوسكهنا ، والـ « توسكارورا » في كارولينا الشمالية .

بقي الشطر الاكبر من الايروكوا قناصين وقطافين ، ولكن زراعةالذرة الصفراء ، بالاضافة الى زراعة الفاصوليا والجلبان والفول والبطيخ الاصفر ، قد لعبت دوراً متزايد الاهميـة واخذت تحتـل المركز الاول في اواخر القرن السادس عشر . فقـد امتدت حـول قرى الـ « اونونداغا » على ثلاثة او اربعة كيلومـترات ، حقول واسعة مزروعة بالذرة الصفراء . اتاحت الذرة الصفراء للهورون احتياطياً غذائياً يكفي لثلاث او اربع سنوات وفائضـاً معداً للبيع اشتروا باثمانه الفراء والزوارق من الالغونكينيين ، والاصداف الصغيرة المستخدمة نقوداً من قبائل الشاطىء .

الادوات شبيهة بأدوات التوبي - غواراني ولكن طريقة الزراعة طريقة فضـلى . فنحن هنا امام زراعة متناوبة غير متنقلة . الايروكوا يبقون بين عشر سنوات واثنتي عشرة سنة في المكان الواحد ، ما دامت التربة قادرة على الانتاج . زد على ذلك انهم يعرفون طريقة اراحـة الارض ويلمون بعض الشيء بزراعتها ، دورياً ، ذرة صفراء وفاصوليا وفولا . مرتكز التغذية

ال « ساغاميتيه » وهو حساء من الذرة الصفراء واللحم والسمك المجفف والفول والجلبان ؛ اما طعام المآدب الفاخر فالساغاميتيه المطهية بلحم الدب والقلقاس الرومي وزيت الجوز .

الاعمال كلها تنجز وفاقاً لثنوية جنسية . فالايروكوا يقسمون فئات يوزع العمل في كل منها على فريقين ، فريق النساء للزراعة ، وفريق الرجال للقنص والصيد . الجنسان يتبادلان المساعدة ، ولكن الادارة للنساء في العمل الزراعي والسلطة للرجال في القنص والصيد . ينجز العمل كله جماعياً في نطاق الفئة . توزع الفئة الاراضي للزراعة على كل عائلة . ولكن عندما يحين زمان الزرع ، تجتمع النساء وينتخبن احداهن رئيسة عمل عليهن ، ويذهبن ليزرعن تلم ذرة صفراء في حقول احدى العائلات ثم تلم ذرة صفراء في حقل عائلة اخرى وهكذا دواليك الى ان تزرع كل الحقول . ويجري الشيء نفسه في ايام الحصاد . والقنص شأن من شؤون الفئة ايضاً .

سيطرت على آراء الايروكوا في الطبيعة ثنوية في طريقة الولادة عند الضرعيات . فقد تقسمت كل الطبيعة الى ذكر وانثى . الرجل ذكر ويتمتع بالقوة . وذكور كذلك هي الشجرة والسماء والنسر والقندس والشمس الشارقة واللون الاحمر والشمال الذي يأتي منه الجليد ، والزرقة ، لون الجليد ، والصلابة . اما الانثى فصغيرة نسبياً وضعيفة ووديعة ، وتبكي . اذن فالمطر انثى ، والقمر الشاحب جداً بالنسبة للشمس ، والارض التي تولد كالأم ، والغرب الذي تأتي منه الامطار ،والسواد، لون الغمام المطر،والاخصاب ، والجنوب ، والبياض، اناث ايضاً .

ويمكن توزيع كل ذلك بشكل صليب يعين اربع مناطق من الكون

الحرب
الزرقة
الذكر
الشمال

الاخصاب — السواد — الانثى — الغرب + الشرق — الذكر — الحمرة — القوة

الجنوب
الانثى
البياض
السلم

ويتجمع الآلهة ، حيث يسيطر الآلهة الزراعيون ، وفاقاً لهذه المبادىء . فهم ليسوا من بعد كيانات مستقلة على بعض الايهام ، بل آلهة ذاتيين يؤلفون زوناً متسلسل السلطات . الاله الرئيسي هو « تارونيافاغون » ، اله السماء ، الذي ينظم الفصول ، ويسيطر على الارياح ويعلن عن رغائبه للبشر في الاحلام ، ويصيب الذرة الصفراء بالصرّ اذا كان غاضباً ، انه اشبه بجوبتير

ايروكوا . قرينتــه هي « اياتا هانتسيك » ، إلهة الارض والمرض والموت . حفيدهــا هو « جوسكيرا » اله التجدد والنمو في الحياة النباتية والحيوانية . فهو الذي خلق كل ما يقوم على الارض من بحيرات وانهار واسماك واحراج وقنيص وحقول وحصيد . وهو الذي يرسل المطر والحرارة ، والذي علم البشر فن النار . انه اله القيامة . يشيخ ويميل الى الزوال ، ولكنــه ما ان يبلغ الهرم حتى يعود شاباً، فتبدأ اذ ذاك دورة جديدة . نظيره هو توأمه ، « تاويسكارا » ، اله القوة التخريبية والصر والجليد ، الخ .

اما « اغرسكوي » ، الاله الشمسي ، فشفيع القناصين والمحاربين الذين يقدمون له حتى لحوم الاسرى وفاقاً لطقوس مماثلة لطقوس الـ « ازتيك » .

تتألف العبادة من ثمانية اعياد قانونية تشير الى تعاقب مراحل الحياة الزراعية . اعظمها اهمية عيد المزروعات وعيد الذرة الصفراء النامية وعيد الحصاد . تستلزم مراسم وطقوساً يحتفل بها كهنة معينون ، « حراس الايمان » الثمانية ، اربعة رجال واربع نساء .

يرتكز المجتمع الى الثنوية نفسها . وهو ذو نظام امومي تعطي الام فيه اسمها لأولادها . الاولاد هم اولاد الزوجة ويربون في عشيرة الام على يدي خالهم . الاب والام لا يعيشان معــاً تحت سقف واحد ، وانما تشارك الزوجة الزوج سريره مساء الى ان تصبح حاملاً . وعلى الرغم من ذلك فان الرجل ملزم طبعاً بتقديم الغذاء والكساء لزوجته واولاده . كما ان الامرأة ملزمة بتحضير الطعام ولوازم الصيد لزوجها . اما اذا تزوج رجل ينتمي الى عشيرة الذئب من امرأة تنتمي الى عشيرة الدب ، فيكون الاولاد من عشيرة الدب ويعيشون معها . ومن المسلّم به ، اذا هوجمت عشيرة الدب ، ان يبادر الزوج المنتمي الى عشيرة الذئب الى مساعدتها مع كل عشيرته ، بسبب التضامن الذي يسود العشيرة .

يشرف على ادارة العشيرة مجلس مؤلف من ثلاث نساء يخترن ابداً من العائلة نفسهــا ، ويعيّن لا بالانتخاب بل « بالاتفاق » في اعقاب مفاوضات طويلة . تنتخب هذه النساء الثلاث رئيس العشيرة ، او « ساشم » ، الذي يجب ان يكون ذكراً ، وابن شقيقة الرئيس المتوفي في اغلب الاحيان . يستشير الساشم مجلس النساء في الشؤون العامة ، ومجلساً من المحاربيــن في شؤون الصيد والحرب . وتعرض مقررات كل عشيرة على مجلس القبيلة ؛ وتضم كل قبيلة ثماني عشائر على الاقل ، ويتألف مجلس القبيلة من مستشارات كل عشيرة وساشمهـا . وتعرض مقررات مجلس القبيلة على مجلس الشيوخ المذكور الذي يتمتع بحق نقض مطلق .

ان قبائل الايروكوا الاربع ، منذ السنة ١٤٥٠ تقريباً ، وقبيلة الـ « موهوك » منذ السنــة ١٥٧٠ ، قد الفت اتحاداً . فتألف مجلس الاتحاد من كافة مجالس العشائر وساشم كل عشيرة . اما في الشؤون الخطيرة ، كالحرب مثلا ، فيجتمع شعب الايروكوا كله . تتفاوض النساء اولاً ويتخذن المقررات ثم يليهن الرجال . ثم يجتمع الرؤساء ويقترعون في كل قبيلــة . واخيراً

تقـارع كل قبيلة في الاتحـاد ، حيث يجب الاجماع . وجلي ان هـذه الانظمة اعطت الايروكوا تفوقاً كبيراً على هباء القبائل المنثور حولهم .

كان كافة هؤلاء الهنود في الدرجة الدنيا من سلم الفكر البشري. فكان العالم في نظرهم سحراً اكبر يستطيع كل شيء فيه مبدئياً ان يؤثر على كل شيء بتشابهات وتلامسات سرية . وقـد اعتقدوا باتحاد كافة الاشياء بقوى خفية متوزعة في الكون لا تقع تحت الحواس مع ان وجودها لا شك فيه ، ولم يميزوا تمييزاً كبيراً بين الكائنات الحية والكائنات الجامدة . فكان في رأيهم ان الاشياء المصنوعة تحيا على غرار النباتات او الحيوانات التي تتخدر طيلة الشتاء، او البشر النيام، وان لها وظائفها بحسب اشكالها ، وان صور الكائنات وتماثيلها ليست اقل واقعاً من هذه الكائنات . فان قطعة مادية صغيرة تلامس شيئاً ، او رسماً او رمزاً او كلمـة ذات دلالة ، تنقل الى الشيء الفعل الذي يأتيه الانسان . كان الـ « سيو » ، قبل الصيد ، يرقصون « رقصة الدب » ، فيقـلد الراقصون الدب بدقة ويتوجهون بأناشيدهم الى روح الدب لاستمالته واستعطافه. وكان الصيادون يصومون قبل السفر ، ويمتنعون عن العلائق الجنسية ، ويتطهرون ، ويتجمـلون برسوم خاصة ، ويبتهلون الى ارواح الحيوانات التي قتلوها في رحلات الصيد السابقة . واعتقـدوا انهم انما يقيمون بذلك رابطة صوفية بينهم وبين ارواح الدببة ، وان الحيوانات ستقترب منهم وتعرض نفسها لضرباتهم . واعتـبر الهنود غذاءهم بمثابة هبة طوعيـة من ارواح الحيوانات والنباتات . وفي حالات اخرى ، مثل الراقصون بالايماء موت الحيوان المطارد . يرتدي الراقص جلد الحيوان وقناعه ، وحين يصاب بالمياه ، بضرب بسهم لا حدّ له فيهوي على الارض مقـلداً الحيوان بسقوطه ثم يخرج من وسط الدائرة ، فيمثل صياد آخر بالايماء تقطيعه وتجزئته ، ثم يليه صياد ثان . ذاك كان المصير الذي ينتظر الحيوان لان الصورة بعض الاصل . وقـد اعتبرت هذه الممارسات اعظم اهمية من المطاردة الفعلية . اما بعد الصيـد ، ففرضت بعض الطقوس المعدة للحيلولة دون انتقام الحيوان وروح النوع الذي ينتمي اليه . فتتلى صيغ مهدئة ، وتكرم الحيوانات المقتنصة ، وترفع الابتهالات حتى لا تنفر الحيوانات الاخرى وتقام صلوات الشكر .

يردّ كل ذلك الى ان نشاط هؤلاء الهنود العقلي لم يتطور تطوراً يستحق الذكر . فلم يتكون لديهم بعد افكار او صور عن الاشياء مستقلة عن العواطف والتـأثرات والاهواء التي كانوا يشعرون بها . كان فكرهم حدساً اجمالياً يدرك فطرياً مجموعاً من الصفات . وسيطرت على كل ما يعرفون حالات غامضة لا تتيح التحليل والنقد . حكموا احكاماً على جانب من الاهمية، متناقضة منطقياً ، الا انها مقبولة شرط ان تكون من طبيعة المضمون التأثري نفسه . فلم يكن هنا ، والحالة هذه ، من مكان او عمل لمبدأ التناقض . اذا ما عوى كلب مثلاً ، او اسمعت بومـة صماء صوتها على مقربة من احد الاكواخ ، فكان ذلك في نظر الهنود موجباً لقتل مالك الكوخ. ان الصوت المحزن ، والقشعريرة التي يحدثها ، وفكرة المصائب التي يوحيانها ، والتمثيل العقلي لسيد الكوخ ، كانت تؤلف ، في وجدان السامعين ، كلا واحداً ، وتوجب من ثم ازالة سيد

الكوخ . لذلك لم يتقن الهنود الحساب الذي كان في نظرهم عملية شاقة . كانوا يدركون من نظرة واحدة ان كومة من الجلود اكبر من كومة اخرى ، وان قطيعاً من البقر الوحشي يفوق عدداً قطيعاً آخر مر قبله ، وما كانوا من جهة ثانية ليخطئوا في العدد في نطاق حدود معينة ، ولكن ما كانوا يدركونه اجمالياً هو مجموعة نوعية فقط . لم يحسبوا ولم يحللوا بتمييز العناصر المجردة بفكرهم وبرؤية كمية الزيادة في احدى الجهتين .

يتضح من ذلك ان حضارتهم لم تكن متدنية فحسب ، بل متوقفة وراقدة ايضاً . اذا كانت للاشياء وظائفها بحسب اشكالها ، واذا كان لحركات الصياد والفلاح اثرهـا الرمزي ، فان لأدنى جزئيات الشكل او حركات الاحتفالات الدينية اهمية رئيسية ، اذ ان كل جديد فيهـا يخلق وظائف جديدة ، وباستطاعته اثارة قوى خفية وايجاد الف خطر وخطر . لذلك كانت كراهية هؤلاء الهنود لكل تغيير شديدة جداً . فكانوا يرتاعون مثلا من الاطباء الاوروبيين ومعالجتهم ومن المفاعيل المشؤومة لخصائص الاشخاص والادوية الخفية . لم ينقلوا عن الاوروبيين سوى استخدام الحصان وبعض الاسلحة وبعض الادوات . اضف الى ذلك ان كل تقدم مشروط بتكوّن المفاهيم المجردة ، العامة ، تحت ظل مبادىء الذاتية والتناقض والسببية ، وبمراقبة هذه المفاهيم بواسطة الاختبار . فان تحديد المفهوم « حجر » لا يجيز التصور بأن يكون للحجر حياة الكائن الحي الخفية وبأن يزعزع اركان عالم البدائيين . ولكن هذا الانتقال من المنطق البدائي الى منطق المفاهيم ، الذي هو الشرط الاول للاستساغة ، عملية طويلة وصعبة جداً .

« مـايا »

في الدرجة العليا من الحضارة النيوليتية ، نجد ، في امـيركا الوسطى ، قبيلة المايا .

احتل المايا على « المتوسط الاميركي » منطقة حارة توافق في المكان المكسيك الحاليـة ، وشرقي مضيق « تهوانتيك » وشبه جزيرة يوكاتان ، وغواتيمالا باستثناء الشاطىء الباسيفيكي ، وغربي هوندوراس وهندوراس البريطانية . لقد احرق الكهنة الاسبانيون معظم مخطوطات المايا الهيروغليفية اعتباراً منهم بأنها تتضمن اكاذيب الشيطان . الا ان ثلاثة ابحاث قد وصلت الينا : في علم الفلك وعلم التنجيم والطقوس الدينية . ووصلت الينا كذلك مؤلفات بلغة المايا والابجدية الاسبانية وضعها بعض البلديين بعد الفتح تؤلف موجزاً لاخبار تاريخ المايا . ولدينا ايضاً التقرير المفصّل الفريد الذي وضعه الاسقف لاندا (١٥٦٦) . ولدينا اخيراً اطلال ١١٦ مدينة من مدن المايا اظهرت واكتشف بعض ابنيتها وكتاباتها بعد استئصـال نباتات المناطق الحارة منها ، والمايا الحاليون الذين اثبتت مقارنتهم بالاثار والرسوم التي وصلت الينـا انهم احتفظوا بالشيء الكثير من اجدادهم وان باستطاعتنا سد بعض فراغ المستندات بالمراقبـة المباشرة . اجريت بعض اختبارات زراعة الذرة الصفراء بحسب طرائق المايا تحت رعاية مؤسسة كارنجي في واشنطن . فيبدو ان حضارة المايا حضارة بلدية اصيـلة نمت محلياً ، بمجرد علاقة العنصر البشري بالبيئة الجغرافية ، دون اي اقتباس عن الخارج ودون تأثيرات خارجية

ربما منذ ثلاثة الاف سنة قبل يسوع المسيح . ارتكزت هذه الحضارة الى ادوات من عهد الحجر المصقول ، والكتابة الهيروغليفية ، وزراعة الذرة الصفراء . وقد بدت ، عند وصول الاوروبيين ، وكأنها بلغت منتهى النمو الفكري الممكن بلوغه في هذا المجموع ، واستقرت منذ خمسة عشر قرناً ، فلم تحرز بعد ذلك اي تقدم .

المميزات الطبيعية والاخلاقية

المايا متوسطو القامة ، عراض الكتفين ، متقعرو الصدر ، طوال الساعدين ، كبار الرأس ، نحاسيو اللون، شعرهم اسود مستقيم. الرجل امرد اللحية والشاربين على العموم .

مقاييس الجمال في نظرهم انخفاض في الجبهة وحول في العين يكتسبان بشد خشبة الى الجبهة وبتعليق كرة صغيرة من الراتينج بين العينين منذ الولادة . يتحلون بالقوّة وصحة البنية والنشاط والعزم والجلادة على العمل ولا يصابون بالمرض الا نادراً . انهم اشبه شيء بالصينيين: يحبون المرح والثرثرة والحياة الاجتماعية والضحك والمزاح ، يميلون بالفطرة الى الكرم والثقة بالغير وملاطفة الغرباء ومصادقتهم ، ويدركون كل الادراك معنى العدالة والشرف والنزاهة ويتحلون بروح الملاحظة والتخيل ويحبون بالجمال .عواطفهم العائلية قوية جداً . الوالد يتمتع بسلطة كبرى . يكنون الاحترام للاشخاص المتقدمين في السن . البنون مرغوب فيهم جداً ، والزيجات تعقد في سن مبكرة ، ١٢ سنة للفتيات و ١٤ للفتيان ،ونسبة الولادات مرتفعة تبلغ بين ٥٠ و ٦٠ ٪ وبين ٧ و ٩ اولاد بالعائلة يبقى منهم في قيد الحياة بين ٣ و ٤ . وعلى الرغم من ذلك فان الاخلاق اباحية ، والطلاقات غير نادرة من كلا الجانبين . يتزوجون بين ١٠ مرات و ١٢ مرة متتالية ، وللنساء عشاقهن ، وللفتيات عشاقهن ايضاً وقد ينجبن الاولاد قبل الزواج ولكنهن يتزوجن بدون صعوبة على الرغم من كل ذلك .

يحمل الرجال طريدة قطنية تلتف حول القد وتمر بين الساقين يتدلى احد طرفيها من الامام والطرف الآخر من الوراء ، ومربعاً من القماش يبكل عند الكتفين بمثابة معطف . شعر الرأس يقص في مقدم الرأس وتتدلى منه ذؤابة طويلة على الظهر . يدهن الجسم والوجه باللون الاسود حتى الزواج وباللون الاحمر بعد ذلك . اجسام المحاربين تدهن باللونين الاسود والاحمر ،والكهنة باللون الازرق ، والاسرى بخطوط افقية بيضاء وسوداء . يستوشمون ويتعطرون . النبلاء والكهنة يتألقون : ارياش ، وزين يشب واقراط صدف وجلود فهد واسنان تماسيح وعقود واساور وقبعات مزدانة بالريش ، وارياش فاخرة خضراء وزرقاء تتلون بالوان قوس قزح للقادة والرؤساء .

اما النساء فيرتدين الغلالة القطنية المطرزة بالزهور والطيور والحشرات ، ويحملن معطفاً طويلا ويغطين رأسهن بقطعة من القماش . يرسلن شعرهن ويتوشمن ويتطيبن .

الادوات المـاديـــة

عرف المايا استعمال النار . واستخدموا مواد عهد الحجر المصقول من مطارق وفؤوس ومناحت نسيفية وصوانية،ومطارق خشبية مصلبة ، وعصي خشبية بواسطة النار . لم يستخدموا المعدن . اما النحاس والذهب فلم يستعملوهمـــا الا للزينة وقد استوردا من بلدان اخرى . جهلوا المسامير واستعاضوا عنها بالرُّبُط النباتية . توصلوا الى ادجان الديكة الهندية والنحل ، ولكنهم لم يقتنوا حيواناً واحداً لحمل الاثقـال ولم يعرفوا العجلة . نقلوا الاثقال كلها على رؤوس الرجال .

يتبين من ثم ان وسائل عملهم في الطبيعة كانت محدودة جداً . ولكنهم استطـاعوا بلوغ مستوى فكري وسياسي رفيع بفضل الذرة الصفراء . يبدو ان الذرة الصفراء متأصلة مـــن مرتفعات غربي غواتمالا حيث يوجد اليوم النباتان البلديان الوحيدان اللذان ينموان مـع الذرة الصفراء واللذان هما ، بالتالي ، من النوع نفسه . ويغلب على الظن ان المايا هم الذين جعلوا منها نباتاً زراعياً واعطوا بذلك نبات الخلاص كافة قبائل الفلاحين في اميركا . زرع المـايا الذرة الصفراء وفاقاً لطريقة الـ « مِلبا » (جمع الاعشاب واحراقها وذرّ رمادها) . ففي اذار ونيسان يحرقون الاعشاب اليابسة ؛ بعد امطار ايار الاولى ، يحدثون في الارض المخصبة بالرماد ، بواسطة قضيب مقرن ، ثقوباً يودعونها الحبوب . يزرعون تباعاً ثلاثـــة انواع من الذرة الصفراء : نوعاً ينضج بعد شهرين ونصف الشهر ، وآخر بعد اربعة اشهر ، وثالثاً بعد ستة اشهر . وبعد نزع الاعشاب تكراراً وجني السنبلة في ايلول او تشرين الاول لمنع تسرب المياه اليها وتعـــدي الطيور على حبوبها ، يجمعون الحصاد بـــين كانون الثاني ونيسان . يقتضي ١٤ هكتاراً ونصف الهكتار تقريباً لتغذية عائلة طيلة سنة كاملة ، وبالاستطاعة انتاج الكفاف خلال ثمانية واربعين يوماً . فيتبقى من ثم فائض طاقة معد لتعهد الاختصاصيين والكهنة والمحاربين المعفيـــن من الاعمال اليدوية ولتجهيز الادوات العلمية والدينية : المعابد ، المراصـد ، الاهرام ، القصور ، وساحات الرقصات الطقسية . وهكذا تمكن المايا من بلوغ المستوى الفكري الذي بلغه اقوام استخدموا ادوات فضلى واستعملوا الشبه والحديد والعجلة :الكلدانيون والبابليون والاشوريون والمصريون والاغريق والصينيون .

التجهـــيز الفكري

بيد ان مستواهم الديني والعلمي والفني قدفاق مستواهم التقني الى حد بعيد . بلغ المايا الدرجة الثانية من درجات الفكر البشري التي وصفها « ابيل راي » ، اي الدرجة التي نعتها « ر. برتلو » بالـ « استرو بيولوجية » . والاستروبيولوجيا مرحلة من مراحل القول بتعدد الالهة حيث يعتبر كل شيء ، حتى السماء والكواكب، كائناً حياً على غرار الحيوانات والبشر ، وحيث يخضع كل شيء ، على غرار الكواكب، لسنـــن دورية، اي سنن الضرورة وسنن التوافق وسنن الاستقرار معـــاً ، التي توحيها الحركات الدورية في القبة الزرقاء ، وتعاقب الفصول المنتظم ، وتجدد الحياة النباتية كل سنة ، وحيث يعتـبر كل شيء ، الاحداث والاعمال ، مرتبطاً بمواقع الاجرام السماوية وحركاتها . يضاف الى ذلك من جهة ثانية

ان زراعة الذرة الصفراء الفضلى تستلزم تقدم علم الفلك الذي يفرض استخدام كتابة وهندسة عمارة ، ومن ثم تنظيماً اجتماعياً وسياسياً كاملا .

تكلم المايا لغة بسيطة متقدمة اقل تصريفاً اسمياً وفعلياً من اللغة الاسبانية واسهل تعلماً على الانكليزي من اللغة الاسبانية ايضاً . استخدموا كتابة هيروغليفية تعبر عن الافكار تمثيلياً على غرار الكتابة الصينية ، فكانوا من ثم في مرحلة تطور تتقدم مرحلة الكتابتين المصرية والمسمارية السومرية اللتين تتضمنان عدة عناصر صوتية مقطعية . اما ما خلفوه من كتابات فيبحث في التاريخ والفلك والدين ، لا في الفتوحات وامجاد الامير .

انهم اول من ابتكر في العالم ، منذ ثلاثة او اربعة الاف سنة قبل يسوع المسيح في الارجح ، العد استناداً للمرتبة واستخدام الصفر ، وهذا يفرض قدرة كبرى على التجريد الفكري . ارقامهم اكبر من الارقام الرومانية ! استخدموا رمزين عوضاً عن ثلاثة ورتبوهما بواسطة الجمع والطرح . واليك هذه الارقام .

١ • طريقتهم عشرينية : ٢٠ وحدة من المرتبة الاولى او « كن » ، تؤلف وحدة
٢ •• من المرتبة الثانية ، اي جزءاً من عشرين او « فينال » ؛ ٢٠ فينالا تؤلف
٣ ••• . وحدة من المرتبة الثالثة ، او « تون »، الذي يساوي ٤٠٠ كن ؛ ٢٠
٥ — تونا تؤلف وحدة من المرتبة الرابعة ، او « كاتون »، الذي يساوي ٤٠٠ فينال
٧ •• و ٨٠٠٠ كن ، الخ . القيم تزداد عشرين عشرين ، من أسفل الى أعلى ، بدلا
٩ •••• من عشرة عشرة ، من اليمين الى اليسار كما في طريقتنا .
١٠ ═ لنرتب اذن من اسفل الى اعلى ، ارقام المايا التي تقابل ٢٨٠٠٠ وحدة .
١٤ ••••

ثلاثة « كاتون »	•••	ثلاث وحدات من الرتبة الرابعة
عشرة « تون »	═	عشر وحدات من المرتبة الثالثة
صفر « فينال »		صفر وحدة من المرتبة الثانية
صفر « كن »		صفر وحدة من المرتبة الاولى

تساوي ٢٨٠٠٠ كن .

وكانوا أول من طلع بفكرة قاعدة ثابتة للتاريخ بدلا من التاريخ وفاقاً لسني ولاية الرئيس . انطلقوا من حدث فرضي بحيث ان نقطة الانطلاق (الصفر) قد سبقت اول تواريخهم المعاصرة للاحداث بـ ٣٤٣٣ سنة . كان لهم سنتان ، سنة مقدسة تبلغ ٢٦٠ يوماً ، وسنة شمسية موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر من ٥ ايام . تأخرت سنتهم الشمسية يوماً كل اربع سنوات وعرفوا كيف يصححون هذا التأخير . كان حسابهم للتاريخ دقيقاً جداً على غرار ملاحظاتهم

حددوا مدة السنة بـ ٣٦٥,٢٤٢٠ يوماً ، ويبلغ النقص فيها ٢,١٠٠٠٠ ، في حـــال ان سنتنا الغريغورية محددة بـ ٣٦٥,٢٤٢٥ يوما وتبلغ الزيادة فيها ٣,١٠٠٠٠. وعرفوا مدة الشهر القمري، ٢٩,٥٣٠٥٩ يوماً ، وادرجوا اشهراً من ثلاثين يوما بمهارة كلية جعلت الفوارق بين الرزنامـــة والهلال لا تتعدى يوما كل اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أرباع السنة ، وفي ذلك ما فيه من الدقـــة . وعرفوا النجم القطبي والثريا والجوزاء ، ولعلهم قسموا مجرى الشمس الظاهر الى بروج أيضـــا . كانت مدنهم مراصد تنظم كل الحياة . أقاموا اهراماً بسيطة وأهراماً ذات سطوح في الاتجاهات التي يشاهد منها شروق الشمس في مواعيد انقلاب الشمس ومعادلة الليل للنهـــار . كان الكهنة يراقبون شروق الشمس من هذه الاهرام بالنظر اليه بين عصي متقاطعة ويحددون التاريخ بالزاوية التي يؤلفها خط الموقع المتكون بفعل هذه المراقبة مع خطوط انقلاب الشمس ومعادلة الليـــل للنهار ويعينون موعد تنفيذ اعمال الحقول . وغني عن البيان ان عودة الكواكب دوريـــاً الى مواقعها التي ترتبط بها تقلبات أمطار المنـــاطق الحارة ، وموعد نمو النباتات ، والنشاطات البشرية ، قد أوحت ببنيان واسع الاطراف من السنن المتناسقة .

ديانـة المايـــا

اعتقد المايا ان العالم يؤلف وحدة حية . نسبوا صفات البشر الى كافـــة قوى الطبيعة . حافظوا على رواسب كثيرة من المذهب القائل بوجود الروح في كافـــة الاجسام الحية . ولكن الكهنة تمخضوا في عقلهم بزون متسلسل السلطات . في القمة يجلس على العرش « هوناب » الخالق الذي لم يسمح سموه باللجوء اليه في الحياة اليومية . ويليه ابنه «ايتزاما» سيد السماوات ، الاله الشمسي ، الذي ابتكر الكتابة والكتب والرزنامة وعلم التاريـخ وكان الهاً كثير الاحسان وصديق الانسان ابداً . ويليهما « شاك » ، الاله الواحد في أربعة اقانيم تقابل الجهات الاربع ، الذي كان إله المطر والرعد والبرق والاخصاب والزراعة . أمـــا إله الذرة الصفراء فكان إلها شابا يعنى بالازدهار والوفرة . وكان هنالك إله الموت ، وإله الحرب ، وإلهة القمر ، وإلهة الانتحار ، وآلهة الاعداد، وجمهرة من صغار آلهة المطر والحقول والاشجار،الخ.

فسرت الكون ومصير الانسان روايات اسطورية . « هو ناب » خلق العـــالم الذي سبقته عدة عوالم خرب الطوفان كلا منها بدوره ؛ وهذا هو المصير الذي ينتظر هذا العالم . يشمل هذا العالم١٣ سماء ، آخرها الارض ، و ١٣ دائرة جهنمية . وهو مركز الصراع بين الخير والشر، بين آلهة الخير الذين يوفرون النور والرعد والمطر والذرة الصفراء والوفرة، وبين الهـــة الشر الذين يتسببون في الحرب والاعاصير والمجاعة والشقاء . وخلـــق « هوناب » انسان الذرة الصفراء . يحاول الانسان استعطاف الآلهة بالصوم والزهد والقرابين والصلوات والرقصات الطقسية والرش بالدم البشري ، والذبائح البشرية . اذا كانت الضحية جنديا باسلا مقداما يقطع جسمه ويأكـله المشاهدون . النفس خالدة وستذهب اما الى الفردوس وامـــا الى جهنم . المنتحرون شنقا ، والمحاربون الذين يقتلون في المعركة ، وضحايا الذبائح ، والحوامل اللواتي يمتن أثناء الوضـــع ، والكهنة ، يذهبون تواً الى الفردوس ، مكان الراحة الابدية ووفرة الماكل والمشرب . أمـا في

جهنم فيعذب الشياطين الهلكى عذابا ابديا بالجوع والبرد والعياء والحزن .

التنظيم السياسي والاجتماعي

تجمع المايا مدنا ، في مساحة قابلة للاصلاح الزراعي ، حول مركز فلكي وديني مشترك . الفت المدن أحيانا اتحادات تقرر في اجتماع الرؤساء في نقطة متفق عليها ، ولكنها استمرت في العيش منعزلة ، ولم تستطع قط تأليف دولة اقليمية . ويرد ذلك الى ان المايا لم يكونوا مجهزين تجهيزاً حسنا للتغلب على المسافة . أجل لقد توفرت لديهم طرقات مرصوفة بالحجارة ومغطاة بطين كلسي ، ولكن هذه الطرقات لا تحتل سوى المرتبة الثالثة اذا ما قورنت بطرقات الـ « إنكا » .

كان مركز المدينة مدينة قائمة بحد ذاتها تنتصب فيها ، حول الساحات العامة ، المعابد والاهرام ، والاديرة ، والقصور . ويلي ذلك مساكن الاغنياء . وتقوم أخيراً بيوت مشتتة في ضواح طويلة . ليس هنالك من شوارع ، لذلك كان منظر هذه المدن ريفيا جداً . ويغلب على الظن ان الكثافة لم تتجاوز ٣٠٠ نفس في الكيلومتر المربع . ربما بلغ سكان المدن الكبرى ٢٠٠٠٠٠ نفس والمدن الثانوية ٥٠٠٠٠ . وربما بلغ عدد سكان بلاد المايا كلها ١٥ مليون نفس (مقابل مليونين في أيامنا) .

بقيت مدينة المايا مدينة ملكية من الطراز الاغريقي . بعد ان عرف المايا نظاما مماثلا للـ « جينوس » يحكمها الـ« هالاك فينيك » بالوراثة في عائلة واحدة من كل مدينة بحسب تسلسل البكورية الذكرية . يجمع في شخصه كل السلطات الدينية والعسكرية والمدنية يختار من بين أفراد ارستوقراطية وراثية الـ « باتاب » أي رؤساء القرى التابعة للمدينة . الباتاب يقود الجنود ويرأس المجلس المحلي ويفصل في الدعاوى ويسهر على ان تدفع الضريبة للهالاك فينيك وان تحرق الحقول وتزرع في المواعيد التي يحددها الكهنة . النبلاء يحافظون بكل عناية على تواريخهم العائلية وانسابهم وذكرياتهم . الكهنوت وراثي أيضاً ، وانما يحق لاشقاء ابكار النبلاء ان يصبحوا كهنة . رؤساء الكهنة ينحدرون وراثيا من عائلة واحدة . الكهنة رياضيون وفلكيون واداريون وعرّافون ومقربو ذبائح ، بحكم كهنوتهم . يمارسون العرافة والنبوءة ، وينجمون ، ويعزمون من مسهم الشيطان وينبئون بالكسوفات والخسوفات ويفيدون عن المطر والجفاف . الجميع يهابونهم ويحترمونهم . أما افراد عامة الشعب فيمارسون ، ابا عن جد ، زراعة الذرة الصفراء واعمال البناء والخدمة العسكرية ، ويدفعون الضرائب ويقدمون الهدايا لاسيادهم والقرابين للآلهة . ويوفر الارقاء واسرى الحروب والايتام والسارقون المحكومون يدا عاملة اضافية .

أما بصدد نظام التملك فنحن نفتقر الى المعلومات .

لا تثبت المدن في مكان واحد . فليس نادراً ان يهاجر السكان مدينتهم ليذهبوا ويبنوا مدينة اخرى في ارض جديدة من أراضيها . ويرد ذلك الى ان الزراعة في الارض المحرقة تستلزم

الاحراج والسباسب . فيستحيل من ثم متابعتها أكثر من خمس سنوات في المكان الواحد ، لا سيا وان العشب يغزو الحقول بعد هذه المدة ويخنق الذرة الصفراء النامية . لذلك يقتضي استبدال الحقل قبل استنفاد طاقته الانتاجية . فعندما تصبح أراضي المدينة غير صالحة للزراعة، يتوجب نقل المدينة الى مكان آخر زد على ذلك ان الموتى يدفنون في البيوت ، والمايا يخشون الموتى ، ويغادرون بيوتهم بعد وقت معين .

انحطاط المايا

كان المايا في دور انحطاط عند قدوم الاسبانيين . فبعد عهد متطاول سبق المايا ربما منذ ٣٠٠٠ سنة قبل يسوع المسيح حتى السنة ٣٥٣ قبل يسوع المسيح ، وبعدعهد اعداد منذ السنة ٣٥٣ قبل المسيح حتى السنة ٣١٧بعد المسيح،اكتملت فيه حضارتهم ، عرف المايا العهد المدعو بالامبراطورية القديمة (٣١٧ بعد المسيح حتى ٩٣٧ بعد المسيح) . وقد بلغت حضارة هذا العهد ذروتها في الشمال الشرقي من « بيتن سنترال » في « تيكال » « واواكزاكتوم » بين السنة ٦٣٣ والسنة ٧٣١ ، وذروتها الجمالية بين السنة ٦٩٢ و ٧٩٥ . ثم بدأ الانحطاط وهجرت المدن الواحدة تلو الاخرى . وحين اجتاز « كورتيس » منطقة « بيتن» من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في السنة ١٥٢٤ – ١٥٢٥ كانت احراج المناطق الحارة قد غطت المدن كلها ، ولم يشاهد الاسبانيون الاولون « ياكسشيلان » و « تيكال » الا في السنة ١٦٩٦ . ولعل عدد السكان قد أصبح مرتفعاً جداً بالنسبة لامكانات نظام المايا الزراعي ، فجر ذلك الى ارتفاع الاسعار والاضطرابات الاجتماعية وزوال الانتظام الحكومي والاضطرار الى الهجرة . فاستوطن المايا يوكاتان تدريجياً .

تلا ذلك النهضة والعهد المدعو بالامبراطورية الحديثة (٩٨٧ – ١٦٩٧). ففي القرن العاشر تسربت من الجنوب الشرقي بعض قبائل المايا ، ال « اتزا » ، التي اسست « شيشن اتزا » (٩٨٦ – ٩٩٨). واقامت بعض القبائل المكسيكية المتأثرة بحضارة المايا والخاضعة لعائلة « كوكوم » في « مايابان » ، والبعض الآخر في « اوكسمال » بقيادة ال « كسيو » (٩٨٧ – ١٠٠٧) . اتحدت هذه القبائل في تحالف « مايابان » فعرفت البلاد عهد ازدهار : نهضة المايا . ولكن حرباً اهلية اندلعت في السنة ١١٩٤ انتهت بانتصار الكوكوم بفضل المرتزقة المكسيكيين . ففرضوا على جميع نبلاء المايا الاقامة في « مايابان » كرهائن . وفي السنة ١٤٤١ ، ثار رؤساء المايا، بقيادة الكسيو في اوكسمال، وقتلوا الكوكوم الا واحداً وقوضوامايابان وولوا هاربين.

بدأ حينذاك عهد تفكك وانحلال . اخليت كافة المراكز الكبرى . وهاجر الاتزا، شيشن اتزا ، واقاموا على ضفاف بحيرة « بيتن » في « تايازال » . اما الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من عائلة كوكوم فقد اسس مدينة تيبولون مع شتات قبيلته . ولم يرجع الكسيو انفسهم الى اوكسمال بل اسسوا مدينة جديدة ، « ماني » . وتجددت بين الكسيو والكوكوم حرب لا هوادة فيها . وتجزأت يوكاتان ولايات صغرى متعادية . زد على ذلك ان بلاد المايا التي خربتها

الحرب قد دمرتهـا الاعاصير في السنـة ١٤٦٤ وفتك بسكانها الطـاعون في ١٤٨٠ ، والجفاف ووباء الجدري الذي نقل الاوروبيون جرثومته منذ السنة ١٥١١ ، في السنـة ١٥١٥ والسنة ١٥١٦ .وقد افضى كل ذلك الى اضعاف المايا معنوياً . فقد انحطت ديانتهم . واشركهم المكسيكيون في ميلهم الى المجازر البشرية ضحية للآلهة . ولم يعد فؤادهم ليسمو حتى عبـادة الخالق والآلهة العظام المحسنين ، بل غدا كل شيء موضوعاً لعبـادتهم بسبب جبنهم وحرصهم على استرضاء كل القوى . وفقدوا اخيراً الايمان بحضارتهم . ثقلت عليهم المصائب فاقتنعوا بأن الازمنة قد انتهت . وما ان وصل الاوروبيون حتى تنبأ الكهنة بأن المايا سيتخلون عـن آلهتهم . ولكن متى يكون ذلك ؟ لاحظوا ان احـداثاً محزنة تجري في تاريخ المايا في فترة العشرين سنة التي تنتهي بيوم ٨ « آهو »: اخلاء « شيشن اتزا » الاول (١٦٧٢) ، المؤامرات ، الحروب ، هزيمة الكوكوم ، هزيمة مايابان ، الخ . ولما كان مثل هذه الفترة سيتجدد بين السنة ١٦٩٧ والسنة ١٧١٧ ، فقد نظروا الى العشرين سنة هذه كما الى الوقت الذي حددتـه الآلهة . فان آخر مركز من مراكز مقاومة المايا ، « تايارال » ،قد سقط في ١٣ اذار من السنة ١٦٩٧ ، دون حدوث معركة تقريباً، لان الوقت الذي يفصلهم عن بدء الفترة المشؤومة هو ١٣٦ يوماً: فلا فائدة من مواصلة المقاومة . ان حضارتهم ارتكزت الى ملاحظة تكرر الارتباطات نفسها لاالى التحليل ودرس الحدث الطبيعي درساً عقلياً منطقيا . وليس ما يـدل على انهم تخيلوا نظاماً شمسياً بغية تفسير الظواهر . فكانوا من ثم عاجزين عن التمييز بين العلل الحقيقيـة ومجرد المصادفات ،وحين تعرضوا للنكبة ، انهارت اعصابهم واستسلموا لليأس لانهم لم يعيروا اهتمامهم الا الاتفاقات المشؤومة . لذلك وجد الاسبانيون امامهم مجتمعاً في طريق الانحلال الكامل .

٢ ـ حضارة العصر النحاسي
حضارة الازتيك

لم يتصل الاسبانيون اتصالاً جدّياً بهنود بلغوا مستوى حضارياً ارفع الا بعد اتصال دام ٢٧ سنة بحضـارات نيوليتيـة وبعد ان تكونت آراء كثـيرة حول الهنود وتحـددت مواقف كثيرة . في السـنة ١٥١٩ شرع كورتيس في فتح المكسيك ، وما لبث ان حارب الازتيك.

سكان المكسيك

لقد عقب الفتح في المكسيك ، كما عند المايا ، وكما في كل مكان ، تدمـير منظم للكتابات البلدية . ولكن ما نجا منها هنا يفوق ما نجا في بلاد المايا ، اي حوالي الثلاثين معظمها سابق الفتح . ولدينا بالاضافة الى ذلك مؤلفات الاسبانيين التي نخص بالذكر منها رسائل كورتيس ومذكرات رفيقه « برنال دياز دل كستلو » ومؤلفـات « غومارا » و « موتولينـا » و « اوليس » و « كلافيجيرو » والمنتخبات الكثيرة التي جمعهـا الاب « دي ساهاغون » . يضاف الى كل ذلك المستندات الاثرية العديدة التي توفرت للبحاثين .

عند قدوم الاسبانيين كانت بعض القبائل البربرية التي جمعها الاسبانيون تحت اسم «شيشيميك» تعيش الى الشمال من نهر «ريو لرما» وبحيرة «شابالا»، في البورات الفنية بالصباريات في النجد الاوسط. هؤلاء هم بدو المكسيك. يتنقلون عراة. يتقنون رمي السهام ويعيشون من حصيلة قنصهم التي يكملونها بجني الثمار ولا سيا ثمر الصبار. ليست لهم معابد ولا اصنام. يعبدون الشمس. يهوون الاستقلال بشراسة ويبرهنون عن عدائهم لكل حياة اخرى.

على الشواطىء عاشت قبائل من البلديين البدائيين نسبياً، القناصين، القطافين، أكلة لحم البشر عند الحاجة. ولكن هؤلاء البلديين كانوا اهل حضر وعرفوا بعض مبادىء زراعة الذرة الصفراء. وكانوا كذلك شديدي التمسك بالاستقلال ويشق عليهم ان تفرض عليهم ضريبة ما.

اما في المناطق المروية من نجد «انا هواك»، وفي وديان واحواض «ميشوكان» و«اوكساكا»، التي تكثر فيها النباتات العشبية، فقد عاشت قبائل مختلفة تجمع بينها عناصر حضارة مشتركة، هي حضارة الـ«تولتيك»، المتأثرة بحضارة المايا. وقد برز بينها اتحاد الازتيك، «مكسيكو»، و«تزكوكو»، و«تلاكوبان»، الذي غدا اهمها سياسياً وامتدت امبراطوريته في اواخر القرن الخامس عشر من المحيط الى المحيط ومن البدو الى المايا. الا ان بعض الشعوب قد حافظت على استقلالها في هذه الامبراطورية مؤلفة الجيوب التالية: دولة «تلاكسكالا»، دولة «متزتيتلان»، دولة الـ«يوبيس»، دولة الـ«مكستيك» في «توتوتيبك»، دولة الـ«تاراسك» في «ميشواكان». وحافظت على استقلالها الداخلي، بدفع الضريبة للازتيك، «شوهبلا»، و«هواجوتزوننغا» و«تهواكان»، وجزء من منطقة الـ«مكستيك» وبلاد الـ«زابوتيك»، وجزء من منطقة الـ«هواستيك»، و«شياباس»، و«سوكونوسكو».

اوجه التشابه بين الازتيك والمايا

لم تكن حضارة الازتيك حضارة بلدية اصيلة على غرار حضارة المايا. فقد جاء الازتيك الفاتحون من الشمال في عهد غير بعيد، وربما في القرن الثاني عشر. كان موقف البلديين منهم موقفاً عدائياً، فتشردوا زمناً طويلاً ثم اقاموا في جزر المستنقعات الوحلية ودخلوا في حرب دائمة ضد جيرانهم بغية تأمين مياه الشفة والارض الصالحة للزراعة. لذلك تطور نظامهم في سبيل الحرب، فانتقل من نظام العشائر الى نظام المدينة. في القرن الرابع عشر، وفي السنة ١٣٥٢ بالضبط، انتخب «اكامابينتشلي» رئيساً، او «تلاكاتيكوهتلي» في مكسيكو. ومنذ هذا التاريخ انتخب الـ«تلاكاتيكوهتلي» ابداً من عائلته، فنقلت هذه السلالة ما لم يكن سوى مدينة حقيرة في المستنقعات الى رأس امبراطورية عظيمة. منذ السنة ١٤٢٥ شرع الـ«تلاكاتيكوهتلي» «اتزاكواتل» في فتح شواطىء المستنقع واسس اتحاد الازتيك، مرتكز الامبراطورية. في منتصف القرن الخامس عشر بلغت جيوش الاتحاد خليج المكسيك في ولاية «فيراكروز» الحالية. وفي اواخر القرن بلغت مضيق «تهوانتبك» وحدود «ميشواكان». وحوالي السنة ١٥٠٠ وصل

الازتيك الى « ريو بانوكو » في الشمال و « شيابا » وغواتيالا في الجنوب الشرقي .

على غرار المايا ، جهلوا العجلة والعقد ، ولم يقتنوا حيوانات جر ولا حيوانات ركوب . الا انهم سمنوا الكلاب الصغيرة والديكة الهندية والتدارج . وعلى غرار المايا استخدموا بصورة خاصة ادوات نيوليتية : اوار محجنة لرسم الاتلام ، مقالب من الخشب الصلب ، سكاكين ، دبابيس ، رؤوس نبال ، حدود فؤوس من حجر اسود ، اقواس ، سهام ، مقاليع ، دافعات لقذف العنزات ، رمح من خشب قاس مجهز بصوانة حادة . صنعوا الخزفيات دونما دولاب . وحاكو اقمشة قطنية ، واقمشة ناعمة من خيوط الباهرة ، واقمشة اخرى من الياف النخيل ومن وبر الارنب الذي سدّ مسدّ الحرير .ولونوا هذه الاقمشة بالوان جميلة ، النيلي ، الاخضر الزاهر ، البرتقالي ، الاحمر . ارتدى الرجـال وزرة ودثاراً ، والنساء قيصاً طويـلة وثوباً داخلياً . وروعيت في صناعة الدثر المرتبة الاجتماعية . وروعيت المرتبـة الاجتماعيـة كذلك في تزين الرجال بالحلى الذهبية والاقراط واهلة الانف والقبعات الريشية الكبرى . وعلى غرار حضارة المايا ، ارتكزت حضارتهم الى الذرة الصفراء التي سحقوا حبوبها على صفيحة حجرية بواسطـة اسطوانة حجرية واستهلكوها اقراصاً يسطحون عليها عجيناً من الفاصوليا والفلافل المسحوقة، وأكلوا بالاضافة الى ذلك الشوكولاتة واليقطين والبطاطا الحلوة ، والبطاطا الصينية والذبّان وبيوض الذبّان وشربوا المشروبات المخمرة ولا سيا روح عصير الباهرة وشربوا الدخان لفافـة او بواسطة الغليون .

وعلى غرار المايا ،بلغوا مرحلةنسبة صفات البشر الىقوى الطبيعة ولكنهمبدأوايتخطونها . ففي القمة يوجد اله مجهول خالق كل شيء ، لا اسم له ولا اسطورة ولا وجه ، يتحـلى ببعض مميزات « الارلي » في الفصول الاولى من التوراة . شيـدوا له معبداً وعبدوه . ولكن الالهين الرئيسيين كانا عملياً «هويتزيلوبوشلي » المشترك مع « تتزكاتليبوكا » . هويتزيلوبوشلي هو شمس الربيع الفتية ، اله الحرب . وتتزكاتليبوكا هو شمس الصيف ، منضج الحصائـد ، اله الموسيقى والرقص ، شفيع المراهقين . وكان لهم زون متسلسل السلطات يتميز جميع آلهته بطابع شمسي او نجمي . مثّل آلهتهم قوى الطبيعة المشبهة بالنجوم ووزعوا وفاقاً لجهات الفضاء الثلاثـة عشر وبحسب مستويات ثلاثـة ، مستوى الارض ، ومستوى سمت الرأس ، ومستوى سمت القدم ، التي لكل منها اربعة اتجاهات ، يضاف اليها المركز . وان آثار المذهب القائل بوجود الروح في كل الاجسام الحية لا تحتاج الى برهان اذ ان عدداً كبيراً من صغار الآلهة والشياطين وعفاريت ما خارج الارض وداخلها تملأ الطبيعة كلها . وكانت معابدهم اشبه بمراصد المايا . وفسّر الازتيك العالم بالخرافات . فالآلهة خلقوا على التوالي اربعة عوالم تضيئها اربع شموس مختلفة . اضاءت العالم الاول شمس من الحجارة الكريمة ولكن الامطـار اغرقت كل شيء ؛ تحول بعض البشر الى اسماك انحدرت منها الاسماك الحالية . واضاءت العالم الثاني شمس من نار . ولكن امطاراً من نار استعجلت نهايته وتحول البشر الى دجاج وفراش وكلاب . وعقب هذين

العالمين عالم شمس الظلمة . تغذى البشر فيه بالقار والراتينج . محقتهم الزلازل او افترستهم الحيوانات الضارية . ثم جاء دور العالم الرابع ، عالم شمس الريح . اقتدات البشر بالاثمار . محقتهم العواصف الهوجاء وتحولوا الى قردة . واخيراً خلق العالم الحالي « تتزكاتليبوكا » ، شمس الصيف ، منضج الحصائد . وسيدمر هذا العالم بدوره ايضاً .

آمن الازتيك باستمرار الحياة بعد الموت . فان عامة الموتى يذهبون الى « مكتلنتيكوهتلي» وزوجته « مكتلنسيهواتل » اللذين يتسلطان على انهار تسعة تجري تحت الارض وعلى أرواح الموتى . ويذهب المحاربون الذين يسقطون في ساحة الوغى أو تهرق دماؤهم على حجر الذبائح ، والنساء اللواتي يقضين في الوضع ، الى السماء وسمت الراس حيث يقيمون في قاعات منزل الشمس. ويذهب الغرقى والمجذومون ومرضى الداء الزهري الى جحيم من الدرجة الثانية. ولكن الازتيك جهلوا مفهوم المسؤولية الشخصية ، وبالتالي احترام القانون الاخلاقي ، والثواب ، والعقاب : فالمهم في نظرهم هو الظروف التي اكتنفت موت الانسان . واذا هم تحلوا بالطاعة واللطف والبساطة والصبر ، فانهم قد مالوا بالفطرة الى السرقة والمداهنة والكسل وشرب المسكرات . « وكان من المسلم به ان يكون للرجال ، خارج الزواج ، علائق جنسية بنساء اخرى غير متزوجات ؛ فكان البغاء من ثم معترفا به ؛ ولم يكن نادراً ان يقدم عامة الشعب بناتهم سراري للنبلاء » . وقد استسلموا الى أكثر الاهواء اخزاء وكان التلوط منتشراً جداً .

يذكرنا تجهيز الازتيك الفكري بتجهيز المايا في كافة نواحي فكرهم : الطريقة العددية العشرينية نفسها ، عد المركز نفسه باستثناء الصفر الذي لا وجود له ؛ السنة المقدسة نفسها (٢٦٠ يوما) والسنة الشمسية نفسها (٣٦٥ يوماً موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر واحد من خمسة أيام)، ولكن دون التصحيح الضروري لاعادة التطابق بين السنة المدنية والسنة الشمسية؛ وكتب الازتيك على طرائد كبرى من رق الايل أو لبد الباهرة ، مغطاة بطلاء كلسي ، تلف كما يلف الحاجز الواقي من الهواء. رسموا الاشكال بشوك الباهرة وملأوا الاقسام الدائرية بالالوان. وكانت احرفهم رموزاً هيروغليفية تمثل اشياء مبسطة في كتابة تصويرية . ولكنهم استخدموا علامات اشتقاقية توحي الأفكار. وخطوا خطوة نحو الصوتية :فلتمثيل بعض المقاطع استخدموا صوراً او أشياء يكون اسمها أو صوتها متشابها دون اعارة معنى الرمز المختار اية قيمة. فكانت كتابتهم من ثم لغزا ينطوي على استعارات.

كل هذا يقرب من تجهيز المايا الفكري ومفاهيمهم ، مع فارق تدني قدرتهم على التجريد وقلة اهتمامهم لامكانات الموافقة المنطقية أو مبدأ الذاتية ، وللموانع الحقيقية أو مبدأ التناقض . ونحن نرجح ان جوهر حضارة الازتيك وجيرانهم مقتبس عن المايا .

خصائص الازتيك البلاد والديموقراطية التسلطية

الا ان لحضارة الازتيك مميزات تبدو مجهولة من المايا . فقد عرف الازتيك النحاس ، ولعل مرد ذلك الى ان مناطق المناجم لم تغمرها الاشجار الكثيفة . واستعملوا رؤوس نبال نحاسية ومناجل نحاسية وادوات نحاسية لمعالجة الحجارة الصلبة .

وحافظ الازتيك على قواعد تنظيم قوي في الديموقراطية التسلطية الشيوعية . ولعل البيئة الجغرافية هي ما دفعهم الى ذلك . فان البلاد ، « التي شكت من بعض العقم الارستوقراطي » ، تتساقط عليها أمطار صيفية قليلة وغير منتظمة ، قد تكون غير كافية طيلة سنوات عدة. وجلي ان هذا الوضع غير مؤات للمستثمر الفردي الصغير الذي يتعرض لان يغرق في ديونه . فيقتضي والحالة هذه القيام باعمال ري باهظة الأكلاف لا يمكن ان يقوم بها سوى الاثرياء أو الجمعيات المنظمة تنظيما جيداً . لذلك كانت الموارد محدودة وغير مضمونة . فتوجب الاستحصال على المواد الغذائية والخامات النباتية المكملة من المناطق النائية . ولكن المكسيك بلاد واسعة الاطراف تتخللها مساحات خالية لا حدود لها، وجبال وعرة واودية بعيدة القعر تسبب الدوار . يجب حمل مؤن لاسابيع عدة والاتجاه على طريقة البحارة في المحيط ، بالاستناد الى الشمس والنجوم، في مسيرات لا نهاية لها . ولعل خطر العوز الدائم وصعوبة المواصلات غير غريبين عن واقع كون التجارة حملة عسكرية وواقع تحول هذه الحملة بسرعة الى عملية غزو، وواقع اعدادها لحرب الفتح ، وواقع حياة الدولة من النهب والضرائب ، وواقع كون الحرب غاية هذا المجتمع وصناعته الرئيسية اذا صح التعبير .

مكسيكو تنوشتتلان

ان الاعمال الكبرى والحرب قد فرضت نظاما تسلطيا في الارجح. الحضارة مدنية بالضرورة الدينية والعسكرية ، وقلب الوحدة السياسية هو المدينة . عدد سكان « تنوشتتلان - مكسيكو » يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ الف نسمة . وقد وصفها لنا كورتيس كما يلي : « ان مدينة مكسيكو هذه مبنية في مستنقع المياه المالحة بحيث تكون المسافة بين اي من أطرافها وقلب المدينة فرسخين (أو ثمانية كيلومترات) . لها أربعة مداخل تؤدي اليها سدود صنعية يبلغ عرضها طول رمحين من رماح الفرسان . مساحتها تعادل مساحة اشبيلية وقرطبة معاً . شوارعها مستقيمة وعريضة جدا. وقد قسم بعضها بحيث يكون نصفها طريقاً والنصف الآخر قناة تجتازها الزوارق ذهابا وايابا. وقد حفرت بين مسافة واخرى خنادق تصل اقنية الشوارع المختلفة بعضها ببعض . وانشئت فوق هذه الخنادق ، الواسعة جداً أحيانا ، جسور مبنية بعوارض خشبية محكمة الجمع متقنة الصنع . ويتسع بعض هذه الجسور لعشرة فرسان يسيرون معاً جنباً الى جنب » . وقد وسعت أرض المدينة الضيقة بالحدائق العائمة المشهورة المكونة من إطار من حصير وضعت في داخله ، فوق طوف من الاعشاب والخيزران، طبقة ترابية لزراعة النباتات. وقامت في الشوارع الضيقة الكثيرة ساحات عامة تظللها الاشجار، تقام فيها الاسواق . استوحي تصميم المدينة العام من الشمس والجهات الاربع . اجتاز المدينة شارعان كبيران يؤلفان زاوية مستقيمة عند تقاطعهما في وسط المدينة . وامتدت في هذا المكان ساحة عامة واسعة تضم المعبد الكبير والابنية البلدية . وكانت البيوت قليلة الارتفاع مبنية من حجر أحيانا ومن قصب غالباً . لم تشتمل البيوت الا على قاعة واحدة مع طبقة تحت السقف .

وكانت المعابد كثيرة جداً وقد استخدمت في الوقت نفسه كحصون للدفاع . وكانت اهراماً ذات سطوح ، مع خنادق وسدود .

من الديموقراطية الشيوعية الى الملكيـة الارستوقراطية

يبدو اننا باستطاعتنا ان نميز ، في تطور الازتيك ، ثلاث مراحل تركت الاوليان منها آثاراً عميقة في الاخيرة . كان الازتيك في البـدء قبيلة من البدو القناصين والقطافين الذين ينتقلون نحو الجنوب حاملين معهم إلهم الشمس « ويتزيلو بوشتلي » . ثم تعلموا الزراعة النصف البـدوية ، وذلك حين بلغوا هضبة المكسيك الوسطى حوالي القرن الثاني عشر في الارجح . ولمـا كانوا فلاحين وجنوداً في آن واحد ، كانوا يتوقفون أحياناً عدة سنوات في منطقة خصبة ثم يستأنفون رحيلهم . ويبدو اذ ذاك ان الخلية الاساسية في القبيلة كانت العشيرة ، « كلبولي » ، التي خضعت لتنظيم ديموقراطي يدين بالمساواة . يجتمع رؤساء العائلات ويتخذون القررات الهامة وينتخبون رئيس العشيرة ، « كلبول » . تعود الاراضي للكلبولي جماعيا ، وتعين جمعيـة العشيرة قطعة لكل رجل متزوج يستثمرها ويلزم بزراعتها . واننا نميل الى الاعتقاد بان جمعية رؤساء العشيرة تتخذ المقررات باسم القبيلة . ولكن كهنة « ويتزيلو بوشتلي » يمارسون القيـادة العسكرية ويتمتعون بسلطة عامة على العشائر كلها .

بعد اقامتهم في المستنقع ، فرضت الحرب ضد المدن المجاورة المعادية ، والاشغال العامـة الضرورية لاعداد الجزر وكوم الرمل والوحل ، الانتقال تدريجيا الى نظام المدينـة الملكية . بقي المجتمع شيوعيا وعسكريا. الرجال مكرسون كلهم للحرب ويتوجب عليهم تقديم الاسرى للذبائح البشرية الضرورية للحيلولة دون فنـاء هذا العالم على غرار العوالم السابقة . بعد ان يتوفق المحارب الى اسر أربعة محاربين اعداء ، ينتقل الى طبقة عليا ، هي طبقة الـ « تكيفا » ، ويستطيع حينذاك ان يصبح موظفا ، « تكوهتلي » ، أو سيداً . الوظائف انتخابية كلهـا . وقسمت المدينة الى عشرين حيا تخصص بكل منها عشيرة . لكل عشيرة أراضيها ، ومسكنها المشترك ، وآلهتها الخاصة ، وأعيادها ، ورقصاتها ، واحتفالاتها الدينية وادارتها الخاصة . يقوم على رأسها مجلس شيوخ يفصل في كل شيء ويعين الاراضي للاشخاص ويحكم في القضايا الخطيرة وينتخب الموظفين مدى الحياة . أهم الموظفين هو الـ « كلبوليك » الذي يختار أبداً مـن عائلة واحدة ويراقب توزيع الاراضي ووضع اهراء العشيرة . ويسهر على زراعة الحقول ، لا سيما ما يعد منها لتأدية الضريبة ، ويسلم حصيلة الضريبة الى موظفي الادارة المـالية ، ويقود الفرق العسكرية ويوزع العدل ويدافع عن عشيرته امام السلطة العليـا . الاعتداء عـلى قوة العشيرة وتضامنها يعاقب بصرامة . يحكم بالموت على القتلة والرجال الذين يرتدون ثياب النساء ويتخلقون باخلاقهن ، والنساء اللواتي يرتدين ثياب الرجال ويتخلقن باخلاقهم ، والزناة ، ومحوري حدود الحقول ، ومدنسي القدسيات ، والخونة . الموظف السكير يخلـع من منصبه . السارق ذو السوابق يصبح عبداً لمسروقه . سارق الذهب والفضة ، وهما معدنان إلهيا المصدر ، يحكم عليـه

بالموت . تتحد العشائر خمساً خمساً وتؤلف اخوّة . فكان هنالك أربع اخوّات لكل منهـــا قائدها العسكري ، وهو أحد الاكابر الاربعة المحيطـين بالملك ، وكاهنها ، وآلهتها . وفي خارج « مكسيكو – تنو شتتلان » ، ينتخب اهالي القرى والمدن موظفيه ، « تكوهتـلي » ، الذين تمتعوا بسلطات كبار الموظفين ، « كلبوليك » ، نفسها . تعين العشائر مجلساً قبليـاً وتنتخب الرئيس الاعلى ، « تلاكاتكوهتلي » ، الذي يختار ابداً من عائلة « اكاما بيشتلي » ، ويتمتـع بسلطات ملكية . يكافأ الموظفون ، « تكوهتلي »، عن طريق اراض يستثمرها المواطنون لهم ، وأقمشة وألبسة ومواد غذائية يهبهم اياها الرئيس الاعلى من الضريبة المفروضة على المواطنين والاتاوات المفروضة على المدن المهزومة .

لاشك في ان الدولة والمجتمع قد تطورا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر واوائـل القرن السادس عشر في اعقاب الفتوحات وقيام امبراطورية حقيقية . لا تزال مدينـة الازتيك مبدئيا ديموقراطية شيوعية . ولكنها تتخذ صفات الملكية الارستوقراطية بسبب توسع رقعتها، وتعقد شؤونها ، واثرائها الذي تدين به لسيطرتها على المغلوبين . فليست جمعية الشعب ، بعـد اليوم ، ما ينتخب الـ « تلاكاتكوهتلي » ، بل هيئة انتخابيـة من المستشارين وكبار الموظفين والكهنة يعين هو قسما منهم وتعين هي القسم الآخر . اما الكلبوليك والتكوهتلي الآخرون فلا يزالون ينتخبون انتخاباً ، ولكن انتخابهم ليس سوى تقديمهم للوظيفة ، اذ انهم يستمدون سلطاتهم من تعيين التلاكاتكوهتلي لهم . ويحدث احيانا ان يفرض هذا الاخير بما له من سلطة ، اشخاصـــا لم ينتخبوا . فالسلطة تأتي من اعلى لا من اسفل . كل مواطن يستطيع مبدئياً شغل اعلى الوظائف . ولكن ابناء التكوهتلي يستفيدون عملياً من ثقافة عليا يحصلونها في احد الاديرة ، « كلمكاك » ، بدلا من الدخول الى مدرسة الكلبولي . فبينهم يختار التلاكاتكوهتلي بالتفضيل السفراء والقضاة وحكام المدن وموظفي الادارة المالية ورؤساء الكهنة . امـا بين اكابر الموظفين ، فنـــائب التلاكاتكوهتلي ، او « سيواكواتل » ، يكون ابداً احد حفـــدة « تلاكالالتزين » ، شقيق « ماتكوهزوما » الاول . ويختار اهم موظفين بعده من بين افراد عائلة التلاكاتكوهتلي : يورث التكوهتلي ابناءهم الاراضي التي اقتطعتهم اياها الحكومة للاستثمار بمثابة مرتب سنوي . فتتكون بذلك املاك خاصة على حساب الاملاك العامة ، وتزرع هذه الاملاك الكبرى على ايدي فداديين فلاحين مجهولي المنشأ يعقد التكوهتلي معهم مشاركات زراعيـة لقاء أتاوات واعـمـال تسخير . يتسلم التكوهتلي النصيب الاكبر من الضريبة المفروضة على المواطنين والجزية المفروضة على المدن المغلوبة الداخلة في الاتحاد . فتضاف بذلك ثروة منقولة الى الثروة العقارية . وهكذا تبرز شيئاً فشيئاً بين جمهور المواطنين ارستوقراطية متسلسلة السلطات . امـا التلاكاتكوهتلي ، « والد ووالدة » المكسيكيين ، فتتسع سلطاته . فقد رأى الاسبانيون ، في « موكتزومـا » الثاني ، التلاكاتكوهتلي منذ السنة ١٥٠٣ ، امبراطوراً محاطاً بطبقة من النبلاء الوراثيين .

في هذا المجتمع العسكري والديني ، تكوّن مجتمع غريب عن مبادئه لا يطلب سوى الربح

التجاري . لقد تنظمت في مكسيكو في السنة ١٥٠٤ على غرار ما حدث في « تلاتلالكو » التي فتحت في السنة ١٤٧٣، في الارجح، تعاونيات تجار استحصلت على احتكار التجارة الخارجية: تصدير مصنوعات الخامات المستوفاة جزية من المغلوبين ، واستيراد المصنوعات البذخية . وقد الف التجار مجتمعا مقفلاً . فالتاجر تاجر أبا عن جد ولا يصبح تكوهتلي. التجار وضعاء يغضون الطرف في تنقلاتهم ويرتدون معطفا ملوناً ويخفون ثروتهم . ولكن ثروتهم ترفع طبقتهم في المجتمع . وبمجاز قانوني يعتبرون جنوداً من انسباء الامبراطور ؛ ابناؤهم يربون في الكلمكاك ؛ يحق لهم تقديم الذبيحة « لهويتزيلوبوشتلي » ، وستلحق روحهم بالشمس على غرار روح المحاربين؛ وقد أخذ بعض كبار الاسياد يتخذون من بناتهم زوجات ثانوية . وهكذا برزت ، بالاضافة الى طبقة النبلاء ، طبقة من « البورجوازيين الرأسماليين » .

تذلل الديانة
تكاثر الذبائح البشرية

ان شمس الربيع الفتية ، « هويتزيلو بوشتلي »، التي ولدت من عذراء، هي اله الحرب وهي ما اصبح الاول بين الآلهة . لها كرس الهرم الرئيسي في « تنوشتتلان » ، ولأجلها تكاثرت الذبائح البشرية . ولا غرو فبالذبائح البشرية ترتبط كل حياة هذا العالم. لكي تتابع الشمس والنجوم طريقها ، ولكي تكمل دورات الحياة النباتية ، يجب اراقة الدم البشري . الحرب ، التي توفر الضحايا ، مقدسة . المحارب والكاهن يصارعان العدم بدون توقف . اقيم برج في طرف السطح الاخير الذي يعلو هرم تنوشتتلان الكبير . وفي احدى القاعات الكبرى المظلمة اقيم مذبحان تغطيها اخشاب منقوشة . كان بالامكان ، حين تألف الاعين الظلمة، رؤية خلقتين جسيمتين رببلتين، تتزكاتليبوكا، شمس الصيف ، منضج الحصائد، روح العالم ، محفورا في حجر الاوبسيديين الاسود ، تلتف حول جسمه شياطين صغيرة اذنابها اشبه باذناب الثعابين ، ووجهه أشبه بخطم الدب ، وعيناه براقتان، وهويتزيلوبوشتلي ، المحارب ، الانجل ، الذي تلتف حول بطنه ثعابين كبرى من ذهب .

امامها ضحى الكهنة بأسرى الحرب او بالاطفال ، يلقونهم ارضاً ويلوون جسمهم الى الوراء حتى يحدب الصدر . يفلع الصدر حينذاك بضربة سكين صوانيــة . وينتزع القلب ويلقى في مجمرة يحرق فيها البخور ويحمل امام تماثيل الآلهة التي ترش بدم الضحايا . ويقطع الجثمان ويقدم في الولائم الطقسية . يسود الغرفة جو فساد ونتانة . الجدران والارض ترشح دما يتحول ، حين يجف ، الى طلاء لزج سوداوي اللون . التجيف يقزز النفس . اما الكهنة ، المرتــدون ثوبا قطنياً قاتما يتقطر الدم منـــه ، فيبدون كمن اختطف بالروح ، شعورهم الطويلة ملطخة بالدم ، وايديهم ملوثة بالدم الحديث الاراقة ، واصابعهم مرتعدة ومرتعشة ، ويعرضون تشويهـات جسمية فظيعة ، لا سيا آذانا مزقها معظمهم لرش وجه الآلهة بدمائها . ولا غرو فان دماء بعض الآلهة قد بذلت في سبيل خلق الشمس وحركتها .

عندما يخرج المرء من القاعة ، يشاهد معبد « كتزاكواتلكس » ، اله الريح ومبتكر كافة

الفنون الذي تشوى فيه لحوم الضحايا . صنع مدخله بشكل شدق مفتوح تبرز منه الاسنان ، على غرار مدخل جهنم في « اسرار » القرون الوسطى .

رافقت الذبائح في الاعياد الكبرى السنوية الاربعة عشر اناشيد الشعب تكريما للآلهة . الناس كلهم يثملون لان الثمل اعتبر مقدساً في هذه الظروف ؛ الشرائع المدنية كلها تعلق ، ويرافق وليمة اللحم البشري الطقسية حرية جنسية مطلقة . ويقدر عدد الذبائح البشرية بعشرين الف ضحية سنويا .

لعل هذا الشعب الذي نظر اليه الاسبانيون عند قدومهم وكأنه الشياطين بالذات ، كان في مرحلة انحطاط . فقد دلت بعض الاطلال والحطام على انه توصل في بعض النقاط الى معارف هندسية وزراعية وصناعية دونها معارفه في اواخر القرن الخامس عشر . ومهما يكن من الامر فان امبراطوريته ، الحديثة العهد والمنشأة في وقت قصير ، لم تكن راسخة الاركان . وما كان المغلوبون ليترقبوا سوى سانحة للثورة والمنافسون سوى سانحة للهجوم .

٣ – حضارات عصر الشبه
حضارة الـ « انكا »

جاءت مواجهة الاسبانيين لارفع حضارة في آخر المطاف. وصلت المعلومات الاولى الى باناما في السنة ١٥٢٢ . ولكن « فرنسوابيزار » لم يشرع في الفتح الا بعد انقضاء عشر سنوات .

يتوفر للمؤرخين ، بالاضافة الى عدة أثرية ضخمة ، مؤلفات رصينة مبنية على الملاحظات الشخصية اثناء الفتح ، او على استقصاءات اجريت مع الهنود الباقين على قيد الحياة بعد الفتح . واهم مؤلفات الاختصاصيين هي « تاريخ العالم الجديد » لليسوعي « برنابا كوبو » ؛ « تاريخ حوادث البيرو » لـ « بدرو دي شييزا » ، و « ليون » ، احد جنود بيزار ، الذي اجتاز امبراطورية الانكا من الشمال الى الجنوب ووضع يوميات استفاد منها في كتابه : « حصيلة وتفاصيل » سيرة « خوان بيتانزوس » ، الذي كان قد تزوج من ابنة « اتاهوالبا » آخر اباطرة الانكا، وتكلم لغة الكيشوا وشاهد انهيار الامبراطورية ؛ مؤلفات «خوان بالو دي اوندغاردو» حاكم كوزكو ، الذي اجرى في السنة ١٥٥٠ تحقيقا حول شكل حكم الانكا وديانتهم؛ واخيراً التحقيقات حول تاريخ الانكا وعاداتهم التي اجريت بين السنة ١٥٦٩ والسنة ١٥٨٢ ، بامر من نائب ملك البيرو ، « فرنسيسكو دي توليدو » . اما معظم المعلومات التي يوردها « غارسيلازو دي لافيغا » والتي كانت موضوع ثقة لفترة طويلة من الزمن ، لانه كان ابنا لجندي اسباني واميرة من أميرات الانكا ، فلا يعيرها الاختصاصيون اليوم اية اهمية .

كانت امبراطورية الانكا حديثة العهد عند قدوم الاسبانيين . فقد ارتسمت في الثلث الاول

من القرن الخامس عشر . وكان الانكا حتى ذاك التاريخ محصورين في مدينة كوزكو تقريبا . وكانت الشعوب ، حتى مداخل المدينة ، شبه مستقلة . دخل الانكا حروبا كثيرة ، ولكنهم كانوا يكتفون بالسلب وفرض الجزية ، اذا ما تغلبوا على سكان احدى المدن ، ويعودون الى مواقعهم .

بذل المحاولات الاولى،في سبيل تنظيم الفتوحات ، امبراطور الانكا الثامن ، «فيراكوشا» . ولكن الامبراطورية ما زالت صغيرة الرقعة . وفي شيخوخة فيراكوشا ، هاجم كوزكو هنود من الشمال ، هم ال « شانكا » ، اول شعب محارب في ذاك العهد . تولى الدفاع ابن فيراكوشا ، يوبانكي ، وصد الهجوم . ثم قاد جيش الانكا وهزم الشانكا تكراراً في اراض منبسطة . فبسط الانكا نفوذهم على البيرو دفعة واحدة .

توج يوبانكي في السنة ١٤٣٨ ، بعد وفاة أبيه ، وحمل اسم « باشاكوتي » . فوسع سيطرة الانكا جنوبا حتى بحيرة تيتيكاكا التي بلغها في السنة ١٤٦٣ والتي وجد ال « ايمارا » بالقرب منها ، وشمالا حتى « كيتو » . وهو انما وضع القواعد الاولى لنظام الانكا الاداري .

جلس ابنه « توبا » على عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٧١ حتى السنة ١٤٩٣ . واصل فتوحات أبيه وهزم سكان « كيتو » ، ال « كارا » ، واستولى على ما يؤلف اليوم بوليفيا وشيلي حتى مدينة « كونستيتوسيون » الحالية . واحتل ، في ما أصبح الارجنتين ، الانجاد الشمالية الغربية ومنطقة « توكومان » . وهو الذي أعطى تنظيم الانكا الاداري ميزاته النهائية ، في الارجح .

خلفه « هوينا كاباك » . اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٩٣ حتى السنة ١٥٢٧ وواصل الفتح . فبلغ ، الى الشمال من كيتو ، الحدود الحالية بين الاكوادور وكولومبيا . قمع ثورات عديدة وسار قدماً في تنظيم الامبراطورية . عند وفاته ، افاد الراصدون في « تومبز » بان « مسوخاً غريبة لحيانية تقيم في بيوت كبيرة عائمة ، تطوف في البحر . لم تكن هذه المسوخ سوى الاسبانيين بالذات .

لسنا ندرك تماماً المبررات الاقتصادية لحروب الانكا . فكانت معظم البلدان المحتلة من الفقر بحيث اضطر الانكا لأن يمدوها بالمواد الغذائية . اضف الى ذلك ان امطار منطقة الاندس غير منتظمة واراضيها الزراعية ضيقة ومحصورة في تخوم المناطق البركانية . فكان الجوع من ثم خطراً دائماً مداهماً . لذلك فان الفتوحات قد انجزت في سبيل المجد اولاً ، وفي سبيل ايجاد عمل بعيد عن المدينة للقادة ومنعهم بذلك عن الاقدام على الثورة . وقد نظر اباطرة الانكا الى الحرب اخيراً كما الى حملة عسكرية مقدسة تستهدف نشر ديانة الانكا .

سبقت العمليات العسكرية مساع دبلوماسية . أوفد المندوبون الى القبائل للتشديد على قوة الانكا ومحاذير المقاومة ، ولعرض الوراثة على الرؤساء مع امتيازات اخرى كثيرة . وقد

فاوض المندوبون ، على العموم ، اناساً لا يتمتعون بسلطة ثابتة يمثل نظام الانكا في نظرهم تقدماً كبيراً . لذلك غالباً ما جر خضوع الرؤساء الى خضوع القبائل .

وان لم يحدث ذلك ، فلا مناص من الحرب . الانكا كلهم ملزمون بالخدمة العسكرية . الجيش مجهّز تجهيزاً حسناً بسيوف من الشبه وفؤوس من الحجر ومقاليع وتروس ودروع من زرد . ينتقل الجيش صفوفاً منظمة ، ولكنه لا يعرف ، على ما يبدو ، خوض المعركة او المناورة ، كلاً منظماً . فلا تلبث المعركة ان تتحول الى مجموع معارك بين افراد .

ينظم الجيش حركاته وفاقاً لتنبؤات العرافين والعائفين . تقدم الذبائح قبل المعركة ويعزى النصر للآلهة .

استولى الانكا على بعض الممالك احياناً ، كمملكة الـ « شيمو » ، بين ليما وكيتو ، التي عرفت طبقة من الاشراف الوراثيين . الا انهم اخضعوا في اغلب الاحيان عدداً كبيراً من القبائل لا تخضع لأي تنظيم سياسي ، وشتاتاً من الـ « أيلو » . اما الايلو فوحدة انتاجية ، او رهط من الانسباء المجتمعين للقيام بعمل مشترك في مساحة معينة ، اشبه بالزمرة الالغونكينية .

ما إن يستولِ الانكا على اقليم من الاقاليم حتى يرسموا له مصغراً نافراً من الغرين تبرز فيه الجبال والاودية والانهار والقرى والحقول المزروعة ، الخ . يحصون السكان ويدونون النتائج بواسطة حبال قصيرة مزودة بعقد « كيبو » كانت لهم بمثابة اختزال . بعد الفتح الاسباني ، املى بعض اليسوعيين مبادىء دينية على عدد من البلديين المتقدمين في السن . دونها هؤلاء بعناية بواسطة عدد من العقد . ثم رددوا بواسطة عقد الكيبو اللاهوت الذي علمه اليسوعيون. وكان لدى الانكا دور كيبو ،اشبه بدور الكتب ، تتضمن شتى الاحصاءات عن الامبراطورية.

ترسل الكيبو والمصغرات الى الامبراطور الذي يدرسها ويأمر باعادة توزيع القرى والسكان . وانما كان لا بد من مجهود جماعي كبير لتوسيع الاراضي الزراعية باحداث الارصفة الترابية ، وللري بواسطة الاقنية ولتجويد التربة بسماد الـ « غوانو » . وكان قد سبق للايمارا ان سلكوا هذه الطريق بداعي الحاجة . وكانت القرى، قبل الفتح ، قائمة على مرتفعات بعيدة عن الحقول . فأسكن الانكا المغلوبين في قرى جديدة قريبة من حقولهم بغية مضاعفة انتاج العامل . واعادوا تكوين الايلو المحدود باضافة عدة عائلات مختلفة اليه . وجمعوا عدداً من الايلو في قبيلة واحدة عدداً وجمعوا في قبيلة كبرى واحدة عدداًمن القبائل الصغرى . واذا لم يبرهن السكان عن طواعيتهم ، اقصوا العصاة واستبدلوهم بمستعمرات عسكرية من الكيشوا

يرسلون ابناء الرؤساء الى كوزكو للتخلّق بأخلاق الانكا . يتابع هؤلاء الابناء طيلة سنوات اربع دروساً عملية . في السنة الاولى : لغة الكيشوا ؛ في الثانية : لاهوت وطقوس ؛ في الثالثة : تدرب على الكيبو ؛ في الرابعة : تاريخ الانكا وتقاليدهم السياسية . الامبراطور يعين الرؤساء المحليين موظفين . يبادر الانكا الى بناء مخازن للمواد الغذائية في البلاد المحتلة

حيث يكون مستوى الحياة منخفضاً جداً على العموم . ويتعهدون تغذية السكان . وينظمون العمل . ويفرضون الكيشوا لغة ادارية .

تم التوحيد بسرعة فائقة . زالت مئات اللغات السابقة للفتح . لم يبق سوى الكيشوا والايمارا وربما لغتان حضاريتان اخريان . استمرت لغة الكيشوا في العهد الاسباني . نسي البلديون مؤسسانهم ، والتنظيم الوحيد الذي بقيت له قوّته بعد الفتح الاسباني هو تنظيم الانكا . اعتقد بعضهم ان اركان امبراطورية الانكا تزعزعت ، قبيل قدوم الاسبانيين ، بثورات المغلوبين من شيمو وكارا انتصروا لأحد ابناء الامبراطور المتوفى في الارجح . ولكن بعض المؤرخين لا يعترفون بواقع هذه الثورات ويردون الاضطرابات الى مجرد منازعة حول الخلافة . لم يكن هنالك من نظام خلافي . كان الامبراطور يعين بين ابنائه ، المولودين من خمسين او ستين امرأة من نساء حرمه ، الابن الذي يريده خلفا له . ولكن « هوينا - كاباك » توفي متأثراً بعرواء دون ان يستطيع اجراء هذا التعيين . فكان ان هواسكار ، بكر ابنائه من امرأته الرئيسية ، اعلن نفسه امبراطوراً . ولكن اخاه من امرأة اخرى ، اتاهوالبا ، الذي كان في كيتو ، على رأس الجيش الكبير المحشود لمحاربة سكان كولومبيا الحالية ، اكد حينذاك ان « هوينا - كاباك » قد قسم امبراطوريته ، وهو على فراش الموت ، الى شطرين متساويين احدهما لهواسكار ، والثاني له . فنشبت الحرب بين الشقيقين ، وكان النصر حليف اتاهوالبا قائد الجيش المتحرك .ولكنه لم يفكر بعد ذلك بتقسيم الامبراطورية التي يراها بعض المؤرخين طويلة جداً : لم يكن من ضرورة لذلك .

توفرت لامبراطورية الانكا وسائل انتاج تفوق وسائل امبرطورية الازتيك .فقد استعمل الانكا المحراث الرّجلي ، وهو اشبه بعصا تبلغ ١،٨٠ م طولاً ، مزوّدة برأس شبهي صلب وبركاب يتيح غرزها في الارض بواسطة الرجل التي ينوء عليها الفلاح بثقل جسمه . لذلك كانت حراثتهم ابعد عمقاً ، وامكن القيام بها في اوعر تربة . وكانت مساحيهم مزودة بشفرة شبهية عريضة جداً تمكن من تهشيم اشد المدر قساوة . وكان هاونهم المعد لسحق الذرة الصفراء افضل الى حد بعيد من هاون المكسيكيين . فقد استعمل هؤلاء اسطوانة يجب التثقيل عليها بقوّة. اما هاون الانكا فكان مؤلفاً من قاعدة مربعة الزوايا توضع عليها الحبوب ثم يوضع فوقها حجر آخر ثقيل جداً ، وحينذاك يصبح بامكان فتاة في العاشرة او الثانية عشرة من سنها تحريك الحجر الأعلى الذي يسحق الحبوب بمجرد حركته . فكان تحضير الطحين من ثم اسرع منه بواسطة الاسطوانة المكسيكية ، ولم يستلزم تجميد شخص كبير . وللحياكة كان المكسيكيون يغرزون وتداً في الارض ويثبتون فيه قضيبين خشبيين فتجثو الحائكة على احدهما وتركب خيوط السدى بين القضيبين . وترفع بعد ذلك الخيوط بتعاقب مطرد بواسطة عصا وتدخل المكوك بين الخيوط المرفوعة والخيوط غير المرفوعة . اما الانكا فقد ارتأوا ربط القضيب الثاني بجسم الحائك الذي يستطيع بذلك شد النول اليه

دون اللجوء الى ركبتيه او يديه ، بمجرد انحناءة منه الى الوراء ، بسهولة ودون عناء يذكر ، فتبقى يداه طليقتين ، وتزداد سرعة العمل ازدياداً كبيراً . واتاحت لهم الحقول الشبهية نقل حجارة اكبر ؛ كما اتاحت لهم المطارق والسكاكين البرونزية معالجة الحجر معالجة سريعة . فيتضح من ثم ان طاقتهم الانتاجية كانت فوق طاقة المكسيكيين الى حد بعيد .

وتفوقوا عليهم بوسائل النقل ايضاً . فقد ربى الانكا حيواناً داجناً هو الجمل الاميركي الذي يستطيع ان ينقل بين ٢٠ و ٤٠ كيلوغراماً ويقطع بين ١٥ و ٢٠ كيلومتراً في اليوم. يضاف الى ذلك استفادة الانكا من لحم هذا الجمل وصوفه . وشق الانكا شبكة طرقات ؛ طريقين من الشمال الى الجنوب ؛ تحاذي احداهما الشاطىء ابتداء من « تومبيس » حتى « اروكويبا ». يتراوح عرضها بين اربعة وخمسة امتار في الاودية المروية ، وتحيط بها جدران واشجار مثمرة وقناة ماء ، ولا تتعدى مسلكا بسيطاً في الصحاري حيث ترسم بالاوتاد ؛ وتمر الثانية في الجبال المرتفعة ابتداء من حدود كولومبيا والاكوادور حتى توكومان ، مروراً بكيتو وكوزكو وبحيرة تيتيكاكا ؛ وهي اضيق من الاولى ، اذ انها غالباً ما لا تتجاوز المتر عرضاً ؛ ولكنها جهزت بالسلالم في اوعر المنحدرات ؛ ورصفت احياناً بحجارة مسطحة ؛ وطرقاً معترضة تصل المدن بالشاطىء والمدن ببعضها ايضاً. واقيمت هنا وهناك وهنالك ، على شبكة الطرقات ، مخازن مواد غذائية لتموين المسافرين ؛ ومراكز عدّائين تتيح نقل خبر بين ليما وكوزكو ، اللتين تفصلهما مسافة ٢٤٠ كيلومتراً تقريباً ، في ثلاثة ايام ، بينما اقتضى للبريد الاسباني ١٣ يوماً على ظهور الاحصنة ، في السنة ١٦٥٠ . وانشئت فوق الانهار والاودية جسور كبرى ، معلقة ، قوامها خمسة حبال ضخمة متوازية قطر الواحد منها ٤٠ سنتمتراً ، وحبال اخرى معترضة ، تعلوها كلها اغصان الأشجار . وهكذا استطاع الانكا ، في بلاد توزعت مناطقها الزراعية بين شواطىء البحر وقمم الجبال ، ان يستفيدوا ، للتموين ، من محاصيل المناطق الحارة والمناطق المعتدلة والمناطق الباردة .

كل الحقول الزراعية ملك الانكا . بعضها يخصص للحكومة ، وبعضها لتعهد المعابد ، وبعضها يوزع للاستثمار على الافراد . ولكن العمل مشترك في كل الحقول ، ينفذ تحت اشراف مدير وتنشد خلاله الاناشيد الدينية . كل المنتجات موحّدة . الخزفيات تصنع بالجملة ولا تتعدى نماذج معدودة ذات طابع عملي .

الديانة هنا ايضاً تنسب صفات البشر الى قوى الطبيعة ، وتنطوي على زون متسلسل السلطات. ولكن الانكا توصلوا الى مفهوم اوضح من مفهوم الازتيك ، والى اجلى مفهوم لكائن اسمى لا اسم له ولا بداية ولا نهاية ، خالق كل الكائنات وسيدها المطلق ، عائش في السماوات ، ويأتي بين حين وآخر الى الارض ، ويمثل بصورة انسان . ان مذهب التشبيه هذا ينطوي على تقدم في الارجح . وهو يعني بصورة اكيدة ان الانكا تصوروا الاله شخصاً متميزاً عن الكون ، والديانة شأناً خاصاً ، وحديثاً بين الانسان والاله .

وتفوق الانكا في تعـاليمهم الاخلاقية ايضـاً . فالذهاب الى الفردوس او الى جهنم ، عند الازتيك ، ليس مشروطاً بنوعية الاعمال بل بظروف الموت . اما عند الانكا فالميت يـذهب الى الفردوس ، الى السماء ، ليعيش مع الشمس ، اذا كان قد قضى حياة صالحة . ويـذهب الى جهنم ليقاسي الجوع والـبرد في جوف الارض ، اذا كان قد ارتكب اعمالاً تستر ذلها التعاليم الاخلاقية . كانت الغاية من الاعتراف بالخطايا عند الازتيك تجنب عقاب القضاء المدني ، اما عند الانكا ، فالهدف من الاعتراف بالخطايا هو الحصول على حل من اهانة الإله ، والخطـايا هي : القتل ، السرقة ، الزنى ، افساد الاخلاق ، عصيان الامبراطور ، الاهمال في عبادة الآلهة . اما الكفارات فهي الصوم والاغتسال المطهّر ، ولا سيما الصلوات .

الا ان الديانة ابقت على ذبائح الاولاد ، بالمئات ، حين يعتلي الامبراطور العرش او يصاب بمرض ، وفي حالات المجاعة والهزيمة والطاعون .

مرتكز المجتمع العائلة الكبرى ذات النسب الواحد لجهة الاب . الزواج محصور في نطاق العائلة . تجتمع العائلة حول المومياءات لعبادة الاجداد . لذلك تتألف المدن من عدد من الحظارات يقابل عدد العائلات الكبرى ويضم كل منها خمسة او ستة بيوت . وتتوزع العائلات الكبرى الى وحدات عمل ، « أيلو » ، حول جدّ اسطوري . يخصص الزوجان سنوياً بقطعـة ارض يستثمرانها وتكفي لاعالتهما ، « توبو » . ويضاف اليها نصف « توبو » كلما رزقا ولداً .

عمم « باشا كوتي » نظام الأيـلو على كل ادارة الامبراطورية . كل امبراطور ، ابن الشمس ، يتمتع بسلطة مطلقة ولكنه ملزم باحترام العرف وتوفير الاود لرعاياه . ولكل امبراطور حريمه وابناء كثيرون . الاعقـاب الذكور المنتسبون الى امبراطور واحد يؤلفون « ايلو ملكياً » مسؤولاً عن عبادة الجد . كان عدد الاباطرة قد بلغ ١١ في السنة ١٥٣٢ ، فكان في كوزكو ١١ ايلو ملكياً . وقد ضم ايلو امبراطور الانكا الاول ، « مانكو - كاباك » ، خمسماية عقب . وارتفع هذا العدد الى ٥٦٧ في السنة ١٦٠٣ . الامبراطور يختار من هذه « الأيلوات » الملكية كافة كبار موظفي الادارة .

اعضاء هذه « الايلوات » الملكية هم الانكا بالنسب . ولكن الانكا انشأوا طبقة نبيلة من الانكا بالامتياز ، تضم الرؤساء المحليـين الذين يتكلمون الكيشوا وانسالهم الذين يربون في كوزكو . واخيراً نظموا طبقة نبيلة ثالثة وراثية دنيا تضم موظفي الادارة الذين لا يتكلمون الكيشوا ، الـ « كوراكا » . كل هؤلاء النبلاء موظفون معفون من الرسوم واعمال التسخـير ، يعتاشون من محاصيل حقول الحكومة ويتقبلون الهدايا من الامبراطور ، الزوجات ، الاقمشة ، الرياش ، الاواني ، الجمال الاميركية ، اراضي الاستثمار ، الخ . فنجم عن ذلك تميز بالثروات ، الا ان واحداً لم يملك وسائل النتاج .

منذ السنة ١٤٦٠ قسمت الامبراطورية الى اربع حكومات ، وقسمت كل حكومـة الى

ولايات تضم مقاطعات ، وضمت كل مقاطعة عدة « ايلوات » . يتولى ادارة الحكومة « آبو » يختار من عائلة الامبراطور . رؤساء الحكومات الاربعة يؤلفون مجلس الدولة . ويتولى السلطة في كل ولاية حاكم انكا يميل طبعاً الى جعل منصبه وراثيا ويجمع في شخصه الصلاحيات القضائية والادارية . ويتوزع الوظائف الاخرى ، وراثيـا وبالتسلسل ، « رؤساء الـ ١٠٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ٥٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ١٠٠٠ » ، الخ ، حتى « رؤساء الـ ١٠ » .

الامبراطورية لا تعرف نقداً ولا ضريبة . ولكن الجميع يخضعون للعمل القسري . المواطنون موزعون طبقات بحسب سنهم وطاقتهم على العمل . لا يطلب منهم سوى القيام باعمال صغيرة بعد بلوغهم الخمسين . الجميع ملزمون بالعمل في حقول الحكومة وحقول الكهنة وحقول الجماعة وحقول الجيران . ولهم قدوة في ذلك بالامبراطور ورجال البلاط والرؤساء . ولكن مدة العمل تختلف باختلاف مراتب المجتمع . كل ما لا يترك لاستهلاك الافراد يخزن في مخازن الدولة حيث يجمع كل مـا هو ضروري لاعالة الجيش والنبلاء والموظفين والارامل والشيوخ والمقعـدين والصناعيين وعائلات الجنود المحاربين ، وموظفي البريد وعمـال المناجم ، والشعب كله اذا اجدب الحصاد .

كل مواطن ملزم بالـ « ميتا » ، بالاضافة الى العمل في الحقول . فالحكومة تصادر سنويا هنديا من اصل عشرة . الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٢٠ سنة يستخدمون كعدّائين لنقـل البريد ؛ والرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٥ و ٣٥ سنة يستخدمون في المناجم او المشاريـع العامة الكبرى او فرق المشاة . ويصبح غيرهم خدماً او موظفي ادارة .

يعفى من الميتا والعمل في الحقول الـ « ياناكونا » ، او اعضاء الفئات التاليـة من الصناعيين : النجادة ، الحدادون ، الخزافون ، الصاغة ، صانعو الاسلحـة ، نجـارو الابنوس ، الذين تعيلهم الحكومة . لا يعملون الا في المخازن الامبراطورية ، ويوزع الامبراطور انتاجهم على موظفي الادارة بحسب الخدمات المؤداة .

ولما كان الانتاج يتجاوز الحاجات بصورة عامة ، تعاطى الامبراطور تجارة رسمية كبرى ، وجاز لكل رئيس عائلة مقايضة فائض انتاجه بفائض انتاج سواه . فنجم عن ذلك تفـاوت في الثروات . ولكن هذا التفاوت لم يكن ليتيح الانتقال من طبقة اجتماعية الى طبقة اجتماعيـة اخرى او تملك وسائل الانتاج .

راقب الانتاج والاستهلاك جيش من المفتشين . وكانت العقوبات قاسية جـداً ؛ فيلقى مثلا بالموظف الذي يخالف واجبات منصبه الى الثعابين السامة ؛ ويضرب المواطن الكسول بحجر ثقيل على سلسلته الفقرية .

لم يعتبر الهنود انهم اجروا صفقة رابحة بانتقالهم من حكم الانكا الى الحكم الاسباني . لا ريب في ان حكم الانكا كان استبداديا ، ولكنه حاول ان يكون عادلا وان يوفر لكل فرد ما يحتاج

اليه في حياته . الا ان الهنود اعتبروا الحكم الاسباني أستبداد فاتحين ، ظالماً ، يتذرع بالحرية والملكية والمنافسة ولا يكترث عملياً لرفاهية الفرد ولا لحياته نفسها . ويبدو ان الهنود ، حتى المغلوبين وابناء المغلوبين منهم ، تحسروا على حكم الانكا .

يتبين من كل ما سبق ان الاوروبيين وجدوا امامهم ، في كل مكان ، شعوبا منقسمة بعضها على بعض ، وسائل عملها دون وسائل عملهم ، اضطرت الى الاستسلام عاجلاً ام آجلاً . والشعوب التي تغلب الاسبانيون عليها بسرعة وحققوا في مناطقها حضارة مختلطة يغلب فيها الطابع الاوروبي ، هي بالضبط ابعد الشعوب رقياً وتقدماً ، اي شعوب المكسيك والبيرو التي الفت التنظيم السياسي والخضوع لسلطة حل محلها الاسبانيون ، والتي كانت قبائلها اقل القبائل بعداً عن الاوروبيين عقلية وتفكيراً . اما في المناطق الاخرى فقد برهن الهنود عن عناد في العداء ونفور من كل اندماج . وغالباً ما ادى استيطان الاوروبيين الى افناء مثل هؤلاء الهنود او الى اقصائهم عن مناطقهم .